الدكتور
وديع بشور

الميثولوجيا السورية

أساطير آرام

SYRIAN MYTHOLOGY

طبعة منقحة ومعدلة

إذا نال هذا الكتاب إعجابك، فتذكر أن خلف سطوره مؤلفاً أفنى وقته في صياغته، وناشراً بذل جهده في إيصاله إليك. شراؤك للنسخة الورقية هو صيانةٌ لحقوقهم، وضماناً لاستمرار عطاء المعرفة.

الدكتور وديع بشور

الميثولوجيا السورية

المثيولوجيا السورية

تأليف الدكتور وديع بشور

الطبعة الثالثة

توزيع مكتبة بالميرا اللاذقية شارع 8 آذار
هـ 461888- تلفاكس 041468975
maher.palmyra@net.sy

◆ الحقوق محفوظة

إهداء

إلى روح والدي
الذي كان فخوراً بتراث أمته
إلى آلاف المؤمنين بالتراث
وقد أجهضت نضالهم الدسائس
إلى جميع الذين لم ييأسوا
يشحذهم الأمل لمزيد من العطاء

الأحد 1974/12/15

(احترم مجد المؤسسين القديم
وشيخوخة الإنسان المكرمة
وقداسة المدن العريقة
أدِّ الإكرام للآثار القديمة
والإحترام للأعمال العظيمة
ولا تحقرن الأساطير
لا تعبث بخصوصيات أحد
ولا تزدر شيئاً من مقامه
أو حريته أو مباهاته بذاته
لأنك لم تسبر غور شيء مما ذكر)

بليني

قارئي الكريم

إن دراسة الميثولوجيا والآداب القديمة هي جزء لا يتجزأ من دراسة تراث الأمة وحضارتها ففي هذه الدراسة تجد تطور الأفكار والقيم والعقائد عبر العصور، في تسلسل لا ينقطع ما دامت الحياة لا تنقطع، بل هي تخضع للتطوير والتعديل لتصبح قيم وعقائد المستقبل.

ولأسباب لا يجهلنها أحد لابد من بعض الصعوبات في طرح ما يتعلق بالفكر. فقد تمت كتابة الطبعة الأولى من الميثولوجيا السورية) ثم تنقيحها في 15 كانون أول من عام 1974 ورغم ذلك فإنها لم تر النور حتى عام 1981 حين صدرت عن (دار فكر) في بيروت.

والآن تعاد طباعتها مع زيادات تغني محتوياتها لتصدر في طبعة ثانية عام 1989. وأرجو أن تصدر أيضاً في المستقبل كلما ازدادت معلوماتنا عن التراث عبر الاكتشافات الأثرية ونشرها.

إنه لواجب وطني وقومي أن يساهم جميع العاملين في القضايا الفكرية والتاريخية على إعادة كتابة تاريخنا، لأن لسوريا تاريخاً حضارياً مجيداً يشمل حضارة ما قبل التاريخ والحضارة التاريخية، لذا يجب إعادة كتابة تاريخ سوريا وإعادة تفسير ما عرف منه على ضوء العلوم والمعارف المعاصرة لأن العودة للجذور وتحطيم العوائق الحضارية حافز أساسي لانصهار الأمة وتوحيدها والإنطلاق في دروب التقدم الاجتماعي وردم الشروخ المصطنعة التي تهدد بشرذمة جديدة.

راجياً أن يكون هذا الكتاب التراثي مساهمة متواضعة في هذا السبيل، وأتقدم بالشكر إلى كل من يساهم في تأمين معلومات ومراجع إضافية...

الدكتور وديع بشور

الميثولوجيا

Mythology

إن كلمة ميتوس (Mythos) عند الإغريق تعني حكاية. وكلمة «أسطورة» العربية مقتبسة من كلمة «استوريا» (Historia) اليونانية أيضا وتعني حكاية أو قصة. إلا أن كلمة اسطورة تعني حكاية غير حقيقية أو على عكس الحقيقة بينما الكلمة ذاتها (Historia) تعني «تاريخ» و «لوغوس» الكلمة (Logos) صارت «علم». هكذا أصبحت كلمة ميتوس المترجمة «أسطورة» بعكس «لوغوس» أو «استوريا» تعني شيئا غير موجود في الواقع أي خرافة. وكلمة «ميثولوجيا» تعني علم الأساطير.

ومنذ نصف قرن تقريباً أخذ العلماء الغربيون ينظرون نظرة جديدة، وأخرجوا تعبير «ميتوس» من معناه القديم الذي كان يعني قصة خرافية، وأعادوا له اعتباره وأعطوه معنى يتفق مع نظرة المجتمعات القديمة له ومع فهم تلك المجتمعات لمثل تلك القصص التي عاشتها كقصص (حقيقية) حدثت فعلا، وكقصص «مقدسة» يحتذى بها، أبطالها آلهة، وقوى خلاقة وبشر متفوقون. وبما أنها نتاج التصور البشري وانعكاس لظروف طبيعية واجتماعية، علينا أن نتساءل عن مغزى كل قصة وما هو المقصود منها. لا عن مدى صحتها، أم هل هي حقيقية أم لا.

يقول هوميروس (Homer) وهسيود (Hesiod) إن الآلهة تفعل ما يراه الإنسان منحطاً وقبيحاً ـ كالزنا والسرقة والخداع الخ ـ ....، وهذا ما نفاه زينوفانس (Xenophnaes) «القرن 5-6 ق.م» إذ يرفض أن تكون الآلهة لا أخلاقية. كما رفض رجل متدين مثل بيندار (Pindar) الأسطورة البعيدة عن التصديق. وانتقد أفلاطون (Plato) في «الجمهورية» الشعراء من الطريقة التي يصنفون بها الآلهة.

ورغم النقد بقيت نخبة العالم الهيللينستي (Hellenistic) تهتم بميثولوجية هوميروس وهيسيود. إلا أنه لم يعد يؤخذ بحرفية الحكاية، بل بحث عن المعاني الخفية الكامنة فيها. فارتأى تيوجينس (Theogenes) أن أسماء الآلهة عند هوميروس إنما تمثل ملكات عقلية بشرية أو عناصر من ا لطبيعة. وجاء الرواقيون (Stoics) فطوروا التفسير الرمزي لميثولوجية هوميروس، ولكل التقاليد الدينية بوجه عام. أما خريسيبوس (Chrysippus) فقد رأى بكل بساطة أن الآلهة الإغريقية ليست سوى مفاهيم مادية وأخلاقية. والتفسير الرمزي كأسلوب كان وسيلة فيلو (Philo) لإيضاح ألغاز العهد القديم.

واعتقد أوهميروس (Euhemerus) أنه اكتشف أصل الآلهة ـ أنهم ملوك ألّهوا أي أنهم تاريخيون أو يعودون لعصور ما قبل التاريخ. وهكذا تكون الأسطورة خلط في الذاكرة بين الحقيقة والخيال وهي تدور حول أعمال ملوك قدامى ـ وقد لقي هذا التفسير تقبلاً غير قليل لدى المدافعين عن المسيحية، إذ يبين أن آلهة الإغريق إنما هم بشر تاريخيون لا حقيقة لألوهتهم. وبسبب التفسير المجازي أو الرمزي بقي آلهة وأبطال اليونان في ذكرى الأجيال رغم انتصار المسيحية.

وفي النصف الثاني من القرن /19/ اتخذت دراسة الأساطير طابعاً شعبيا بواسطة مؤلفات ماكس موللر (Max Muller) الذي يرى أن الميثولوجيا هي «مرض لغوي». فبما أنه يمكن أن يكون للشيء الواحد عدة أسماء ولعدة أشياء اسم واحد، فقد حدث خلط بين الأسماء، أي تركيب عدة آلهة في إله واحد أو تقسيم إله واحد إلى عدة آلهة.

أما لانغ (Lang) فيقول بعكس ذلك، إن الأسطورة ليست «مرضاً لغوياً» بل «أنسنة» العناصر الكونية (Personification) وأن هذا المفهوم باق من عهد الأنيمية (Animism) في المعتقد الديني، كما يرى تايلور (Tylor) أن الأنيمية هي المرحلة الأولى في الفكر الديني. وقد بين هوك (Hooke) أن الملك في الشرق الأدنى القديم كان ممثلا للإله وأنه كان محور العبادة أيضاً. وتطور هذا المعتقد حتى أصبح الملك مسؤولاً عن مصير الكون.و هذا المفهوم برأي فيدينغرين (Widengren) قاد فيما بعد إلى فكرة «المخلص» عند الإيرانيين والمسيحيين، و«المسيا» عند اليهود (والمهدي المنتظر عند الشيعة).

إن الاكتشافات المعاصرة ودراسة المجتمعات القديمة تبين أنه بالنسبة للإنسان البدائي كانت الأسطورة تعني قصة حقيقية، بل قصة مقدسة أيضاً لأنها كانت تمثل الحاجات الدينية والحكم الأخلاقية والمتطلبات الاجتماعية. لذا كانت الأسطورة جزءاً حيوياً من الحضارة القائمة وليست مجرد قصة تروى للتسلية، قصة مقدسة أبطالها من فوق الطبيعة والبشر، تفسر الخلق وأصول الأشياء، وما عملت الآلهة إنما هو قدوة للبشر. وجاء تعريف ميرسيا ايلياد (Mircea Eliade) معبراً عن المفهوم الحديث للأسطورة فيقول بأن «الميتوس» يروي «قصة مقدسة» وحادثا وقع في زمن البدء، ويروي كيف أن حقيقة ظهرت للوجود بواسطة أشخاص ليسوا من البشر، سواء أكان ما أتى إلى الوجود هو الكون (Cosmos) أوجزء منه، ولا يروي الميتوس إلا ما حدث فعلاً ويفسر ما هو كائن وموجود فعلاً، لذلك فهو قصة «حقيقية».

والميتوس يتجاوب مع حاجة دينية عميقة وتوق أخلاقي وانضباطات وتحديات ذات صبغة اجتماعية وكذلك مع متطلبات عملية. وفي الحضارات القديمة البدائية يلعب الميتوس دوراً ضرورياً، أنه يعبر عن المعتقدات ويدعمها ويحيلها إلى تشريع. إنه يحمي المثل الأخلاقية ويفرضها كما يضمن جدوى الطقوس الاحتفالية، ويقدم قواعد عملية يضعها تحت تصرف الإنسان. إن الميتوس هو إذن عنصر أساسي لحضارة الإنسان، إنه تشريع حقيقي للديانة البدائية وللحكمة العملية كما يقول مالينوفسكي.

تصنيف الأساطير

1 ــ أساطير عن الخق واصول الأشياء.
2 ــ أساطير عن الآلهة والكائنات السماوية.
3 ــ أساطير عن تعديلات جرت في العالم بعد التكوين.
4 ــ أساطير عن الأجرام السماوية.
5 ــ أساطير تدور حول الأبطال.

1 ــ قصة التكوين البابلية: هي أهم أساطير الخلق، دونت قبل سفر التكوين في التوراة بعدة قرون، والشبه كبير بين القصتين. وليس هذا مجرد صدفة لأن الحياة تسلسل والخلف يرث عن السلف، والميثولوجيا العبرانية أخذت كثيراً عن الميثولوجيتين البابلية والكنعانية. وميتوس الأصول (Origins) تكملة وتطويل لميتوس الخلق كما هو ميتوس المنتهى ودورات الحياة والموت والقيامة. ومن الأمثلة على ميتوس الأصول قصة شقائق النعمان والتوت الرومي في قصتي آدون النعمان وبيرم وتسبين.

2 ــ أساطير الآلهة تتعلق بأسمائها ومرتبالها وقراباتها ومهماتها في الكون، فأبو الآلهة آنو السومري أو ايل الكنعاني لا يلعب دوراً بارزاً في الحياة الدينية بل يذكر على أنه أبو الآلهة فقط، فنرى آنو يتنازل عن الصدارة لمردوخ البابلي أو انليل السومري وإيل يتنازل لبعل. والآلهة الرئيسية مثل ثلاثي آنو وانليل وايا (انكي) أو مردوخ تلعب دورا خلاقا بينما الآلهة الثانوية لم تخلق الكون بل نظمته وساعدت على إبقاء الأمن والخصب فيه، والقيام بمهمات محددة، كالعواصف والأمطار وتفتق البراعم ومحاكمة الأموات إلخ... وحسب البانثيون البابلي فقد قسم مردوخ الآلهة إلى قسمين من ثلاثمائة (300) يسكنون السماء، وثلاثمائة يسكنون الأرض بين الناس.

والديانات المتعددة الآلهة تحوي أساطير متنوعة زاهية الألوان، منها الأساطير العاطفية كأسطورة تموز وأدونيس وكيف يقتل الإله ويندبه الناس ويولولون راجين عودته فيبعث حياً ويعود الخصب وتدب الحياة بعودته. ونزول عشتار إلى الجحيم وزوال الحب والتوالد في غيابها وألمها من أجل البشر الهالكين في الطوفان.

3 ــ ومن أساطير الكواكب، أساطير الشمس والقمر والزهرة (شمش وسين وعشتار) في عدة حضارات، سومرية وآكادية وآرامية وكنعانية، وكذلك إغريقية وهندو ــ أوربية. وإلى جانب قصص الأبطال كم حركت ميثولوجيا الكواكب قرائح الشعراء والأدباء والفنانين فجاءت قصصها جزءاً من الأدب الشعبي عند العديد من الأمم. مثل قصة ولادة «نانا» القمر وحوار عشتار مع جلجامش وثأر عشتار لعورتها. ورحلات شمش حول الأرض يوزع النور والصلاح ويسحق الأشرار. وميثولوجيا القمر أكثر دراماتيكية من الشمس لأن القمر يتغير ويتبدل كل شهر «بينما يقوم بقياس الزمن». وقد رأت بعض الشعوب البدائية في القمر أول إنسان طاله الموت، لكن بالنسبة للمؤمن ليس في الموت النهاية بل بدء طور جديد من الحياة في دورة الحياة.

4 ــ وأساطير الأبطال كثيرة وتدور حول أناس صالحين مثل بطل الطوفان البابلي «اوتنابشتيم» (نوح التوراة). وأدبا بطل «سقوط الإنسان»، أو ملوك نصف أسطوريين لعبوا دوراً فوق أدوار البشر العاديين، مثل ايتانا الذي حاول الصعود إلى السماء، وجلجامش ملك اوروك السومري في مغامراته ضد الشر والموت بحثاً عن عشبة الحياة، أو سرجون الآكادي باني أول امبراطورية سامية حضرت لوحدة سوريا التاريخية، والذي انتشل طفلاً من الماء قبل انتشال موسى الطفل بألف سنة، أو كيرت الكنعاني الذي انحرف عن سبيل الآلهة في تطبيق العدالة وإنصاف الأرملة واليتيم فكان عليه أن يموت كباقي البشر رغم كونه ابن ايل.

ودراسة الأساطير ضرورية لفهم بدء الأدب والتاريخ والدين. وإنه لمن السطحية الفكرية والسخف أن ننظر إلى الأسطورة على أنها مجرد خرافة تروى للتسلية. لأن الأسطورة هي أدب وتاريخ ودين وهي تمثل البداية في هذه النشاطات الفكرية وتدوينها.

الأسطورة والأدب:

تدخل الأسطورة في مجال الأدب القصصي النثري والملحمي.و نجد في الملاحم السورية القديمة أقدم شعر ملحمي سبق ملاحم اليونان بنحو ألف سنة. وأعظم ما ترك لنا الأدب البابلي ملحمتي الخلق وجلجامش، بينما ترك لنا الأدب الكنعاني ملحمة كرت واقهت وأشعار بعل وعناة.

ولم تكن الأسطورة تروى فقط كشعر أو نثر بل دخلت بعض الأساطير مجال التمثيل والدراما فملحمة الخلق «اينوما ايليش» كانت تتلى في أعياد رأس السنة «الاكيتو» وبنفس الوقت يقوم الملك بتمثيل دور مردوخ، يقوم ليحارب تنين الشر «تيامات»، كما كانت تنتزع منه شارات الملك ثم تعاد إليه في تمثيلية يقوم بها مع الكاهن. وقصة أدونيس وعشتار كانت تمثل في جبيل في الأدونيات وهذه إشارات واضحة إلى أن الملاحم والدراما ظهرت في سورية قبل ظهورها عند الإغريق بزمن بعيد.

الأسطورة والتاريخ:

منذ بدأ الانسان يقص على أبنائه قصص أسلافه ممزوجة بالخيال والمعتقدات والأساطير، بدأ التاريخ يظهر للوجود في صورته البدائية. إلا أن التاريخ بالشكل العلمي المعاصر ليس مجرد جرد للحوادث الغابرة، وتمجيد الأبطال والأمم، بل دراسة للوصول إلى الحقيقة التاريخية وجمع الأصول التاريخية. وليس المقصود بالحقيقة التاريخية الحقيقة المطلقة لأن هذا ليس ممكناً لأسباب كثيرة متداخلة وتبقى الحقيقة التاريخية نسبية، كلما زاد الصدق فيها أصبح التاريخ صحيحاً، وأما بشكله القديم فكان التاريخ يختلط بالأسطورة، لأن الأسطورة التي ننعتها الآن بأنها خرافة كانت بالنسبة للمجتمعات القديمة حقيقةمقدسة كما مر، أبطالها ملوك وآلهة، ولم ترد على أنها مجرد خرافة وهي بالفعل ليست كذلك.

وهناك أشخاص وحوادث «نصف تاريخيين» تناقلت الأجيال قصصهم شفوياً دون تدوين، ومع التناقل كان يضاف إليها في كل مرة حفنة من خيال. ومع ذلك بقي فيها شيء من الحقيقة التاريخية. فهل كان تموز ملكاً أو وهماً؟ وكذلك ايتانا وجلجامش وكرت ودانيل، هل كان إبرام (ابراهيم) شيخ عشيرة حيكت حوله قصص يهوه ووعوده، أم كان مجرد رمز أو أنسنة لاسم عشيرة؟ وهل رأى موسى يهوه في طور سينا أما أنه رأى بركاناً؟ هل قصة الطوفان حقيقة اتسع خيال الواصفين لها أم أنها لم تحدث أبداً رغم ورودها في كافة الميثولوجيات؟.

إن الأسطورة نوع من الأدب القصصي تكيفه العواطف والأحلام والأماني والمفاهيم والمعتقدات الدينية. ليس التاريخ حقائق مجردة فقط ولا الأسطورة خرافة مجردة فقط،

وبقي الأمر كذلك رغم اختراع الكتابة والتدوين وبقيت الحقائق نسبية فقط. ولا يزال تاريخ القادة والأمم، خاصة ذو الطابع الديني، كتاريخ الخلفاء والأباطرة والامبراطوريات التي حكمت باسم الدين ينقصه كثير من كشف الحقائق المطموسة، إذ عمدت المؤسسات القائمة إلى اختلاق المآثر وطمس المخازي أو العكس حسبما اقتضت مصالح الحاكمين. فزور التاريخ بشكل خلق المصاعب الجمة أمام الباحث عن الحقيقة. وعلى كل حال فستبقى الأسطورة أحد مصادر الاستدلال في البحث التاريخي وإن لم تكن هي التاريخ.

الأسطورة والدين:

لم تنبت مدرسة فكرية من العدم (Exnihilo) ولم تكن أي الأفكار مجرد طفرة في التاريخ. بل كل واحدة ورثت من السلف وأورثت الخلف، تأثرت بما سبقها وما عاصرها كما دخلتها يد التعديل فيما بعد متأثرة بالمدارس اللاحقة وبالزمان والمكان.

والفكر الميثي قد أغنى بشكل كبير تاريخ الفكر الديني وهو متأصل في الإنسان المؤمن بمفهومنا الديني المعاصر، وفي الإنسان غير المؤمن ولا يزال يفعل فيهما معا في مجالات عديدة ومختلفة. وإن طبيعة الإنسان الدينية أو كونه إنسانا متدينا (Homo Rligiosus) لم تتبدل سواء كان هذا الإنسان مؤمنا أم ملحداً وإن كثيراً من تصرفات الإنسان المعاصر يمكن تفسيرها على أساس العقلية الميتية التي اكتسبها عبر العصور.

إن دراسة الأساطير تلقي الضوء على الأصول التاريخية لكثير من مفاهيمنا الدينية والاجتماعية المعاصرة. ويمكن القول بأن الأسطورة هي الدين البدائي. والقيم الإنسانية والأخلاقية لم تبدأ حديثا ولا منذ ألفي سنة ق.م فقط. وكذلك الإصلاح الاجتماعي والوحي من وراء الطبيعة والنبوة، كما أنها جميعاً لم تنته.

باسم الإله ننغرسو قام اوروكاجينا نحو (2375 ق.م) بأول انقلاب اجتماعي في تاريخ الشرق الأدنى والعالم، ألغى الرق وأطلق الحرية، وحمى الأرامل واليتامى وأجبر الكهنة على التخلي عن ممتلكاتهم الخاصة لصالح الإله، وخفض رسومهم على مراسيم الدفن والزواج، وحمى الضعيف من القوي والفقير من الغني. والجدير بالذكر أن إصلاح اوروكاجينا قام باسم الدين ضد رجال الدين الذين استغلوا الدين، وفي وثيقة إصلاحه ترد كلمة «الحرية» (امارجي) لأول مرة في التاريخ.

نجد الدعوة ضد الغرور والتسلط، وإلى التمسك بالطهارة وخدمة الشعب والأيتام وإنقاذ الأرض من الشر، في ملحمة جلجامش، كما نجد خوف الإنسان الأبدي من الموت وبحثه عن الخلود دون جدوى، وتخليد الذكرى بالعمل الصالح.

وفي قصة دانيل وكيرت الكنعانيين نجد موعظة لكل حاكم. دانيل الرفائي «يقف عند الباب وعلى البيادر ليرعى الأرملة ويحمي اليتيم ويقف إلى جانب المظلومين، لأن من يمارس العدل يجد الخير ويستجلب البركة الإلهية على نفسه وعلى حقوله». وكيرت أيضا رغم كونه ابن ايل «أبي الآلهة» و«أبو السنين» لأنه انحرف مع الزمن عن السراط

المستقيم وأخطأ العدالة، صار عليه أن يموت من أجـل خطيئتـه، لأنـه خـان الأمانـة الـتي وضعها الله في عنقه وهي أن يعم العدل على الأرض أو على الأقل في مملكته.

ونجد في رسالة عليان بعل محبة وسلاماً حين يقول:

«الحرب على الأرض مخالفة لمشيئتي
بلقاح المحبة لقحي التراب
اسكبي السلام في كبد الأرض
وأفكار المحبة فوق الحقول»

من جهة أخرى دخلت الأسطورة الرمزيـة (Symbolism) في جميـع الكتـب المقدسـة. وآثار أوغاريت شهادة دامغة على أن العهد القديم كنز حفظـت فيـه آداب كنعـان خاصـة و«آرام» عامة. إن تأثير الميثولوجيـا الســومرية ــ البابليـة والكنعانيـة ــ الآراميـة وحـتى الفارسية والهندو أوروبية لظاهر في كافة الكتب.

وفي دراسة تطور الفكر اللاهوتي من البوليثيـة «تعـدد الآلهـة» إلى الهينوئيـة «زعامـة أحـد الآلهـة عليهـا» إلى المونوئيـة «التوحيـد» (Politheism, Heno theism, Mono theism) نجد المرحلتين الأولى والثانية في أسـاطير بابـل، كمـا نجـد أن إبـراهيم وموسـى وداود وسليمان لم يكونوا موحدين بل هينوئيين وأن الـنبي عـاموس نحـو (750 ق.م) كـان أول موحد.

هكذا نجد في الأساطير أفكار العدالة والأمانة والخطيئة والمحبـة والسـلام، هـذه المفـاهيم التي طورت بشكل جذري في الوصايا العشـر، ثم أتـت المسـيحية وموعظـة المسـيح علـى الجبل فتسامت بها إلى حدث يفوق مستوى البشر.

الهلال الخصيب

تتألف منطقة الشرق الأدنى من جزئين مختلفين، هما الصحراء السورية (بادية الشام) في الوسط، يحيط بها من الغرب والشمال والشرق سلاسل جبلية تتصل بها الهضاب السورية والأناضولية والإيرانية. ويربط البادية بسلاسل الجبال هذه، أراض خصبة تنال ما يكفيها من مياه المطار والأنهر، وتمتد على شكل هلال قرنه الشرقي على الخليج العربي (الفارسي) وقرنه الغربي على حدود مصر وشماله سلسلة جبال طوروس.

في هذه المنطقة الصغيرة نسبياً تلتقي مختلف المظاهر الطبيعية والطبوغرافية من صحراء وجبال ومستنقعات وسهول خصبة وبحار وأنهار. وفيها كان مهد أول حضارة في العالم. وقد كشف عن وجود قرى زراعية وأقنية ري حدد عمرها بالكربون المشع، تعود إلى الألف الثامن أو التاسع ق.م.

في هذه البلاد التي سميت أيضاً آرام (سوريا والعراق) بسبب انتشار الممالك الآرامية فيها وبسبب وحدتها اللغوية على أساس الآرامية منذ القرن الخامس ق.م. شعوب عديدة تفاعلت منذ القديم، شعوب مختلفة العنصر واللغة، كان هدفها جميعاً الاستيلاء على هذه المنطقة الخصبة، فتفاعلت هذه الشعوب وساهمت جميعها في إنشاء أقدم حضارة. وأقدم الحضارات حضارة سومر (شومر) في سهل شنعار ــ جنوب ما بين النهرين.

إن تقدير الفترات الزمنية لما قبل التاريخ بشكل صحيح ينتظر نتائج الفحوص بالفحم المشع، لذا تقدر الفترات التاريخية القديمة بشكل تقريبي لحد الآن وحسب الطبقات السكنية مع ربط كافة المعلومات التاريخية وتنسيقها. ويقدر بأن عصر تل حسونة وتل حلف يشمل الألف 5 ق.م. بكامله. بينما عصر تل العبيد يشمل القرون السبعة الأولى من الألف 4 ق.م. ثم عصر فجر التاريخ في اوروك (الوركاء) من (3300–3100 ق.م) ثم عصر الكتابة (3100–2800 ق.م) لكن تحديد التواريخ في عصر فجر التاريخ أسهل من العصور السابقة بسبب مقارنتها مع نظيراتها في سوريا ومصر.

وحضارة فجر التاريخ شملت تسارعاً في التقدم الحضاري. وفي هذا العصر برزت الحضارة السومرية التي شملت جنوب العراق القديم، بينما بقي الشمال متخلفاً نسبياً. ففي الجنوب ظهرت القرى حول المعابد ونشأت مختلف الحرف وتطورت بعض هذه القرى وأصبحت مدناً مزدهرة. وقد رافق هذا تطور حضارة الأنهر في مصر والهند والصين.

لقد سكن الإنسان القديم بلاد الهلال الخصيب منذ أقدم العصور فيما قبل التاريخ ويدل هلى ذلك الآثار في الكهوف والتلول وبقايا المدن الدارسة في مختلف المناطق. وأقدم فأس صوانية وجدت تعود للعصر الحجري القديم لنحو (150) ألف سنة. كما وجدت أدوات تعود لذلك العصر في عدلون وجبل الكرمل وأم قطافة والزطية وجسر بنات يعقوب وأوغاريت. ويفترض بأن البشر الذين تركوا تلك الآثار البدائية كانوا من الجنس الأبيض وسكنوا المغاور. في تلك العصور كانت أوروبا ترزح تحت طبقات سميكة من الجليد. وبقي الشرق الأدنى مسرحاً لتطور الإنسان القديم. لذا بدأت الزراعة هنا قبل أوروبا بنحو 6 آلاف من السنين.

لكن أقدم بقايا للعظام البشرية تعود لأواسط العصر الحجري القديم وقد وجدت في مغاور جبل الكرمل والناصرة وطبريا وتعود لنحو (100) ألف عام. وتشكل أوصاف الهياكل العظمية حلقة بين إنسان نيندرتال والإنسان المعاصر. كما وجدت بقايا في كهوف انطلياس ونهر الكلب وطبريا تعود لأواخر العصر الحجري القديم. وتبين من تنقيبات كسار عقيل قرب انطلياس عام (1938 و 1948) عن وجود سكن بشري متواصل في وادي انطلياس منذ (30) ألف عام. وتطور أجدادنا القدماء إلى أن دخلوا العصر الحجري الوسيط نحو (12000) سنة ق.م. بتحسين معداهم الحجرية وتهذيبها ودام هذا العصر نحو (6000) سنة. وكان الكلب قد دجن كما وجدت قرب أريحا صور لحيوانات مدجنة تعود إلى الألف (6) ق.م. منها البقر والماعز والغنم والخنازير. ويفترض هذا، الانتقال من حياة تعتمد على الصيد إلى حياة تعتمد على الرعي قبل الانتقال إلى عصر الزراعة.

والسوريون القدماء هم أول شعب تعاطى الزراعة وأخذ في الاستقرار في مستوطنات زراعية. وكان هذا في العصر الحجري الوسيط عندما أخذ الإنسان يترح من الكهوف إلى البيوت المصنوعة من الطين والآجر والخشب. وأقدم مستوطنات زراعية ظهرت في التاريخ كانت في سوريا وتعود للألف (8 و9)ق.م. ومن أقدم مراكز السكن البشري في العالم، أريحا وتل الجديدة وأوغاريت وجبيل وجميعها تعود لنحو (5000) ق.م. وقد قدر عمر المستوطنات الزراعية في موقع تل المريبط على الفرات بنحو (9000) ق.م.

وفي العصر الحجري الوسيط بدأت العبادة والإيمان بالآلهة، ويرجح أن الرعاة أول ما عبدوا إله القمر كما يرجح أن مقام أريحا العائد لأواخر الألف 6 ق.م. قد كرس لإله القمر، فاسم أريحا «يريحو» يعني مدينة القمر. وقد سبقت عبادة القمر عبادة الشمس وآلهة الخصب، كما بدأ تكوين العائلة وتماسكها كما هي حالياً نحو (5000)ق.م.

ثم جاء العصر الحجري الحديث نحو (6000) ق.م. ودام ألفي سنة وحصل فيه تقدم ملحوظ في ميادين الزراعة وتربية الحيوان واستعمال الأدوات الحجرية، وفيه اكتشف المعدن واخترع الفخار نحو (5000) ق.م. في أريحا والجزيرة. كما اخترع دولاب الفاخوري نحو (4000)ق.م. وفي الألف 4 ق.م. انتشر استعمال النحاس، ولألف عام عرفت «بالعصر الحجري النحاسي» وآثاره بارزة في أوغاريت وتليلات الغسول في فلسطين، إلى أن دخل الإنسان العصر النحاسي نحو (3000)ق.م. وكما في العصر الحجري الحديث كذلك في العصر الحجري النحاسي كان شمال سوريا مركز الحضارة في في الشرق الأدنى، وعاصر النحاس ظهور الكتابة وبدء العصور التاريخية، وبعد ذلك اكتشف الحديد. وكان سكان تلك العصور القديمة غير ساميين كما يستدل من الهياكل العظيمة. كما أن أسماء مدن قديمة مثل دمشق وتدمر غير سامية وربما كانت من بقايا الأسماء قبل ظهور الساميين على المسرح السوري، وهذا أيضاً ينطبق على شعب وحضارة سومر.

السومريون:

هم شعب غير سامي استوطن القرن الشرقي للهلال الخصيب أي سهل شنعار الذي عرف باسم بلاد سومر أو شومر. ومن غير الواضح كيف وصلوا إلى تلك الأرض

لاستيطانها بل ترجح أنهم أحد شعوب الشرق الأدنى القديم التي كانت منذ العصر الحجري الحديث والعصر الحجري النحاسي أو قبل ذلك، أي أنهم كانوا دائماً في جنوب العراق منذ أقدم الأزمنة ومن قبل العصور التاريخية، بل الأرجح أنهم أقدم شعب في سوريا والعراق قبل الساميين. ويستدل أنه منذ فجر التاريخ عاشت ثلاثة شعوب متقاربة في تلك المناطق: السومريون في الجنوب والآكاديون الساميون في الشمال وعنصر ثالث لم تحدد هويته بعد.

انتزعت سومر القيادة الفكرية والحضارية في بلاد الهلال الخصيب (آرام) في أواخر الألف (4) ق.م. وسبقت مصر في خلق أول حضارة مزدهرة تكمن فيها بذور تاريخية. لقد وفق السومريون في الأف (4) ق.م. إلى فكرة الكتابة على ألواح الطين بدافع من حاجاتهم الاقتصادية والإدارية. بدأوا بالكتابة التصويرية ثم اخترعوا الكتابة المسمارية من (350) كلمة أو مقطعاً واقتبس الكنعانيون والحثيون والبابليون والفرس هذه الكتابة وبقيت إلى أن اخترع الكنعانيون الأبجدية في القرن (13) ق.م. إن ما حققه أولئك السكان القلائل في مجالات الفكر والاقتصاد والسياسة والهندسة والدين والأدب تجلت بتأسيس دولة الاله المتمركزة في مدينة المعبد وذلك كتجسيد للإيمان بالقوى الخفية، المنطلق من فلسفة دينية ثابتة تشمل الفرد والجماعة على حد سواء والتي وجدت تعبيرها في العمارة الضخمة (الزيقورات) والفنون الجديدة).

والباحث السومري يستطيع أكثر من معظم العلماء والمختصين أن يشبع هدف الإنسان في بحثه الدائم المتطلع عن «أصول الأشياء» أو بعبارة أخرى «أوائل الأشياء» في تاريخ الحضارة، أي أوائل المثل والأخلاق والدين والتراتيل الدينية والأساطير والقصص والملاحم. كذلك أوائل السياسة والحرب النفسية والاجتماع والفلسفة والقوانين، وأيضا أول تشريع وأو الإصلاحات الاجتماعية وأول برلمان وأول مكتبة وأول مدرسة وأول ذكر للحرية «أمارجي» وأول أغنية حب (وهناك حقيقة غريبة وهي أنه قبل قرن مضى لم يكن أحد يعرف أي شيء حتى عن وجود هؤلاء السومريين في ا لعصور القديمة). والمنقبون الذين اكتشفوا السومريين لم يكونوا يبحثون عن آثارهم بل عن آثار البابليين والآشوريين الذين اشتهروا في التوراة والتاريخ القديم. لأن اسم «سومر» ذاته كان قد أمحى من فكر الإنسان ومن ذاكرته طوال أكثر من ألفي عام، بينما أعمالهم قد أثرت في ا لمضمار الحضاري على بلدان الشرق الأدنى لآلاف السنين.

يتبين من النصوص السومرية حول نظام الدولة بأن كل الأراضي وما يعيش عليها من حيوان ونبات كانت ملكا لآلهة المدينة ـــ الدولة. وخليفة هذا الإله الأكبر على الأرض هو الملك (لوجال).

بدأت العصور الأولى في اوروك (الورقاء) في مطلع الف (3) ق.م. وهي التي عرفت في التوراة باسم «أرخ». تألفت اوروك في عصورها الأولى من منطقتين اندمجتا فيما بعد سلمياً أو حربيا. ضمت المنطقة الأولى معبد «آنو» إله السماء ويقع على مصطبة عالية، وهي نموذج لما عرف فيما بعد باسم «الزيقورة». والمنطقة الثانية ضمت معبد «انانا» (عشتار) آلهة الأمومة والجنس. بعد سلالة اوروك الأولى تأتي سلالة أور الأولى زمنياً وفيها معبد إله القمر «نانا» (سين) وقد ورد اسم الملك ميشا نيبادا كأول حاكم فيها.

لقد بقيت مدينة أوروك قائمة من عصر ما قبل التاريخ حتى العصرين السلوقي والفرثي، ومن كتاباتها الرموز التي ترمز إلى العربة والسفينة والمحراث وبعض أنواع الحيوان والنبات. كما عرف أهلها صقل الحجر وصنع الأختام، كما عرفوا نظام المدينة ـ الدولة وحاكمها «لوجال» أو الرجل العظيم وهو خليفة الله على الأرض.

وبعد ذلك يأتي عصر جمدة نصر أو أوروك الطبقة الثالثة وفيه اكتشفت الأختام المسطحة، كما تم انتشار حضارة سومر إلى جاراتها، ثم يأتي عصر «ميسيليم» ملك كيش الأم القديمة لبابل، وفيه تعدل فن البناء فاتخذ المعبد شكل صالة مستطيلة، ويستند المذبح إل الضلع القصير بينما المدخل يقع في الضلع الطويل بعيداً عن المذبح، وكان هناك غرفة للكهنة «قدس الأقداس».

الدولة ـ المدينة السومرية :

وكانت سومر بلاداً صغيرة، مساحتها نحو (25) ألف كم2. وتتركز الحياة فيها حول الأنهر والأقنية. كان الفرات يجري إلى الشرق أكثر مما هو عليه الآن، وفي ذلك الجزء الجنوبي من منطقة بغداد وحتى الخليج الفارسي بين النهرين العظيمين دجلة والفرات كانت تمتد شومر.

ورغم صغرها كانت سومر مجزأة إلى وحدات سياسية دينية هي الدول_المدن وكانت كل من هذه الدول المدن مؤلفة من المدينة العاصمة مع ضواحيها من بلدات وقرى وبساتين وكروم وغابات النخيل والمراعي. وكان في وسط كل مدينة معبد مخصص لإلهها الخاص الذي لم يكن يحمي المدينة وحسب بل كان يملكها أرضاً وسكاناً. وكان السكان أحراراً وعبيداً، إلا أن العبيد كانوا قلة ولم يلعبوا دوراً هاماً في الحياة الاقتصادية. وكان لكل معبد أوقافه التي يستثمرها القائمون على خدمته. وقد قسمت الأرض المغروسة إلى ثلاثة أنواع:

1 ـ «أرض الرب» (جانا ـ ني ـ اين ـ نا) ويعمل فيها كل المجتمع من أجل المعبد.

2 ـ «أرض القوت» (جانا ـ كو ـ را) وهي من نصيب القائمين على المعبد لإعالتهم.

3 ـ «أرض المحراث» (جانا ـ ابين ـ لا) وتسلم للمرابعين بالحصة التي تتراوح بين 7/1 ـ 8/1 من المحصول.

وكانت محاصيل المعابد وفيرة، يعاد توزيع قسم منها، ويخزن قسم منها تحسباً للمجاعات كما يقايض على قسم آخر مقابل سلع أجنبية. وكان هذا يتطلب مسك الدفاتر والإدارة والتنظيم لكل شكل من أشكال التنظيم والإنتاج، فكان أسلوب توزيع المحاصيل أشبه بمشاعية تيوقراطية.

وفي بدء الملكية شملت سومر ثلاث عشرة مدينة ـ دولة، هي من الشمال إلى الجنوب، سيبار وإلهها اوتو (شمش)، كيش وآلهتها نينهورساج (نينماخ)، أكشاك ولاراك ونيبور مدينة الإله «انليل» سيد البلدان وملك الالهة وسيد الرياح، أدب وآلهتها «نينماخ» أيضاً، أوما وإلهها «شارا»، لغش (لجش) وإلهها «نينغرسو»، باد ـ تيبيرا وإلهها دوموزي (تموز)، أوروك وإلهتها «أنانا» (عشتار) لارسا وإلهها اوتو أيضاً، أور (أور الكلدانيين) وإلهها نانا (سين القمر، وأريدو وإلهها انكي (أيا) إله المياه العذبة وإله الحكمة.

وفوق رئيس الكهنة (شنجا) يأتي حاكم الدولة أو الراعي الذي يختاره إله المدينة. والحاكم هو «انزي» والملك «لوجال»، الحاكم يدير أملاك الإله ويحكم الدولة باسمه، له القيادة والعدل ورئاسة الكهنة وإدارة الأشغال العامة، وأقدس أعماله بناء وصيانة المعابد لأن «الإنسان خلق كي يخدم الآلهة». وتدل مقابر أور (2650 ق.م) أن حاشية الملك كانت تدفن معه، مع الآلات الموسيقية والطعام والشراب والأسلحة والأواني الذهبية، الخ...

لم يستطع السومريون أن يوحدوا بلادهم، فقد كانت المنازعات قائمة دائماً بين سلالات المدن الرئيسية من أجل السلطة و«الجشع من أجل السلطة يفسد حتى عالم الآلهة» وهناك دلائل على أن الملكية بدأت في كيش وكان ملكها نحو 2700 ق.م. «إن مي براج سي» وقيل أنه هو الذي بنى معبد انليل في نيبور التي أصبحت العاصمة الدينية لكل سومر، وكان حكام المدن يقدمون الهدايا النفيسة في معبد انليل إلى أن أصبح اختيارهم هم بالذات يجري في نيبور كي يعترف رعاياهم بهم.

وقد بقيت الهيمنة من نصيب كيش حتى انتزعت أور قيادة سومر أيام ملكها «ميشانيبادا» ولمدة قرن من الزمان، ثم سيطر العيلاميون وسلالتا عوان وهمازي الأجنبيتان على قسم من سومر لكن «اياناتوم» انزي لغش نحو 2550 ق.م. طرد العيلاميين واحتل أور وأوروك وأصبح هو ملك كيش، وبعد وفاته هيمنت كل من أوروك ثم أدب ثم ماري على بلاد سومر ثم قام ميثاق بين لغش وأور وأوروك. لكن الأوضاع سرعان ما تدهورت في لغش، وقام كهنة الإله «نينغرسو» واستولوا على السلطة لمدة عشرين عاماً، وأخذوا يستغلون سلطتهم الدينية على حساب الإله وعبيده فكان انقلاب «أوروكاجينا» انزي لغش نحو 2375 ق.م. هو أول إصلاح اجتماعي في التاريخ، قام بتخفيض الضرائب ومنع تسلط الجباة واللصوص ورجال الدين والأقوياء على الضعفاء وتعهد «بأنه لن يسمح بأن يقع اليتامى والأرامل فريسة ظلم الأقوياء» ولأول مرة في التاريخ تظهر كلمة الحرية «أمارجي» في وثيقة عندما مكن أوروكاجينا «حرية المواطنين» في لغش.

إلا أن حكم المصلح أوروكاجينا لم يدم سوى ثماني سنوات إذ هزمه «لوجال ـ زاغيري» أنزي أوما وقام باحتلال كل عواصم سومر، ويدعي بأنه احتل كل العراق وسوريا من «البحر الأسفل» إلى «البحر الأعلى» (والبحر الأسفل هو الخليج الفارسي والبحر الأعلى هو المتوسط) فكان بدء الامبراطوريات بتأسيس أول امبراطورية عظمى في الشرق الأدنى، وكانت أوروك عاصمته ودام حكمه 25 سنة. ثم تغلب عليه سرجون الآكادي (شاروكين) الذي بنى أول إمبراطورية سامية وشملت كل الهلال الخصيب ودام حكمه خمسين سنة من 2350 ـ 2300 ق.م. وبذلك بدات سيطرة الساميين.

الآكاديون:

هم شعب سامي جاور السومريين نحو 3500 ق.م. وقد أقاموا أول امبراطورية سامية شملت كل الهلال الخصيب بقيادة سرجون الآكادي ودامت من (2350 - 2230) ق.م.

أخـذ الآكـاديون يتعلمـون حضـارة السـومريين دون لغتـهم، فكانـت حضـارة الامبراطورية الآكادية سومرية أما اللغة السامية فقد حلت محل اللغـة السـومرية الـتي بقيـت لغة العبادة. وبقيت اللغة الآكادية بلهجتيها _الآشـورية في الشـمال والبابليـة في ا الجنـوب_ لغة العراق نحو (3000) سنة حـتى حلـت محلـها الآراميـة نحـو (500) ق.م. ، وفي سـنة (732) ق.م. عندما سقطت آرام ــ دمشق في أيدي الآشـوريين ولم يبـق أي خطـر آرامـي على آشور، أعلنت آشور اللغة الآرامية المنتشـرة في الهـلال الخصيـب كلـه، لغـة الدولـة والشعب الرسمية. وبقيام الامبراطورية الكلدانيـة (612)ق.م. انـدثرت اللغـة الآكاديـة إلى أن أعيد اكتشاف نصوصها في القرن (19) ب.م.

إن أهمية الامبراطورية الآكادية ليس في إبداعها بـل في تعميمهـا لحضـارة سـومر علـى الهلال الخصيب كله، بتفاعلها مع غربة وبتعمـيم اللغـة السـامية في نفـس المنطقـة، فكـان ذلك أول تفاعل عنصري وحضاري بين شعوب الهلال الخصيب القديمة.

الآموريون:

هم الساميون الغربيون بالنسبة للبـابليين، والكنعـانيون الشـرقيون بالنسـبة لكنعـاني الساحل السوري. استوطن الآموريـون سـوريا نحـو (2500) ق.م. فـدعيت آمـورو. وفي القرن (20) ق.م. انتقل الآموريـون مـن البـدواة إلى الاسـتقرار والزراعـة وأقـاموا بـين (2000-1600) ق.م. عدة إمارات في سوريا والعراق، في مـاري وحلـب وحـران وجبيـل وقطنا، وكان أعظمها جميعاً سلالة بابل التي برز منـها حمـورابي (أمـورابي) المشـرع الكـبير الذي عاد فوحد الهلال الخصيب. ثم فقد الآموريون سيطرتهم علـى بابـل إذ نهبـها الحثيـون (1595) ق.م. ثم انسـحبوا منـها وحـل محلـهم الكاشـيون (1595-1162) ق.م. وكـان عصرهم عصراً مظلماً في تاريخ بابل.

وأخـيراً بـين (1100 - 500)ق.م. أخـذ الآمـوريين يفقـدون هويتـهم الخاصـة وينصهرون مع باقي شعوب سوريا القديمة في شعب واحـد ولغـة واحـدة. ولغـة الآمـوريين لا تختلف إلا في اللهجة عن الكنعانية لكنهم في بابل تبنـوا اللغـة الآكاديـة وعبـدوا قـوى الطبيعة وطوروا المفهوم الديني من البوليثية إلى الهينوثية وهـي خطـوة نحـو التوحيـد. كمـا طوروا أدب الملاحم السومري وغيروا أسماء الآلهة السـومرية إلى أسمـاء سـامية، كمـا فعـل الآكاديون في ملحمتي الخلق وجلجامش.

وبعد نحو (500) عام من ظهور بابل ظهـر الآشـوريون علـى مسـرح الشـرق الأدنى، وهم سـاميون سـكنوا شمـال بـلاد الرافـدين وأصبحوا قـوة رئيسـية بـين (1360 – 1200)ق.م. وتكلموا الآكادية. وكما رأس البـابليون مـردوخ علـى مجمـع الآلهـة، رأس الآشوريون آشور على مجمعهم. وفي أيـام سـرجون الثـاني (721) ق.م. غـزا الآشـوريون السامرة ودمروا مملكة إسرائيل (الأسباط العشرة) وسبوا 7% فقـط مـن سـكانها ونقلـوهم إلى بلاد مادي Media، ودامت الامبراطورية حـتى سـقوط نينـوى (612)ق.م. علـى يـد الكلدانيين والماديين.

الكنعانيون:

شعب سامي استوطن الساحل السوري وبنى معظم مدنه كصور وصيدون وأرواد وأورشليم وأريحا، ثم بنوا المستوطنات التجارية حول المتوسط فجعلوه بحيرة كنعانية. وكانت أعظم مدنهم في أفريقيا «قرطاجة» التي أسسوها نحو (814) ق.م.

إن الكنعانيين والآموريين من عنصر واحد وهجرة واحدة، لكن الكنعانيين سموا كذلك نسبة لـ «الكنع» أي الصباغ الأرجواني الذي استخرجوه من صدف الموركس. ثم عرف كنعانيو ساحل سوريا الشمالي باسم «فينيقيين» أو «فونيكي» وهو الاسم الذي أطلقه عليهم الإغريق نحو (1200) ق.م. نسبة للأرجوان أيضا. وتقصد التوراة بـ «أرض كنعان» جنوب سوريا الذي عرف باسم فلسطين فيما بعد، لكن أرض كنعان في الحقيقة كانت تشمل كل الساحل السوري وقسماً من الداخل وقسماً من كيليكيا وقبرص. لم يبن الكنعانيون إمبراطورية لهم بل اتبعوا نظام الدولة ـ المدينة كالسومريين على ما في هذا النظام من الهزال السياسي والعسكري، فانتهجوا العمل السلمي في التجارة والملاحة والصناعة والتعدين. وقد أبحر الكنعانيون إلى المحيط الأطلسي من مضيق جبل طارق وحول أفريقيا من عصيون ـ جبر (إيلات) على البحر الأحمر ووصلوا إلى أميركا قبل كولومبوس بحوالي ألفي عام، وقد اخترع الكنعانيون الأبجدية في القرن «13»ق.م. مما سهل نقل وتخزين الفكر الإنساني. واقتبسها عنهم الإغريق ونشروها في أوروبا في القرن 9 ق.م. كما اقتبسها الآراميون ونشروها في الشرق، واقتبس العبرانيون «شفة كنعان» أي العبرية وحفظوا الأدب الكنعاني في كتاباتهم المقدسة، ولم تعرف حقيقة التوراة «التوراة الكنعانية» حتى اكتشفت أوغاريت عام (1929).

إن الآداب الكنعانية لم تحفظ بسبب كتابتها على أوراق البردي المستورد من مصر نحو (1100) ق.م. وتلف البردي في المناخ الرطب، إن آداب أوغاريت الكنعانية (القرن 14 ق.م.) حفظت على ألواح الآجر بأبجدية مسمارية من ثلاثين حرفاً، فكت رموزها فكشفت آداب كنعان وملاحمها، وألقي الضوء على بعض نصوص العهد القديم الممهورة بالختم اليهودي.

الآراميون:

قبائل سامية اجتاحت سوريا نحو (1500) ق.م. وحلت مكان الآموريين واتبعت نظام الدولة ـ المدينة، وفي نهاية القرن 13 ق.م. نهضت الولايات الآرامية الأولى فيما بين النهرين وأشهرها «آرام نهرايم» بين الفرات والخابور «وفدان آرام» المتمركزة حول حران والتي أصبحت من أهم مراكز الثقافة الآرامية خاصة في عهد صابئة حران فيما بعد. ومنها تزوج يعقوب زوجاته الأربع، فبدأت الأسباط وكانت من أصل آرامي. وأهم ممالك الارامين في سوريا «آرام صوبة» في البقاع التي هزمها داود فانتقلت الزعامة إلى «آرام دمشق» التي امتدت حدودها من اليرموك إلى الفرات و«آرام سمأل» حول سنجرلي في الشمال السوري، ومن ممالكهم ومشيخاتهم أيضاً «آرام بيت رحوب» و«آرام معكة» حول جبل حرمون و«جشور» في حوران و«حما وبيت آجوشي» حول

حلب و«بيت أديني» في تل برسيب و«بيت بخيلني» في تل حلف على الخابور و«بيت أديلي وبيت ياكين» في جنوب العراق.

لكن آرام دمشق دمرت على يد «تغلات فلاسر» ملك آشور عام (732) ق.م. وإلى الأبد وكان آخر ملوكها «رزين». بينما أقام الآراميون الدولة الكلدانية في بابل ودمروا نينوى على يد «نبوبلاصر» عام (612) ق.م. ثم دمر ابنه نبوخذ نصر مملكة يهوذا عام (587)ق.م. وسبا ربع سكانها ونقلهم إلى بابل وكان لأحبار اليهود في بابل اليد الطولى في كتابة العهد القديم والتلمود. كما بنى نبوخذ نصر برج بابل الشهير. وكان آخر ملوك الكلدان «نبيونيد» الذي أدخل عبادة «سين» (إله القمر) من حران إلى بابل، ثم سقطت الامبراطورية عام (539)ق.م. على يد كورش الثاني ملك فارس، فكانت نهاية تاريخ بابل التي عرفت فيما بعد بالاسم البهلوي «العراق» أي الأرض المنخفضة. وشملت الامبراطورية الكلدانية أو البابلية الحديثة (612 – 539)ق.م. كل الهلال الخصيب وعمت لغتها الآرامية كل الهلال الخصيب فأطلق عليه اسم «آرام». هكذا أصبحت اللغة الارامية اللغة المشتركة للشعوب المتوحدة في الهلال الخصيب منذ (500) ق.م. وبقيت لغة الامبراطورية الفارسية بعد ذلك. ثم استمرت كلغة شعبية بعد فتح الإسكندر (333) ق.م. إلى أن حلت محلها اللغة العربية نحو عام (1300) ميلادية والتي احتفظت بكثير من المفردات الآرامية في سوريا والعراق، ومن الجدير بالذكر أن المفردات الآرامية الخاصة بالعبادة قد دخلت القرآن وذلك عن طريق النصارى واليهود الذين نزحوا إلى الجزيرة العربية قبل الإسلام.

العبرانيون:

العبرانيون الأوائل كانوا قبائل رحل من الآراميين الذين كانوا يدخلون من سوريا إلى العراق، ويطردون من قبل الممالك هناك. فكانت كلمة «عبيرو» تعني من عبر الفرات من العراق إلى سوريا ومنها إبراهيم «العبراني» جد اليهود التقليدي. ثم دخل الاسرائيليون أبناء حفيده من اسحق أرض مصر أيام حكم الهكسوس في القرن 17 ق.م. وخرجوا منها بعد نحو (400) عام في أواخر القرن 13 بقيادة موسى وهرون ودخلوا أرض كنعان (فلسطين) بقيادة يشوع، ولما استقروا بين الكنعانيين اقتبسوا لغتهم وعاداتهم وعبادهم. لم يكن كل الإسرائيليين في مصر، والذين خرجوا بقيادة موسى نحو (1235) ق.م. كانوا نحو (7000) إنسان فقط، وفي أرض كنعان اجتمعوا بباقي الأسباط وتآلفوا حول عبادة يهوة، واحتل العبرانيون الأرض خلال ثلاثة قرون ثم قسموها بين الأسباط تاركين نسل لاوي للزعامة الدينية. كانت مرحلة الاستيطان في عهد القضاة، وفي عهد الملوك جاء دور الاحتلال بالقوة وكان شاول أول ملك (1020 – 1004) ق.م. وكان فاشلاً، ثم خلفه داود (1004 – 964) ق.م. فاحتل أورشليم «يبوس» الكنعانية وجعلها عاصمته، وجعل الشرع الموسوي دستوراً وديناً للدولة، واحتل ممالك عمون ومؤآب وآدوم وكان أعظم ملوك التاريخ العبري ثم خلفه ابنه سليمان (963 – 923) ق.م. وكان ماجناً مزواجاً مترفاً زاد السخرة والضرائب خاصة على قبائل الشمال محابياً قبائل الجنوب، فأدى عدم حكمته إلى انقسام المملكة عام (923) ق.م. إثر وفاته، ودامت

مملكة إسرائيل في الشمال حتى (721) ق.م. عندما دمرها سرجون الثاني الآشوري، ومملكة يهوذا في الجنوب حتى (586) ق.م. حيث دمرها نبوخذ نصر البابلي. لقد كان «اليهود» الاسرائيليون أحد شعوب سوريا القديمة، فاخروا بأصلهم الآرامي «آراميا تائها كان أبي» و«بلسانهم المقدس» أي لغة كنعان، لكنهم تميزوا عن غيرهم بعبادتهم المتمركزة حول يهوه، وقد ثبت موسى هذه العبادة ثم ظهر القادة الاجتماعيون والدينيون المعروفون باسم «الأنبياء» وبهذا كان تأثيرهم الرئيسي دينياً رغم اقتباسهم الكثير من بابل وكنعان ومهره بالخاتم الاسرائيلي.

عرب ما قبل الفتح:

في اللغات السامية «العربة» هي البادية والعربي هو البدوي، فالعرب هم الساميون الرحل سكان البادية. وقد أسس عرب ما قبل الفتح أربع ممالك في الهلال الخصيب نحو 500 ق.م. وهي: مملكة الأنباط في شرقي الأردن، والتدمريون في تدمر، والغساسنة في حوران، والمناذرة في الحيرة جنوب العراق. هذه الممالك العربية أدخلت بعض عناصر الثقافة السورية إلى الجزيرة العربية فقد نقل الأنباط الأبجدية الارامية التي كتب بها القرآن «قريان»، كما أدخل الغساسنة بعض الأفكار المسيحية، إلى جانب دخول اليهود والنصارى من سوريا إلى الجزيرة العربية هرباً من الاضطهاد الروماني مما أوجد نهضة حضارية قبل الإسلام، وكان لها اليد الطولى بظهور الإسلام بشكله الحالي.

إلى جانب هذه الشعوب السامية التي استوطنت الهلال الخصيب دخلت عدة شعوب لا سامية وتفاعلت معها في ذات البوتقة الجغرافية هم الحثيون والحوريون والكاشيون والفلسطينيون ثم الفرس والإغريق.

الحثيون:

شعب هندو أوروبي أنشأ امبراطورية في القرن 13 ق.م امتدت في آسيا الصغرى إلى شمال سوريا. كان مركزهم الأساسي في الأناضول وعاصمتهم بوغازكوي «حاتو شاش»، ومن ممالكهم في سوريا كركميش وحماة ومرعش وأدنه وملاطية وأخذت هذه الممالك تتساقط بأيدي الاشوريين والآراميين إلى أن انتهت نحو 710 ق.م.

وقد حارب الحثيون السوريون بقيادة موالتاليش (1350 – 1282) ق.م. المصريين بقيادة رعمسيس 2 (1290 – 1224) ق.م. في معركة قادش 1285 ق.م. ولم تكن فاصلة، وقد اقتبس الحثيون الكتابة المسمارية من سوريا واقتبسوا عبادات الشرق الأدنى وقد ذكرت التوراة بعض الحثيين في فلسطين.

الحوريون:

شعب من شمال جبال زاغروس دخل شمال ما بين النهرين في أواخر الألف 3 ق.م وأسس مملكة ميتاني في شمال سوريا نحو 1500 ق.م. التي امتدت من ماري إلى المتوسط وعاصمتها واشوكاني ومن مدهم نوزي التي عرفت بشرائعها.

الكاشيون:

شعب هندو أوروبي احتل بابـــل مـــن 1595 - 1662 ق.م. وسماهـــا كـــار ـــ دنيـــاش آلهتهم آرية وسامية وحافظوا على فلسفة وديانات ما بين النهرين.

الفلسطينيون:

شعب أوروبي من شعوب البحر عملوا قراصنة في المتوسط وأحرقوا أوغاريت (1195 ق.م) وفي 1191 ق.م أجبرهم المصريون على استيطان جنوب الساحل السوري من غزة إلى يافا وقد أطلق اسم فلسطين على أرض كنعان نحو 70 ملادية وهي جزء منها فقط.

الفرس:

شعب هندو أوروبي قضى على الامبراطورية الكلدانية 539 ق.م. بقيادة كوروش (ذو القرنين) ونقل سوريا إلى الحكم الهندو أوروبي مدة ألف عام (539 - 633 م) وأصبحت سوريا مع قبرص تشكل المرزبانية الخامسة أو «عبار النهرا» أي عبر الفرات. وسمح كوروش لليهود الذين سباهم نبوخذ نصر 597 و 586 ق.م. بالعودة إلى فلسطين وبناء الهيكل (516) ق.م. كانت الآرامية لغة الامبراطورية الفارسية والزرداشتية دينها، وهي تؤمن بالصراع الدائم بين قوى الخير والشر وحكمت (539 - 333) ق.م.

السلوقيون:

فتح الإسكندر سوريا 333 ق.م. ومات في حزيران 323 ق.م. في قصر نبوخذ نصر. وبعد صراع على التركة دخل سلوقوس 1 نيكاتور بابل في 1 تشرين أول 312 ق.م. واعتبر هذا التاريخ بداية مملكة سوريا التي شملت كل الهلال الخصيب ما عدا سوريا الجنوبية التي استعادها انطيوخوس 3 الكبير من المصريين 198 ق.م. وفي 168 ق.م. ثار المكابيون اليهود على الحكم المركزي في انطاكية ونجحوا في إقامة حكم ذاتي، وفي أيام الملك المكابي اريستوبولوس (105 - 103 ق.م.) أجبر السكان في الجليل على التهود، وبعد مئة عام برز من هؤلاء المتهودين الجدد المسيح والتلاميذ، ما عدا يهوذا الخائن، أي لم يكن المسيح والتلاميذ من أصل يهودي بل من جليل الأمم. أدخل السلوقيون الحضارة الإغريقية واللغة اليونانية التي أصبحت لغة العلم والأدب إلى جانب الارامية لغة الشعب اليومية. وبنوا عدداً كبيراً من المدن استوطنها الإغريق والمقدونيون وكانت مراكز للحضارة الهلنستية. ثم دب التفسخ في الدولة السلوقية إلى أن قضى عليها الفتح الروماني (64 ق.م) لكن الحضارة الهلنستية بقيت في ظل الحكم الروماني «الهلنستية الرومانية».

الرومان:

استغل الرومان الفوضى التي عمت المملكة السورية في آخر 32 عاماً من الحكم السلوقي ففتحوها عام (64) ق.م. بقيادة «بومبيوس»، وأصبحت «ولاية سوريا الرومانية». وليس هذا فقط، فقد بقي الجزء الشرقي أي العراق (بابل) تحت الحكم الفارسي، وفصلت كيليكيا في ولاية قائمة بذاتها، فكانت أول تجزئة لسوريا، كما غيروا تقسيماتها الإدارية عدة مرات، وكانت أعظم الولايات الرومانية، ومن الحكام الرومان

«كنتيليوس» الذي ولد المسيح في أيامه عام (6) ق.م. وبيلاطس البنطي (24-37)م، وعلى أيامه صلب المسيح.

وقد عني الرومان بشق الطرق وبناء المستوطنات وتحضير البدو، كما أدخلوا اللغة اللاتينية إلى سوريا.

وفي القرن 3 م ازداد النفوذ السوري الديني والاقتصادي في الولايات اللاتينية، وبفضل الفكر المسيحي المتفاعل مع الحضارة الهللنستية قامت الحضارة البيزنطية ومركزها القطسنطينية. اعتنق قسطنطين الكبير المسيحية (313)م وترأس مجمع نيقيا عام (325)م ودشن القسطنطينية في 11 أيار عام (330)م وسماها «روما الجديدة»، وبقي الحكم البيزنطي إلى أن فتح العرب المسلمون سوريا (633-640)م.

كل هذه الشعوب تفاعلت عنصرياً وحضارياً في الشرق الأدنى القديم، وتداخلت تقاليدها ودياناها وعلومها وفنوها، لكن السومريين كانوا أقدم هذه الشعوب، وقد بدأ التاريخ في سومر التي أعطت كثيراً من «أوائل الأشياء» وتوارث كل خلف عن السلف، وبذا دامت المعتقدات السومرية نحو ثلاث آلاف سنة. ولم يختلق الساميون مفاهيم جديدة، بل انصهرت عناصر ديانتهم مع العناصر السومرية حتى لايمكن تمييزها، إلا أهم غيروا أسماء الآلهة إلى أسماء سامية، وكانت أهمية كل إله تزداد حسب قوة دولته السياسية.

سبر الماضي

تفتح العلوم الطبيعية أمامنا الآن آفاقاً واسعة من المعرفة التي كان أجدادنا ينظرون إليها وكأنها تجديف، بالنسبة إليهم كانت تزعزع أسس الإيمان الديني. أما بالنسبة إلينا وإلى أبناء عصرنا فهي اكتشافات توسع أفق مداركنا الصحيحة وفهمنا لذاتنا. ولا يمكننا أن نتنكر للماضي لأننا امتداد له، ولأن كل واحد منا هو سليل الأجيال السابقة، وفهمنا اليوم لأجيالنا السابقة يساعدنا على إدراك ما نحن عليه اليوم، وكيف أصبحنا كما نحن. قبل مائة عام كان الناس يتكلمون عن «المعجزة الإغريقية» وكأنها «طفرة» بزغت من العدم، أما الآن فنحن نعلم أن هناك حضارات سبقتهاوغذتها. وأن الإنسان المعاصر لم يبدأ نحو (500) ق.م. ولا (5000) ق.م.، فإن حضارة سوريا بدأت في الألف (9) ق.م. والتنقيب وعلم الآثار يكتشف ويوضح مسيرة الحضارة الإنسانية. كان التنقيب وسيلة الإنسان القديمة للبحث عن الكنوز الدفينة بما فيها سرقة القبور والمقابر. أما التنقيب العلمي فلا يزيد عمره على ثلاثة أرباع القرن. ورغم ذلك فإنه قد صنع المعجزات في كشف آلاف السنين من تاريخ الحضارة الإنسانية.

إن الرفش والمعول قد كشفا لنا عشرات المدن الدفينة التي غمرها غبار الزمن فغاصت في طي المجهول. حتى أن شعوباً قد فنيت من ذاكرة الإنسان عادت آثارها تحدثنا عن بذور قديمة خرجت منها حضارتنا المعاصرة بعد أن أينعت عبر العصور، فالتنقيب هو وسيلة الإنسان المفكر في التعرف على ماضيه.

كانت المدن القديمة (وبعض المعاصرة) تبنى من اللبن والقرميد، فإذا أتت غزوة هدمت أو أحرقت هذا البناء الضعيف، فيعود أهل المدينة إلى بنائها من جديد أو يعيد البناء قادمون جدد فترتفع عن مستوى الأرض (تل)، كذلك عندما يتحول مجرى النهر وتتحول الأرض الخصبة إلى صحراء قاحلة يهجر السكان مدنهم فتمسي خراباً. كان دجلة والفرات يلتقيان في الخليج ثم أخذ الطمي الرسوبي خلال آلاف السنين يملأه بالطين حتى أصبحا يلتقيان في مصب واحد هو «شط العرب» وأصبحت المدن التي كانت ذات يوم تقع على الساحل تبعد عنه الآن نحو (150)كم. وهذه الأرض الرسوبية الجديدة خالية من آثار المدنيةوالحضارة.

كانت المدن تبنى قريباً من النهرين العظيمين وروافدهما ومن الأقنية الواصلة بينهما. وكانت تلك الأقنية من عمل الملوك عن طريق السخرة، وكانت تستعمل للملاحة والري ودرء الفيضان وعن طريق التدمير وإعادة البناء تكراراً يمكن للمدينة أن تبدأ سومرية ثم تصبح بابلية ثم فارسية ثم إغريقية ثم ساسانية ثم مسلمة إلخ...، لأن نفس الموقع يمكن أن يصبح مدينة لعدة شعوب متعاقبة تكون طبقات أثرية متعاقبة.

والسائح الذي يرى الأراضي والسهول القاحلة الخالية من حوله لا يفكر بأن هذه الأرض كانت ذات يوم تملأها البساتين، وهذا السكون من حوله كان صخب مدن عامرة وحضارات متعاقبة وألسنة مختلفة.

حتى عهد قريب كان «العهد القديم» وسيلتنا الوحيدة لمعرفة شيء ما عن التاريخ القديم وفي هذا الكتاب المشوه كان اليهود في مقدمة الشعوب بينما شعوب سوريا القديمة من كنعانيين وأموريين وآراميين وفلسطينيين وحثيين وغيرهم لم يكونوا سوى «برابرة» يقفون حجر عثرة في سبيل «شعب الله المختار» والآن نجد أمامنا واقعاً جديداً وهو أن «علينا أن نعيد كتابة التاريخ القديم وأن نعيد تفسير ما عرف منه».

فسرجون الذي غزا السامرة وقضى على مملكة إسرائيل وسبى جزءاً من أهلها وأسكن قبائل جديدة فيها، هذا الملك الآشوري لم يكن «وحشاً بشرياً» بل كان راعياً للفنون والآداب وبانياً للمدن. كما أن نبوخذ نصر الذي دمر أورشليم ومملكة يهوذا وسبى جزءاً من أهلها كان بانياً للمعابد ومنها برج بابل. والعهد القديم لا يعطينا الصورة التاريخية الصحيحة وكثيراً ما قاد اللاهوتيين والمؤمنين إلى تفاسير نعلم الآن أنها بعيدة جداً عن الصحة.

يعتمد المؤرخون في بناء صورة الماضي على النصوص المكتوبة وعلى الأشياء المكتشفة في التنقيبات الأثرية. وكلما توغلنا في الماضي كلما ازداد الاعتماد على تلك الأشياء، لأن الكتابة تقل أو تنعدم كما في عصور ما قبل التاريخ. هذان الشيئان يبرزان في البحث في تاريخ الشرق الأدنى القديم خاصة ألواح سومر وبابل واوغاريت.

في عام (1843)م. بدأت التنقيبات في العراق وتوبعت بعد ذلك. كانت البعثات أوروبية وأمريكية. وخلال السنوات السبعين الأخيرة نقب أكثر من ثلاثين موقعاً في العراق تشكل معظم المدن الرئيسية في العراق القديم وسبر أكثر من مئة تل.

وكل تل هو مدينة قديمة متراكمة الطبقات السكنية. لذا نجد المدن في كل مكان والمهم انتقاء المدينة ــ التل المنوي تنقيبها. وهكذا اتسعت معلوماتنا عن حضارة ما بين النهرين أو بلاد بابل، أكثر مما كان يتوقع المؤرخون ولم يكن لديهم قبل مائة عام سوى تلك المراجع القليلة المذكورة في العهد القديم وبعض المراجع الأخرى. إن الذي ساهم في طمس معالم حضارة الرافدين ندرة الحجر والبناء الطيني الضعيف الذي لا يقوى على مقاومة العوامل الطبيعية العدوانية. ثم أدخل التبن والحصى من أجل تقوية الطين. وأخيرا ابتكر صنع القرميد المشوي، لكن كلفته العالية جعلت استعماله مقتصراً على معابد الآلهة وقصور الملوك. وكان سقف البيت يصنع من القصب «المحصول» ويمد عليه الطين، وفي بعض الأحيان كان يمرغ بالجفصين. كان هذا النمط في البناء يعطي الدفء شتاء والبرودة صيفاً إلا أنه كان في نفس الوقت يسهل على الأعداء أن يحرقوا مدينة بكاملها. وبسبب أفضلية بعض المواقع كان يعاد بناء المدن تكراراً فتشكل تلاً من عدة طبقات يمكن سبرها ودرس أدوار حضارتها، وبعض المواقع القديمة ما تزال عامرة، مثل أربيل وكركوك في حين زالت بابل ونينوى، ويذكر هيرودوتس أن بابل كانت ما تزال قائمة في منتصف القرن (4) ق.م. لكنه يهمل زيارة موقع نينوى التي دمرت في (612) ق.م. وفي (401) ق.م، مر يزينوفون يقود عشرة آلاف من المرتزقة اليونانية بين النهرين قرب نينوى عاصمة آشور العظيمة دون أن تلفت انتباهه. وبعد أربعة قرون من ذلك يصف سترابو مدينة بابل العظيمة بأنها باتت أكوام أنقاض وقد هجرها أهلها.

مرت القرون وطبقات الغبار فوق تلك المدن الدارسة لتطمس أقدم حضارات الإنسان، وتطرح عظمة القديم في ظلمات النسيان حتى عام (1625) م حين أخذ السائح الإيطالي «بيترو ديللا فاللي» بعض ألواح القرميد من بابل وأور إلى أوروبا وعليها كتابة لم تفهم آنذاك، لكن تلك الآثار أثارت الاهتمام والبحث، وفي عام (1761)م قامت بعثة دانمركية ولأول مرة بمهمة البحث والتنقيب ثم تبعها أشخاص بارزون من مختلف الجنسيات وأجروا تنقيبات بسيطة.

وفي عام (1843)م قام القنصل الفرنسي «بول أميل بوتا» بأول تنقيبات أثرية في العراق مبتدئاً في «خورساباد» (دور ــ شاروكين) لدراسة الآشوريين. وفي عام (1845)م قام البريطاني «سير هنري لايارد» وحذا حذوه في «نمرود» (كلخ) ونينوى وسبر عدة تلول.

وفي عام (1877) سمع قنصل فرنسا في البصرة «آرنست دي سارزك» بوجود تماثيل في تللو قرب الناصرية فحفر هناك واكتشف السومريين. وهكذا وفي نحو ثلاثين عاماً كشفت حضارات مطموسة أذهلت العالم.

في ذات الوقت قامت في مكتبات أوروبا جماعات من الباحثين الصابرين الذين أخذوا على عاتقهم مسألة فك رموز تلك اللغات الميتة المكتوبة على ألواح القرميد وهي ألوف موزعة في مختلف متاحف العالم. دامت الجهود المتواصلة نحو مائة عام إلى أن وفق «غروتيفند» (Grotefnd) إلى قراءة نص فارسي قديم دوّن بالكتابة المسمارية، وكان «رولنصن» (Rawlinson) قد كشف بين (1835 - 1844) ونسخ كتابة لداريوس كانت منقوشة على صخرة في «بهيستون» في غرب إيران بثلاث لغات، الفارسية القديمة والبابلية والعيلامية، كانت هذه الصخرة بمثابة «حجر رشيد» في فك الرموز ودراسة تلك اللغات. وبجهود البريطاني «إدوار هنكس» والفرنسي «جول اوبيرت» و«رولنصن» قهرت أصعب اللغات القديمة فأصبحوا «الثلاثي المقدس» الذي فتح «كتب الطين» القديمة المدفونة في مختلف مناطق الشرق الأدنى القديم. وقد قرئت الآكادية نحو (1847) وبدء بفهم السومرية نحو (1900) وأصبح أكثر من ربع مليون من الألواح تحت تصرف الباحثين والمؤرخين.

ثم دخل الألمان معترك التنقيب في بدء القرن العشرين وتبنى المنقبون الآخرون أساليبهم وعمل علماء الآثار الفرنسيون والألمان والبريطانيون والأميريكيون والدانمركيون واليابانيون في مختلف المواقع. وأخيراً دخل المنقبون العراقيون الشباب ذلك المعترك وأصبح للعراق متحفه الوطني في «هبة الله» بغداد، وهكذا كشفت معظم مدن العراق القديم. أما في القرن الغربي من الهلال الخصيب فقد ازدهرت حضارة كنعان التي أسهمت في حضارة الإنسان بدون حساب. برزت مدن كنعان على الساحل السوري منذ (2500)ق.م. وامتدت من دانونا «ادنة» في الشمال حتى غزة في الجنوب، وقد جاء في محاضرة كلود شيفر في حوليات «كوليج دي فرانس» لعام (1959) م «بالاستناد إلى لوحات تل العمارنة وإلى وثائق رأس شمرة المكتشفة حديثاً وإلى المكتشفات الأثرية التي نشرت أخيراً عن حفريات طرسوس في كيليكيا وأريحا الخ....، ثبت لنا أن بلاد الكنعانيين بين شواطىء المتوسط الشرقية وصحراء سوريا اتسعت في الجنوب: من

فلسطين الجنوبية إلى أوغاريت. وفي الشمال استعمر الكنعانيون سهول دانونا «أدنة» الخصبة واستثمروها منذ النصف الأول للألف الثاني ق.م.، وكانوا يؤسسون على السواحل نقاط الارتكاز لتجارقم. وقد بلغ من قوة واستمرار الكنعانيين في هذه الأرجاء أن ملك صور (1400 – 1350) ق.م. في رسالة منه إلى الفرعون المقيم حينئذ في تل العمارنة، ذكر دانونا «أدنة» ضمن بلاد كنعان. إن آثار كنعان ماتزال بارزة في صيدا وصور وجبيل وأرواد وأوغاريت، وأهمها فيما يتعلق بالميثولوجيا والملاحم، وفي إلقاء الضوء على نصوص العهد القديم هي أوغاريت.

تقع أوغاريت (اجرت) في شمال الساحل السوري 10 كم شمال راميتا (اللاذقية) وعلى بعد 1 كم من الشاطئ على تل اسمه (رأس شمرا). اندثرت أوغاريت نحو 1200 ق.م على يد شعوب البحر وطمست معالمها إلى أن اكتشفت صدفة من قبل أحد الفلاحين عام 1929 م. وقصدها بعثة فرنسية برئاسة كلود شيفر وتبين أنها تتألف من عدة مدن تشكل تلاً فوق بعضها. وكانت «المينا البيضا» (Leukos Limon) مرفأ أوغاريت، واسم أوغاريت معناه «الحقل»، أما المدن المتراكمة في ذلك الموقع فتبدأ من العصر الحجري الحديث. أولها مدينة مسورة صناعتها صوانية وترقى إلى الألف 7 أو 6 ق.م. تليها مدينة تعود إلى أواسط العصر الحجري الحديث، صناعتها خزفية مجففة بالشمس وهما معاً من الطبقة 5 . وفي العصر الحجري ـــ النحاسي الطبقة الرابعة والثالثة يبدأ وصول أناس من الشرق أو الشمال الشرقي متأثرين بحضارة المتوسط وما بين النهرين يصنعون الخزف الملون. في أواخر هذا العصر، يزداد التأثر بما بين النهرين. وفوق الطبقة الثالثة تأتي طبقات العصر البرونزي وظهور صناعة التعدين. في أواسط هذا العصر يصل أناس يتقنون صناعة تعدين البرونز 2000–1900ق.م. وفي منتصف العصر البرونزي كانت تسيطر على أوغاريت قبائل من نوع الهيكسوس أو الحوريين أو الميتانيين نحو 1800–1700ق.م.

والعصر الذهبي المدون في أوغاريت هو العهد الكنعاني من 1450–1195 ق.م. عندما كانت المدينة في الذروة كان اسمها «أجرت» أي الحقل. وكان ميناؤها المينا البيضا (ميناء عسكري حالياً) فيها القصور الملكية والمقامات المقدسة والمكتبات والكتابة بأبجدية مسمارية هي أبجدية أوغاريتية خاصة. وكان ملكها نقمدا (نقمة حدد).

اللغة الأوغاريتية لهجة كنعانية كتبت بأبجدية من ثلاثين حرفاً اكتشفت عام 1949. اختصرت هذه الأبجدية إلى 22 أو 25 حرفاً في ا لقرن 13 ق.م. واستعمل الكتبة فيها أربع لغات هي الأوغاريتية الكنعانية والآكادية والسومرية والحورية، وسبع أنواع من الأحرف، مما يدل على مركز أوغاريت الدولي. معظم الكتابة كانت على الفخار، وتختص بالعبادة والدين وملاحمها تدور حول إله الخصب عليان بعل وكان الشعر نوعا من الدراما ربما مثلت قبل تمثيل الدراما اليونانية كما جائتنا من أوغاريت أقدم أغنية مدونة أمكن عزفها وتعود إلى القرن 14 ق.م، أما الفن الأوغاريتي، فهو يتجسد في الآنية الذهبية وفي التماثيل البرونزية والعاجية. ورغم التأثير المصري لا يزال هذا الفن يحتفظ بأصالته السورية. أهم ملاحمها عليان وموت الملك كرت، دانيل الحكيم.والجدير بالذكر أن تأثير الميثولوجيا الوغاريتية بارز في العهد القديم، وقد اندثرت أوغاريت نحو 1200 ق.م. على يد شعوب البحر.

كان إلى جانب الكنعانيين أشقاؤهم الأموريون الذين حكمت سلالاتهم ماري وحلبو وحرانوا وجيبال وقطنا وحاصور (فلسطين) ولكن أعظم سلالاتهم سلالة بابل التي أنجبت المشرع العظيم أمورابي، وبين (1100 و 500 ق.م.) تم إنصهارهم مع باقي شعوب سوريا القديمة.

صورة كروكر يعزف اللحن الأوغريتي

أساطير بابل

وتطورات ا لمعتقدات الدينية في الشرق الأدنى

بدأت الحضارة في العالم حول الأنهر وأقدمها حضارة ما بين النهرين أو (ميزوبوتاميا أو بلاد بابل أو بلاد الرافدين أو العراق). بقيت أساطير بابل مجهولة لزمن طويل ما خلا بعض المقطوعات من كتاب برعوشا (بيروسوس) الكلداني الذي كتب باليونانية في القرن 3 ق.م. وقد حفظ أوزابيوس القيصري المؤرخ الكنسي هذه المقطوعات بهدف المقارنة بين المسيحية من جهة والوثنية من جهة أخرى والبرهنة على صحة المسيحية وبطلان الوثنية.

أما اليوم، وبفضل عشرات الألوف من الألواح الطينية المدونة بالمسمارية والمكتشفة في بابل وآشور، فقد زادت معلوماتنا عن هذه المثولوجيا منذ قرن ونيف فقط. هذه الألواح تشكل وثائق أصلية لم تدخل إليها يد التعديل بل النقص والتلف، وبفك رموز اللغة المسمارية وقراءة النصوص المكتوبة تبين أنها تختلف كثيراً عما جاء به برعوشا. كما تختلف بتفاصيلها حسب المنطقة التي اكتشفت فيها ــ في الشمال أم الجنوب، في الوسط أم في آشور، وحسب زمنها، أهي تعود إلى الألف الثالث أم الثاني أم الأول ق.م. ومع كل اكتشاف جديد نرى كم كان المؤرخون يجلهون هذا الشرق وكم هذا الشرق يجهل نفسه ولا يزال، وكيف ظنوه جامداً متحجراً خلال آلاف السنين في معتقداته ومؤسساته وفنونه، بينما كان في تطور مستمر حضارياً حتى ألف سنة خلت عندما خيمت عليه العصور المظلمة.

بالنسبة لبلاد بابل كان العالم كله سهلاً واسعاً يخصبه نهران عظيمان هما دجلة الذي دعاه السومريون «ادجنا» والساميون ادجلات طوله (1900 كم) والفرات الذي دعاه الساميون فراتو والسومريون بورانوتو (طوله 3580 كم). ويحد هذا السهل جبال عالية في ثلاث سلاسل هي زاغروس وطوروس ولبنان، وهذه السلاسل الثلاث تحمل قبة السماء كغطاء، والكل يطفو على محيط غير محدود من الاتساع والعمق.

كيف خلق هذا العالم ومن خلقه؟ لقد طرح هذا السؤال في سومر منذ ما ينيف على خمسة آلاف سنة.

وكانت بلاد ما بين النهرين آنذاك غير موحدة بل كل آرام كانت تعيش نظام الدولة المدينة، وهذه المدن كانت مستقلة كل منها عن الأخرى إلا في فترات مختلفة، ثم كانت إحداها تهيمن على باقي المدن مثل كيش ولغش واور واوروك واريدو ولارسا وسيبار... الخ في سومر، ورغم أن هذه المدن تكلمت لغة واحدة واستعملت كتابة واحدة إلا أنها حافظت على تقاليد ومعتقدات خاصة بها. فهذه شفيعها الشمس «اوتو»، وتلك القمر «نانا»، أو الزهرة «إنانا» الخ، كما أن مدينة نيبور (نفر) كانت مركزاً دينياً مشتركاً إذ تركزت فيها عبادة «إنليل» «الأب إنليل»، «الجبل العظيم».

وأما بابل فلم تكن سوى مدينة صغيرة بين عديد من المدن حتى اتخذها حمورابي عاصمة لامبراطوريته الواسعة نحو (1800 ق.م.). وما أن ارتفعت «باب الله» بابل بين

المدن حتى ارتفع إلهها مردوخ إلى المقام الأول بين الآلهة، وأخذ يمتص ويحتكر صفات الآلهة الأخرى حتى أصبح هو الخالق بدل آلاف الآلهة السومرية وأصبح رئيساً لمجمع الآلهة، وساحق قوى الشر الذي يرى كل شيء ويسمع كل شيء. ظهرت بذلك مرحلة جديدة بين تعدد الآلهة أو البوليثية (Politheism) والتوحيد أو المونوتية (Monotheism) وهي الهينوتية (Henotheism) إن الهينوتيةلا تنكر الآلهة وتعددها لكنها تختار إلهاً سيداً من بينها هو الإله الرئيسي والبقية ثانويون في مراتبهم ومهامهم السماوية والأرضية، وقد دام المعتقد الهينوتي ممثلاً في مردوخ البابلي، وآشور الآشوري، ويهوه العبراني، حتى بلغ الإنسان طور التوحيد مع النبي عاموس نحو 750 ق.م.

لقد عبد سكان بلاد الرافدين قوى الطبيعة مؤنسنة في آلهة عديدة. كل قوة تمثل إحدى الإرادات السماوية. هذه القوى والأحداث الطبيعية كانوا يرونها ضرورية لبقائهم وبقاء قطعانهم وزرعهم وتربتهم ومياههم. وكي يشعر الإنسان بوجود دائم لتلك القوى أوجد الصور المقدسة والمعابد والطقوس والدراما الدينية، ومثلوا الآلهة بصور مركبة خيالية ثم أعطوها أشكالاً بشرية.

ومن الأشكال الخيالية الممثلة للآلهة. آلهة الغيوم الممطرة «امدوغود» (Imdogud) التي مثلوها طائراً أسوداً ضخماً له رأس أسد يزار وصوته الرعد، يطير بأجنحة ممدودة هائلةالحجم في الجو. كما كان «ننغرسو» (Ningirsu) إله الحرب يمثل طيراً له رأس أسد، يزمجر كالمياه ويندفع نحو البلد المعادي وكأنه العاصفة ومثل «أوتو» (Utu) إله الشمس بقرص الشمس، ثم أصبح له شكل إنسان يشع من جسده الضياء «وباو» (Bau) إلهة الكلاب والشفاء كانت تتميز برأس كلب ولم تعط الالهة الهيئة البشرية بوجه عام حتى بدأ عصر السلالات الحاكمة وأصبحت الآلهة تقف وراء الأحداث الطبيعية دون أن تكون فيها أو منها أو بشكلها وأعطيت ألقاباً شبيهة بألقاب الحكام والملوك فكلمة «إن» (En) تعني «رب أو سيّد» أي القوة الموجهة والموجدة للحدث الطبيعي مثل «إنليل» السيد الهواء أي محدثه. ودخلت «إن» هذه في أسماء عدة آلهة منها إنليل، إنكي، أناماش، أنفارا، أندوكو.... الخ.

كلمة لوجال (Lugal) تعني الرجل العظيم أي ملك وخاصة القائد في الحرب، وقد دخلت في عدة أسماء مثل لوجال بندا، لوجال غيرا، لوجال كيشا، ولوجال زاغيزي ثم صار الآلهة ملاكاً لأرض واسعة وإقطاعات تعود لمعابدها، يديرها كهنوت وعوام كالأوقاف الدينية في عصرنا الحاضر. وكحكام للمدن أصبحت الآلهة مسؤولة عن مصالحهاالسياسية والاجتماعية والاقتصادية، كما كان للآلهة المهتمين بالسياسة والمجتمع «ديمقراطيتهم البدائية» يجتمعون في نيبور برئاسة آنو وانليل لينتقوا الأمراء والملوك ويقرروا مصائر المدن والحكام ومن سيسقط ومن سيرتفع. هكذا بعد أن كانت الآلهة قوى طبيعية أصبحت قوى تاريخية، ووزعت مهامها الاجتماعية. فربة الولادة نينتو (Nintu) أعطاها إنكي مهمة زيادة التناسل، ودموزي (Dumuzi) (تموز) القوة الغريبة في الأغنام التي تصنع الحليب وتضعه في الأثداء، أصبح الإله الراعي مهمته العناية بالقطعان والسهر على الحظائر..

وآخر شكل في الديانة البابلية كان الآلهة القومية متمثلة في مردوخ البابلي وآشور الآشوري، يرأسان مجمع الآلهة في كل منهما، ويمثلان النزاع على السلطة بين مملكتي بابل وآشور بقيادة الملكية المطلقة. لقد بقيت الآلهة القديمة ولم يتغير البانثيون، إنما انحصرت الزعامة في مردوخ أو في آشور واصبحت باقي الآلهة أدوات في يد الإله الأكبر:

إنليل هو مردوخ	القائد في المجالس
نبو هو مردوخ	إله الحسابات
سين هو مردوخ	ينير الليل
شمش هو مردوخ	يقيم العدل
هدد هو مردوخ	إله العواصف والأمطار

وبحصر الزعامة وجدت الصفة السياسية للدين وصار الإله مسؤولاً عن السياسة الخارجية والحربِ والقضايا الداخلية والأخلاق والعادات والتقاليد. وقد أوجد مفهوم الإله الحاكم نوعاً من الورع والخضوع والإتكالية «لا تهتم بمشاكل القوة والسلطة، أوكل أمرك إلى نبو ومردوخ واجعلهما يفتكان بأعدائك «هذه كانت نصيحة نبو بو لاصر لخلفائه. وحتى في الصلوات نرى التائب يزحف مترحماً أمام الآلهة طالباً غفران الخطايا التي ارتكبها دون علمه. وأخيراً اعتقد الناس أن لكل إنسان «إلهه الراعي» أو الملاك الحارس القادر على طرد الشياطين وقوى الشر. فإذا مرض إنسان فهذا يعني أنه قد أخطأ نحو الآلهة فلم يدافع عنه إلهه الشخصي أو إلهه الراعي ليمنع عنه شيطان المرض. لذا ألفت المزامير والتسابيح لاستعادة رضى الآلهة، ومن هذا الأدب نما الاهتمام بمشكلة الأتقياء الذين تأتيهم المصائب دون سبب ظاهر. فلا يجدون السبب إلا في قلة فهم الإنسان لإرادة الخالق، لأن الإنسان لا يمكنه أن يرى ما تراه الآلهة الخالدة، ولا أن يفهم مقاصدها، كما أنه «لم يولد طفل لأم بلا خطيئة».

هذا النوع من الأدب الديني الذي نجده في «سفر أيوب» من العهد القديم حيث يصاب الإنسان الصالح بالكوارث بفقدان رزقه ثم أولاده ثم يصاب بجسده فينهشه المرض دون أن يدري ما السببِ فيدور حوار فلسفي بينه وبين أصدقائه ويحافظ علىِ وفائهِ لخالقه وتمجيده لاسمه قائلاً «الرب أعطى والرب أخذ فليكن اسم الرب مباركاً» وأخيراً يرضى الله عنه بعد محنته ويتحنن عليه ويرد له الخير والصحة. هذا الأدب يمثل فلسفة عميقة أقلقت عقول البشر. لكن قصة وفلسفة سفر أيوب قد سبقهما نصان قديمان أحدهما سومري والآخر بابلي يمثلان نفس الحكمة.

الإنسان وإلهه

«لولو نماه دنجيره»

هذه القصيدة وجدها بعثة جامعة بنسلفانيا في مدينة نيبور (160 كم جنوب بغداد) وتتألف من 139 سطراً مدونة على ستة ألواح، أربعة منها في متحف الجامعة في بنسلفانيا واثنين في متحف الشرق القديم في استانبول وقد جمع ما أمكن من الألواح الستة. إن أهمية القصة السومرية البالغة تكمن في كونها أول محاولة مدونة للإنسان في معالجة موضوع العذاب والخضوع الذي اشتهر في الأدب الديني في العالم بسبب سفر أيوب، رغم أنها دوّنت قبل سفر أيوب بألف عام. ويرى الشاعر السومري أن ليس للضحية المعذب، مهما تراءى له أنه لا يستحق ما حل به، سوى سبيل واحد لائق يسلكه وهو أن يمجد ربه دوماً ويتابع البكاء والتضرع والاستغفار منه حتى يستجيب له. وذلك الإله هو الإله الشخصي الذي يرعاه ويحميه ويشفع له في مجلس الآلهة. يعرض الشاعر قصة رجل لم يذكر اسمه، كان غنياً موسراً حكيماً وصالحاً ينعم بصفاء العيش مع الأصدقاء وذوي القربى. ثم أحدقت به المصائب والأسقام فلم يجدف أو يعترض على الله بل توجه إليه بذلة وخضوع وناح وذرف الدموع وتضرّع فسر إلهه لذلك وشمله برحمته واستجاب لصلواته فخلصه من بليته وأحال عذابه إلى فرح وسرور. وبعد أن يحث الشاعر الإنسان على التزام تمجيد ربه وابتغاء رضاه بالتضرع والتوبة يقدم قصة الرجل المجهول ثم التماسه المغفرة:

«إنني رجل عارف مدرك، لكن الذي يحترمني لا يفلح
لقد تحولت كلمتي الصادقة كذبا
لقد اكتنفني الرجل المخادع بـ «الريح الجنوبية» وأنا مكره أن أخدمه،
والذي يوقرني قد أخزاني أمامك
«لقد غمرتني بالعذاب المستديم المتجدد،
أدخل البيت وأنا مثقل بالأحزان،
وأخرج إلى الشوارع وأنا معذب القلب،
لقد غضب علي راعي الصالح الصنديد ونظر إلي نظرة العداء.
«لقد ساق علي راعي قوى الشر أنا الذي لست عدوه
وصاحبي لا يقول لي كلمة صدق
وصديقي يقول عن صدقي أنه كذب وزور
لقد تآمر علي الرجل المخادع

وأنت يا إلهي لا تحبط مسعاه...
«أنا الحكيم لم أقيد مع الأحداث الجهلة؟
أنا المدرك لم أحسب مع الجهال؟
الطعام وفير في كل مكان ولكن طعامي الجوع
في يوم «القسمة» كان نصيبي العذاب والألم.
«يا إلهي أريد أن أقف بين يديك
اريد أن أكلمك... وكلمتي أنين وحسرة.
أريد أن أعرض عليك أمري وأندب مرارة سبيلي.
أريد أن أندب اضطراب نفسي.
«على أمي التي ولدتني أن لا تكف عن الرثاء لي أمامك،
لتكف أختي عن الترنم وترديد الأغنية السعيدة.
ولتبك وتنح بمصائبي بين يديك.
لتصرخ زوجتي بالرثاء لعذابي.
وليندب المغني الماهر نصيبي التعس.
« «يا إلهي، يشرق النهار نيراً على البلاد لكن نهاري مظلم،
الدموع والنواح والجزع والغم ملازمة لي،
يحدق بي العذاب كمن لم يقدر له سوى الدموع،
الحظ السيء يمسك بي ويسلبني حق نفس الحياة،
والمرض الخبيث يعم جسدي...
« يا إلهي، يا من أنت أبي الذي ولدني، ارفع وجهي!
كالبقرة البريئة بعطف (اصغ) لأنيني.
إلى متى ستهملني وتتركني بدون حمايتك؟
إلى متى ستتركني بدون هدايتك؟
« لقد قال «الحكماء الصناديد» كلمة حق وصدق.
لم يولد لأم طفل بلا خطيئة
والطفل البريء لم يوجد قط منذ القدم»
« إن ذلك الرجل ــ قد استمع إلهه لبكائه ومر دموعه،
إن ذلك الشاب ــ قد استرضى نواحه قلب إلهه،
وتقبل منه إلهه كلماته الصادقة الطاهرة،
إن الكلمات التي اعترف بها الرجل في صلاته
قد أفرحت... لحم إلهه ــ فسحب يده من كلمة الشر،

لقد طرد شيطان المرض الذي نشر عليه جناحيه
والمرض الذي ضربه به ـــ قد أزاله وبدده
وبدل مصير السوء الذي قدر عليه بموجب حكمه،
وبدل عذاب الرجل فرحاً وحبوراً،
واقام إلى جانبه الملاك الحارس ليحميه ويحرسه
زوده... بملائكة سيماؤهم خيرة»

وقد روى نفس القصة شاعر بـــابلي بعنـــوان «لـــود لـــول بيـــل نمقـــي» (ســـأمجد رب الحكمة) حيث ينتهي الرجل الثري المصاب بأن يشفق عليه مردوخ وينقذه من آلامه:

سأمجد رب الحكمة
«لودلول بيل نمقي»

« نظرت خلفي فإذا الصعاب تطاردني،
وكأن ما من قربان قدمت لإلهي،
أو لم يسمع باسم آلهتي عند الطعام،
وكأني لم أخر على وجهي راكعاً،
وكأن سجودي لم يكن للعيان واضحاً،
أو كامرىء خرس لسانه وسد فوه عن الترجي والصلاة،
وأبطل الأعياد وأهمل التضحيات.
« كذلك الذي لم يناج ربه حتى وهو يلتهم طعامه
تاركاً ربته دون أن يقدم لوحاً لها،
مقسماً بإلهه المقدس بكل خفة وبساطة
هكذا ظهرت أنا
ولكني لا أفكر إلا بالتوسل والصلاة...
« لقد كانت الصلاة إحساسي والقربان واجبي بالحياة.
كان يوم تقديس الإله رغبتي القلبية
وعرس ربتي لي ربح وغنى وحمية،
كانت الصلاة من أجل الملك... لي فرحة
والعزف على الأوتار... لي رغبة
« إن ما يبدو للإنسان خيراً هو عند الله محتقر
وما يهمل في قلبه هو عند الله خير
من يعلم إرادة الآلهة في السماء؟
من يفهم خطط الآلهة في العالم السفلي؟
متى يعلم الناس طرق الآلهة؟
كيف يستطيعون الإحاطة بتغير إرادتها؟
« فمن عاش بالأمس قد أصبح اليوم ميتاً صريعاً
لقد أظلم فجأة وانسحق سريعاً
في لحظة ما تراه يغني ويلعب
لتجده بعدها في «النو» يولول كالأم الثكلى
وكما تتبدل الضياء والظلمة هكذا تتغير الإرادة
هذه الأشياء تذهلني ومغزاها فوق إدراكي!»

تنظيم العبادة في بابل

تنظيم العبادة في بابل

لقد نظر السومريون والبابليون والآشوريون إلى آلهتم كما ينظر الخدم إلى أسيادهم الصالحين، بخضوع وخوف، وأيضا بإعجاب وحب. وواجب الملوك والرعايا إطاعة الأوامر الإلهية وخدمة الآلهة. وبينما كانت إقامة الاحتفالات الدينية والطقوس المعقدة من عمل الكهنة كان من واجب كل إنسان أن يرسل التقدمات إلى الهيكل ويحضر الاحتفالات الدينية ويهتم بشؤون الموتى وأن يصلي ويستغفر وأن يعيش وفق المحللات والمحرمات المتبعة كل حياته، وإلا سقط في الخطيئة، لكن التقدمات والأضاحي وممارسة الطقوس لم تكن كل متطلبات الآلهة من سكان بابل. فمن أراد أن ينال رضى الآلهة عليه أن يعيش حياة صالحة مثل الآباء الصالحين والأبناء البررة، والجيران والمواطنين الصالحين وكان صادقاً، رحوماً، محباً، وعادلاً.

تقول حكمة بابلية: «اعبد إلهك كل يوم»،

لكنها أضافت: «كن رحيماً مع الضعفاء

ولا تهن منكسري القلوب

ليكن رائدك الخير والخدمة كل أيامك

لا تتلفظ بذم، بل قل ما هو حسن

وامتدح الناس، ولا تذكرهم بسوء»

كذلك دعت نصائح خلقية رفيعة:

«لا تسيء إلى خصمك

أحسن إلى من يسء إليك

عامل عدوك بالعدل

التقوى تولد السعادة

وتقديم القرابين يطيل الحياة

والصلاة تكفر عن الذنوب...»

من هذا نرى أن الديانة في بابل لم تكن طقوساً مجردة يمثلها البابلي أمام إلهه بل كانت أخلاقاً وقيماً وعلاقات حسنة مع باقي الناس وهذا ما نجده أيضا في مزامير التسبيح والابتهالات. ولكن كيف نظمت العبادة الطقسية؟

بنى البابليون المعابد أو بيوت الآلهة وسموها «بيتو» وكانت تختلف من حيث الحجم والمظهر الخارجي. بعضها صغير جداً وبعضها كبير مؤلف من دار واسع محاط بغرف كثيرة. يحوي مذبحاً ومصطبة يوضع عليها تمثال الإله كما بنيت المعابد الكبرى لكبار الآلهة. ولم تعد الهياكل بتلك البساطة التي تميزت بها هياكل السومريين المصنوعة من غرف بسيطة بنيت بالطين واللبن والقرميد والقصب وأصبحت هندستها أكثر تعقيدا وفيها

أماكن لجمهور المصلين وأماكن خاصة بالكهنة أو كبارهم وربما بدأ مع الساميين ذلك التقليد الديني القائل بأن كبار الآلهة «تتعامل» مع عبادها عن طريق الوسطاء من مختلف المراتب الكهنوتية.

وأعظم المعابد كانت «الزيقورات»، والزيقورة برج هرمي مدرج بني كمعبد في المدن الرئيسية في ما بين النهرين بين 2200 و 500 ق.م ويعرف منها 25 زيقورة في سومر وبابل وآشور واثنتين في عيلام «إيران؟». تبنى الزيقورة من اللبن والقرميد وتكون قاعدتها مربعة 52×52م، أو مستطيلة 52×38م، ولم يبق سوى زيقورة واحدة بارتفاعها الأصلي وأكثر الزيقورات محافظة على بنائها هي زيقورة أورم وأكبر زيقورة في شوجازميل في عيلام بارتفاع 24 متراً وقاعدة مربعة 102×102م. أشهر الزيقورات برج بابل ذو الطبقات السبع والذي بناه نبوخذ نصر. لم تكن الزيقورة تحوي تماثيل كالمعابد الأخرى على افتراض أن الآلهة أو الإله كان يأتي شخصياً إلى «بيته المقدس في أعلى الجبل» أي الطابق العلوي من الزيقورة.

لقد كان ملوك ما بين النهرين يتفاخرون في كتاباتهم بعدد المعابد التي شيدوها أو رمموها حتى قيل أن مدينة بابل وحدها والتي تقدر مساحتها بـ 500 فدان وسكانها بنحو 100 ألف نسمة كان يوجد فيها 1179 معبداً. أعظم تلك المعابد برج بابل اي ـ تمن ـ آن ـ كي» أي «معبد أسس السماء والأرض». هذه الزيقورة الضخمة التي وجدت مع مدينة بابل خربها سنحريب فأعاد بناءها نبوبولاصر وابنه نبوخذ نصر ولم يبق منها الآن سوى الأساسات بعد أن بلغت بطبقاتها السبع نحو 66 متراً وضلع قاعدتها نحو 100 متر وفي قمتها كان مقام (سهورو) مردوخ.

مذبح بدائي من الحجارة

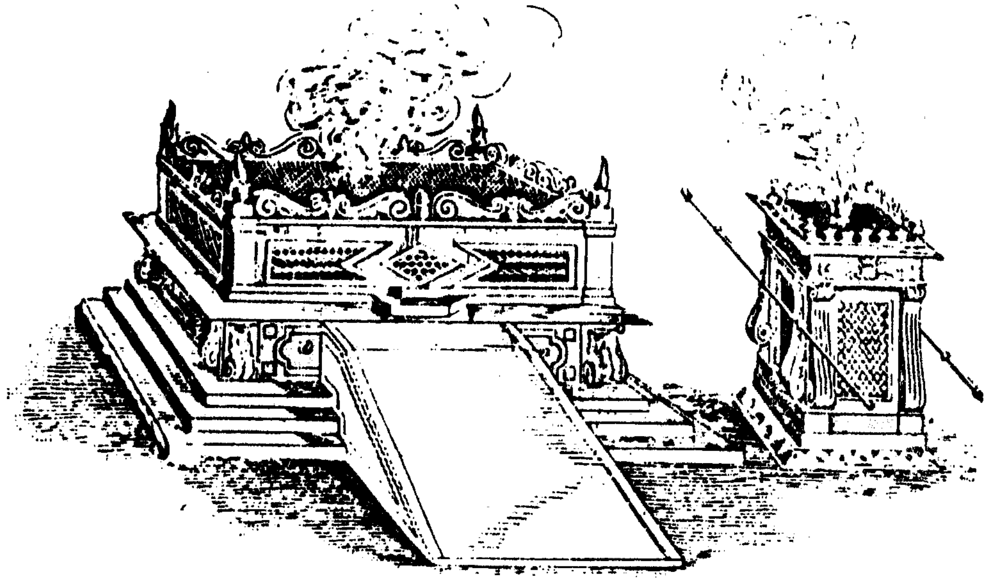

مذبح البخور و مذبح المحرقات

بوجه عام كان المعبد يتألف من دار واسع (كيسلماخو) محاطاً بغرف صغيرة فيها مكتبات ومساكن ومدارس الكهنة ومكاتبهم ومشاغلهم ومخازنهم واسطبلاتهم. وفي الأعياد الكبيرة كانت تستحضر تماثيل الآلهة من معابدها إلى هذا الدار. وأما في الأيام العادية فكان يؤمها الناس كافة بمن فيهم التجار الذين كانوا يعرضون بضاعتهم على المؤمنين الآتين للعبادة وتقديم القرابين وهذا ما كان يحدث في هيكل أورشليم أيضاً عندما طرد المسيح الباعة والصيارفة من الهيكل قائلاً لهم «مكتوب بيتي بيت الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص».

إلى جانب الدار الكبيرة كانت دار صغيرة في وسطها مذبح ثم الهيكل ذاته (اشيرتو) ولم يكن يسمح إلا لمرتبة معينة من الكهنة تدعى «أريب بيتي» بالدخول إليه. وكان المعبد مقسماً بقواطع لثلاث قاعات متتالية آخرها «قدس الأقداس» الذي كان يضم تمثال الإله صاحب الهيكل، وكان التمثال يصنع من الخشب المغطى بطبقة من الذهب ويوضع في مكان خاص في جدار قدس الأقداس وعند قدميه الزهور والمباخر وقرب الجدران مصاطب من القرميد تنتصب عليها تماثيل باقي الآلهة كما كان في الهيكل درجتان للمذبح وطسوت الغسل ومائدة الأطعمة المقدسة. بعض المواد كانت ثمينة، مثل خشب الأرز الذي استعمل أعمدة لحمل السقف وخشب الأبواب الذي كان يغطى بصفائح من النحاس أو البرونز وتحرس المداخل تماثيل الأسود والثيران والجن. وفي زوايا البناء تماثيل صغيرة تمثل الملك الذي قام بتشييده أو ترميمه. كانت هذه التماثيل بمثابة تعاويذ تحميه من شياطين العالم السفلي. كل يوم على مدار السنة كانت تقام الاحتفالات الدينية فيهتز الأثير بأنغام الموسيقى والتراتيل والصلوات ويصف الخبز والكعك والعسل والزبدة والفواكه على مائدة الآلهة. كذلك الماء والنبيذ والبيرة وتسيل دماء الأضاحي على المذابح وتختلط أدخنة اللحوم المشوية بدخان خشب الأرز والسرو والبخور. كل هذه الطقوس قصد منها خدمة الآلهة والتذلل أمامها كالعبد أمام السيد برهبة تمتزج بالحب والاحترام.

لقد تصور البابليون آلهتهم وكأنها تعيش حياة مادية فهي بحاجة لأن تغسل يومياً وتدهن بالزيت والطيب وتلبس وتأكل ويؤمن هذا الطعام واللباس عن طريق القرابين وهبات الملك وهو رئيس الكهنة. وفوق العبادة اليومية كانت بعض الأيام مقدسة كيوم ظهور القمر ويوم

احتفائه وعيد رأس السنة (اكيتو) وقد أحيته بعض المدن في الربيع. في بدء شهر نيسان (نيسانو) وفي الخريف في شهر تشرين (تشرينو أو قوزللو) أي كل ستة أشهر.

مراتب الكهنة:

كان الكهنة يقومون بدور الوسيط بين الآلهة والبشر. فهم أكثر علماً من غيرهم كيف يقترب الإنسان من خالقه. ومن أجل الحزانى والمرضى والخطأة التائبين كانوا يقدمون القرابين ويتلون الصلوات والمراثي وينشدون التراتيل والمزامير. ولكون الكهنة يعلمون بالغيب، كان الملك والرعايا يسترشدون بتنبوءاتهم عن طوالعهم، وكان الملك يتجنب سوء الطالع بتقدمة بديل بشرى عنه. وهناك مثلان جديران بالذكر هنا، أولهما أن «ادا ــ امتي» اغتصب الملك في ايسين (1868 – 1861)ق.م ولما تنبأ له العرافون بسوء المصير وغضب الآلهة عليه، اختار رجلاً من عامة الشعب وهو البستاني «انليل ــ باني» أن يكون بديلاً يجلس على عرش ايسين مئة يوم ثم يقتل بدلاً عنه فيموت «الملك البديل» عوض الملك الحقيقي ولكن لم تنجح حسابات الملك «ادا ــ امتي» بل مات في قصره لأنه شرب الشوربة وهي تغلي واصبح البستاني «انليل ــ باني» ملكاً حقيقياً من (1860 – 1837) ق.م. وفي أيام آشور بانيبال ملك آشور (668 – 631)ق.م. تنبأ له العرافون بسوء الطالع فكان عليه أن يتهرب من الموت باختيار «ملك بديل» وكأنه يخدع الالهة بموت البديل، فاختارت نبية ما شابا يدعى «دمقي» وزوجوه بإحدى وصيفات القصر وعينوهما ملكاً وملكة لفترة وجيزة ثم قتلوهما، وهكذا «نجا أشور بانيبال من الموت» حسب معتقدات سكان الرافدين وذلك بموت بديل عنه.

في الأصل كانت الصلوات والتراتيل تتلى باللغة السومرية، لكن السلالة البابلية الأولى (السلالة الأمورية التي منها حمورابي) أدخلت اللغة الآكادية السامية إلى المعبد، وفي بعض التقاليد كانت الصلاة «توشوش» في قصبة في الأذن اليمنى لشور ما بالسومرية وفي اذنه اليسرى بالآكادية وكان الكهنة يقومون بأعداد كبيرة بخدمة المعابد الكبرى ويترعرع أبناؤهم وأحفادهم فيها، ويدرسون في مدرسة المعبد المسماة «بيت مومي» أي بيت المعرفة، وهذه مراتب الكهنة:

1 ــ إنّو ــ هو رئيس الكهنة.

2 ــ أوريجاللو ــ الحاجب وحارس المعبد وبواباته.

3 ــ مشماشو ــ هو الكاهن الذي ينشد التراتيل.

4 ــ يشيشو ــ الكاهن الذي يدهن الآلهة بالزيت ويرتب موائدها.

5 ــ كالو ــ الكاهن الذي ينشد المراثي ويقوم بالمراسم الجنائزية.

6 ــ آشيبو ــ الكاهن المعوذ الذي يطرد الشياطين.

7 ــ بارو ــ الكاهن الذي يفسر الأحلام وينبىء بالمستقبل.

والـ «بارو» أو الكاهن المتنبىء يجب أن يكون من أصل شريف ونسب قديم وأن يكون آباؤه وأجداده من الكهان، وهي أمور لا تشترط في المعوذ، وعليه معرفة إرادة الآلهة، والـ «آشيبو» المعوذ حين يقوم بالتعويذة إنما ينوب عن الإله أيا وابنه مردوخ، لذا يسمي الاشيبو نفسه «رجل أيا» و«عبد أيا» و«رسول أيا ومردوخ» وكانت مدينة

أريدو الموطن القديم لعبادة «أيا» ولهذا كان يقال أن الآشيبو ولد في المدينة وأنه «مظهر عبادة أريدو»، والآشيبو ليس رسول أيا وحسب بل هو متحد معه، وقد حل أيا فيه ولهذا يقول في إحدى التعاويذ عن إلهه أيا:

«وضع تعويذته الطاهرة في تعويذتي
وضع فمه الطاهر في فمي
وضع لعابه الطاهر في لعابي
وضع بركته الطاهرة في بركتي»

كما يقول الاشيبو في تعويذة أخرى:

«انظر إلي يا «أيا» يا ملك المياه العميقة
أنا الآشيبو عبدك
تعال إلى يميني واسرع إلى شمالي
ضع تعويذتك الطاهرة في تعويذتي
ضع فمك الطاهر في فمي
اجعل كلامي الطاهر طيباً
اجعل كلمة فمي شافية
مر بأن تكون طقوسي طاهرة
كن الشفاء حيثما ذهبت
وليحل الشفاء بمن ألمسه.»

وحلول الإله «أيا» في الآشيبو يقابله ارتباط الشيطان بالمريض الذي يعالجه الاشيبو بالتعاويذ، فيقول الآشيبو في إحدى التعاويذ مخاطباً الشيطان:

«لا تقترب من الرجل (المريض) ابن إلهه ولا تمل إليه
لا تضع رأسك فوق رأسه
لا تضع يدك فوق يده
لا تضع قدمك فوق قدمه
لا تلمسه بيدك
لا تلفت عنقك نحوه
لا ترفع عينيك إليه
لا تنظر خلفك
لا تتلفظ بشيء عنه
لا تدخل البيت»

والشيطان لا يكتفي بالتسلط على المريض ولكنه يلازمه طول حياته، ولهذا يقول الآشيبو في ختام إحدى تعاويذه مخاطباً الشيطان:

«اخرج من وسط البيت
لا تقترب من الرجل (المريض) ابن إلهه، ولا تمل إليه
لا تجلس معه فوق كرسيه
لا تسترح فوق سريره
لا تصعد معه إلى سطح بيته
لا تدخل معه إلى بيته»

وكانت هناك مراتب دنيا من الكهنة بالإضافة إلى المغنين والموسيقيين والفنانين والخدم والعبيد ثم نساء المعبد، وكانت رئيسة الكاهنات تدعى «انتو» وتكون عادة من العائلة المالكة، يليها الكاهنات «نديتو»، ويسمح لهن بالزواج دون إنجاب الأولاد ما دمن داخل المعبد، وكن من الطبقة العليا. وبعد الكاهنات تأتي المراتب الدنيا من النساء اللواتي وهبن أنفسهن «للبغاء المقدس» ولم يكن هذا بالشيء المشين كما هو في أيامنا. كل هؤلاء الناس أقاموا في حظيرة المعبد مجتمعاً خاصاً بهم له طقوسه وقوانينه وحقوقه، واعتمدوا في معيشتهم على دخل المعبد من أراضيه ومن الهبات والتجارة والصيرفة ومن «المذبح»، وكانوا يتدخلون في حياة الدولة والأفراد، حتى أنهم في بعض الحالات تسلطوا على الدولة واستغلوها كما حدث في «لغش» مما اضطر «اوروكاجينا» إلى الانتفاضة ضدهم وإصدار إصلاحاته، وهكذا ومع الزمن حدث تطور هام في الميدان السياسي والاقتصادي، إذ انتقل مركز الثقل من المعبد إلى القصر.

الشياطين:

كانت حياة أهل بابل وآشور تكتنفها دائماً مخافة الشياطين وعمل آشيبو وتعاويذه على طردها. فقد اعتقدوا بها وتصوروها مخلوقات عجيبة يمكن أن تتخذ أية صورة وتنفذ في الأجسام وتفضل الأماكن المهجورة والمظلمة والخرائب والمدافن ولها أصوات خاصة وقد صوروها في فنهم بأجسام الإنس ورؤوس الحيوانات أو خليطٍ من أعضاء حيوانية مختلفة جمعت على شكل رهيب، وكان الشياطين في الغالب أرواحاً شريرة صعدت من جوف الأرض، بعضها من أرواح الموتى الأشرار التي تصعد لتنتقم وتهاجم البشر وتضاعف الكوارث. ولا عاصم للإنسان منها ولو كان صالحاً وربما اتصل بأحدها من غير قصد.

لكن الخطيئة كانت أهون سبيل يستطيع به الشيطان الدخول لجسم الإنسان ومن الخطايا إهمال الطقوس الدينية والسرقةوالقتل وإذا أذنب الإنسان تخلى عنه إلهه الحارس فيصير طريقه مفتوحاً للشياطين تدخل جسمه وتعبر عن وجودها بالمرض أو الأحلام المفزعة أو الجنون أو العاهات النفسية كسماع الأصوات الغريبة في البيت.

وكان شيطان الحمى أهول الشياطين منظراً، فقد كان له رأس أسد وأسنان حمار وأطراف نمر أرقط صوته الزئير، يمسك بيديه أفاعي هائلة وكان كلب أسود وخنزير يداعبان ثدييه. فكان المريض صاحب إثم و«مسكون» من أحد الشياطين. أما شيطان الرأس الذي يسبب الصداع فيسمى «اشكو»، وكان الآشيبو أو الكاهن المعوذ يتولى طرد الشياطين كما مر ويكتب التمائم.

وعلى تميمة بابلية برز الشيطان من ظهره بجناحيه وأطرافه ورأسه وهي تمت كلها إلى عالم الحيوان. وجهه المروع يبدو في أعلى وجه التميمة كذلك ترى تحت رموز الآلهة «شياطين الحمى السبعة»، وفي الوسط يرقد المريض على فراشه. يحيط به الكهنة بملابسهم التقليدية وفي أسفل التميمة نرى الشيطان وقد طرد من الجسم ولاذ بالفرار وكان قوام التعويذة تلاوة عبارات سحرية مع أداء طقوس معينة ووصف المريض لكربه وآلامه وأمله في الغفران وكان يرش على المريض «ماء مقدس» وتلقى قطع لحم ليمسك بها الشيطان فيفك قبضته عن جسم المريض.

وفي مداواة لسعة العقرب ــ كانت تتلى الرقى فوق الجزء المصاب ثم يأخذ المريض في فمه سبع حبات قمح مع بعض الأعشاب ويمضغها معا ثم يذهب إلى النهر ويغطس فيه سبع مرات وفي المرة السابعة يبصق ما في فمه في الماء.

والتعاويذ نوعان، «مثلو» و«شربو» أي الاحراق وذلك لأنه كان يصحب الرقي إحراق شيء ما على سبيل السحر، ومن شياطين العالم السفلي «نمتار» أي القدر وزير ارشيكيغال ملكة العالم السفلي ورسولها، يسبب الأمراض والأوبئة ويقبض أرواح الناس كعزرائيل. ومن شياطين العالم السفلي أيضاً سبعة رافقوا عشتار عند خروجها من الجحيم وقد وصفتهم القصيدة هكذا:

«إن الذين رافقوا انانا (عشتار)
كانوا مخلوقات لا يعرفون الطعام ولا يعرفون الماء
فلا يأكلون من الطحين المبسوس
ولا يشربون ماء القرابين
لا يتمتعون في حضن امرأة
ولا يقبلون الأطفال الأصحاء
إنهم يأخذون الزوجة من حضن زوجها
ويأخذون الرضيع من ثديي أمه
إنهم يأخذون ابن الرجل من فوق ركبتيه
ويسلبون الكنة من بيت أبي زوجها»

كذلك آمن الكنعانيون بأن المرض يتسبب عن شيطان يدخل الجسم وقد بينت علوم القرنين 19 – 20 أن شياطين المرض هي بالدرجة الأولى الطفيليات والجراثيم والفيروسات. لكن الكنعانيين قد لاحظوا علاقة الذباب بالمرض ونقله، لذا دعوا رئيس الشياطين «بعلزبوب» أي «سيد الذباب» وكان من آلهة الكنعانيين والفلسطينيين ثم أطلق اسمه على رئيس الشياطين وقد ورد في لإنجيل متى 24:12 اسم بعلزبول رئيسا للشياطين وفي العهد القديم، ذكر بعلزبوب على أنه إله المدينة الفلسطينية عقرون كذلك اليهود الأوائل كانوا يخافون الأرواح الشريرة التي تقيم في الأماكن المهجورة ومنها الشيطان «عزرائيل» الساكن في البرية وترسل إليه «يوم الغفران» عنزة محملة بخطايا الشعب اليهودي. و«ليليت» الشيطانة الأفعى التي تتجول في الليل والتي تزوجت من آدم بعد أن هجر حواء. والشيطان «سمائيل» الذي دخل في العجل الذهبي الذي صبه هارون ليعبده

العبرانيون وكان له خوار البقر ففش بني اسرائيل وعبدوا العجل ثم دعوا ملك الموت «سمائيل» وكلمة شيطان عبرية وتعني «الضد» أو الخصم لأنه يعمل ضد الصلاح الإلهي ويسمح له الله بتجربة الإنسان ليمتحن مدى خضوعه لإرادة الله وكلمة «إبليس» يونانية وتعني «النمام» وهو تجسيد لروح الشر الكبرى عدو الله والإنسان ورئيس الشياطين الصغار.

لكن الميثولوجيا العبرانية تصور الإله يهوه يصارع التنين «رهب» أو « لوياتان» الذي يمثل الشر:

«الله لا يرد غضبه ينحني تحته أعوان رهب» «سفر أيوب».

«كسرت رؤوس التنانين على المياه أنت رضضت رؤوس لوياتان جعلته طعاماً للشعب لأهل البرية» «مزمور 74»

وبعد أن تأثر اليهود بالفرس أخذت فكرة الشيطان تعني الشر والظلمة وأخذوا بمبدأ الثنائية أي أن الله يمثل قوى الخير والنور والشيطان يمثل قوى الشر والظلمة وهما خصمان مثل اهورا مزدا واهريمان. وأن إبليس وجماعته الشياطين يمثلون الملائكة الساقطين.

A GROTESQUE ASSYRIAN DEMON

احد كبار الشياطين (فن اشوري)

البانثيون السومري

إن مجمع الآلهة السومري موسع جداً ويضم 3000 - 4000 إلهاً مبتدئاً بالبحر الأول «نمو» أم الخليقة، وأهمهم:

آنو (Anu):

أبو الآلهة ورئيسهم وابن «نمو» أم الخليقة، ولدته مع مرور الزمن وتمدد على شكل قوس من قطب إلى قطب فصار السماء وإله السماء. هو رئيس الثلاثي آنو، وانليل وانكي أي السماء والهواء والأرض. وفي علم الفلك السومري اصبح الثلاثية يمتلكون المدارات الثلاثة. رقمه الرمزي ستون (60) الذي أصبح رقماً مقدساً واساساً للحساب الستيني في قياس الزمن والدائرة. فالساعة ستون دقيقة والدقيقة ستون ثانية والدائرة 360 درجة» «60 × 6» والدرجة ستون دقيقة...الخ. حيوانه الرمزي «الثور الضخم» الذي هو رمز كبار الآلهة مثل ايل وزفس، ويمثل «ثور السماء». من هذا الرمز نرى أنه كان في الأصل من آلهة الرعاة وخاصة رعاة البقر.

لم يوصف آنو بقوة معينة بل أصبح مرادفاً «للسماء» فقط ويعني «العلي» مركز عبادته الرئيسي في مدينة اوروك مع ابنته «إنانا» «عشتار الزهرة» لكنه ليس إله مدينة معينة. سميت له قرينة باسم «انتوم» على افتراض أن لكل إله زوجة وهي في الحقيقة «عشتار آنونيتو» أي «عشتار السماوية» ملكة السماء. وكأب للآلهة كان يترأس الاجتماعات السماوية ويمنح المناصب الكبرى كالملك والإمارة، له الجلال والسلطة العليا، وقد حل مكانه «انليل» في رئاسة الآلهة فيما بعد.

انليل (Enlil):

ابن آنو، وإله الهواء والرياح، ولد من اتحاد آنو وكي (الأرض) وفصل بينهما. والريح بالنسبة لسكان ما بين النهرين ليست العاصفة العاتية المدمرة بل الريح الرطب المحيي الذي يجلب معه الأمطار فيسقي الصحارى والحقول ويزيدها خصباً وخضرة، وفي الصيف يساعد تذرية الحبوب على البيادر. قرينة انليل هي «نينليل» (Ninlil) آلهة الحبوب وابنتهما آلهة الشعير وابنهما «نانا» (سين) إله القمر.. وإنليل هو إله مدينة نيبور حيث يترأس مع آنو مجامع الآلهة في بلاطه المسمى «اوبشواوكينا»، ولكونه ملك كل البلدان فهو يمنح مع أبيه آنو المناصب العليا كالملك والإمارة، كلمته هي الريح التي تنفذ مقررات المجمع الإلهي، فإذا قررت الالهة تدمير مدينة ما نفخت «كلمة» انليل كالعاصفة ودمرتها، إن «كلمته» تهز السماء وتزلزل الأرض.

لقد عظم انليل فنظمت له التراتيل الدينية ونسجت حول اسمه الأساطير التي منها «خلق المعول» واسطورة انليل ونينليل وكيف خطفها وذهبا إلى العالم السفلي واتحدا وأنجبا «نانا» إله القمر السومري وغيره من الآلهة.

ونعرف من هذه الأساطير والتراتيل أن «انليل» كان يعد إلهاً محسناً رحيماً ويعزى إليه تدبير وخلق أهم العناصر المنتجة في الكون. يخرج النها ر وجميع البذور والأشجار من

الأرض ويحب البشر بعطفه ورحمته ولأنه حمل الخير والبركة إلى البلاد، صنع المحراث والفأس لتكون النماذج الأولى للآلات الزراعية التي ينبغي للإنسان استعمالها. إنه يتحلى بالحنو الأبوي ويعنى بسلامة جميع البشر وخيرهم ولا سيما أهل بلاد سومر. وهذه مقاطع من ترتيلة إلى انليل مؤلفة من 170 سطراً:

«انليل ذو الأمر الواسع المدى الذي «كلمته» مقدسة
الرب الذي لا يبدل كلامه، الذي يقدر المصائر إلى الأبد
الذي تبصر عيناه المتفرستان جميع الأقاليم
الذي تغلغل نوره المتعالي في قلب جميع البلدان
انليل الذي يجلس مالئاً المنصة البيضاء الذي يتبوأ المنصة السامية
الذي يحكم إرادات القوة والسيادة والإمارة
آلهة الأرض تسجد خشية ورهبة
وتتذلل آلهة السماء أمامه»
«مدينة نيبور ذات مظهر يبعث الخوف والرعب
الضالون والأشرار، الظالمون والنمامون
المتجبرون والناكثون للعهد، جميعهم لا يقر شرهم في المدينة
والشبكة العظمى. لا يدع الأشرار والظالمين يفلتون من شراكها.»
نيبور هي المزار حيث يسكن «الأب» «الجبل العظيم»
منصة البركة والخير في معبد «ايكور» الذي يعلو
الطود الشامخ، الموضع المطهر،
أميره «الجبل العظيم» «الأب انليل.»
قد أقام مجلسه على منصة «ايكور» المزار السامي،
المعبد الذي لا ترد ولا تبدل نواميسه المقدسة مثل السماء،
شعائره ومناسكه المطهرة مثل الأرض لا يمكن محوها.
إن نواميسه المقدسة كنواميس «العمق» ما من أحد يستطيع إدراكها،
وقلب المعبد كالمزار القاصي. وسر خفي كسمت السماء
كلماته صلوات
مناسكه ثمينة غالية
أعياده يجري فيها السمن واللبن وهي غنية بالخير العميم
مخازنه تجلب السعادة والأفراح
«بيت انليل» إنه جبل الخير العميم»...
«آل «ايكور» بيت اللازورد المسكن السامي الذي يبعث الرعب في القلوب
إن رهبته وخشيته لتضاهيان السماء

كل الأسياد والأمراء يأخذون إليه الهدايا والقرابين المقدسة
يقيمون الصلوات هناك ويتلون الدعوات والتضرعات»
«اي «انليل».. إن الراعي الذي شملته بعين رضاك
ودعوته ورفعت شأنه ومقامه في البلاد..
هو الذي يقهر البلاد الأجنبية ويطرحها أرضاً في القتال
فيجلب القرابين من كل مكان والأضاحي.
والقرابين من الغنائم الكثيرة
وفي المخزن،
وفي الأبهاء المرتفعة يأتي بقاربينه.
انليل الراعي الجليل الدائم الحركة
هو الراعي القائد لكل حي
لقد أوجد إمارته ووضع التاج المقدس على رأسه»
«في السماء هو أميرها الأول وعلى الأرض هو عظيمها وكبيرها
وبين «الأنوناكي» هو ربها العظيم،
وعندما يقدر المصائر وهو في جلاله ورهبته
لا يجرؤ إله على أن ينظر إليه.
بل إلى وزيره المبجل فقط إلى صاحبه «نسكو»
يبلغ أمره ويعلن كلمة قلبه
يكشف عنها ويبلغها
حيث ينيط به تنفيذ أوامره الشاملة لكل شيء
إنه يأتمنه على جميع الأوامر المقدسة وجميع النواميس المقدسة».

لولا انليل

«لولا انليل، الجبل العظيم
لما بنيت المدن ولا أقيمت المستوطنات،
لما بنيت المرابط ولا أقيمت الحظائر،
لما أقيم ملوك ولا ولد كبار الكهنة،
ولغدا العمال وليس عليهم رئيس ولا مشرف.
لولاه ما جلبت الأنهار مياه الفيض والارواء،
لولاه ما وضعت الأسماك بيوضها في أدغال القصب،
ولما بنت أطيار السماء أعشاشها في الأرض الموحشة،

لولاه ما جاءت سحب السماء السائرة بمياهها
ولما نمت النباتات والأعشاب تزهو بها السهول
ولا أقبلت الحبوب الوفيرة في المروج والحقول
ولما أعطت الأشجار في غابة الجبل ثمارها..»

إنليل يعطي الفأس للإنسان

«فصل إنليل الأرض عن السماء
ليجعل المخلوقات الناشئة تنمو
صنع الفاس وكان نهار،
وأودع في الفأس والسلة،
الحول والقوة، ومجد إنليل «فأسه»
وفرض العمل وقرر المصائر،
وبمحضر الأنوناكي الذين أحاطوا به،
وضعها منحة في أيديهم،
لقد صلوا وسبحوا إنليل،
وأعطوا الفأس إلى البشر ليعملوا بها».

أنكي (Enki):

هو الإله الثالث في ثلاثي آنو ــ إنليل ــ انكي. إله المياه العذبة في العمق والنهر والبحيرات والمستنقعات وإله مدينة «اريدو». عرف بحكمته العظيمة فلقب بـ «السيد ذو العين المقدسة» كان رمزه الوعل ثم أعطي شكلاً بشرياً. كان اسمه القديم «ابسو» أي المياه الجوفية، واسم انكي يعني «سيد الأرض»، وبسبب قدرة الماء على التنظيف اصبح «إله الوضوء».

والده انليل وجده آنو وزوجته «دامغالتونا» «زوجة الأمير العظيمة» وهو «ايا» عند الساميين وهي عندهم «دامكينا»، أوكل إليه إنليل تعليم الإنسان أساليب الحياة وتنظيم شومر. فإنليل يضع الخطط العامة وإنكي المدير الحكيم ينفذ التفاصيل، علم الإنسان الفلاحة والزراعة وبناء أكواخ القصب، وكدن الثيران وزرع الحبوب وبنى الصوامع ورعى الماشية وبنى الحظائر، كما علم الإنسان جبل القرميد وشيه وبناء المساكن، وأوكل آلهة صغارا لتنظيم ذلك.

وفي قصة الطوفان علم انكي الملك الصالح «أوتنابشتايم» (زيوسودرا) أن يبني فلكاً وينجو به. و«نعمة الفهم» عند حمورابي تعزى إلى انكي الحكيم. ورغم حكمته سكر انكي مرة فسرقت منه أنانا مئة تشريع سماوي، كما أخطأ أنكي في قصة أدبا أو «سقوط الإنسان» فأفقد الإنسان الحياة الأبدية.

ومن الأساطير التي حيكت حوله «أسطورة دلمون» وفيها أوجد عدة آلهة منها «أتو» العنكبوت آلهة النسيج، وأسطورة «أنكي ونينماخ» وتحكي عن خلق الإنسان،

و«أنكي ينظم سومر». وبما أنه إله المياه والحكمة ومعلم البشر فقد صوروه رجلاً بجسم سمكة، يعلم الناس في النهار وينزل في البحر ليقضي الليل.

أنكي ينظم سومر

يا «سومر» أيها البلد العظيم بين جميع بلدان العالم،
أنت مغمورة بالنور الثابت الراسخ، الذي ينشر
من مطلع الشمس إلى مغربها، النواميس الإلهية بين جميع الناس.
إن نواميسك المقدسة نواميس سامية لا يمكن إدراكها.
قلبك عميق لا يسبر غوره،
المعرفة الصحيحة التي تأتين بها.. كالسماء لا يمكن أن تمس.
الملك الذي تلده متوج بالتاج الأبدي
والسيد الذي تنجبه يضع التاج على رأسه إلى الأبد.
سيدك مبجل، وملكك يجلس مع آنو على المنصة السماوية
إن ملكك هو «الجبل العظيم» هو «الأب انليل».
والأنوناكي الآلهة العظام
اتخذوامواطنهم في وسطك
وفي أحراشك الكبيرة يأكلون طعامهم.
فيا بيت سومر عسى أن تكثر حظائرك وتتضاعف أبقارك
عسى أن تكون حظائر أغنامك وفيرة وماشيتك لا عد لها.
عسى أن ترفع معابدك الثابتة أيديها إلى السماء
وعسى أن يقدر الأنوناكي المصائر في وسطك.
لقد أتى أنكي إلى «أور» إلى المزار
أنكي « ملك العمق» يقرر مصيرها قائلاً:
«أيتها المدينة الموفورة الزاد، العميقة المياه
القائمة كالثور القوي الثابت
أنت منصة خير البلاد أنت خضراء كالجبل
أنت غابة «الخاشور» ذات الظلال الوارفة
عسى أن يحسن توجيه نواميسك المقدسة التي اكتملت
لقد أعلن «الجبل العظيم» «انليل» اسمك المتسامي في السماء والأرض
أيتها المدينة التي قدر مصائرها أنكي
يا أور المزار، عساك أن ترتفعي إلى عنان السماء»

ثم يذهب أنكي إلى «ملوخا» الجبل ويوزع خيراته. ثم يتجه إلى دجلة والفرات فيملأهما بالماء العذب الرائق، ويوكل على شؤونهما الإله «انبيلولو» ثم يملأ الأنهار بالأسماك ويوكل عليها «ابن كيش»، ثم يقصد إلى البحر ويقرر نظامه ويعين عليه الالهة «سيرارا».

ثم ينادي أنكي الرياح ويوكل على شؤونها الإله «ايشكور» الذي يمتطي العواصف المرعدة. وينظم بعد ذلك أمر المحراث والنير والحقول والمزروعات:

«لقد وجه المحراث والنير...
الأمير العظيم أنكي جعل الثور (يفلح)
نادى على الغلال الطاهرة
وفي الحقول الراسخة جعل الحبوب تنمو،
هو السيد جوهرة السهل وزينته.
ولفلاح انليل انكيمدو
أوكل أنكي شؤون القنوات ومصارف المياه.
لقد نادى السيد على الحقل وجعله ينتج الغلال الوفيرة
جعله أنكي ينبت «الفول الكبير» و«الفول الصغير»
كدس الحبوب وملأ بها الأهراء.
أنكي أكثر الأهراء في البلاد
ومع انليل يزيد الوفرة والخير في الأرض.
السيدة ذات الراس (المشعر) والوجه (الذهبي)
السيدة التي هي منبع قوة البلاد
والسند الثابت لذوى الرؤوس السود،
«اشنان» قوة كل شيء
أوكل إليها أنكي تدبير تلك الشؤون».

ثم التفت أنكي إلى الفأس وقالب القرميد وعين «كبتا» لتنظيم شؤونهما ودبر آلة البناء ووضع أس المساكن وأوكل شؤونها للإله «مشدما» «بناء انليل العظيم» وملأ السهول بالأعشاب والنبات والحياة الحيوانية وعين الإله «شوموقان» «ملك الجبل» على شؤونهما. ثم شيد أنكي الحظائر والزرائب وملأها باللبن والزبد وعين على أغنامها الإله الراعي دوموزي (تموز).

ومن قصيدة أنكي ونينماخ وخلق الإنسان: أخذ الآلهة يجدون المصاعب في الحصول على قوتهم ولاسيما بعد أن جاءت الالهات إلى الوجود كان الآلهة يتذمرون ويشكون، لكن أنكي إله الحكمة والماء لم يكترث لشكواهم بل ظل مضطجعاً في مياه العمق فدنت منه «نمو» آلهة البحر الأول، وأم جميع الآلهة، تذرف الدمع وتخاطبه:

«يا بني قم من فراشك واعمل ما هو حكيم ولائق

اصنع عبيداً للآلهة، عساهم يضاعفون عددهم!
تدبر الإله أنكي الأمر وقاد جميع الصناع المهرة، وقال:
يا أماه! إن المخلوق الذي نطقت باسمه موجود،
فاربطي عليه صورة الآلهة.
أعجبني الطين الموجود فوق «مياه العمق»
فاجعلي «الصانعين المهرة» يكثفون الطين
وعليك أنت أن توجدي له الأعضاء والجوارح
وستعمل نينماخ من فوق يدك
وستقوم معك أم الولادة أثناء صنعه
يا أماه! قدري مصيره
وستربط عليه نينماخ صورة الآلهة!
إنه الإنسان...»

وأما أسطورة دلمون والفردوس فهي وصف لكمال البدء وقد أضيفت إلى ملحمة الخليقة.

وفيما يتعلق بصغار الآلهة السومرية فقد توزعوا حسب المناطق الاقتصادية والمدن التي تقع فيها، فإن الصبغة الاقتصادية تطغى على المعتقدات السومرية.

آلهة المناطق :

منطقة المستنقعات الجنوبية الشرقية:

1 ــ أنكي إله مدينة اريدو ومنه تتحدر آلهة هذه المنطقة.

3 ــ اسللوحي (asalluhe) إله مدينة قصار قرب أريدو ويعادل مردوخ البابلي. وهو ابن انكي و«مبلل الناس» سماه الرعاة ايشكور (Ishkur) والفلاحون نينورتا (Ninurta) وفي الأناشيد هو أول من لاحظ الشر ولفت نظر انكي إليه. ومن الغيوم الراعدة يراقب الناس من الأعالي.

3 ــ دوموزي ــ ابسو (Dumuzi - ABZU) آلهة مدينة كينيرشا في منطقة لغش. هي القوة الكامنة وراء الخصب والحياة المتجددة في المستنقعات، تحرك الأجنة في الأرحام وتعادل دوموزي الراعي في منطقة الرعاة وابنة أنكي.

4 ــ نانشي (Nanshe) آلهة مدينة نينا (سرغل) جنوب شرقي لغش. آلهة السمك وصيد الأسماك ورمزها السمكة. كانت ماهرة في تفسير الأحلام. تهتم بالإنصاف والعدل والعدالة الاجتماعية، ابنة أنكي، زوجها «نيندارا» جابي البحر. وقد نظمت تراتيل سومرية تبين أن حكماء سومر قد فضلوا ما هو أخلاقي وصالح على الفساد و

الخروج على مبادىء الأخلاق، وقد خصوا عدة آلهة بالإشراف على النظام الأخلاقي بكونه وظيفتهم الرئيسية كالإله أوتو (الشمس) والآلهة نانشي على أنها خصصت نفسها لرعاية الصدق والعدل والرحمة. من هذه التراتيل واحدة قوامها زهاء (250) سطراً تحوي أوضح أقوال في السلوك والأخلاق وهي تصف الآلهة نانشي:

« هي التي تعرف اليتيم وتعرف الأرملة،
تعرف ظلم الإنسان للإنسان، وهي أم اليتيم،
نانشي التي تعتني بالأرملة.
التي تنشد العدل لأفقر الناس
إنها الملكة التي تحتضن اللاجئين بها،
وهي الملاذ للضعفاء...»

وفي نفس هذه الألواح التسعة عشر التي وجدت في نيبور، مقاطع غامضة تصور نانشي وهي تقوم بمحاكمة البشر يوم رأس السنة وإلى جانبها «نداباً» (Nidaba) آلهة الكتابة والحسابات، وزوج ندابا «حايا» (Haia) وشهود عديدون. وقد وصف الأشرار من البشر ممن وقع عليهم سخطها هكذا:

«من سلك سبيل العدوان واغتصبت يداه ما ليس له،
من تخطى النظم المقررة ونقض العقود والعهود،
من نظر نظرة الرضى إلى مواطن الشر،
من بدل الوزن الكبير بالوزن الصغير،
من بدل الكيل الكبير بالكيل الصغير،
من أكل ما ليس له ولم يقل أكلته،
ومن شرب ما ليس له ولم يقل شربته،
من قال «لآكلن ما قدم حرم»
ومن قال لأشربن ما قد حرم»
«نانشي تواسي اليتيم ولا تهمل الأرملة
تعد المكان الذي تهلك فيه الطغاة
وتسلم الأقوياء إلى الضعفاء...
إن نانشي تبحث في قلوب البشر.»

وقد وجه جوديا انزي لغش الورع باني المعابد ابتهالاً إلى مفسرة الأحلام نانشي نحو (2500)ق.م، وبعد أن قدم لها القرابين:

«أي مليكتي يا ابنة السماء الصافية
التي تنصح بكل ما هو خير للأتقياء
أنت يا من تحتلين المرتبة الأولى في السماء

أنت يا من جلعت الأرض حية
أنت الملكة الأم التي أسست لغش
الشعب الذي تشملينه بنظراتك يزخر بالقوة
والتقي الذي تنظرين إليه ستطول حياته
ليس لي أم... أنت أمي
ليس لي أب... أنت أبي
ولدتني في المعبد
أنت لك معرفة كل المحاسن
عندما أذهب إلى مدينة نانشي
يذهب أمامي المقرب إليك «اوتوكو»
يقتفي أثري المقرب إليك «لامازو»
خيراً أريد التكلم، سأطرح هذه الكلمات
أمي، ساسرد لك حلمي
أترغب مفسرة الأحلام أن تفسره لي».

5 ـ نينمار (Ninmar) آلهة مدينة «غبا» جنوب شرقي لغش، آلهة الطيور ورمزها الطير. ابنة نانشي وحفيدة أنكي.

منطقة البساتين الجنوبية

وتمتد من أوروك إلى أور، وهي أرض مليئة بالنخيل منذ أقدم العصور، وآلهتها تهتم بالعالم الآخر إلى جانب اهتمامها بالأشجار والنبات.

من أهم هذه الآلهة أنانا في أوروك آلهة مخازن التمور وعريسها دوموزي أمارشوم غالانا ـ القوة الكامنة وراء النمو والتجدد في النخيل.

1 ـ نينازو (Ninazu) إله مدينة «انغير» على الفرات الأسفل بين «لارسا» و«أور» ومدينة «أشنونا» في منطقة ديالي. من آلهة العالم السفلي وابن آلهة الجحيم «اريشكيغال» زوجته «نينغيردا» ابنة انكي.

2ـ نينغيشزيدا (ningishzida) إله مدينة «غيشباندا» غرب أور. من آلهة العالم السفلي مهمته «حامل العرش»، رمزه الحية ولما مثلوه إنساناً ظهر رأسا حيتين من كتفيه بالإضافة إلى الرأس البشري. يركب تنيناً وهو ابن نينازو ونينغيردا. زوجته نينازيمدا «سيدة الغصن المحمل بالثمار».

3 ـ دامو (Damu) أي الطفل، إله مدينة جرسو على الفرات قرب أور. ابن نينغيشزيدا ونينازيمدا، إله الخصب، إله النسغ الصاعد في جذوع الأشجار في الربيع. يختبىء تحت قشر أمه المرضعة شجرة الأرز فتنوح النساء وتفتشن عنه، وأخيراً تجدنه خارجاً من النهر. اختلطت عبادته بعبادة تموز الراعي في الشمال.

منطقة الرعاة

وهي مجموعة مدن على الفرات الأسفل مثل أور وغايش وكيابريبغ ولارسا وكللاب. تتحدر آلهتهم من نانا إله القمر. والمدن قرب المراعي هي أوروك، بادتيبيرا، أوما، زبلام، وبيتكركارا. كل آلهة هذه المدن آلهة رعاة وتبرز بينها الكواكب.

نانا (سين) إله القمر / أوتو (شمش) إله الشمس

انانا (عشتار) نجمة الصباح / آنو قبة السماء

1 ـــ نانا (Nanna) إله القمر، إله مدينة آور (أور الكلدانيين). عبده الساميون خاصة في حران باسم «سين» أو «شين». سماه الآراميون «سهر» أو «شهر» كما عبده المديانيون والعبرانيون باسم «يهوه»، رقمه الرمزي ثلاثون.

عرف بثلاثة اسماء حسب دورة القمر ـــ «نانا» (سين) البدر، «انسون» (نكر) الثور البري نصف دائرة أي في آخر الأسبوع، وشيمبابارا (تارخ) أي بدء الهلال ومنها كلمة تاريخ...

مثّلوه على شكل قرني ثور ضخم يقود قطيع النجوم. فهو راع للبقر يسوق قطعانه في السماء هو أيضاً زوج «نينغال» (Ningal)، وهو ابن انليل ونينليل في قصة «فَسَقْ إلهي». وهذه قصة مولد «نانا»: (هكذا أنشدوا له التراتيل).

«في الوقت الذي لم يكن قد خلق فيه الإنسان بعد، ويوم كانت مدينة نيبور (نفر) مأهولة بالآلهة فقط، كان فتاها هو الإله «إنليل» وكانت عذراؤها هي الآلهة «نينليل»، كانت العجوز فيها هي تينبارشيجونو أم نينليل. وبعد أن اعتزمت الآلهة العجوز أن تزوج أبنتها نينليل من إنليل أوصت ابنتها أن تفعل ما يلي:

«في المجرى الصافي أيتها المرأة اغتسلي
تمشي يا نينليل على شاطىء نهر «نينبردو»
فإن ذا العينين المشرقتين، السيد ذا العينين النيرتين
«الجبل العظيم» «الأب انليل» ذا العينين الجميلتين سيراك
إن الراعي الذي يقدر المصائر سيراك
وسيعانقك ويقبلك
اتبعت نينليل نصائح أمها مغتبطة مسرورة
في المجرى الصافي اغتسلت المرأة في المجرى الصافي
نينليل تمشت على شاطىء نهر «نينبردو»
ذو العينين الجميلتين، السيد ذو العينين المشرقتين،
«الجبل العظيم» «الأب إنليل» ذو العينين الجميلتين رآها
الراعي الذي يقدر المصائر ذو العينين الجميلتين أبصرها
كلمها السيد من أجل الاتصال بها لكنها لم تكن راغبة.

إنليل كلمها وأراد الاتصال بها ولكنها صدت عنه:

«إن مهبلي صغير لا يعرف الجماع

وشفتي صغيرتان لا تعرفان التقبيل»

عندئذ اطلع انليل وزيره «نسكو» على أمره وعلى حبه لنينليل، فهيأ له قارباً اغتصبها به أثناء سيرها في النهر، فحبلت بالإله نانا. غضب الآلهة على انليل من أجل فعلته المنافية للأخلاق، فأمسكوا به ونفوه إلى العالم السفلي، رغم أنه كان ملك الآلهة.

«بينما كان انليل يتمشى في كي اور (معبد نينليل)

الآلهة الكبار بمجموعتهم الخمسين

والآلهة الذين بيدهم تقدير المصائر سبعتهم

قبضوا على انليل في كي ــ اور وقالوا له:

«يا انليل، أيها الفاسق اخرج من المدينة

اخرج يا نونامر، ايها الخليع من المدينة»

هكذا اضطر انليل أن يصغي لأوامر مجمع الآلهة والرحيل إلى الجحيم السومري، لكن نينليل لم تشأ وهي حبلى أن تبقى وحدها فتبعته إلى منفاه في العالم السفلي.

حزن انليل لقرارها لأن ابنه نانا (سين) الذي ستلده والذي قدر له أن يكون موكلاً بأعظم أجرام السماء وهو القمر سيسكن العالم السفلي المظلم الكئيب بدلاً من اتخاذ السماء مسكناً له فتدبر انليل خطة لإنقاذ ابنه وضلل نينليل في طريقه.

لقد التقى ببواب العالم السفلي وإله نهر العالم السفلي وصاحب معبر العالم السفلي وتقمص أشكالهم على التوالي واتصل بالآلهة نينليل، فحملت ثلاثاً من آلهة العالم السفلي وصارت هذه الآلهة بديلة عن أخيها الأكبر سين الذي أصبح هكذا حراً، فصعد إلى مقره في السماء.

نحو عام (2006) ق.م. وقف العيلاميون المهاجمون عند أسوار أور الشاهقة التي بناها الملك العظيم أور ــ نمو، بناها «عالية كجبل مشع» وأور هي مدينة نانا المقدسة.

هاجم العيلاميون المدينة واحتلوها ونهبوها وجعلوها طعاماً للنيران وانسحبوا تاركين وراءهم حامية صغيرة كما أسروا ملكها أبي ــ سين وقادوه إلى إيران حيث مات هناك. وبعد أعوام بعد أن عادت أور مدينة عامرة كانت ذكرى خرابها لا تزال عالقة في أذهان السومريين، يرثونها على أنها كارثة وطنية:

«أيها الأب نانا، لقد دمرت المدينة

كقطع الخزف المكسور ملأ أهلها جوانبها

هدمت أسوارها وناح أهلوها

في بواباتها العالية حيث كانوا يتنزهون

طرحت الأشلاء مبعثرة هنا وهناك

في شوارعها حيث أحيوا الأعياد نثرت أجسادهم

في كل الدروب حيث كانوا يتنزهون تناثرت الجثث
وفي ساحاتها حيث احتفلوا تراكم قتلاها في أكوام»
«إيه أور، إن ضعفاءك وأقوياءك قد قضى عليهم الجوع
الأمهات والآباء الذين لم يغادروا منازلهم، التهمتهم النيران
الأطفال في أحضان الأمهات جرفتهم المياه كالأسماك
وفي المدينة ــ الزوجة تركت والابن أهمل ــ والممتلكات نهبت
إيه نانا ــ إن أور قد خربت وأهلها قد شتتوا»

2 ــ نينهار (Ninhar) إله مدينة «كيا بريغ» في منطقة أور. هو إله الرعد والأمطار في الربيع التي تجعل الصحارى خضراء مخصبة. مثلوه ثوراً يخور، وهو ابن نانا ونينغال وزوج نينجارا «سيدة الزبدة» وآلهة الأجبان.

3 ــ أوتو (Utu) «شمش» إله الشمس وإله مدينتي لارسا وسيبار في آكاد، إله العدلِ والمساواة. شكله في الأصل قرص الشمس ورمزه رأس حيوان البيزون. كما مثل إنساناً تنبثق من جسده أشعة النور.

يمر أوتو في مركبته كل يوم حول العالم ليرى أعمال الناس من فوق. يعطي النور ويفتش القلوب. يعطي شرائع الصلاح ويهب الحياة. يحمي الضعفاء والمظلومين ويرعب الأشرار. يقول جوديا التقي «إن أوتو يعطي الصلاح ويسحق الشر بقدمه». كما تكلم أور ــ نمو عن «شرائع أوتو العادلة» ووصفه حمورابي بأنه «الحاكم العظيم للسماء والأرض». وفي استعراض الآلهة يصورونه راكباً على حصان.

وأوتو هو ابن نانا (القمر) ونينغال، زوجته شنيردا وابنهما «شاكان» إله الماعز ورعاة الماعز والغزلان وحيوان القفر. وزراء أوتو هم «نيغينا» (العدل) و«نيغسيسا» (المساواة).

4 ــ نينسون (Ninsun) آلهة مدينة كللاب، السيدة البقرة الوحشية، هي البقرة الجيدة وأم العجل الجيد، رمزها البقرة. ابنها عند رعاة البقر هو «الثور الوحشي» دوموزي، ولكم بكته بحرارة في ذكرى موته السنوية. زوجها «لوجالبندا» وولدهما الملك جلجامش بطل الملحمة الشهيرة. يعادلها نينهورساغا (Ninhursaga) عند رعاة الحمير ونينليل عند الفلاحين.

5 ــ آنو ــ إله السماء.

آلهة رعاة الأغنام في المراعي الوسطى

1 ــ إنانا (عشتار) (Inanna) آلهة أوروك وزيلام وهي نجمة الزهرة ورقمها الرمزي خمسة عشر. في الأصل كانت جزءاً من بانثيون االبساتين لأنها سيدة مخازن التمور خاصة وبقية أنواع المخازن عامة، كالصوف واللحم والأجبان.

زوجها هو دوموزي الراعي الشاب ودوموزي الثور الوحشي. يعقد قرانهما في المخزن فهي تسكن أي ــ أنا مخزن البلح. لكونها ابنة القمر اعتبرت في العصور السامية

بعد السومريين «ملكة السماء» وأعطيت لها صفات سيدة المعارك والمومس وحامية المومسات. هامت بتموز الراعي وجلجامش كما هامت بسرجون الآكادي (شاروكين) ولم تخلص لأحد.

ومن الأساطير عن إنانا قصتها مع شوكلليتودا البستاني الذي وجدها نائمة في بستانه تحت شجرة فضاجعها وهي نائمة، وحاولت أن تجده فيما بعد فأرسلت الأوبئة المختلفة على البلاد انتقاماً لشرفها المهدور، لكنها لم تطله حيث كان يتنقل مختبئاً بين إخوانه ذوي الرؤوس السود أي السومريين.

وقصة نزولها إلى الجحيم حيث حاولت انتزاع السلطة من أختها «اريشكيغال» لكنها ماتت وتحولت إلى قطعة لحم معلقة بمسمار، وبقيت هكذا سجينة في العالم السفلي إلى أن أنقذها إنكي، فسمح لها أن تعود شريطة أن ترسل بديلاً عنها فخانت زوجها تموز.

وقصتها مع إنكي الحكيم وكيف سرقت مائة من الشرائع السماوية وهو في حالة السكر، ونقلتها من أريدو إلى أوروك، فأوقف قارها سبع مرات ليستعيد الشرائع لكنه فشل.

أنانا وشوكلليتودا

عاش في قديم الزمان بستاني اسمه شوكلليتودا، عمل وكد وثابر على العمل في بستانه ولم ينله سوى الإخفاق، روى الأخاديد وجميع أجزاء البستان ولم يحل بغرسه إلا اليبس والموت. وكانت الرياح الهوجاء تلطم وجهه «بغبار الجبال» وكل ما كان يرعاه يتحول قفراً وخراباً.

رفع عينيه شرقاً وغرباً إلى السماء ذات النجوم الكثيرة ليدرس نذر الالهة وإرادتها. وعندما نال الحكمة من السماء غرس شجرة الـ «سربيتو» في بستانه وهي شجرة وارفة الظلال من مطلع الشمس إلى مغيبها. بعد ذلك ازدهر بستانه بجميع أنواع الغراس.

ذات يوم كانت إنانا (عشتار) قد عبرت السماء والأرض فاضطجعت في بستان شوكلليتودا لتريح جسمها المنهوك من عناء السفر. راقبها البستاني وهو الإنسان الفاني وانتهز فرصة انهيار قواها ونومها وجامعها. ولما طلع الصباح ذعرت إنانا مما حصل لها ونظرت حواليها في دهشة علها تجد ذلك الفاني الذي انتهك عرضها وجللها بالعار. فسلطت على بلاد سومر ثلاثة أنواع من الأوبئة انتقاماً من ذلك السومري.

1 ــ ملأت جميع آبار البلاد بالدم (كما فعل يهوه بمياه مصر في سفر الخروج) واصبحت جميع أحراج النخيل والكروم ملأى بالدماء.

2 ــ سلطت رياحاً وعواصف مدمرة على البلاد.

3 ــ سلطت ضربة... (مجهولة الطبيعة لفقدان النصوص)

لكن إنانا لم تستطع أن تعثر على البستاني لأنه كان يتنقل هرباً إلى بيوت «ذوي الرؤوس السود» من إخوته السومريين. فيئست وذهبت إلى أريدو لتستشير إنكي الحكيم. إلا أن النهاية مفقودة لأن الألواح قد تلفت.

«شوكلليتودا

حين يجري الماء في السواقي
وحين يحفر الآبار في أرجاء البستان
كان يتعثر بالجذور فتجرحه
الرياح العاصفة بما كانت تحمله معها
وبتراب الجبال كانت تلطم وجهه
تقتلع كل ما كان يزرع ولم يعرف لذلك سبباً!
تم رفع عينيه إلى الأقاليم السفلى
وتطلع إل النجوم في المشرق
ورفع عينيه إلى الأقاليم العليا
وتطلع إلى النجوم التي في المغرب
راقب الطوالع السعيدة المرقومة في صفحة السماء
وعرف من السماء المرقومة علامات النذر
فرأى هناك كيف سينفذ النواميس الإلهية
لقد درس إرادات الآلهة.»
«وفي البستان في خمسة إلى عشرة مواضع منيعة
غرس في تلك المواقع شجرة لتكون غطاء واقياً
إنها شجرة الـــ «سربيتو» ذات الظل العريض
إن ظلها لا يزول ، لا في الفجر،
لا في الظهيرة ولا في الغسق.»
«وذات يوم بعد أن عبرت ملكتي السماء وعبرت الأرض
إنانا بعد أن عبرت السماء وعبرت الأرض
بعد أن قطعت بلاد عيلام وبلاد شوبر
اقتربت «البغي المقدسة» إلى البستان من العناء وغطت في النوم
فرآها شوكلليتودا من حافة البستان
فضاجعها وقبلها
وعاد إلى حافة بستانه.
طلع الفجر وأشرقت الشمس
نظرت المرأة حولها جزعة
إنانا نظرت حولها وجلة جزعة.»
«فتأمل الضرر الذي عملته المرأة من أجل عورتها!
إنانا من أجل عورتها ماذا فعلت!

لقد ملأت جميع آبار البلاد بالدم،
كل الأحراج وبساتين البلاد أشبعتها بالدم،
حين يذهب العبيد للاحتطاب لا يشربون إلا الدم،
والإماء لا يملأن جرارهن إلا بالدم،
لقد قالت، لأجدن من جامعني في جميع أرجاء البلاد.»
«لكنها لم تجد الذي جامعها
لأن الشاب قصد بيت أبيه
شوكلليتودا قال لأبيه:
أبتي! حين أجري الماء في السواقي
حين أحفر الآبار في الأرجاء
كنت أتعثر بالجذور فتجرحني
الرياح العاصفة بما حملت معها
وبتراب الجبال كانت تلطم وجهي
...... (ثم إعادة لكل الأسطر، والشعر السومري كثير التكرار)
لكنها لم تجد الذي ضاجعها
لأن الأب أجاب ابنه شوكلليتودا:
اقم يا بني قريباً من مدن إخوانك
وجّه خطاك إلى إخوانك ذوي الرؤوس السود
فالمرأة إنانا لن تجدك في وسط البلدان»
«فأقام شوكلليتودا قريباً من مدن إخوانه
وجه خطاه إلى إخوانه ذوي الرؤوس السود
فلم تجده المرأة وهو في وسط البلدان
فتأمل المرأة! من أجل عورتها أي شر صنعت
إنانا من أجل عورتها ماذا فعلت

أنانا تسرق شرائع السماء

إنانا ملكة السماء والآلهة الحامية لمدينة أوروك تتوق لأن تزيد من خيرات مدينتها ورفاهيتها وأن تجعلها مركز الحضارة السومرية وبذلك تسمو شهرتها بين الآلهة.

لذا صممت أن تذهب إلى أريدو المركز القديم لثقافة سومر، حيث إنكي رب الحكمة «الذي يعلم ما تكنه قلوب الآلهة» يسكن في مياه العمق «الابسو». كان لدى إنكي كل النواميس الإلهية الضرورية للعمران والحضارة، فإن استطاعت إنانا الحصول عليها بالطرق المشروعة او عكسها وإحضارها إلى مدينتها أوروك، سيسمو مجدها على

جميع المدن والآلهة. فلما رآها إنكي تقترب من الأبسو في أريدو أخـذ بسـحر جمالهـا، فـدعا رسوله «إيسيميد» (Isimid) وقال:

«هلّم يا رسولي «إيسميد» وأصغ لأوامري
كلمة سأقولها لك فخذ بكلمتي،
العذراء لوحدها. وقد وجهت خطاها إلى الأبسو
إنانا بمفردها وقد جاءت إلى الأبسو،
فاعمل على إدخال العذراء إلى أبسو أريدو،
أجعل انانا تدخل أبسو أريدو،
أعطها كعك الشعير مع الزبد لتأكل،
صب لها الماء البارد الذي ينعش قلبها،
قدم لها البيرة لتشربها بكأس «راس الأسد»
وإلى المائدة المقدسة، مائدة السماء،
اجزل لـ «إنانا» كلمات الترجيب.»

فعل إيسميد ما أمر به سيدهِ وجلس إنانا وإنكي إلى مائـدة الوليمـة، وبعـد أن انتشـى قلباهما بالشراب، هتف إنكي قائلاً:

«بحق سلطاني وباسم قوتي
لابنتي إنانا المقدسة سأقدم النواميس الإلاهية»

وعلىدفعات قدّم إنكي مئة ناموس ونيف من النـواميس الإلهيـة الـتي كانـت أسـاس الحضارة وعماد العمران. طغى السرور علىإنانا وقبلت هبـات إنكـي وهـو بحالـة السـكر، وأخذت النواميس وحملتها على «قاربهـا السـماوي» وشـدت الرحـال إلى أوروك ومعهـا الشحنة الثمينة.

وما أن زال أثر الخمر عن إنكي حتى أحس أن الـــ «مـي» (النـواميس) قـد اختفـت من مكانها المعهود، التفت إلى إيسيميد مستفسرا عن الأمر فأخبره الرسـول أنـه هـو بنفسـه أعطاها لأنانا وهو في حالة السكر. ندم إنكي بمرارة وصمم أن يمنـع «قـارب السـماء» مـن الوصول إلى أوروك مهما كلف الأمر. فأرسل رسوله إيسيميد ومعـه مجموعـة مـن وحـوش البحر ليلحقوا بإنانا ويوقفوا القارب في أول محطة من المحطـات السـبع علـى طريـق أريـدو ــ أوروك، فيسترجع القارب ويسمح لأنانا أن تتابع السير إلى مدينتها على الأقدام.

ويعدّ حوار إنكي وإيسيميد وإنانا درة شعرية:

«دعا الأمير رسوله إيسيميد
إنكي بلغ كلمته لـ «اسم السماء الطيب»
يا رسولي إيسيميد يا اسم السماء الطيب.
يا مليكي ها أنذا ، ولك المجد إلى الأبد
إلى أين وصل الآن «قارب السماء»

لقد بلغ مرفأ «إيدال»
اذهب ودع وحوش البحر تنتزعه منها.»
نفّذ إيسيميد أوامر سيّده وأدرك قارب السماء، فخاطب إنانا:
«أي مليكتي لقد أرسلني إليك أبوك،
يا إنانا أرسلني أبوك إليك،
أبوك الممجد في كلامه،
إنكي المعظم في أقواله
ينبغي أن تطاع أوامره العظيمة.»
فأجابته إنانا المقدسة:
«أبي، ماذا قال لك؟ ما الذي حدثك به؟
كلماته العظيمة التي يجب أن تطاع، ما هي أرجوك؟»
«إن مليكي قد كلمني،
إنكي قد قال لي:
دع إنانا تذهب إلى أوروك.
لكنك تعيد إلي قارب السماء إلى أريدو.»
«فقالت المقدسة إنانا للرسول إيسيميد:
أتوسل إليك لماذا بدّل أبي كلمته لي؟
لماذا حنث بكلمته الصادقة لي؟
لماذا دنّس كلماته العظمى لي؟
لقد غشني أبي بكلماته لي، لقد خدعني بأقواله،
لقد أقسم كذباً باسم قوته وباسم الـ «أبسو».»
«ولم تكد تفوه بهذه الكلمات
حتى أمسك وحوش البحر بقارب السماء
فقالت إنانا لرسولها «نينشوبور»:
هلّم إلي يا رسول إنانا الأمين
يا من يحمل الكلمات الطيبة
ويا حامل كلمتي الصادقة
الذي لا تضطرب يده ولا تضطرب قدمه
أنقذ قارب السماء ونواميس إنانا المهداة لها»

ففعل نينشوبور ذلك، ولكن إنكي أصر وأرسل إيسيميد وانواع وحوش البحر لتوقف إنانا في المحطات السبع. وكل مرة كان يحضر نينشوبور وينقذ إنانا. وأخيرا تصل

إنانا بسلام مع قاربها إلى أوروك حيث تفرغ شحنتها من النواميس الإلهية وسط أفراح الشعب.

2 ــ دوموزي (Dumuzi) (تموز) ــ إله مدينة باد ــ تيبيرا، إله الخصب وتجديد الحياة، وله عدة صفات ومظاهر ــ فهو دوموزي الراعي، ودوموزي الثور الوحشي، ودوموزي الخصب في عنقايد البلح، ودوموزي محرك الأجنة في الأرحام، ينتج الحليب ويضعه في الأثداء. وعبادته تدور حول زواجه من إنانا (الزهرة) ثم موته وندبه والولولة عليه كل عام عند موته الأرضي. وكان الناس يحتلفون بهذا الزواج في مسرحية يمثل فيها الملك دور الإله وتمثل كاهنة دور الآلهة.

وفي أوروك كان يحتفل بهذه الذكرى في الحصاد في فصل الصيف. وفي نيبور كانت الذكرى عيد خصب في فصل الربيع. وكل خصب وولادة وحلب وتجديد تسبق موت تموز، القوة الكامنة وراءها جميعاً. وعند موته تندبه أمه الثكلى وأرملته الشابة الجميلة برثاء مؤثر يصل إلى أقصى درجات العاطفة.

وإكراماً لدوموزي ــ تموز، دخل في التقويم الآكادي شهر عيد لتموز هو الشهر الرابع في السنة السامية القديمة، إذ كانت السنة تبدأ في شهر نيسان. كما أن الشهر السادس في «لغش» والثاني عشر في «أوما» أشهر احتفال بذكرى تموز. ولا يزال تموز الشهر العاشر في التقويم العبري، والشهر السابع في سوريا والعراق. وتذكر لائحة الملوك السومرية ملكاً باسم دوموزي من مؤسسي سومر قبل الطوفان، حكم عدداً خيالياً من السنين وهو الملك السادس قبل الطوفان، يقابل «يارد» في التوراة الذي هو السادس بين الآباء قبل الطوفان.

وعندما طرد أتوك هيغال ملك أوروك الجوتيين من بلاده قال: «إنانا سندي دوموزي تنين إنانا السماوي أعلن مصيري».

وقد وصلت عدوى عبادة تموز إلى اليهود: «وقال لي بعد تعود تنظر رجاسات أعظم هم عاملوها. فجاء بي إلى مدخل بيت الرب الذي من جهة الشمال وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز» (حزقيال 13:8 و14).

دوموزي الراعي هو إله الرعاة والقطعان في الهلال الخصيب، وأهم أساطير تموز، حواره مع الفلاح «إنكيمدو» وزواجه من إنانا.

3 ــ شارا (Shara) ــ إله مدينة أوما وابن إنانا. صفاته غامضة ولم يكن له شأن عظيم خارج مدينته.

4 ــ ايشكور (Ishkar) ــ إله مدينة بيت كركارا، بيت زيلام وأدب. إله المطر والعواصف الرعدية، في الربيع يخصب المروج للرعاة. هو ابن إنانا ويرمز إليه بثور عظيم وبشكله البشري يحمل «حربة الصواعق». يعادله «اسللوحي» في منطقة المستنقعات ونينورتا عند الفلاحين. زوجته الإلهة «شالا». سماه الآكاديون «أدد» والآراميون «هدد».

5 ـــ نينهورســـاج (Ninhursag) ـــ آلهـــة مـــدينتي أدب وكـــيش. آلهـــة الأرض الصخرية. هي القوة الكامنة في التلال والصحارى ووجـــود الحيـــاة البريـــة خاصـــة الـــوحش لأنها آلهة رعاة الحمير.

مـــن أسمائهـــا «دنغيرمـــاه» أي المعبـــودة العظيمـــة و«نينمـــاخ» أي الســـيدة المعظمـــة و«أرورو» مخرجة الأجنّة و«نينتو» سيّدة الولادة أو الآلهة الوالـــدة. وآلهـــة للـــولادة هـــي أم لكل ولد. وكان يحلو للحكام السومريين الأوائـــل أن يصـــفوا أنفســـهم بـــأنهم «ربـــوا بلـــبن نينهورساج الطاهر» ويرون فيها «أما» لجميع الأشـــياء الحيـــة. وفي إحـــدى الأســـاطير تقـــوم بدور هام في خلق الإنسان، وفي أسطورة أخرى تلد سلسلة مـــن الـــولادات الإلهيـــة وتتضـــمن تلك الأسطورة فكرة «الثمرة المحرمة». زوجها الإله «شولبي».

نينماخ وخلق الإنسان

عندما صنع إنكي الإنسان ليخدم الآلهة (انظر إنكي)، من طـــين العمـــق جعـــل نينمـــاخ تربط عليه صورة الآلهة (كما في سفر التكوين: خلق الله الإنسان على صورته ومثاله).

لكن بعد خلق الإنسان الكامل، يدور الشعر حـــول الإنســـان غـــير الكامـــل، ويعطـــي تفسيراً لذلك. فقد أولم إنكي للآلهة بمناســـبة خلـــق الإنســـان. وفي الوليمـــة شـــرب إنكـــي ونينماخ من الخمر حتى الثمالة. فأخذت نينماخ شيئاً من طين العمـــق وصـــنعت ســـتة أشـــكال من البشر الشاذين في خلقهم. فقرر إنكي مصائرهم وأعطـــاهم الخبـــز ليـــأكلوا. ولكـــن مـــن تلف النصوص لم يعرف إلا النوعان الأخيران من الستة وهما المـــرأة العـــاقر والإنســـان الـــذي لا جنس له.

«لقد صنعت نينماخ من الطين المرأة التي لا تلد
ولما رأى إنكي المرأة التي لا تلد
قرر مصيرها وقرر أن توضع في «بيت المرأة»
وصنعت نينماخ من الطين مخلوقاً ليس له عضو الذكر ولا عضو الأنثى
ولما رأى إنكي من ليس له عضو الرجل ولا عضو الأنثى
قرر مصيره ـــ بأن يقوم بخدمة الملك (الخصيان)

وبعد أن صنعت نينماخ الأنواع الستة من الإنسان قـــرر إنكـــي أن يخلـــق بعضـــاً آخـــر. لكنه كان فاشلاً في خلقه، إذ صنع مخلوقاً ناقصاً ضعيفاً في جســـمه وروحـــه. فلجـــأ إنكـــي إلى نينماخ ليساعد مخلوقه العاجز قائلاً:

«مثلما ما عينت مصير ما صنعت يدك
وأعطيته الخبز ليأكل
اعملي على تقرير مصير ما صنعت يدي
وناوليه الخبز ليأكل».

حاولت نينماخ أن تصنع الخير للمخلـــوق، لكـــن دون جـــدوى. كلّمتـــه فلـــم يجـــب، أعطته الخبز ليأكل لكنه لم يتناوله. لا يقدر أن يجلس أو يقـــف، ولا أن يـــثني ركبتيـــه. وأخـــيرا

لعنت نينماخ إنكي لأنه صنع ذلك المخلوق المريض الذي لا يقوى على الحياة. وهي لعنة تقبلها إنكي لأنه كان مستحقاً لها.

آلهة المناطق الزراعية

آلهة المناطق الزراعية في الشمال في آكاد، وهم من سلالة إنليل في نيبور ويشكلون معاً بانثيون الفلاحين.

1 ــ إنليل ــ إله مدينة نيبور، إله الرياح «الجبل العظيم»، ابن آنو ملك البلدان.

2 ــ نينليل (Ninlil) ــ آلهة مدينة «تومال» قرب نيبور حيث عرفت باسم «اغيتومال» وفي شوروباك باسم «سود»، هي سنبلة الشعير اليانعة وآلهة الحبوب. ابنة «هايا» (HAIA) إله الصوامع ونينشابارغونو «سيدة الشعير». ونينليل هي زوجة إنليل وأم القمر نانا. لكن الآشوريين جعلوها زوجة الإله آشور الذي وصفوه أيضا بـ «الجبل العظيم» وهو لقب إنليل (انظر مولد القمر).

3 ــ نيسابا (Nisaba) ــ آلهة مدينة أرش شمال أوروك، آلهة الأعشاب بما فيها الحبوب الخضراء والقصب. وبما أن الأقلام تصنع من القصب أصبحت نيسابا آلهة الكتابة والكتب والعلوم، الآلهة التي «بيدها تحمل القلم». وقد رآها الحاكم الورع انزي لغش في حلمه «امرأة لم يعرف من هي لكنها كانت تحمل قلماً من المعدن الوهّاج، وتحمل لوح الكتابة الجيدة في السماء، وكانت غارقة في افكارها». ولما ذهب إلى معبد نانشي مفسرة الأحلام أخبرته بأنها نيسابا «آلهة العلم»، وكإلهة للحبوب أو السنابل وصفت نيسابا بطول شعرها.

4 ــ نينورتا (Ninurta) ــ الإله المحارب، إله مدينة جرسو (تللو) في منطقة لغش. عرف باسم «نينجرسو» اي سيد جرسو، وهوعند الفلاحين إله الرعد والعواصف الممطرة في الربيع. يذيب الثلوج فيكمن وراء الفيضانات في الربيع. وبما أن الأمطار تبلل التربة وتجعلها قابلة للحرث أصبح «إله المحراث والحراثة» كما كان أبوه إنليل إله المعول. أمه هي نينليل.

اسمه القديم «إيمدوجود» (Imdugud)، أو الغيمة الماطرة، رمزه طير أسود ضخم يزمجر راعداً وله رأس أسد. وفي اسطورة آنزو الآكادية ينتصر نينورتا على «زو» ويسترجع منه «لوحات القدر» بعد أن سرقها من إنليل.

وفي أواخر سلالة جوتي (2230 – 2130)ق.م. بنى جوديا الورع انزي لغش هيكلاً عظيماً للإله نينجرسو أحضر له أعمدة الأرز من لبنان، وكان البناء بسبب حلم أوصى فيه الإله بوجوب بناء معبد له. وكان جوديا قد بنى ما لا يقل عن 15 معبداً آخر.

يقول جوديا على أسطوانتين من الطين:

«في قلب الحلم كان رجل، طوله بمثل ارتفاع السماء وثقله مثل وزن الأرض... عن يمينه وعن يساره كانت تجثو الأسود. قال لي أن ابني له معبداً، ولكن لم أدرك ما كان يكن قلبه..

وهنا كانت امرأة، من هي؟ لست أدري. كانت تمسك بيدها قلماً من المعدن الوهّاج، كانت تحمل لوح الكتابة الجيدة في السماء، وكانت غارقة في التفكير...»

انشغلت أفكار جوديا واضطرب فركب القارب وذهب إلى معبد «نانشي» مفسرة الأحلام. فأجابته نانشي بأن الرجل هو نينجرسو وأن المرأة هي نسابا آلهة العلم. ونصحته بأن يقدم لنينجرسو عربة «مزينة بالمعدن اللماع واللازورد»، «عندئذ حكمة الرب نينجرسو ابن إنليل الغامضة كالسماء سترعاك. وهو الذي سيكشف لك مخطط معبده، المحارب صاحب الأوامر العظيمة سيبنيه لك».

أطاع جوديا أوامر الوحي وهو الذي وحد مواطني لغش «كأبناء الأم الواحدة» وأدخل السلام إلى كل بيت. طهر المدينة المقدسة وأحاطها بالنيران، جمع الطين في مكان طاهر حيث صنع الآجر وصبه في القوالب. واتبع الطقوس بإجلال. طهر أسس المعبد، أحاطه بالنيران ومسح المسطبة بزيت الطيب.

لما أكمل جوديا كل ذلك استحضر الصناع من الأماكن البعيدة، «من عيلام أحضر العيلاميين ومن سوزا أحضر السوزيين، ومن جبال ماجان وملوحا أحضر الأخشاب. أحضر جوديا كل هذا إلى مدينة جرسو.» ثم توجه جوديا رئيس كهنة نينجرسو العظيم إلى جبال الأرز التي لم يدخلها إنسان قبله وقطع الأرز بفؤوس كبيرة، وكالأفاعي الضخمة طفت شجرات الأرز على مياه الأنهر.

«وفي المقالع التي لم يدخلها إنسان من قبل أقام جوديا رئيس كهنة نينجرسو العظيم ممراً ثم أحضر الحجارة الضخمة... وعدة معادن ثمينة قدمت إلى الأنزي. من جبل النحاس في كيماش ــ استخرجت كتل النحاس كما أخرج الذهب من ذلك الجبل ناعماً كالغبار. ومن أجل جوديا استخرجوا الفضة من جبالها وجلبوا الحجر الأحمر من ملوحا بكميات كبيرة...».

أخيراً بدأت عملية البناء واستكمل في سنة واحدة وأصبح جاهزاً لاحتفال دخول الإله إليه. ويقول جوديا بفخر «إن احترام المعبد يعم البلاد ورهبته تملأ الغرباء، وبهاء إينّو يحوي الكون كالرداء».

نينورتا يقتل التنين

الشرير في هذه الأسطورة هو «اسج» شيطان المرض الذي يسكن كور (العالم السفلي). والبطل هو نينورتا إله «ريح الجنوب» ابن إنليل وكان سلاحه «شرور». كان على نينورتا أن ينازل اسج وينقذ سومر من شره، لكنه في البداية لم يقو عليه بل «فرّ كالطير». لكن سلاحه «شرور» شجعه فهجم على اسج بكل قوته فقضى على ذلك الشيطان.

وبعد مقتل اسج حلت بسومر كارثة دهياء، فقد ارتفعت إلى سطح الأرض المياه الأولى المحبوسة في كور فمنعت المياه العذبة من أن تروي الحقول والبساتين. يئس آلهة سومر الذين «حملوا الفاس والسلة» لإروائها. إن دجلة لم يرتفع وانعدم الماء الطيب من جداوله.

«كانت المجاعة شديدة ولم ينتج أي شيء
وفي الأنهار الصغيرة لم يعد ممكناً حتى «غسل الأيدي»

وظلت المياه واطئة ضحلة
الحقول لم ترو،
ولم تحفر السواقي،
وانعدم الزرع في البلاد
ولم ينمُ سوى الحشائش
عندما تدبر الإله الأمر بفكره الثاقب
نينورتا بن إنليل أتى بالأشياء العظيمة إلى الوجود».
كدّس نينورتا الأحجار فوق كور كجدار عظيم يقي سومر.

ومنعت الحجارة مياه كور من الارتفاع إلى سطح الأرض. وأما المياه التي غمرت البلاد في السابق فإن نينورتا قد جمعها وأجراها في دجلة الذي أصبح قادراً أن يروي الحقول بفيضه.. يقول الشاعر:

«ما تبدد وفاض جمعه
ما تبدد وفاض من كور
قاده ورماه في دجلة
فأجرى المياه العالية على الحقول
فانظر الآن كل شيء على الأرض
فرح بحمد نينورتا ملك البلاد
أنتجت الحقول الغلال الوفيرة
وثقلت الكروم والبساتين بالأثمار
وكدس المحصول في صوامع وتلال
لقد أزال الرب الحداد من البلاد
وأسعد أرواح الآلهة».

وما إن سمعت نينماخ بأعمال ابنها البطولية حتى امتلأت شوقاً إليه ولم تعد قادرة أن تنام في غرفتها. فخاطبتِ نينورتا من بعيد بصلاة تطلب منه السماح بأن تزوره، فتطلع إليها «بعين الحياة» قائلاً:

«أيتها السيدة، بما أنك ستأتين إلى كور
إيه نينماخ، بما أنك ستدخلين الأرض البغيضة من أجلي
لأن المعركة الرهيبة التي أحاطت بي لم ترعبك
لذا فالتلة التي كدستها أنا البطل
أدعوها «هورساج» (جبل) وستكونين ملكتها».

ثم أخذ نينورتا يبارك الـ «هورساج» لينتج كل أنواع الأعشاب، الخمر والعسل، كل أنواع الأشجار، الذهب والفضة والبرونز، البقر والغنم وكل ذوات الأربع. ثم

التفت ليسحق الحجارة التي استعملها أسج ضده في المعركة ويبارك الحجارة التي كانت إلى جانبه.

5 ـ باو (Bau) ـ آلهة مدينة أوروكو في منطقة لغش. عرفت ايضاً باسم «نينمسينا» (ملكة ايسين) آلهة مدينة ايسين جنوب نيبور. هي في الأصل آلهة الكلاب ورمزها الكلب. ومثلت برأس كلب. وبما أنه كان يظن بأن لحس الكلاب يشفي القروح فقد اصبحت آلهة الشفاء، أبوها آنو وزوجها نينغرسو.

سماها الآكاديون «غولا» ـ (وكان مسكين اسمه لعازر الذي طرح عند بابه مضروباً بالقروح وكانت الكلاب تأتي وتلحس قروحه) (لوقا 21:16).

6 ـ مسلامتايا (Meslamtaea) أو نرجال (Nergal) ـ إله مدينة كوتا أو الكوت في آكاد، معبده «مسلام» وهو في الأصل ابن إنليل ونينليل. محارب مثل نينورتا، سلاحه الأوبئة التي تودي بشعبه أيضا. سمي أيضا نرجال وزوجته أريشكيغال، ملكا العالم السفلي. وقد تليت عنه قصة آكادية عن كيفية زواجه من اريشكيغال وهي «حكايةنرجال وأريشكيغال»، وكلمة كوتا السومرية اسم آخر للعالم السفلي وقد حرفها الآكاديون إلى كوتو (الحصن). ويقول نشيد لنرجال:

« ترتدي النور
وتحني رؤوي المتكبرين
قوية هي أياديك ورحب هو صدرك
وما أن تقع عظمتك المرهبة
فإن المسيء والشرير يرتميان
في أصداع الأرض...».

الآلهة الصغرى في سومر

من الآلهة الصغار «لهار» إله الماشية وأخته «أشنان» آلهة الحبوب وعلى ما جناء في الأسطورة خلق «لهار Lahar» و«أشنان Ashnan» في «حجرة الخلق» الخاصة بالآلهة وكيما يستطيع الأنوناكي أبناء آنو أن يحصلوا على ما يكفيهم من الطعام والكساء. فأنتج الأخوان خيراً وفيراً من الغلال والماشية لكنهما أكثرا من الشراب والسكر فتشاجرا وأهملا واجباقما فلم تعد الآلهة تحصل على حاجتها حتى خلقوا الإنسان وأعطوه نفس الحياة:

«بعد أن عمل «آنو» وهو على جبل السماء والأرض
على ولادة «الأنوناكي» الآلهة أتباعه
ولأن اسم أشنان لم يكن قد ولد ولم يخلق بعد
ولا أتو «آلهة النسيج» لم تكن قد خلقت
ولم يكن قد شيد لـ «آنو» معبد وحرم
ولم تكن النعجة في الوجود، ولا ولد الحمل

ولم تكن العنزة في الوجود ولا ولد الجدي
النعجة لم تلد حمليها،
والعنزة لم تلد أجداءها الثلاثة،
ولأن اسم «أشنان» المدبرة اسم «لهار»
لم يعرفهما الأنوناكي، الآلهة العظام
ولم توجد حبوب الشنش ذات الثلاثين يوماً
ولا الشنش ذات الأربعين يوماً في الوجود
والحبوب الصغيرة «غلة الجبل» غلـــة المخلوقـــات ذات الحيـــاة الطـــاهرة لم توجد
ولأن أتو لم تولد بعد والتاج لم يكن قد رفع
ولأن الرب ... لم يولد بعد
لأن «سموقان» إله السهل لم يجيء إلى الوجود
مثل البشر أول ما خلقوا
لم يعرف الأنوناكي أكل الخبز
ولم يعرفوا لبس الحلل
كانوا يأكلون النبات بأفواههم كالأغنام
ويشربون الماء من الترع
في تلك الأيام في «حجرة الخلق» الخاصة بالآلهة،
في بيتهم « دوكو » جبلوا لهار وأشنان،
وما أنتجته لهار وأشنان،
أكله أنوناكي الـــ« دوكو » ولم يشبعوا،
ومن حظائرهما الطاهرة، حليب « شم » الجيد،
شربه أنوناكي الدوكو ولم يرتوا،
فمن أجل حظائرهما الطاهرة الطيبة
أعطي الإنسان نفس الحياة. »

ثم تصف لنا العبارات التي تعقب المقدمـــةهبوط لهـــار وأشـــنان مـــن الســـماء إلى الأرض والمنافع العمرانية التي حبوا بها البشر

« في ذلك الزمان قال « إنكي » لـــ« إنليل »
« أبتي إنليل .. إن لهار وأشنان
اللذين قد خلقا في الـــ« دوكو »
لنجعلهما يهبطا من الـــ« دوكو »

« بكلمة إنكي وإنليل المقدسة
هبط لهار وأشنان من الـ« دوكو »
لقد أنشآ (إنليل وأنكي) لـ لهار الحظيرة
وجعلا له النباتات والأعشاب الوفيرة
وأقاما لأشنان بيتا
وقدما لها المحراث والنير»
«صار لهار يقف في حظيرته،
وهو الراعي الذي أفاض من خيرات الحظائر
واشنان تقف بين غلالها
وهي العذراء اللطيفة السخية.
«وكل خير وفير يأتي من السماء
أظهره أشنان على الأرض
لقد أحلاّ الخير الوفير في المجمع
وفي البلاد أحلا نفس الحياة
لقد وجها نواميس الآلهة
وضاعفا ما في المستودعات
لقد ملئا المخازن حتى اكتملت.»
«وفي بيت الفقير الذي يحتضن التراب
دخلا وجلبا الخير والوفرة
وحيثما وقف كلاهما
أحلا الخير الوفير في البيت
وفي الموضع الذي يقفان فيه يحل فيه الشبع
والموضع الذي يجلسان فيه يزودانه بالمؤن
لقد طيّبا قلب آنو وإنليل».

وبعد أن أكثر لهار وأشنان من شرب الخمر أخذا يتشاجران في المزارع والحقول. يتجادلان ويتفاخران، كل يقلل من أهمية عمل الآخر. وأخيراً يعلن أنليل وإنكي تفوّق أشنان.

وإلى جانب حوار لهار وأشنان نجد في الأدب السومري حوار الفلاح إنكيدو مع الراعي دوموزي وحوار الأخوين إيمش وأنتين الذي يشبه حوار قابيل وهابيل. لكن الأخوين في الأدب السومري لم يقتتلا ولا كان الإله سبباً في خلافهما كما حدث في قصة قابيل وهابيل بل تصالحا وركعا معاً وسكبا القربان المقدس.

عزم «إنليل» على خلق كل أنواع الأشجار والحبوب كي يعم الخير والرفاه ببلاد سومر فخلق الأخوين «ايمش» (الصيف) و« انتين » (الشتاء) وعين لكل منهما مهامه الخاصة به.

«لقد جعل «انتين» النعجة تلد الحمل والعنزة تلد الجدي،
وجعل الأبقار والعجول تتكاثر، وأكثر الحليب والزبد،
وفي السهل أفرح قلب الماعز الوحشي والغنم والحمار
وأطيار السماء جعلها تبني أعشاشها في الأرض الواسعة
وجعل سمك البحر يضع بيضه في أدغال القصب
وفي أحراش النخيل والكروم أكثر العسل والخمور
وجعل الأشجار تحمل الأثمار أينما غرست
والحدائق غطاها بالخضرة وجعل نباتها يزدهر
وضاعف الغلة في أخاديد الحرث
ومثل أشنان العذراء اللطيفة، جعلها تنمو بثبات.»
«وأما ايمش فقد أوجد الأشجار والحقول
ووسع المرابط وحظائر الغنم
وفي المزارع ضاعف الإنتاج وغطى الأرض
جعل الحصاد الوفير يملأ البيوت ويتكدس في الاهراء
وجعل المدن تشاد والبيوت تبنى في البلاد
والمعابد ترتفع كالجبال..»

وبعد أن أتم الأخوان مهماتهما عزما على الذهاب إلى نيبور إلى «بيت الحياة» ليقدما قرابين الشكر إلى الأب إنليل. قدم «ايمش» أنواعاً من الحيوانات البرية والداجنة والطيور والنباتات في حين اختار «انتين» المعادن والأحجار الثمينة والشجر والسمك قرباناً. وما أن بلغا باب «بيت الحياة» حتى شرع انتين الحاسد يخاصم أخاه. اشتد الجدل بينهما حتى تحدى ايمش ادعاء بأنه «فلاح الآلهة». فقصدا إلى معبد إنليل الـ «إيكور» وكل عرض شكواه فقال انتين:

«أبتي إنليل.. لقد عهدت إلي بالقنوات فجلبت المياه الوفيرة
جعلت المزرعة لصق المزرعة كدست الاهراء
أكثرت من الحبوب في أخاديد الحرث
ومثل أشنان العذراء الكريمة، جعلتها تنمو بثبات،
والآن هوذا ايميش الذي لا يفهم بعمل الحقول
قد دفعني بالمرفق والمنكب

أمام قصر الملك...»

ثم عرض ايميش شكواه بادئاً بعبارات الاطراء والتملــق إلى إنليــل ليكســب رضــاه. ثم أجابهما إنليل:

«المياه المنتجة للحياة في جميع البلاد ـــ انتين هو الموكل بها
إنه فلاح الآلهة الذي ينتج كل شيء.
فيا ابني ايميش كيف تقارن نفسك بأخيك انتين؟»
«فكانت كلمة إنليل الممجدة ذات المغزى العميق،
وكان القضاء الذي لا يبدل فمن يجرؤ أن يتخطاه.»
«فركع ايميش أمام انتين وقدم الصلاة له
وإلى بيته جلب الرحيق والخمر والجعة
ومتعا نفسيهما بالرحيق والجعة والخمر المفرح للقلب
وقدم ايميش لانتين ذهباً وفضة ولازورد
وسكبا معاً القربان المقدس بأخوّة ومودة
وفي الخصومة بين ايميش وأنتين
انتصر انتين فلاح الآلهة المخلص على ايمش
فسبحانك أيها الأب إنليل!»

البانثيون الآكادي

إن آلهة الآكاديين الساميين العائدة إلى حقبة دخولهم إلى أرض ما بين النهرين مجهولة إلى حد بعيد. وقد عرف بعضها من أسماء الأعلام. وفيما بين النهرين اقتبس الآكاديون حضارة سومر ومعتقداتها وبوجه عام لا يمكن فصل المعتقدات الآكادية عن السومرية لكن شمش هو الإله الرئيسي للامبراطورية الآكادية.

1 ـ أيل كبير الآلهة.

2 ـ الثلاثي الكوكبي:

سين (Sin) إله القمر نانا السومري

شمش (Shamash) إله الشمس أوتو السومري

عشتار (Ishtar) آلهة الزهرة انانا السومرية

3 ـ آلهات الغزوات والمعارك وعددها كبير، منها:

أنونا (المناوَشة) أنونيتوم (المناوِشة)

انين (المناوشة) أرنينا (النصر)

شيلابات (هي لبوه) شيدوري (حصني)

وكل هذه الصفات وصفت بها عشتار فيما بعد.

4 ـ داجان إله العواصف والأمطار في مدينة تولول كذلك زبدا في كيش، آيا في مدينة آكاد محارب وإله الحرب تشباك من آلهة الأمطار «أرد» إله الأمطار «أدد» إله الأمطار والعواصف «هدد» الأرامي.

5 ـ أيا إله الأنهر نظير إنكي السومري.

6 ـ ملك مستشار الإله وانرا واللاتوم وماما وأشارا هي أسماء آلهة ثانوية.

البانثيون الآشوري البابلي

حتى نهاية حضارة ما بين النهرين كانت الآلهة السومرية المتعددة باقية في التراث الديني وتقدم لها الترانيم والتراتيل وتبنى لها المعابد ولم يهمل أحد منها عن قصد. لكن في الألف الثاني ق.م وبقيام مملكتي بابل وآشور تبدأ زعامة الإله مردوخ في بابل، وآشور لدى الآشوريين في الشمال. وبذلك أصبحت باقي الآلهة ثانوية كمصدر للقوى الطبيعية. وإلى جانب مردوخ يقوم «نبو» في بورسيبا إله الكتابة وسكرتير مجمع الآلهة. ومع ذلك بقي الأعضاء القدامى في هذا المجمع مثل آنو، إنليل، أيا (إنكي) سين (نانا) شمش (أوتو) أدد (إيشكور) عشتار (إنانا) نينورتا ونرجال.

هكذا نرى أن دخول الساميين الغربيين (الأموريين أو الكنعانيين الشرقيين) من سوريا إلى العراق لم يحدث تغييراً يذكر في البانثيون السومري الآكادي. وحتى الالهة التي عبدوها في سورية (أمورو ـــ مارتو) قبل نزوحهم إلى العراق (بابل) قد فقدت مكانتها الدينية فيما بين النهرين. والحدث الجديد الهام هو رفع مردوخ لمرتبة زعيم الالهة وامتصاصه لصفاتها وحتى حلوله مكان إنليل.

ولكن حتى عبادة مردوخ كانت قضية سياسية تخص الدولة قبل الشعب. لذا بقي حمورابي ورعيته يعبدون آنو وإنليل وأيا وسين وشمش وعشتار وأكثر من ألف إله غيرهم. وفي كل المدن بقيت الآلهة السومرية ـــ الآكادية. لكنها في الغالب أعطيت أسماء سامية بدل السومرية واحتفظت بنفس الصفات كما ذكر تحت عنوان البانثيون السومري.

مردوخ (Marduk)

هو الإله الوطني لبلاد بابل ونظير اسللوحي السومري إله الرعد والمطر والعواصف. ورمزه أيضاً الثور، خواره الرعد وسلاحه الذي كسب به النصر على الفوضى والعماء الكوني لإعادة النظام هو القوس والسهام. يرجح أن اسم «مردوخ» سومري ومعناه غير أكيد، وقد فسره بعضهم بـ «عجل الشمس». مع الزمن أخذ مردوخ يمتص وجود الآلهة الأخرى التي كانت مستقلة من قبل. وفي عهد حمورابي، نحو 1800 ق.م، سمي «ابن أيا» (إله الحكمة ومياه العمق) وبعد ذلك سيطر اسم «مردوخ» على المراسلات الرسمية. وقد نسب إلى آنو إله السماء وإلى إنليل إله الرياح إعطاء السيادة لمردوخ على باقي الآلهة. وهو ابن أيا ودامكينا وزوج ساربانيتوم (أي ـــ الفضية أو اللامعة كالفضة).

وملحمة الخلق «أنوما إيليش» العائدة لنهاية الألف الثاني ق.م. تحكي قصة تبوّء مردوخ هذه السيادة بقتل تنين الفوضى تيامات وأصبحت صورته معقدة جداً إذ أصبح «الإله ذا الخمسين اسماً» وكل اسم كان صفة لإله أقل منه شأناً «سيد السماء والأرض»، ملك آلهة السماء والأرض»، «ملك كل الآلهة»، و«رب الأرباب»، فكل الطبيعة بما فيها الإنسان مدينة بوجودها له. وحول شخصه نظمت ملحمة الخلق البابلية. وأهم عيد لمردوخ هو عيد رأس السنة «أكيتو» وتبدأ السنة في الربيع بأول شهر نيسان ويرمز الاحتفال إلى وضع العالم في النظام بدل فوضى البدء.

في الأيام الأولى من شهر نيسان كانت المعابد تعد وتنظف من أجل الاحتفال. وفي اليوم الرابع تتلى قصة الخلق (سفر التكوين البابلي) بكاملها أمام الإله. وفي اليوم الخامس وبوصول (نبو) بن مردوخ من بورسيبا يبدأ الاحتفال بإعادة تنصيب الملك هكذا:

يأخذ منه رئيس الكهنة «شارات الملك» ثم يصفعه على خده فيركع أمام مردوخ ويصلي مؤكداً له أنه حكم بصلاح ولم يسيء قط. عندئذ يؤكد له رئيس الكهنة رضى الله ويرد له شارات الملك ويصفعه ثانية. فإذا سببت له الصفعة انهمار الدموع عنى هذا رضى الإله، وإذا لم يذرف الدمع كانت علامة غضب الإله.

وفي اليوم الثامن يأخذ مردوخ مكانه بين الآلهة المجتمعة في غرفة الأقدار «دوكو»، وفي اليوم العاشر يقوم الشعب بالطواف في الزوارق إلى معبد اكيتو رمزاً لخروج مردوخ لمحاربة تنين الشر تيامات.

وفي اليوم الحادي عشر يقدم الالهة ولاءهم لمردوخ بعد النصر وتنظيم الكون وانتخابه سيدا من قبل الآلهة بعد أن أنقذها من تيامات. وفي اليوم الثاني عشر ينتهي الاحتفال ويعود الإله إلى معبده.

ورأس السنة السومري «زجموك» احتفل به مرتين في العام الواحد في الربيع والخريف.

آشور (Ashshur)

إله مدينة آشور بعد أيام «شمشي ـ أدد» (1814 ـ 1782 ق.م) وقد اعتبروه إنليل السومري. وبعد سرجون 2 (شاروكين 721 - 705 ق.م) اعتبروه مثل «آنشار» أبي آنو في أسطورة الخلق السومرية. وفي أيام سنحريب (704 - 681 ق.م) أعطيت له صفات مردوخ. وهو يمنح الملك على بلاد آشور ويساعد الآشوريين على أعدائهم ويستلم التقارير من الملك عن سير المعارك وكان تجسيداً لأطماع الآشوريين مثل يهوه العبرانيون لا صفات صالحة فيه. زوجته نينليل وهي في الأصل زوجة إنليل السومري و«معبده» و«أي ـ شاريرا» ولا يمكن مقارنة شيوع عبادة آشور أو أي إله آخر من آلهة الشرق بشيوع ونفوذ عبادة مردوخ وذلك بارتباط عبادته بحياة بابل السياسية والاجتماعية والعسكرية والدينية بعد أن أصبح كبير البانتيون البابلي منذ عهد حمورابي.

كان اسم معبد مردوخ في بابل اسجيلا E-Sag-Ila (أي المعبد الذي يرفع الرأس) أو «البيت العالي الرأس». وكان مركزاً تشع منه علوم الدين والسحر. وكان يشمل مجموعة من الأبنية الكبيرة والعالية إلى الجنوب من معبد إي ـ تمن ـ آن ـ كي E - temin - an - ki (اي المعبد الذي أساسه السماء والأرض) والذي هو برج بابل الشهير والاثنان يقعان على جانبي شارع المسيرة أو المواكب.

ويدل على الصلات الوثيقة بين مردوخ ومدينته قول النبي أرميا عند سقوط بابل: «أخبروا في الشعوب وأسمعوا وارفعوا راية ـ اسمعوا ولا تخفوا. قولوا أخذت بابل. خزي بيل، انسحق مردوخ، خربت أوثانها انسحقت أصنامها. لنه طلعت عليها أمة من الشمال هي تجعل أرضها خربة فلا يكون فيها ساكن. من إنسان إلى حيوان هربوا وذهبوا» (50 : 2 و 3).

وفي (51 : 42 ــ 44) «طلع البحر على بابل فتقطعت بكثرة أمواجه، صارت مدنها خراباً أرضاً ناشفة وقفرا. أرضاً لا يسكن فيها إنسان ولا يعبر فيها ابن آدم. وأعاقب بيل في بابل وأخرج من فمه ما ابتلعه فلا تجري إليه الشعوب بعد، ويسقط سور بابل أيضاً».

ولكن مردوخ ابن أيا البكر: فقد ورث عنه العلم والسحر وصار مثله المعوذ بين الآلهة فهو «السيد الذي أحيا بتعويذته الطاهرة الآلهة الموتى، والذي أهلك بتعويذته الطاهرة الأشرار جميعاً» «والذي يحيي بتعويذته الميت ويصح المريض». كما كان مردوخ «أحكم الحكماء والخبير بين الآلهة» وهو «الخنشا» أي الخمسين أو صاحب الأسماء الخمسين التي خلعتها عليه الآلهة.

ويرى «دورم» في نسبة الأسماء الخمسين جميعاً إلى إله واحد اتجاهاً إلى التوحيد حيث صارت الآلهة الأخرى جوانب من شخص مردوخ. وهذه الهينوثية كانت تطوراً جديداً في العبادة كما تحت «أساطير بابل وتطور الفكر الديني».

ويمثل الإله مردوخ في السماء المشتري (Jupiter) أو «نسبيرو» بالبابلية ومعناها «المعبر» وهو من أسمائه الخمسين «ليمسك نسبيرو بمعابر السماء والأرض. وعلى الذين يعجزون عن العبور في السماء والأرض أن يسألوه دائماً. أن نسبيرو هو الكوكب الذي يسطع في السماوات» (اللوح 7 من ملحمة الخلق).

وفي صورة مردوخ نراه وقد لبس تاجاً أسطوانياً عالياً محلى بالزهور يبرز منه بعض الريش وله لحية وشعره مرسل في خصل خلف الرأس وثوبه يصل إلى قدمه وقد تناثرت عليه صور نجوم داخل دوائر. يده اليسرى موضوعة على صدره ممسكة بحلقة وعصا رمزاً للسلطة ويده اليمنى مدلاة إلى جانبه وقد أمسكت هراوة. وتقوم على حراسته الأفعى الحمراء «شروشو» وفي أجزائها تتمثل معظم الحيوانات.

وفي الطقوس كانوا ينادون مردوخ «بيلي» أي سيدي وينادون زوجته «سربانتيوم» أي الفضية «بيلتيا» أي سيدتي. وكان مردوخ وزوجته يبجلان حيثما يعلو سلطان بابل. وعندما فتح ملوك آشور أرض بابل أعلنوا ولاءهم لآلهتها وفي مقدمتها مردوخ وزوجته. وفي عصر الدولة الكلدانية بلغ مردوخ وزوجته ذروة مجدهما. وبعد أن فتح كوروش الفارسي بابل بقيت لمردوخ وابنه نبو مكانتهما. وظلا موضع الإجلال بعد ذلك أيام سوريا السلوقية سواء في الحياة الخاصة أم في الاحتفالات الرسمية.

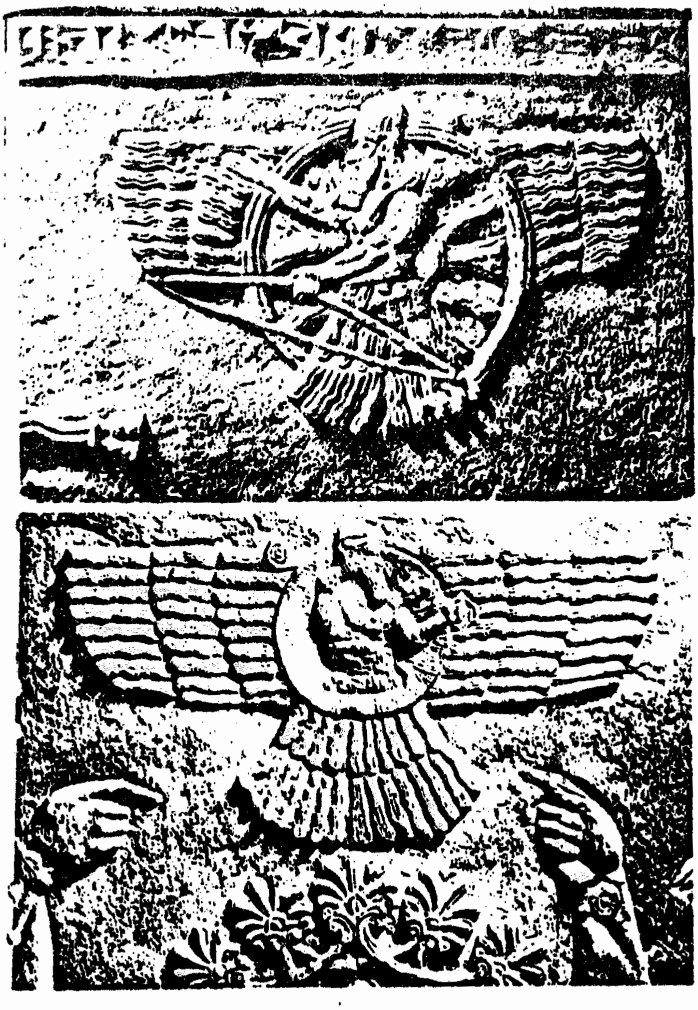

منظـــران للالـــه اشـــور يخرج من قرص الشمس المجنـــح

يقول كورش (557 – 529)ق.م. في كتابة له بمناسبة احتلال بابل: «عندما دخلت بابل كصديق ولما أقمت كرسي الحكم في قصر الحاكم وسط الأفراح والتهاليل جعل مردوخ الرب العظيم شعب بابل العظيم يحبني وكنت أنا يومياً أعمل على عبادته. وسر مردوخ الرب العظيم لأعمالي وأرسل لي بركاته أنا كوروش».

وقد نظمت التراتيل والابتهالات والمزامير بالآكادية لمردوخ منها ما يصف عظمته ومنها ابتهالات وصلوات عميقة في روحها الأدبية، بعيدة عن الجمود السومري:

ابتهال من خاطىء إلى مردوخ يطلب المغفرة:

«انا منطو كشيخ مسن،
ايها السيد القوي مردوخ، يا إله الرحمة
بين البشر مهما كان عددهم،
من وحده يستطيع أن يفهم إلى الأبد؟
من لم يرتكب خطيئة قط؟
من لم يزل قط؟
من يستطيع أن يفهم دروب الله؟
اغفر لي خطاياي التي أعيها
والخطايا التي أجهلها.
امح خطيئتي، وابعد ذنبي،
انر شكي، وبدد اضطرابي...»
«أيها السيد القوي
فليهدأ قلبك الغاضب
ولتهدأ روحك الوحشية
ولتحن لكي أحيا بروحك
يا أحكم الآلهة
يا مردوخ السخي».

ابتهال يعود إلى عهد حمورابي:

«جليل، عظيم، يا ابن «أيا» البكر
يا راعي البلاد الذي حمى كافة الشعوب مهما بعدت.
أيها الحاكم المطلق لكافة أماكن العبادة
يا من اسمك على لسان جميع البشر بالمديح والخير،
يا مردوخ أيها السيد العظيم. بأمرك الأميري
علني أبقى سالماً صحيحاً، لأسبح بحمد ألوهيتك!
اجعل رغباتي تتحقق!

اجعلني أنطق بالحق!
اجعل الخير يسكن في قلبي!
يجب أن يبشر الحرس والرسل بالخير!
اجعل وليي الإله، أن يقف إلى يميني!
اجعل وليتي الآلهة، أن تقف إلى يساري!
لعل الإله الذي يبقيني سالماً، يبقى إلى جانبي دوماً»
«يا مردوخ أيها السيد العظيم هب لي الحياة،
واجعل الحياة تنطق في نفسي
وأن أظهر أمامك مبتهجاً أشبع نفسي من الطواف حولك».

إيا (Ea)

هو إنكي السومري رب الحكمة والمياه العذبة العميقة «ابسو»، هو أبو مردوخ وشريكه في عملية الخلق. من أسمائه الأخرى «نينجيكو». وهذا دعاء من سرجون الثاني الآشوري إليه:

«إيه يا نينجيكو يا إله الحكمة
انت يا من كوّنت العالم.
لتنبثق ينابيعك لسرجون ملك العالم وملك آشور.
حاكم مدينة بابل وملك سومر وآكاد ومشيد هيكلك.
لتأت ينابيعك بماء الرخاء والوفرة، ولترو أرضه
اجعل الخبرة العريضة والفهم الواسع
نصيبه المكتوب له،
وحقق لعمله التمام
واجعله يبلغ ما يرمي إليه».

سين (Sin)

هو إله القمر عند الساميين (البدر) نظير نانا السومري. كان مركز عبادته الرئيسي في حران أيام كانت عاصمة آرامية، وأدخل اسمه إلى بابل بدل «نانا» السومري الذي كانت مدينته أور (أور الكلدانيين) المدينة التي خرج منها إبراهيم كما في التوراة. واسم أبيه تارخ أي القمر الهلال. باسمه سميت شبه جزيرة سيناء أو صحراء سين، كما أدخل اسمه في العديد من أسماء الملوك، مثل سين ــ موبلليت (1812 ــ 1793 ق.م.) ملك بابل ووالد حمورابي، نارام ــ سين (محبوب سين) ملك آكاد وحفيد سرجون الآكادي (2291 – 2225 ق.م.) وشو ــ سين ملك أور (2038 – 2030 ق.م.) وابنه أبي ــ سين (2029 – 2006 ق.م.) آخر سلاسة أور الثالثة.

صلاة بابلية إلى سين

«أيتها الثمرة التي خلقت نفسها
لاحدود لعظمتك
أنت الأم التي ولدت كل شيء
أنت الأب الرحوم المليء بالطيبة
بيدك تمسك حياة العالم أجمع
أيها الإله..
إن ألوهيتك تتفجر عظمة كماء السماء
واتساعاً كماء البحر...»

وحسب ملحمة الخلق البابلية، سلط مردوخ القمر على الليل وجعله زينته، وجعل من دورته مقياس الزمن، به يعرف الناس موعد الأيام.

شمش (Shamash)

إله الشمس أو أوتو السومري. إله العدل ينير الظلمات ويقود عربته كل يوم يدور فيها حول العالم يرى ما في قلوب الناس ويرى أعمالهم من أجل محاسبتهم. وهو الثاني في الثلاثي الكوكبي عند الساميين، سين ـ شمش ـ عشتار.

ترنيمة إلى شمش

«إيه يا شمش يا ملك السماء والأرض
يا من توجه كل شيء في العلو والأسفل،
يا شمش، إن بيدك إعادة الميت إلى الحياة
وتحرير الأسير من قيده.
إنك قاض لا سبيل إلى إفساد ذمته!
ومرشد لبني الإنسان،
وابن رائع للإله تمرصت
ابن عظيم القوة والنبل
نور البلاد
وخالق كل ما في السماء والأرض
هذا هو أنت يا شمش...»

صلاة إلى شمش

«أي إلهي
أنت الذي تنير الظلمات
وتضيء وجه السماء
إله الرحمة
الذي يرفع المهان ويحمي الضعيف

أنت تقود مجموعة البشر كرجل واحد
بملىء رغبتهم يرفعون رأسهم
ويديرون عيونهم نحونورك
عندما تظهر يمتلئون فرحاً وسروراً
إن شعوباً لا تحصى تتأملك بكل بهجة»

نشيد إلى شمش من أدب بابل

التلال العالية متوجة بسنائك،
وشعاعك ينير منبسطات البلاد السهلية،
تتبوأ الجبال وتَرْعَ الأرض بناظريك،
وتشد أطراف الكون إلى أعمق السماوات،
ترعى شعوب الأرض،
وتكلأ ما بدعه «إيا» الملك مستشارك.
تؤتي القوت كل مخلوق حي
أجل أنت الراعي لكل من على الأرض ومن تحتها
وكل مسعى للبشر بأي لسان عبروا عنه
أنت عالم به وعالم بالأعمال.
كل الجنس البشري شاخص بناظره إليك.
أي شمش، الكون متعطش لضيائك
كل سيء فيه تعطّل مسعاه، وتهدم بيوت المستبدين
وتجازي بالسجن من أعوجّ من القضاة!
وتعاقب السيد الشرير والفاسد
وكل مستقيم يحمي الضعفاء
ينال حظوتك، أي شمش، وتطول أيامه
ومن يحكم حسب ضميره من القضاة
يعد لنفسه قصراً، وداره منزل أمير»

عشتار (Ishtar)

آلهة الحب والجمال السامية، نظيرة إنانا السومرية، وهي نجمة الزهرة. لقد أعطيت صفات حسنة في الأناشيد ووصفت بأنها «ملكة السماء» وأنها «نور العالم» لكنها وصفت أيضاً بأنها «البغي المقدسة» وحيكت حولها الأساطير لتظهرها محبة بجسدها لا بروحها، خائنة لا تؤتمن على عشاقها كما أبرزتها ملحمة جلجامش، وقد رفض ملك أوروك أن يكون أحد ضحاياها . وهي نظيرة أفروديت اليونانية وفينوس اللاتينية. ولها أسماء كثيرة عند الساميين مثل «عشتروت»، اتارغاتيس»، «استارت»، «أستير»

و«عشتر» عند العرب الجنوبيين و«عستر» في الحبشة. و«العزة» عند الأنباط. وهي أخت أريشكيغال آلهة العالم السفلي وأخت شمش وابنة سين ومن عشاقها تموز وجلجامش. ومن أساطيرها نزولها إلى الجحيم وحبها لتموز، إلخ..

نشيد بابلي عن عشتار
«عشتار نور العالم ونور السماء
التي تحنو على التعساء وتنصف المظلومين
التي تنير كل الأماكن حيث يسكن البشر
وتجمع معاً جيوش جميع الأمم
حكمتك تفوق إدراكنا
حيث تشعين ــ يبعث الأموات إلى الحياة
والكسحاء ينهضون ويمشون
وتخف آلام المرضى
حين تلقين نظرك على وجوههم.
كبيرة هي عشتار
لا أحد يمكنه أن يضاهيها
عشتار تستبقي حياة الأسير وتقي من تعثر
وهي التي تذل المستكبر
وترفع المهان...»

وبما أن عشتار هي آلهة الحب والتناسل والبغي المقدسة، ماذا حدث عند نزولها إلى الجحيم والحكم عليها بالموت:

«الثور لا «ينط» على البقرة
والجحش لا يلقح رحم الأتان
والرجل في الشارع لا «يلقح» العذراء»

وعشتار تعشق الرجولة والجمال لكنها لا تخلص لأحد. فإنها لما رأت جلجامش بعد أن نظف يديه وأسلحته من دم تنين الشر «هواوا» ولبس الثياب النظيفة وخوذته الذهبية هامت به وهي التي «تلصلص» من السماء باحثة عن الحب، فنزلت إليه وعرضت عليه حبها، لكنه نفر من خداعها وحقارة الحب الجسدي وأنبها قائلاً:

«ماذا تفعلين بعشاقك يا عشتار؟
عندما يعبدك الجواد ألا تسرجينه؟
ألا تحكمين عليه بجر عربات الحرب الثقيلة؟
عندما يفتن بك الرعيان على التلال،

ألا تمسخينهم فهودا تلتهم صغار النعاج؟
ألم تقتلي تموز الشاب إذ أحبك؟
ألم ترسليه إلى «بيت الأموات» بعد الحصاد؟
فتأتي بعده كل عام ثلوج الشتاء
تنساب في الأنهر والوديان وتغمر أرضنا بالصقيع؟»
«أيتها الموقد الذي ينطفىء وقت البرد،
أيتها الباب الذي لا يقي صاحبه نفخ العواصف،
أيتها الضرف المثقوب يبلل ظهر حامله،
أيتها الحذاء الضيق يقرص رجل لابسه،
إن أصبحت وإياك حبيبين، ألن أشرب نفس الكأس؟».

البانثيون الكنعاني

كان الكنعانيون أو الفينيقيون أول أمة بحرية في التاريخ وكانت الأخشاب وافرة في جبال لبنان لبناء المراكب. عملوا على الإبداع الحضاري ونقله في أسفارهم. فقد كانوا أول من أبحر من ميناء عصيون جيبر (إيلات) حول إفريقيا وعادوا من مضيق جبل طارق إلى المتوسط، وأول من خرج من المتوسط إلى الأطلسي. وهناك دلائل على أنهم أول من وصل إلى أميركا وكان ذلك في القرن 6ق.م. اي قبل كولومبوس بألفي عام. وحيثما ذهبوا أقاموا المستعمرات التجارية في حوض البحر المتوسط حتى أصبح بحق بحيرة كنعانية.

لقد شملت بلاد كنعان كل الساحل السوري من طرسوس وأدنة في كيليكيا حتى غزة في جنوب فلسطين والأقسام الداخلية في فلسطين البعيدة عن البحر، وأول اسم عرفت به فلسطين هو أرض كنعان. ويستدل من أسماء المدن أنها كنعانية وقد بنيت قبل العام (3000)ق.م.، منها يريحو (أريحا) وبيت شعن (بيسان) ومجدون (مجدو). بينما المدن الأخرى مثل صور وصيدون (صيدا) وجيبال (جبيل) وعرقة وسميرا (تل الكزل) ظهرت بعد ذلك.

ومن مدنهم الداخلية جزر (تل الجزر) ومجدون وحاصور وشكيم (نابلس) ويروشاليم (أورشليم) التي احتلها داود نحو (1000)ق.م. وأوغاريت في عصرها الذهبي (1450 – 1200) ق.م.

ورغم وجود دول قوية محيطة بالمدن الكنعانية، فإنها لم تتوحد سياسياً بل اتبعت نظام الدولة ـــ المدينة، هذا النظام الهزيل الذي اتبعه السومريون من قبل. إلا أنهم في بعض الحالات اتبعوا نظاماً كونفدرالياً. وبمجمل التاريخ الكنعاني فإننا لا نجدهم رجال حرب وفتوح بل رجال سلم وبناء وتجارة، وبناء مستوطنات كان أعظمها قرطاجة (تونس) (814 – 146) ق.م. ابنة صور وملكتها اليسار (ديدو) والتي نازعت روما على السيادة، خاصة أيام هنيبعل بن. هملقار برقة (247 – 183 ق.م) الذي كان من أعظم القادة العسكريين في التاريخ القديم.

لقد اتجه كنعانيو الساحل السوري إلى التجارة والفن والدين فأحنوا رؤوسهم للفاتحين بسبب تبعثر قواهم. وكثيراً ما عملوا مرتزقة بحرية لدى المصريين والإغريق والفرس. ومن أشهر البحارة الأميرال القرطاجي «حنون» الذي قاد (60) سفينة وعدداً كبيراً من الناس بينهم المهندسون والفلكيون والأطباء وعلماء النبات وخرج بهم من مضيق جبل طارق إلى أن وصل إلى شواطيء الكاميرون في القرن 6 ق.م.

والبلاد التي سميت كنعان كانت مسكونة منذ أقدم العصور أي قبل وجود الكنعانيين فيها، كما تدل الوقائع الأثرية، لكننا لا نعرف شيئاً عن الشعب الذي كان يسكنها، ونفترض أنهم من شعوب سوريا مما قبل التاريخ وقبل دخول الساميين وظهورهم على المسرح السوري، ونفترض أيضاً أن السومريين هم أحد تلك الشعوب القديمة، وقد كانوا من بدأ التاريخ وأضاء فجره.

ففي العصر النيوليتي (5000 – 3800) ق.م. وجد سكن كثيف على الساحل السوري، وكان أقدم سكن مستقر في مدينة جبيل ويعود لنحو (5000) ق.م. إن جبيل ليست أول مدينة كنعانية وحسب بل هي المدينة الوحيدة التي ولدت نحو (5000)ق.م. في الشرق الأدنى واستمرت عبر القرون وبدون انقطاع وما زالت قائمة حتى الآن، أي أن عمرها نحو (7000) سنة. كان المصريون يسمونها «كيبين» ومنطقتها «نيغا» ولا ندري ماذا كان الجبيليون يسمون أنفسهم آنذاك. ونحو (2800)ق.م. أسست صيدون وصور وأرواد. ونحو (1600) ق.م. أصبحت صيدا العاصمة الكبرى في فينيقيا حتى أصبح اسم صيدوني مرادفاً لاسم كنعاني.

نحو (1500) ق.م. تم اختراع الأبجدية في جبيل وكتبت على ورق البردي المستورد من مصر نحو (1100) ق.م. وقد ولدت الأبجدية الكتابة وكانت أعظم ما أعطى السوريون للحضارة الإنسانية. وحمل الإغريق الأبجدية إلى أوروبا في القرن 9 ق.م. كما حملها الآراميون إلى الشرق. وبهذا عممت لغتهم حتى أصبحت لغة الهلال الخصيب.

ورغم أن الكنعانيين هم مخترعو الكتابة الأبجدية إلا أن النصوص الكنعانية قليلة جداً إذا ما قورنت بما اكتشف في مصر وبابل. وسبب ذلك أن الكنعانيين قد استعملوا أوراق البردي كالمصريين في تدوينهم ونسخهم للنصوص، لكن مناخ مصر الجاف ساعد على حفظها بينما رطوبة كنعان ساهمت في إتلافها، حتى خشب الأرز في النواويس قد تلف فكيف لا تتلف أوراق البردي؟ أما النصوص التي كتبت على ألواح الطين في أوغاريت فقد بقيت محفوظة كما في بابل لتلقي نوراً ساطعاً على آداب ودين كنعان. والقصائد التي اكتشفت في أوغاريت تعود للقرن 14 ق.م. وقد حلت رموزها بعد عام (1930)م. وهي تضم عدداً من التعابير الشعرية التي اقتبسها العهد القديم فيما بعد، بعد تسعة قرون.

إن مجمل هذه الكتابات تؤلف «التوراة الكنعانية» ومن الممكن معرفة قسم كبير مما اقتبسه العبرانيون من الكنعانيين كما عرف قسم كبير مما اقتبسوه عن البابليين. لذا يمكننا القول بأنه لحسن الحظ أن أفضل ما أنتجه الكنعانيون من أدب كان قد تبناه العبرانيون فوجد لنفسه تعبيراً في كتاباتهم المقدسة كما في سفر الأمثال والمزامير ونشيد الإنشاد وغيرها. إلا أن كتّاب العهد القديم قد حوروا بعض الأفكار لتلائم معتقداتهم هم، أي أنهم مهروها بالختم اليهودي ثم جاء المسيحيون وأخذوها كما هي بعد تحريفها.

إن الديانة الكنعانية مستوحاة من قوى الطبيعة، متأثرة بديانات السومريين وباقي الساميين والأناضوليين. وقد عرف منها القليل عن طريق لوكيان السميساطي وفيلو الجبيلي. وهذان الكاتبان السوريان كتبا باللغة اليونانية حيث كانت لغة المثقفين في عصرهما. لقد ترجم فيلو (نحو 61 – 141)م. كتاباً لكاهن بيروتي عاش في القرن 11 ق.م. عن الديانة الكنعانية واسمه «سنكن ـــ يتن» (سكون ـــ يتون)، كما كتب لوكيان (125 – 192)م. عن الأدونيات في جبيل وقد زار معبد أدونيس هناك نحو (148)م.

وأول ما يروع المرء في الدين الكنعاني أنه أدنى كثيراً من دين أرض الرافدين في المستوى الحضاري، ويتجلى هذا بأجلى صوره في قسوة بعض طقوسه واهتمامه الغليظ بالعناصر الجنسية. ومما يستدعي الانتباه أيضاً أن آلهته ذات طابع غير محدد أو ثابت،

فالآلهة الكنعانية كثيراً ما تتبادل صفاتها ووظائفها وصلاتها بل جنسها أيضاً. وهذا يرجع من ناحية إلى انعدام الوحدة بين الكنعانيين ومن ناحية أخرى إلى أنه لم يكن ثمة طبقة من الكهان منظمة تنظيماً كافياً تستطيع تنظيم العبادة كما في بابل.

ثم إن الكنعانيين عبدوا آلهة عدة أخذوها عن المصريين أو البابليين، غير أن مكان الشمس والقمر في العبادة كان محدوداً. وقد حدث فيما بعد ارتباط واندماج بين الآلهة الكنعانية وآلهة اليونان.

ويستدل من بعض المصادر الأوغاريتية ومن العهد القديم أن الكهانة قد بلغت بعض التطور إلا أنه دون التطور في أرض الرافدين. فهناك ذكر للكهنة الكبار وسدنة المعابد والنساء النادبات والبغايا المقدسات،وعدد غير قليل من المتنبئين، ووجود طائفة خاصة هي طائفة «الأنبياء»، ولا ندري تماماً ما كانت وظائفهم إلا أنه كان لهم نظير عند الاسرائيليين (وفي إيبلا القرن 24 ق.م).

كان الكنعانيون في الألف الثالث ق.م. يعرفون آلهتم بأسماء سامية «ايلوهيم» جمع «ايل» و«بعليم» جمع «بعل» أي سيد. كما كانوا يدعون الإله «ملك» أو «أدون» أي رب. وهذا التقليد يعود إلى عقيدة سامية دينية تقضي بإخفاء الاسم الحقيقي للإله لأن التلفظ بالاسم الحقيقي يساعد على السيطرة على الإله، لذا كانوا يعمدون إلى إخفاء اسم الإله وراء أحد نعوته مثل بعل صور، بعل لبنان، بعلة جبيل ملكارت، إلخ.. كما آمنوا بوجود الجبابرةوالعمالقة المسمين «رفائيم»، ويقول سنكن – يتن أن الآلهة ولدت الجبابرة الذين تركوا أسماءهم في أمكنة إقامتهم وهم «قاسيون ولبنون وحرمون» وذلك بتوالد أبناء الله وبنات الناس، كما جاء في العهد القديم ترديداً لنفس الفكرة في الاصحاح السادس من سفر التكوين «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسناوات فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً، هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم».

وفيما يتعلق ببدء الخلق يقول فيلو على لسان سنكن – يتن إن الإله «عليون» أي العلي وزوجته «بيروت» كانا يسكنان في جبيل، منهما ولد «اطختون» الذي يمتد فوق رؤوسنا ونسميه السماء، وأخته «أدمه» الجميلة التي نسميها الأرض. قتل الأب «عليون» في صراعه مع الحيوانات البرية فألهه الأولاد وقدموا الذبائح والقرابين تكريماً له. ولما تسلم اطختون سلطة أبيه، تزوج أدمه أخته فولدا أربعة أبناء، هم «ايل وبتيل وداغون واطلس» (Cronos Betylos Dagon Atlas).

ثم ولد لأطختون (السماء) أولاد كثيرون من خليلاته مما أثار غيرة أدمه (الأرض)، وانتهى خلافهما بالطلاق. وقد استعمل اطختون العنف معها وحاول قتل أولاده منها، وكانت أدمه تحمي نفسها بالتعاويذ. ولما صار ايل شابا جعل هرمس (توت Hermes Tris magistos = thoth هرمس المثلث العظيمة) مستشاره وعضده وأعلن الحرب على أبيه (السماء) وصنع رمحاً من الحديد. وأطلق هرمس بعض العبارات السحرية على رفاق ايل مما أثارهم لمحاربة السماء لصالح الأرض. وأخيراً انتصر ايل في المعركة

على اطختون السماء وحل مكانه على العرش. ثم بنى ايل سوراً حول مركز سكناه، ثم بنى داخله أول مدينة في كنعان ألا وهي جبيل، ودعى رفاقه «ايلوهيم» أي الآلهة.

وبنى الكنعانيون المعابد والمزارات وهم الذين بنومعبد سليمان في أورشليم كما تقول التوراة. والمعبد هو مسكن الآلهة كالبيت بالنسبة للبشر، كما أنه هو مركز الاتصال بين الإنسان والإله. ولم تكن كل مراكز العبادة أو معظمها في صورة المعابد المعروفة فقد شاعت هياكل في العراء كانت تقام بالقرب من الأشجار أو الينابيع وخاصة على التلال (مزارات) وكان هيكل العراء يتكون من أرض محاطة بسياج تضم مذبحاً وفيها قبل أي شيء آخر حجر مقدس أو حجران يعتقد أنه أو أنهما مسكن الإله. بهذا المفهوم بنى الكنعانيون معابدهم وأقدمها يعود للألف 3 ق.م في إريحا ومجدو. وكانت تلك المعابد مكونة من غرفة مستطيلة بابها من جهة الطول.

وبعد منتصف الألف 2 ق.م ازداد تعقيد المعابد فأقاموا المذابح والأعمدة رمزاً للإله وغرفاً تحت الأرض وسمي المعبد «هيكلاً» كما وجدت مباخر وأمكنة لغسل الأرجل قبل الصلاة وهو نوع من الوضوء قبل الصلاة سبقوا فيه اليهودية والإسلام. وفي هيكل «بيت شعن» وجد بناء داخلي هو «قدس الأقداس» كما كانت تصنع التماثيل الصغيرة وتوضع في البيوت، كما عبدت الأفاعي.

كانت المزارات (المقامات) شائعة في كنعان كما هي في أيامنا. وهي أمكنة عبادة مقامة على المرتفعات وعلى رؤوس الجبال فيها مذابح للتقدمة. وهذه «الأماكن المرتفعة» تتحدث عنها التوراة وتسمى في العبرية (الكنعانية القديمة) «باموث». (Bamoth)

كان الخبز والخمر من القرابين التي تقدم للآلهة ولا يزال هذا التقليد في الطقوس المسيحية خاصة في ذكرى العشاء الأخير وذكرى دم ولحم المسيح. وهذا ما فعله ملكي صادق ملك أورشليم وكاهن ايل عليون فبعد أن يتكلم الاصحاح 14 من سفر التكوين عن كسرة الملوك التي انتصر فيها إبراهيم (ابرام العبراني) يقول «وملكي صادق ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي (ايل عليون) وباركه وقال مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والأرض. ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك. فأعطاه عشراً من كل شيء» وأما الحيوانات التي كانت تقدم ذبائح فكانت نوعاً من الوليمة تقدم للإله.

وكانت القرابين الكنعانية تضم ضحايا من البشر إلى جانب قرابين الحيوان المألوفة وكانت القرابين الآدمية تقدم مثلاً في الكوارث العامة على أنها أعظم قربان يمكن أن يقدمه الإنسان إلى الآلهة. ومن العادات تقدمة الأبكار من الأبناء لدى الكنعانيين القدامى وقد حافظوا على هذا التقليد حتى زمن متأخر. وكان الطفل يدفن في جرة من الفخار. كما كان العمونيون يقدمون أطفالهم محرقات للإله «مولك» في «جهنم» (وادي هنم) بين أورشليم وعمان.. هكذا أيضاً شعر ابراهيم بالدافع لتقديم اسحق حسب التقليد العبراني أو إسماعيل حسب التقليد الإسلامي ذبيحة تقليدا للكنعانيين في فلسطين كما قدم ملك موآب ابنه البكر ذبيحة.

ومن الطقوس القديمة عند الكنعانيين «البغاء المقدس» أو الزنا وكان جزءاً من عبادة الخصوبة وكانت هذه العادة تمارس في الأدونيات، وقد بطلت ممارستها فيما بعد بفضل تطور الدين الكنعاني وهي تدل على مستوى ديني منخفض.

كان الكنعانيون يمددون الميت على ظهره عند الدفن ورأسه نحو الشمال ويضعون قربه قنديلاً وجرة وأواني الأكل والشرب زاداً له في رحلته إلى العالم الآخر. كما كان يدفن مع المرأة زينتها ومع الرجل سلاحه، ولم يحنط إلا القليل من الملوك الكنعانيين تحت تأثير النفوذ المصري. ولا يمكن تحديد عقيدة وجود حياة أخرى بعد الموت.

أوغاريت والعهد القديم

لم يرد لأوغاريت ذكر قط لدى مؤلفي العهد القديم على عكس الكثير من البلدان والمدن القديمة. فإن أوغاريت بعيدة عن حدود دولة العبرانيين المباشرة. وتأثير الأدب الأوغاريتي واضح لا خلاف عليه في العهد القديم ويشكل معضلة في دراسة العلاقة بينهما. ومن أهم مكتشفات أوغاريت، إلى جانب القصور والمعابد، الوثائق التي كانت تملأ عدة غرف وهي وثائق رسمية تتألف من قوائم ورسائل وعقود مكتوبة بالأوغاريتية والآكادية والحورية وتحمل في أغلب الأحيان أختام الملك، وأكثرها يعود لعهد تل العمارنة في مصر أي إلى القرن 14 ق.م. وقد كتبت بأبجدية مسمارية من ثلاثين حرفاً.

يرى البعض أن اللغة الأوغاريتية هي الأمورية ويرى آخرون أنها لغة وسيطة بين المجموعة السامية الغربية. وآخرون يرون أنها لهجة كنعانية. ومن المعلوم أن الأمورية والكنعانية من أصل واحد، والفرق بينهما لهجوي فقط، كما أن العبرية أو «شفة كنعان» هي اللهجة الكنعانية القديمة. كما نجد أن أعظم تشابه للغة أوغاريت هو مع اللغة العربية، ونصوص أوغاريت أقدم من نصوص العهد القديم بعدة قرون (واللغة الايبلاوية كنعانية قديمة غنية بالمفردات السومرية).

وتشمل نصوص أوغاريت الدينية ستة مجموعات هي:

1 ــ مجموعة بعل وتملأ سبع لوحات أصاب التشوية والتلف بعضها لذا يصعب ترتيبها حسب الموضوع.

2 ــ أسطورة «أقهت» على ثلاث لوحات من (450) سطراً.

3 ــ أسطورة «كرت» من ثلاث لوحات الأولى منها نحو (300) سطر.

4 ــ قصيدة «سحر وشالم» على لوحة واحدة.

5 ــ نيكال والكثيرات على وجه لوحة واحدة.

6 ــ لوحات الرفائيم وهي أربعة ويسمون أيضاً عليونيم وعددهم ثمانية على رأسهم بعل.

ولا مجال لذكر التناظرات بين نصوص أوغاريت والعهد القديم بالتفصيل، إلا أن أسماء آلهة أوغرايتية مثل «يم» و«تنين» والحية «لوتان أو لوياتان»، وصفة بعل راكب الغيوم وصوته الرعد، وايل الذي أصبح إلهاً مشتركا بين كنعان واسرائيل وآرام إلى جانب أن التعابير المختلفة وردت جميعها في نصوص أوغاريت والعهد القديم. ودراسة الأدب الأوغاريتي تساعد على ترجمة النصوص العبرانية بشكل صحيح. مثلاً، يقول أيوب لله «أيمّ أنا أم تنين حتى تجعل حولي سداً؟» ويم عند الكنعانيين هو البحر وإله البحر أيضاً، وقد ورد هنا كاسم علم دون ال التعريف، كما أن تنين يمثل الشر وهو اسم علم، بينما النص العربي المترجم يقول «أبحر أنا أم حوت حتى جعلت علي حارساً» بل أن

النص الانكليزي يقول ما معناه «أبحر أنا أم حوت حتى أقمت على حارساً» بينما يم وتنين هما اسما علم من الميثولوجيا الكنعانية ولا يجوز ترجمتهما. وسيرد تفصيل أكبر عن ذلك عند الحديث عن الميثولوجيا العبرانية.

كنعان والميثولوجيا الإغريقية:

إن الميثولوجيا الكنعانية لم تؤثر على الميثولوجيا العبرية فقط بل على الميثولوجيا الإغريقية أيضاً. وتلك الثورة في الفكر القديم في ميادين العلم والفلسفة والفن والدين في بلاد اليونان التي عرفت باسم «المعجزة الاغريقية» لم تكن معجزة بالمعنى الكامل بل سبقتها «معجزتا بابل وكنعان» في نفس الميادين الفكرية، إلا أن جهل العالم لهذين التراثين أبرز «المعجزة الاغريقية» وكأنها طفرة تاريخية أتت من العدم ولم يكن لها سابقة وموروثة.

لقد اختلط الكنعانيون بالإغريق عن طريق الأسفار والتجارة والمستوطنات المتاخمة حتى أن بعض المستوطنات الكنعانية أقيمت في بلاد اليونان مثل طيبا وتوابعها بينما أقيمت مستوطنات يونانية على الساحل السوري مثل بوسيديوم المعروفة الآن بمنتزه رأس البسيط (بوسيد) شمال اللاذقية وبلطس Paltos(عرب الملك) إلخ. قبل فتح الإسكندر، إلى جانب الاختلاط الكنعاني الإغريقي في قبرص التي أقام كلا الفريقين مستوطناته فيها. وبسبب هذا الاختلاط بات المؤرخون يختلفون في نسب بعض كبار أهل الفكر القدامى أهم كنعانيون أم إغريق مثل تاليس أبو الفلسفة وبيتاغورس صاحب فلسفة الأرقام. كما أن شاعراً مثل هوميروس قد دعا الكنعانيين «شعب الآلهة» و «حملة لغة الآلهة» وجعل الإغريق من قدموس الكنعاني معلماً وناقلاً للأبجدية إلى بلاد اليونان ومؤسس طيبا فكان أول مهاجر سوري، كما دعوا قارتهم «أوروبا» باسم الأميرة الكنعانية أوروبا بنة «أشنار» (أجينور) وأخت قدموس.

وقد أعطى فيلو الجبيلي المرادفات أو النظيرات الإغريقية واللاتينية للآلهة الكنعانية.

الجنة الكنعانية هي «حقول ايل» التي اقتبسها الإغريق وترجموها (Campi Elysaea) والمعروفة الآن في فرنسا باسم (Champs Elysées)، ولقب ايل «أبو السنين» اقتبسه الإغريق فسموه كرونوس (Cronos) أي الزمن. وأثينا العذراء المحاربة هي عناة أو إنات العذراء المحاربة، وقد عبدت في طيبا التي هي أقدم من مدينة أثينا في اليونان. ولقب «عناة البتول» يعادل «أثينا بارتينوس» (Athena Parthenos) أي «أثينا البتول» كا لقبت بالاس (Pallas) وربما مأخوذة عن «بعلة» ، و«أبوللو» الإله الطبيب وأبو اسكولابيوس إله الطب لقب في طيبا «ابوللو اسمونيوس» وهو التحريف اليوناني لـ«اشمون» الذي هو إله الطب والشفاء في صيدا. كما انتقلت عبادة «أدون» إلى بلاد اليونان حيث عرف باسم «أدونيس»، والأدونيات «كانت تمثل فيها دراما أدونيس قبل أو توجد الدراما الإغريقية. ومن أجل الإنصاف التاريخي يجب أن ندرس ما سبق «المعجزة الإغريقية» لأن الإغريق أشقاء السوريين في أوروبا أخذوا وأعطوا ولم يعطوا فقط.

1 ـ ايل (El) :

معناها «الله» أو «الاله» بصورة عامة. هو إله السماء، وأبو الآلهة والبشر، خالق الكون ورأس البانتيون الكنعاني. رمزه «الثور» مثل آنو السومري. ورغم مرتبة ايل

العالية بين الآلهة فإنه لا يلعب دوراً فعالاً بل يتنحى عن الأحداث بمحض إرادته ولا يتدخل إلا إذا لزم الأمر، وكأنه الإله الهرم الذي ورّث أبناءه ما تمتع به من صفات، أو أنه قد فقد سلطته، يحب الهدوء ولا يهتم كثيراً بمشاكل خلائقه.

فوق ذلك يبدو أن إله السماء الكنعاني لا يسكن السماء بل الأرض، لكن بعيداً عن المناطق التي يقطنها البشر، في بلاد سموها «ملتقى الأنهر بالمحيط».

قرينة ايل هي عشيرة (اشيرة) سيدة البحر وأم الآلهة. ولهما ما لا يقل عن سبعين ولداً. وايل عادل حكيم، بحكمته تسود العدالة بين الآلهة ويعطي القوة للملوك كي يعدلوا بين البشر وله حسب قول فيلو أربعة أجنحة ووجهان.

وايل إله سامي مشترك، فهو «ايل» لدى الآكاديين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين و«الله» عند العرب. ومن الألقاب التي تخلعها نصوص أوغاريت على الإله ايل «أبو البشر» (أب آدم)، «خالق الخلق» و«أبو السنين» (كرونوس الإغريقي) و«الملك» و«الثور» و«الحكيم» و«الطيب» (لطفن) و«ذو الفؤاد» و«الأشيب اللحية». يسكن عند مصب الأنهر وتعود إليه الآلهة في طلب المشورة.

وقد عبد ايل بشكل اسم مركب مثل «ايل ركاب» و«ايل عليون» و«ايل شداي». ففي سفر التكوين (14 : 18 – 22) كان إله «ملكي صادق» الله العلي (ايل عليون) ملك السموات والأرض. وقد باركه ملكي صادق كما باركه إبراهيم. وقد عبده إبراهيم باسم «ايل شداي» أي الله القدير.

كان يهوه إله مديان وبني إسرائيل في صحراء سينا. ولما دخل العبرانيون أرض كنعان تعلموا من الكنعانيين اللغة «شفة كنعان» (عبريت هي الكنعانية القديمة) والحضارة والميثولوجيا الدينية وطقوسها ودخلت عبادة ايل وصار ايل هو الله عند اليهود كما نجده في اسم «ايليا» أي «ايل هو يهوه».

ثم دخل اسم ايل في كثير من أسماء الأعلام مثل «ميخاييل» (ميكائيل) أي شبيه الله وجبرائيل (جبريل) أي رجل الله و«عمنوئيل» أي الله معنا و«اسرائيل» أي يحكم الله و«اسماعيل» أو «يشمعئيل» أي يسمع الله و«نتنائيل» أي عطا الله و«رفائيل» أي يشفي الله و«هزئيل» أي رأى الله وبيت ايل وبابل (باب ايل) أي باب الله وإيلات أي آلهة. وكثير غيرها.

وقد ورد اسم ايل علي لسان المسيح على الصليب (وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا «ايلي ايلي لما شبقتني») (أي إلهي إلهي لماذا تركتني (مرقس 15 : 34 ومتى 27 : 46).

2 ـ بعل (Ba'a;) :

كلمة بعل تعني سيد أو رب، لذا أمكن إطلاق الكلمة على آلهة مختلفة عند كل الساميين وأشهرها: بعل الكنعاني إله الخصب والأمطار والعواصف، راكب الغيوم، صوته الرعد، يذبح لوياثان الحية المتحوية (لوتان)، وهذه الصفات تنطبق على هدد الآرامي وأدد البابلي ويهوه العبراني.

وبما أن بعل — هدد يختص بالعواصف والأمطار يكون قد جمع النقيضين، العواصف المدمرة والأمطار المحيية. وقد مثلوه واقفاً فوق مياه الأرض وبيده قضيب الصواعق.

وبعل هو ابن داجون (داغون) بن ايل. سموه في مابين النهرين «بيل» و«امورو» وتكاثر اسمه مقرونا باسم مكان أو مدينة مثل بعل صور، بعل أرواد، بعل مرقود (إله الرقص إله بيروت وهيكله في بيت مري في دير القلعة ويطل على بيروت) وبعل غزة وبعل لبنان وبعل شامين (إله السماء في تدمر، بنوا له هيكلاً لا تزال آثاره قائمة) وبعل أباميا إلخ...

انتشرت عبادة بعل في اسرائيل وكادت تقضي على عبادة يهوه أو تمتزج بها. وأصبح اسم بعل جزءا من الأسماء المركبة عند الاسرائيليين، مثل يروبعل (جدعون القاضي) وايشبعل بن الملك شاول وبعليا داع بن النبي داود (أخبار الأيام 1 — 14 : 7) واختلط مع يهوه في اسم «بعليا» الذي معناه بعل هو يهوه نظير ايليا الذي معناه ايل هو يهوه (أخبار الأيام 1 — 12 : 5). وعلى رؤوس الجبال والتلال و«تحت كل شجرة خضراء» كان يعبد بعل.

قدمت له الذبائح البشرية، وأحرق البخور، وكرم بالسجود والتقبيل وقدمت له الحلويات مما أثار أنبياء إسرائيل. وفي أيام الملك آخاب الاسرائيلي وزوجته ايزابيل الصيدونية أقيم هيكل لبعل في السامرة عاصمة مملكة اسرائيل، فكان رد فعل عنيف، وقام النبي ايليا بحملة صليبية ضد عبادة بعل أدت إلى انقلاب بقيادة يهو، قتل فيه آخاب ورميت جثة ايزابيل في الشارع لتأكلها الكلاب.

كذلك عبد الكنعانيون «البعلات» مثل بعلة بيروت وبعلة جبيل أي عشتروت. والمرجح أن عبادة بعل قد نشأت متأخرة، أي بعد أن اكتمل هرم الآلهة الكنعاني. فانتشرت عبادته في كل أنحاء فينيقيا أي الساحل السوري والمستوطنات حول المتوسط. وكان هذا سبب أسطورة روجتها أوغاريت وهو أنه لم يكن بيت لبعل (معبد) لولا تدخل عناة وايل أبي الآلهة.

3 — داغون (Dagon) :

إله الحبوب يسهر على المجاري المائية ويبشر بالمطر. هو ابن ايل وأبو بعل، بني له هيكل في أوغاريت. عده الأموريون إلهاً للطعام بشكل عام، كما عبده الفلسطينيون إلهاً للأسماك وأقاموا له معبداً في غزة، هذا المعبد كان مسرحاً لقصة شمشون في سفر القضاة حيث أنهى مأساته بأن هدم الهيكل على نفسه وعلى أعدائه.

4 — عليان بعل (Aliyan Ba'al) :

بعل جبل صافون (الأقرع) شمال أوغاريت. إله الخصب والينابيع والآبار في أوغاريت. هو ابن بعل. ورث عن أبيه كل صفاته تقريباً وقليلاً ما كان يسمى باسمه الحقيقي بل كان ينعت بـ «بعل» فقط حتى خلط بينه وبين أبيه.

وعليان منشغل دائماً بالنضال ضد إله القحط والحر «موت» حسب فصول السنة، ينتصر موت ويقتل بعل كل عام، وبمساعدة عناة أخته العذراء يقتل بعل موت فتهطل الأمطار وتعيد الحياة ويطل بعل على الدنيا من جديد مع ابتسامه الربيع. لذا فهو نظير أدونيس وتموز.

5 ـ عناة (anat) :

شقيقة عليان ونصيرته. آلهة حرب في أوغاريت، لها صفات عشتار. اقتبس المصريون عبادتها باسم «أنتا» ولقبوها «سيدة السماء»، بينما أعطيت في أوغاريت لقب «بتول». بقي اسمها جزءاً من أسماء عدة قرى في سوريا مثل بيت عناة = البعناة شرق عكا وبيت انوت = بيت عينوت شمال حبرون وأنتوت = عاناتا شمال شرقي القدس وتعانيتا قرب طرطوس.

6 ـ موت (Mot) :

إله القحط والموت، ابن بعل وشقيق عليان في آن واحد. به تتمثل شمس الظهيرة المحرقة، إله الجحيم، ويعني اسمه الموت. لا يلتقي مع عليان، فعندما يكون أحدهما على الأرض يكون الآخر في الجحيم.

«كما تحن الرئم إلى صغيرها
كما تحن الشاة إلى حملها
هكذا يحن قلب عناة إلى بعل
أمسكت عناة ابن الإله، موت
وبحربة طعنته، شقته وقطعته
وبمذراة ذرته وبالنار أحرقته
وبجاروشة جرشته
وفي الحقول بددت جسده
لتأكله العصافير.»

7 ـ رشف (Rashafh) :

رفيق عناة، إله الموت والخصب معاً. يتمثل البرق والضوء واسمه يعني اللهب. مثلوه رجلاً ذا لحية وله وجه تيس الماعز، بيده فأس، يحمل ترساً ويلبس خوذة. عبد في أوغاريت وجبيل وأرصوف (قرب يافا)، وباسم «ميكال» عبد في بيسان وفي «ايضاليوم» (قبرص). سماه الآراميون رشوف.

8 ـ شدرافا (Shadrafa) :

شاب حليق وسيم يقف على ظهر أسد فوق جبل، يلبس رداءاً طويلاً ولباس رأس (لبادة)، يحمل شبلاً بيد وسوطاً باليد الأخرى. وجد على نصب في مارات (عمريت) جنوب طرطوس. وجدت صور شبيهة به في نمرود وارسلان طاش، وفيها يظهر وهو يقطف ثمراً من «شجرة الحياة». يرجح أنه نظير أشمون وأدونيس وعليان.

9 ـ أشمون (Eshmun) :

إله صيدون، إله الصحة والطب. انتقلت عبادته إلى بيروت وسمي باسمه ملوك صيدون. تمثل بشجرة نخيل أو شجرة الحياة.

بين آلهة البانتيون الكنعاني أشمون هو إله الطب والشفاء، نظيره «اسكولابيوس» الإغريقي، كما أضيف اسمه كصفة لـ «أبوللو» الطبيب باسم «أبوللو اسمونيوس». حيوانه الرمزي هو الحية رمز الطب. وحسب سنكن يتن الكاهن البيروتي (القرن 11 ق.م.) كان أشمون ثامن «الكبيريم»

ابن صادق وبن بعل شمائيم (رب السموات). كان عدد «الكبيريم» عند الكنعانيين سبعة وهو رقم مقدس، لكن أشمون الثامن كان متمماً لأن الرقم 8 يمثل الكمال. وقد أعطى اسمه لنهر الأولي قرب صيدا حيث أقيم معبد يحمل اسمه في القرن (5 – 6 ق.م.). ويقول هيرودوتس أنه في طيبا في بلاد اليونان أقيم معبد باسم «أبوللو اسمونيوس» (أشمون).

كان المرضى يحضرون إلى معبد أشمون ليغتسلوا في النهر راجين الشفاء. وفي اسطورة «كرت» مرض الملك فصلّت ابنته الثامنة «شتمانات» إلى الإله أشمون من أجل شفائه.

10 ـ أدون (Adon-is) :

إله الخصب وتجدد الطبيعة، نظير تموز. هو الشاب الجميل واسمه يعني الرب ولقبه «النعمان». يموت أدون سنوياً (يقتله خنزير بري) فتحمر مياه نهر أدونيس (نهر إبراهيم) بدمائه فيندبونه، منذ العصر الحجري، في احتفالات درامية عرفت بـ «الأدونيات» (أدونيا) في جبيل وافقا. يعود إلى الحياة في الربيع مع ظهور شقائق النعمان وهي الزهور الحمراء التي نمت فوق نقط دمه.

عبده السوريون والأغريق وقد مثلوه في شمال سوريا وله أربعة أجنحة، يلبس تاجاً ويحمل سنابل القمح.

وكلمة «أدوناي» تعني ربي أو إلهي، وتستعمل في المجامع اليهودية كبديل ليهوه. واسم ابن داود الرابع أدونيا، وتذكرنا هذه الكلمة باحتفالات الأدونيا.

11 ـ ملقارت (Milk-qart) :

أي ملك المدينة شفيع صور. تعززت عبادته أيام احيرام فبنى له هيكلاً فخماً. هو إله الشمس في الأصل، ولما نشطت الحياة البحرية في صور لقب بـ «إله البحر» أيضاً. امتدت عبادته إلى قرطاجة. وباسم «ملكو» أو «ملوخ» يعادل إله الجحيم البابلي «نرجال» والأوغاريتي «موت». وجدت صورته على نصب في شمال سوريا، بلحية ولبادة ويحمل صليب عنخ المصري رمز الحياة، والفأس رمز الموت (الفأس هو السلاح الكنعاني منذ العصر البرونزي الوسيط والأخير).

وفي صور كان لمكارت عيدان، أحدهما في فصل الشتاء والآخر في الربيع. وهو بعل طرسوس أيضاً (مسقط رأس بولس الرسول)، كما وجدت له صورة في قرطاجة وأخرى في إسبانيا. هو أيضاً «بعل همان» رب المذبح المشتعل في أوغاريت وبيسان وحاصور وقرطاجة.

12 ـ بعل شامين (Ba'al-shamin):

«رب السموات»، اعتبره ستكن يتن بمثابة إله الشمس، بينما آلهة الشمس في أوغاريت هي أنثى باسم «شاباش» ولا يزال في أحد أودية صافيتا إلى الغرب نبعة ضحلة اسمها «عين شاباش»، وربما كان بعل شامين والدها أو زوجها. ولبعل شامين معبد في تدمر.

13 ـ عشتارت ('ashtart) :

تعادل «عناة البتول» في أوغاريت وهي بعلة جبيل وأم أشمون. اقتبسها المصريون باسم «ايزيس» وابنها هوروس. مثلت أحيانا بقرة ترضع عجلا أي أشمون.

هي أيضاً آلهة الأمومة، سماها العبرانيون «عشتروت» والإغريق «استارت» وفي الغرب القرطاجي «تعنيت» أو «تعنيت فنيبعل» أي وجه بعل، حيث هي مربية «بعل همون» أو «همون».

14 ــ يم (Yam) :

هو البحر وإله البحر، ورد ذكره تكراراً في العهد القديم مترجماً باسـم بحـر وهـو نظـير تيامات (تهامة) البابلية وبوزيدون الإغريقي.

15 ــ بعلزبوب (Ba'alazabub) :

أي رب الذباب، إله الشياطين والأمـراض، لأن الكنعـانيين ظنـوا أن المـرض شـيطان يسكن الإنسان وربما أدركوا علاقة الذباب بـالأمراض فأصـبح رب الـذباب رب الشـياطين والأمراض، وقد ورد اسمه في الانجيل باسم بعلزبول كرئيس للشياطين.

16 ــ هرون ــ أو هورون:

وهو من صغار الآلهة الكنعانية يعادلـه هـور أو هـوروس المصـري وعينـاه الشـمس والقمر. وباسمه هرون بن عمرام أخو موسى وأبو الكهنوت العبراني.

صورة ايل أبو الآلهة والبشر **عشيرة زوجة ايل**

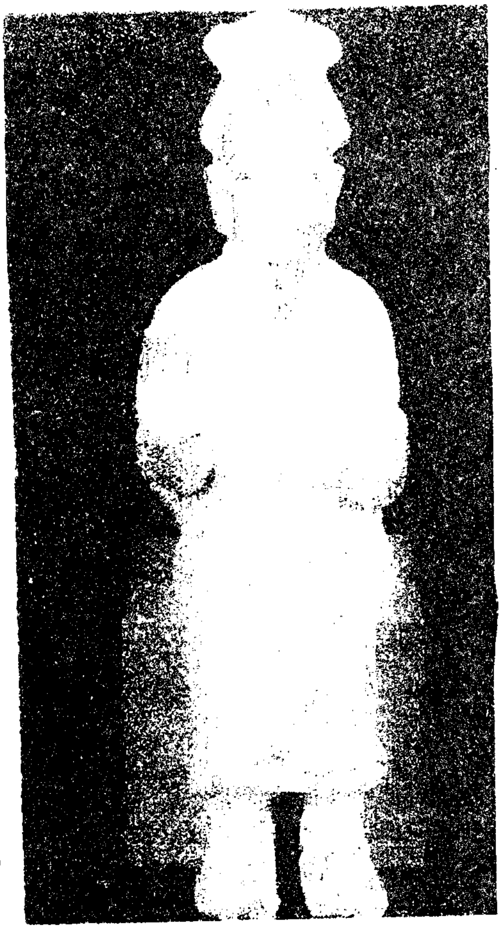

البانثيون الآرامي

الآراميون قبائل سامية مترحلة خرجت من الصحراء السورية وتركزت على الفرات وراحت منذ (2000 ق.م) تنتشر بين العراق وسوريا.

ثم أخذوا يتركون حياة البداوة والترحال ويستقرون في مستوطنات في أمور (سوريا) وبابل (العراق) قبل منتصف الألف 2 ق.م. خاصة حول ضفاف الفرات.هناك طوروا لغتهم الخاصة ولم يعرفوا باسم «آراميين» حتى أيام تفلاتفلاسر نحو 1100 ق.م بل سموا قديماً «سوتو».

لقد ترجمت كلمة آرام بمعنى «الأرض المرتفعة» وربما كان المعنى الصحيح «السحب المرتفعة أو العالية»ز والمصادر الارامية عن تاريخ الآراميين قليلة وهي طائفة من النقوش كشف أثرها حديثاً في المدن القديمة جوزانا (تل حلف) وسمأل (سنجرلي) وارفاد وحماة. إلى جانب مصادر العهد القديم وصلة الآراميين بالعبرانيين وبعض النقوش المسمارية.

وأول ظهور لكلمة «آرام» اسماً لمنطقة أو دولة وبشكل غير واضح كان في القرن 23 ق.م في نقش مسماري للملك الآكادي نارام — سين وربما كانت منطقة في شمال الجزيرة. ثم تذكر «آرام ثانية في نقش من درهم يعود لنحو 2000 ق.م اسماً لمدينة أو منطقة قرب أشنونا. كما ذكرت في لوحة أخرى اسماً لشخص ومرة أخرى وجدت اسم علم لشخص في نص من نصوص ماري، يرقى لنحو 1700 ق.م. هذه أقدم الإشارات إلى الآراميين.

انتهز الآراميون البلبلة العامة التي حدثت نحو 1200 ق.م وانهيار الدولة الآشورية فتغلغلوا في أنحاء الهلال الخصيب. وفيما توجه قسم منهم وهم العبرانيون إلى أرض كنعان نازحين من مصر، انقسم الآراميون إلى فريقين — آراميو الغرب الذين استقروا في أمورو (سوريا) وآراميو الشرق الذين استقروا في بابل (العراق) وأصبحوا كلدانيي المستقبل.

تسلط آراميو الغرب في سوريا على السكان الأموريين الأصليين وأصبحت بلاد أمورو بلاد آرام واحتلت اللغة الآرامية مكان الأمورية في سوريا، وفي آشور وبابل مكان الآكادية وغدت بعد قرون اللغة الدولية ولغة التجارة. كما احتلت مكان جميع اللغات السامية الأخرى في الهلال الخصيب بما فيه الكنعانية والعبرية والحثية والحورية إلخ..

وبانتشار الارامين بقيت مناطق قليلة جداً في سوريا حثية وأمورية وكنعانية لم يهيمنوا عليها وبلغوا ذروتهم السياسية في القرنين 11 و 10 ق.م حيث أسسوا الممالك والمشيخات وأصبحت إمارات الأموريين القديمة في حلب وحماة وحمص ودمشق وحوران وغيرها دولاً آرامية مستقلة، أهمهادمشق وحلب. وكانت دولة «بيت اديني» ومركزها تل برسيب و«بيت بخياني» ومركزها جوزانا (تل حلف). و«سمأل» في كيليكيا حول سنجرلي و«بيت أجوشي» حول أرفاد وحلب، و«آرام صوبا» في البقاع مكان عنجر حالياً ثم آرام دمشق وغيرها في فلسطين. وكانت مملكة آرام دمشق أقوى الممالك في سوريا وسيطرت على غيرها وهي التي قادت المعارك ضد العبرانيين وتزعمت المقاومة ضد الآشوريين حتى أن النصوص التوراتية دعت ملك دمشق «ملك آرام».

وتوغلت عدة جماعات من الآراميين في الجزئين الأوسط والجنوبي من أرض الرافدين. كما كانت فدان آرام (طريق آرام) حول حران في الشمال وبيت زماني قرب ديار بكر، وبيت كرماي في الوسط وبيت ياكين في الجنوب وبيت هوزايي في الجنوب الشرقي (الأهواز). وقد استولى المغتصب الآرامي ادو ــ ابال ــ أدينا على عرش بابل في أول القرن 11 ق.م.

لكن آراميي الشرق لم يسيطروا حتى سقوط نينوى عام 612 ق.م على يد نبوبولاصر الكلداني فأعادوا مجد بابل ودعوا «البابليون الجدد» وكما أن اسم بابل الأمورية لم ينفصل عن اسم أمورابي (حمورابي) كذلك اسم بابل الكلدانية لم ينفصل عن اسم نبوخذ نصر.

ولكن بابل التي بهرت خيال الشعوب والمقترنة باسم نبوخذ نصر والتي خلدها التاريخ وأنبياء اسرائيل هي بابل الكلدانية لعام 600 ق.م. ونبوخذ نصر هو الذي فتح أورشليم ودمر مملكة يهوذا وسبى قسماً من أهلها عام 586 ق.م وبذلك أنهى وجود بني اسرائيل كأمة منفصلة عن باقي السوريين.

لقد احتكر الآراميون التجارة البرية كما احتكر أشقاؤهم الكنعانيون التجارة البحرية ونشروا لغتهم حتى أنها بحدود عام 500 ق.م. أصبحت لغة الهلال الخصيب، رغم سقوط آرام دمشق على يد تفلا تفلاصر الثالث الآشوري عام 732 ق.م وسقوط بابل الكلدانية على يد كوروش الفارسي عام 539 ق.م. وأصبحت عامل توحيد حضاري تبعه توحيد سياسي عام 312 ق.م. حين ظهر في التاريخ اسم سوريا (آلهة الشمس الهندو أوروبية) بديلاً لاسم آرام بقيادة السلالة السلوقية التي أسست مملكة سوريا مبتدئة ببابل 1 تشرين أول 312 ق.م ثم متجهة إلى الغرب حتى بناء أنطاكية نحو 300 ق.م واتخاذها عاصمة بعد سلوقية على دجلة. استعيدت سوريا الجنوبية عام 198 ق.م على يد انطيوخوس 3 الكبير من يد الاحتلال المصري.

لقد كانت الآرامية لغة المسيح والرسل وكل الهلال الخصيب والامبراطورية الفارسية وبها كتب العديد من أسفار العهد القديم والتلمود والترجوم، كما كتب بها انجيل متى وانجيل يوحنا ودخلت القرآن بعدد كبير من الكلمات ذات المغزى الديني، فالأهمية التاريخية للدويلات الآرامية طفيفة إذا ما قيست بالأهمية الثقافية الفريدة التي قدر للغة الآرامية أن تكتسبها على مر القرون. وبقيت لغة سوريا والعراق إلى أن حلت العربية في عصور متأخرة مكانها مع الاحتفاظ بكثير من الكلمات الآرامية. وقد وجدت نقوش آرامية في كيليكية وليديا وليكيا وفارس وبلاد العرب. وسبق الكتابات المقدسة المكتوبة بالآرامية حكم احيقار بعد القرن 7 ق.م.

لقد اقتبس الآراميون حضارة ا لشعوب التي سبقتهم في استيطان الهلال الخصيب فقد كانوا أداة استيعاب ونقل أكثر مما كانوا أداة إبداع ففي الشمال تأثروا بالحثيين والآشوريين وفي أواسط سوريا تأثروا بالكنعانيين وفي الشرق بحضارة بابل خليفة الحضارة السومرية. وأما من الناحية الدينية فقد تبنوا آلهة هذه الشعوب كما كانت لهم آلهتم التي اختصوا بها.

ايل ــ أبو الآلهة. اقتبسوا عبادته عن الكنعانيين.

رشوف ــ هو رشف الكنعاني إله النار والحرب مثلوه جندياً مسلحاً.

سين ــ هو إله القمر البابلي تركزت عبادته في حران، وسمي أيضاً «شين أو شينغللا Shingalla» أي سين العظيم كما سمي «شهر» أو «سهر» ومن نفس الاسم اشتق «الشهر» و«السهر» واسم بلدتين في سوريا هما شين وبرشين.

نبو ــ إله الحكمة البابلي.

شمش ــ إله الشمس، إله العدل والمساواة.

يهوه أو «ياو» ــ عبده الآراميون في حماة.

هدد ــ إله العواصف والأمطار، راكب الغيوم، صوته الرعد وسلاحه الصواعق. عبده الأكاديون والأموريون والآراميون باسم «ادد»، «ادو»، «هدد»، «هددرمانو». «هددريمون» ريمون (الراعد) كما لقب أيضاً «بعل شامين» (رب السماوات) وعبده الكنعانيون باسم بعل والعبرانيون باسم يهوه، والإغريق باسم زفس والرومان باسم جوبيتر ورمزه المقدس شجرة الرمان.

كان هدد أكثر الآلهة الآرامية عبادة. هو إله البرق والرعد وهو المحسن عندما يرسل الأمطار لتروي الحقول وهو الغاضب المنتقم عندما يرسل السيول المدمرة. مثلوه واقفاً على ثور وبيده المنخس والمطرقة. ودخل اسم هدد جزءاً من بعض أسماء الأعلام مثل نقمدا أي نقمة هدد ملك أوغاريت وبرهدد (بنهدد) ملك دمشق وربما في اسم نهر بردى أو برادا في دمشق بمعنى ابن هدد على وزن نقمدا.

انتشرت هياكل هدد في سوريا وأشهرها في دمشق وبعلبك ومنبج (هيرابوليس) وقد قدسه الفلاحون بشكل خاص وهو صاحب العلاقة المباشرة بالزراعة.

وفي بعلبك رمز إليه بالشمس فوضعت هالة من الأشعة على رأسه «لتأكل روح بنامو مع هدد ولتشرب روحه مع هدد، ولتفرح روحه بما يعطي هدد»، هذه العبارة تعبر عن اعتقاد الآراميين القدماء بوجود عالم آخر وخلود النفس. كما سمى الآراميون أبناءهم بر ــ هدد أي ابن هدد حتى العصور المسيحية مما يدل على اعتقادهم بالعلاقة الأبوية بين الله والبشر كما قال بذلك الكنعانيون وكما علمت الديانة المسيحية فيما بعد بأن «الله هو أبونا الذي في السموات» فرفعت الإنسان من مستوى العبد إلى مستوى الابن في علاقته بخالقه. قرينته «اتارغايتس» الملقبة بـ : «الآلهة السورية» (Syrian Godess)

في العصر الروماني أصبحت معابد هدد مكرسة لجوبيتر، فعرف معبده في بعلبك بمعبد جوبيتر وهو أكبر المعابد في قلعة بعلبك. وفي دمشق أصبح معبد هدد معبد جوبيتر الدمشقي أو «جوبيتر أوبتيموس ماكسيموس داماسينوس» وبعد أن اعتنق الشعب السوري الدين المسيحي حوله المؤمنون إلى كاتدرائية القديس يوحنا المعمدان وفي عام 705 م حوّله الأمويون إلى جامع بني أمية. وبما أن الآذان كان يلقى من الأماكن المرتفعة اختيرت أبراج معبد هدد للآذان فأصبحت أولى المآذن في الإسلام.

البانثيون العبراني

قد يتعجب المرء لأول وهلة من هذا العنوان لأن الاعتقاد السائد هو أن العبرانيين كانوا «موحدين منذ البداية وأن إبراهيم آمن بالاله الواحد وأنه كان المسلم الأول. هذا الاعتقاد قد فرض على المسيحيين والمسلمين في ملابسات لا مجال لذكرها من التأثير اليهودي ــ النصراني لكنه مردود تاريخياً! ومن الأكيد أن الآباء من ابراهيم إلى موسى إلى دواد وسليمان وغيرهم لم يكونوا موحدين بل هينوثيين (Henotheist) والهينوثية بدأت في بابل. بل إن التوحيد قد بدأ تاريخياً بالنبي عاموس لحو 750 ق.م ــ وقد جاء في سفر التكوين 1:1 في النص العبري «في البدء خلقت الآلهة السموات والأرض» أي ايلوهيم (بالجمع) وليس ايل (بالمفرد)، وتترجم الهينونية بـ (الإفراد).

كما جاء في المزمور 1:82 «الله (الرب يهوه) قائم في مجمع القديرين في وسط الآلهة يقضي» ــ إذن هناك مجمع آلهة وإله أعلى يرأسهم.

أيضاً في نص الحرمان في التلمود «بناء على حكم الهنا إله الآلهة يحرم فلان بن فلان من المحكمتين: ــ محكمة أولى درجة والمحكمة العليا ومن القديسين والملائكة ومن الجمعيات الكبيرة والصغيرة الخ»..

أولاً ــ ما الفرق بين كلمة عبراني واسرائيلي ويهودي؟

1 ــ تشتق كلمة «عبراني» من فعل «العبور» وقد أطلق اسم «عبيرو» على تلك القبائل الآرامية التي كانت في عصر الرعي تدخل بلاد الرافدين ثم تطرد منها فتعبر الفرات ــ أي تعبر من العراق إلى سوريا. وقد سمي ابراهيم «ابرام العبراني» (تكوين 13:14) ــ كماجاء في سفر التثنية 5:26- وتصرح أمام الرب الهك وتقول «آرامياً تائهاً كان أبي فانحدر إلى أرض مصر...» وهو ما يترجم في النصوص الأجنبية.. سورياً تائهاً كان أبي فانحدر إلى أرض مصر » على أساس أن آرام هي سوريا والآرامي هو السوري!

2 ــ تشتق كلمة «إسرائيلي» من «إسرائيل» وهو اللقب الذي أطلقه يعقوب بن اسحق بن إبراهيم على نفسه بعد أن «صارع الله طول الليل ونجى نفسه» (تكوين 28:32) وأصبح بنوه الاثنا عشر ونسلهم اسباط بني إسرائيل» فالاسرائيلي هو من تحدر من يعقوب إسرائيل ــ أي وفق الانتماء القبلي كان ينتمي إلى أحد أسباط بني إسرائيل.

وعند قيام مملكة اسرائيل في الشمال من أرض كنعان إثر انشقاق المملكة العبرانية بعد موت سليمان عام 923 ق.م أصبح الاسرائيلي هو أيضاً أحد رعايا مملكة اسرائيل التي قامت عام 923 ودمرت عام 721 ق.م على يد سرجون 2 الآشوري.

3 ــ تشتق كلمة «يهودي» من يهودا واليهودية ــ فاليهودي هو أحد أفراد سبط يهودا بن يعقوب ــ وقد استوطن هؤلاء أرض كنعان (فلسطين) وكونوا مع سبط بنيامين مملكة يهودا أو «اليهودية» في الجنوب عند انشقاق المملكة العبرانية عام 923 ــ وصار اليهودي أحد رعايا المملكة اليهودية التي قامت عام 923 ودمرت عام 586 ق.م على يد نبوخذ نصر البابلي.

وبعد تدمير مملكة اسرائيل الشمالية بأسباطها العشر على يد سرجون2 الاشوري عام 721 ق.م وسببه 7% فقط من السكان لجأ الكثيرون إلى الجنوب وأصبحت اليهودية تشمل الاسرائيليين عامة ودعي الجميع «يهودا».

من هذا نرى أن كلمة يهودي لا تعني ديناً معيناً في الأصل كما نطلقها خطأ اليوم بل تعني جنسية سياسية وانتماء قبلي والدين هو الموسوية نسبة لموسى كماهو قياسا المسيحي والمحمدي والبوذي الخ.

في السبي الآشوري عام 721 ق.م نقل 27280 شاباً من مملكة إسرائيل إلى بلاد مادي ـــ ويقدر سكانها آنذاك بـــ 400 ألفاً أي أن الغالبية العظمى (93%) بقيت في أرض كنعان ـــ وقصة «العشرة أسباط المفقودة» التي تحدر منها بريطانيون وأمريكان ليست إلا إحدى بدع الدعاية الصهيونية للتأثير على الرأي العام البريطاني والأمريكي..

وفي السبي البابلي عام 586 ق.م نقل نحو 58 ألفاً من سكان مملكة يهودا إلى بابل ويقدر سكانها آنذاك بـــ 200 ألفاً أي أن الأكثرية بقيت في أرض كنعان. من هؤلاء المسبيين إلى بابل ظهر كبار القادة الدينيين الذين وضعوا الأشكال النهائية «للعهد القديم» و«التلمود البابلي» بعد أن تأثروا جداً بالفكر والدين البابليين كما تأثروا قبلاً بكل الحضارة الكنعانية ـــ وخلال السبي تكون «أدب السبي» الذي نجد أمثلة عنه في المزامير ومن اسمائهم المنتشرة اسم مردوخاي أي عباد «مردوخ» (كبير البانثيون البابلي).

أما يهود اليوم فيختلفون تماماً ولا علاقة لهم أو لمعظمهم بهذا التصنيف وهذا التاريخ. اليهودي المعاصر هو من الناحية الدينية موسوي يؤمن بالعهد القديم (كما وضعه عزرا الكاهن في القرن 5 ق.م) والتلمود البابلي ويشكل امتداداً للمذهب الفريسي فقط ـــ لأن الفرق القديمة من صادوقيين وأسينيين وغيورين قد اندثرت.

وعدد اليهود في العالم نحو عشرين مليوناً غير المندسين في الأديان الأخرى أكثر من 85% منهم من يهود الاشكنازيم ونحو 5% من يهود السفارديم والباقي من اليهود الشرقيين.

واليهود الاشكنازيم هم يهود الخزر الذين تهودوا نحو عام 740 م وانشأوا مملكة قوية دمرها الروس قبل اعتناقهم المسيحية عام 968 م بقيادة الأمير سفياتيسلاف ثم فككها الروس بعد تنصرهم عام 988 في عهد الأمير فلاديمير وينتشر يهود الاشكناز من روسيا إلى الولايات المتحدة عبر أوروبا ـــ هؤلاء ليسوا ساميين وليست لغتهم العبرية بل «اليديش» التي طوروها عن جرمانية القرون الوسطى من القرن 9م. وهم عماد الحركة الصهيونية وانشأوا دولة اسرائيل في الجنوب السوري وهم أحد الشعوب التركمانية.

ويهود السفارديم ينتشرون في إسبانيا والبلقان ولغتهم «اللادينو» المشتقة من إسبانية القرون الوسطى. وقد لجأ قسم منهم إلى الدولة العثمانية بعد اضطهادات 1492 في إسبانيا خاصة إلى القسطنطينية وسالونيك ـــ ومنهم من تظاهروا بالإسلام بقيادة شبتاي تسيفي باسم «يهود الدونمة» ثم وصلوا إلى السلطة باسم جمعية الاتحاد والترقي وعزلوا السلطان عبد الحميد 2 لأنه قاوم إقامة الدولة الصهيونية في فلسطين.

وأما اليهود الشرقيون فهم يهود البلاد العربية بينهم الإسرائيلي القديم والعربي المتهود وغيرهم وقد أقام معظمهم في إسرائيل بعد تأسيسها فأصبحوا أكثرية بين سكانها ولغتهم العربية ويتعلمون العبرية المعاصرة.

وتبدأ قصة العبرانيين حسب العهد القديم بإبرام العبراني الذي دعي ابراهيم. خرج ابراهيم من اور في القرن 18 ق.م حيث تمركزت عبادة اله القمر «نانا» السومري. وانتقل إلى حران حيث تمركزت عبادة اله القمر «سين» عند الساميين ثم انحدر إلى أرض كنعان. إن تارح والد ابراهيم وعائلته قد عبدوا اله القمر في أور وحران كما أن اسم تارخ وتارح ويارخ تعني القمر الهلال بينما سين هو القمر البدر.

في أرض كنعان كانت عبادة «إيل» أبو الآلهة والبشر والملقب بـ «أبي السنين» (كرونوس) فافنيس ابراهيم عبادته باسم «ايل شداي» اي الله القدير (خروج 6:2و3) كما بارك «ايل عليون» اله ملكي صادق الكنعاني ملك شاليم (أورشليم) واصبح ايل شداي اله ابراهيم واسحق ويعقوب. وعندما ولد لابراهيم اسماعيل واسحق نوى أن يقدمه ذبيحة كما كانت عادة الكنعانيين في تقديم الابن البكر ثم استعاض عنه بكبش غنم. ثم ولد يعقوب اسرائيل لاسحق واختلس البكورية من أخيه عيسو وتزوج أربع نساء من آرام النهرين منهن اثنتان بنتا خاله لابان وقالت عنه التوراة في سفر التثنية 5:26 أنه كان آراميا تائها وبهذا تؤكد على الاصل الآرامي للعبرانيين.

نحو 1700 ق.م دخل أبناء يعقوب اسرائيل بلاد مصر في عهد الهكسوس السوريين (كما في قصة يوسف) وعلا شأنهم هناك متعاونين مع السلطة ضد الشعب المصري ثم طرد الهكسوس واضطهد الاسرائيليون. وبعد مكوث نحو أربعمئة عام خرجوا من مصر بقيادة موسى وهارون ابني عمرام ويوكابد (وأختهم مريم بنت عمران) نحو عام 1235 ق.م.

واسم موسى يعني «المنتشل» لأنه انتشل من الماء ولكن هناك من يقول ان اسم موسى يشتق من كلمة موس المصرية التي تعني طفل وأنه لم يكن من أصل عبراني بل مصري واسمه اوصارسيف (اوصار هو اوزيريس)، وثار على فرعون وتزعم انتفاضة المضطهدين ومنهم العبرانيون في مصر. وقصة انتشال موسى من النيل تشبه قصة انتشال سرجون الاكادي من الفرات.

واسم هرون هو «هورون» اله الحياة والموت الكنعاني وعلى اسمه بلدة «بيت هورون في فلسطين، وقد اقتبس المصريون عبادته باسم «هور» أو «هوروس» ومثلوه عقابا عيناه القمر والشمس وينتقم لوالده اوزيريس وتسمية أي إنسان بالنسبة لأحد الآلهة له مغزاه ودلالته بالنسبة لعقيدة ذلك الإنسان الدينية وهذا شأن هارون أيضاً.

أقام الاسرائيليون في صحراء سينا أربعين عاماً وهي برية سين (القمر) ـــ هناك تزوج موسى من ابنة يترون (شعيب) كاهن قبيلة مديان الذي عبد اله القمر المدياني «يهوه» وقدما له الذبائح سوية ـــ مما يدل على عبادة واحدة! واعتبر موسى أن يهوه هو اله ابراهيم واسحق ويعقوب لكنه لم يعرف لديهم ابسم يهوه (خروج 6 : 31) وهذا صحيح لأن اسماء نانا وسين وتارخ ويهوه هي أسماء مختلفة لنفس الشيء الذي هو القمر. وقد عرف يهوه باسم «ياو» أو «يو» عند الكنعانيين وكان ابن ايل كما عبد في حماة. وقد اتخذ الاسرائيليون من يهوه الها قبلياً هو الههم الخاص وهم شعبه المختار. كما عبدوا في سينا العجل الذهبي بقيادة هرون (خروج 8:32) وعبادة العجل (Apis) كانت

معروفة في مصر. وقد جاء في عهد الانحطاط أنه كان للعجل خوار وأن الشيطان «سمائيل» هو الذي كان يخور في داخل العجل ليخدع بني اسرائيل.

وصعد موسى من عربات موآب (صحراء موآب) إلى جبل نبو ورأى أرض كنعان من بعيد دون أن يدخلها ومات على جبل تبو ثم دخل الاسرائيليون أرض كنعان بقيادة يشوع بن نون واحتلوا اريحا وارتكبوا أعظم الفظائع ضد أهل البلاد باسم يهوه.

إن احتلال أرض كنعان لم يكن سريعاً بل استغرق نحو قرنين أو ثلاثة وحدث تغلغل بين الكنعانيين الأكثر حضارة. وتبنى الاسرائيليون لغة الكنعانيين أو «شفة كنعان» التي سماها الأحبار فيما بعد «عبريت» أي العبرية. كما اقتبسوا فنونهم وصناعتهم ودينهم وطقوسهم وكانوا يؤمون أماكن عبادتهم. ثم بنى الكنعانيون هيكل سليمان على نمط الهياكل الكنعانية وخاصة معبد ملكارت في صور ووضعوا أمام مدخله العمودان «بوعز» و«ياكين» أي القوة والثبات ـ الكلمتان اللتان أصبحتا من المصطلحات الماسونية. كما أدخلوا الموسيقى والرقص في العبادة.

ولم يخضع الكنعانيون تماماً للاسرائيليين إلا في عهد سليمان (963 - 923 ق.م) مع أنهم واجهوا الاستيطانين الاسرائيلي والفلسطيني معا في بداية القرن 12 ق.م وقبل عهد سليمان كان الاسرائيليون يقيمون بين الكنعانيين. وكان عدد نساء سليمان الفا وقد أدخل عبادات زوجاته وأقام المزارات لأن سليمان كغبرة من الآباء لم يكن موحداً بل هينوثيا. ونسبت لسليمان فيما بعد أسفار الحكمة مثل سفر الامثال والجامعة ونشيد الانشاء في العهد القديم وحكمة سليمان وقصائد سليمان ومزامير سليمان في الأبوكريفا.

وفي عهود الانحطاط حيكت حول شخصه الاساطير «فكلم الطيور وسخر الجن وبنى تدمر» وتدخل هذه المواضيع تحت الميثولوجيا العبرانية.

وفي عهد آخاب أقيم معبد لبعل في مملكة اسرائيل وأخذت عبادة بعل تحل مكان عبادة يهوه ـ كما كانت عبادة بعل تحل مكان عبادة ايل عند الكنعانيين ثم ثار بعض المتحمسين لعباة يهوه مثل النبيين إيليا (الياس) واليشع (اليسع) وهاجموا آخاب وزوجته «ايزابعل» الصيدونية وانتهى الصراع بانقلاب قام به الضابط يهو الذي قضى على العائلة المالكة وثبت عبادة يهوه.

آلهة أخرى:

إلىجانب إيل شداي ويهوه والآلهة الثانوية هورون والعجل الذهبي نجد أسماء أخرى لآلهة عبدها الاسرائيليون مثل بعل فغور «وتعلق اسرائيل ببعل فغور فحمي غضب الرب على اسرائيل» (عدد 3:25) كما دخلت عبادة تموز اله الخصب «وقال لي بعد تعود تنظر رجاسات أعظم هم عاملوها. فجاء بي إلى مدخل باب بيت الرب الذي من جهة الشمال وإذا هناك نسوة جالسات يبكين على تموز» (حزقيال 13:8و14).

وبدون ذكر الاسماء الواضحة لمختلف «البعليم» الذين عبدهم بنو اسرائيل جاء في سفر القضاة (11:2-13) ما يلي «وفعل بنو اسرائيل الشر في عيني الرب (يهوه) وعبدوا البعليم وتركوا الرب اله آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر وساروا وراء الهة

أخرى من الهة الشعوب الذين حولهم وسجدوا لها وأغاظوا الرب تركوا الرب وعبدوا البعل وعشتاروت».

التاناخ:

لقد عاش موسى في القرن 13 ق.م ونسبت إليه الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم أي التوراة (الشريعة). ومن المعلوم تاريخياً أن التوراة بشكلها الحالي قد كتبت على مراحل أهمها في القرن 5 ق.م أي بعد موسى بثمانية قرون – أثناء ذلك حدث السبي الاشوري (721 ق.م) والسبي البابلي (586 ق.م) كما تقدم وبذلك احتك الاسرائيليون بالبابليين كما تفاعلوا سابقاً مع الكنعانيين يضاف إلى ذلك أحداث مؤلمة أثناء السبي تثير الاحقاد – فدخلت الميثولوجيا البابلية كما دخلت الميثولوجيا الكنعانية قبل ذلك وأضيف أدب السبي بما فيه من أحقاد ودعوة إلى الانعزال – ولعب عرزا ونحميا دوراً رئيسياً في هذه العملية – وتدوين العهد القديم في القرن 5 ق.م أي بعد السبي. وكان ليهود بابل اليد الطولى في وضع التوراة والتلمود بشكلهما الحالي تقريبا.

وفوق ذلك ترجمت الأسفار القديمة إلى اللغة اليونانية في مصر في العهد البطلمي في القرنين 3 و 2 وهو ما يعرف «بالترجمة السبعينية» (Septuguinl) . ولما ظهرت المسيحية واستفاد دعاقها من أسفار العهد القديم وتنبؤاته عن المسيح نقض اليهود ترجمتهم السبعينية بسبب استفادة المبشرين المسيحيين من نحو 300 نص وتفسيراها فأعادوا النظر وحذفوا ما يمكن أن يستفيد منه التبشير المسيحي وخرج «التاناخ» أي العهد القديم العبري عام 100 ميلادي في شكله النهائي على يد مجمع حاخامين عقد آنذاك أي بعد موسى بأربعة عشر قرناً.

وبدأ الفكر الفريسي المتزمت بالنبي حزقيال الذي تنبأ ما بين 592 و 570 ق.م وجاء بالفكرة أن السبي إلى بابل لم يكن سوى أسلوب يهوه في تطهير اسرائيل لتكون جاهزة للسيطرة على العالم عن طريق حكومة يهودية عالمية تقوم على دين يهوه.

ولكن من هم بقية الناس بالنسبة لهؤلاء اليهود؟ إنهم الغوييم. وتعني كلمة «غوييم» حرفياً «الأمم» أي الشعوب الغير يهودية. لكن استعمال الكلمة يقترن بالتحقير لا بمجرد كونهم غير يهود. وحاول حزقيال أن يضفي على يهوه صفات من الالوهية لم تكن موجودة فيه كاله قبلي. فمن هو يهوه؟

يهوه Yahweh:

كبير الآلهة العبرانية في عصروهم القبلية عندما كانوا في صحراء سينا وما بعد. وفي الترجمات المسيحية للعهد القديم استبدل اسمه بكلمة «الله» أو «الرب» خطأ لأن يهوه كان الها قبلياً وكبير آلهة وليس الها أوحداً لكي يستبدل باسم الله أو الرب بالمعنى التوحيدي.

كان يهوه اله القمر في قبيلة مديان في صحراء سينا – كان «يسكن خيمة» وتقدم له القرابين من الماشية. كان زواج موسى من ابنة يترون كاهن قبيلة مديان سبباً في تثبيت عبادته عند الاسرائيليين بعد خروجهم من مصر. ومن النصوص حول تقديم القرابين

سوية وتعليم يترون لصهره موسى كيف ينظم الاسباط الخ نستدل أن عبادة يترون وموسى واحدة فمن يعلم العقيدة الدينية للآخر الكاهن أم العسكري؟ فهذا يدل على أهمية يترون (رعوئيل ــ شعيب) في تأسيس الذين الموسوي!!؟

غير أن موسى قال أنه رأى يهوه في عليقة تلتهب دون أن تحترق بينما كان يرعى غنم حميه وأن يهوه ناداه من العليقة وقال: «أنا اله أبيك ابراهيم واسحق ويعقوب.. وأن يهوه هو اسمه وهذا اسمه إلى الأبد وقد افتقد شعبه في أرض مصر ووعده بضرب مصر ومساعدته في سلبه اهلها. وعلمه السحر وأرسل معه أخاه هرون لأنه كان أفصح منه وأنه هو ايل شدّاي الذي عبده الآباء وأنه اتخذ العبرانيين شعبار وصار لهم الها. ووعدهم بإعطائهم أرض الآخرين ــ أرضاً تفيض لبنا وعسلا!.

ويظهر من سفر التكوين 26:4 أن عبادة يهوه لم تكن جديدة على الاسرائيليين بل سبقت ظهور موسى ــ لأن أم موسى وهرون ومريم أبناء عمرام (عمران) تدعى «يوكابد» ــ والمقطع «يو» في بداية الاسماء هو اختصار «ليهوه» ــ كما يظهر ذلك في اسم «يوحنا» يوسف يوناثان الخ. ويمكن الاستدلال من هذا أن موسى لم يكن من وضع اسم يهوه أو الهه أو أدخل عبادته بل هو من ثبت هذا الاسم وهذه العبادة ليكون الها لقبيلة الاسرائيليين ــ وللدلالة على قوته وصف بأنه «رب الجنود» ــ جنود السماء والأرض. وكان الايمان به مصدرا للالهام والاعتداد بالنفس أثناء القتال وبذلك أصبح الاسرائيليون منظمة قتالية لا مجرد جماعة دينية.

وعندما احتل الملك داود مدينة أورشليم الكنعانية (بروشالم ــ يبوس) لحو عام 1000 ق.م أقام فيها معبداً ليهوه وجعل من اليهوهيه الدين الرسمي للدولة ومن التوراة دستوراً لها. ثم بني هيكل سليمان الشهير.

ولما تزوج آخاب ملك اسرائيل (874 – 852 ق.م) ايزابيل الصدونية بنى معبداً لبعل ونشب صراع بين أتباع بعل وأتباع يهوه بقيادة النبيين ايليا واليشع وانتهى الصراع بتوره يهو والقضاء على آل عمري وثبت عبادة يهوه من جديد.

ومع الزمن ابطل استعمال اسم يهوه لسببين ــ فعندما بدأ إخراج الدين اليهودي من شكله القبلي العنصري إلى الشكل التبشيري العالمي بدأوا باستعمال كلمة «ايلوهيم» أي الآلهة بدل يهوه ذي الصفات القبلية الغير صالحة والبعيدة عن فكرة التوحيد والممثل للفكر الهينوثي في الدين مثل مردوخ واشور وهدد الخ.

والسبب الآخر في اهمال اسم يهوه أن بعضهم رأى أن اسمه أقدس من أن يلفظ بألسنتهم فاستعاضوا بكلمة «أدوناي» (ربي أو الهي) الكنعانية والمأخوذة من اسم «أدون» أو أدونيس عند الإغريق ــ والتي ترجمت إلى اليونانية في الترجمة السبعينية Septuguint باسم Kyrios (كيريوس = Lord) واعتمدت الترجمات الأوروبية اقتباس الكلمة اليونانية واستعملت الكلمة التي تعني «الرب» بدل يهوه أي Lord بالانكليزية و Seigneir بالفرنسية.

صفات يهوه في العهد القديم:

1 ــ يهوه إله قبلي وليس إلها كونياً: «لذلك قل لبني اسرائيل انا يهوه (الرب) وأنا أخرجكم من تحت أثقال المصريين وأنقذكم من عبوديتهم وأخلصكم بذراع ممدودة وبأحكام عظيمة واتخذكم لي شعبا وأكون لكم الها (خروج 6:6و7).

2 ــ يهوه يعلم السحر: فقال يهوه: ما هذه في يدك؟ فقال عصا.. فقال: اطرحها إلى الأرض: فطرحها إلى الأرض فصارت حية فهرب موسى منها. ثم قال الرب لموسى مد يدك وامسك بذنبها فمد يده وامسك بها فصارت عصا في يديه.

ثم قال الرب أيضاً ــ أدخل يدك في عبك فأدخل يده في عبه ثم أخرجها وإذا يده بيضاء مثل الثلج الخ..» (خروج 4:2-7).

3 ــ يهوه يعلم السرقة: «وأعطي نعمة لهذا الشعب في عيون المصريين فيكون حينما تمضون أنكم لا تمضون فارغين. بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتسلبون المصريين» (خروج 3:21 و22).

«وفعل بنو اسرائيل بحسب قول موسى. فطلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم فسلبوا المصريين» (خروج 12:35 و36).

4 ــ يهوه يعلم القتل: «فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر. من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الاسير الذي في السجن وبكل بكر بهيمة. فقام فرعون ليلا هو وكل عبيده وجميع المصريين وكان صراخ عظيم في مصر. لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت» (خروج 12:26 و 30).

«وتفترس جميع الأمم (الغوييم) الذين الرب الهك يدفع اليك. لا تشفق عينك عليهم ولا تعبد الهتهم لأن ذلك شرك لك» (7:161).

5 ــ يهوه يطرد شعوباً من أرضها ليعطيها لشعبه المختار: «وأيضاً أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها» (خروج 6:4).

«وفي ذلك اليوم قطع يهوه مع ابرام ميثاقاً قائلاً لنسلك أعطي هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات ــ القينيين والقنزيين والقدمونيين والحيثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجراجانيين واليبوسيين» (تكوين 15:18و19).

«متى أتى بك الرب إلهك إلى الأرض التي أنت داخل إليها لتمتلكها وطرد شعوباً كثيرة أمامك.. سبع شعوب أكثر وأعظم منك ودفعهم الرب الهك أمامك وضربتهم فإنك تحرمهم. لا تقطع لهم عهداً ولا تشفق عليهم» (تثنيه 7:6).

6 ــ يهوه يتهدد من لا يطيعه: «وإن نسيت يهوه الهك وذهبت وراء الهة أخرى وعبدتها وسجدت لها أشهد عليكم اليوم أنكم تبيدون لا محالة كالشعوب الذي يبديهم الرب من أمامكم. كذلك تبيدون لأجل أنكم لم تسمعوا لقول الرب الهكم». (تنية 8:16و20).

7 ــ يهوه اله غيور: «لأني أنا الرب (يهوه) الهك اله غيور» (خروج 20:5).

8 ــ يهوه يندم: «فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض» (تكوين 6:6).

9 ـ يهوه يدين من لم يرتكب خطأ: «أفتقد دنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي.» (خروج 5:20).

10 ـ الإسرائيليون يشترطون على يهوه أن ينصرهم كي يعبدوه وليس كباقي المؤمنين بالله يحبونه ويحترمونه ويقدسونه ويطيعونه. «اخطأنا لأننا تركنا الرب عندما وعبدنا البعليم والعشتاروت فالآن أنقذنا من يد أعدائنا فنعبدك (صموئيل 10:12).

إن هذه الصفات التي أعطاها الموسويون ليهوه الرب تجعله بعيداً عن فكرة التوحيد وعن الصلاح وفي تصنيف العقيدة الهينوتية. وقد اشتهر في التاريخ الاشوريون بقسوقم وباعتبارهم كبير الهتهم أشور» قائدهم في حروبهم.

كذلك كانت قسوة الاسرائيليين مع الكنعانيين عندما احتلوا أريحا وغيرها من المدن وعندما تسببوا في مقتل 75 ألف فارسي كما جاء في سفر استير وأصبحت هذه الذكرى عيداً عندهم (الفوريم). إنه كان للآلهة الميثولوجية صفة الخلود والقوة بينما لم تكن تختلف في أخلاقها عن أخلاق اسافل الناس في كثير من الأحيان وهذا ما حصل مع يهوه الاسرائيلي ـ وأنه لمن الجريمة والسخرية أن ندع أساطير التوراة تسيطر على الشرعة الدولية وحقوق الإنسان!

ومن أجل فهم الأجزاء الميثولوجية في العهد القديم والكتب اليهودية الأخرى والتي وجدت لها طريقاً إلى الأديان السامية الأخرى على الباحث أن يواجه مشاكل ثلاث:

1 ـ معرفة مصدر الأسطورة وشكلها الأصلي قبل أن تدخل الأسفار.

2 ـ معرفة التعديلات التي أدخلها الكتبة العبرانيون عند تدوينها.

3 ـ هل أنتج العبرانيون أساطير خاصة بهم!

أن واضعي العهد القديم قد وضعوا معظم الميتولوجيا المقتبسة في الإصحاحات الأحد عشرة الأولى من سفر التكوين وتركوا الباقي مقطوعات مبعثرة في مختلف الأسفار وجعلوا سفر التكوين ميثولوجيا أصول بالدرجة الأولى ليبرزوا تحدرهم القبلي وبدء عهد الآباء! وبصورةعامة يمكن القول بأن تعرف بني اسرائيل على الفكر الميثي في الهلال الخصيب وتبنيه من قبلهم أبعد هذا الفكر عن مغزاه العميق الديني والحضاري والاخلاقي وقلصه إلى معتقدات قبلية ضيقة لا صفة إنسانية لها، منغلقة لا يمكن أن تؤدي إلى الانفتاح على العالم أو تعميمها على الانسانية.

وإن الوحدة الصارمة في التفكير اليهودي القديم هي وحدة الأفكار السياسية لمملكة أرضية لا علاقة لها بالدين وبالرسالات السماوية. والتوراة اليهودية بكل ما جاء فيها من يهودي بحت لا يمكن أن تحضر للمسيح بالمعنى المسيحي. إن المسيح اليهودي هو ملك من نسل داود ملك أرضي «مملكته من هذا العالم».

لكن اعتراف الدينين المسيحي والمحمدي باليهودية (وليس الموسوية) لأسباب لا مجال لذكرها أدى إلى التغاضي عن حقيقة المفاهيم التوراتية و«الاسرائيليات» والروح الفريسية التي سيطرت على اليهود. هذه الروح التي قاومها المسيح حتى الموت على الصليب وهاجمها واقم الفريسيين بالنفاق والرياء. هذه الفريسية أتت بعد ذلك بـ«التلمود» وقد امتلأ حقداً على العالم وكفرا بالله والقيم وجعل آراء الحاخامات وما أكثر السخف فيها، أصوب من آراء الذات الآلهية!

نرجو القارىء أن يقرا بعضاً من فصول ذلك الجزء من التلمود المسمى «عبدة الأوثان» ليحكم بنفسه على السخف والانحطاط.

وأول من قام في الكنيسة ليفضح هذه المفاهيم هو «مركيون» نحو عام 150 م عندما وجد أنه إذا كان لا بد من الاعتراف بالعهد القديم فإن هنالك الهان: الاله الخالق وليس الصالح الذي وصفه العهد القديم، والاله الصالح اله المحبة الحقيقية الذي ظهر في المسيح. وكتب كتاب «الاضداد» حيث أبرز التناقض بين الناموس الموسوي والاناجيل وأبرز أن المسيحية هي دين جديد تماماً أي أن ما سمي بـ «العهد الجديد» ليس تتمة لما سمي بـ «العهد القديم».

كما اعتبر ما ني أن دين موسى والأنبياء هو من المفاسد التي تشد البشر إلى الشياطين.

البانتيون العربي

العرب شعب من عائلة الشعوب السامية كالأكاديين والأموريين والكنعانيين والآراميين والعبرانيين والأحباش. فالأصل هو السامي، وأحد الفروع هو العربي.

و«العربة» في اللغات الساميّة هي الصحراء أو البادية، والعربي هو ساكن الصحراء. فكلمة «عربي» لا تدل أصلاً على قومية معينة أو عنصر بشري معين بل تدل على إنسان في مرحلة بدائية من التطور الاجتماعي، مرحلة البداوة والترحل، قبل التحضر والاستقرار. وقبل ظهور الاسلام كانت كلمة عرب تعني البدو الرحل في صحراء أواسط شبه جزيرة العرب وشمالها وبادية الشام. ولم تطلق هذه التسمية على الحضر في جنوب الجزيرة العربية أو سكان المدن والواحات والسواحل.

وفي سفر أشعيا (21 : 13) وأرميا (3 : 2) وردت كلمة «عرب» بهذا المعنى، أما القرآن فيستعمل كلمة أعرابي» بمعنى بدوي، وسفر المكابيين (12 : 10) أيضا يورد كلمتي عربي وبدوي مترادفتين لأن العربة هي الصحراء أو البادية. وأرميا المتنبىء بين (626 – 586) ق.م. يورد كلمة ملوك العرب وملوك اللفيف الساكنين في البرية (الأصحاح 25 : 24) وبنفس الاستعمال اللغوي يقول سفر التثنية (34 : 1) «وصعد موسى من عربات موآب إلى جبل نبو» كما أطلق اسم «وادي العربة» على ذلك الوادي الصحراوي الممتد من جنوب البحر الميت إلى خليج العقبة.

ومنذ القرن 6 م. أطلقت كلمة عربي على كل سكان شبه الجزيرة العربية والتي تبلغ مساحتها (2.590.000 كم2)، وبعد القرن 7 م. أخذ استعمال الكلمة يشمل الشعوب التي سقطت بيد الفتح العربي الاسلامي. وأما بالاستعمال المعاصر فكلمة «عربي» نطلق على جميع الناطقين باللغة العربية وعددهم أكثر من /250/ مليونا من البشر. في بلدان تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي ـ الفارسي بغض النظر عن الأصول العنصرية والتاريخية والحضارية والدينية لتلك الشعوب الناطقة باللغة العربية ولو بلهجتها الخاصة.

وأول اسم علم لشخص وصف بأنه عربي ورد في كتابة لشلما نصر 3 ملك آشور عندما تزعمت آرام دمشق حلفا ضده في معركة قرقر شمال حماه عام /853/ق.م. وقدم «جندب» أو «جنديبو العربي» ألف جمل للمعركة ضد آشور.

كما أن تغلا تفلاسر 3 ملك آشور (745 – 727 ق.م.) فرض الجزية في السنة الثالثة من حكمه على «زبيبة ملك العرب» وفي السنة التاسعة من حكمه على سمسي (شمس) ملكة العرب كما دفعت له «ثيماي» و«سبآي» جزية من الجمال والذهب والتوابل.

وأخضع سرجون 2 (722 – 705 ق.م.) قبيلتي ثمود وأباديد وقتل قسماً ونقل قسماً إلى السامرة (في السبي الآشوري لمملكة إسرائيل) وفي /688/ احتل سنحريب «ادومو حصن العربية» وأول ذكر للعرب في الأدب اليوناني قد ورد عند أسخيلوس (525 – 456 ق.م) عن ضابط عربي في جيش احشويروش الفارسي. كما يذكر

هيرودوتس (484 – 425 ق.م.) العرب في جيش احشويروش ويصنف من أطلق عليهم اسم «عرب» إلى أربع فئات:

1 ـ العرب البائدة:

التي اختفت آثارها عن مسرح التاريخ وهم ثمود وعاد وطسم وجديس ـ وشعب ثمود تاريخي وقد ذكر في كتابات سرجون الثاني باسم «ثموداي» ويقول القرآن في سورة الأعراف 172 إن الله أرسل إلى ثمود أخاهم صالحاً (النبي) كما جاء (64) أنه أرسل إلى عاد أخاهم هودا (النبي هود) ويقال أن قبيلة عاد قد ازدهرت قديماً في حضرموت. وينسب بعض المؤرخين المسلمين إلى شخصية أسطورية باسم لقمان بن عاد بناء سد مارب ـ وأما طسم وجديس فهما على ما جاء في أخبار العرب قبيلتان من العمالقة من بني إرم اقامتا في بلاد البحرين واليمن والأحقاف. أذل ملك طسم (عملوق) نساء جديس فقاتلوه وأفنوا قبيلته إلا واحداً استغاث بتتابعة اليمن فقاتلوا جديسا حتى أبادوهم نحو 250 م.

2 ـ العرب العاربة:

وهم العرب الأقحاح عامة، وعرب اليمن وحضرموت خاصة. وحسب تقاليد النسابين تحدر هؤلاء من «قحطان» واسمه في التوراة «يقطان بن عابر» (تك 10 : 25). ويقال إن قحطان هذا هو أول من لبس التاج من ملوك اليمن وجزيرة العرب وأنه قاتل الآشوريين. ومن هؤلاء العرب سكن الغسانيون في حروان واللحميون في الحيرة.

وقد بنى القحطانيون في الألف الأخيرة قبل الاسلام الحضارة السبأية الحميرية. أول حضارة في جزيرة العرب بلغت سوية عالية وقد برزت في أبنيتها الضخمة ومشاريع الري والنقوش الكثيرة بلغة خاصة من المجموعة السامية تختلف عن اللغة العربية وبأبجدية خاصة وحضارتها أقرب ما تكون لحضارة الهلال الخصيب مما يفترض أصولاً مشتركة في عمق التاريخ ـ لكنها تأثرت أيضاً بالهللنستية.

3 ـ العرب المستعربة:

عرب أواسط وشمال الجزيرة العربية ـ وهم حسب ميثولوجية الأصول يتحدرون من عدنان أحد أحفاد اسماعيل بن إبراهيم. ومنهم القبائل المقيمة في تهامة ونجد والحجاز كذلك منهم الأنباط والتدمريون وابرزهم فيما بعد بنو قريش. وبينما طور العرب الجنوبيون حضارة خاصة بهم فإن العرب الشماليين استمروا على تخلفهم وبداوتهم حتى عهد متأخر. ولم يظهروا على مسرح التاريخ حتى بدأت الدعوة الاسلامية.

وبينما يقال أن العرب المستعربة التي منها قريش تتحدر من نسل إسماعيل نجد في التوراة (في تكوين 21 : 14 ـ 21) أن هاجر وضعت إسماعيل على كتفها وتاهت في برية «بئر السبع» (جنوب فلسطين) وهناك عطش وسقته بمعجزة. ثم أن إسماعيل كبر وسكن في البرية «وكان ينمو رامي قوس» وسكن في برية «فاران» (Paran) أي الجنوب من فلسطين في صحراء سيناء وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر. لكن التوراة أيضاً تسمي العرب إسماعيليين فهل يعني هذا أن العرب المستعربة هم هجرة من بادية الشام نحو الجزيرة العربية إلى الجنوب، كما أتجه آخرون من الساميين إلى المناطق الخصبة من الهلال الخصيب ومن بادية الشام أيضاً إلى الشرق والشمال والغرب؟

ويذكر «د. جواد علي» في كتاب العرب في الاسلام (1983) أنه إذا صح نقل مينكانا (A, Mingana) ما ذكره اللاهوتي السرياني نرساي (Narsai) المتوفي سنة 485 للميلاد عن غزو قام به أبناء هاجر على (بيت عرباية) فإن ذلك يكون أول خبر يرد من كتابي قديم عن «قريش» ولذلك أهمية تاريخية خاصة. لأنه يشير إلى وجود قريش في شمال جزيرة العرب في القرن الخامس قبل الميلاد، داخلة ضمن القبائل العربية الشمالية المعروفة يومئذ عند السريان باسم (أبناء هاجر) وبـ (الإسماعيليين) وهذا خبر لم نكن نعرفه من قبل. ذكر نرساي أن هذا الغزو كان عنيفاً قاسياً وأنه كان في شدته وهوله أقسى من فتك الحيوانات الضارية بالانسان وقد ترك ألماً شديداً وخسائر كبيرة في أهل تلك المنطقة. وذكر أن أشد أولائك المهاجمين الهاجريين في القسوة والغلظة هم: قريش.

وهذا يتفق مع تنسيب قريش للاسماعيليين ويدل على أن قريش كانوا بدواً رحلاً في القرن الخامس للميلاد وأنهم كانوا يعيشون في بادية الشام مع قبائل أخرى، قبل انتقال قريش إلى مكة واستقرارها فيها بعد أخذ السلطة من خزاعة في أيام سيدها ورئيسها قصي. والنبي محمد ينتمي إلى قريش القبيلة الشمالية المستعربة لكن معظم أتباعه كانوا جنوبيين كالأوس والخزرج، لكن النسابين أخذوا يجتهدون في إيجاد قرابة بين قطحان وعدنان واعتبروا أن قحطان هو يقطان بن عابر المذكور في سفر التكوين كما ذكرنا آنفاً، وأولاده ثلاثة عشر. هذه الأنساب هي من ميثولوجيا الأصول، حتى أن النسابين العرب جعلوا عشرين أبا بين محمد وعدنان وسبعة بين عدنان واسماعيل وتسعة عشر بين اسماعيل وآدم. ومن الواضح أن هذا التنسيب خال من الدقة التاريخية ويدخل على الأقل جزء منه في ميثولوجيا الأصول أيضاً.

4 ـ العرب المعربة:

وهم شعوب البلاد العربية خارج الجزيرة العربية، في الهلال الخصيب ووادي النيل والمغرب العربي الكبير. أي هم الذين اقتبسوا اللغة الشمالية (لغة القرآن) بعد الفتح العربي الاسلامي بعدة قرون. حيث أخذت هذه اللغة تحل مكان لغاتهم القومية القديمة كالآرامية في سوريا والعراق والقبطية في مصر والفونية في شمال أفريقيا فجاءت اللهجات الهجينة متباعدة واللغة الفصحى واحدة، ولكل من هذه الشعوب الناطقة بالعربية تاريخه الخاص وتراثه الخاص ولغته القديمة الخاصة التي لم تنقرض بعد، إلا أن اللغة العربية قد أصبحت قاسماً مشتركاً، ولا علاقة لهؤلاء العرب الجدد بموضوع البانثيون العربي.

أما اللغة العربية فهي إحدى اللغات السامية، وتنقسم إلى عربية جنوبية خاصة باليمن وحضرموت وهي السبئية أو الحميرية، واللغة العربية الشمالية فيها لهجات عديدة اجتمعت في لهجة قريش اي في القرآن قاسماً مشتركاً. ولأسباب دينية وسياسية اصطلح أن يكون القرآن مقياس اللغة الفصحى الصحيحة فأصبح كما هو الآن: اللغة العربية هي لغة القرآن.

وبوجه عام يمكن تقسيم تاريخ عرب الجزيرة إلى ثلاثة عصور:

1 ـ العصر السبئي الحميري الذي انتهى في القرن 6 م.

2 ـ العصر الجاهلي في الشمال (أي ما قبل الاسلام)، وأهمه القرن الأخير قبل الاسلام.

3 ـ العصر الاسلامي منذ ظهور النبي محمد حتى يومنا هذا، ولا يدخل في موضوعنا.

1 ـ العصر السبئي الحميري:

في الألف الأول قبل الميلاد ظهر في الجزء الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية دول مختلفة هي: سبأ ـ معين ـ قتبان ـ حضرموت. وأول من دخل الحضارة من العرب كان مملكة سبأ وكانت عاصمتها مدينة «سروة» من (750 - 610 ق.م.) ثم أصبحت «مأرب» من (610 ـ 115 ق.م.) وتقع مأرب في اليمن جنوب نجران.

تطورت دولة سبأ من حكومة دينية إلى حكومة زمنية. ففي عصورها الأولى كان يرأسها كاهن يتخذ لقب «المكرب» أي الكاهن الأكبر ومنهم «يثع ـ عمر» و«كريبا ـ ايل» و«يداع ـ ايل» في أواخر القرن الثامن ق.م. وأهم معابدها معبد «ألمقة» إله القمر.

وفي نهاية المكاربة استقرت العاصمة في مأرب. وأول مكرب سمى نفسه ملكاً هو «كريبا ايل» ثم نرى ملك سبأ نحو 450 ق.م. وفي مأرب كان يبنى سد عظيم في أوساط القرن 7 ق.م. للتحكم بمياه «وادي أذنة» وتحويلها للري، مما أدى إلى الازدهار الزراعي وقد ذكرت أسماء أكبر البناة في السد غير أن بعض المؤرخين القدامى جعلوا الشخصية الأسطورية لقمان بن عاد بانياً للسد.

ولما تحولت سبأ إلى مدينة دنيوية تماماً في القرن 5 ق.م. أصبحت تحت حكم الأقلية المالكة للأرض والأسر العسكرية وقام على رأس الدولة ملوك أخذ السبئيون في ظلهم يوسعون نفوذهم شيئاً فشيئاً. وفي نهاية القرن 2 ق.م. أضاف ملوك سبأ إلى لقبهم «ملك ريدان» وأقيمت عاصمة جديدة في ظفار. وفي نفس الوقت بدأت قبيلة حمير تحتل مركز الصدارة في الدولة ويحل اسمها مكان اسم سبأ.

دولة معين:

في شمال اليمن عاصرت دولة سبأ 400 ق.م ـ 100 م ثم ذابت فيها. وكانت عاصمتها السياسية «قرناو» وعاصمتها الدينية «يثيل» المسماة الآن «براقش» في شمال غرب مأرب كما أسسوا مدناً على ساحل البحر الأحمر.

مملكة قتبان:

400 ق.م ـ 50 ق.م . عاصمتها «تمنع» (كحلان) وقد ذابت في مملكة حضرموت.

مملكة حضرموت:

450 ق.م ـ 200 م وعاصمتها «شبوة».

وبعد عام 115 ق.م. سقطت تلك المناطق بيد ملوك حمير الذين أخذوا مركز الصدارة في سبأ حتى 300 م وكانت عاصمتهم ظفار. وفي القرن 3 م وحد السبئيون جنوب جزيرة العرب في دولة قوية واحدة هي أكبر وحدة سياسية أنشأها العرب الجنوبيون وهي المملكة الحميرية الثانية من 300 ـ 525 م.

في هذه الأثناء دخلت اليهودية والمسيحية اليمن (القرن 2 ـــ 4م) وأدت إلى الفرقة الداخلية والضعف. وأخذ العنصر اليهودي يزداد قوة حتى اعتنق اليهودية «ذو نواس» آخر ملوك سبأ، وحاول فرض دينه على شعبه وبدأ يضطهد المسيحيين اضطهاداً عظيماً في عام 523 إذ فتح نجران عام 523 وخير أهلها المسيحيين بني الحارث بن كعب بين الحرق في أخدود كبير أو الخروج عن دينهم واعتناق اليهودية فأبوا وماتوا شهداء ثم انتصر عليه نجاشي الحبشة وتوفي عام 524م. وقد دون القرآن الكريم هذه الحادثة في سورة البروج (الأخدود). «قتل أصحاب الأخدود» «النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد».

وكان الرد أن غزت الحبشة اليمن 523 و 525 وقضت على الدولة الحميرية وحكمها الأحباش 525 – 575 م ثم حاول أبرهه الأشرم فتح مكة عام 570 م راكباً على فيل فأصيب جيشه بالجدري وانسحب منها وكان ذلك عام الفيل الذي ولد فيه النبي. بعد الأحباش حكمها الفرس ثم حررها المسلمون (630 – 631 م).

دين عرب الجنوب: عبد عرب الجنوب الكواكب وفي مقدمتها الثلاثي الكوكبي القمر والشمس والزهرة كما في أرض الرافدين.

القمر: اتخذ إله القمر أسماء مختلفة هي «المقه» في سبأ و«ود» في معين و«عم» في قتبان و«سين» في حضر موت. كان القمر ذكراً وأنثاه الشمس.

الشمس: شمس هي نظيرة شمش عند الساميين لكنها كانت أنثى مثل شاباش في أوغاريت وابنهما الزهرة.

الزهرة: عشتر نظير عشتار وعشتروت لكنه ذكر وبه يتم الثلاثي الكوكبي

وإلى جانب الآلهة المشتركة كانت طائفة كبيرة من الآلهة الخاصة تحمي بعض الأماكن أو القبائل أو الأسر ويشار إليها غالباً باسم «بعل» وبين آلهة العرب الجنوبيين عدة آلهة لا أسماء لها يبتهلون إليها فرادى أو جماعات باسم إله أو آلهة مكان أو جماعة أو شعب ما خاصة:

1 ـــ ايل: وهو إله سامي مشترك، ايل لدى الآكاديين والكنعانيين والآراميين، ايليوهيم عند العبرانيين والله عند العرب. وقد استعمل اليمنيون اسم ايل بمعنى إله وهو في الأصل كذلك ومن أشهر الصفات التي قيلت فيه في ابتهالاتهم «الأب الرب الملك العزيز» و«العادل الأمين» ويبرز دين العرب الجنوبيين عبودية الانسان للالهة لذا يسعى دائما في طلب رضاها.

وكان للمعابد أهمية قصوى، فكانت تخصص لها العشور وضرائب أخرى. وكان عدد الكهنة والبغايا المقدسات كبيراً. كما كانت تقدم القرابين من حيوانات مختلفة كالثيران والغنم وقرابين غير دموية والشراب والبخور.

ومن العادات التي كانت شائعة عادة «الحج» إلى الأماكن المقدسة، وكان لها نظيرها في وسط الجزيرة العربية حتى أصبح الحج فيما بعد من فرائض الإسلام وكذلك كان الطواف في الأماكن المقدسة.

وقد وجدت في القبور حلي وكؤوس وأشياء من كل نوع ربما دلت على الايمان بحياة أخرى.

كانت الحياة الدينية في جنوب الجزيرة تتميز بطابعها الخاص عن أحوال عرب الشمال أو الأعراب. وفي سبأ تحت حكم المكاربة كانت القبائل تمثل جماعات دينية تظللهاحماية آلهتها الخاصة. وكان مجلس من الشعب يساعد الحاكم في وظائفه التشريعية، وقد بقي هذا المجلس حتى عهد الملوك. وكان ينفذ القانون في كل قبيلة موظفون قضائيون يتوارثون وظيفتهم ويتخذون لقب «كبير». وحوالي بدء العصور المسيحية أدى التوسع في فتوح سبأ إلى ازدياد نفوذ هؤلاء الكبراء حتى أصبحوا طبقة في القبائل لها امتيازاتها الخاصة وتملكت الأراضي الشاسعة واختفى مجلس الشعب وتضاءلت سلطة الملك وحل في السلطة نوع من النظام الاقطاعي.

وكان الملك يشرك ولي العهد في الحكم، ويرثه ابنه وإن لم يكن له ابن يرثه أخوه.

وإلى جانب أراضي الاقطاع كانت أراضي المعابد. وكان الازدهار الاقتصادي في الجنوب يعتمد على التجارة والزراعة وتجارة العطور والذهب والبخور والمر وأخشاب الزينة. إلا أن التنقيب في جنوب الجزيرة ما يزال قليلاً ولم يكشف بعد عن معظم القصور والمعابد التي ذكرت في التاريخ. لقد كانت المعابد بيضاوية أو مربعة الشكل كما هو شكل معبد مأرب الكبير.

2 ـ الرحمن: تدل التنقيبات على أن جنوب الجزيرة أخذ يترك الوثنية وتعدد الآلهة ويتجه نحو التوحيد أو الهينوثية بتركيز العبادة على إله عرف باسم «الرحمن» منذ القرن (5 ق.م.) واصبح رأس البانتيون الجنوبي. واسم هذا الإله باللغة الجنوبية هو «الرحمانان» يعادلها في الشمالية «الرحمن» (والرحمن من أسماء أو صفات أيل في أوغاريت)، ويظهر من كتابة «ابرهه» المتعلقة بانهيار سد مارب عام (542 م.) إن مسيحيي اليمن استعملوا الكلمة بمعنى «الآب» إذ يقول (بقوة ونعمة ورحمة «الرحمن ـ آن» ومسيحه والروح القدس)، كما اقتبس عرب الشمال الاسم فجعله القرآن من صفات الله «الرحمن الرحيم» كما سميت السورة 55 باسم سورة الرحمن.

3 ـ الرحيم: كذلك ورد في الكتابات السبئية اسم إله هو «الرحيم» من قبل الاسلام وكذلك كلمة «شرك» وأصبح اسم «الرحيم» من صفات الله في القرآن.

اليهودية

أثر انتفاضة اليهود في فلسطين عام (67م.) تم حصار أورشليم وسقوطها بيد تيطس وخرابها مع الهيكل عام (70م.) هرب اليهود ودخلوا اليمن والحجاز ويفترض أن النصارى هربوا ودخلوا معهم، وتكاثر اليهود بين القرنين (2 و4) إلى أن أصبح آخر ملوك الحميريين «ذو نواس» يهودياً. أما النصارى فهم أولئك اليهود الذين أمنوا بيسوع الناصري ودعوته واعتمدوا إنجيل متى المكتوب باللغة الآرامية والحرف العبري، وحافظوا أيضاً على العهد القديم والناموس الموسوي لأن يسوع «ما جاء لينقض بل جاء ليكمل الناموس»، مارسوا الختان والمعمودية والتكريس وأصبحوا أمة وسطاً بين اليهود والمسيحيين.

المسيحية

دخلت اليمن أول بعثة تبشيرية مسيحية عـام (356 م.) أيـام الامبراطـور قسـطنتينوس (337 – 361 م.) وهو ابـن قسـطنطين الكـبير لكنـه كـان يميـل إلى الآريوسـية وبـدأ امبراطوراً على القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانيـة، حيـث أرسـل تيوفيـل الهنـدي الذي تربى في القسطنطينية تربية مسـيحية آريوسـية، بعـد أن سـيم أسـقفاً، إلى الـيمن إلى الحميريين، واستطاع أن يعمد رئيس القبيلة على المـذهب الاريوسـي، وبـنى ثـلاث كنـائس واحدة منها في عدن.

وأما نجران فقد اعتنقت المسيحية المونوفيزية (السـريانية) علـى يـد الراهـب السـوري فيميون نحو (500 م.) وقد تركزت المسـيحية في نجـران وصـنعاء، وخاصـة عنـد الغـزو الحبشي الثاني لليمن عام (525م) ولقد أراد أبرهـه الحبشـي أن يجعـل مـن كنيسـة نجـران كعبة يحج إليها العرب ليصرف أنظارهم عن كعبة مكة،وفي هذه الكعبة يقول الأعشى:

وكعبـــــــة نجـــران حـــتم	عليـــك حـــتى تنـــاخي بأبوابهـــا
نـــزور يزيـــداً وعبـــد المســيح	وقيســـا هـــم خـــير أربابهـــا

وبقيت أسقفية نجران حتى (840م.) رغم نقل الخليفـة عمـر عـام (635م.) للنجـرانيين الذين رفضوا اعتناق الاسلام إلى العراق.

وأخذ الانشقاق يدب في صفوف اليمنيين بعد دخول المسـيحية واليهوديـة إليهـا وكـان اليهود يتعاطفون مع الفرس والمسيحيين مع البيزنطيين. وأخـذت الجماعـة اليهوديـة تـزداد قوة حتى اعتنق اليهودية «ذو نواس» آخر ملوك الحميريين كمـا مـر، ولمـا رفـض مسـيحيو نجران التهويد أعمل فيهم الذبح والحرق في تشـرين 1 عـام (523 م.) ورمـاهم في النـار في أخدود عظيم، وخلد القرآن الكريم الحادثـة في سـورة الـبروج وسمـى الشـهداء المـؤمنين «أصحاب الأخدود»، وقد روى ابن هشام أن ابـن اسـحاق قـال: «كـان فـيمن قتـل ذو نواس، عبد الله بن التامر رأسهم وإمامهم» وقد وجدت رفـات ابـن التـامر هـذا في خربـة من خرب نجران زمن عمر بن الخطاب، والرجل قاعد يضع يده علـى ضـربة في راسـه فـإذا أزيحت يده سال الدم من موضع الضربة وإذا تركت أمسك الـدم. وفي يـده خـاتم مكتـوب فيه «ربي الله»، فكتب إلى عمر في أمره فأمر أن يقروه على حاله ويـردوا عليـه الـدفن كمـا كان عليه (؟). وكما روى الأخباريون مثل هذا عن عبدالله بن التـامر وإيجـاد جسـده بعـد زمن لم يبدل رووا أيضا عن حمزة بـن عبـد المطلـب وغـيره. وبتشـجيع مـن الامبراطـور البيزنطي جوستين (518 – 527 م.) أرسل نجاشـي الحبشـة حملـة عـام (523 م.) بقيـادة «أرياط» على اليمن وانتصرت، ثم أرسـل حملـة أخـرى بقيـادة «أبرهـه» عـام (525 م.) وانتصرت أيضاً وقضى على ذي نواس والمملكة الحميرية. وبـنى أبرهـة كاتدرائيـة في صـنعاء من خرائب مأرب، ثم هاجم مكة عام (570 م.) راكباً على فيـل لكـن تفشـي الجـدري في جيشه قضى على الحملة (ذكر القرآن ذلـك في سـورة الفيـل) فعـاد أدراجـه إلى صـنعاء حيث هلك فيها نحو عام (570 م.).

وكان قد حدث شق في سد مارب عام (450 م.) وفي عام (542 م.) إنهار السد مما أدى إلى خراب الأراضي الزراعية وسدد ضربة الموت إلى ازدهار البلاد. وكان التشقق السابق في السد قد أدى إلى هجرة الغساسنة إلى سوريا واللخميين إلى العراق. وبقي الأحباش يحكمون اليمن حتى عام (575 م.) إذ طردهم الأمير سيف بن ذي يزن (الملك سيف في القصص الشعبية) بمساعدة الفرس. ولم تتحرر اليمن بل بدلت الأسياد بأن حكمها الفرس. وفي عام (628 م.) اعتنق «باذان» (المرزبان الفارسي على اليمن) الاسلام. بعد ذلك أصبحت قيادة الجزيرة العربية كلها بيد العرب الشماليين.

العصر الجاهلي في الشمال

هذا العصر يشمل تاريخ وسط وشمال الجزيرة العربية في كل مرحلة ما قبل الاسلام. والقسم الهام منه هو القرن قبل بدء الدعوة (610 م.) وهذا العصر لم يكن جاهليا، والأفضل أن يسمى «عصر ما قبل الاسلام» لأنه من غير المتفق عليه لماذا ينعت بالجاهلية.

إن لفظة «الجاهلية» قد وردت في القرآن الكريم أربع مرات (آل عمران 154، المائدة 50، الأحزاب 33، الفتح 26) ويمكن أن يقصد بالجاهلية عصر الجهل دون تحديد جهل ماذا، أو السفه والطيش. وقد ورد في الحديث الشريف أن الرسول قال لأبي ذر وقد عَيَّرَ رجلا بأمه «إنك امرؤ فيك جاهلية» وهنا تعني النزق والطيش والسفه وليس الجهل والهمجية أي ضد العلم. وبهذا المعنى يقول عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

لكن الصحيح أيضاً أن عرب نجد والحجاز بعكس عرب الجنوب كان معظمهم من الأعراب (البدو) ليس لهم ثقافة أو حضارة وبقوا متخلفين جداً عن عرب اليمن والغساسنة واللخميين وكذلك عن أقرانهم الأنباط والتدمريين الذين استوطنوا سوريا. فالغساسنة واللخميون كانوا من عرب الجنوب والأنباط والتدمريون كانوا جميعاً في طريق التسرين وقد اكتسبوا كثيراً من الحضارة السورية بشكلها الهللنستي. وحسب التقديرات التاريخية فإن العرب الشماليين المعاصرين للبعثة كان 83% منهم من الأعراب و17% منهم من سكان المدن والواحات يتعاطون التجارة والزراعة وقد تكونت لهم ثقافة وحضارة وعقائد دينية تفاعلت مع حضارة العالم القديم في مصر وسوريا والحبشة وبيزنطية فلم يكونوا جاهلين بمعنى جهلة معرفة أو همجاً. وقد توصلوا إلى معرفة بعض صفات الله، وقد ورد اسم الله كثيراً في أشعارهم إلى حد التوحيد. لذا نجد المسعودي (المؤرخ المتوفي عام 956 م.) يقول: «كانت العرب في جاهليتهم فرقاً، منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور ومنهم من مال إلى اليهودية والنصرانية كقس بن ساعدة الأيادي ورئاب الشني وبحيرا الراهب (تاريخ الكعبة)».

ويذكر ابن قتيبة الدينوري المؤرخ المحدث (828 - 889 م.) أسماء أخرى كانت على دين الله منهازيد بن نفيل وابو قيس من بني النجار الذي ترهب ولبس المسوح وخالد بن سنان وأمية بن أبي الصلت الذي قرأ الكتب وابتعد عن عبادة الأوثان وكان يخبر بأن نبياً سيبعث. وكان ابن أبي الصلت من الحنفاء فيقول: «كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور». وقد ذكر أهل الأخبار أن الجاهليين كانوا يتوجون رسائلهم

بجملة «باسمك اللهم» وإن أول من استعمل هذه العبارة هو أمية بن أبي الصلت. ومنهم من آمن بالتوحيد الصارم كقس بن ساعدة الذي يقول:

كلا بل هو الله إله واحد ليس بمولود ولا والد

وقلما كان البدو يظهرون على مسرح التاريخ إلا حين يتنقلون إلى دول الحذود في الغزو أو في قوافل التجارة التي كانت تدخل سوريا والعراق، أو حين يتغلغلون في المناطق المستقرة فينقطعون عن البداوة ويتركون مكانهم في الصحراء لآخرين. وأما في جزيرتهم فلم يكن لهم كتابة حتى زمن قليل قبل الاسلام، وكان الغزو والاقتتال بين القبائل هو تاريخهم الحقيقي وهو المعروف بـ «أيام العرب»، ومن أشهر هذه الحروب القبلية «حرب البسوس» بين تغلب وبكر وهما قبيلتان اعتنقتا المسيحية شكلاً، وانتهت تلك الحروب نحو (525م.) وكان بطلها الشعبي الشاعر الزير سالم أبو ليلى المهلهل الذي توفي نحو (531 م.). وحرب «داحس والغبراء» بين قبيلتي عبس وذبيان في أواسط الجزيرة العربية في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ودامت متقطعة لسنين عديدة. وكان بطلها الشاعر عنترة بن شداد العبسي نحو (525 - 615 م.).

إلا أن الهجرات الموسمية إلى الهلال الخسيب أدت إلى قيام دويلات تنحدر من عرب الشمال وهم الأنباط والتدمريون في سوريا.

الأنباط: من عرب الشمال الذين استقروا في سوريا بدءاً من القرن (6 ق.م.) بعد أن كانوا بدواً رحلاً، وأصبح موطنهم في شرقي الأردن حيث كانت سابقاً ممالك أدوم ومؤآب وعمون وجلعاد في القرن (13 ق.م.).

وخلال قرنين ترك الأنباط حياة البداوة وأخذوا يتعاطون الزراعة والتجارة ثم أقاموا مملكة عاصمتها «بترا» (Petra) = (الرقيم) = (سالع). وبقي الغموض يكتنف هذه المملكة حتى عام (169 ق.م.) عندما اشتهر أول ملوكها «الحارث». وكانت حضارتهم هللنستية ودامت المملكة حتى عام (106 م.) حيث ضمت سياسياً إلى ولاية سوريا الرومانية من قبل الامبراطور ترايانوس وأصبحت جزءاً من الولاية العربية (Provincia Arabia) مع سيناء وشرقي الأردن وحوران، وكانت عاصمة الولاية مدينة «بصرى» في حوران (Bosra). ويرجح أن «عمري» ملك إسرائيل (885 - 874 ق.م.) الذي بنى مدينة السامرة وجعلها عاصمته هو من تحدر نبطي عربي، ويرى يوستين الشهيد وترتوليان وابيفانيوس أن المجوس الذين أتوا إلى المسيح الطفل في بيت لحم كانوا عرباً وهداياهم من إنتاج اليمن. كذلك في عام (67 م.) قدم «مالك» ملك الأنباط ألف حصان وخمسة آلاف جندي قوة داعمة إلى تيطس في هجومه على أورشليم. وكان الأنباط يتفاهمون بالعربية ويكتبون بالآرامية.

ودين الأنباط يتركز على آلهة الخصب ومقاماتها كما عند غيرهم من الساميين ورأس البانتيون النبطي هو «ذو الشارة».

1 ـ ذو الشارة (إله الشمس): والشارة اسم جبل إلى الشمال الشرقي من العاصمة بترا، وقد رمز إليه بـ «حجر أسود» حفظ في كعبة صغيرة.

2 ــ اللات: إله القمر.

3 ــ مناة: آلهة المصائر والأقدار.

4 ــ العزى: آلهة الزهرة.

5 ــ هبال (أي البخار أو الروح): وكان من أهم آلهة الكعبة في مكة.

التدمريون: عندما بدأت شمس بترا في المغيب بدأت شمس تدمر في الشروق وتحولت الطريق التجارية إليها. بدأت الأسرة التدمرية العربية بـ «سبتيموس حيران» نحو (251 م.) ومع انحيازها إلى الرومان ضد الفرس. وفي عام (262 م.) أصبح «أذينة» نائب الامبراطور الروماني في الشرق، لكنه اغتيل في حمص عام (266 م.) مع ولي عهده فخلفته ارملته «بث زباي» (الزباء أو زنوبيا) وابنها الصغير «وهب اللات». كانت زنوبيا مثقفة وطموحة فحاولت عام (270 م.) انتزاع سوريا وقسم من الامبراطورية الرومانية من روما وبناء امبراطورية تدمرية، وكان المحرضون لها على ذلك مستشارها الحمصي «كاسيوس لونجينوس» وكان فيلسوفاً وعالماً (متحف حي ومكتبة متنقلة)، والقائدان «زبدا» و«زباي»، فاحتل الجيش التدمري من أنقرة في الأناضول حتى الاسكندرية في مصر. غير أن الامبراطور «أوريليانوس» قضى على أحلامها وعلى مملكة تدمر إلى الأبد عام (272 م.) واسرها وأخذها إلى روما حيث سارت في موكب النصر مكبلة بسلاسل من ذهب، ثم تزوجت أحد أعضاء مجلس الشيوخ الروماني وأنجبت منه وسكنت في «تيفولي». وكان سكان تدمر من الآراميين والعرب وكتاباتهم آرامية.

كان البانتيون التدمري يشتمل على آلهة من سوريا والجزيرة العربية وفارس وبابل:

1 ــ بيل: كبير الآلهة التدمرية، نظير مردوخ في بابل وله أكبر معبد.

2 ــ بعل شامين: رب السموات وله معبد في تدمر وآخر في «دورا أوروبوس».

3 ــ شمش: إله الشمس.

4 ــ عجلي بول: إله القمر.

5 ــ يرخي ــ بول: إله قمر آخر هو الهلال.

6 ــ ملاك ــ بيل: مثل هرمس وجبرائيل.

7 ــ «الإله المجهول الصالح الرحيم».

وفي الجزيرة العربية نشأت مملكتا لحيان وكندة وبعض المدن. إذ قام مركز سياسي جنوب الأنباط في ريدان «العلا» وهي مستوطنة معينية قديمة والقاعدة الشمالية القصوى للحضارة العربية الجنوبية، قامت حولها مملكة لحيان. ويظن أن اللحيانيين هم من بقايا ثمود البائدة.

ولحيان هي التي أدخلت عبادة «الله» من سوريا إلى الجزيرة العربية. أما ابن هشام فيقول أن عمرو بن لحي هو أول من أدخل الأصنام إلى أرض العرب، وأول صنم حمله

هو «هبل» فأتى به إلى مكة ونصبه فيها وأمر الناس بعبادته وتعظيمه، وأنه جاء به من البلقاء في نواحي الشام.

كندة: كان بنو كندة من عرب الجنوب ويدينون بالولاء لملوك اليمن عندما هاجروا في أواسط القرن الرابع الميلادي إلى وسط الجزيرة العربية قرب مكة، وأنشأوا مملكتهم بالسيطرة على القبائل هناك. ويلقب مؤسس سلالة ملوك كندة بـ «آكل المرار» واسمه «حجر». وقد خلفه ابنه عمر ثم الحارث ودب الشقاق بين أبناء الحارث. وفي أواسط القرن الخامس للميلاد سيطر ملوك كندة على معظم أواسط الجزيرة العربية واستمرت سيطرتهم هذه حتى أواسط القرن السادس. ومن السلالة الملكية الشاعر «امرؤ القيس»، كما برز أخيراً من بني كندة «فيلسوف العرب» «يعقوب بن إسحق الكندي». ويرجح أن آخر ملوك كندة» «ذو القراح» كان نصرانياً.

أما مملكة الحيرة فقد تألفت من قبائل عربية ملكت عليها بنو تنوخ. وكان أول ملك تنوخي هو «مالك بن فهم أبو جذيمة الأبرش» صاحب زنوبيا في تدمر، ثم ابن أخته عمر بن عدي بن نصر اللخمي ثم امرؤ القيس ثم ابنه النعمان الذي تنصر، ثم المنذر ثم عمرو بن هند الذي قتله الشاعر عمر بن كلثوم التغلبي. وكان «العباد النصارى» في الحيرة على المذهب النسطوري.

وكان آخر ملوك اللخميين النعمان الثالث ابن المنذر (580 - 602 م.) الذي تنصر نحو (593 م.) وقد خلعه كسرى الثاني وسجنه في المدائن.

كان ملوك الحيرة حلفاء للفرس وأعداء لملوك الغسانة حلفاء البيزنطيين والذين كانوا مسيحيين سريان أي من أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة، وكان آخر ملوكهم «جبلة بن الأيهم» الذي أسلم ثم ارتد وقصد القسطنطينية ومات فيها.

كما قام في واحات الجزيرة عدة مدن أهمها «يثرب» التي عرفت فيما بعد باسم «المدينة» ومكة إلى الجنوب منها وهي مسقط راس النبي.

يثرب ـ المدينة: هي المدينة الثانية في التقديس بعد مكة عند المسلمين. وتقع في الحجاز ، 400 كم شمال مكة و 900 كم جنوب شرق دمشق وترتفع نحو 650م عن سطح البحر.

تقع المدينة وسط واحة في الطرف الغربي لسهل بركاني واسع، تشكل جزء منه من حمم قذفت عام (1207 م.)، ومعدل الحرارة الوسطى فيها 32 درجة مئوية، وتشتهر بأحراج النخيل، ويقال أنه كان يوجد حولها مئة نوع من أنواع النخيل، فأحدثت فيها معامل لتسويق التمور، كما تزرع فيها الفواكه وخاصة العنب والخضار والحبوب وتروى من مياه الآبار. وقد أدخلت المضخات بدل الدلو لرفع الماء منذ العهد العثماني، أما مياه الشرب فقد سحبت إليها في قناة من «عين الزرقا» قرب قباء في الطرف الجنوبي من الواحة. وإلى جانب المياه الجوفية الغزيرة تتجمع مياه الوديان في فصل الشتاء وأهمها في وادي العقيق. ويحد واحة المدينة من جهة الشرق حقل بركاني ومن الجهات الثلاث

الأخرى تلال جرداء بشكل نصف دائرة أعلاها تلة «أحد» التي ترتفع (370م.) فوق الواحة وعليها مقام هارون. وكل منطقة المدينة معتدلة المناخ وهي محرّمة على غير المسلمين المحمديين، والذين يمكنهم رؤية المدينة فقط من المطار.

كان في المدينة في العهد العثماني أرض للجيش فيها ثكنات الحامية العثمانية، وفي هذه الأرض بني قصر الملك وملحقاته، وفيها يوجد قبر عمرو بن العاص الذي فتح جنوب سوريا ومصر وكان أحد الدهاة. وفي الواحة مسجد «قباء» وهو أول مسجد في تاريخ الاسلام، ومسجد القبلتين (القدس ومكة) وقبور حمزة عم الرسول والصحابة الذين قتلوا في معركة أحد عام (625 م.) التي جرح فيها النبي، والكهف الذي لجأ إليه النبي و«مسجد الدرع» حيث قدم سلاحه للمعركة، و«المستراح» حيث استراح في طريقه إلى أحد، و«مسجد الراية» حيث نشر علمه في معركة الخندق الذي حفر بمشورة سلمان الفارسي. وكل هذه المواقع تهم المؤمنين الذين يزورون المدينة وأهمها «مسجد النبي» الذي يزوره الحجاج وقد التهمته النيران عامي (1256 و 1481) وأعيد بناؤه من قبل الحكام المسلمين في العالم. وقد رممه مختلف الخلفاء ودمجت به غرفة نساء النبي في عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك كما زين السلطان سليم الثاني (1566 – 1574 م.) داخل المسجد بالفسيفساء المطعم بالذهب ثم بنى السلطان محمد قبته عام (1817 م.) ودهنها بالأخضر عام (1839 م.).

بعد ذلك جاءت مبادرة السلطان عبد المجيد الأول (1839 – 1861 م.) بإعادة بناء مسجد النبي عام (1848 م.) وأكمل مشروعه عام (1860) وكان هذا آخر تجديد في هذا المسجد حتى عام (1948 م.) حيث أخذ الملك عبد العزيز على عاتقه أمر توسيع المسجد فنفذ التوسيع الملك سعود (1953 – 1955).

ويشمل المسجد حالياً ساحة تحيط بها الأعمدة على نمط إصلاحات القرن 19 وترميماته، إلا أن الاسمنت استعمل هذه المرة بدل الحجارة، كما انتزعت حواجز القفص المعد للنساء المصلّيات.ونجد فيه ثلاثة بيوت كانت للنبي وقبره تحت القبة الخضراء. وقبور «الشيخين» الخليفة أبي بكر والخليفة عمر بن الخطاب وقبر فاطمة الزهراء.

وفي المدينة الآن محطة إذاعة تبث البرامج الدينية الاسلامية، والجامعة الاسلامية التي أسست عام (1960 م.). والأبنية الحديثة منتشرة خارج السور القديم. وقد كشفت أسس قبر النبي الأثرية علىعمق ستة أمتار تحت سطح الأرض إلا أنه لم تجر تنقيبات علمية عليه أو على الأطلال القديمة أو المستوطنات اليهودية القديمة في المدينة أو تل القريظة ومقبرة البانية التي أزيلت قبورها المزخرفة عند انتصار الوهابيين عام (1925).

تاريخها: كان اسمها يثرب في الكتابات السبئية و«يتريبا» في كتابات بطليموس. ومن بين المدن التي وصل إليها نبونيد آخر ملوك بابل (556 – 539 ق.م.) عند اعتزاله في العربة كانت «يتريبو». لكن تاريخها القديم غامض ومن المعروف أنه قد سكنها من القبائل اليمنية الأوس والخزرج ثم دخلها نازحون من اليهود السوريين الذين طردهم الامبراطور هادريان نحو عام (135 م.) وفشل ثورة باركوكبا. وربما سبقهم آخرون في القرن (1 .م.) عندما هربوا من اضطهاد تيطس عام (70) وخراب أورشليم والهيكل. ومع الزمن أصبح اليهود الفئة المسيطرة من السكان حتى عام (400 م.). عرف منهم بنو

قريظة وبنو النضير وبنو قنيقاع ويهود خيبر في شمال الواحة. فأصبحت بواسطتهم منطقة زراعية رائدة.

ويستدل من أسماء الأشخاص والكلمات الارامية المستعملة في الزراعة أن هؤلاء اليهود كانوا عشائر عربية وآرامية هودت عن طريق تلك النواة من اليهود السوريين النازحين. وهؤلاء أطلقوا اسم «مدينتا» الآرامي أي المدينة مستبدلين بـ «اسم يشرب». وأما تسميتها بـ «مدينة النبي» فإنها تسمية متأخرة.

ونحو عام (400 م.) كانت المنطقة ذات زراعة مزدهرة متطورة وقد زارها الملك السبأي «أبي كريبا أسعد» فاقتبس تعاليم الأحبار اليهود من تلك المستوطنات ونشرها في اليمن وأخذ يضغط على باقي اليمنيين «الوثنيين». ومع تكاثر اليهود في اليمن قويت شوكتهم حتى أن آخر ملوك سبأ «ذو نواس» اعتنق اليهودية وذبح مسيحيي نجران وأحرقهم في الأخدود عام (523 م.). والهام أن اليهود اليمنيين الذين هاجروا إلى إسرائيل عام (1949) هم أحفاد العرب المتهودين في اليمن في تلك العهود وليسوا من التحدر الاسرائيلي القديم، أي أنهم ليسوا عائدين إلى أرض الأجداد من الشتات!.

وفي عام (622 م.) هاجر النبي محمد وصحبه من مكة إلى المدينة ووصلها في 24 أيلول عام (622 م.) وكان له فيها أنصار من الأوس والخزرج وأخوال جده من بني النجار وفيها قبر أبيه عبدالله بن عبدا لمطلب الذي زاره مع أمه آمنة وهو في السادسة من عمره. وقد كانت هذه الهجرة تحولاً كبيراً في حياة النبي وفي حياة المدينة ذاتها، إذ فيها تم تسييس الاسلام وتعريبه زيادة على أسسه النصرانية، وبذلك فصل عن اليهودية والمسيحية، فبدل يوم السبت بالجمعة والبوق والناقوس بالآذان والقبلة من أورشليم إلى مكة والحج إليها وتقبيل الحجر الأسود كما في الجاهلية وصيام رمضان كما كان سابقا. وفيها توفي النبي ودفن في (8 حزيران عام 632 م.).

أجلى النبي بني قنيقاع عن المدينة وكذلك بني النضير، فاتفقت الأحزاب واليهود عام (627 م.) على مهاجمة المسلمين في المدينة فكانت معركة الخندق، وبعد حصار دام شهراً انتصر المسلمون، ثم استسلم بنو قريظة فأمر النبي بذبحهم ودفنهم في خندق، فذبح منهم سبعمئة وتقاسم المسلمون أسلاب الحرب. وفي عام (628 م.) أخضع يهود خيبر في الشمال، وأخيراً طرد اليهود من كل الحجاز وأصبحت المدينة عاصمة الدولة الاسلامية حتى عام (661 م.) إذ نقل الأمويون (معاوية) آنئذ العاصمة إلى دمشق رغم ضآلة عدد المسلمين فيها آنذاك. وأصبح للخلفاء عمال في المدينة وأخذ الأمراء المحليون ينعمون بالاستقلال الذاتي وتكاثر فيها عدد الأغنياء الجدد والقيان والدعارة وبذلك أخذت المدينة المقدسة تفقد قداستها منذ العهد الأموي، وفي بعض الأحيان كان يطغى على المدينة أشراف مكة أو الحكام المصريين أو الأتراك.

احتلها الوهابيون عام (1804) ثم استعادها قوة تركية مصرية عام 1812 ثم استعادها الوهابيون تدريجيا بقيادة ابن سعود، وفي الحرب العالمية الأولى ثار حاكم الحجاز الشريف حسين بن علي عام 1916 ضد الأتراك بتحريض من الانكليز وقد خدعوه بأنهم سيقيمون له الدولة العربية الكبرى التي تشمل المشرق العربي. ثم اصطدم بابن سعود

وبقيت حكومة الشريف في المدينة حتى عام 1924 ثم حاصرها ابن سعود 15 شهراً فسقطت في يده وطرد الهاشميين وأنشأ المملكة العربية السعودية.

مكة (بكة ـ مكورابا ـ أم القرى): أقدس مدن الجاهلية والاسلام، مسقط رأس النبي وعاصمة ولاية الحجاز في المملكة العربية السعودية واسمها الحميري «مكورابا» أي «المقدس الأكبر» وتقع على بعد 72 كم إلى الشرق من جده والبحر الأحمر، وبينهما في الطريق يقع «وادي فاطمة» و«وادي شريف» وهضاب الحجاز وعامودان أو علمان يحدان حرم مكة من الغرب حيث لا يجوز لغير المسلمين المحمديين أن يتخطوهما ولا يجوز القتل أو الصيد داخل حدود ا لحرم أو ذبح الحيوان الأليف للطعام. أو إعدام المحكومين شرعاً. ومن كل جهة يوجد عامودان يحدان الحرم وطوله 40 كم من موقع الشميسي إلى بازان قرب عرفات وعرضه 18 كم من تنعيم إلى باب أقصى.

وتقع مكة قرب الطرف الشرقي من الحرم ومعظم أبنيتها في وادي إبراهيم الذي تلتقي فيه مسايل المياه عندما تمطر، والمباني الرسمية تقع في أحد هذه المسايل وهو وادي «أجيد». وفيها وزارة الداخلية والمطبعة الحكومية والفندق المصري والفندق الاسماعيلي ومبان فخمة خاصة.

وفي نهاية وادي إبراهيم وبدء وادي مسفلة يقوم الحرم الشريف. ومنذ القديم كانت الأبنية تقوم حول هذا الحرم، وأصبح الآن هناك ضواحي ذات فيلات فخمة وحدائق يقوم بقربها أحياء الفقراء وأكواخ التنك والحالة الصحية الرديئة.

وحتى عام (1950) كانت مكة تروى من الآبار ومن قناة «زبيدة» القديمة التي رممت تبرعا من زبيدة زوجة هارون الرشيد عام (858 م.). ثم تضاعفت كمية المياه بعد شق قناة جديدة من «عين الجديدة» في وادي فاطمة، وقد شقت في أواخر عهد الملك عبد العزيز آل سعود. كانت المدينة تتعرض للفيضان عند هطول الأمطار حتى بني سد في وادي إبراهيم لتحويل مياه الفيضان. وآخر فيضان حدث كان عام (1950) وقد ارتفعت مياهه أكثر من مترين داخل الحرم الشريف. وقد نقل الحجاج البلهارسيا إلى مكة بسبب استحمامهم في بركة عون وبركة مجيد وبركة الشهداء. وكي ينقل الحجاج من مرفأ جدة فقد شقت طرق للآليات منذ عام (1926) كما أنشىء في جدة مطار من الدرجة الأولى عام (1950).

وفي وسط الحرم الشريف تقع الكعبة وأضلاعها نحو 13 متراً في كل اتجاه، وقد دمرها الفيضانات وأحرقت عدة مرات، وكان يعاد بناؤها دائماً حسب هندستها الأولى، ويغطي البناء قماش مطرز هو الكسوة التي تستبدل كل عام في بدء موسم الحج. وفي زاوية الكعبة الشرقية يوجد «الحجر الأسود» وهو من مقدسات الجاهلية، وقد قدس لأنه حجر نيزكي كحجر الأنباط وحجر حمص، يقبل الحجاج هذا الحجر الأسود وله في أذهانهم ميثوليوجيا خاصة تتعلق ببناء الكعبة وكيف أن الملاك جبرائيل قد أعطاه لابراهيم أثناء بنائها. ويطوف الحجاج حول الكعبة كجزء من طقوس الحج، ويربو عدد الحجاج على المليون حاج سنوياً، وتستفيد المملكة العربية السعودية من الحج اقتصادياً.

تاريخها: مدينة مكة عريقة في القدم وقد كانت محجة كبرى ومركزاً تجارياً قبل الاسلام كما كانت مركزاً للنشاط الديني والتبشير النصراني حتى أصبح فيها جالية من

النصارى العرب إلى جانب جالية أخرى من النصارى غير العرب. ونحن لا نملك مرجعاً للوقوف على أحوال مكة القديمة، ولا نعرف من نشأة مكة شيئاً ورد في نصوص مكتوبة أيام الجاهليين أو في صدر الاسلام، غير أن بطليموس عالم الفلك والجغرافيا في القرن الثاني الميلادي قد أشار إلى مدينة «مكورابا (Macoraba) وقد ترجمت إلى كلمة (مقدس) بينما يرى آخرون أن اسمها تحريف لكلمة عربية «مقربة» فجعلت «مكربة» لأنها تقرب من الآلهة، فهي مقربة من التقريب فجاءت الكلمة نعتاً ثم أصبحت اسماً للمدينة. ويفترض أن حكامها كانوا كهاناً حكموا الناس باسم آلهتهم. واول سدنة للكعبة من هؤلاء الكهان كانوا من بني جرهم وهم قبيلة عربية قديمة قيل أنها جاءت من اليمن، ومنها البائدة والعاربة أما العاربة فكانت تقيم في مكة.

وأثر تصدع سد مأرب عام (450 م.) ارتحلت قبيلة خزاعة اليمنية مع أرهاط كهلان الستة شمالي الجزيرة العربية ولما انتهوا إلى مكة تخلفت عنهم (خزع) رهط حارثة بن عمر من ازد كهلان في مسيرهم فأقاموا في مكة وتغلبوا على بني جرهم وانتزعوا منهم سدانة الكعبة وظلت بيدهم إلى أيام قصي سيد قريش.

ويبدو من الاستدلال التاريخي ومما ننقل عن نرساي اللاهوتي السرياني المتوفي سنة (485 م.) يستدل أيضاً أن قريشاً كانت من قبائل البدو الرحل في بادية الشام في القرن الخامس الميلادي. وفي تحركها وتنقلها بلغت مكة واستقرت فيها وانتزعت السلطة من خزاعة في أيام سيدها ورئيسها قصي.

كان قصي زعيماً وتاجراً جمع مالاً كثيراً وولّى عنايته البيت الحرام وثبت حكم قريش في المدينة حتى صار لقومه نفوذ على سائر القبائل وهو أول من أقام ملك قريش في مكة (وهو الجد الخامس للنبي). وقد كان أهل مكة عند ظهور الإسلام يرجعون نسبهم إلى قريش فأمر مكة كان إذن في أيدي قريش في القرن السادي الميلادي.

ولد قصي عبد مناف وهذا ولد هاشم وهذا ولد عبدالمطلب وهذا ولد عبدالله وهذا ولد النبي محمد نحو (570 م.).

وفي العهد البيزنطي والروماني من قبله كانت مكة مركزاً للنشاط التجاري بين الهند وشرق أفريقيا والشرق الأقصى وبلدان البحر المتوسط، إذ كانت البضائع تدخل مرفأ عدن ثم تنقلها القوافل إلىمصر وسوريا وأوروبا. وكان معظم أهل مكة يساهمون في هذه التجارة وكان كبار التجار من سادة قريش وهم «الملأ» أو الطبقة المسيطرة في مكة.

ووصل المكيون قبل الاسلام ــ عندما كان العداء بين الفرس والروم بالغاً منتهاه ــ إلى درجة عظيمة في التجارة. وكان على تجار مكة اعتماد الروم في كثير من شؤونهم حتى فيما يترفهون به، كالحرير ــ وحتى استظهر بعض مؤرخي الافرنج أنه كان في مكة نفسها بيوت تجارية رومانية يستخدمها الرومانيون للشؤون التجارية والتجسس على أحوال العرب. كذلك كان فيها أحابيش ينظرون في مصالح قومهم التجارية (اليمين واليسار في الاسلام ص19) وكان العباس بن عبد المطلب وخالد بن الوليد وعثمان بن عفان فضلاً عن أبي سفيان بن حرب وغيرهم من كبار المتعاملين في الأعمال المصرفية. (أسواق الغرب لسعيد الأفغاني من اليمين واليسار). ومع ذلك يبدو أن قريشاً كلها كانت لها قداسة رجال الدين بالنسبة لسائر العرب، ولم يكن هناك فصل بين الدين

والتجارة ولا ندري إن كان هناك أسرة انفردت بسدانة الكعبة لتطلق عليها «طبقة رجال الدين» غير أن التجار والملاك والصناع في مكة ويثرب سيطروا اجتماعياً وكان لهم مجلس يشبه الحكومة في مكة واسمه «الملأ» له السلطة التشريعية والسلطة التنفيذية. يقابل الملأ صغار التجار وجماهير المعدمين الذين خرج منهم الصعاليك وحلفاؤهم فئة العبيد.

ولما احتل أبرهة الأشرم اليمن عام (525 م.) حاول منافسة مكة دينياً فبنى كعبة في نجران ليحول الناس إليها. ولما فشل مشروعه حاول احتلال مكة عام (570 م.) ليقضي عسكرياً على مكانتها الدينية ويبشر بمذهبه غير أن وباء الجدري فتك بجيشه فانسحب خائباً. وهو عام الفيل. وفيه ولد النبي.

وكان قس النصارى العرب ورقة بن نوفل ابن عم خديجة كان يترجم الأسفار المقدسة إلى العربية مما يدل إتقانه للغة الآرامية. كما كان عداس النينوي قسّ جالية النصارى غير العرب في مكة ومقرباً من خديجة وهي تاجرة أيضاً.

وفي عام (610 م.) بدأ النبي نشاطه الديني في مكة وشجعه ورقة وخديجة وفيها تمت معظم سور القرآن أي «السور المكية» وخاف القريشيون من الدعوة الجديدة مما دفعهم لمقاومته ومحاولة اغتياله ــ فاضطر بدوره للهجرة مع مؤيديه من الأنصار إلى المدينة عام (622) ــ (وبعد 17 عاماً جعل عمر بن الخطاب هذه الهجرة بدء التاريخ الاسلامي) وأخذ يهاجم قوافل قريش منذ غزوة بدر عام (624) وفي عام (630) تمكن من احتلال مكة مع عشرة آلاف مسلم وأعلن الحفاظ على الحج السنوي إليها كما كان قبل الاسلام لكنه حطم أصنامها وكان عددها (360) صنماً عند البعثة على ما يذكره أهل الأخبار ولم يبق إلا صورة عيسى المسيح وأمه مريم، وتذكر روايات أخرى أن تمثالي عيسى ومريم بقيا إلى أن هَلكَا في الحريق الذي وقع في أيام ابن الزبير. وتحولت مكة إلى مدينة الإله الواحد، والتوحيد الصارم. ثم عاد النبي إل المدينة وتوفي عام (632 م.) لذا بقيت المدينة العاصمة السياسية أيام الخلفاء الراشدين الثلاثة الأول بينما احتفظت مكة بالمركز الديني وما زالت تحتفظ به حتى اليوم. وفي عام (661 م.) انتقلت العاصمة الاسلامية إلى دمشق وانحطت قيمة مكة والمدينة من الناحية السياسية بعد ذلك حيث انتقلت العاصمة بعدها إلى بغداد في عهد العباسيين.

وعند انحطاط الدولة الاسلامية وظهور الهرطقات، احتل القرامطة مكة عام (930.م) بقيادة أبو طاهر سليمان، فأخذ يقتل أهاليها ومن فيها من الحجاج وهم متعلقون بالكعبة، وردم بهم زمزم وفرش بهم المسجد، وقد قتل من الأغراب نحو ثلاثين ألفاً وسبى النساء والصبايا، كما نهب كنوز مكة والمدينة وأخذ الحجر الأسود وبقي مخفياً حتى أعاده الخليفة الفاطمي المنصور عام (951 م.). وحجة أبي طاهر (ابن أبي سعيد الجنابي حاكم البحرين القرمطية) في انتزاع الحجر الأسود، هي دك أركان الكعبة والاجهاز «على الكفار عبدة الأحجار»، حتى أن أحد أصحابه دخل بيت الله الحرام على جواده وصاح بالموجودين فيه «أيها الحمير، إنكم تسجدون للحجارة وتطوفون حولها وترقصون إكراماً لها وتمسحون وجوهكم بها وفقهاؤكم الذين تتفقهون عليهم لا

يعلمونكم شيئاً خيراً من هذا، فلم يبقَ نحو هـذه الخرافـات إلا هـذه السـيوف والسـلام»، وكان القرامطة قد قطعوا طرق الحج في عامي 907 و 925 ومنعوه لعدة سنوات.

وفي عام (972) انشـطرت الخلافـة إلى خلافـتين ـ فاطميـة في مصـر وعباسـية في العراق وتأرجحت المدينتان المقدستان ما بين الخلافتين وحافظتا عملياً على استقلالهما.

وفي عام (1258) قضى المغول على الخلافة العباسـية كمـا انتـهت الدولـة الفاطميـة وسيطر السلطان المملوك بيبرس 1 على مكة عـام (1269) وبقيـت تحـت الحكـم المصـري حتى (1517) فانتقلت إلى الحكم العثمـاني بعـد أن فـتح السـلطان سـليم الأول سـوريا ومصر والمدينتين.

وبقي في مكة أحفاد النبي من نسـل علـي وفاطمـة الزهـراء ـ وقـد أطلـق لقـب «شريف» على من هو من أحفاد الحسن بن علي «وسيد» على من هـو مـن أحفـاد الحسـين واصبح أحفاد الحسن حكاماً على مكة باسم «شريف مكـة» وكـان لأشـراف مكـة حكـم ذاتي لحد بعيد. وخلال الحكم العثمـاني وحـتى الحـرب العالميـة الأولى (1914 - 1918) لم يبدوا اهتمامات سياسية في شبه الجزيرة العربية بل حسنوا طـرق الحـج حـتى الانضـمام إلى الحلفاء ضد الأتراك عام 1916.

وكان نحو (1750) أن بدأ محمد بن عبـد الوهـاب مـن نجـد والمتـوفي عـام (1792) دعوة للعودة إلى الإسلام الأول باسـم «الموحـدون» بعـد أن طـاف في الحجـاز والعـراق وسوريا وتاثر بآراء أحمد بن تيمية (الحنبلي المتطرف) ورأى أن المسـلمين قـد انحرفـوا عـن الاسلام الأرثوذكسي حسب النبي والقـرآن وأخـذ علـى عاتقـه الـدعوة إلى العـودة إلى الاسلام الول. ووجد محمد بن عبد الوهاب حليفاً وصهراً في محمد بـن سـعود المتـوفي عـام (1765) وهو من زعماء العشـائر في أواسـط الجزيـرة العربيـة. ودعـي أتبـاع الـدعوة «وهابيون». نهب الوهابيون كربلاء عـام (1801) ثم احتلـوا مكـة عـام (1802) والمدينـة عام (1803) فهرب غالب شريف مكة إلى جدة. هدم الوهـابيون قبـور المقدسـين، وغـزوا سوريا والعراق فخاف الباب العالي وأوعز إلى محمد علي حاكم مصـر فقـام بمحاربتـهم مـن (1811 - 1815) وطردهم من مكة وهدم عاصـمتهم. ونحـو عـام (1818) قضـى علـى قوتهم العسكرية غير أن آراءهم تابعت انتشارها، وأصبحت كل من مكـة والمدينـة تخضـعان للحاكم العثماني مع كل الحجاز حتى عام (1916). وأصبح للبـاب العـالي والباشـا في مكـة حق تعيين شريف مكة وكان نفوذ الشريف الفعلي علـى القبائـل فقـط. وفي عـام (1908) تم إنشاء الخط الحجازي الذي يربط دمشق بالمدينة بأمر من السـلطان عبـد الحميـد وتنفيـذ المهندس الألماني «مايسنر» باشا. وقد رفض الشريف إيصال الخط الحديدي إلى مكة.

توفي الشريف «عون الرفيق» عام (1905) فعين السلطان عبـد الحميـد «علـي باشـا» شريفاً على مكة، إلا أنه رفض التعاون مع السلطان فعزله وأتى بـ «حسـين بـن علـي» مـن منفاه في استنبول وعينه شريفاً على مكة وكان عمره ستون عاماً.

ولما انفجرت الحرب العالمية الأولى اتفـق الشـريف حسـين بـن علـي مـع الانكليـز فأعلنوه ملكاً على الحجاز ووعدوه بإقامـة الدولـة العربيـة الكـبرى الـتي تشـمل الهـلال الخصيب مع شبه الجزيرة العربية. وثار على الأتـراك عـام (1916) وسـقطت بيـد قواتـه المزودة بالسلاح والمال البريطاني مكة والطائف والمدينة كما ضـرب لـورنس ورجالـه الخـط

الحديدي الذي لا يزال عاطلاً حتى الآن. ثم حاول الشريف حسين أن يصبح خليفة لكن كمال أتاتورك ألغى الخلافة عام (1924). وفي أيلول (1924) تغلبت قوات الوهابيين على الأمير علي في الطائف واستقال الشريف حسين لصالح ابنه علي (وأخوته، فيصل أصبح ملكاً على العراق، وعبد الله على الأردن فيما بعد)، ثم دخلت القوات الوهابية مكة بدون مقاومة في كانون الأول عام (1924) وترأس الحج لأول مرة ابن سعود في صيف عام (1925) ومنذ ذلك الحين ما تزال مكة جزءاً من المملكة العربية السعودية.

ويروى أنه أثناء احتلال مكة أحرقت المكتبة الاسلامية فيها وهي من أكبر المكتبات وأهمها إطلاقاً. إذ كان فيها (60) ألف كتاب نادر و (30) ألف مخطوطة، وكان فيها وثائق خطت قبل أن يبعث الرسول بمئات السنين وبعض المخطوطات التي كتبت بخط النبي محمد بن عبد الله في أيام كفاحه السري وبعضها بخط الخليفة الامام علي بن أبي طالب، كما كانت تحوي مجموعة من آثار ما قبل الاسلام وما بعده وأنواع من الأسلحة التي كانت للرسول وآخر الأصنام التي أطاح بها الرسول وعلي إلخ...

معتقدات العرب قبل الاسلام

كان بين العرب في «جاهليتهم» يهود ونصارى ومسيحيين وصابئة، إلا أنه قد خلط ما بين نصارى ومسيحيين فلم يأت القرآن الكريم ولو مرة واحدة على ذكر لفظة «مسيحي» مع أن غالبية المؤمنين بالمسيح هم مسيحيون وليسوا نصارى، كذلك خلط فيما بعد بين الصابئة من أهل الكتاب الذين ذكروا ثلاثة مرات في القرآن وبين المنداويين صابئة البطاح في العراق وصابئة حران من عبدة النجوم. وكان بين العرب أيضاً الحنفاء الذين ربما كانوا لا يختلفون عن النصارى، وأخيراً كان بينهم وثنيون عبدة الأصنام والأوثان والأنصاب.

ومعرفتنا عن الوثنية في الجاهلية تأتي من المصادر الشعرية، وبعض الأسماء في القرآن والسيرة والبقايا الوثنية في الاسلام الطقسي، وبعض المصادر القصصية. وذلك لأن الأعرابي الوثني لم يطور أدباً ميثولوجياً ولا لاهوتاً ولا فلسفة للكون كما فعل البابليون والكنعانيون والعبرانيون والاغريق وغيرهم. وبقي الدين الأعرابي يمثل أكثر المعتقدات السامية بدائية، يختلف أيضاً عن دين الجنوبيين الحضر/ بل إنه كان ما يزال في مرحلة الأنيمية (Animism). فقد قدسوا الأشجار والحجارة والكهوف والينابيع والآبار كوسائط للاتصال بالآلهة. وقد قدس بئر «زمزم» قبل الاسلام وبئر «عروة» و«غار غبغب» في نخلة و«الحجر الأسود» في مكة وكانت الكعبة مركز الحج منذ عصور قديمة قبل الاسلام كما أحاط بها حتى البعثة نحو (360) صنماً أكثرها مستورد وخاصة من بلاد الشام.

وقد وصف القرآن الكريم في سورة التوبة 97 الأعراب بقوله «الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله والله عليم حكيم» وقد ذكر ثمانية من آلهة العرب منهم خمسة في سورة نوح 23 «ود ، سواع ، يغوث ، يعوق ، نسر» وثلاثة في سورة النجم 19 و 20 «اللات ، والعزى ، ومناة».

ومن الأنيمية عبدوا بعل (روح الينابيع والمياه الجوفية وهو إله الأمطار الكنعاني) وقد بقي هذا الاسم في وصف «أرض بعل» أي التي تروى طبيعيا من مياه الأمطار وليس اصطناعيا بمشاريع الري، و«النخلة» المقدسة في نجران و«ذات أنواط» الشجرة المقدسة في مكة و«شجرة العزى» في نخله و«حجر مربع» يمثل اللات في الطائف و«حجر أسود» يمثل «ذو الشارة» في بترا. كما آمن البدو بالجن، وهم يختلفون عن الآلهة بكونهم أعداء ويسكنون القفار، والمجنون هو رجل يسكنه الجن. وقد زاد عدد الجن في الاسلام لأنه حول بعض آلهة الجاهلية إلى جن (الصافات 158 والأنعام 100) حتى أن بعض الجن استمعوا إلى القرآن فآمنوا به (سورة الأحقاف 29 - 31 وسورةالجن). لكن حضر الحجاز وكانوا نحو 17 % من السكان عند البعثة كانوا قد بلغوا مرحلة عبادة النجوم في وثنيتهم وكان يوجد عندهم الله وبناته هن اللات والعزى ومناه.

1 ـ الله: أي الاله، هو اسم ذات شاع استعماله بين العرب لا للدلالة على الاله الأعلى فحسب إنما للدلالة على عدة آلهة خاصة أيضاً. وقد أدخلت عبادته قبيلة لحيان من سوريا، وهي قبيلة عربية فرع من هذيل قطنت شمال شرقي مكة. وقد استعمل النبي هذا الاسم للدلالةعلى «الله الأوحد» الذي كان يدعو إلى الإيمان به إلهاً واحداً لا شريك له، لا والد ولا مولود. غير أن الله كان من آلهة مكة الرئيسية وقد ذكر في كتابات معينية وسبئية، وكانت لحيان أول مركز لعبادته في القرن الخامس قبل الميلاد في الجزيرة العربية. وكان اسم والد النبي «عبد الله» مما يدل على أن عبادة الله كانت موجودة سابقاً، كذلك أبو بكر الصديق (573 - 634) هو «عبد الله بن أبي قحافة». لقد ثبت محمد عبادة الله وجعلها توحيدية كما فعل موسى من قبل بتثبيت عبادة يهوه التي كانت موجودة سابقاً أيضاً. ويستدل أن أهل مكة قد نظروا إلى الله كخالق وحام لهم من الأخطار وكان من آلهة قريش القبلية، ونجد أن بعض الجاهليين كانوا يتوجون رسائلهم بجملة «باسمك اللهم» أو كما قال قس بن ساعدة نحو (600 م.):

«كلا بل هو الله إله واحد ... ليس بمولود ولا والد»

أو كما يقول الأعشى (ت 629 م.):

«وربك لا تشرك به أن شركه ... يحط من الخيرات تلك البواقيا
بل الله فاعبده لا شريك لوجهه ... يكن لك فيما تكدح اليوم راعيا»

بينما الشاعر «أوس ابن مسجر» (530 - 620) كمشرك يقسم باللات والعزى ثم بالله:

«وباللات والعزى ومن دان دينها ... وبالله أن الله منهن أكبر»

2 ـ اللات: أي الآلهة. كانت كبيرة آلهة الصفويين وأكثرها وروداً في دعواتهم وقد عرفها اللحيانيون، ومن أسمائهم «قيم اللات» و«كاهن اللات»، كما عبدها الأنباط «آلهة للقمر» والتدمريون «آلهة للحكمة» ومثلوها بسمات أثينا الاغريقية وذكرت بين الاله شمس والاله رحيم على أن الثلاثة هم «الآلهة الطيبة»، وابن زنوبيا اسمه «وهب اللات». كما ذكرت اللات في ملحمة كرت الكنعانية، وكان الصوريون يقسمون بحق

عشيرة الصيدونيين بحق اللات «وتذكرت اللات وعده». وقد ذكر المؤرخ هيرودوتس اللات في القرن الخامس قبل الميلاد وجعلها نظيرة «أورانيا».

وكانت اللات من أصنام العرب في الجاهلية، ويقول ابن الكلبي أنها كانت صخرة مربعة في الطائف بنوا عليها بناء، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها. وكانت قريش قبل الاسلام تطوف بالكعبة وتقول «واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى» وكانوا يقولون «بنات الله وهن يشفعن إليه». وكان يمنع في حرم اللات في الطائف قطع الأشجار والصيد والقتل.

ويرى «لتسمان» أن اللات هي أيضاً آلهة الشمس عند الصفويين،ويرى «ديسو» أنها كوكب الزهرة عند عرب الشمال.

3 ـــ العزى: أعظم الأصنام عند قريش. وكانوا يخصونها دون غيرها بالزيارة والهدية ويقول المؤرخون أنها كانت تمثل كوكب الزهرة. وقد ورد اسمها في النقوش اللحيانية «هنعزى» والهاء هي ال التعريف، وقد ورد اسمها في الأسماء الثمودية كما عبدها الأنباط والسبئيون، لكنها وردت في تدمر باسم «عزيزو» المذكر وهو إله كوكب الزهرة.

وأما الذي اتخذ العزى على رواية ابن الكلبي فهو ظالم بن أسعد، وأما موضعها فكان في واد من نخله الشامية يقال له «حراض»، هناك بنى لها بيتاً وكانوا يسمعون فيه الصوت. وأما عند قريش فكانت تعبد بثلاث شجرات سمرات بوادي نخلة، حيث يشتي الرب لحر تهامة بعد أن يكون قد اصطاف في اللات لبرد الطائف. وقد روى ابن الكلبي عن الرسول أنه ذكرها يوما بقوله «لقد أهديت للعزى شاة عفراء وأنا على دين قومي». ومن الأسماء عبد العزى وقد أقسم بها درهم بن زيد الأوسي فقال:

«إني ورب العزى السعيدة   والله الذي دون بيته شرف»

وكان لها منحر ينحرون فيه هداياها يسمى الغبغب. ولما أمر الرسول خالد بن الوليد بمسح معالم العزى فعل وقال:

«يا عزى كفرانك لا غفرانك   إني رأيت الله قد أهانك»

ولما أثاهلها خالد بن الوليد أتى الرسول فأخبره فقال الرسول: «تلك العزى ولا عزى بعدها للعرب أما أنها لن تعبد بعد اليوم».

4 ـــ مناة: آلهة المصائر والأقدار وهي أقدم أصنام العرب، ويقول ابن الكلبي أن صنمها كان منصوباً على ساحل البحر بين المدينة ومكة. وكانت العرب جميعاً تعظمه وتذبح له، ولم يكن أحد أشد تعظيماً له من الأوس والخزرج. قال عبد العزى بن وديعة «إني حلفت يمين صدق برة بمناة عندة محل آل الخزرج». وقد تسموا بأسماء مثل «عبد مناة» و«زيد مناة». وقد عبدها الأنباط باسم «منوتو» والتدمريون باسم «منوت» واللحيانيون باسم «منت» ويرى فلها وزن أن اسمها مشتق من الكلمة الآرامية «منانا» أي النصيب. وقد بقي صنمها معظماً عند الجاهليين حتى عام (8 هـــ) حين خرج الرسول من المدينة عام (630) وهو عام الفتح، فلما سار من المدينة أربع أو خمس ليالي بعث علياً إليها فهدمها وأخذ ما كان لها فأقبل به إلى النبي، وكان فيما أخذ سيفان كان الحارث بن أبي شعر الغساني «ملك غسان» قد أهداهما لها، وقد وهب الرسول السيفين

إلى علي ويقال أن «ذو الفقار» سيف علي المشهور كان أحدهما كما يقال أيضاً أن علياً قد وجد هذين السيفين في «الفلنس» وهو صنم «طيء» حيث أرسله النبي فهدمه.

وقد جاء في القرآن عن الأصنام الثلاثة «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لكم الذكر وله الأنثى تلك إذا قسمة ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» (سورة النجم 20 ـ 23).

5 ـ هبل: أي البخار أو الروح بالآرامية وما هو بالعامية «الهبلة». من أكبر آلهة الكعبة، وقد مثلوه بشكل بشري. وقد وصفه ابن الكلبي بأنه مصنوع من عقيق أحمر ويتخذ صورة إنسان، وكانت يده اليمنى مكسورة، وأدركته قريش بدون يد فجعلوا له يداً من ذهب. أما ابن اسحق فيقول «كانت قريش قد اتخذت صنماً على بئر في جوف الكعبة يقال له هبل» ويروي ابن هشام أن هبلاً قد جلب من مواب من أرض البلقاء إلى مكة على يد عمرو بن لحي ونصبه فيها وأمر الناس بعبادته وتعظيمه.

وهبل هذا هو الذي كان يناديه أبو سفيان بن حرب في معركة أحد سنة 3 هـ (625) يقول: اعل هبل، اعل هبل، فيجيب الرسول: الله أعلى وأجل.

وتزعم أهل الأخبار أن عمرو بن لحي أبو خزاعة هو أول من غير دين إسماعيل ونصب هبل في الكعبة ودعى العرب إلى عبادة الأصنام وسيب السائبة وبحر البحيرة ووصل الوصيلة وحمى الحامي.

6 ـ ذو الشرى (دوشرا): كبير آلهة الأنباط انتقل إلى الثموديين فالصفويين ويرد في النقوش الثمودية والصفوية بالآرامية «دوشرا» والصيغة العربية المستحدثة هي «ذو الشرى» ولم يرد ذكره في النقوش التدمرية. و«أعرا» هو الاسم الآرامي القديم لهذا الاله لذا سمي أيضاً «دوشرا أعرا»، والشرى هي المنطقة الجبلية جنوب بترا وهو صاحبها. وفي بصرى وضع شعار ديونيسيوس (باخوس) إله الكرمة والخمر الاغريقي للاله دوشرا وهو معصرة النبيذ. ودوشرا عند الأنباط هو ذو الشرى عند عرب الجاهلية وصنمه كان لبني الحارث بن يشكر بن مبشر من الأزد. وهو من آلهة الأماكن التي تنسب إلى أماكن خصبة نسبياً في الجزيرة العربية مثل «ذو الخلصة». وقد وصف مكسيموس الصوري هذا الصنم عند الأنباط فقال إن النبطيين اتخذوا صنماً لذي الشرى وهو حجر أسود مكعب طوله أربعة أقدام وعرضه قدمان.

7 ـ ذو الخلصة: من آلهة الأماكن أيضاً وكان ينافس ذا الشرى في مكانته كما نافس حرم مكة، وقد قيل كان ذو الخلصة يسمى الكعبة اليمانية والبيت الحرام الكعبة الشآمية وقد كان مروة بيضاء (حجر صوان أبيض) عليها كهيئة التاج وكانت «بتبالة» بين مكة واليمن، عظمته قبائل خثعم وبجيله وأزد السراة وأقرباؤهم في «هوزان».

وبقي هذا الصنم قائماً حتى هدمه وأحرقه وقتل سدنته جرير بن عبدالله بأمر من الرسول. ومن آلهة الأماكن أيضاً «ذو الكفين» و«ذو الرجل».

8 ـ أساف ونائلة: هما رجل وامرأة، عبدا صنمين لجرهم ووضعا قرب الكعبة قبل أن يدخل عمرو بن لحي الخزاعي آلهته المستوردة من مؤآب. وتقول الروايات أن أسافا هو رجل يقال له أساف بن يعلى وأن نائلة هي بنت زيد من جرهم أيضاً، وقد كان أساف يتعشق نائلة في بلاد اليمن، وأقبلا حجاجاً إلى البيت الحرام فدخلا الكعبة ووجدا

غفلة من الناس وخلوة في البيت، ففجر بها فمسخا حجرين.. ثم أخرجا ليتعظ الناس بهما، ولما تقادم الزمن عبدا، وقد كان أحدهما بلصق الكعبة والآخر في موضع زمزم. ثم نقلت قريش الذي كان بلصق الكعبة إلى جوار الآخر وكانوا ينحرون عندهما. وقد عبدهما قريش كما عبدهما خزاعة ومن حج إلى البيت الحرام من العرب.

وعلى ما يبدو فإن قصتهما كانت تتناقل بين عرب الجاهلية وحتى الاسلام وقد سمعت عائشة تقول «ما زلنا نسمع أن أسافا ونائلة كانا رجلاً وامرأة من جرهم أحدثا في الكعبة فمسخهما الله حجرين» ويفهم من رواية الأزرقي أن أهل الجاهلية كانوا يكسوهما كلما بليت الثياب التي عليهما.

والمهم كما يبدو أن أسافا ونائلة هما تمثالان حجريان لرجل وامرأة من جرهم حيكت حولهما هذه القصة موعظة للناس كي لا يرتكبوا الدعارة في المزارات وأمكنة الأولياء إذا خلا لهم الجو وأن يحترموا كرامة الأولياء ويرهبوهم.

ومن الآلهة أيضاً «سواع» وقد عبدته هذيل، ومرة أقبل ثعلبان وبالا عليه فقال الشاعر:

«أرب يبول الثعلبان برأسه لقد ذل من بالت عليه الثعالب»

ثم كسره ولحق بالنبي. والإله «يغوث» لبني انعم بن عمرو المرادي وكانوا يحملونه معهم في المعارك وقد ورد ذكره في القرآن. ويعوق ونسر وقد ذكرهما القرآن، واليعبوب وعميانس ورضي ومناف وسعد والأقيصر وعائم وسعير والفلس وهو تمثال إنسان لونه أسود، والمحرق والأسحم وعتم.

كان «ود» على صورة رجل و«سواع» على صورة امرأة و«يغوث» على صورة أسد و«يعوق» على صورة فرس و«نسر» على صورة نسر. ومن تقديس الحيوانات، عن عمرو بن لحي الكاهن الخزاعي أنه أول من بحر «البحيرة» وسيب «السائبة» ووصل «الوصيلة» وحمى «الحامي»، والسائبة هي الناقة والبحيرة ابنتها والوصيلة الشاة والحامي هو الفحل من الابل وجميعها تسيب في حمى الاله ويحرم لبنها ولحمها وقص وبرها وركوبها. وجاء في القرآن الكريم في سورة المائدة: «ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون».

كما عبدوا شجرة عند الحديبية قطعها الخليفة عمر بعد أن نمي أن الناس تزورها وتشرك بها فخشي أن تعبد.

كما كان لقريش شجرة عظيمة خضراء يقال لها «ذات نواط» يأتونها كل سنة فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها.

كما عبد العرب الجن على أنهم أرواح خفية قادرة على التشكل بصورة مختلفة وكان شائعاً أن الجن قد خلقوا من قبل آدم. وفي عقيدة العرب أن الجن عشائر وقبائل تتقاتل وتتصالح لها ملوك وسادات قبائل تحفظ العقود وتعقد الأحلاف، من هذه القبائل «بنو غزوان».

ولإرضاء الجن وتجنب أذاها قدم الجاهليون الذبائح لها وإذا أراد إنسان السكن في بيت جديد أو استخراج ماء من بئر حفرها وخاف من وجود الجن فيها ذبح ذبيحة

يرضي بها الجن فلا تصيبه بأذى وقد أبطل الاسلام ذبائح الجن. وأكثر مواقع الجن في نظر الجاهليين هي المواقع الموحشة المظلمة والمقفرة والفجوات العميقة والمغاور والآكام والأودية وكلها أماكن رهيبة. وأشهر أسماء هذه الأماكن هي «جن البدي» و«جن البقار» و«جن ذو سمار» و«جن عبقر» (ومنه كلمة عبقري وعبقرية).

كذلك عبد العرب الملائكة أما إبليس فهو عدو الله والإنسان وكان له خمسة أولاد هم «تبر صاحب المصيب» و «الأعور» صاحب الزنا و«مبسوط» صاحب الكذب و«داسم» صاحب البغضاء والمفرق بين الزوجين و«زلنبور» صاحب الخصومة وأهل السوء.

كما آمن العرب بوجود الغول والعفريت والمارد وكان لديهم كهنة وعرافات. ومن أشهرهم شق وسطيح وخنافر وسواد وطريفة كاهنة اليمن التي أنذرت بخراب سد مأرب وسلمي وعفيراء الحميريتين وزبرا الحضرمية وزرقاء اليمامة – ومما جاء في كتب الأخبار أنه كان للكهان أسلوب خاص في كلامهم عند التنبؤ والتكهن هو أسلوب السجع ولذلك عرف بـ «سجع الكهان» يقول سطيح الكاهن الغساني «والضياء والشفق والظلام والغسق. ليطرقنكم ما طرق».

وكما يبدو واضحاً أنه كان لعرب الجاهلية مئات الآلهة بلغت (360) صنماً في حرم مكة بينها صورة إبراهيم وعيسى بن مريم وأمه وصور الملائكة – مما يدل على تضارب غريب في عبادة قريش، عبادة تمثل الوثنية بالمعنى العادي إلى جانب صور الأنبياء والملائكة وعيسى بن مريم وأمه في بيت واحد وكأنهم مستعدون لتقبل أي شيء دون النظر إلى ما يمثل من آراء وفلسفة وأخلاق ومثل إما عبادة مباشرة أو باسم الوساطة والشفاعة لإله أعلى. لذلك نجد القرآن الكريم يدل على ذلك بإنكار اتخاذ عيسى وأمه إلهين من دون الله.

الحجر الأسود

من بين المعبودات في العصور الوثنية حتى بعد ظهور الأديان السماوية الثلاث ولكن قبل تقدم علم الفلك والعلوم الطبيعية كانت الحجارة النيزكية السوداء.

لقد اهتم الانسان منذ القديم بالفلك والتنجيم وعرف الكواكب السيارة كما تأمل النجوم الثابتة وتخيل فيها صوراً ترمز لبعض الكائنات والحيوانات في كل مجموعة من هذه النجوم. والمعروف منها الآن نحو (88) تجمعاً نجمياً أو برجاً (Constellation) وأول من سبر هذا العلم ودرس الأفلاك هم البابليون قبل (3000 ق.م.) واقتبس الكنعانيون مبادىء هذا العلم من البابليين وأعطوه للاغريق وبرز بين الاغريق تاليس وهو من تحدر كنعاني وهو أبو الفلسفة.

وقد أطلق على هذه التجمعات النجمية أسماء الصور التي تخيلوها ونجد في الكتابات المسمارية العائدة إلى عهد آشور بانيبال انهم كانوا يعرفون 36 تجمعاً منها (12) تجمعاً شمالياً و(12) في فلك البروج (Zodiac) و (12) جنوبيا.

وفلك البروج هو دائرة ترسمها الشمس في سيرها في السماء ويسمى أيضاً الدائرة الكسوفية (Ecliptic) والأبراج هي /12/ صورة ضمن /360/ درجة كل واحد في /30/ درجة قود سموها برج الحمل (Aries) والثور (Taurus) والجوزاء (Gemini) والسرطان (Cancer) والأسد (Leo) والعذراء (Virgo) والميزان (Libra) والعقرب (Scorpio) والقوس (Saggitarius) والجدي (Capricornus) والدلو (Aquarius) والحوت (Pisces).

كذلك عرف الأقدمون النجوم المذنبة وأثارت المذنبات مخاوفهم من الأوبئة والمجاعات والحروب. والمذنبات جزء من النظام الشمسي ويبدو الآن أنها مصدر رئيسي للنيازك. وأبعاد المذنبات عن الشمس تختلف من مذنب إلى آخر، وقد كان ظهور المذنبات في فترات غير محددة أو متوقعة مصدر قلق عند الانسان، كما كان مصدر اهتمام ودراسة، حتى أن مذنب هالي (Halley's Comet) الذي اكتشفه هذا العالم الانكليزي عام (1682) وظهر عام (1910) هو نفسه قد عرف منذ عام (240 ق.م.) وقد ظهر في الأعوام (1456 و 1531 و 1607 و 1682 و 1759 و 1835 و 1910) وينتظر أن يعود إلى الظهور عام (1986) أي أنه يظهر كل نحو (76) سنة.

أما النيازك فهي كتل مادية مصدرها الأساسي هو المذنبات بما فيه مذنب هالي، فعندما تقترب المذنبات من الأرض والشمس تتفكك أجزاء منها وتنجذب نحو الأرض وتسير بسرعة هائلة تتراوح ما بين (10 ـ 70) كم/الثانية ثم تصطدم بالغلاف الجوي للأرض فتتباطأ سرعتها حتى (100 ـ 200) م/ثا بسبب الاحتكاك الشديد بالجو (Atmosphere) وتتحول طاقتها إلى حرارة ونور مع تفككها إلى ذرات. وإذا كانت سرعة النيزك 70 كم/ثا تبلغ إضاءته حدها الأعلى على ارتفاع نحو 100 كم عن سطح الأرض، لأن درجة الاضاءة تتوقف على الحجم والسرعة. والأكثرية الساحقة من النيازك تحترق في طبقات الجو العليا دون وصول شيء منها إلى الأرض وتبدو عندها شهب Meruov تتساقط. أما إذا كانت الكتلة كبيرة فيمكن أن يصل جزء منها إلى الأرض قبل أن يتم الاحتراق والتفكك، وهذه الكتلة الواصلة هي النيزك (Meteorite) والنيازك على أربعة أنواع من حيث التركيب فهي إما حديد أو حجر حديدي أو حجر أو زجاج (Tektites) وأكبر نيزك حديدي نزل في جنوب غرب أفريقيا وكان وزنه 60 طناً، وأكبر نيزك حجري نزل في الولايات المتحدة وكان وزنه نحو طن واحد، إلا أنه يمكن للنيزك أن يكون صغيراً كحبة الحمص مثلاً أو أن يصل إلى الأرض كغبار كوني. والكتل النيزكية المعروفة حتى كانون الأول عام (1965) كان عددها (1791) نيزكاً.

والمدونات المعروفة للنيازك تعود إلى عام (600 ق.م.)، ويمكن أن ينزل منها زخات من آلاف النيازك في الساعة دون الوصول إلى الأرض. وقد حدثت زخة من النيازك في (12 ت 2 عام 1833) في شرق أمريكا الشمالية من مئات الآلاف في ليلة واحدة دون أن يصل منها شيء إلى الأرض، وقد تبين أن مصدرها هو برج الأسد، كما تبين أن زخات برج الأسد تحدث كل 33 عاماً وقد حدثت في أعوام (1866 - 1899 - 1932) كما تبين من التدوينات القديمة أنها حدثت عام (902 م.).

ولئن كانت النيازك تثير اهتمام العالم الكيميائي والمعدني والفيزيائي كما تثير اهتمام الفلكي ومهندس الاتصالات اللاسلكية، فإنها قد أثارت قبل هؤلاء اهتمام رجال الدين والفكر الديني لأنها كتل نازلة من السماء فهي بالتالي مقدسة أو جديرة بالعبادة. وقد اشتهر منها في شرقنا الأدنى ثلاثة من الحجارة النيزكية السوداء وهي حجر الأنباط وحجر حمص وحجر مكة الذي ما زال موضع التقديس حتى الآن. يضاف إليها حجر أسود كان في أفسس.

الحجر الأسود عند الأنباط: كان على رأس البانتيون النبطي «دوشرا» أو ذو الشرى، إله الشمس. وقد عبد بشكل حجر أسود وضع في كعبة. وقد وجد مقام الحجر الأسود هذا في خربة التنور، جنوب شرق البحر الميت ويرجح أنه قد بني في القرن الأول قبل الميلاد.

الحجر الأسود في حمص: حجر نيزكي مقدس يمثل بعل حمص، إله الشمس حيث عبدوه. كان مقره في معبد فخم مزين بالذهب والفضة والجواهر، وكان كهنته من عائلة باسيانوس. وعندما أصبح هيليوغابالوس كاهن بعل حمص امبراطوراً على روما (218 - 222 م.) دخل العاصمة الرومانية ناقلا معه حجره المقدس في عربته، وفرض عبادته على الامبراطورية الرومانية، فقدمت له الذبائح، وسكبت على مذبحه العطور والخمور الفاخرة لتختلط بدماء الذبائح. ولما اغتيل هيليوغابالوس (أيلاغابالوس) وتسلم ابن خالته الكسندر سيفيروس الحكم عام (222 ــ 235 م.) أمر برد الحجر الأسود إلى حمص، لأنه تأثر سراً بالمسيحية، وبنيت في عهده أول كنيسة. وبدلاً منه أقام في مصلاه الخاص تماثيل نصفيه تمثل زرادشت وإبراهيم والمسيح. ثم أصبح معبد الحجر الأسود كنيسة فيما بعد، وحولت في العصر الاسلامي وبعد ثورة حمص ضد مظالم العباسيين إلى جامع هو الجامع الكبير (855 م.).

الحجر الأسود في مكة: حجر نيزكي آخر وضع في الجدار الجنوبي الشرقي من الكعبة، يقبله الحجاج في موسم الحج.

والكعبة بناء وثني قديم قبل الاسلام ذي شكل مكعب كان بالأصل بدون سقف، وضع فيها هذا الحجر النيزكي للعبادة (Fetish) وقطره نحو 30 سنتم.

أعيد بناء الكعبة في فجر الاسلام عام 608 م يحيط بها حرم واسع يحج إليها الناس ويقدمون الذبائح. وحسب الميثولوجيا الاسلامية بنى آدم الكعبة على نمط سماوي. وبعد الطوفان أعاد بناءها إبراهيم وإسماعيل (سورةا لبقرة 124 - 127) وسيطرت عليها سلالة إسماعيل حتى حل مكانهم بنو جرهم ثم بنو خزاعة الذين أدخلوا عبادة الأوثان. وأخيراً تسلمته قريش في القرن السادس للميلاد وتابعت خط إسماعيل. ولما كان إبراهيم يقوم بالبناء «تسلم الحجر الأسود من جبرائيل» فوضعه في الجهة الجنوبية الشرقية من البناء وصار الحجاج يقبلونه. وكان بنو قريش يستغلون الكعبة تجارياً.

ولما دخل النبي محمد مكة في أواخر كانون الثاني عام (630)م حطم جميع الأصنام وكانت نحواً من 360 صنماً قال «قل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا (إسراء 17 : 80) ورغم ذلك أبقى على واحد منها وهو الحجر الأسود كما وضع غطاء

أو يده على صورة المسيح والعذراء وأبقاهما دون الآخرين. وقد أمر بالحج إلى الكعبة وتقبيل الحجر الأسود نحو (628 م.).

ولما طالب عبد الله بن الزبير بالخلافة أرسل يزيد بن معاوية حملة على المدينة بقيادة مسلم بن عقبة فيها الكثير من السوريين. كان مسلم شيخاً هرماً وعسكرت قواته شرق المدينة ودارت رحى المعركة في (26 آب عام 683م.) وانتصر الأمويون ونهبوا المدينة: ثم اتجه الجيش إلى مكة ومات مسلم في الطريق فتسلم القيادة الحسين بن نمير السكوني. وكان ابن الزبير قد لجأ إلى الحرم. فدكوا مكة بالمنجنيق ودمر الحرم. واحترقت الكعبة وكسر الحجر الأسود لثلاثة أجزاء كبيرة وقطع أخرى صغيرة أعيد ربطها جميعاً بشريط من الفضة فيما بعد.

ولما قويت شوكة القرامطة في العهد العباسي قطعوا طرق الحج من العراق بقيادة أبي طاهر سليمان. ثم احتل أبو طاهر مكة عام (930 م.) وخرب الكعبة ودك أركانها ليجهز على «الكفار عبدة الأحجار» كما أن أحد أصحاب أبي طاهر دخل بيت الله الحرام على جواده وصاح بالموجودين فيه «أيها الحمير إنكم تسجدون للحجارة وتطوفون حولها وترقصون إكراماً لها. وتمسحون وجوهكم بها وفقهاؤكم الذين تتفقهون عليهم لا يعلمونكم شيئاً خيراً من هذا فلم يبق لحو هذه الخرافات إلا هذه السيوف والسلام» فاتهم كتبة الاسلام القرامطة بالكفر والزندقة وقد سرقوا الحجر الأسود وبعد غياب عشرين سنة أعيدت هذه الذخيرة المقدسة إلى الكعبة عام (951 م.) بأمر من الخليفة الفاطمي المنصور ولا تزال هناك.

ويبدو من القصص أن النبي احتفظ بالحجر الأسود لأسباب سياسية فحين اختلفت القبائل فيمن يضع الحجر في مكانه عند ترميم الكعبة كان من فطنته أنه وضعه على عباءة فحمله الجميع إلى موضعه وكان النبي يبغي توحيد العرب بدل فرقة وخصومة، كذلك نجد أن الخليفة عمر قد أبقاه وهو يعرف أنه «لا ينفع ولا يضر» إبقاء على ما فعله النبي وتجنباً لنقضه ـــ وفي آراء متطرفة عن الامام جعفر الصادق أن المفضل سأله عن هذه البناية التي يسعى إليها المسلمون ظانين أنها بيت الله (عن الكعبة) فأجابه الصادق بقوله: إن هذا رأس الكفر وهي آلة الأصنام لأنها حجارة كالأصنام ويسعون إليها بالقرابين من ضعف عقولهم وقلة فهمهم».

الحج ومراسمه:

كما مر فإن القصص الاسلامية تنسب إلى إبراهيم وإسماعيل بناء الكعبة وأن جبريل قد أعطى الحجر الأسود لإبراهيم وأن الله تعالى قد أمر إبراهيم أن يؤذن في الناس بالحج. وهكذا أصبحت مكة محجاً للناس فبيتها مبارك وهدى للعالمين أن فيه مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً. وقد حج العرب إلى الكعبة إن في الحجاز كانوا أم خارجها وطافوا حول البيت وأقسموا به لأنهم قدسوه يقول زهير بن أبي سلمى:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله ... رجال بنوه من قريش وجرهم

كان العرب في جاهليتهم يحجون إلى الكعبة من جميع أرجاء الجزيرة العربية فيحج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم ويدينون للحمس من قريش كما حج إليها بعض الهنود والفرس.

ويحدث الأزرقي عن جده أن العرب كانت تطوف بالبيت عراة إلا الحمس أي قريش وأحلافها المتشددين في دينهم. أو يأخذون ثياباً من الحمس إما إعارة وإما إجارة. وكانت سنّة الطواف أن يبدأ الحاج باساف ثم يستلم الركن الأسود ثم يطوف عن يمين الكعبة سبعاً ثم يستلم الركن ثم نائلة فيختم بها الطواف (راجع أساف ونائلة من أصنام جرهم) ثم يخرج.

وكانت هناك عادة تتبعها النساء إذا ما أحرمت رجالهن كامتناعهن عن النسج والغزل وسك السمن وأما عادات الحمس في إحرامهم فكانت بعدم مخض اللبن وأكل الزبد والسمن ولا يلبسون الوبر ولا الشعر ولا يغزلونهما ولا يستظلونهما ما داموا حرماً.

ويعظمون الأشهر الحرم، والأشهر الحرم هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، لا تستحل فيها العرب القتال ولا يخفرون به ذمة ولا يظلمون فيها ويطوفون بالبيت وعليهم ثيابهم وكانوا يخرجون من نقب ينقبونه في ظهر بيوتهم ويدخلون منه عند عودتهم هذا إذا كانوا أهل مدر. وعندما جاء الاسلام أبطل هذه العادة في سورة البقرة (189) «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقي واتوا البيوت من أبوابها». وكانت بعض القبائل من العرب يطوفون بالبيت عراة الرجال بالنهار والنساء بالليل وهم يقولون. لا نطوف بالثياب التي اقترفنا فيها ذنوبنا. وكانت المرأة إذا ما طافت عريانة تضع يداً من الأمام والأخرى من الوراء.

ويروي الأزرقي أيضاً أن إبراهيم الخليل بعد أن أتم بناء البيت طلب إليه جبريل أن يطوف وإسماعيل به سبعاً وبعد هذا الطواف صليا خلف المقام ركعتين أرى جبريل إبراهيم المناسك كلها الصفا والمروة ومنى ومزدلف وعرفة. ثم وافق القرآن على «أن الصفا والمروة من شعائر الله» (البقرة 158) وكانوا يسعون بين الصفا والمروة.

وأما رمي الحجارة فقد رووا عن ابن عباس أن الشيطان عرض لابراهيم عند جمرة العقبة فرماه حصيات حتى ساخ في الأرض ثم عرض له عند الجمرة الثانية ـ ثم الثالثة فرماه بسبع حصيات حتى ساخ في الأرض. قال ابن عباس: الشيطان ترجمون وملة أبيكم تتبعون.

ويقال أن قضاعة كانت تستحل الأشهر الحرم.

وينسب إلى أسعد الحميري أنه كان أول من كسا الكعبة ـ وكان الناس في الجاهلية يكسون الكعبة حتى جاء الاسلام فأقر كسوتها ويقول صاحب فقه السنة.. (كُسيَ البيت في الجاهلية الانطاع ثم كساه رسول الله الثياب اليمانية وكساه عمر وعثمانَ القباطي ثم كساه الحجاج الديباج).

وقد اعتبرت قريش الأرض المحيطة بالكعبة مكاناً مقدساً وجعلته حرماً آمناً لا يحل في القتال ويحرم على المحرم والمقيم صيد الحرم وتنقيره وقطع شجره وقطع الرطب من النبات.

كما كانت أشهر الحج عند الجاهليين أشهراً حرماً يحرم فيها القتال ويغتنم العرب هذه الهدنة المقدسة فيشدون الرحال إلى مكة يشهدون الأسواق التي كانت تقام قبل الحج وهي أسواق تجارية أدبية كسوق عكاظ الذي أصبح موئلاً للأدب والشعر تتسابق فيه

القبائل لاظهار نوابغها من شعراء وخطباء، ومتى فرغ الناس من هذه الأسواق وقفوا في عرفة ثم يأتون مكة يؤدون مناسك الحج ومن ثم يعودون إلى ديارهم آمنين.

وقد تقاسم القرشيون مناصب المراسم وهي (السدانة والسقاية والرفادة وغيرها).

الأديان الموحدة في الحجاز قبل الاسلام

في القرن الأخير قبل الاسلام أو قبل ذلك كانت الحجاز في نهضة فكرية ودينية واقتصادية شعت إليها من مراكز في بيزنطية وسوريا وفارس والحبشة وعن طريق الاحتكاك بالغسانيين واللخميين واليمنيين. غير أن الحجاز لم تبلغ السوية الحضارية لتلك المراكز الاشعاعية لأن الحضارة بكل مقوماتها لا تتبدل في زمن قصير، ولأن الخلفية الحضارية والفكرية والتراث الاجتماعي لأية بنية تلعب الدور المحافظ في عملية التطور، فلا يسمح بالقفزات الحضارية أو «حرق المراحل». وربما حصل التبديل الكبير في حياة أفراد ولكن ليس في حياة الجماعة في مدة وجيزة. وكانت قد دخلت من قبل إلى الحجاز الدعوات الدينية التوحيدية التي عرفت بعد الاسلام «بأصحاب كتاب» و«وأهل الذمة» من يهود ونصارى ومسيحيين وصابئة عن طريق الهجرات والتبشير. غير أنه حصل خلط ما بين المسيحية والنصرانية في القرآن ذاته ولم يذكر القرآن ولو مرة كلمة مسيحي أو مسيحية أو مسيحيون بل نصارى ومع امتداح النصارى بشكل خاص. وكان من الطبيعي أن يوجد فيما بعد من كل فئة دينية طائفتان على الأقل ــ المهاجرون أصحاب الدعوة الأصليين والعرب الذين يعتنقون هذه الأديان متأثرين بالجاليات المهاجرة إلى الحجاز.

وبما أن الخلفية الحضارية والفكرية تلعب دوراً هاماً محافظاً فلا ندري لأي مدى كان العرب المؤمنون الجدد بهذه الأديان يمثلون عقائدها وطقوسها الأصلية ولأي مدى كانت عقيدتهم سطحية مضافة إلى العقائد السابقة. وهذا واضح في كلامنا عن أصنام الكعبة التي حوت طيفاً من العقائد مثلتها بدءاً بالأصنام الجرهمية مروراً بالأصنام المستوردة حتى نصل إلى الملائكة والأنبياء والقديسين المعترف بهم، مما يدل على عقيدة واهية تجمع المتناقضات لأنها غير مبنية على أسس فلسفة ومنطقية ثابتة. ونجد نفس الشيء بعد ظهور الاسلام عندما دخل كثيرون تحت راية الاسلام دون إيمان أو عقيدة أو تقيد بشرائعه. «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا. ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم إلخ»... (الحجرات 14). وبما أن فهم الإطار التاريخي للأحداث هام يجب إعادة تفسير بعض المسائل الدينية القديمة العالقة، فالاتهامات الواردة في القرآن الكريم ضد أصحاب الأديان المعترف بها في الجزيرة العربية وأنهم لا يهتدون حتى يكتبهم المنزلة إنما بالتأكيد يقصد بها أولئك العرب هناك. وما علق بعقائدهم الجديدة من رواسب قديمة يرفضها الاسلام الموحد، خاصة وأن أبعد مكان وصله النبي خارج الجزيرة العربية هو بصرى يوم قدمها وهو في الثانية عشرة من عمره إلى دير بحيرا ولم يحتك بالقائمين على هذه الأديان في الخارج.

اليهودية:

لقد عرف اليهود في الجزيرة العربية قبل الاسلام كما مر خاصة في الكلام عن تاريخ يثرب. وقد سكن اليهود مواقع شتى، فقد نزحوا إلى شمال جزيرة العرب وداخلها عند تدمير أورشليم على يد الرومان عام 70 م وأعقب تلك الهجرة هجرات وكونوا جاليات صغيرة على الطريق التجاري في واحات الحجاز في الحجر والعلا وتيما وخيبر ويثرب وفدك كما في اليمن واليمامة والعروض. وكان تجار منهم يقيمون في مكة.

عمل اليهود في الصيرفة والتجارة والزراعة وقد أتوا إلى موطنهم الجديد بتقاليد قومهم الدينية والحضارية واتخذوا العربية لغة لهم لكنهم لم يسيطروا كما سيطروا في اليمن. وأصبح حولهم عرب متهودون من مختلف القبائل وتهود قوم من الأوس والخزرج بعد خروجهم من اليمن لمجاورتهم بني قريظة والنضير وأهل خيبر وبني بهدل هربوا من الشام من وجه الروم وأقاموا في بطحان ومهزور فانضموا إلى بعض اليهود السابقين في المدينة وجوارها. وأن الأوس والخزرج عند أول نزوهم المدينة حاربوا يهودها بمعونة الغساسنة ففتكوا بعلية القوم من اليهود بغية الاستيلاء على زرعهم ونخيلهم ثم قلدهم بذلك مالك بن عجلان فقتل أكثر من ثمانين رجلاً من اليهود الكبراء فصور اليهود مالكا في معابدهم وكانوا يلعنونه كلما دخلوها.

وكان يقيم في «مقنا» عند ظهور الاسلام قوم من اليهود اسمهم بنو جنبة، وقد كتب إليهم الرسول يدعوهم للاسلام أو إلى دفع الجزية.

وكان يهود الحجاز قبائل وعشائر وبطونا منهم ــ بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زغورا وبنو قينقاع وبنو النفير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو القصيص، ويرى د.جواد علي أن يهود الحجاز لم يكونوا بدوا ينتقلون من مكان إلى آخر بل كانوا حضراً استقروا في الأماكن التي نزلوا فيها يمارسون مهن أهل المدن.

ولم تكن قبائل اليهود في وئام ووفاق دائم مع بقية أبناء دينهم وقد فتك بنو النضير وبنو قريظة ببني قينقاع ربما لأسباب عنصرية لأن أوليري يرجح كون بني قينقاع من العرب المتهودين ولم ينشيء اليهود ممالك يهودية في الحجاز بل كانوا شبه مستقلين في حماية سادات القبائل في أكثر الأحيان يعقدون معهم المحالفات ويؤدون لهم الأتاوات. وكان اليهود يخضعون في نظامهم السياسي والاجتماعي لرؤسائهم وساداتهم وأحبارهم يدفعون لهم ما هو مفروض عليهم أداؤه كل عام.

وقد اشتهر من كتب اليهود عند العرب وفي القرآن التوراة والزبور أي المزامير ولعل اليهود قد استنسخوا كتبهم الدينية بلغة العرب فهم يعرفون الكتابة الجيدة بشهادة الشاعر الأسود بن يعفر الذي يذكر يهوديين مجيدين من تيماء أو من مدين قد خطا سطوراً من مهرقيهما وقد عرف يهود يثرب السحر فلجأ العرب إليهم يأخذون الرقى والتعاويذ.

وحافظ يهود الجزيرة على يوم السبت كما عرف العرب من اليهود بعض أحكام دينهم كالرجم بالنسبة للزنا والابتعاد عن النساء في المحيض واستعمال «الشبور» أي القرن لدعوة المؤمنين إلى الصلاة وفي الأعياد والاحتفالات والحوادث المهمة الطارئة، وكانوا يسدلون شعورهم وغيرهم يفرقون رؤوسهم.

وقد وردت لفظة يهود معرّفة في القرآن في سورة البقرة 113 و 120 وسورة المائدة 18 و 51 و 64 و 82 والتوبة 30 والسور الثلاثة مدنية. ووردت بأشكال أخرى بدون الـ التعريف أو هودا. غير أنه يهاجم اليهود خاصة في سورة المائدة 82 «لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون». وقد أجلى عمر بن الخطاب اليهود من الجزيرة العربية عام 635م.

المسيحية:

دخلت المسيحية الحجاز لأسباب مختلفة عن اليهودية كما اختلفت مسلكاً. فقد كان دخولها جزءاً من الحركة العامة لنشر الدين الجديد وكانت تحددها فكرة تسمو على الاعتبارات القومية وهي انتشار الانجيل. وقد اعتنقت المسيحية مملكتا الغساسنة (على المبدأ المونفيزي) واللخميين (على المبدأ النسطوري) في الشمال ونجران في الجنوب (على المبدأ المونوفيزي) فقامت جاليات مسيحية في الحجاز كما في اليمن. لكن ا لمسيحيين لم يكونوا من مذهب واحد وكانت الانشقاقات قد حدثت سلفاً في الكنيسة وإلى جانب المؤمنين بالطبيعتين في المسيح (Duophysite) كان أصحاب الطبيعة الواحدة (Monophysite) وأتباع أصحاب المذاهب الغنوصية المختلفة بما فيهم المشبهة (Doketae). وبما أن مظهر الانشقاق فلسفي لم يكن العرب يهتمون بالفروق بين المذاهب المسيحية حتى أن القرآن نفسه أطلق اسم «نصارى» على كل أتباع المسيحية رغم ما بينها من فوارق وخاصة الفرق بين المسيحيين والنصارى ولم يذكر كلمة مسيحي ولو مرة واحدة.

وفي عام الوفود (631 م.) ذهب وفد من مسيحيي نجران إلى النبي يجادلونه في طبيعة المسيح كما احتفظ مسيحيو نجران بدينهم مخالفين بذلك الأكثرية الذين دخلوا الدين الجديد.

النصرانية:

إن النصرانية بين المذاهب الموحدة قد برهنت في النهاية أنها الوحيدة التي أثرت على مجرى التاريخ — ليس في الجزيرة العربية فحسب بل في العالم. ذلك أن الإسلام وما أتى به من تغيرات جذرية في تاريخ الجزيرة وما تبع ذلك من فتوحات غيرت معالم حضارات شعوب عديدة لم يكن سوى امتداد للمذهب النصراني بعد تسييسه وتعريبه. وبذلك لم يكن النبي نقيضاً للمسيح، كما يظن البعض، بل لبولس الذي فلسف النصرانية. ويجعل القرآن النصارى الناس الأقرب مودة للذين آمنوا، ويمكن القول بأن النصرانية الأصلية قد انشطرت إلى فرعين كبيرين واحد مفلسف وآخر مسيس.

المذهب النصراني:

عرف يسوع المسيح باسم «يسوع الناصري» في سيرته ورسالته في البيئة اليهودية. ذلك لأنه من مدينة الناصرة في الجليل (جليل الأمم). وعندما دخل أورشليم في ختام دعوته تساءل الغرباء من الناس من هذا؟ فكانت الجموع تقول: «هذا هو النبي يسوع الذي من الناصرة في الجليل». (مق 21 : 10 و 11). إن الذين لم يؤمنوا به ظلوا يهودا يتبعون الناموس اليهودي وهم الذين صلبوه وأما الذين آمنوا به من اليهود فكانوا

يسمون «نصارى» (Nazarenes). وأول من تجاوب مع الدعوة الجديدة سكان الجليل من المتهودين الجدد الذي أجبرهم أريستوبولس المكابي (105 ــ 103 ق.م.) على التهود. ولما انتشرت الدعوة المسيحية في باقي سوريا خارج البيئة اليهودية في الجنوب أخذ الناس يسمون المؤمنين به «مسيحيين» وهنا يذكر سفر أعمال الرسل تاريخ تأسيس المسيحية «وفي أنطاكية أولاً دعي التلاميذ مسيحيين» (أعمال 11 : 26). وكانت أنطاكية العظمى آنذاك عاصمة سوريا. ومنذ ذلك الحين شاع اسم مسيحيين مع الدعوة في ولايات الامبراطورية الرومانية وغيرها. وهكذا صار اسم تلاميذ المسيح من اليهود «نصارى» ومن الأمميين «مسيحيين». وكانت الخلفية الأيديولوجية للنصارى هي «الناموس» وأما الخلفية الأيديولوجية للمسيحيين فهي «الهللنستية». وقد جر هذا إلى الانقسام في الاسم وفي العقيدة.

إن موقف الدعوة المسيحية من الشريعة الموسوية (التوراة) هو السؤال الضخم الذي هز المسيحية في العهد الرسولي، فالنصارى يقولون بإقامة التوراة والانجيل معاً بلا تفريق لأن يسوع لم يأت لينقض الناموس والأنبياء بل ليكمل (متى 5 : 17) بينما المسيحيون يقولون بالانجيل وحده من دون الشريعة الموسوية والختان ويأخذون من العهد القديم فقط ما يرونه شاهداً لصحة المسيحية.

وتزّعم النصارى «يعقوب أخو الرب» الذي اعتبر فيما بعد أول أسقف على أورشليم وأعدم عام 62م وتزعم المسيحيين بولس رسول الأمم منذ هدايته الذي فلسف النصرانية وأعدم عام 67م. وانفتحت معركة تحرير المسيحية من الموسوية وفصلها عنها. وأصبح النصارى «أمة وسطاً» يحاربون على جبهتين ضد اليهود المحافظين لأنهم لم يعترفوا بالمسيح وضد المسيحيين لأنهم لم يعترفوا بالناموس. بل كان النصارى يتابعون تحركات بولس الرسول ليبشروا الكنائس الجديدة بضرورة التقيد بناموس موسى والختان. كما مارسوا هم الختان والمعمودية معاً. وقد دعا بولس هؤلاء النصارى بـ «الأخوة الكذبة الذين اندسوا خلسة في ما بيننا» بينما النصارى المتزمتين اعتبروا بولس جاحداً مرتداً عن الناموس (أيرناوس ضد الهرطقات) فانعقد مجمع الرسل عام 49 م في أورشليم بحضور يعقوب وبولس والوفدين المتنازعين (نصارى ومسيحيين) وحسم بطرس الخلاف وأفتى بتحرير المسيحيين من غير اليهود من شريعة موسى وسكت الجمهور وانتصرت نظرية بولس وقبل يعقوب «أن لا يثقل على الراجعين إلى الله من الأمم بل يرسل إليهم أن يمتنعوا عن نجاسات الأصنام والزنى والمخنوق والدم» (أعمال 15 : 1 ــ 20). ورغم محافظة النصارى على التوراة فإنهم لم يخلصوا من اضطهاد اليهود. فقد أسر بولس عام 59م في قيصرية فلسطين ثم استأنف دعواه ونقل إلى روما حيث أعدم عام 67 م في اضطهاد نيرون. وعام 62 استشهد يعقوب وانتقل الحزب الفريسي النصراني إلى جعل المسيح من منزلة موسى فرد عليهم بولس في الرسائل الكاثوليكية مع الرسالة إلى العبرانيين حيث يجعل المسيح كاهناً إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. ويقلل من شأن الكهنوت اللاوي وافتقاره إلى الكمال.

ولما قامت ثورة اليهود على الاستعمار الروماني عام 66 - 70م كانت المسيحية قد انشقت إلى نصارى من بني إسرائيل وغيرهم من اليهود ومسيحيين من الأمم (جوييم goyim) وقبل حصار أورشليم جاء تحذير النصارى لأن ساعتها قد حضرت فهرب

النصارى من أورشليم واليهودية إلى شرق الأردن وأقاموا في بلـه وكوخبـه وسلموا من الحصار والدمار ودمر الرومان أورشليم.

وبعد سحق الثورة وخراب المدينة وهيكلها عام 70 م على يد تيطس (Titus) واستقرار الأمور سمح الرومان بإعادة بناء المدينة لكن لم يسمحوا بإعادة بناء الهيكل بل بنوا على أنقاضه معبداً لجوبتر كابيتولينوس (Jupiter Capitolinus) كما دمروا أديرة قمران للرهبان الأسنيين الذين خبأوا كتبهم في المغاور حتى اكتشفت عام 1947 وتعرف الآن باسم «لفائف البحر الميت» وأطلق اسم فلسطين على أرض كنعان من قبل الامبراطور فاسبا زيانوس كما آمن عدد كبير من اليهود لأن نبوة المسيح عن خراب الهيكل قد تحققت.

وفي عام 76 م عاد معظم نصارى أورشليم إليها وإلى اليهودية وعلى رأسهم سمعان أخو يعقوب ودخل كثيرون من الأسينيين في النصرانية مما زاد في تهويدها وعرفوا باسم الأبيونيين (أبيونيم Ebionim) . أي الفقراء. وأصبح اسم أبيونيم ونصارى مرادفا تقريبا وكلاهما استعمل «انجيل متى الآرامي» المكتوب بالحرف العبري مع اختلاف بسيط. هذا الأنجيل فقط دون باقي الأناجيل. في حين أنه لدى المسيحيين أربع أناجيل قانونية مع أعمال الرسل والرسائل في العهد القجديد. كذلك آمن الأبيونيون بأن يسوع هو ابن يوسف ومريم بولادة طبيعية بينما غيرهم من النصارى آمنوا بالولادة المعجزة من عذراء. كذلك رفض الأبيونيون ألوهية المسيح ووصفوه بأنه «ابن الإنسان» والنبي الحقيقي ومارسوا المعمودية والوضوء والختان وجعلوا أورشليم قبلتهم أثناء الصلاة. ومن لم يقبل يسوع من الأسينيين من أتباع يوحنا المعمدان أصبحوا الصابئة. (كذلك ظهرت تعاليم غنوصية بين النصارى الأسينيين ونحو عام 80 حرم السنهدرين «النصارى» من مخالطة اليهود في صلواتهم بتوجيه من «ربي جملائيل 2» على أنهم بدعة كافرة يجب لعنهم مع «المينيم» أي المشركين كل يوم في صلاة «شمونة عشرة» هذا الحرم اليهودي من جهة واستقلال النصارى عن المسيحيين من جهة أخرى في إقامة أحكام التوراة مع الانجيل (بصيغة المفرد) جعلا للنصرانية عقيدة وكيانا خاصين أو أمة وسطا بين اليهودية والمسيحية منذ نهاية القرن الأول وبتأثير الغنوصية انقسم النصارى في مطلع القرن الثاني م بين كربنتيين والكسائيين. إلى جانب الأبيونيين الذي أصبحوا معتدلين نسبياً.

وفي العام (132م.) اندلعت ثورة اليهود الأخيرة ضد الرومان بقيادة «شمعون باركوكيا» ولم يشترك النصارى معهم في الثورة فثارت حفيظة اليهود ضدهم وعملوا فيهم ذبحا وتقتيلاً وقضي على الثورة وكانت الضربة القاضية عام (135) حين محى الرومان اسم أورشليم وأعاد هدريانوس بنائها باسم «إيليا كابيتولينا» (AELIA Capitolina) وحرم اليهود والنصارى من دخولها فقامت فيها كنيسة من المسيحيين الأمميين بدل كنيسة النصارى وحتى يومنا هذا وتشتت النصارى في سوريا ومصر.

وفي عام (313 م.) اعتنق الامبراطور قسطنطين الكبير المسيحية وفي عهد تيودوسيوس الكبير (379 ـ 395) أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة وتضاءل ذكر النصارى. فذكرهم يوستينوس الشهيد وإبريناوس وذكرهم أوريجانوس في القرن الثالث وسماهم الأبيونيين وأن عددهم كان يتضاءل. ويقول عنهم القديس جيروم

(Jerome)
(345 — 420) أن العامة تسمي الأبيونيين النصارى إذ أنهم يريدون أن يكونوا يهوداً ومسيحيين فهم ليسوا يهوداً ولا مسيحيين وإن إنجيل النصارى والأبيونيين واحد.

كما يذكر أبيفانيوس (Epiphanius) في كلامه عن الهرطقات أن النصارى من اليهود ونزعتهم إلى التهويد يمارسون الختان ويصلون بالآرامية.

وبسبب مقررات ا لمجامع المسكونية 325 ، 431 ، 451 وقع النصارى بين نارين — اليهود والمسيحيين. ولما صدر مرسوم الامبراطور تيودوسيوس بفرض الإيمان المسيحي الأورثوذوكسي (380) هاجر اليهود إلى دولة الفرس وانطفأ خبر النصارى من المصادر المسيحية وقد هربوا إلى الحجاز هرباً من الروم والفرس واستوطن أكثرهم في مكة لأن اليهود تغلغلوا إلى الطائف ويثرب بينما غسان وتنوخ وتغلب دانت بالمسيحية.

وفي تاريخ اليعقوبي أنه تنصر في أحياء العرب قوم من قريش، وتقول السيرة الهاشمية أن ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى «كان نصرانياً قد تتبع الكتب وعلم من علم الناس»، وتقول السيرة الحلبية أنه كان يهودياً وأنه كان قس النصارى في مكة. ومن المعروف أيضاً أنه كان ابن عم خديجة زوجة النبي الأولى، وقد ترجم من الانجيل إلى العربية وخطب في حفل عرسها عن أهل العروس، وكان عداس النينوي قس النصارى غير العرب في مكة. وقد ساهم النصارى في النهضة الحضارية في ا لحجاز قبل الاسلام وقبل البعثة بقرن ونصف.

ملخص عقائد النصارى:

1 — يقدسون التوراة والانجيل معاً. لأن المسيح جاء ليكمل لا لينقض.

2 — الاعتراف بإنجيل واحد فقط هو إنجيل متى الآرامي، الذي عرف باسم إنجيل النصارى أو إنجيل العبرانين أو إنجيل الأبيونيين.

3 — الختان والمعمودية والوضوء. السبت والأحد والفصح اليهودي والفصح المسيحي وتكريم موسى والمسيح.

4 — تحريم الخمر — الماء والفطير في الأفخار ستيا بدل الخمر تحت تأثير الأبيونيين وتحريم لحم الخنزير (مأخوذ عن الكنعانيين).

5 — تحريم الصور والتماثيل (حسب شريعة موسى) ونجاسات الأصنام.

6 — تحريم الزنى والمخنوق والدم.

7 — الغسل من الجنابة والوضوء قبل الصلاة، وزاد في ذلك الأبيونيين.

8 — أقاموا شرعة الزكاة بدل الصدقة بالإضافة إلى شرعة المحبة.

9 — صيام رمضان (عاشورا — الغفران) والاعتكاف التأملي في غار حراء أو التحنث والتوجه نحو أورشليم أثناء الصلاة.

10 — استصلاح التقويم القمري، فجعلوا رمضان في الربيع وكفارة لذلك زادوا الصيام عشرين يوماً فأصبح شهراً بدل عشرة أيام.

11 — ابتدعوا الحجاب وأدخلوه إلى الحجاز (كانت رفقة زوجة إسحق تتحجب).

12 ـ سمحوا بالرهبانية ولما قل عددهم منعوها وحرضوا على الزواج.

13 ـ سن الزواج 12 سنة ولابد من ولي للأمر ، وقد جعل التلمود المهر قسمين معجل ومؤجل كما سمح بأربع زوجات وكان مباحا بأكثر من ذلك في اليهودية، وقد سمح للملك أن يتزوج ويجمع 18 زوجة.

14 ـ المعتدلون من النصارى يؤمنون بولادة المسيح المعجزة من عذراء وأنه كلمة الله، بينما قال الأبيونيين أن يسوع هو ابن يوسف ومريم بولادة طبيعية ورفضوا ألوهية المسيح ووصفوه بأنه ابن الإنسان والنبي الحقيقي وفيه روح ملائكي.

15 ـ آدم أول النبياء عند الأبيونيين والألكسائيين.

16 ـ إنكار صلب المسيح بتفسيرين للشبه:

آ ـ يسوع أصبح المسيح بحلول الروح القدس عليه أثناء المعمودية وقد فارقه على الصليب عندما صرخ «إيلي إيلي لما شبقتني» وبذلك صلب يسوع (الانسان العادي) وليس المسيح أي أن الذي صلب هو يسوع العادي الذي ليس فيه الروح القدس.

ب ـ ألقى المسيح صورته على سمعان فصلب سمعان بدلاً منه وارتفع هو حياً إلى الذي أرسله.

وأما المفرطون في الغنوصية من المشبهة (Doketae) فقد أنكروا كل حياة المسيح التاريخية وجعلوها معجزة سرابية بما في ذلك الصلب.

17 ـ إنكار الألوهية والصلب كما مر آنفاً وإنكار الفداء والتثليث الانجيلي.

18 ـ اعتبروا بولس جاحداً مرتداً بينما اعترفوا ببطرس.

19 ـ انحصرت شيع النصارى في الحجاز وانصهرت في حركة واحدة مدة قرنين قبل الاسلام. وقد تركت كل شيعة شيئا من عقائدها في نصرانية الحجاز كان لها تأثير كبير في تكوين الاسلام الديني إن لم تكن هي هو؟.

وإلى جانب النصارى كان في الحجاز مسيحيون من مذاهب مختلفة، منهم مونوفيزيون ونساطرة وربما كانت المراتب الدينية عندهم متشابهة بالاسم والمهمة، فقد عرف عندهم رئيس الطائفة باسم البطرك أو البطريق ونائبه هو الاسقف وأما الامام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين فهو القسيس، والمختلي في صومعة هو الراهب، وقد عرف بعض الأساقفة بأسمائهم في المجامع الكنسية. كان الأسقف يضع على رأسه عمامة (واليوم يضع قلنسوة والمسيح كان يضع منديلاً يلف لفاً) ومساعد الأسقف والقسيس هو الشماس وكان يحلق وسط رأسه ويلزم البيعة (والبيعة هي المعبد عند النصارى واليهود) «أما ورقة بن نوفل فإنه يدخل البيعة متى أراد فيصلي ويكثر الأدعية مباركاً الله على أنه يهدي إليه الكثيرين الذين يكثرون الدعاء باسمه ومنهم زيد بن عمرو بن نفيل الذي نبذ عبادة الأوثان في الجاهلية واهتدى إلى عبادة الله وقال:

أرباً واحداً أم ألف رب ... أدين إذا تقسمت الأمور

فيجيبه ورقة قائلاً:

رشدت وأنعمت بن عمرو وإنما تجنبت تنوراً من النار حاميا
أقول إذا صليت في كل بيعة تباركت قد أكثرت باسمك داعيا

وقد ذكر القرآن الكريم البيع والصوامع (سورة الحج 40) وكان صدر الكنيسة أو البيعة يسمى المحراب وكان في معابد النصارى النواقيس لدعوة المؤمنين إلى الصلاة. وكان التعميد يسمى التصبيغ، والصبغة هي المعمودية.

وقد اشتهر من القسيسين عداس النينوي أسقف النصارى غير العرب في مكة، وورقة بن نوفل قسّ النصارى العرب. يقول الزبير محدثاً عن عبدالله بن معاذ عن عائشة «أن خديجة بنت خويلد انطلقت بالرسول قبل مبعثه حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عمها أخي أبيها، وكان ورقة أمرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب بالعبرانية من الانجيل ما شاء أن يكتب» (الأغاني). وقس بن ساعدة (توفي نحو 600 م.) من نصارى نجران ويقال أنه كان من أحبارها وكان يعظ القوم في سوق عكاظ، وهو من الموحدين إذ يقول:

كلا بل هو الله إله واحد وليس بمولود ولا والد

وهونفس المعنى الوارد في سورة الاخلاص في القرآن الكريم.

الحنيفية:

إن كلمة حنيف في الآرامية تعني المنحرف أو الأعوج وبالمفهوم الديني تعني الهرطوق أو الكافر بعكس المستقيم الأرثوذكسي وكذلك كلمة «حنافي» في الحبشية تعني هرطوقاً. ومن الواضح أن من يصف الآخر بالحنيفية إنما يقصد التهجم والتجريح من باب الارهاب الفكري وليس من باب الحقيقة الموضوعية لأنه ليس هناك حقائق مطلقة خاصة في العقائد الدينية والاجتماعية بل هناك وجهات نظر يقبلها هذا ويرفضها ذاك. لذلك فإن القديس والهرطوق هما شخص واحد من وجهتي نظر مختلفتين. ويظهر من عدة معطيات لا مجال لذكرها أن «الحنفاء» ربما يكون لقباً أطلق على النصارى من قبل المسيحيين الأرثوذوكس متهمين إياهم بالانحراف والهرطقة فحملوا معهم الاسم إلى الحجاز وصار عنواناً لهم، أو ربما أطلق عليهم هذا النعت اليهود الأرثوذوكس لأن النصارى كانوا قد رفضوا من أصحاب المذهبين وكانوا «أمة وسطاً» بينهما كما مر معنا.

وهناك أمثلة أخرى في التاريخ لتسميات في الذم كهذه ، فقد أطلق الصادوقيون في السنهدرين اسم «بروشيم» أي فريسيين وتعني «إنقساميين» على الفئة العلمانية في ذلك المجلس فعرفت بهذا الاسم واشتهرت به وتقبلته عبر التاريخ ويهود اليوم هم امتداد لحزب الفريسيين.

كما سمى السريان فئة الروم الأرثوذوكس «ملكيين» بسبب ولائهم لملك بيزنطية وقد تقبلوا هذا الاسم وعرفوا به. كما أطلق على السريان اسم «يعاقبة» نسبة ليعقوب البرادعي وتقبلوه. والذين أطلقوا هذه التهجمات كانواخصوماً لم يقصدوا المديح بل العكس، إلا أن المنعوتين تقبلوا النعت فلاصقهم عبر التاريخ، وإذا كان هذا قد حصل فعلاً للنصارى يكونون عندئذ هم الحنفاء، وهذا اجتهاد فقط. وبعد أن أصبحت الحنيفية

والاسلام متلازمان أخذ البعض يفسرون كلمة حنيف على أنها تعني مستقيم أو مائل عن عبادة الأوثان تحريفاً للمعنى الأصلي.

لذا يطرح السؤال : من هم الحنفاء؟

لقد وصف الحنفاء بأنهم موحدون عرب مستقلون عن اليهودية والمسيحية وأن منهم أمية بن السلط المتوفي نحو (624 م.) والقائل:

كل دين يوم القيامة عند الله   إلا دين الحنيفة زور

وورقة بن نوفل ابن عم خديجة ومترجم الانجيل، وصف بأنه حنيف كما وصف بأنه نصراني. فما هو ارتباط الحنيفية بالنصرانية؟. وهل للأحناف علاقة بتحريم تقديس الصور والأصنام في مكة كما كان بعض النصارى والمسيحيين ضد هذا التقديس على أساس علاقته بالوثنية بينما آخرون كانوا لا يقدسون الصورة أو التمثال بل ما يمثله ويرمز إليه؟... وهذا ليس من الوثنية في شيء.

لقد ذكر الأخباريون أن هؤلاء الأحناف كانوا على اطلاع باليهودية والنصرانية، وكان لبعضهم علم بالعبرانية والسريانية، وقد لازم بعضهم رجالاً من الأحبار والقسس والرهبان، ومن الطبيعي إذن أن يتأثروا بهم إن لم يتبعوهم.

كما يقول أهل الأخبار أيضاً أن الأحناف قد قرأوا كتب أهل الكتاب ووقفوا على آرائهم إلا أنهم لم يدخلوا لا في يهودية ولا في نصرانية.

لقد ترددت كلمة حنيف مراراً في القرآن الكريم «ملة إبراهيم حنيفاً» وإن إبراهيم كان حنيفاً مسلماً (آل عمران 67) ثم أوصينا إليك من اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين (نحل 123). أي أن الحنفاء هم كل مسلمي ما قبل القرآن كما هو حال إبراهيم في القرن 18 ق.م.

وقال أبو عبيدة في تفسير الآية «قل بل ملة إبراهيم حنيفا» من سورة البقرة 135 من كان على دين إبراهيم فهو حنيف عند العرب وفي الجاهلية» كان يقال «من اختتن وحج البيت فهو حنيف».

وفي الحديث الشريف «أحب الأديان إلى الله الحنيفية السمحة» ويقول الزجاجي «الحنيف في الجاهلية من كان يحج البيت ويغتسل من الجنابة ويختتن. وقيل له حنيف لعدوله عن الشرك».

وينسب الغنوصيون كتباً متأخرة إلى ابراهيم ويذكر من هذه الكتب «عهد إبراهيم» من القرن 1م «ورؤيا إبراهيم» من القرن 1 م و«كتاب الخلق» ما بين القرنين 3 و 6 م. فهل هذه هي كتب ابراهيم؟

الصابئية:

ديانة بين اليهودية والنصرانية من بقاياها اليوم المنداوية في جنوب العراق. ويخلط اليوم الكتاب بين الصابئة أصحاب هذه الديانة وبين الصابئة الحرانية أي الصابئة المزيفة. وعندما يريدون التحدث عن الصابئة من أهل الذمة في القرآن لا يتحدثون عنهم بل عن عبدة النجوم الحرانيين وهذا خطأ كبير.

وقد ذكر الصابئة ثلاث مرات في القرآن مع اليهود والنصارى (سورة البقرة 62 ، المائدة 69 ، والحج 17) إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (بقرة 62) فنجد أن القرآن قد عدهم مع المؤمنين من أهل الكتب لذا أصبحوا من أهل الذمة فيما بعد في الدولة الإسلامية ولا يمكن لدين التوحيد المطلق أن يعترف بعبدة النجوم كما سنرى.

إن كلمة «صابيء» من أصل آرامي وتعني المغتسل أو المعتمد لأنهم يمارسون المعمودية بعد الولادة وقبل الزواج وفي مناسبات أخرى رمزاً للتطهير. ويجدون بالاغتسال أهمية دينية لذا مارسوا هذا الاغتسال أو المعمودية في الأنهر، وقد سماهم العرب «المغتسلة».

ربما كان طقس الاغتسال أو المعمودية قد مورس قديماً كأحد الطقوس الدينية رمزاً للتطهير، غير أن طائفة الأسينيين الزاهدين من الموسويين قد مارست الوضوء والمعودية وكانوا يمارسون هذا الاغتسال في نهر الأردن والينابيع الصافية، وقد سموهم أيضاً «المغتسلة»، وقد دامت هذه الفرقة من القرن الثاني قبل الميلاد إلى القرن الأول الميلادي. وقد اعتزلوا المدن وأقاموا نظاماً نسكياً صارماً حول البحر الميت وفي البرية، وقد كشفت كتاباتهم العقائدية في مغاور قمران عام (1947) وهي تعرف الآن باسم «لفائف البحر الميت».

وقد ظهر قائد لهذه الطائفة في أديرة قمران حيث كان يسكن الأسينيون لم يعط اسمه الحقيقي في كتاباتهم بل عرف باسم «معلم الصلاح». وبعد نحو قرن من معلم الصلاح ظهر نبي آخر يتعمدون على يده هو يوحنا المعمدان أي يحيى بن ذكريا « في تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية قائلاً توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات. فإن هذا الذي قيل عنه بأشعياء النبي قائل: صوت صارخ في البرية، أعدوا طريق الرب، اصنعوا سبله مستقيمة. حينئذ خرج إليه أهل أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالأردن وتعمدوا منه في الأردن معترفين بخطاياهم» (متى 3 ك 6). «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا ليتعمد منه» (متى 3 : 13). ألم يكن يوحنا المعمدان أسينيا؟ يبدو كذلك، ولكنه كالمنتمين الذين هم مريدون أخصاء أو تلاميذ خاصون. ويبدو أنه بعد ظهور يسوع وتعمده وتأييد يوحنا له حصل انشقاق في صفوف الأسينيين وفي صفوف تلاميذ يوحنا بالذات أيضا. فهناك من آمن بيسوع مسيحاً خاصة بعد عام (70 م.) بعد خراب الهيكل وانضموا إلى النصرانية وعرفوا باسم «الأبيونيين» (Ebionim) ، وقد قبلوا إنجيل متي فقط. وهناك من لم يؤمن بيسوع مسيحاً ولم يتبعه من الأسينيين ومن تلامذة يوحنا أيضا وقد ذكروا في العهد الجديد كفئة في الأناضول. إن الذين لم يؤمنوا من الأسينيين هم الصابئة وعلى الأخص تلامذة يوحنا المعمدان ومن الطبيعي أن يعترف القرآن بهم كأهل كتاب لكونهم فئة موسوية أولاً ولكونهم أتباع يحيى بن زكريا الذي يعظمه القرآن ثانيا. وكان أهل مكة في أول الأمر يلقبون أنصار النبي بكلمة «صابئة»، ويقال «صبأ» فلان أي أنه آمن بالنبي كما فعلت أخت عمر بن الخطاب. وهنا نتسائل: هل كان هناك طقس معمودية في بدء الاسلام؟.

والمنداويون (Mandeans) في جنوب العراق هم بقايا الصابئة الحقيقية، ظهرت طائفتهم في القرن الأول الميلادي واستوطنوا جنوب بابل عند مصب دجلة حيث لا يزال نحو (5000) منهم، واسمهم من أصل آرامي وهو «يدع» أي يعرف فهم العارفون أو أهل العرفان لأنهم إحدى الطوائف الغنوصية ويسمون أنفسهم «نصورايي ديحيي» اي أنصار «يوحنا المعمدان». وتسمية المبشرين لهم «مسيحيو القديس يوحنا المعمدان» خطأ آخر لأنهم ليسوا مسيحيين ولا نصارى. واللغة الماندية آرامية شرقية تطورت محلياً من الآرامية القديمة وقد تكون صيغة صافية من الآرامية الشرقية غير المتأثرة بالعبرانية كاللهجة اليهودية أو باليونانية كما هي الحال في السريانية. وقد كتب المانديون في العراق أدبهم الديني بها. أما الماندية المعاصرة فقد طرأ عليها تغيير كبير في اللفظ وتأثرت باللغة العربية.

بينما كانت حران مركزاً لمملكة «فدان آرام» منذ القرن (14 ق.م.) ومركزاً هاماً للحضارة الآرامية كما كانت مركزاً لعبادة إله القمر «سين»، ولما فتحها العرب عام (639 م.) على يد عياض بن غنم كانت مركز البقايا الوثنية في سوريا من عبدة النجوم الذين تأصل فيهم الفلك البابلي والفلسفة اليونانية. وفي القرن التاسع الميلادي وما بعده ادعى الحرانيون أنهم صابئة ليتجنبوا الاضطهاد العباسي باسم الدين، بدءاً بالمأمون الذي طلب منهم إعلان كتابهم. فخلط العرب بينهم وبين الصابئة البابلية دون تمييز، وبقيت طائفتهم مزدهرة حتى منتصف القرن (13 م.) عندما دمر المغول آخر معابدهم. وقد أنجب الصابئة الحرانيون عدداً من العلماء ونسبوا حكمتهم الصوفية إلى هرمس المثلث الحكمة وأغاثوديمون وأورانيوس وغيرهم (Hermes Trismagistos).

من أساطير العرب:

1 ــ عصا موسى: كانت هدية الرب لآدم عقب طرده من جنة عدن، وورِّثت من أب إلى ابن إلى أن وصلت إلى إبراهيم فأورثها ابنه مدين وأمه قطورة بنت مقطوز من العرب العاربة فأورثها مدين إلى شعيب (وهو كاهن مديان). ويقال في رواية أخرى أن يوسف سرقها من شعيب وزرعها في حديقة بيته إلى أن جاء الغلام الجعد فانتزعها. ويقال أنها من آس الجنة كما يقال أنها كانت في طول قامة موسى وأنها هي بعينها ما أصبحت بعد ذلك بقرون بمثابة الصليب الذي صلب عليه المسيح (ابن مسعد).

2 ــ يقول وهب: «كان سام جزوعاً من الموت فسأل نوح الله ألا يميته (أي سام) حتى يسأل الموت فعاش سام أربعة آلاف سنة، بنى ألفين وعمر ألفين. إلى أن سئم الحياة واعتل فسأل ربه الموت فمات. وعندما سئل سام بعد موته عن الكيفية التي رأى بها الحياة قال «كبيت من بابين دخلت من هذا وخرجت من ذاك».

3 ــ وكان داود يخاف الموت أيضاً مثل جده سام، وسأل آدم الله عن داود فقال له الله هذا ابنك داود، ولما سأل عن عمر داود قال له الله ستون سنة، فقال آدم رب زده في عمره، فرفض الله قائلاً: لا بل تزيده أنت من عمرك. ولما كان عمر آدم ألف سنة فقد وهب لداود من عمره أربعين عاماً. فكتب الله عليه بذلك وأشهد عليه الملائكة. لكن عندما حضرت المنية آدم وأشرف على الموت جعل يخاصمهم على الأربعين سنة التي كان قد وهبها لداود.

4 ـ ويقال أنه عندما حضرت الوفاة آدم جمع بنيه وقال لهم: إن الله منزل على الأرض عذاباً فليكن جسدي معكم في المغارة حتى إذا هبطتم فابعثوا بي وادفنوني بأرض الشام. فكان جسده معهم إلى أن بعث نوحا وضم الجثمان معه إلى أن وقع الطوفان الذي أغرق الأرض زماناً. فجاء نوح حتى نزل ببابل وأوصى بنيه الثلاثة سام ويافث وحام أن يذهبوا بالجثمان إلى المكان الذي أمرهم أن يدفنوه فيه، فقالوا: «الأرض وحشة ولا أنيس بها ولا نهتدي الطريق» فقال لهم نوح «إن آدم قد دعا الله أن يطيل عمر الذي يدفنه إلى يوم القيامة» فلم يزل جسد آدم حتى كان «الخضر» هو الذي تولى دفنه «وهو يحيا إلى ما شاء الله أن يحيا» وقد قال عنه العرب «أنت الخضر وكلما مست قدماك الأرض اخضرت».

5 ـ الهامة: تخرج من رأس القتيل على شكل طير هائم مرفوف يبتغي القصاص يظل يصرخ ويندب «اسقوني اسقوني» إلى أن تراق دماء مغتاليه فيروى ويسكن.

6 ـ سليمان والجنيات: إن الجنيتين ليليت ونعمة هما اللتان جاءتا إلى كرسي عدالة الملك سليمان متنكرتين في هيئة زانيات أورشليم. ونعمة هي أخت قابيل (قايين) القاتل وقرينته، وينسب لها نشر ما لا يعد ولا يحصى من الشياطين والجن التي هي آفة الجنس البشري، ومنها الجنون المشتق لفظياً من الجن. وكانت نعمة تشارك ليليت في خنق الأطفال حديثي الولادة وقد اعتقد سليمان الملك أن بلقيس ما هي إلا ليليت الجنية نظراً لأن جسدها كان مغطى بالشعر. فلما نظر سليمان إلى شعر ساقيها ورأى جسمها أحسن جسم صرف وجهه عن ساقيها للشعر، وكان أن وضع لها سليمان بعد ذلك بمعونة جنوده وأعوانه من الجن «الخلطة أو الملطة» التي تزيل الشعر وهي ما عرفته النساء بعد ذلك حين ينزعن أو ينتفن شعرهن بالحلوى.

7 ـ يقول الطبري: إن أول ما خلق الله القلم فقال: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن. ويقال أن القلم سأل الرب، قال: يا رب وما أكتب؟ فقال: اكتب القدر فجرى القلم في تلك الساعة بما كان وربما هو كائن إلى الأبد. فيقال أن «الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والإرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

ملحمة الخلق

«اينو ما ايليش»

أول شيء حاوله الأنسان القديم أو المعاصر، هو تفسير الكون المحيط به، فكانت قصص التكوين والخليقة التي عبرت بصورة عامة عما أحاط به من عظمة الكون اللامتناهي. ثم اتجه الإنسان بفكره ليفسر كل شيء شغله في عالمه وأثر في حياته، فأضاف «ميتوس» الأصول ليكمل به «ميتوس التكوين». وكانت فكرة الخلق من العدم فوق طاقة العقل البدائي، فتراه يفترض أن كل الأشياء قد خلقت مما هو موجود سلفا، كالبحر، وإن الحياة قد خرجت من المياه.

لقد تصور كُتّاب أساطير ما بين النهرين، العالم كما يرون جنوب العراق في منطقة شط العرب. هناك بعد أن تمر مياه الرافدين العذبة في سهول العراق تختلط بمياه الخليج الفارسي المالحة (أو النهر المر) وتخيم الغيوم المنخفضة على الأفق.

كانت الأرض بالنسبة لهم قرصاً مسطحاً محاطاً بسوار من الجبال. سلسلة زاغروس من الشرق وطوروس من الشمال ولبنون من الغرب، وعلى هذه السلاسل الجبلية الثلاث ترتكز قبة السماء وكأنها غطاء للأرض وفيها تجول الأجرام السماوية. هذه الأرض كانت عالم الأحياء وتحتها عالم أخر هو «العالم السفلي» أو «أرض اللا عودة» حيث يسكن الأموات، تكتنفهم الظلمة وتحيط بهم الأقذار والوحول المرة. وكل هذا الكون تصوروه قائماً في محيط كوني مالح. كل الأرض لم تكن سوى الهلال الخصيب ومركزه بابل عند البابليين أو نيبور عند السومريين. والأرض والسماء والبحر قد التقوا في البدء في عماء كوني من الفوضى ينقصه الكثير من التنظيم. وهذا ما صنعته الآلهة.

في أساطير الخلق لما بين النهرين انبثقت الحياة من المياه، ووجد العالم والبشرية نتيجة الصراع بين الأجيال السابقة واللاحقة من الآلهة. كانت القصة الأولى للخلق هي السومرية نحو (3000 ق.م.) ثم تبعتها نصوص بابلية في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد، وكان اخر نص هو ملحمة الخلق البابلية «اينوما ايليش» التي أخذت شكلها النهائي في القرن (7 ق.م.).

وقصص الخلق المتعددة لا تختلف في جوهرها الفكري، إنما كانت تعدل جزئياً مع تبديل في اسماء الآلهة، حسب الهيمنة السياسية لكل مدينة. لأن لكل مدينة الهها الرئيسي. فبعد أن كان «انليل» هو الخالق في القصة السومرية أصبح «مردوخ» في البابلية واستعيض عن «انكي» بـ«ايا»، وبوجه عام استعملت الأسماء السامية لنفس الآلهة.

وفي القصص السومرية ــ البابلية تكون الآلهة جزءاً من العالم وجزءاً من قوة الخلق فيه. فـ «انليل» اله الهواء فصل بين «آنو» السماء و«كي» الأرض و«أنكي» خلق

الإنسان ليخدم الآلهة وعلمه أساليب العمل والحياة. أما مردوخ فقد قتل تنين الشر والفوضى الكونية «تيامات» (تهامة) في معركة ضارية وشق جسمها إلى نصفين، جعل منهما الأرض والسماء. ثم خضعت له الآلهة ورأسته عليها بعد أن أنقذها من التنين المخيف. ثم خلق الإنسان ليخدم الالهة ويغذيها بذبائحه كما فعل انكي عند السومريين. ولا نجد الها واحداً مسؤولاً عن خلق كل شيء، بل توزعت الأدوار والأعمال وكان العمل الكبير للاله الكبير.

لقد وجدت الـ «اينوما ايليش» مكتوبة على سبعة ألواح، وقد نظمت أصلاً في بدء الألف الثاني قبل الميلاد. لكن النصوص الموجودة تعود إلى الألف الأول قبل الميلاد، وفي كل النسخ يلعب مردوخ الدور الرئيسي. وقد بقيت هذه الملحمة تتلى في اليوم الرابع من احتفالات رأس السنة الـ «أكيتو» من شهر نيسان ولمدة ألفي عام في بابل، تذكر الناس بسيادة النظام على الفوضى.

وسفر التكوين في التوراة قد ثبت في خمسين اصحاحاً تتألف من (1542) عدداً (آية أو مقطعاً) لم يصب منها التكوين والخليقة وفكرة «كمال البدء» سوى (80) عدداً. وقد دونت في ثلاثة اصحاحات. كما لم يصب فكرة «نهاية العالم» وتجديده بطوفان تقليدي سوى (68) عدداً وردت في ثلاثة اصحاحات أيضاً فيكون المجموع (148) عدداً فقط من أصل (1542) عدداً لكامل سفر التكوين. ونجد في سفر التكوين قصتين للخلق:

1 ــ اصحاح (1 ــ 2 : 2 ــ 4) من جمع الكهنة في القرن (5 ق.م.)، وهي ترتكز بشكل رئيسي على الاينوما ايليش البابلية مع مفاهيم سومرية، وتسلسل عملية الخلق في ستة أيام يتبع تسلسل الاينوما ايليش منتهيا بخلق الانسان، يتبع ذلك راحة في اليوم السابع ــ السبت.

2 ــ اصحاح (2 : 4 ــ 25) وهي قصة فلسطينية المسرح مع تشابه بالقصة البابلية. خلق فيها آدم من الطين (أدما) أو الأديم.

وفي ترجمات قصة التكوين العبرية في مختلف اللغات نجد الله وحده خالق السموات والأرض وكل ما فيها تأكيداً لعقيدة التوحيد. بينما النص العبري ينسب الخلق للـ «ايلوهيم» (Elohim) أي الآلهة «في البدء خلقت الآلهة السماء والأرض» أي أننا نجد في النص العبري تعدد الالهة كما في النصوص السومرية والبابلية. ونرى مما تقدم أن معظم سفر التكوين يختص بـ «ميتوس الأصول» وليس بـ «ميتوس الخلق»، وفيه الإنسان الأول هو «آدم» ثم تحدر منه الآباء حتى إبراهيم وإسحق ويعقوب الأسباط الاسرائيليين، «وبما أن قصة التكوين التوراتية قد دونت في مراحل سياسية واجتماعية متأخرة، بالاعتماد على أفكار ميتية بابلية وسومرية، لم تكن على ما يبدو من معتقدات اليهود القدماء الأساسية الايلوهيمية أو اليهوهية. لذلك فان سرد «ميتوس» الأصول القبلية المشار إليه لم يخل من اتجاهات عنصرية عدائية مثل سياسة القبيلة وموقفها من غيرها من الأقوام والشعوب».

ملخص الملحمة البابلية

1 ـ صراع بين الآلهة وفوضى وعماء كوني.

2 ـ انتصار الآلهة بقتل تيامات وخلق مردوخ للكون، السماء والأرض والنجوم والكواكب والقوانين التي تسيرها.

3 ـ خلق النبات على الأرض.

4 ـ خلق الحيوانات، الأبقار والوحوش الخ..

5 ـ خلق الانسان من دم وعظام وطين. وقد عارض بعض الآلهة مردوخ خوفاً من منافسة الإنسان لهم.

6 ـ تمجيد مردوخ من قبل كل الآلهة والبشر.

ملخص سفر التكوين

1 ـ خلق الله النور وفصل بين النور والظلمة فصار نهار وليل.

2 ـ خلق الجلد أو السماء فاصلاً بين المياه التي تحت والمياه التي فوق.

3 ـ خلق اليابسة (الأرض) وفصلها عن البحار وخلق عشبا وشجراً.

4 ـ خلق الشمس لتنير النهار والقمر ليحكم الليل.

5 ـ خلق الزحافات والطيور.

6 ـ خلق حيوانات البر وخلق الإنسان على صورة الله وشبهه وسلطه عليها.

7 ـ استراح الله في اليوم السابع بعد أن فرغ من عمله.

وبعد أن انتهى أنكي (ايا) من تعليم البشر اختارت الآلهة بابليا ليكون راعيا للشعب.

بابلية		توراتية	
ملوك ما قبل الطوفان		آباء ما قبل الطوفان	
1 ـ ألوليم في اريدو حكم	28000 سنة	آدم	130 سنة
2 ـ الألمار في اريدو	36000 سنة	شيت	105 سنة
3 ـ امنلوانا في بيت كركار	43000 سنة	انوش	90 سنة
4 ـ كيشوتا في لارسا	43000 سنة	فيتان	70 سنة
5 ـ انمنغلانا في بيت كركار	28000 سنة	مهلنيل	65 سنة
6 ـ دوموزى في بيت كركار	36000 سنة	يارد	162 سنة
7 ـ سبزيانا في لاراك	28000 سنة	اخنوخ	65 سنة
8 ـ امندورانا في سيبار	21000 سنة	متوشالح	187 سنة
9 ـ أوب ـ اوراتوم في شورورباك	18000سنة	لاملك	182سنة
10 ـ أوتنا بشتايم بطل الطوفان	64000 سنة	نوح بطل الطفوان	600 سنة
	345000 سنة		1656سنة

وردت هذه الاسماء في ثبت ملوك ما قبل الطوفان. وقد أورد «برعوشا» (بيروسوس) إن اسم الملك الأول هو «ألوروس» وأنه حكم (36000 سنة). ولم يعرف عن هؤلاء الملوك إلا القليل ما عدا عدد السنين الخيالي الذي حكموا خلاله ومجموع هذه السنين (3450) قرناً.

وفي محاولة تفسير أرقام برعوشا يعتقد العلماء المعاصرون أن السنة الاسطورية لم تكن سوى أسبوع واحد أو يوم واحد. ولا ندري إذا كان واضعوا هذه الأرقام أنفسهم قد وعوا ما كانوا يقولون لأن أرقامهم فلكية دون أن يكون لها علاقة بالهندسة الكونية.

والملك السابع المدعو عند برعوشا «ايفيدور اخوس» والذي اسمه في النصوص البابلية «ايفيدور انكي» (سبزيانا) له أهمية خاصة، وهو أنه تلقى علماً خاصاً من الالهين شمش وادد (هدد) لم يعلمه «ايا» للبشر وهو نفسه كان يجهله، الا وهو «علم العرافة».

خلق البشر ليخدموا الآلهة. والآلهة طغاة يعاقبون بشدة حتى من أجل الأخطاء التافهة. لذا يجب على البشر أن يطيعوا بدقة، وعليهم أن يطابقوا تصرفاتهم مع إرادة الآلهة. فما العمل من أجل تجنب الأخطاء؟ إن الآلهة تبين ما تريد مباشرة عن طريق الأحلام. إلا أن تفسير الأحلام مهمة صعبة والأصعب من ذلك ألا يكون هناك أحلام للتفسير. إذن يجب اللجوء إلى التخمين والتنبؤ بالمستقبل.

كما أعطى البابليون أهمية عاطفية كبيرة بنظرة ملؤها الخوف لتبدلات القمر وأشكال الغيوم وحتى لكل حركة من حركات الزحافات بين الأعشاب، أو تحركات الكواكب السيارة. كل شيء اعتبروه علامة لإرادة الآلهةالحسنة أو السيئة، ومهمة الفن والعلم هو

معرفة هل العلامة سيئة أم حسنة. هنا بدأ دور السحر في تعجيل الحسن وإبعاد السيء الذي يهدد حياة الملك والتي يتوقف عليها مصير الملك خاصة والبلاد عامة كما رأينا في قصة أشور بانيبال.

والملك الذي أطلعته الآلهة على هذا العلم هو الملك السابع ايفيدور انكي (سبزيانا) من ملوك ما قبل الطوفان والذي يعادل اخنوخ بين الآباء في التوراة، ورغم تباين الأسماء فإن دورهما متشابه جداً. وقد قالت التوراة في سفر التكوين: «سار اخنوخ مع الله ولم يوجد لأن الله أخذه». وقبل بدء العصر المسيحي حيكت عدة قصص حول اخنوخ فقيل أنه اخترع الكتابة وألف أول كتاب وألف علم التنجيم، وهكذا أصبح ايفيدور انكي آخر. وليست الأساطير العبرانية المتأخرة سوى اقتباس وتطوير وتحريف للأساطير الكلدانية القديمة.

والملاحم البابلية تختلف اختلافاً ملحوظاً في الصورة والمادة عن آداب الساميين الآخرين. والجزء الأكبر من الأساطير ليس إلا نسخة جديدة من الروايات السومرية التي تعد الأساس الحقيقي لأدب أرض الرافدين. ومن الطريف أن نلاحظ أن المؤلفين لم يكونوا يترددون في أن يكرروا مرات عدة خلال العمل الأدبي الواحد صورة أو فقرة ترضي نفوسهم. ومبدأ التكرار هو أيضاً أساس القالب الشعري، فهو لا يتميز بالقافية أو يقاس بالوزن إنما يقوم على تتابع العبارات المتوازية، سواء أكان هذا التوازي عن مساواة ومشابهة أو تضاد. وهذا التكرار من صفات الشعر السومري.

ومن أجل تكامل قصة التكوين لابد من إضافة نصوص من ملحمة الخلق السومرية إلى النصوص البابلية، لأن المهم هو إبراز الأدب القديم ككل. وفي القصتين حدث الطوفان أيام الملك العاشر زيوسودرا أو اوتنابشتايم البابلي أو نوح التوراة.

فماذا كان في البدء؟

الألواح 1 ـــ 3 تحكي قصة ولادة الآلهة من مياه البدء الأبسو وتيامات، واختيار مردوخ بطل الجيل اللاحق من الآلهة ليخوض المعركة مع تيامات.

«اينوما ايليش لأنبو شما مو»

«عندما في الأعالي لم يطلق على السماء اسم،
واليابسة من تحت لم تدع باسمها،
لم يكن شيء سوى «أبسو» البدء التي أوجدتها،
و«مومو» و«تيامات» اللتي ولدتهما،
وكانت مياههما تتمازج في هوة واحدة،
لم تبن الأكواخ ولا ظهرت المستنقعات بعد،
عندما لم يكن أي من الآلهة قد ولد
ولا دعيت بأسمائها ولا قدرت مصائرها
عندئذ تكونت الآلهة في تلك المياه».

هكذا كانت الفوضى تعم الكون. وكانت هوة سحيقة تختلط فيها المياه العذبة «ابسو» مع المياه المالحة «تيامات» (البحر) والغيوم «مومو». وقد سمي تنين الشر تيامات «كور» عند السومريين و«رهب» عند العبرانيين.

وأول آلهين خرجا من فوضى البدء هما «لحمو» و«لحامو» يمثلان الطمي الرسوبي في ملتقى النهر والبحر. ثم خرج «آنشار» و«كيشار» حيث يلتقي أفق الأرض بأفق السماء.

ثم ولد لـ«آنشار» و«كيشار» «آنو» (السماء) وهذا بدوره ولد «ايا» (انكي آله الحكمة ومياه العمق) وبنفس الوقت تكون لأبسو وتيامات بضعة آلهة مثيرة للضجة والصخب في بطن تيامات، فتشاور أبسو ومومو وقررا قتل هذه الآلهة الصاخبة، لكن تيامات ترددت في قتل أطفالها.

علمت الآلهة الكبرى بالمخطط. لحمو ولحامو، آنشار وكيشار، آنو وايا جميعاً دهشوا. وقفوا مشدوهين صامتين، لكن ايا الحكيم وجد السبيل لاجهاض الجريمة، فقد رقى مومو فأصيب بالشلل، ورقى ابسو فغرق في النوم ثم ذبحه. بعد هذا النصر عاد ايا إلى معبده في أعماق المياه العذبة ولقي زوجته «دامكينا» فولدا الاله مردوخ بصفاته الرائعة:

«كاملة هي أعضاؤه، تفوق كل وصف،
لايمكن فهمه، بل يصعب ادراكه،
أربعاً كانت عيونه، وأربعاً كانت آذانه،
إذا تحركت شفتاه ينفث من بينها لهبا،
واسعة كانت أعضاء سمعه الأربعة،
كذلك أعينه الأربعة ترى كل شيء،
كان أسمى ألالهة وأعظمهم بقامته.
أعضاؤه هائلة وقامته فارعة طولاً.»

كانت تيامات الشريرة لا تزال حرة طليقة:

«تيامات تزأر غضبها مخيف،
تنوي الشر بقلبها، تخلق الأفاعي الهائلة،
أسنانها حادة، ولا تشفق في الحرب،
بالسم لا بالدم تملأ جسدها،
وتنانين هائلة تلبسها ثوب الإرهاب،
عينت كنجو ابنها على رأس جيش الشر،
وأعلنت الحرب على الآلهة..»

اللوح 4 ـ جزعت الآلهة وضرب آنشار جبينه وعض شفتيه، يجب التخلص من كنجو ولكن أين من ينازله. لقد تهرب الآلهة من مواجهته واحداً تلو الآخر إلا مردوخ العظيم الذي قبل المهمة بشرط أن يصبح ملك الالهة «ينظم مجمعهم، يسير أقدارهم وأقدار الآخرين». اجتمع الآلهة في وليمة، أكلوا وشربوا، ثم سلموا مردوخ شارات الملك والسلطة فاختار أسلحة المعركة «القوس والبرق والعاصفة والرياح الأربعة والشبكة» لبس أسلحة الحرب وحول رأسه هالة الخوف، ركب عربة العاصفة وسار ليحارب تيامات وقوى الشر والفوضى، رآه جيش التنانين فتشتتوا وأسر قائدهم كنجو، ألقى شبكته على تيامات وما أن فتحت شدقيها حتى نفخ الرياح الأربعة في جوفها ثم طعن قلبها بأحد نباله وحطم رأسها بصولجانه ثم شق جسدها إلى نصفين. جعل من أحد النصفين جلداً يغطي الأرض ووضع النصف الآخر في أسفل من تحت الأرض. وانتزع لوحات القدر من كنجو وثبتها على صدره.

«أقاموا لمردوخ عرش الإمارة،
جلس عليه، واجه آباءه وترأس،
«أنت المعظم بين الآلهة، أنت المبجل،
لا منازع لأحكامك، أوامرك عليا مثل آنو حكمك كحكم آنو
أنت يا مردوخ أمجد كبار الآلهة
لا مرد لحكمك، كلمتك هي العليا
منذ اليوم لا تتبدل مشيئتك
ترفع وتدني كما تشاء...   1 صموئيل 2 : 7
أقوالك حق وأوامرك نافذة
لن يجروء أي من الآلهة على امتيازاتك.
ولتحظ مزارات الآلهة بالقرب من مزارك.
والحق يا مردوخ أنك انتقمت لنا
لذا منحناك ملك الكون أجمع
وفي المجمع المقدس كلمتك هي العليا
اسلحتك لن تخيب بل ستسحق اعداءك.
أيها السيد امنح الحياة لمن يؤمن بك
وأبد الاله الذي يضمر الشر...
«وضعوا قطعة من قماش في وسطهم قضاة 6 : 36 ـ 40
وتوجهوا إلى مردوخ، بكر الآلهة:
أيها السيد، حقا أن أحكامك هي الأولى،
قل كلمة افناء أو كلمة خلق وسيكون،
قل كلمة فيختفي النسيج.

أعد كلمة وسيعود كما كان».
وبكلمة أخفاه وبكلمة أعاده
لما رأى أبوه ثمرة كلمته
هللوا وبايعوه «مردوخ ملكنا».»
«منحوه صولجاناً وعرشاً وحلة
أعطوه أسلحة لا تضاهى، تدمر الأعداء
«انهض وستبيد تيامات
ولتحمل الرياح دمها إلى المجهول»
وما أن ثبت الالهة قدر «بيل»
حتى أرسلوه في دروب النصر والسؤدد.»
«صنع قوسا جعلها سلاحه
ركب عليها سهما وثبت الوتر،
رفع الصولجان وقد أمسكه بيمناه،
وعلى جنبه علق السهام والكنانة
أقام البرق أمامه
وبنار لاهبة ملأ جسده،
ثم صنع شبكة ليطوق بها تيامات
وأقام الرياح الأربعة كي لا يفلت منها شيء
ريح الجنوب، ريح الشمال، ريح الشرق وريح الغرب
وإلى جنبه جعل الشبكة، منحة من أبيه آنو.»
«خلق» ايمهوللو» الريح الشريرة، الريح الدوارة، الاعصار.
الريح المضاعفة أربع مرات، وسبع مرات، والتي لا تضاهى
وأطلق الرياح التي خلقها، الرياح السبعة
تبعته لتثير جوف تيامات وتحركه
ورفع الرب عاصفة الطوفان، سلاحه القوي
اعتلى عربة العاصفة، الرهيبة التي لا تقاوم
وربط بالنير إليها أربعة
القاتل، والقاسي، والدائس، والسريع
حادة أسنانهم يحملون السم فيها،
دربوا على التخريب واتقنوا التدمير
على يمينه وضع «الضارب»، مرعب في المعركة

وعلى يساره وضع «الصراع» يدفع المغير
ومن أسلحة الرعب جعل رداءه
وأحاط رأسه بهالة «الخوف»
ومضى الرب قدما وتابع مسيره
نحو تيامات الهائجة وجه خطاه.
بين شفتيه كان يحمل تميمة،
وبيده أمسك عشبة تفسد السم
وسار الآلهة أباؤه من حوله.»
«اقترب الرب ليتفحص جوف تيامات
وكنجو قرينها ليفهم خططه.
وبينما يراقب تزعزع خط سيره،
تاهت اراداته وارتبكت أعماله.
وعندما رأى الالهة من حوله
البطل الصنديد بهرت أبصارهم.»
«زأرت تيامات دون أن تلتفت
وفي شفتيها الاحتراس والتوحش
«يا سيد الآلهة، أتظن أن مكانتك تمنعني من مقارعتك؟
هل في ديارهم اجتمعوا أم في ديارك؟»
فرفع السيد عاصفة الطوفان سلاحه القوي
وإلى تيامات الهائجة وجه كلماته:
«لماذا تنهضين تشمخين وتتكبرين
وفي قلبك تحملين إثارة القلاقل
حتى أبناؤك ينبذون اباءهم،
وانت التي ولدتهم تنكرين عليهم الحب
جعلت من كنجو قريناً لك
وخلعت عليه رتبة انو دونما استحقاق.
ضد انشار، ملك الآلهة، تبحثين عن الأذى،
وضد الآلهة، ابائي، تثبتين شرورك.
قواك معدة وسلاحك جاهز
فانهضي لنتصارع منفردين»
ما ان سمعت تيامات هذا،

حتى فقدت صوابها وحواسها كالـ «مسكون»
بغضب صاحت تيامات عاليا،
وارتعشت ساقاها من جذورهما
وتلت تعويذة وأخذت تنفث سحرها،
بينما أخذت آلهة الحرب تشحذ أسلحتها.
واشتبكت تيامات مع مردوخ أحكم الآلهة.
التحما في المعركة منفردين وتعاركا.»
نشر السيد شبكته وطوقها
وأطلق ريح الأذى التي تبعته في وجهها،
ولما فتحت تيامات شدقيها لتلتهمه
أرسل بينهما ريح الأذى كي لا تطبق الشفتين
فملأت الرياح الهائجة بطنها
وانتفخ جسمها واتسع فوها.
أطلق سهما مزق بطنها
اخترق الأحشاء وشق فؤداها
هكذا غلبها و«أطفأ» حياتها.
طرح جثتها ووثب فوقها.»

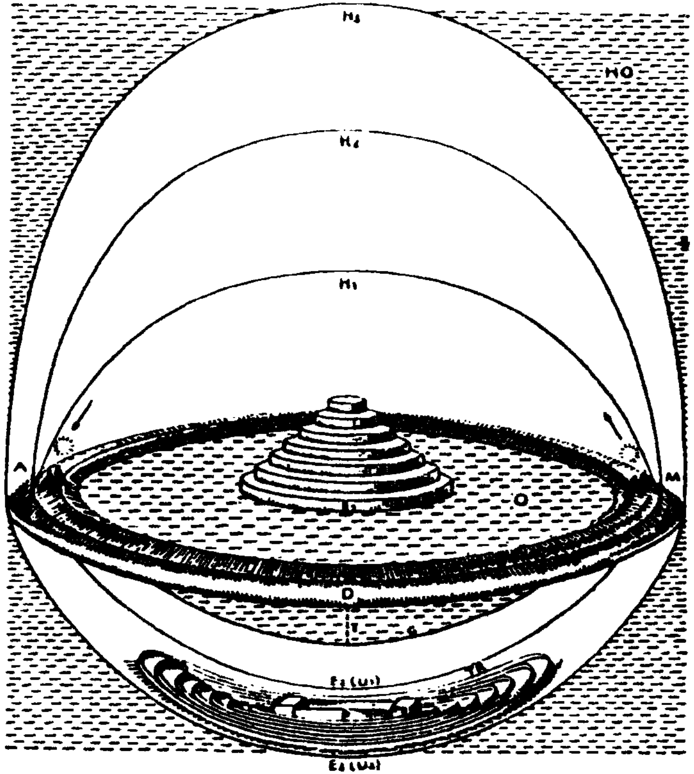

(٤) هكذا تخيل البابليون الكون تخطيط هـ. شبيتسر

E 1 الأرض (العالم الأعلى)

3 2 E 2.E 3 الأرض (العالم الأسفل)

3 2 1 H 1.H 2.H 3 السماء

HO المحيط السماوي

Θ المحيط الأرضي

T G الأعماق والأساس للمحيط الأرضي

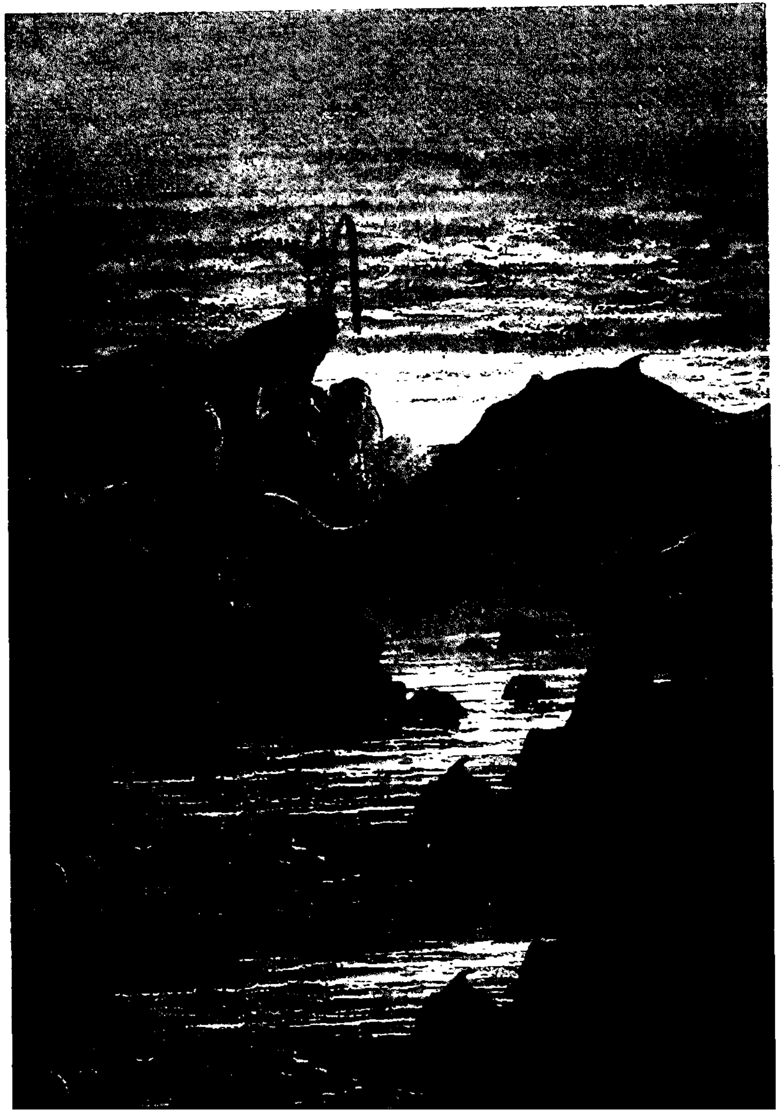

«وبعد أن ذبح تيامات القائدة
تشتت عصابتها وتدمر جيشها
والآلهة الذين ساندوها ومشوا بجوارها
هزهم الرعب فولوا الأدبار
هربوا لينجوا بأنفسهم ويحيوا.
طوقهم بإحكام فلم يجدوا مهربا
جعلهم أسراه وحطم أسلحتهم.
سقطوا في الشبكة وأصبحوا محاصرين
وضعوا في زنزانات وامتلأت قلوبهم نواحاً
تحملوا سخطه أضحوا سجناء
والمخلوقات الأحد عشر الذين حملتهم بالويلات
وجمهرة الشياطين التي سارت أمامها
من أجل مقاومتهم داسهم بالأقدام
وكنجو الذي جعل رئيساً عليهم
قيده ودفعه إلى «أوجي» إله الموت،
وانتزع منه «لوحات القدر» وهي ليست من استحقاقه
ختمها بختمه وثبتها على صدره.»
«ولما قهر مردوخ وأخضع أخصامه
ولما داس أعداءه المتعجرفين،
وثبت نصر انشار على أعدائه
وحقق أماني نوديمود (ايا)
شدد مردوخ الصنديد قبضته على الالهة المغلوبين
والتفت إلى تيامات التي قيدها.»
داس الرب على ساقي تيامات
بصولجانه الذي لا يرحم، حطم جمجمتها
قطع أوعيتها وأنزف دمها
فحملته ريح الشمال إلى أماكن مجهولة.»
«رأى آباؤه ما حدث ففرحوا وهللوا
قدموا له هدايا العرفان والطاعة.
توقف الرب يتفحص جثتها الهامدة،
ليشق الوحش ويقوم بأعمال الابداع.

شقها فلقتين كما يشق الصدفة،
رفع نصفها وجعله سقف الجلد
أغلق النوافذ وأقام الحراس عليها
أمرهم أن يمنعوا مياهها من التسرب.
عبر السماوات وتفحص الأصقاع
حدد مياه «الأبسو» مسكن ايا
«المسكن العظيم» ثبته في «اي ــ شارا»
«المسكن العظيم»، «اي ــ شارا» الذي جعله جلدا.
وعين لانو وانليل وايا أماكنهم.»

اللوح 5 ــ بعد أن أصبح مردوخ ملك الالهة المطلق بدأ في تنظيم الكون. فصنع منازل الآلهة وثبت الأبراج ووضع النجوم في أماكنها وحدد الأزمنة وفصول السنة والأشهر الاثني عشر، وأوكل لاله القمر، سين، أن يقيس مرور الزمن:

«صنع مردوخ منازل لكبار الآلهة
ثبت نجومهم في مجموعات.
حدد السنة وجعل لها فصولا،
لكل شهر من الاثني عشر أقام ثلاثة أبراج
بعد تحديد أيام السنة برموز سماوية أقام مسكنا لـ «نبيرو» (جوبيتر) ليحدد مجموعاتهم السماوية
كي لا يتخطى أحد حدوده أو ينقص عنها
وبجانبه أقام مسكني «انليل» و«ايا»
وبعد أن فتح بوابة في كلا الجانبين
دعم الأقفال على اليسار وعلى اليمين.»
«وفي جوف تيامات ثبّت السمت
جعل القمر نيرا وسلّطه على الليل
عينه مخلوق الليل به تحدد الأيام
«في كل شهر بلا انقطاع تبدل اشكالك،
في بدء الشهر تطل على الأرض
وسيكون لك قرنان نيران لستة أيام
في اليوم السابع تصبح نصف دائرة
في منتصف الشهر تصبح بدرا وتواجه الشمس.
وعندما ينحسر عنك ضوء الشمس في قاعدة السماء

انقص من دائرتك وانقص من نورك.
عند اختفائك اقترب من مدار الشمس
وفي التاسع والعشرين تعود تواجه الشمس»
بعد المحاق تعود ثانية إلى الأرض.»
(بقية اللوح 5 قد تلف أو تفتت)

اللوح 6 ــ بعد تنظيم الكون قرر مردوخ أن يخلق الإنسان ليخدم الآلهة، يخدمها في معابدها ويطعمها من ذبائحه وقرابينه كي تنصرف إلى مهامها الالهية. وترتاح من عنائها.

فاستشار أباه ايا، فنصحه أن يذبح كنجو قائد جيش تيامات ليخلط دمه بالعظام والطين، ومن الجبلة يصنع الانسان، أول انسان، الانسان المتوحش «لولو».

عندما سمع مردوخ كلام الالهة
تحرك قلبه ليخلق ما هو حسن
حدث ايا بما يجول في خاطره قائلا:
«إني جامع دما إني خالق عظما — تكوين 1 : 26
سأخلق متوحشا وسيكون اسمه «الانسان»
حقا سأخلق الانسان المتوحش «لولو»
سأفرض عليه خدمة الالهة لما هو أفضل
سأقسمهم مجموعتين تعبدان بالتساوي»
أجاب ايا مخاطبا مردوخ
وقدّم خطة أخرى لتحرير الالهة:
«ليقبض على واحد من اخوقم
وليقض عليه من أجل خلق البشر،
فادعُ كبار الالهة إلى المجمع
يقبض على المذنب كي يبقى الاخرون»
دعا مردوخ الالهة إلى المجمع المقدس
ترأس بجلال ووزع التعليمات.
لكلماته يصغي الالهة بانتباه
فالملك يوجه كلمته «للانوناكي»
«إن كانت أقوالكم السابقة حقة
أقسموا بي بأن تعلنوا الصدق أمامي
من من الالهة خطط للشعب؟

من حرض تيامات على التمرد وحارب إلى جانبها؟
فليسلم من خطط للشغب
سأحمله وزر جريمته وتبقون أنتم بسلام»
«أجاب الـ «اجيجي» الالهة العظام
«لوجال ديمرانيكيا» سيدهم (ملك الهة السماء والأرض)
أنه كنجو من خطط للشغب
حرّض تيامات على التمرد وشاركها المعركة»
«قيدوه وأمسكوه أمام ايا
أدانوه بالجرم وأنزفوا دمه
ومن دمه صنعوا الانسان.
فرض عليه ايا الخدمة ليحرر الالهة.
أيا الحكيم خلق البشر لتخدم الالهة
إنه عمل يفوق الادراك
وكما صممه مردوخ هكذا خلقه ايا.»
«مردوخ ملك الالهة قسمها،
أوكل الانوناكي في الأعلى وفي الأسفل
وأوكل إلى آنو كي يحافظ على تعليماته.
ثلاثمئة أقام في السماء حراساً
ثلاثمئة يسكنون الأرض بين الناس
ستمئة أقام في السماء وعلى الأرض
وبعد أن أمر بكل تعليماته
عين لأنوناكي السماء والأرض مهامهم.»
«حدث الأنوناكي سيدهم مردوخ:
«أيها الرب يا من حررتنا
كيف نعبر عن ولائنا لك؟
تعالوا نبني له مقاماً وسنعين له اسماً
تعالوا نبني له عرشاً ومسكنا
نستريح فيه حين نصل يوم رأس السنة.»
«سمع مردوخ كلامهم
فرح وأشرق وجهه كالنهار
«لتكن بابل الشامخة التي ستبنون

إصنعوا قرميدها وادعوا اسمها «مقدسا».»
«أخذ الأنوناكي عدة العمل
ولمدة سنة كاملة صنعوا الاجر
ولما حلت السنة الثانية
رفعوا رأس اي ـــ ساجيلا بعمق الأبسو
بنوا زيقورة ارتفعت بعمق الأبسو
اقاموا فيها مسكنا لمردوخ وانليل وايا.
وبحضورهم زينها بعظمة واجلال
وقرناها ينظران إلى أسفل إلى اسس اي ـــ شارا.
وبعد أن اتموا بناء اي ـــ ساجيلا
بنى الأنوناكي مقاماهم بأنفسهم
لقد تجمعوا لهم وبنوا «بابل» له مسكنا.»
«أولم مردوخ لآبائه الالهة
«هذه بابل التي صارت لكم موطنا
افرحوا بمعابدها واملأوا ساحاها»
جلس الالهة، احتفلوا وشربوا
في اي ـــ ساجيلا أقاموا طقوسهم وثبّتوها
وتقاسم الالهة منازل السماء والأرض
الالهة الخمسون الكبار أخذوا أماكنهم
وآلهة القدر السبعة وضعوا ثلاثمئة في السماء.»
«رفع إنليل قوسه ووضعها أمامهم
رأى الآلهة الشبكة التي صنعها
وأعجبوا بالقوس وبمهارة صنعها
فمجّد آباؤه ما صنعت يداه،
وعين آنو قدر القوس
ووضع العرش المجيد أمام الآلهة
جعله آنو في مجمع الآلهة.»
«ولما اجتمع الآلهة ليمجدوا مردوخ
أطلقوا فيما بينهم لعنة.
لقد أقسموا بالماء والزيت أن يجعلوا الحياة مهددة
ولما منحوه الملك على الآلهة

أكدوا سلطانه على آلهة السماء والأرض
آنشار قال «لنصغي بخشوع عند ذكر اسمه»
وإذا تكلم ستصغي الآلهة إليه
ولتكن أوامره العليا في الأعلى وفي الأسفل.
ليتمجد الابن الذي انتقم لنا
ولتعم سيادته بدون مزاحم
وليرعى ذوي الرؤوس السود خلائقه
وإلى الأبد لا ينسون اتباع سبيله.
وليقم لآبائه الذبائح والقرابين
وليقدموا لهم الغذاء وليرعوا معابدهم
وليجعل رائحة البخور تتصاعد ليستنشقوها
وليكن على الأرض شبه ما عمل في السماء.
وليأمر ذوي الرؤوس السود أن يقدسوه
وليفكر رعاياه أبداً بإلههم
وبأمر منه يصغون إلى الالهة.
وليقدموا القرابين لالهتهم والهاتهم
وألا يتقاعسوا في تغذية الهتهم.
وليحسنوا أرضهم ويبنوا مزاراتهم
وليكن ذوي الرؤوس السود بأمر الهتهم
ونحن مهما تلفظنا بأسماء فهو الهنا
فلنعلن اذن أسماءه الخمسين...»
(ولم يذكر شيء عن خلق المرأة)

تعليم الانسان: (عن السومرية مع تغيير أسماء الالهة)

كان مردوخ (انليل) يجلس على عرشه الطاهر، يدل باصبعه على البحار واليابسة، يرسل أشعة الشمس على السهول، ومياه الينابيع من التلال إلى الصحارى الجرداء فيملأها خصباً. ثم ينظر إلى خليقته متمنيا لها الخير والرخاء. وفي جلال القادر على كل شيء أو كل أيا (أنكي) أن يرعى أراضي بابل العظيمة (سومر) ويعلّم البشر.

كان لـ ايا جسم سمكة برأسين. تحت رأس السمكة كان له رأس انسان، وعند الذنب يخرج له ساقا انسان. كان صوته صوت انسان وقضى النهار بين الناس دون طعام.

عظيمة هي أعمال ايا، كانت كلها هبات للبشر. فايا هو احكم الالهة وسيد كل علم والقادر أن يحرم الناس الفهم. علم الانسان فن الكتابة والعلوم وكل أنواع الفنون. من طين الانهر جبل القرميد وعلم الحرفيين ذوي الرؤوس السود كيف يبنون الجدران والمدن مدماكا فوق مدماك، مزينة بخشب الارز. فأسسوا المدن والمعابد وعلمهم مبادىء التشريع والهندسة. وبنى حول المدينة سدودا ليروي السهول في فصل الجفاف فلا يلفح القمح بشمس الظهيرة.

كذلك علم الانسان الزراعة والحصاد. وكمعلم صالح كَدَنَ الثيران بالنير لتحرث الأرض في الفصل المناسب. وأرى الانسان كيف ينبت الحبوب كالجواهر في الحقول المشمسة. ومن التلال ساق الأغنام إلى المروج تتبعها صغارها، وبنى لها الحظائر. وعلم الأسماك في النهرين العظيمين أن تبيض بين أعشاب النهر لتتوالد وتغذى شعب بابل (سومر).

ولما انحنت أعواد الشعير بثقل السنابل بنى ايا الصوامع وملأها بانتاج الحقول وثمار البساتين، الدراق والتوت والرمان والموز والمشمش. وزيّن الحدائق الغناء بأشجار النخيل. وكان يوشوش بنسمات الجنوب. أنه قد أعطى الانسان كل ما يبهج الحياة. ومنذ ذلك الحين لم يخترع شيء جديد قط.

عند المغيب كان ايا يغطس في البحر ويقضي طوال الليل تحت الأمواج. لأنه كان برمائياً. وأخيراً ألف كتاباً عن أصول الأشياء وعن الحضارة وَوَهَبَهُ للبشر.

الجلد

بعد أن انتهى ايا من تعليم الانسان سبل الحياة اختفى. فاختارت الالهة بابلياً «راعيا للشعب»، وكان اسم الملك الأول «ألوليم» وسماه برعوشا «ألوروس» ولم يترك هذا الملك ذكرا سوى أنه حكم (36000) عاما، والملك السابع سبيزيانا (ايفيدورانكي) تعلم مالم يعلمه ايا للبشر وهو علم العرافة على يدي شمش وهدد (أخنوخ) . لقد خلق الانسان لخدمة الالهة، وبدأ الانسان كاملاً بفعل مشيئة الالهة فكان عصره الذهبي.

الفردوس وكمال البدء: (عن السومرية)

في البدء كان العصر الذهبي، عصر السعادة الكاملة. يوم كان البشر يعيشون بلا كد ولا كفاح وقبل «سقوط الانسان» تصف إحدى اللوحات السومرية تلك الفترة من الرخاء والسعادة في واحد وعشرين خطا:

«في غابر الزمان لم يكن حية ولا عقرب
لم يكن ضبع ولا أسد
لم يكن كلب متوحش ولا كان ذئب
لم يكن هناك خوف ولا ارهاب
ولم يكن للانسان منافس..»
«في غابر الزمان كانت بلاد «شوبور» و «همازي»
وبلاد «سومر» المتعددة الألسن
البلاد العظيمة ذات النواميس الالهية الخاصة بالإمارة
وبلاد «اوري» (اكاد) التي حوت كل ما هو لائق
وبلاد مارتو (سوريا) كانت امنة مطمئنة،
وجميع الكون والبشر في وحدة والفة
يمجدون الله (انليل) بلسان واحد.»

ولما تشكلت البلدان لم يقم حرب ولا تناحر بل سلام وألفة. وكان الانسان يسكن في جنة أرضية اسمها «دلمون» (البحرين) بلد طاهر ومشع، إنه «أرض الأحياء» الخالدين حيث لا مرض ولا موت، لا ألم ولا شيخوخة: ــ

«في «دلمون» لا ينعق الغراب الأسود،
وطير «الاتيدو» لا يصيح ولا يصرخ،
الأسد لا يفترس، والذئب لا يخطف الحمل
لم يعرف الكلب المتوحش الذي يلتهم الجدي،
ولم يعرفوا (الكوارث) التي تدمر الغلة.»
«لم توجد الأرملة
والطير في الأعالي لا يسقط،

والحمامة لا تحني رأسها،
مامن أرمد يقول «عيني مريضة»
ولا مصدوع يقول «في رأسي صداع»
«عجوز «دلمون» لا تقول «أنا عجوز»
وشيخها لا يقول «أنا طاعن في السن»
العذراء لا تستحم ولا يهدر الماء الرائق في المدينة
من يعبر نهر (الموت) لا يتفوه (بالموت)
والكهنة النائحون لا يدورون حوله،
المنشد لا يعول بالرثاء
وفي طرف المدينة لا ينوح ويندب»

الطوفان:

سقط الانسان، اخطأ، أهمل واجباته أو زاد في حب الاطلاع (كما فعل آدم وحواء) فوجب قصاصه، بل ابادته، إلا انساناً واحداً منح الحياة الأبدية من أجل صلاحه وهو الملك العاشر قبل الطوفان، زيو سودرا السومري أو اوتنابشتيم (نوح) ملك شوروباك وابن اوبار توتو.

في زمن ما عندما كانت شوروباك قد أصبحت مدينة قديمة، قررت الالهة ارسال طوفان يهلك الجنس البشري المثقل بالخطايا. لكن ايا أخذته الشفقة على اوتنابشتيم وهمس له سراً من جدار كوخ القصب بما تبيته الالهة من هلاك. ونصحه فبنى فلكا أعطاه مقاييسه ينجي به نفسه وعائلته وكل بذور الحياة.

وفي اليوم التالي أخذ الملك الصالح يبني فلكاً من سبع طبقات. ثم طلاه بالقار وحمله ذهبا وفضة وطيورا وحيوانات ثم عائلته وأقاربه وصناعه. وَلَمَّا تلبدت السماء بالغيوم السود، دخل الفلك وأغلق البابا وبدأت العاصفة الكبرى، رياح ورعود، أمطار وصواعق، إنها فكرة بيل سيد الأرض لاخفاء البشر وقد فتح كل بوابات السماء، وفاجأ بذلك كل الالهة، لمدة سبعة أيام.

«حتى الالهة أخذها الرعب فصعدت إلى السماء
جلست القرفصاء كالكلاب من غمها
عشتار صرخت كامرأة المها المخاض
«كيف أعلن حربا تدمر شعبي
وأنا التي تسعى لتزيد توالدهم؟
أما خلق الناس إلا ليملأوا البحر كالأسماك
«أنت الحكيم بين الالهة أنت الشجاع.
كيف بدون فكر تسبب الطوفان؟

الخاطيء أنهكه بخطيئته

ومرتكب الجريمة أثقله بجريمته.»

الهه الأنوناكي شاركوها البكاء.

جلس الالهة وانحنوا يبكون

ستة أيام وست ليالي

نفخت الريح وهطلت الأمطار.

العاصفة والطوفان يغمران الأرض..»

وفي اليوم السابع هدأت العاصفة وسكن البحر واستقر الفلك على جبل «نصير».

فتح اوتنابيشتيم كوة فسقط النور على وجهه، رأى البشرية تحولت إلى أوحال فوهنت قواه وجلس يبكي. أطلق سنونو فعادت إذ لم تجد مكاناً تحط عليه ثم أطلق حمامة وعادت لنفس السبب.

«أخرجت غرابا وأفلته

ذهب الغرب رأى زوال المياه

أخذ يأكل، أخذ يمشي في الأوحال

فلم يعد

قدمت ذبيحة على قمة الجبل

سكبت زيتا ونصبت قدوراً سبعة

كومت تحتها القصب وخشب الأرز

تنشقت الالهة الرائحة الزكية

الالهة كالذباب تتجمع فوق الضحية.»

هكذا تجمعت الالهة كالذباب حول عابدهم الاخير. ثم تدخل ايا لدى انليل وتضرع من أجل البشر. حن قلب انليل فدخل الفلك وبارك اوتابشتيم وزوجته.

من النص السومري:

«زيوسودرا الملك

سجد أمام أنو وانليل

انو وانليل قرباه منهما،

وحياة كحياة الالهة وهباه

نسمة الخلود، كاله، أنزلاها عليه

عندئذ زيوسودرا الملك،

حافظ النباتات وبذرة البشر

في معبر الارض، في أرض دلمون،

حيث تشرق الشمس، جعلت سكناه.»

من النص البابلي:

«حتى الان كان اوتنابشتيم انساناً فانياً
والان صار مع زوجته مثلنا معشر الالهة
وبعيداً عن مصب الأنهر ستكون سكناه
فيتمتعان هناك بالسعادة الأبدية»

(لا تذكر الملحمة نسلا لأوتنابشتيم وزوجته بينما أنجب نوح حسب التوراة حاما وساما ويافثا).

ادبا وسقوط الانسان

ليس هناك قصة سومرية عن سقوط الانسان، وقصة ادبا بابلية متأخرة وجد أربع نتف منها. أقدمها وأطولها من تل العمارنة، القرن 14 ق.م. وثلاثة من مكتبة اشور بانيبال في نينوى كشفت في القرن 19م. ويرى ابلينغ البحاثة في التاريخ الاشوري ان ادبا هو نظير آدم التوراة، وأنه يجب أن ينظر إلى هذه القصة على أنها حيكت حول «الانسان الأول».

كان ادبا حكيما اسطوريا من مدينة اريدو. وقد وهبه والده ايا اله الحكمة والمياه ومعلم الانسان طرق الحياة، الذكاء والحكمة، لكنه لم يمنحه الخلود. ثم أصبح ادبا بطل أسطورة اريدو عن «سقوطِ الانسان». إن بعض البشر الجريئين قد حاولوا قهر السماء وظنوا لفترة أنهم قريبون جداً من تحقيق ذلك. من هؤلاء كان ادبا الذي رفض «خبز الحياة وماء الحياة» فصار الانسان فانيا مصيره المرض والموت. وعلى الهة الشفاء «نينكراك» أن تخفف آلامه. وتبين القصة أن كل إنسان معرض للخطأ وحتى الالهة تخطيء، كما أخطأ ايا اله الحكمة. كما وأن من أخطاء الانسان الطاعة العمياء دون تحكيم العقل.

في جنوب سهل شنعار وعلى شواطيء «النهر المر» (الخليج الفارسي) كانت تقع مدينة اريدو التي كرست لعبادة ايا اله الماء والحكمة. وكان يسكنها ادبا الحكيم. كان ايا قد خلق ادبا «نموذجا للبشر»، لقد أعطاه الحكمة. ولم يعطه الحياه الابدية. لكنه خدم الاله في معبده ولم يكن له مرتبة عالية في الكهنوت. بل انحصرت مهمته في تحضير الخبز وصيد الاسماك وتحضير مائدة الاله. وبما أن ادبا قد خدم الهه باخلاص فقد قرر ايا اعترافا له بهذا الاخلاص أن يعلمه كل ما كان هو يعلمه. وقد وجد ادبا أن ذلك كان فوق سوية كل ما عرفه البشر.

كان ادبا يصطاد الاسماك في مياه «النهر المر»، وفيما كان مرة منهمكا يصطاد بعيداً عن الشاطيء عصف بقاربه ريح الجنوب «شوتو» فانقلب القارب وغرق وكاد ادبا يهوي إلى «مسكن الاسماك» لكنه تمكن من النجاة وحمي غضبه على شوتو ولعنه وانقض عليه، وانتهت اللعنة والمعركة بانتصار ادبا وكسر جناح ريح الجنوب، وكان شوتو ككل جنيات الرياح يصور بشكل طائر عملاق.

مرت سبعة ايام وريح الجنوب لم ينفخ على البلاد «فتساءل آنو» عن سبب ذلك الصمت الطويل، فأجابه وزيره «البرات» ان ادبا بن ايا قد كسر جناح ريح الجنوب. فنهض آنو عن عرشه وأمر باحضار ادبا إليه. لكن ايا «وهو العليم بما يخص السماء» لا يستطيع أن يصد عدالة آنو وعليه أن يسدي النصح لخادمه الأمين، وكيف يجب أن يمثل أمام آنو. «ضع عليك رداء الحزن وانكش شعرك، فعند باب السماء ستجد الالهين تموز وجيزيدا. وعندما يسألانك عن سبب حزنك، قل ذلك من أجل تموز وجيزيدا اللذين اختفيا من البلاد، فيتدخلان لصالحك عند آنو.

«عندما يقدمون لك خبز الموت،

منه لا تأكل.

ولما يقدمون لك ماء الموت،
منه لا تشرب.
سيقدمون لك كسوة فتلبسها
وزيتا لجسدك فامسح نفسك به.
لا تهمل ابدا نصيحتي
وتمسك ابدا بكلامي.»

حمل ادبا تعليمات سيده وصعد إلى السماء، ولا ندري كيف صعد. وحصل كل شيء كما توقع ايا وتلا دفاعه أمام آنو فقبل الاله اعذاره وتدخل تموز وجيريدا لصالحه. لقد أخبرا انو ان ادبا يملك كل علم وكل معرفة ولا ينقصه سوى الخلود ليصير الها.

قبل آنو منحه الحياة وامر حاجبه فأحضر ماء وخبزا وكسوة وزيتا. وعمل ادبا بالنصيحة، فرفض الخبز والماء ومسح جسده بالزيت ولبس الكسوة. سخرمنه آنو «لم لا تأكل ولا تشرب؟» وبكل بساطة أجاب «هذه وصية سيدي ايا» فأمر آنو خدامه ان يطردوا ادبا من السماء وأن يطرحوه إلى الأرض.

هكذا كان الانسان على وشك امتلاك الخلود إلى جانب الحكمة والمعرفة، وطاعته العمياء أفقدته الفرصة الوحيدة لخلاصه فكان «سقوط الانسان» وصار البلاء والمرض من نصيبه وبقي على الالهة نينكراك، الهة الشفاء، أن تخفف من آلامه.

تقول القصيدة:

«الحكمة قد أعطاه...
فصار أمره كأمر ايا،
اتم له سعة الفهم ليكشف نظم البلاد،
لقد منحه الحكمة لكنه لم يمنحه الخلود.»
«في تلك الايام، في تلك السنين
خلقه ايا ، حكيم اريدو ، «نموذجا للبشر»
أوامر الحكيم لا أحد يمكن أن يعيبها.
فهو المقتدر والأحكم بين الأنوناكي.»
«والكاهن الذي لا عيب فيه، صاحب اليدين النظيفتين مزمور 24 : 4
الذي يمسح بالزيت ويحافظ على الطقوس،
مع الخبازين يخبز،
مع خبازي اريدو يحضر الخبز
ويمون اريدو كل يوم بالخبز والماء.
بيديه النظيفتين يرتب مائدة القرابين.
وبدونه لا تحضر المائدة.

يطوف بمركبه ليصطاد حاجة اريدو.»
«في تلك الأيام، ادبا رجل اريدو،
الذي يحضر إلى معبد ايا كل يوم
أقلع في قاربه من قرب «رصيف الهلال» الرصيف المقدس
وإذابريح تنفخ هناك وتقذف قاربه
وبالمجذاف أخذ يسير قاربه
على مياه البحر الواسع.» (البقية تالفة)
«نفخ ريح الجنوب فدفعه في قلب الماء
جعله يهبط إلى حيث موطن الأسماك.
«ياريح الجنوب، أعلي تنفث سمومك؟
بل سأكسر جناحك»
وما إن خرجت الكلمة من فيه
حتى انكسر جناح الريح
ولسبعة أيام لم تنفخ ريح الجنوب على البلاد.»
«نادى آنو على وزيره البرات:
«لماذا لم تنفخ ريح الجنوب على البلاد هذه الأيام السبعة؟»
أجابه وزيره البرات: «مولاي،
إن ادبا بن ايا قد كسر جناحه».
صرخ انو ونهض عن عرشه، «رحمة،
فليحضروه إلى هنا».
«لكن ايا الذي يعرف ما يختص بالسماء «دربه»
جعل ادبا يلبس ثوب الحداد وينكش شعره
«ادبا، إنك ذاهب لحضرة آنو، الملك
وستأخذ طريق السماء
عندما تقترب من بوابة آنو
تموز وجيزيدا سيكونان هناك، سيسألانك
«أيها الانسان، علام تظهر هكذا
لم أنت لابس ثوب الحداد؟»
«لقد اختفى من بلادنا الهان، فعملت هكذا»
«من الالهان اللذان اختفيا من البلاد؟»
«تموز وجيزيدا»

سيرمق الواحد الآخر بنظرة ويبتسم
سيقولان عنك ما هو حسن في حضرة آنو
وسيريانك وجهه الكريم.
وبينما تقف في حضرة آنو
عندما يقدمون لك خبز الموت
سوف لا تأكله.
عندما يقدمون لك ماء الموت
سوف لا تشربه.
عندما يقدمون لك كسوة تلبسها
وعندما يعطونك زيتا، تدهن به جسدك.
نصحي الذي أسديك إياه لا تهمل
وكلامي الذي قلت، عليه تحافظ».
«وصل رسول آنو وقال
«يا ادبا، لقد انكسر جناح ريح الجنوب
أحضره أمامي»
جعله يتخذ طريق السماء وإلى السماء صعد
ولما ارتفع اقترب من بوابة آنو
وأمامها كان يقف الالهان تموز وجيزيدا.
لما رأيا ادبا صرخا «رحمة،
أيها الرجل لماذا تبدو هكذا؟
«ادبا، من أجل من تلبس ثوب الحداد؟»
«لقد اختفى الهان من البلاد فلبسته»
«من يكون الالهان الذان اختفيا؟»
«تموز وجيزيدا»
فنظر كل واحد منشرحا وابتسم.»
«اقترب ادبا من آنو الملك فناداه:
«تعال يا ادبا، لم كسرت جناح ريح الجنوب»
«مولاي، في وسط البحر كنت اصطاد لسيدي
كان البحر كالمرآة
لكن ريح الجنوب نفخ علي وكاد يغرقني
كدت أغوص إلى حيث موطن الأسماك

وفي غضب قلبي لعنته»
فتكلم عنه تموز وجيزيدا حسنا
فَهَدَأ قلب آنو وتساءل:
«لماذا كشف ايا لبشري فان
خطط السماء والأرض
لقد أبرزه وجعله ذا اسم،
وأما نحن فماذا نعمل به؟
أحضروا له خبز الحياة وسيأكله.»
«ولما أحضروا له خبز الحياة لم يأكله،
ولما قدموا له ماء الحياة لم يشربه،
ولما أحضرت له كسوة لبسها
ولما أحضروا له زيتا، دهن به جسده.»
«سخر آنو وضحك عاليا على نصيحة ايا:
«من كل آلهة السماء والأرض، مهما كان عددهم
من يعطي امرا كهذا،
ليكون امره فوق أمر آنو،
وأنت يا ادبا، لماذا لم تأكل ولم تشرب؟
سوف لن تفوز بالحياة الأبدية.
آه، أيها الجنس البشري الفاسد»
«ايا سيدي أمرني أن لا أكل ولا أشرب»
وأما ادبا فقد نظر من أفق السماء إلى قبتها
فرأى ذلك المنظر المهيب
وحكم آنو باطلاق ادبا من أجل مدينة ايا
«خذوه من هنا وألقوا به إلى الأرض»
وقدر لكهنوته العز على مر الأجيال.»
«وأما ادبا ابن البشر
الذي كسر جناح الريح وصعد إلى السماء
أي ويل جلبه للبشرية؟
وأي أمراض أحضر لأجساد الناس؟
نينكراك (آلهة الشفاء) ستخفف منها
تنزع المرض وتهون الالام.» (بقية اللوح قد تلف)

إيتانا والنسر

بعد الطوفان «أنزلت الملكية من السماء» ثانية إلى الأرض. وبدأت هذه المرة في مدينة كيش التي لا تزال خرائبها في تلول تبعد 16 كم شرق بابل.

وأول سلسلة من الملوك حوت 23 ملكاً، حكم كل واحد منهم نحو «ألف عام». لقد امحى اسم أحد هؤلاء الملوك وبقي أسماء اثنا عشر ملكاً يحملون أسماء سامية، وستة ملوك يحملون أسماء سومرية، وأربعة ملوك لم تعرف الأصول اللغوية لأسمائهم. وهذا مهم تاريخياً لأنه يبرز التمازج السلمي بين السومريين والساميين، وأنهم قد تعايشوا دون نزاع عنصري في المدينة الواحدة.

يقدر تاريخياً أن هذه السلسلة (وليس السلالة) من الملوك قد حكمت بعد عام (2800 ق.م) وكان اسم الملك الثالث عشر «ايتانا الراعي» الذي تقول الأسطورة أنه «صعد إلى السماء». وقد وجدت صور صعوده على نسر فيما بين النهرين على عدة أختام بينما نرى الأغنام ترعى والكلاب تنظر إلى فوق لترى الملك الراعي وقد حمله النسر إلى حيث تسكن الالهة.

بعد الطوفان كان الناس بدون ملوك تقودهم وترعاهم. وكانت شارات الملك — الصولجان والتاج والعمامة وعصا الرعاية — في السماء أمام آنو. ثم قرر الأنوناكي العظام «انزال الملكية من السماء» من جديد.

عادت الملكية إلى كيش، ودعي الملك الثالث عشر «ايتانا»، وتسلم ايتانا شارات الملك، لكن دوام الملكية يحتاج إلى من يرث العرش، ولم يكن لايتانا ابن يرثه.

تألم ايتانا في قلبه أخذ يقدم القرابين كل يوم إلى «شمش»، ويتضرع إلى الاله أن يمنحه ابناً يرث اسمه:

«أيها الاله، لتخرج الكلمة من فمك.
امنحني عشبة الولادة،
أزل عني أثقالي
وامنحني من سيحمل اسمي.»

استجاب شمش العادل وتحنن. أمره أن يعبر أحد الجبال. حيث يجد نسراً سجيناً في حفره. وأنه عندما يحرر النسر ويكسب صداقته سيسدي له العون ليحصل على «عشبة الولادة» لأنها في السماء في حوزة عشتار. ولكن كيف سجن النسر؟

في بدء الزمان اقسم النسر والحية يميناً مغلظة أن يحافظا على عهد الصداقة والتعاون. لقد سكن الاثنان في نفس الشجرة. فالنسر بنى عشه وفرخ في أعلاها، بينما الحية باضت وفرخت في أسفلها. وتعاهدا أن يحمي كلٌ فراخ الآخر في غيابه وأن يطعمهم إذا لزم الأمر. ولبعض الزمن سار كل شيء على ما يرام.

لكن النسر أضمر الشر في قلبه وَحَنَثَ في قسمه فبينما كانت الحية في صيدها التهم النسر فراخها. عادت الحية فوجدت بيتها خالياً. بكت وتضرعت إلى شمش العادل أن يقتص من الذي حنث في قسمه، فاستجاب شمش وعلمها كيف توقع به.

اختبأت الحية في جوف ثور ميت، ثم جاء النسر ليأكل من الجيفة. فاجأته الحية والتفت حوله وكسرت جناحه ثم ألقته في حفرة لا يقوى على الخروج منها. لقد سجن النسر التعيس في تلك الحفرة فبكى وتضرع إلى شمش، وشمش لا يلتفت إليه. وقد تذكر بعد فوات الأوان أن فرخه الصغير الذي قد منح قسطاً من الحكمة قد حذره من أن يحنث بأقسامه

عبر ايتانا الجبل وجد الحفرة التي سجن فيها النسر وقد شفي كسره، أخرجه منها فعبر له النسر عن امتنانه وعرض عليه خدمة يسديها إليه لقاء حسن صنيعه.

أخبره ايتانا عن شكواه وأن عشبة الولادة في السماء في حوزة عشتار فوافق النسر على حمله إلى السماء. وضع ايتانا صدره على صدر النسر وأمسك جيداً بجناحيه والصق ذراعيه بجانبي النسر وطار.

أخذ في الارتفاع ورأى ايتانا حجم الأرض يتقلص، والبحر يصغر إلى أن بلغ حجم سلة الخبز. ولما لم يعد يرى الأرض والبحر خاف وصرخ (يا صديقي لن أصعد إلى السماء.) زاغت عيناه وارتخت يداه فافلتت قبضته وهوى من فوق إلى الأرض وتبعه النسر.

عند هذا الحد من القصة تتلف اللوحة التي نقشت عليها قصة ايتانا والنسر. ويظهر أنه قد بلغ مأربه بشكل أو بآخر، لأن لائحة الملوك تذكر أن ايتانا قد عاش 1560 عاماً وأن ابناً له باسم «بليخ» قد ورث عرشه.

تموز وعشتار

في سلسلة ملوك سومر ورد اسم «دوموزي» اسماً للملك السادس من ملوك ما قبل الطوفان في مدينة «بيت كركارا»، واسما للملك الرابع عشر من ملوك ما بعد الطوفان في مدينة أوروك. حكم الأول 36000 سنة وأما الثاني فلم يحكم سوى مئة سنة، ووصف بأنه كان راعيا وصياد سمك.

وكلمة دوموزي السومرية تعني «الابن البار» أو «ابن الماء» وقد سماه الساميون «تموز»، وهكذا ورد اسمه في التوراة. إنه الانسان الاله ملك أوروك الأسطوري في عصر فجر التاريخ وبعد الطوفان. وقد ازدادت معرفقتنا به من خلال الأغاني السومرية التي تعود لنحو عام 2000 ق.م حيث يلعب الراعي الشاب وعشيق الالهة الكبرى انانا (عشتار) التي سكنت أيضاً في أوروك، وطلب يدها من أخيها اوتو (شمش) في حوار بين تموز الراعي وانكيمدو الفلاح. كما يختفي تموز عن الأرض إثر خيانة زوجية. فكانت عشتار سببا في إرساله إلى الجحيم بديلاً عنها في نص سومري وآخر بابلي. وقد ورد اسمه في قصة ادبا البابلية وكأنه في السماء عند بوابة آنو.

ودوموزي من آلهة الخصب يمثل دورة الحياة والموت كما مثلها ادون (أدونيس) وعليان بعل واوزيريس. ومن حيث الفلسفة الدينية يمثل الاله الوسيط الذي يعيش مع البشر على الأرض ويتدخل في حياتهم المادية والأخلاقية والروحية ويهتم بمصير الانسان وبمدنيته. وهذا التوزيع للآلهة ومهامها نجده في قصة الخلق عندما عين مردوخ ثلاثمئة اله ليسكنوا السماء وعين لهم نجومهم، وعين ثلاثمئة ليعيشوا على الأرض بين البشر ـــ آلهة ووسطاء.

وعلى الأختام السومرية تتكرر صورة أمير وأميرة في حفل شراب يمثلان دور تموز وعشتار (دوموزي وانانا) في الحدث الرئيسي في الديانة السومرية وهو زواجهما في رأس السنة (الاكيتو) وأختام أخرى تمثل صراع تموز مع الأسد عدو الحياة، دفاعاً عن القطعان وأخرى رسمت عليها الزهرة ذات الثماني وريقات التي كان يقدمها تموز طعاماً للأغنام.

ذكر اسم دوموزي في لائحة الأسماء المقدسة التي وجدت في شورروباك والعائدة لمنتصف الألف 3ق.م. ثم وجد اسمه في نصوص لغش وأوما ودرهم وأور.

وفي امبراطورية اكاد (2350–2230 ق.م) خصص شهر لعبادة تموز في لغش. وفي أواخر الألف الثالث ق.م. أقيم له معبد فيها وأوقفت له الأراضي الواسعة والتي أدارها موظفون. وصار اسم تموز اسما للشهر الرابع في التقويم السامي القديم وللشهر العبري العاشر وللشهر السابع في تقويمنا الحالي.

وهنا سنورد نصوصاً سومرية وبابلية متفرقة نجمعها في تكامل جزئي في قصة واحدة.

تموز «راعي الأرض» يحرس القطعان من دجلة إلى البحر. يسهر على الأغنام والأبقار ويبني الحظائر. تموز يصارع الأسود دفاعا عن قطعانه، ويقطف الزهور ليطعمها ويضع الحليب في أثدائها.

تموز أيضاً يجول بأنظاره حارساً أميناً لمدينتي أوروك وكلاب، لكنه ليس وحده في مدينته لأن عشتار (انانا) تسكن معبدها في اوروك، تتلصلص منه، تعشق الجمال والشباب والبطولة، وتثير الحب والغرائز والتوالد.

رأت تموز بين القطعان فهامت به، لكنه اختفى. طافت تبحث عنه بلهفة فوجدته ممدداً يموت بين قطعانه «فأنعشته بالطعام والشراب والموسيقى». أحب دوموزي (تموز) انانا (عشتار) وكم قصد بيت الالهة بينما اللبن والزبد يقطر من يديه وجوانبه. يلح بالدخول بينما هي تغتسل وتطيب نفسها بالدهون وترتدي حللها الملكية وتزين نفسها بالأحجار الكريمة قبل أن تفتح الباب لتستقبل عريسها المرتقب.

إلا أن دوموزي لم يكن العاشق الوحيد، بل وجد منافساً له في الفلاح «انكيمدو». فتقدما يطلبالها من أخيها «اوتو» (شمش) وهو اله العدل والمساواة والمهتم بخير البشر. فنصحها أخوها أن تختار من هو أكثر نفعاً للبشر وحسب رأيه يكون الراعي. ودار حوار يدافع فيه كل واحد عن نفسه ويبرر تقدمه من «ملكة السماء». كانت انانا تفضل الفلاح على الراعي ولكن..

«أخاها، البطل، المحارب اوتو
يقول لأنانا الطاهرة:
«يا أختاه دعي الراعي يتزوجك،
يا انانا العذراء، علام أنت راغبة عنه؟
إن زبده طيب، وحليبه لذيذ
وأي شيء مسته يد الراعي يصبح زاهيا.
يا انانا، دعي الراعي دوموزي يتزوجك،
أنت يا من تتحلين بالجواهر علام عزوفك؟
سيشاركك أكل زبده الطيب،
فيا حامية الملك لماذا لا تقبلين؟»

أجابت انانا بالرفض وصممت أن تتزوج الفلاح انكيمدو:

«أنا، لن يتزوجني الراعي
وبحلته الجديدة سوف لا يكسوني،
وصوفه الناعم سوف لا يغطيني،
أنا العذراء، الفلاح سيتزوجني
الفلاح الذي يجعل النباتات تنمو بوفرة
الفلاح الذي يجعل الحبوب تنمو بغزارة..»

فأدلى دوموزي بدفاعه وقارن نفسه بالفلاح:

«الفلاح أفضل مني؟ الفلاح أفضل مني؟ ما عند الفلاح أكثر مني؟
انكيمدو، صاحب السد والساقية والمحراث،

أفضل مني فماذا عند الفلاح أكثر مني؟
إذا ما أعطاني حلته السوداء،
أعطيته نعجتي السوداء بدلا منها،
إذا ما أعطاني حلته البيضاء،
أعطيته نعجتي البيضاء بدلاً عنها،
إذا ما سكب لي جعته المفضلة
قدمت للفلاح لبني الأصفر بدلا.
إذا ما صب لي جعته الجيدة
فسأعطيته لبني «الكسم» بالمقابل
وإذا أدار جعته المخففة
أدرت له لبني «النبات» مقابلها. (ربما العيران أو الشنينة)
وإذا ما أعطاني من أطايبه،
فسأعطى الفلاح لبني «اتردا»
وإذا قدم لي خبزه الطيب
فسأعطي الفلاح جبني الحلو بدله.
وإذا ما قدم لي فوله الصغير
قدمت للفلاح جبني الصغير بدله.
وبعد أن أكل وأشرب كفايتي،
سأبقي له الزبد الفائض،
وسأبقي له الحليب الزائد،
الفلاح أفضل مني؟ ماذا عنده أكثر مني؟»

ولعل حجج الراعي أَقْنَعَتْ إنانا أن تتزوجه، فنراه مبتهجاً عند ضفة النهر بعد أن غيرت رأيها، وهناك يلتقي بالفلاح انكيمدو فيبدأ الخصام:

«لقد ابتهج، على طين الضفة ابتهج
إن الراعي على ضفة النهر ابتهج
وفوق ذلك ساق الراعي غنمه على ضفة النهر
وإلى الراعي الذي يمشي ذهابا وإيابا عند الضفة
اقترب الفلاح، اقترب الفلاح من الراعي،
الفلاح انكيمدو قد اقترب،
الفلاح ملك السد والجدول في سهله
لقد شرع الراعي في سهله يخاصمه

الراعي دوموزي في سهله بدأ يخاصمه»

لكن انكيمدو يرفض أن يدخل في الخصام ويسمح لـدوموزي أن يرعى قطعانه في أية بقعة شاء من أراضيه:

«أيها الراعي لماذا أخاصمك؟
دع أغنامك تأكل عشب الضفة
وفي أراضيّ المزروعة دع أغنامك تسرح
وفي حقول اوروك الخضراء فلتأكل الحبوب
ودع أجداءك وحملانك تشرب ماء جدولي «اونون»

رضي تموز من كرم الفلاح فدعاه كصديق إلى حفل عرسه:

«أنا الراعي عساك تحضر حفل عرسي
أيها الفلاح عساك تُحسب لي صديقاً،
أيها الفلاح انكيمدو لتكن من أصدقائي.»

انشرح قلب الفلاح فعرض على دوموزي وانانا بعض الطيبات من انتاج مزرعته هدية العرس:

«سأقدم لك قمحا، سأحضر لك فولا
سأحضر لك عدسا
وإليك أيتها العذراء انانا مهما أردت
أيتها العذراء سأقدم لك.»
(وفي الخصام الذي جرى بين الراعي والفلاح:
«أيتها العذراء انانا، إن حمدك واجب
إنه شعر......................)

هكذا صار تموز زوجها ورفيقها و«تنين انانا السماوي». إلا أنه لم يدر بخلد دوموزي الاله الراعي أن ذلك الزواج الذي طالما تاق إليه سيفضي به إلى الهلاك ويؤدي به إلى الجحيم. لقد فاته أن يحذر طموح المرأة كما تروي قصة «نزول انانا إلى العالم السفلي».

انانا «ملكة السماء» سيدة «العالم الأعلى العظيم» كانت تسعى بطموح مسعور وراء سلطان أوسع، حتى أنها استهدفت أن تحكم «العالم السفلي العظيم» وتنتزع السلطة من أختها الكبرى «اريشكيغال»، عدوتها اللدودة اريشكيغال الهة الموت والظلام في الجحيم السومري.

جمعت انانا كل «النواميس الالهية» وازدانت بحللها وحلاها الملكية وذهبت تريد دخول «أرض اللاعودة». وقد احتاطت للأمر بأن أوصت وزيرها الأمين «نينشوبور» أنه إن لم تعد في غضون ثلاثة أيام يندبها عند الخرائب وفي قاعة «مجمع الالهة». ثم يذهب إلى

انليل في نيبور ويتضرع، وإن لم يستجب يذهب إلى انانا في اور ويتضرع له، وإن لم يستجب يذهب إلى إنكي في اريدو ويشكو الأمر، فانكي الذي يعرف سر «خبز الحياة» و«ماء الحياة» سيتدبر أمر عودتها.

هبطت انانا إلى العالم السفلي واقتربت من معبد اريشكيغال المبني باللازورد، فاعترضها رئيس الحرس «نيتي»، ثم قادها في «أبواب الجحيم السبعة» وكلما مرت بأحدها جردها من قسم من ملابسها حتى دخلت من الباب السابع عارية لا يسترها شيء. هناك أمرت أن تسجد لاريشكيغال والانوناكي «قضاة العالم السفلي السبعة» صوبوا إليها نظرات الموت فتحولت جثة هامدة علقت من مسمار.

وفي اليوم الرابع من غيابها ذهب وزيرها يتوسل من أجل نجاتها، فلم يستجب سوى انكي الذي أرسل مخلوقين لا جنس لهما، دخلا العالم السفلي ونثرا عليها ماء الحياة فعادت إلى الحياة.

لكن متاعب انانا لم تنته. فمن دخل أرض اللاعودة لا يخرج منها إلا إذا أرسل بديلاً. فخرجت ومعها شياطين سبعة ليأخذوا البديل. قصدت مدينة «أوما» ثم «باد تيبيرا» فحل الذعر باهليها «شارا» و «لبثراك» ولبسا المسوح وتمرغا في التراب أمام انانا فعفت عنهما. ولما وصلت مدينة كلاب وجدت زوجها دوموزي وقد أبى ارتداء المسوح والتمرغ، بل أنه كان يرتدي لباسه الرسمي جالساً على عرشه، فلم تر فيه ذلك الزوج الحزين على فراق زوجته. أكل الحقد قلبها وطعنت في كبريائها فأمرت الشياطين السبعة أن يحملوه إلى الجحيم. امتقع لون دوموزي واستجار بعدالة أخيها اوتو دون جدوى. هكذا أورد الشاعر السومري هذه القصة مع حذف بعض التكرار ويليه النص البابلي:

«من» «الأعلى العظيم» اتجهت بأفكارها نحو «الأسفل العظيم»
الالهة من «الأعلى العظيم» اتجهت بأفكارها نحو «الأسفل العظيم»
انانا اتجهت بأفكارها من «الأعلى العظيم» إلى «الأسفل العظيم»
وإلى العالم السفلي هبطت
هجرت سيدتي السماء والأرض
انانا هجرت السماء والأرض
وإلى العالم السفلي هبطت
نبذت السيادة ونبذت السلطان
وإلى العالم السفلي هبطت.»
«إلى جانبها ربطت النواميس الالهية السبعة
جمعت كل النواميس الالهية، وضعتها في يدها
احضرت كل النواميس وهي توشك أن ترحل
وضعت على رأسها تاج السهل «شوجرا»
وثبتت فوق جبينها خصلات الشعر،
وأمسكت بيدها الخيط وعصا القياس من اللازورد

وحول عنقها ربطت عقداً من الأحجار الصغيرة
وعلى صدرها حجرين من «النونوز»
وأمسكت بيدها حلقة من الذهب
وفوق صدرها صدرية «تعال يا رجل تعال»
لبست حلة بالا «حلة السيادة والحكم
وكحلت عينيها بدهان «دعه يأتي دعه يأتي»
سارت انانا نحو العالم السفلي
وإلى جانبها مشى وزيرها ننشوبور،
«أنت يا سندي الدائم،
يا وزيري ذا الكلام الطيب
يا فارسي الصادق الكلمات
إنني الآن هابطة إلى العالم السفلي.»
«إن لم أعد من العالم السفلي تندبني عند الخرائب
وفي معبد (المجمع) اضرب الطبل من أجلي
وفي بيت الالهة تجول من أجلي.
غض الطرف من أجلي وزم فمك
وكالصعلوك تلبس ثوباً واحداً
وإلى «ايكور» بيت انليل «وحدك توجه خطاك.»
«عندما تدخل ايكور بيت انليل
ابك أمامه وقل:
1 ــ «أيها الاب انليل لا تدع ابنتك تهلك في العالم السفلي،
2 ــ لا تدع معدنك الطيب يغمر بغبار العالم السفلي
3 ــ لا تدع لازوردك النفيس يصبح حجراً يعمل به الحجار
4 ــ لا تدع خشب نفسك يقطع ليصير خشباً للنجار
5 ــ لا تدع العذراء انانا يحكم عليها بالموت.
وإن لم يقف انليل إلى جانبك فاذهب إلى اور.»
«في اور في اكيشنوغال ابك أمام نانا (إعادة خمسة خطوط)
وإن لم يقف نانا إلى جانبك فاذهب إلى اريدو.»
«في اريدو عندما تدخل بيت انكي
ابك أمام انكي (إعادة الخطوط الخمسة)
انكي الذي يعرف سر «خبز الحياة» و «ماء الحياة»

بالاكيد سيعيدني إلى الحياة.
اذهب يا ننشوبور
احفظ وصيتي ولا تهملها.»
«عندما وصلت انانا إلى القصر، إلى جبل اللازورد
تصرفت بجرأة عند باب العالم السفلي
وتكلمت بجرأة في قصر العالم السفلي
«افتح البيت أيها الحاجب افتح البيت،
افتح البيت يا «نيتي» وسأدخل وحدي.»
«نيتي كبير حجاب العالم السفلي
أجاب انانا الطاهرة:
«من تكونين أرجوك؟»
«أنا ملكة السماء، الموضع الذي تشرق منه الشمس.»
«إن كنت ملكة السماء حيث تشرق الشمس
فلم جئت الأرض التي لا عودة منها؟
وفي الطريق الذي لا رجعة لمن سار فيه كيف قادك قلبك؟»
فأجابته انانا الطاهرة:
«جئت من أجل أختي الكبرى اريشكيغال
لأن زوجها السيد جوجالانا قد قتل
لكي أحضر شعائر جنازته
وهكذا فليكن..»
«نيتي» كبير حجاب العالم السفلي
أجاب انانا الطاهرة:
«انتظري. دعيني أكلم مليكتي، اريشكيغال»
دخل نيتي إلى ملكته اريشكيغال وقال:
«يا مليكتي، في الباب عذراء مثل إلهة
والنواميس الاهية السبعة إلى جانبها — إلخ
عندها عضت اريشكيغال فخذها واستشاطت غضباً
قالت هلم يا نيتي يا كبير حجاب العالم الأسفل
والكلمة التي سآمرك بها لا تهملها
«ارفع أقفال بوابات العالم السفلي السبعة
وافتح أبواب قصر «جنزير» «وجه» العالم السفلي،

وعند دخولها احضرها أمامي عارية تحني رأسها.»
نيتي كبير حجاب العالم السفلي
أطاع كلمة مليكته
فرفع أقفال أبواب العالم السفلي السبعة
وقصر «جنزير» وجه العالم السفلي، فتح أبوابه
وقال لانانا الطاهرة
«هلمي وادخلي»
عند دخولها
نزع عن رأسها تاج السهل «شوجرا»
«ما هذا «أرجوك؟»
اسكتي يا انانا فنواميس العالم السفلي كاملة
لا تعترضي ولا تسترحمي من شعائره.»
عند دخولها الباب الثاني،
انتزع منها الخيط وعصا القياس من اللازورد
«ما هذا أتوسل إليك؟»
اسكتي يا انانا فأحكام العالم السفلي عادلة
فلا تسترحمي من شعائر العالم السفلي.»
وعند دخولها الباب الثالث
انتزع منها عقد أحجار اللازورد من جيدها.
وعند دخولها الباب الرابع
انتزع من صدرها حجري النونوز
وعند دخولها الباب الخامس
انتزع من يدها حلقة الذهب
وعند دخولها الباب السادس
انتزع صدرية «تعال يا رجل تعال.»
وعند دخولها الباب السابع
أخذت عن جسدها حلة السيادة والحكم
وأخذت وهي عارية منحنية الرأس إلى حضرة أختها
استوت اريشكيغال الطاهرة على عرشها
ولفظ الانوناكي، القضاة السبعة الحكم أمامها
فصوبت عينها عليها، ثبتت فيها نظرة الموت

وَنَطَقَتْ بالكلمة ضدها، كلمة الغضب والسخط
فاهت بالصرخة ضدها، صرخة التجريم
فتحولت المرأة العليلة إلى جثة هامدة
وعلقت الجثة من مسمار.»
«بعد انقضاء ثلاثة أيام وثلاث ليالي
وزيرها ننشوبور
وزيرها الطيب الكلمات
فارسها الصادق الكلمات
شرع يندبها عند الخرائب
ويضرب الطبل من أجلها في مزار المجمع
أخذ يجول من أجلها في بيوت الالهة.
خفض نظره من أجلها وزم فمه
وكالصعلوك ارتدى من أجلها برداء واحد
وإلى ايكور، بيت انليل وجه خطاه
ردد الأسطر الخمسة وصية انانا أمام انليل
ولم يستجب فوجه خطاه إلى اور وردد الأسطر
الخمسة ولم يستجب نانا ثم توجه إلى اريدو.
وفي اريدو عندما دخل بيت انكي
بكى أمام انكي وقال:
«أيها الاب لا تدع ابنتك تموت في العالم السفلي
لا تدع معدنك الطيب يغطيه تراب العالم السفلي ــ الخ
«فأجاب الاب انكي ننشوبور قائلاً:
«ماذا حدث لابنتي؟ إنني قلق.
ماذا حدث لانانا؟ إنني قلق.
ماذا حَدَثَ لملكة البلدان؟ إنني قلق
ماذا حدث للبغي المقدسة؟ إنني مضطرب
فأخذ وسخا من تحت أظافره صنع منه الــ «كوجرو»
وأخذ وسخا من ظفره المصبوغ بالأحمر وصنع الــ «كالاترو»
وأعطى الكوجرو «خبز الحياة»
وإلى الكالاترو أعطى «ماء الحياة»
قال الاب انكي للكوجرو والكالاترو

«سيقدمون لكما ماء النهر فلا تقبلاه
«وسيقدمون لكما غلة الحقل فلا تقبلاها
قولا لاشكيغال «سلمينا الجثة المعلقة بالمسمار.»
رشا عليها خبز الحياة وماء الحياة
عند ذلك تقوم انانا وتعود لها الحياة.»

ويتلف بعض النص ويبقى بعضه، يتبين منه أن كوجرو وكالاترو نفذا تعليمات انكي ولم يشربا من ماء النهر ولا أكلا من غلة الحقول بل طلبا الجثة.

«تسلما الجثة المعلقة من المسمار
فنثر أحدهما خبز الحياة والآخر ماء الحياة
فقامت انانا.
ولما شرعت انانا تنوي الصعود من العالم السفلي
أمسكها الأنوناكي وقالوا لها:
من من الذين هبطوا إلى العالم السفلي استطاع أن يصعد سالما؟
فإذا أرادت انانا أن تصعد منه
دعها تقدم من يكون بدلا عنها.
«صعدت انانا من العالم الأسفل
وكان الشياطين الصغار مثل قصب «الشوكر»
والشياطين الكبار مثل قصب «الدبان»
الجميع يمشون بجانبها
والذي مشى أمامها حمل صولجاناً وإن لم يكن زيراً
والذي مشى بجانبها تمنطق بالسلاح وإن لم يكن فارساً
إن الذين رافقوها،
إن الذين رافقوا انانا،
كانوا مخلوقات لا تعرف الطعام ولا تعرف الماء.
لا يأكلون الطحين المبسوس،
ولا يشربون ماء القرابين،
إنهم يأخذون الزوجة من حضن زوجها،
ويأخذون الطفل من ثدي مرضعته.»

قصدت انانا إلى المدينتين السومريتين «أوما» و «بادتبيرا» فحل الذعر في قلب الهيهما «شارا» و«لثراك»، فلبسا المسوح وتمرغا في التراب أمام انانا فتقبلت خضوعهما وتذللهما ومنعت الشياطين من أخذهما إلى العالم السفلي. ثم تابعت سيرها وسط حشد الشياطين حتى مدينة كلاب وهي مدينة زوجها الاله الراعي «دوموزي» وكان يجلس

على عرشه بحلل العيد والأفراح، ورفض التمرغ والتذلل أمامها، فاستشاطت غضباً وصوبت عليه نظرة الموت وسلمته إلى الشياطين الغلاظ ليأخذوه إلى العالم السفلي.

«ارتدى دوموزي حلة فاخرة واعتلى جالساً على منصته
فأمسكه الشياطين من فخذيه..
هجم عليه الشياطين السبعة كما يفعلون بالرجل المريض
فانقطع الرعاة عن نفخ الناي والمزمار أمامه
ثبتت انانا نظرها عليه، إنها نظرة الموت
ونطقت بالكلمة ضده، إنها كلمة السخط
وفاهت بصرخة ضده، إنها صرخة التجريم:
«أما هو فخذوه»
لقد سلمت انانا الطاهرة دوموزي الراعي لأيديهم.»

«إن الذين رافقوه
إن الذين رافقوا دوموزي
كانوا مخلوقات لا يعرفون الطعام ولا يعرفون الماء
لا يأكلون الطحين المبسوس
ولا يشربون ماء القرابين
لا يتمتعون في حضن المرأة
ولا يقبلون الأطفال الأصحاء
إنهم يأخذون ابن الرجل من فوق ركبتيه
ويسلبون الكنة من بيت حميها.»
«بكى دوموزي حتى اخضر وجهه
نحو السماء رفع يديه إلى أوتو
«يا أوتو، أنت أخو زوجتي وأنا زوج أختك
أنا من يأتي بالزبد إلى بيت أمك
وأنا من يحضر الحليب إلى بيت «ننجال»
حول يدي إلى يد حية
وحول قدمي إلى قدم حية
دعني أتخلص من شياطيني ولا تدعهم يمسكونني.»

ويبدو أن اوتو لم يستجب لتضرعات دوموزي. وبموت دوموزي يدب الاصفرار في النبات وتسير الحيوانات نحو الانقراض وتعبس الطبيعة وترنم أغاني الحزن بعد أن أصبح الجحيم مسكن تموز.

والنص البابلي لقصيدة نزول عشتار إلى الجحيم مأخوذ عن النص السومري لكنه ليس مجرد ترجمة له بل أن له أسلوبه الخاص:

«إلى أرض اللاعودة» إلى ملك اريشكيغال،
عشتار ابنه سين توجهت بأفكارها.
نعم، ابنة سين توجهت بأفكارها
إلى بيت الظلام، مسكن «اركللا» (اريشكيغال)
إلى البيت الذي لا يخرج منه من قد دخله،
إلى الطريق الذي لا عودة منه،
إلى البيت حيث الداخلون يحرمون النور،
حيث التراب قسمتهم والطين طعامهم،
حيث لا يرون النور بل يسكنون الظلمة،
حيث يلبسون كالطيور، والأجنحة حللهم،
وحيث على الباب والمزلاج ينشر التراب،
عندما وصلت عشتار إلى بوابة «أرض اللاعودة»
فاهت بهذه الكلمات للحارس:
أيها الحاجب افتح الباب
افتح الباب كي أدخل.
وإذا لم تفتح الباب كي لا أدخل
سأحطم الباب، وسأكسر المزلاج
سأحطم حجاب الباب، سأنزع الأبواب،
سأقيم الموتى ليأكلوا الأحياء،
حتى يصبح الموتى أكثر من الأحياء.»
«فتح الحاجب فاه ليتكلم.
قائلاً لعشتار المعظمة:
«قفي يا سيدتي ولا ترمي الباب،
سأعلن اسمك للملكة «اريشكيغال»
دخل الحارس وقال لاريشكيغال:
«هوذا أختك عشتار تنتظر في الباب
تلك التي تحيي الاحتفالات العظمى
والتي تحرك الأعماق أمام أيا الملك.»
«عندما سمعت اريشكيغال هذا

شحب وجهها كالعشبة اليابسة
وفتحت شفتيها كقصبة «الكنينو» المهشمة.
«ماذا ساق قلبها نحوي؟ ما وجه روحها ههنا؟
أعلي أن أشرب الماء مع الأنوناكي؟
أعلي أن آكل الطين بدل الخبز وأشرب الماء العكر بدل الجعة؟
أعلي أن أندب الرجال الذين تركوا زوجاهم خلفهم؟
أعلي أن أندب العذارى اللواتي انتشلن من أحضان عشاقهن
أو علي أن أبكي الطفل الغض الذي ولى قبل أوانه؟
اذهب أيها الحاجب وافتح الباب لها
وعاملها حسب الشرائع القديمة.»
«تقدم الحاجب ليفتح الباب لها،
«ادخلي يا سيدتي لتفرح «كوتا» بك
ليفرح قصر أرض اللاعودة بحضورك»
ولما أدخلها من الباب الأول،
انتزع التاج العظيم عن رأسها
«لماذا أيها الحاجب انتزعت التاج عن رأسي؟
«ادخلي يا سيدتي، هكذا شرائع سيدة العالم السفلي»
ولما ادخلها من الباب الثاني،
انتزع الحلق من أذنيها
«لماذا أيها الحاجب انتزعت الحلق من أذني؟»
«ادخلي يا سيدتي، فهذه قوانين سيدة العالم السفلي»
ولما ادخلها من الباب الثالث،
انتزع القلائد من عنقها.
«لماذا انتزعت القلائد من عنقي أيها الحاجب؟»
«ادخلي يا سيدتي، هكذا أحكام سيدة العالم السفلي»
ولما ادخلها من الباب الرابع،
انتزع الزينة من على صدرها،
«لماذا أيها الحاجب انتزعت الزينة عن صدري؟»
«ادخلي يا سيدتي، هذه قوانين سيدة العالم السفلي»
ولما ادخلها من الباب الخامس
انتزع نطاق حجارة الولادة عن وركيها.

«لماذا انتزعت حجارة الولادة عن وركي أيها الحاجب؟»
«ادخلي سيدتي، هكذا نواميس سيدة العالم السفلي»
عندما ادخلها الباب السادس
انتزع الحبكات حول يديها ورجليها.
«لماذا انتزعت الحبكات أيها الحاجب من يدي ورجلي؟»
«ادخلي سيدتي، هكذا تقضي شرائع العالم السفلي»
ولما ادخلها من الباب السابع،
انتزع الرداء عن جسدها.
«لماذا أيها الحاجب تنتزع الرداء عن جسدي؟»
«ادخلي يا سيدتي، فهذه أحكام سيدة العالم السفلي»
وما أن هبطت عشتار إلى أرض اللاعودة،
حتى انفجرت اريشكيغال من حضورها
ركضت عشتار نحوها دون تفكير.
فتحت اريشكيغال فاها وتكلمت،
قالت هذه الكلمات لوزيرها «نمتار»:
«اذهب يا نمتار واسجنها في قصري.
وأطلق عليها، على عشتار، الأمراض الستين:
مرض العيون على عينيها
مرض الجوانب على جنبيها
مرض القلب على قلبها
مرض الأرجل على رجليها
ومرض الرأس على رأسها
وعلى كل جزء منها، على كل جسدها»
«بعد أن هبطت «السيدة عشتار» إلى العالم السفلي،
الثور لا ينط على البقرة،
والحمار لا يلقح الاتان،
وفي الشارع، الرجل لا يلقح الصبية،
والرجل ينام وحده في غرفته
والصبية تستلقي على جنبها.»
«تغيرت سحنة «يبسوكال» وزير الالهة العظام
وأحاطت وجهه غشاوة،

لبس ثوب الحداد، وأطال شعره
سار يبكي أمام أبيه «سين»
وجرت دموعه أمام «ايا» الملك.
«نزلت عشتار إلى العالم السفلي ولم تصعد،
ومذ هبطت عشتار إلى أرض اللاعودة
الثور لا ينط على البقرة،
والحمار لا يلقح الاتان،
وفي الشارع، الرجل لا يلقح الصبية،
والرجل ينام وحده في غرفته
والصبية تستلقي على جنبها.»
«وفي قلب ايا الحكيم تكونت صورة،
خلق الخصي «اسوشونمير»:
«انهض يا اسوشونمير، واتجه نحو باب أرض اللاعودة،
ستفتح لك بوابات أرض اللاعودة السبعة،
ستراك اريشكيغال وتفرح بحضورك،
وعندما يهدأ قلبها وتسعد بمزاجها،
دعها تقسم بيمين كبار الالهة
ثم ارفع رأسك وانتبه لضرف ماء الحياة:
«أرجوك يا سيدتي، دعيهم يعطونني ضرف ماء الحياة
الماء الذي منه سأشرب.»
«وما أن سمعت اريشكيغال هذا
حتى ضربت فخذها وعضت بنانها:
«لقد طلبت مني الشيء الذي لا يطلب
وها إني سألعنك يا اسوشونمير لعنة قاسية.
من قمامة المدينة سيكون طعامك.
ومن مجارير المدينة سيكون شرابك،
في ظلال الجدران سيكون موقفك
وعلى العتبة ستكون سكناك
المختل العقل والعطشان، سيلطمان خدك.»
ثم فتحت اريشكيغال فاها لتتكلم
فقالت هكذا لوزيرها «نمتار»:

«انهض يا نمتار واطرق (قصر العدل) «اجلجينا»
زين العتبات بحجارة المرجان،
احضر الانوناكي واجلسهم على عروش من ذهب،
رش عشتار بماء الحياة وخذها من حضرتي»
سار نمتار وقرع باب اجلجينا
زين العتبات بحجارة المرجان
أحضر الأنوناكي وأجلسهم على عروش من ذهب
ورش عشتار بماء الحياة، واخرجها من حضرتها.
ولما أخرجها من الباب الأول
أعاد إليها رداء جسدها
وعندما أخرجها من الباب الثاني
أعاد إليها حبكات اليدين والرجلين
ولما أخرجها من الباب الثالث
أعاد نطاق حجارة الولادة لوركيها
ولما أخرجها من الباب الرابع
أعاد لها زينة صدرها
ولما أخرجها من الباب الخامس
أعاد لها قلادة عنقها
ولما أخرجها من الباب السادس
أعاد لها حلقات أذنيها
ولما أخرجها من الباب السابع
أعاد لها التاج العظيم على رأسها
«إذا لم تعطى فدية عنها تعيدها إلي.»
«وأما تموز عشيق شبابها
فاغسله بالماء الطاهر وامسحه بالزيت الحلو
ألبسه حلة حمراء ودعه «يلعب» بالناي
ودع أهل البلاط يبدلون مزاجه.»

وبينما كانت أخته «بليلي» تخيط جواهرها
و«حرجها» مليء بـــ «أحجار العين»
سمعت عزف أخيها فنثرت جواهرها

حتى أن «أحجار العين» ملأت (الأرض)
«أخي الوحيد لا تكن سبب أذيتي.
يوم يعود تموز إلي،
عندما يصعد بثيابه اللازوردية وخاتمه الأحمر إلي،
عندما معه يأتي الرجال النائحون والنساء الباكيات إلي
فلتكن قيامة الموتى ويستنشقون البخور».

أما في القصة السومرية فيبدو أن الندم قد دب في قلب انانا فتعاونت مع أخته «كشتين» آنا (كرمة عنب السماء) لتنتشله من براثن الموت. وهو في أرض اللاعودة أوصت انانا بالبكاء من أجله، وصارت تقام المناحات كل عام، وكانت تبكيه النساء من اورو إلى أورشليم، وقد قيل أنه في «أرض اللاعودة» يخفف من تعذيب الشياطين للمرضى.

وبعودة تموز إلى الأرض تدب الحياة من جديد وتعم المسرة كل الكون وتتجدد الحيوية في كل مخلوق، فتنمو الأعشاب والأزهار لتغطي المروج وتتحرك الأجنة في الأرحام وتكبر عناقيد البلح وترنم الأناشيد فرحاً بعودته. كذلك يحصل عند قيامه عليان بعل وأدونيس.

ملحمة جلجامش

في عام (1843) وبمبادرة من «بول اميل بوتا» قنصل فرنسا في الموصل بدأ التنقيب في خورس آباد (دورشاروكين)، فاكتشف الآشوريين وبدأ عهد جديد في دراسة الآشوريات.

وفي عام (1845) بدأ التنقيب البريطاني سير هنري لايارد في نمرود (كلخ) ونينوى (سقطت عام 612 ق.م) يعاونه المنقب العراقي «هنري رسام» (1826–1910) فوجد كنزاً لا يقدر بثمن وهو مكتبة «آشور بانيبال» (669–630 ق.) آخر ملوك آشور العظام، ولم يدر بخلد المنقب البريطاني أنه سيعيد للعالم أدباً رائعاً مفقوداً في تلك المدينة الدارسة. وفي عام (1852) خلفه هنري رسام فاكتشف عام (1853) القسم الثاني من مكتبة آشور بانيبال، الذي حوى لوحات المجموعة الآشورية لملحمة جلجامش.

لقد تجمع في تلك المكتبة (25000) لوح طين تحمل الكتابة المسمارية. إحدى مجموعات المكتبة حَوَتْ (20000) لوح تمثل التراث القديم لبلاد ما بين النهرين في الأدب والدين والإدارة والتجارة، مع عدد كبير من الرسائل، وفروع العلم من رياضيات ونبات وكيمياء ونواميس. ويخبرنا آشور بانيبال إنه أرسل البعثات لتفحص سجلات مراكز العلم القديمة في بابل واوروك ونيبور ولينسقوا ويترجموا إلى الاكادية تلك النصوص التي كانت مكتوبة بالسومرية. فجمع مكتبة ممتازة «دونت حسب النص الأصلي ونظمت في قصر آشور ــ بانيبال، ملك العالم، ملك آشور». وقد نقلت هذه الألواح إلى المتحف البريطاني في لندن حيث ما زالت محفوظة حتى الآن. وقد بدأ «هنري رولنصن» بحل رموز تلك الألواح وهو في بغداد، وكان مفتاح حل الرموز في هذه الألواح هو حجر «بهستون» (باهستان) المدوّن بثلاث لغات، سجلا لـ «دارا» (داريوس) ملك فارس، بلغة فارس القديمة ولغة عيلام ولغة بابل. وفي عام (1855) عاد رولنصن ليتابع العمل في المتحف البريطاني، وفي عام (1866) انضم إليه «جورج سميث» في معالجة الألواح. وفي عام (1872) أعلن سميث في اجتماع لجمعية «آثار الكتاب المقدس» أنه «قد كشف منذ وقت قصير من بين الألواح الآشورية في المتحف البريطاني عن رواية عن «الطوفان». عندما نشر جورج سميث الرواية الآشورية للطوفان ذكر أنه يبدو أنها نسخة عن ترجمة أقدم منها كثيراً تمت في أوروك. وعند التوسع في فك الرموز المسمارية وجد بين الوثائق أثنتي عشر لوحة شعرية يحمل بطلها اسم جلجامش، ولوحة الطوفان كانت اللوحة الحادية عشرة. وتمثل هذه المجموعة المكتشفة في مكتبة آشور بانيبال في نينوى أكمل نص لملحمة جلجامش.

وبين (1849–1852) كان «لوفتوس» يحفر في أوروك حيث عثر على أطلال مثيرة، منها «حوائط الألف الثالث الفسيفسائية» كما تضمنت ألواحاً. وفي الربع الأول من القرن العشرين قام العلماء الألمان بالتنقيب في أوروك ومعابدها. وفي الأعوام (1888–1889) قامت بعثة أمريكية برئاسة «جون بيترز» بالتنقيب في نيبور (نفر)

بجنوب العراق وعثرت على مجموعة من الألواح تقدر بـــ(30-40) ألــف لــوح، توزعــت بين متاحف فيلادلفيا واستنبول، من بينها ألواح عن جلجامش باللغة السومرية.

وعاد التنقيب في نيبور عام (1957-1958) وكشف الأمريكيــون عــن ألــواح تشــير إلى جلجامش تعود إلى الألف الثالث قبــل المــيلاد. ويظهــر أن ملحمــة جلجــامش كانــت منتشرة ومعروفة على نطاق واسع في الألف الثاني قبل الميلاد، فثمــة ترجمــة اكاديــة وجــدت في «بوغازكوي» (خاتوشاش) في الأناضول وترجمة حثية وأخــرى حوريــة. كمــا وجــدت في مجدون في فلسطين ترجمة كنعانية، ومن المحتمل أن يكون كتبــة «الكتــاب المقــدس» الأوائــل على اطلاع بالقصة. ونصوص بوغازكوي تعــود إلى (1400 ق.م) وتســاعد في ســد بعــض الثغرات في النص الآشوري. وقــد وجــدت في ســيبار لوحــة بالاكاديــة تعــود إلى (1800 ق.م) تحوي أجزاء من اللوحات النينوية (2و3و10).

ونحو عام (1200 ق. م) نظم الشاعر «ســين ـــ لقــي ـــ اونــيني» مــن أوروك مدينــة جلجامش نصا اكادياً لقصص جلجامش ويرجح أن نص نينوى هو نسخة عنه.

والثغرات في هذا النص الأخير يمكن ملؤها جزئياً مــن بعــض نصــوص الألــف الثــاني قبل الميلاد ومن مقطوعات تعود للقرنين السابع والســادس قبــل المــيلاد وجــدت في أوروك وآشور وسلطان تبة قرب حران. إن تزايد المكتشــفات في التنقيــب زاد في مــلء الفراغــات في مختلف النصوص وخاصة ما ترجمه «صموئيل كريمــر» الأســتاذ في جامعــة بنســلفانيا مــن النصوص السومرية. وقد تم حتى الآن الكشف عما يقارب نصــف مجمــوع أســطرها البالغــة زهاء (3500) سطراً. كما يظهر أن البــابليين أنفســهم قــد أشــاروا إلى مجموعــة ملحمــة جلجامش باسم «مجموعة جلجامش»، وكانت بحسب ترتيب الكتبــة القــدماء، تتــألف مــن اثني عشر قطعة غنائية أو اثني عشر فصلاً يحتوي كل منــها علــى نحــو (300) ســطراً، وقــد دوّن كل فصل على لوح منفصل في مكتبة آشور بانيبال.

إن ملحمة جلجامش تســتحق أن تتبــوأ مكانهــا في الأدب العــالمي، لا لأنهــا ســبقت الملاحم الهوميرية بألف وخمسمئة سنة على الأقل وحسب، بل مــن أجــل نــوع القصــة الــتي ترويها وطبيعتها. فهي مزيج من المغامرة والأخــلاق والمأســاة. وجلجــامش لــيس أول بطــل بشري بل أول بطل مأساوي مثل خوف الانسان من المــوت واهتمامــه بــالهرب مــن هــذه النهاية المحتمة.

وهناك أسباب وجيهة لشهرتها وذيوعها بــين الجمــاهير في الأزمــان القديمــة والحديثــة على السواء. إن ملحمة جلجامش تعد من حيــث أهميتــها الانســانية ووقعهــا الــدراماتيكي قطعة فريدة في الأدب البابلي. ففيها الانسان هــو الشــاغل لمركــز المســرح ولــيس الآلهــة والقوى المجردة المؤنسنة. فالانسان يحب ويبغض، يفرح ويكــافح، يخــاف ويأمــل ويقــنط ولا يكون مجرد كركوز لا إرادة له تحركه أيدي الآلهة. إن الملحمة تــدور حــول مشــاكل عامــة في حياة الانسان حيثما كان وخلال جميع العصور. كالحاجــة إلى الصــداقة والرفقــة والــولاء والاخلاص والحوافز الفردية والمغامرة والخوف من المــوت والتطلــع إلى الخلــود. لــذا لــيس من المدهش إن ملحمة من أجمل الشعر، وقصة ترجع خمســة آلاف ســنة إلى الــوراء مــا زال عندها القدرة على أن تجتذب وتحرك القراء في القرن العشرين.

التاريخ الأدبي للملحمة:

رغم أن النص الذي وجد في مكتبة آشور بانيبال هو النص الأخير والأكثر تكاملاً، فإنه يظهر إن أكثر العناصر المهمة في القصة قد وجدت في الأدب السومري الأقدم على هيئة قصائد منفصلة. ويحتمل إنها ألفت وكان يجري تلاوتها قبل أن تدّون بوقت طويل. فبين عامي (1911-1935) تم نشر ستة وعشرين لوحا مدونة بالقصائد الخاصة بجلجامش بالسومرية.

ومنذ عام (1935) استطاع كريمر أن يتعرف في اسطنبول وفيلادلفيا على أكثر من ست قطع من قصص جلجامش بالسومرية. وتتألف المادة السومرية من ست قصائد يمكن أن نعنونها على الوجه الآتي وهي قصائد منفصلة:

1 ــ جلجامش وأرض الأحياء.

2 ــ جلجامش وثور السماء.

3 ــ الطوفان.

4 ــ موت جلجامش.

5 ــ جلجامش وأجا ملك كيش.

6 ــ جلجامش وأنكيدو في العالم السفلي.

إن تحليلاً لمحتويات قصص جلجامش السومرية ومقارنتها بما تحويه ملحمة جلجامش البابلية سيكشف الأسلوب الذي اتبعه مبدعو الملحمة البابلية في استعمالهم المصادر السومرية وعن مدى هذا الاستعمال.

إن محتويات القصيدة الأولى «جلجامش وأرض الأحياء» تعادل بوجه عام قصة «غابة الأرز» في الملحمة البابلية، إلا أن تفصيل الحادث يختلف كثيراً مضافاً إلى ذلك إن رفاق جلجامش في القصة السومرية خمسون شاباً بينما لا يرافقه في القصة البابلية سوى أنكيدو وحده. كما لم تذكر القصيدة السومرية «مجلس مشيخة» أوروك بينما ذكر في الرواية البابلية.

والقصيدة الثانية «جلجامش وثور السماء» فإنها تشابه نظيرتها البابلية مع فوارق في التفاصيل.

وقصيدة الطوفان تختلف في تفصيلها وطريقة روايتها عن قصة الطوفان البابلية. وقد جعلها البابليون تروى بلسان المتكلم «اوتنابشتيم» بدلاً من ضمير الغائب «زيوسودرا» والطوفان السومري سبعة أيام وسبع ليالي بينما الطوفان البابلي ستة أيام وسبع ليال، وأخيرا قصة إرسال الطيور لمعرفة درجة انحسار المياه لا توجد إلا في الملحمة البابلية وقد اقتبستها عنها قصة الطوفان في التوراة.

وقصيدة موت جلجامش لا يوجد ما يعادلها في الملحمة البابلية. وأيضاً قصيدة جلجامش وأجا لا يوجد أي أثر لها في الملحمة البابلية، وهي تتألف من 115 سطراً، وهي ذات أهمية خاصة في الفكر السياسي وممارسته لأنها تكشف عن وجود نوع من المؤسسات الديمقراطية منذ (3000) سنة قبل الميلاد.

أما قصيدة جلجامش وأنكيدو في العالم السفلي فقد اقتبس البابليون نصفها الثاني وترجموها في اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش الاكادية. وهكذا نرى أن الرواية البابلية ليست مجرد إعادة مبتذلة للأصول السومرية، فالشيء المشترك بينهما ليس سوى الخطوط العامة لأساس الرواية.

وأما المقدمة التي في مطلع الملحمة وسلسلة الحوادث التي مكنت الصداقة بين جلجامش وأنكيدو (اللوح 1و2) وموت أنكيدو ودفنه (اللوح 78) فلم يعثر لها على أصول سومرية، فهل وقائعها من أصل بابلي صرف؟ ومهما كان الحال فالكتبة البابليون لم ينسخوا النص القديم حرفياً، بل أضافوا وحذفوا وعدلوا مما يبرهن أن الشرق لم يكن يوماً مصاباً بالجمود الفكري. إن التعديلات جاءت لتلائم المزاج والتراث البابلي بحيث لم يبق ما يميز منها إلا النواة السومرية الأصلية. أما بناء الملحمة البابلية بصفتها وحدة كاملة، دراما قوية مشحونة بالأحداث فهي انجاز وتطور بابليان وليسا سومريين. ويمكن وصف «ملحمة جلجامش» بحق إنها ابداع سامي بحث .

الإطار التاريخي:

ظهر السومريون في بلاد ما بين النهرين في الألف الرابع قبل الميلاد وبدأوا حضارة ما قبل التاريخ. وفي لوائح الملوك قالوا أن الملكية «أنزلت من السماء» فبدأت في مدينة اريدو ودامت /64800/ عاماً ثم انتقلت إلى باديتيبيرا ودامت /108000/ عاماً وكان من ملوكها دوموزي ثم انتقلت إلى لارا ودامت /28800/ عاماً ثم انتقلت إلى سيبار ودامت /21000/ عاماً ثم إلى شوروباك ودامت /18600/ عاماً ثم كان الطوفان في عهد الملك اوتنابشتيم (زيوسودرا) الملك العاشر قبل الطوفان. وهذه الأرقام الخيالية من السنين تذكرنا بالأرقام الخيالية الواردة في التوراة عن أعمار آدم وسلالته من الآباء حتى نوح الطوفان.

بعد الطوفان تقول لائحة الملوك السومرية إن الملكية «أنزلت من السماء» وبدأت هذه المرة في مدينة كيش وكان من ملوكها ايتانا الراعي الذي صعد إلى السماء وسقط، وكان آخر ملوكها «أجا» الذي قهره ملك أوروك ليتصدر الزعامة السومرية. ومن سلالة أوروك كان الأول مسكياجاشر ابن إله الشمس اوتو الذي «دخل البحر وعاد إلى الجبل» وحكم /325/ عاماً ثم «انمركار» الذي بنى أوروك وحكم 420 عاماً وهو من أبطال الملاحم ثم «لوجالبندا» «الراعي الالهي» الذي حكم 1200 عاماً ثم دوموزي «تموز» الراعي وصياد السمك والذي حكم 100 عام، ثم جلجامش الذي يقول أنه ابن لوجاليندا والآلهة نينسون والذي حكم 126 عاماً وقد عاصر ملك كيش وانتزع منه قيادة المدن السومرية، ونظمت عنه القصائد وأصبح بطل ملحمة جلجامش ولكن لا يوجد دلائل تاريخية لما جاء عنه في الملحمة والأشعار.

ولكن حسب لائحة الملوك كان الملك الخامس في سلالة أوروك الأولى، ومعنى ذلك أنه كان ملكاً في النصف الأول من الألف الثالث ق.م ومن المحتمل أنه كان شخصاً تاريخياً موهوباً وقائداً كبيراً آثار خيال معاصريه ومن لحقهم فنسجت حول أعماله القصص التي كان بعضها من باب الفعل البطولي والبعض الآخر من باب الأساطير الخالصة. وجلجامش الأمير وصف بأنه بناء وقاض عادل. وقد كشفت حفائر أروك

(ارخ الورقاء) فخامة المعابد والأسوار حتى في فترة ما قبل التاريخ. وعندما سيطر الساميون بقيادة سرجون الأكادي نحو 2350 ق.م كان من أعماله «تحطيم أسوار أوروك» والملحمة تجعل جلجامش البناء العظيم لأسوار أوروك المنيعة.

كانت الأسر السومرية الحاكمة تقيم معابد من أبراج مدرجة ذات طبقات عرفت بـ «الزيقورات» وكانت بلاد الرافدين تفتقر إلى الحجارة والأخشاب. وتخبر تسجيلات الحروب عن حملات شنها سرجون الأكادي وجوديا انزي لغش لجلب الأخشاب اللازمة للمعابد. وكان خشب الأرز يجلب من جبال اللكام في شمال غرب سوريا وجبال لبنان في غربها. وقد ذكر في الملحمة أن جلجامش قد أحضر سبع أرزات قطعها من جبال اللكام (السود، الامانوس) لبناء معابد أوروك.

كان جلجامش يمثل الصورة الأولى والصادقة لقوة الحياة. وقد استغل رجال ونساء مدينته وبنى أول سور مدينة في العالم. وتشكل ملحمة الخلق وملحمة جلجامش الملحمتين الرئيسيتين في أدب ما بين النهرين. لكن ملحمة الخلق «انوما ايلش» هي أقرب إلى نوع الأدب الكهنوتي الفلسفي الديني. إنها قصة التكوين البشري الرسمية وعلى هذا الأساس تقيم درجتها الروحية في كل عصر. بينما ملحمة جلجامش هي انتاج فني شعري أكثر منها وثيقة دينية. وهي انجاز شعري يسمو على الزمن وأقدم ملحمة بطولية في التاريخ، ومثال في التركيب الملحمي، تتناول مشكلة الانسان الأزلية، مشكلة الحياة والموت وبالتالي جدوى الوجود الانساني أو عدم جدواه. ومن ثم خلق وفناء الانسان على أيدي الآلهة، لأن أفكار الملحمة لا تشكل معنى اقليمياً بل انسانياً وعالمياً لا شرقياً. لهذا تعتبر هذه الملحمة من روائع الأدب العالمي أكان جلجامش الملك تاريخياً أم مجرد أسطورة.

في البدء كانت أمنا «نمو» (البحر الأول) الالهة العظيمة. التي غمرت مياهها كل الكون. ومع مرور الزمن على هذه الالهة الوحيدة في سعتها اللامتناهية ولدت ولدين بصورة البشر. الأول ابن اسمه «آنو» هو الذي يمثل بشكل قوس من قطب إلى قطب ونسميه السماء، والثانية ابنة اسمها «كي» ونسميها الأرض.

في أول ولادتهما كان آنوا وكي متحدين بهيئة جبل شاهق يطلع في الفضاء الكوني فوق السحاب. ومن هذا الاتحاد ولد الاله العظيم «انليل» الذي دفعه حبه الأبوي أن يخلق إلى فصل الأرض عن أخيها السماء. وأخذ اله الهواء انليل الآلهة «كي» في الفضاء بين الغيوم ومنها جبل كل أنواع الحيوان على الأرض وكل نباتات الجبال والوديان والأنهر والصحراء وأخيراً خلق الانسان.

«فصل انليل الأرض عن السماء
ليجعل المخلوقات الناشئة تنمو
صنع الفأس وكان نهار
وأودع في الفأس والسلة الحول والقوة
ومجد انليل فأسه
وفرض العمل وقرر المصائر
وبحضرة الأنوناكي الذين أحاطوا به

وضعها منحة في أيديهم
لقد صلوا وسبحوا انليل
وأعطوا الفأس إلى البشر ليعملوا بها «الكلمة الصافية»

ومن معبده الرائع في نيبور حكم انليل العالم وعيناه ترتفعان تنظران إلى الشرق البعيد حيث ينبع «دجلة» وينحدر بمياهه الموحلة جنوباً في تلال آشور المقفرة، وإلى الغرب البعيد حيث «الفرات العظيم» يسير عريضاً بطيئاً يروي سهول سومر ويهب الحياة قبل أن ينتهي إلى البحر.

وفي مكان طاهر على عرش أبيض جلس انليل كـ (جبل عظيم) يمر باصبعه مشيراً إلى البحر واليابسة، يرسل أشعة الشمس على السهول، يسوق المياه من التلال لتروي الصحاري، وينظر إلى خليقته متمنياً لها الخير والرخاء. وفي جلال القادر على كل شيء عين اله الحكمة (انكي) «ايا» ليرعى قبل كل شيء أرض سومر العظيمة حيث الذهب والفضة تنقلهما المراكب إلى معبد انليل في نيبور.

وبنى أنكي بيتاً له في الغمر من فضة ولازورد وتم هذا البناء في مدينة اريدو (إحدى المدن السومرية الخمسة قبل الطوفان).

«بعد أن قدرت الخليقة
وبعد أن ولد اسم «حيكال» الخير في السماء
انكي الرب الذي يقرر المصائر
بنى بيته من فضة ولازورد
فضته ولازورده مثل ضياء منير..
في أريدو بنى «بيت شاطىء الماء»
الذي يكاد لُبْنَهُ ينطق وينصح»

عظيمة هي أعمال انكي وان معظمها هبات للبشر. كمعلم صالح كدن الثيران لتفلح في الفصل المناسب. وعلم الانسان كيف ينبت الحبوب كالجواهر في الحقول المشمسة. ومن التلال ساق الأغنام تتبعها صغارها وبنى لها الحظائر. وجعل الأسماك في الأنهر تبيض بين الأعشاب وتتكاثر لتغذي شعب سومر. ولما انحنت قصيبات الشعير تحت السنابل الثقيلة بنى انكي الصوامع وملأها بالحبوب وكل ثمار البساتين، الدراق والتوت والرمان والموز والمشمش.

من طين النهر جبل القرميد المربع وعلم الصناع «ذوي الرؤوس السود» (السومريين) كيف يبنون الجدران والمدن مدماكاً فوق مدماك ويزينونها بخشب الأرز. وحول كل مدينة من مدن سومر بنى انكي سدوداً ليحتجز المياه للري في فصل الجفاف كي لا يلفح القمح الندي بحرارة شمس الظهيرة. وفي الحدائق الغناء غرس أشجار النخيل وأخذ «يوشوش» بريح الجنوب.

ومن بعيد لمعت جدران الزيقورات العالية في مرافىء سومر. من نيبور امتدت أرض سومر جنوباً نحو النهر المر (الخليج الفارسي).

في لغش كان يحكم ملك طويل القامة اسمه «اور ـ نمو» وفي أور ارتفعت الزيقورات العظيمة، أعمدتها من القرميد المغلف بالنحاس واللؤلؤ، وفي كيش واريدو ارتفعت المصاطب الواسعة حيث أقيمت المعابد الضخمة للآلهة ولكن أعظم هذه المدن كانت أوروك (ارخ ـ الورقاء) على ضفة الفرات الشرقية. هذه المدينة الجميلة بقيت ذكراها حية جليلة على مر العصور وذلك بفضل أعمال مليكها العظيم..

جلجامش

اللوح 1

«سأعلن للعالم عن مآثر جلجامش
الرجل الذي كان يعلم كل شيء،
الملك الذي عرف كل أقطار العالم،
كان حكيماً، رأى الخبايا وكشف الأسرار،
وأخبرنا قصة عن أيام ما قبل الطوفان،
ذهب في رحلة طويلة، تعب وأنهكه العمل،
ولما عاد حفر القصة كلها على الصخر.»
«لاوروك المنيعة بنى الأسوار
ومعبد «اي آنا» المزار الطاهر.
ها سورها الخارجي الفريز كالنحاس،
انظر سورها الداخلي، ليس له نظير،
انظر العتبات، إنها بنيت منذ القدم،
اقترب من «اي آنا»، مسكن عشتار،
لن يقدر ملك أو انسان أي يصنع مثله.
اصعد سور اوروك، سر عليه،
تطلع إلى مصاطب الأساس، وتفحص البناء
أليس مبنياً من الطوب المحروق
ألم يرس أسسه الحكماء السبعة؟»

(الحكماء السبعة أسسوا حضارة أول سبع مدن)

كان جلجامش ملكاً وسليل ملوك. ولد في قصر ملك أوروك وعند ولادته اجتمع كل الآلهة ليمنحوه الصفات العالية ـ لقد أعطوه جسداً كاملاً:

جلجامش البطل يحمل أسداً ــ جدارية من دور شروكين القرن 8 ق.م

«شمش» اله الشمس العظيمة، وهبه الجمال
«هدد» إله العواصف، وهبه الشجاعة
الآلهة العظام جعلوا جسده كاملاً
جعلوه بثلثيه الهاً وثلثه بشري»

كانت أم جلجامش الآلهة ننسون التي تعرف كل معرفة وانصبت على دراسة المستقبل. وكان جلجامش يستطيع أن يعتمد عليها ويفضي لها بأي سر. وأبوه لوجال بندا كان ملكاً ورئيس كهنة. هو ملك أوروك الثالث يليه دوموزي ثم ابنه جلجامش الملك الخامس. نما جلجامش وأصبح جبارا قوياً، وملكاً عظيماً، شجاعاً، يصيد الأسود والثيران الوحشية، وفي الحرب قائداً لا يخشى. كانت ساقاه قويتين كأعمدة الأرز ويمكنه أن يحتجز أسداً بذراعه اليسرى بينما يحمل بيده اليمنى عموداً من البرونز

رداؤه قصير الأكمام يترل حتى الركبتين، وحول معصمه أساور من ذهب. يتجول بين جنوده يدربهم ويعلمهم المصارعة، شعره كثيف أسود أجعد تترل منه لفيفة من تحت خوذته. عيناه سوداوان كبيرتان، أجفانه سميكة وحاجباه ينحنيان مثل قوسين. أنفه غليظ وشفتاه غليظتان، ولحيته طويلة من اثني عشرة ضفيرة. وفي الأعياد الرسمية كعيد الذرة في الربيع كان يظهر بردائه الطويل ولباس رأسه المستدير فيبدو طويلاً وكأنه اله، عالياً وكأنه جبل، مبهراً كنور الشمس المنعكس من جدران أوروك. لذلك دعوه «كاشف كل شيء» و«سيدنا الذي يرى كل شيء» هكذا تصوره النحاتون السومريون والبابليون.

وفي الصراع من أجل الهيمنة على المدن السومرية يخبرنا لوح سومري عن الحرب بين أجا ملك كيش وجلجامش «ملك أوروك» و«سيد كلاب» ويروي الشاعر كيف أن أجا أرسل مبعوثيه إلى مدينة أوروك وهم يحملون انذاراً نهائياً وقبل أن يرد جلجامش الجواب استشار مجلس «شيوخ مدينته المنعقد» وحث أعضاءه على ألا يخضعوا لمطالب كيش لكن الشيوخ اختاروا الأذعان، فاغتاظ جلجامش من قرارهم وقصد «مجلس الرجال المحاربين» فوافقوه على الحرب دون الخضوع. وهذا ذكر لأول برلمان في التاريخ من مجلسين انعقدا نحو 2800ق.م وبعد زمن لم يطل «أقل من خمسة أيام ولم يطل أكثر من عشرة أيام» جاء أجا وحاصر أوروك. فأرسل جلجامش الرعب في قلوب الأعداء وبعد حصار خمسة أيام انتهت الحرب بالمصالحة وبقاء جلجامش على عرش أوروك:

«إن رسل «اجا» بن «نميبارا جيسي»
ساروا من كيش إلى جلجامش في أوروك.
عرض السيد جلجامش الأمر على شيوخ مدينته
وقال لهم:
«علينا أن لا نذعن لبيت «كيش» ولنحارب بالسلاح»
ولكن «مجلس شيوخ المدينة المنعقد» أجاب جلجامش:
«لنذعن إلى بيت كيش» ولا نحارب بالسلاح»
أما جلجامش سيد كللاب».

الذي يحقق أعمال البطولة من أجل الآلهة «انانا»
فلم يسر لكلام شيوخ مدينته.
إن جلجامش سيد كلاب مرة أخرى
عرض الأمر على محاربي مدينته وطلب القرار:
«لا تذعنوا لبيت كيش ولنضربه بالسلاح»
فأجاب «مجلس المحاربين المنعقد» جلجامش:
لن نذعن لبيت كيش ولنضربه بالسلاح»
عندئذ سر جلجامش سيد «كلاب»
بكلام محاربي مدينته، وابتهجت روحه»

طغى الغرور على جلجامش إذ لم يجد انساناً يعادله بقوته. بأجزائه البشرية، أحب النساء. إذ كانت شهوته لا تنطفىء وأي امرأة لا يمكنها أن تكفي غرائزه. فإذا ركب في شوارع المدينة اختطف الصبية من أمها، ولا يوفر زوجة النبيل، أو عروساً ليلة زفافها:

«قوي كثور بري وشامخ (كالجبل)
في الحروب لا يضاهي سلاحه سلاح.
إن جلجامش، بالطبل يوقظ رفاقه
اشراف أوروك كئيبون في منازلهم:
«إن جلجامش لا يترك الابن لأبيه
طغيانه لا يكبح إن بالنهار أو بالليل
هل هذا جلجامش «راعي» أوروك المنيعة
أهذا راعينا، حكيم ووسيم وعنيد؟
جلجامش لا يترك عذراء لأمها،
لا ابنة المحارب ولا زوجة النبيل»

عبثاً حاول مجلس المدينة أن يمنعه بالاحتجاج. إنه لا يصغي إلى احتجاج أو رجاء. ولم يكن في المدينة أو في كل سهل شنعار من يجرؤ أن يتحدى الملك أو يبارزه. كرهه الشعب من أجل تعاليه وعدوانه، ويئس مجلس الشيوخ من مراجعته. فقدموا القرابين في معبد «آرورو» الهة الأمومة العظيمة.

«سمعت الآلهة شكواهم ومرثاتهم
آلهة السماء صرخت لآنو سيد اوروك
«ألم تخلق «آروزو» هذا الثور البري القوي؟
أسلحته في القتال حقيقة لا تضاهى.
يقرع الطبل لينهض رفاقه
جلجامش لا يترك الابن لأبيه

طغيانه لا يكبح في الليل أو في النهار.
أهذا راعي أوروك المحصنة؟
أهذا هو الملك راعي الشعب؟
شجاع وسيم وحكيم؟
إن شهوته لا تترك عذراء لحبيبها
لا ابنة المحارب ولا زوجة النبيل»
وعندما سمع آنو احتجاجهم
صاحت الآلهة مخاطبة آرورو:
«أي آرورو أنت خلقت هذا الرجل،
فاخلقي الآن نظيره،
اجعليه شبيهاً له كصورته ذاتها
قلب عاصف يواجه قلباً عاصفاً
دعيهما يتنافسان لتعيش أوروك بسلام»

سمعت الآلهة نواحهم واحتجاج الآلهة وسرت بقرابيهم واصغت بعطف إلى مأساقم فخلقت نظيره.

خلق أنكيدوا

أشفقت الآلهة الأم على أبناء أوروك فنزلت من خدرها الذهبي على أدراج الزيقورة الحلزونية وسارت بتفكير عميق عبر السهل، حتى وصلت إلى ضفة النهر العظيم (الفرات) وبين أشجار الصفصاف والبردي انحنت آرورو ورأس صندلها الذهبي يعرز في الطين الأسود. أخذت تجمع الطين بيديها وبرفق وصبر تلت صلاة إلى الاله آنو الذي بكل قداسة لم يدع قط أسراب نجومه تمس الأرض.

أخذت تصنع انساناً على صورته. وبينما هي تعمل نسمت ريح الجنوب على صورة الطين حتى دخلتها «نسمة الحياة» ونفخت أضلاعها ففتحت أهدابها الطويلة. هكذا خلق أنكيدو النبيل وجاء إلى سومر. كان نصف أنكيدو الأعلى رجلاً عارياً ونصفه السفلي ثوراً، هكذا صنعته آرورو. أخذ الفضيلة من اله الحرب «نينورتا» جسده خشن وشعره طويل كشعر امرأة يتطاير كشعرِ «نيسابا» الهة القمح. ويغطي جسده شعر لبد مثل «شموقان» اله القطعان. كان حراً كالنسيم سعيداً كعجل في المروج الخضر، صحيح البنية كحيوان بري. يركض عند النهر ويتوغل في السهول. كان يأكل العشب مع الغزلان. يلهو ويتدافع مع وحوش البرية على موارد المياه. عاش زمناً في الجهل وراحة الفكر ما شاءت له آرورو ذلك. كانت قوته من قوة آنو، وبغريزته حمى كل حيوان البرية وأنقذهم من فخاخ الصيادين:

«عندما أصغت «آرورو» إلى شكواهم،

صنعت صورة في فكرها من جوهر آنو.
غسلت بالماء يديها،
وانتشلت من الطين غرزة رمتها في السهل
وفي السهل صنعت أنكيدو النبيل.
ابن الفضيلة، جوهر نينورتا،
الشعر الطويل يغطي جسده
أعطته شعر رأس مثل شعر امرأة
جعداته تبرز مثل شعر «نيسابا»
لايعرف الناس ولا مواطنهم،
رداءه مثل رداء «سموقان» (اله الأبقار)
مع الغزلان يأكل العشب
ومع الوحوش يتدافع عند موارد المياه»

وحدث يوماً أن وجد نفسه أمام صياد يطارد أصدقاءه، فجابهه أنكيدو ثلاثة أيام وجهاً لوجه، ودخلا في عراك لم ينج منه الصياد إلا بشق النفس فهرب بصيده إلى بيته وأخبر والده.

ومرة أحد الصيادين، رجل ينصب الشراك
لاقاه على مورد المياه،
يوماً أولا وثانياً وثالثاً،
واجهه على مورد المياه،
لما رآه الصياد تجمد وجهه
هرب بصيده إلى بيته
لقد خرس، فقد النطق من الخوف
بينما اضطرب قلبه وشحب وجهه
لقد دخلت الحسرة في أحشائه
وعلا وجهه الجهد والأعياء.
بدأ الصياد بالكلام فخاطب والده:
«أبتي هناك انسان لا نظير له
يهبط من التلال
إنه أقوى ما في الدنيا
عظيمة هي قوته، تشبه جوهر آنو
وهو دائما يجوب التلال

ومع وحوش البرية يأكل العشب.
يسير داخل أرضك إلى موارد المياه
أما أنا فخائف لا أجرؤ على الاقتراب منه
إنه يطمر الحفر التي أحفرها،
ويمزق الشراك التي أنصبها،
جعل وحوش السهل تفلت من يدي»
فتح الأب فاه وخاطب الصياد:
«يابني في اوروك، هناك يعيش جلجامش
لم يقف في الدنيا أحد أمامه،
هائلة قواه كجوهر السماء (آنو)
اذهب اذن ونحو اوروك وجه خطاك.
أخبره عن قوة هذا الانسان المتوحش،
اسأله أن يعطيك عاهرة، من معبد الحب،
من بنات المتعة وخذها معك،
دع قوة أنوثتها تقهر هذا الرجل،
وإذا سقى الوحوش عند موارد المياه
دعها تخلع ثيابها وتعري مفاتنها
عندما يراها سيقترب منها ويحتضنها
وعندئذ ستنبذه حيوانات البرية»
أصغى الصياد لنصيحة والده
ذهب ليلاقي جلجامش
وفي طريق اوروك وجه خطاه:
«أيها السيد جلجامش»
هناك انسان يأتي من التلال،
له قوة أقوى ما في العالم،
كجوهر آنو هكذا قوته،
وهو دوماً يجوب التلال
ومع وحوش البرية يأكل العشب
ودائماً يهبط إلى موارد المياه.
أما أنا فخائف لا أجرؤ على الاقتراب منه،
لقد طمر الحفر التي حفرتها

ومزق الشراك التي نصبتها
وجعل وحوش البرية تفلت من يدي»

لقد أثار الصياد فضول جلجامش وخُدشت كبرياء الملك ومُسّ شعوره بالقوة والتفوق، فوافق على المكيدة للايقاع بذلك الكائن.

أجابه جلجامش، قال للصياد:
«عد أيها الصياد
وخذ معك عاهرة من بنات المتعة
عندما يسقي الوحوش عند موارد المياه
ستخلع ثيابها وتعري مفاتنها
عندما يراها سيقترب ويحتضنها
فتنبذه الحيوانات التي ربيت في السهول»

رجع الصياد إلى البرية وكان «سلاحه» عاهرة من خادمات عشتار ومن أجمل بغايا المعبد. لبست البغي رداء شفافاً وجعلت في ساقيها خلاخل من الفضة، وتدلت حلقتان طويلتان من أذنيها ثم دهنت ثدييها وذراعيها بالعطر أرخت ضفائرها فبانت مفاتنها.

«ذهب الصياد، وأخذ معه العاهرة.
سارا في الطريق رأساً نحو الهدف
وفي اليوم الثالث وصلا إلى المكان المقصود
وجلس الصياد والعاهرة ينتظران.
يوم أول ويوم ثاني جلسا عند مورد المياه
وفي اليوم الثالث جاءت القطعان لتشرب»
«جاءت الدواب وقلبها يفرح بالماء
وأما أنكيدو الذي ولد في التلال
والذي يأكل العشب مع الغزلان،
الذي يشرب مع الوحوش عند مورد المياه
ومع الدواب يفرح قلبه بالماء،
فقد رأت البغي الرجل المتوحش
الهمجي آت من أعماق السهول:
«هاهو أيتها العاهرة. اكشفي الآن عن ثدييك.
عري صدرك ليمتلك مفاتنك
لا تستحي. رحبي بحميته.
عندما يراك سيقترب منك،
تجردي من ثيابك كي ينام معك

علمي ذلك المتوحش أنوثة المرأة
حتى إذا انجذب حبه إليك
نبذته الوحوش التي شاركته الحياة»

شمت الحيوانات رائحتها فخافت وهربت منها. لكن أنكيدو عندما شم الرائحة لم يقو على الهرب لقد أثارت فيه الشعور بالقوة وبالحياة. اقترب منها ونزعات البشر تضطرب في قلبه..

«كشفت البغي عن ثدييها وعرت صدرها
وامتلك مفاتنها
لم تستحي عندما رحبت بحميته.
تجردت من ثيابا ونامت معه
لقد علمت ذلك المتوحش أنوثة المرأة،
عندما انجذب شوقه إليها.
ستة أيام سبع ليالي نام أنكيدو مع البغي.
وبعد أن أشبع نفسه من مفاتنها
توجه نحو وحوش البرية
ولما رأت الغزلان أنكيدو، هربت منه
وحوش البرية في السهول ابتعدت عنه
ذعر انكيدو لأن جسمه قد تيبس
ركبتاه لا تتحركان والوحوش قد تركته
لقد ضعفت خطاه، لم يعد كما كان.
وأما الآن فقد زادت حكمته، واتسع فهمه
عاد إلى العاهرة وتهاوى عند قدميها.
أخذ ينظر في وجهها
ويصغي إليها وهي تخاطبه:
«أنت حكيم يا أنكيدو
والآن قد أصبحت كإله.
لماذا تهيم مع الوحوش في التلال:
تعال معي إلى اوروك ذات الأسوار المنيعة،
إلى المعبد المقدس، مسكن آنو وعشتار
حيث يعيش جلجامش، الكامل القوة
وكثور بري يتجبر بها على الناس»

«عندما كلمته لقيت كلماتها استحساناً
لقد فرح قلبه، إنه يتوق إلى رفيق.
قال أنكيدو، خاطب العاهرة:
امضي يا ابنة المتعة وخذيني
إلى المعبد المقدس، بيت آنو وعشتار
إلى حيث يعيش جلجامش الكامل القوة،
وكثور بري يتجبر بها على الناس
سأتحداه وبجرأة سأخاطبه،
سأصرخ عالياً في أوروك «أنا القوي ههنا»
أنا من يقدر أن يبدل المصائر.
أنا من ولد في التلال ويقوى على الجميع»
«لنمضي اذن، ودعيه يرى وجهك
سأريك جلجامش وأعلمك أين يسكن
تعال اذن يا أنكيدو إلى اوروك ذات الأسوار المنيعة،
حيث الناس يتألقون بثياب العيد
حيث كل يوم حفلة
وما أحلى رؤية الصبايا والشباب
ومن أجسادهم الكاملة تفوح العطور.
ينهضون الكبار من فراشهم.
اليك يا أنكيدو يا من تبتهج بالحياة،
سأري جلجامش الرجل البهيج.
انظر إليه وتمعن في وجهه
إنه يشع رجولة ويشع قوة.
جسمه كامل بهي بتمامه.
قوته أعظم من قوتك
لا يهدأ لا في الليل ولا في النهار.
أي أنكيدو كف عن ادعائك.
إن جلجامش حبيب شمش.
آنو، انليل وايا قد أعطوه وافر الحكمة.
وقبل أن تهبط أنت من التلال
سيراك جلجامش بالحلم في اوروك:

اللوح 2:

وذات يوم حلم جلجامش، إنه كابوس اقض مضجعه، وأفزعه حتى في يقظته فهرع إلى أمه ننسون وهي من أحكم الآلهة يقص عليها حلمه:

«أماه. رأيت الليلة حلماً،
كنت مترعاً من الفرح وأنا أسير
والأبطال يسيرون ويحفون بي.
نسير ليلاً تحت نجوم السماء
واحد منها. شهاب من جوهر آنو سقط
ترك السماء وطار هابطاً نحوي.
حاولت أن أرفعه فكان ثقيلاً علي
حاولت أن أزيحه فلم أقدر على ازاحته.
تجمهر أهل أوروك من حوله.
حتى النبلاء تدافعوا ليقبلوا قدميه.
ثم تحول فكانت جاذبيته الي كحب امرأة
طوقت غريمي ثم رفعته وأحضرته إليك
وأنت بنفسك أعلنته أخاً لي.»
طمأنته ننسون ذات الكلمة البالغة:
«إن نجم السماء الذي هوى نحوك كالشهاب،
الذي حاولت أن ترفعه فكان ثقيلاً عليك
الذي حاولت أن تحركه فلم تستطع زحزحته.
لذا أحضرته إلى قدمي
جعلته لك منخساً ومهمازاً
ثم انجذبت إليه وكأنه امرأة
إنه الرفيق القوي الذي يمد يد الصديق عند الضيق
إنه أقوى المخلوقات البرية ومن جوهر آنو
لقد ولد في المروج وترعرع في التلال
عندما تراه ستسر برؤيته
ستحبه كأمرأة ولن يخذلك
هذا هو تفسير حلمك».

نام جلجامش فرأى حلماً آخر، هرع إلى ننسون ليقصه عليها:

«أماه. لقد رأيت حلماً آخر

في شوارع أوروك المنيعة طرحت «فأس»
تجمهر الناس حولها لغرابة شكلها رأيتها فسررت برؤيتها
انحنيت فوقها وانجذبت نحوها
أحببتها مثل امرأة وتمنطقت بها»
أجابت أم جلجامش التي تعرف كل شيء:
«البلطة التي رأيت وجذبتك مثل امرأة
هي الرفيق الذي سأقدمه لك
سيأتي بقوة أحد أجناد السماء
و الرفيق الشجاع الذي ينقذ صديقه من الضيق».

فقال جلجامش أن انليل قد بعث إلي صديقاً ومستشاراً. وسأصادقه وسأستشيره. لقد قص جلجامش حلمه على أمه ننسون كما قصتها العاهرة لانكيدو.

بينما كان جلجامش يقص حلمه لأمه ننسون كان أنكيدو يجلس أمام العاهرة.

لقد نسي انكيدو أين ولد
ستة أيام وسبع ليال مرت
وانكيدو يضاجع البغي
ثم خاطبته قائلة:
«عندما أنظر إليك أرى أنك كإله
فلماذا تجوب القفار مع الوحوش؟
انهض، سأقودك إلى اوروك ذات الأسوار العريضة.
إلى المعبد المقدس بيت آنو،
إنهض يا أنكيدو وسأقودك
إلى «اي انا» مسكن آنو،
هناك يعيش جلجامش ويحقق مآثره
وأنت سوف تحبه كما تحب نفسك.
انهض قم عن الأرض
فراش الراعي»
لقد أصغى إلى كلماتها وسر بها
نصيحة المرأة
نزلت في قلبه
مزقت ثيابها إلى نصفين
بنصف البسته والنصف الآخر لبسته.

قادته كطفل تقوده أمه
بين خيام الرعاة وحظائرهم.
تجمع حوله الرعاة ليروه
قدموا خبزاً وضعوه أمامه
لكن انكيدو يرضع حليب الحيوان فقط
لقد تردد ففغر فاه وحملق
إنه لا يعرف كيف يأكل الخبز ويشرب النبيذ
لم يتعلم ذلك قط
فخاطبته البغي قائلة:
«كل الخبز يا انكيدو
فإنه عماد الحياة
اشرب النبيذ القوي
إنها عادة البلاد».
فأكل خبزاً حتى الشبع
وشرب النبيذ ــ كؤوساً سبعة.
تبدل مزاجه من النشوة.
طرب قلبه واشرق وجهه،
فرك شعر جسده الطويل
وبالزيت مسح نفسه
لقد أصبح أنكيدو بشراً.
ولما لبس ثوب الرجال
بان وكأنه عريس
امتشق السلاح ليطرد الأسود
كي يستريح الرعاة في الليل.
امسك ذئاباً وأسوداً
فنام الرعاة بسلام
انكيدو هو حارسهم
الرجل القوي والبطل الفريد

بقي انكيدو يعيش فرحاً بين الرعاة حتى أتى يوم رفع عينيه وإذا برجل يقترب فقال للعاهرة:

«يا ابنة المتعة نادي على ذلك الرجل

ما الذي جاء به ههنا؟
أريد أن أعرف اسمه»
سارت البغي إلى الرجل ونادته:
«سيدي. إلى أين أنت تذهب؟
إلى أين تكون رحلتك المضنية؟
خاطب الرجل انكيدو قائلاً:
«لقد دخل جلجامش بيت المجمع،
الذي هو من حق الشعب.
لقد كدس الفضائح على المدينة،
وفرض الضرائب على المدينة السيئة الحظ.
لقد تجمع الناس استجابة لدقات الطبول
لأن لجامش ملك اوروك الواسعة الأسواق
يدق الطبل من أجل اختيار العروس
يطلب أن يكون من يعرف الزوجة.
الملك أولاً
والزوج بعد ذلك.
إن هذا ما فرضته الآلهة منذ ولادته،
فُرض وقت قطع حبل سرته،
لقد قدر له ذلك».
عندما سمع كلام الرجل ابيض وجه انكيدو وقال:
«سأذهب حيث جلجامش يتجبر على الشعب،
سأتحداه بكل جرأة،
سأصرخ عالياً في اوروك،
إني هنا لابدل النظام القديم
وأنا الأقوى ههنا».
دخل انكيدو اوروك ذات الشوارع العريضة
سار والمرأة تسير خلفه
تجمهر الشعب حوله
تزاحم الناس وتحدثوا قائلين:
«إنه توأم جلجامش.
لكنه أقصر منه

إنه أعظم عظماً
إنه من نشأ على لبن الوحوش،
إنه الأعظم قوة
وفي اوروك ستسمع قعقعة السلاح»
فر الناس
«إن بطلاً قد ظهر
الآن وجد جلجامش نده
جلجامش الذي يشبه الالهة
سيجد العظيم الذي يعادله».
وفي اوروك أعد فراش العرس،
يليق بآلهة الحب عشتار
وانتظرت العروس عريسها،
لكن جلجامش قام بالليل وحضر،
وكأن البيت بيت دعارة،
ما كاد جلجامش يهم بالدخول.
حتى اعترض أنكيدو مسيرَهْ
لقد سد الباب في وجهه
مَدَّ قدمه ومنع جلجامش من الدخول
فتماسك العملاقان بالأيدي
أخذا ببعضهما كأنهما ثوران
حطما عارضة الباب
وارتجت الجدران
جلجامش وانكيدو قد تماسكا
لقد اشتبكا كأنهما ثوران
حطما عارضة الباب وارتجت الجدران.
ثني جلجامش ركبته
وثبت قدمه بالأرض
أفلت خصمه واستدار إلى الوراء
ولما رجع إلى الوراء
قال له انكيدو:
«لا يوجد لك نظير في العالم

لقد ولدتك ننسون امك،
البقرة الوحشية في حظائر العجول.
فليرتفع رأسك فوق الناس جميعاً
لقد أعطاك انليل الملك
لأن قوتك تفوق قوة البشر».

وتعانق انكيدو وجلجامش وتوطدت صداقتهما مدى الحياة. منذ تلك اللحظة أصبح الصديقان لا يفترقان، لقد زال غرور جلجامش، واسكن انكيدو في القصر وكان فراشه من الحرير والفرو.

عندما كان جلجامش يترأس مجلس الشيوخ كان انكيدو يجلس عن يساره. كل ملوك الأرض قدمت خضوعها وخرت عند قدميه. وعندما كان يتجول الملك في الشوارع أو في زورقه في النهر، كانت ترتفع أصوات الشعب بالمديح والتهليل لأن عادات ملكهم الشريرة قد زالت بزوال غروره. ولم يكن انكيدو سعيدا رغم الثروة والترف بل كان ينتابه الحنين إلى حياته الأولى حين كان يتجول حراً قوياً يجوب البوادي والتلال حيث تولد الأنهر.

اللوح 3:

غابة الأرز (جلجامش وأرض الاحياء)

«انليل» الجبل العظيم أبو الآلهة
قد قدر مصير جلجامش
لذا حلم جلجامش وفسر الحلم انكيدو:
«هذا تفسير منامك،
إن ابا الآلهة قد وهبك الملك،
فهذا قدرك،
وأما الحياة الأبدية،
فليست من نصيبك.
لا يحزنن قلبك من ذلك
لا تيأس ولا تكتئب
لقد أعطاك سلطاناً لتحل وتربط،
لأن تكون الظلمة أو النور للبشر.
لقد وهبك سلطة لا مثيل لها على الناس،
والنصر في المعارك التي لا يرجع منها هارب.
ولكن لا تُسيء استعمال هذه السلطة

عامل خدم قصرك بالعدل

واصنع العدل أمام شمش»

وفي إحدى الليالي رأى انكيدو كابوساً مخيفا قصه علي جلجامش في الصباح فأصغى إليه واستدعى الكهنة ومفسري الأحلام: رأى انكيدو وحشاً أسود ينقض عليه وبشراسة غرز مخالبه في أحشائه ثم اختطفه كما يختطف النسر النعجة، إلى العالم السفلي عالم نرجال ملك الظلمة الأبدية. خاف انكيدو وارتعش وهو يروي الحلم. وتداول الحكماء طويلاً، ثم قرروا أن الأمر خطير، ونصحوه بتقديم ذبيحة للاله شمش، لأن عونه في الأزمات هو عدالته.

وبينما أحضر الخدم الزيت المقدس، تقدم جلجامش وانكيدو عاريين (كما يفرض الطقس) إلى «بيت المحاكمة». من هناك يركب شمش عربته ويطل على العالم عبر الأرض، يرى كل ما يحدث كما يرى المستقبل أيضاً ويوزع العدل. ثم صب الزيت المقدس في الحوض بسخاء. وأخذ كهنة المعبد يدرسون أشكاله. وأخيراً تكلم الاله بواسطتهم وقال للملك أنه سيرحل ويترك اوروك. وبينما جلجامش وانكيدو يصغيان للتفسير قدمت كمية أكبر من القرابين. وَقُدِّمَ عسل وجرة من اللازورد مملوءة سمناً. ثم تكلم الاله ثانية وان على جلجامش أن يرحل إلى «أرض الأحياء» ليقتل وحش الارز هواوا (همبابا عند الآشوريين) ويقطع سبع أرزات لبناء المعبد وينقذ الأرض من الشر.

كان في وسط غابة الأرز (في جبال اللكام أو الامانوس) معبد الالهة «ارنيني» والتنين هواوا هو حارس المعبد. كان من خلائق «بيل» وكان رجساً في نظر شمش. أدرك السيد جلجامش أنه يتحتم عليه أن يموت عاجلاً أم آجلاً مثل كل البشر. لذا عزم أن يخلد له «اسماً» فصمم على تقبل المهمة وأن يذهب إلى أرض الأحياء حيث غابة الأرز.

«إلى أرض الأحياء، توجه السيد بأفكاره

السيد جلجامش عزم على المضي إلى «أرض الأحياء»

فقال لخادمه انكيدو:

«يا انكيدو» إن الختم والآجر لم يعلنا بعد النهاية المقررة،

سأدخل تلك الأرض وسأخلد اسمي هناك

سأقيم اسمي حيث تكتب أسماء عظماء الرجال،

وحيث لم تقم الأسماء بعد سأقيم أسماء الآلهة.

من أجل الشر الموجود في تلك الأرض

سنذهب إلى الغابة وندمر الشر

في الغابة يعيش «همبابا» واسمه «الهول»

إنه عملاق ضار»

امتلأت عينا انكيدو بالدموع وحزن قلبه وتنهد بمرارة وقال:

«إني لأحس بالضعف فقد وهنت ذراعاي،

غص حلقي بدموع الأسى، فلم هذه المغامرة؟

عندما كنت أهيم في الفلوات مع الوحوش اكتشفت الغابة
إنها تمتد عشرة آلاف فرسخ في كل اتجاه.
لقد عين انليل هواوا لحراستها وسلحه بسبعة ألوان الرعب.
رهيب لكل ذي لحم هو هواوا
عندما يزأر يكون صوته كهدير العاصفة.
أنفاسه مثل النار وأنيابه الموت بعينه.
إنه يحرس الأرز بيقظة كبيرة،
حتى إذا مرت بالغابة عجلة برية
سمعها ولو من بعد ستين فرسخاً.
أي انسان يريد دخول تلك الأرض وكشف أغوارها؟
إن الخوف ليستولي على كل من يقترب منه
ليس صراعاً متكافئاً عندما يقاتل المرء هواوا
إنه محارب عظيم، إنه آلة التحطيم.
أي جلجامش إن حارس الأرز لا ينام».

فأجاب جلجامش:

«أين الرجل الذي يستطيع أن يرقى إلى السماء؟
الآلهة فقط يعيشون أبد الدهر مع شمش العظيم
وأما نحن البشر فأيامنا معدودات، الجامعة 1:2-4
وكل ما نحققه هو نسمة ريح.
وها أنت خائف من الموت وأنت هنا
إذن ماذا نقول عن قوتك الخارقة؟
دعني اذن أسير أمامك
وأنت تصرخ لي «تقدم لا تخف»
وإن صرعت سأترك خلفي اسماً خالداً
سيقولون «مات جلجامش وهو يقاتل هواوا»
سيقولون هذا لابنائي من بعدي ويتذكرون».

فأجابه خادمه انكيدو:

«سيدي إن أنت أزمعت أن تدخل تلك الأرض
فأخبر اوتو (شمش) اوتو البطل
إن الأرض أرضه
إن أرض الأرز الذي سنقطعه تخص أوتو»

«أخذ جلجامش جدياً أبيض لا شية فيه
وجدياً أسمر على صدره ليقدمهما قرباناً
حمل الاثنين في حضرة شمش
وأخذ في يده صولجانه الفضي.
وقال مخاطباً شمش (اوتو) السماوي:
«أي شمش، أريد أن ادخل تلك الأرض فكن حليفي،
سأدخل أرض الارز المقطوع فكن سندي،
يداي تتضرعان فبارك روحي،
وأعدني إلى مرفأ اوروك
إني التمس حمايتك
فاجعل طالعي حسناً»
«أجاب شمش السماوي
أي جلجامش، حقاً إنك قوي،
ولكن ما شأنك وأرض الأحياء؟»
«أي اوتو، أريد أن أكلمك فاسمع كلمتي،
أريدها أن تصل إليك فاستمع لها
يموت الرجل في مدينتي، وقلبه مثقل بالهموم،
يهل الرجل وهو محزون القلب.
ها أنذا أنظر من فوق الأسوار
فأرى الجثث تطفو على النهر
وأنا سيحل بي حقاً نفس المصير.
الانسان، أطول انسان، لا يمكنه أن يطال السماء،
الانسان، أعرض انسان، لا يمكنه أن يغطي الأرض.
وما دام الآجرّ والختم لم يعلنا النهاية المقدرة بعد فقد عزمت على دخول تلك الأرض لأخلد اسمي
سأرفع اسمي حيث رفعت أسماء الرجال العظام
وحيث لم ترفع الأسماء بعد،
سوف أرفع أسماء الآلهة».

جرت الدموع على وجهه وقال «وا أسفاه، إن الرحلة طويلة إلى أرض هواوا. وإذا لم يكن النجاح مقدراً لهذه المغامرة، فلماذا دفعتني للقيام بها يا شمش؟ ووضعت تلك الرغبة الجامحة في قلبي؟ لن يمكنني النجاح دون مؤازر. وإذا مت في تلك البلاد فسأموت غير آسف. ولكن إذا عدت فسأقدم قرباناً من الهدايا والمدائح إلى شمش».

«فتقبل اوت (شمش) دموعه بمثابة قربان،
وكرجل رحيم أظهر له الرحمة،
وعيّن لجلجامش حلفاء أقوياء،
الأبطال السبعة، أبناء أم واحدة.
وأتى بهم إلى كهوف الجبال.
عيّن له الرياح العظيمة،
ريح الشمال والريح الدوارة
ريح الهبوب والجليد، العاصفة والريح اللافحة.
مثل الثعابين، مثل التنانين، مثل نار حارقة
مثل أفعى تجعل القلب يتجمد
طوفان مدمر وألسنة الصاعقة
هكذا كانت، فتهلل جلجامش».
«إن من اقتلع الأرز فعل ذلك بسرور
السيد جلجامش عمل بسرور وابتهاج
وفي مدينته كالرجل الواحد (وقفوا)
«من كان له بيت فليعد إلى بيته
ومن كانت له أم فليعد إلى أمه
ليكن خمسون رجلاً أعزباً، يفعلون كما أفعل
هم الذين إلى جانبي يقفون.
(في النص البابلي جلجامش وانكيدو وحدهما):
فمن كان له بيت فقد عاد إلى بيته
ومن كانت له أم فقد عاد إلى أمه
ووقف إلى جانبه خمسون أعزباً
كما يفعل يفعلون
ووجه خطاه إلى بيت الحدادين
أعطى الأوامر لصناع السلاح، وجلس العمال يتشاورون
الفأس «قوة بطولته» جعلها تصب هناك وتصنع
لقد أخذ سبيله إلى بستان السهل
شجرة الصفصاف والتفاح والبقس اقتطعها هناك
فأخذها أبناء مدينته الذين رافقوه في أيديهم».

لقد صنعت أعظم الأسلحة البرونزية، البلطات والسيوف الضخمة، ومن كل جانب كان جلجامش يرى الدموع تنهر، إن رعاياه قد تأكدوا أنهم لن يروه ثانية ولن ينعموا بحمايته. وبسرعة حسب الشيوخ المسافة إلى جبل الأرز، إنها مسافة ستة أسابيع. وقد تناقشوا في أخطار الرحلة إلى الشمال الغربي، إلى «الجبال السبعة» التي في أفق العالم. إنه الطرف الغربي حيث يختفي شمش في أحشاء الأرض عند المغيب.

تجمع الناس وأصحاب الشوى في الطريق وفي سوق اوروك. دخلوا من البوابة ذات الأقفال السبعة. فتحدث إليهم جلجامش في السوق:

«أنا جلجامش، ذاهب لأرى ذلك المخلوق الذي تحكي عنه الأشياء والذي يملأ طنين اسمه العالم. سوف أقهره في غابة الأرز وأظهر قوة اوروك، وسيعرف العالم كله بذلك. لقد قدرت لي هذه المغامرة «أن أتسلق الجبال، وأقطع الأرز، وأخلف ورائي اسماً خالداً».. فأجاب أصحاب الشورى: «جلجامش»، إنك شاب وجرأتك جامحة حتى التهور، ولا تدرك جيداً ما أنت مقدم عليه. لقد سمعنا أن همبابا ليس كالبشر الفانين، أسلحته لا تقاوم والغابة تمتد عشرة آلاف فرسخ في كل اتجاه، فمن سيسبر أغوارها بملء إرادته؟ وأما همبابا فعندا يزأر يكون صوته كهدير العاصفة، أنفاسه كالنار وأنيابه الموت بعينه. فلماذا تتشوق للقياه يا جلجامش؟ الصراع مع همبابا ليس متكافئاً إنه آلة التحطيم.

ولما سمع جلجامش رأي أصحاب الشورى التفت إلى صديقه وضحك:

«بماذا سأجيبهم؟
هل سأقول إني خائف من همبابا
وسأمكث داخل بيتي كل أيام حياتي؟
هلم بنا يا صديقي نذهب إلى القصر الكبير،
إلى «اجلماه» نقف أمام ننسون الملكة.
إن ننسون حكيمة عميقة المعرفة
وهي ستدلنا أي طريق نسلك».

أمام هذه الارادة المتوحشة بارك الشيوخ ملكهم وعبروا عن تمنياتهم أن يحمي شمش خادمه الأمين شرط أن لا ينسى أن يقدم كل مساء لـ «اله النهار» سكبة ماء نقي. إنها تقدمة متواضعة ولكن ليس أثمن منها لمسافر يعبر الصحراء.

مشى الصديقان يداً بيد ودخلا «اجلماه» إلى ننسون الملكة العظيمة. اقترب جلجامش من ننسون وخاطبها قائلاً: «ننسون، هل ستصغين إلي؟ علي أن أسير في رحلة طويلة إلى أرض همبابا. علي أن أسلك طريقاً مجهولة وأخوض معركة غريبة. صلي من أجل من يوم أرحل حتى أعود حتى أصل إلى غابة الأرز، وأحطم الشر الذي يمقته شمش».

ذهبت ننسون إلى حجرتها وارتدت ثوباً يليق بجسمها، لبست حلياً كي يبدو صدرها جميلاً. وضعت تاجاً على رأسها وكانت ثيابها تمسح الأرض. ثم صعدت إلى مذبح شمش ووقفت على سطح القصر. أحرقت بخوراً ورفعت يديها بالتضرع إلى شمش بينما دخان البخور يتصاعد.

«أي شمش، لماذا أعطيت لابني قلباً لا يعرف الراحة؟
لماذا أعطيت هذا القلب لجلجامش
أنت دفعته، فهو الآن في طريقه إلى أرض خمبابا
سيسير طريقاً مجهولة ويخوض معركة غريبة.
لا تنسه إذن من يوم رحيله حتى يوم عودته
حتى يصل غابة الأرز ويقتل خمبابا
ويحطم الشر الذي تمقته يا شمش»
«بل دع الفجر «آيا» عروسك العزيزة تذكرك دائماً
وإذا ولى النهار دع حارس الليل يحفظه من كل أذى».

ثم أطفأت ننسون أم جلجامش البخور والتفتتْ تحرض انكيدوا: «أي انكيدو القوي، إنك لست ابناً من جسدي ولكني سوف استقبلك كابني بالتبني. إنك ولدي الآخر كاللقطاء الذين يجيئون بهم إلى المعبد اخدم جلجامش كما يخدم اللقيط المعبد والكهنة الذين ربوه. إني أعلن هذا أمام نسائي ونذيري والمتبنين». ثم وضعت «حرزاً» حول عنقه وقالت له «إني أأتمنك على ابني فأرجعه إلي سالماً».

تسلح جلجامش وانكيدو بالسيوف العظيمة في أغمدها الذهبية وبالقوس وجعبة السهام. أخذ جلجامش البلطة وتنكب الجعبة وقوس انشان، وشد السيف على حزامه. وهكذا أصبحا مسلحين ومستعدين للرحيل.

بارك أهل الشورى جلجامش وحذروه «لاتثق بقوتك أكثر من اللازم، احترس واضبط ضرباتك الأولى. من يسير في الأمام يحمي رفيقه. الدليل الجيد هو الذي يعرف الطريق ويحرس صديقه. ليقد انكيدو لأنه يعرف الطريق إلى الغابة لقد رأى خمبابا وتمرس في المعارك دعه يسير أولاً في الممرات ويكون حذراً. دع انكيدو يحمي صديقه ويحرس رفيقه، ويقيه من عثرات الطريق. ونحن شيوخ اوروك نأتمنك على ملكنا يا أنكيدو فأعده إلينا سالماً» ثم قالوا لجلجامش «ليعطك شمش ما يتمناه قلبك، وليجعلك ترى بأم عينيك تحقيق كل ما تفوهت به شفتاك، وليمهد أمامك الطريق المسدود ويجعلها موطئاً لقدميك. وليفتح الجبال أمامك لتعبر، وليسبغ عليك وقت الليل بركة الليل، وليقف بجانبك الهك الحارس «لوجالبندا» حتى النصر. نرجو لك النصر في المعركة كما لو كنت تحارب طفلاً.

اغسل قدميك في نهر خمبابا، واحفر بئراً في المساء. وليكن في ضرفك ماء نقي على الدوام، قدم ماء بارداً لشمش ولا تنسى لوجالبندا».

عندئذ قال انكيدو «هلم بنا فليس هناك ما يُخشى منه. اتبعني لأني أعرف المكان الذي يعيش فيه هواوا والدروب التي يسلكها، ليرجع أصحاب الشورى، ليس هناك ما يدعو للخوف».

لقد ساروا بسرعة (جلجامش وانكيدو وخمسون عازباً حسب القصة السومرية) مخلفين وراءهم الغابات والجواميس وأطيار البجع في أرض الفرات وجدّوا السير حتى عبروا الأراضي المروية ودخلوا البادية القاحلة. بعد عشرين فرسخاً افطروا، وبعد ثلاثين

فرسخاً أخرى توقفوا لقضاء الليل. خمسون فرسخاً في يوم واحد. وفي ثلاثة أيام قطعوا مسيرة ستة أسابيع. لقد عبروا سبعة جبال قبل أن يصلوا إلى بداية الغابة. لقد اتجهوا إلى الشمال الغربي تحت شمس الشرق البهية بين الهضاب تحوم فوقها الصقور والنسور. وفي بعض الأحيان كانت تهب عواصف العجاج تعبر البادية لتتحطم على سفوح جبال اللكام. وفي صفاء السماء كانت بعض الغيوم تشلح ظلالها وكأنها أعمدة عملاقة تحمل قبة السماء.

بعد أن عبروا الجبال السبعة غط جلجامش في سبات عميق لا يستطيع أحد أن يوقظه، لمسه انكيدو ولم يستيقظ، وكلمه فلم يحر جوابا:

«أيها النائم، أيها الراقد،
يا جلجامش أيها السيد، يا ابن «كللاب» إلى متى ستنام؟
لقد أظلمت الأرض وانتشرت الظلال عليها
والغسق قد نشر ضوءه
لقد ذهب اوتو رافعاً رأسه إلى حضن أمه «ننجال» (الأرض)
إي جلجامش حتى متى ستظل نائماً؟
وتدع أبناء مدينتك الذين رافقوك
يقفون مطيلين الانتظار في سفح الجبل
ولا تدع أمك التي ولدتك تطرد إلى ميدان المدينة»
«فانتبه واصغ للقول
و«بكلمة بطولته» أحاط نفسه وكأنها رداء
ولف صدره بحلة تزن ثلاثين مثقالاً كان يحملها بيده
وكالثور قام واقفاً على «الأرض العظيمة»
ووضع فمه على الأرض فاصطكت أسنانه بالقسم
«بأمي ننسون التي ولدتني من أبي الطاهر «لوجالبندا»،
ليتني أصبح كمن يجلس على ركبتي ننسون فيعجب الناس بي»
ثم كرر ثانية
«بأمي ننسون التي ولدتني من أبي الطاهر «لوجالبندا»،
حتى أقتل ذلك الرجل إن كان إنساناً
أو حتى أقتله إن كان إلهاً
فإن خطاي التي وجهتها إلى تلك الأرض لن أعود بها إلى المدينة»
«فاستعطفه الخادم الأمين وتضرع إليه من أجل الحياة،
وأجاب سيده
«سيدي، إنك لست خائفاً إذ لم تشاهد ذلك الرجل.
وأنا الذي رأيته، إني خائف أشد الخوف.

فإن ذلك المحارب له أسنان كأسنان التنين
وجهه وجه أسد،
وزمجرته السيل العرم
من جبهته التي تلتهم الأشجار والقصب لا يسلم أحد
فيا سيدي، سر انت إلى تلك الأرض
وأما أنا فسأعود إلى المدينة.
وسأبلغ أمك عن أمجادك لعلها تفرح
سأخبرها عن موتك الآتي لعلها تذرف مر الدموع».
«ما من أحد سيموت عني والقارب المحمل لن يغرق،
النسيج ذو الطيات الثلاث لن يقص، (الكفن)
والنار لن تدمر البيت والكوخ،
فإن ساعدتني وساعدتكم فما عسى سيحل بنا؟
هلم نسر قدماً ونلقي عليه النظرات
وإذا ما تقدمنا وبك خوف فانزع الخوف عنك
وإن كنت تشعر بالهلع فاقض عليه».
هلم نمضي قدماً..»

تقدما حتى رأيا قمة الجبل العظيم وقد أعجبهما شموخ الأرز واقترن اعجابهما بالخوف من لقاء حارسه. (لكن حسب القصيدة السومرية خاف هواوا وتضرع لجلجامش فاشفق عليه لكن جلجامش اندفع إلى القتال بتحريض من انكيدو، أما في الرواية البابلية فيدخلون المعركة فوراً ويقابلهما هواوا بكل جرأة وهنا سنحاول ربط القصتين).

«وما كاد يبلغ تقدمهما مسافة 1200 قدماً
حتى أخذ هواوا وهو في بيته الأرزي
يثبت نظرته على جلجامش وهي نظرة الموت،
هز له رأسه وحركه عليه
اقتلع جلجامش أول شجرة
فَعَمَدَ أبناء مدينته الذين رافقوه
على قطع أغصانها في حزم
ووضعوها في سفح الجبل
وبعد أن قطع الأرزة السابعة اقترب من حجرة هواوا
لقد دار على «حية مرفأ الخمر» في جداره
وكما يعطي الانسان قبلة لطم خده
اصطكت أسنان هواوا وارتجفت يداه»

«دعني أقول لك كلمة.....
يا اوتو، إن الأم التي ولدتني لا أعرفها، والأب الذي رباني لا أعرفه
فإنك في الأرض أنت الذي ولدتني وفيها ربيتني».
ناشد جلجامش بحياة السماء وبحياة الأرض وحياة العالم السفلي.
فرق قلب جلجامش عليه
وقال لخادمه أنكيدو:
«يا أنكيدو دع الطائر الحبيس يعود إلى مكانه
دع الرجل المأسور يعود إلى حضن أمه».
فأجاب أنكيدو جلجامش:
«إن المرء الذي لا رأي له مهما استطال
سيلتهمه «نمتار»، نمتار الذي لا يميز بين الرتب (القدر)
إذا الطائر الحبيس عاد إلى مكانه
وإذا عاد الرجل المأسور إلى حضن أمه
فلن تعود إلى مدينة الأم التي ولدتك»
فقال هواوا لأنكيدو:
«يا أنكيدو لقد تحدثت بالشر إليه ضدي
أيها الأجير.. لقد أشرت عليه بالشر ضدي».
استجمع جلجامش قواه وجرأته وقال:
«أسرع ضيق الخناق عليه
لا تترك الحارس يهرب إلى الأدغال ويختفي
لقد ارتدى الثوب الأول فقط من زروده السبعة
ولكنه لم يرتد الستة الباقية بعد
فلنوقع به قبل أن يتسلح».

أخذ يشم الأرض كثور بري هائج، استدار حارس الأدغال منذراً بالشر وعلا صوته ثم انسحب هواوا كثور قوي إلى الغابة إلى بيته الأرزي فتح أنكيدو البوابة فشعر بضعف في يده. فصاح إلى جلجامش ألا يتوغل في الغابة فأجاب جلجامش:

«لا تتكلم كالجبان، هل ننقلب على أعقابنا؟
أنت المخضرم في الحروب والمعارك
الزم جانبي وستفارق الرعشة يدك
كلا، بل سنتوغل في الغابة معاً
انسى الموت واتبعني، رجلاً صادق العزم».

تقدما معاً تاركين البوابة خلفهما فوصلا قمة الجبل الأخضر. هناك وقفا ساكنين يحملقان في الغابة. أبصرا ارتفاع أشجار الأرز والدرب الذي اعتاد هواوا أن يسلكه. كان عريضاً ممهداً إلى موطن الآلهة وعرش عشتار (ارنيني). انتصبت أشجار الأرز عالية ضخمة فوق وجه الجبل، وظلها الجميل يبعث الراحة في النفس.

هناك حفر جلجامش بئراً قبل المغيب. تسلق الجبل ونشر طحيناً على الأرض وقال: «أيها الجبل يا مسكن الآلهة، اجلب لي حلماً مطمئناً. «واضطجعا ليناما ثم لفهما النوم» الذي يتدفق من الليل فحلم جلجامش وتركه النوم في منتصف الليل. وقص الحلم على صديقه: «أنكيدو ما الذي أيقظني ولم يوقظك؟ يا صديقي لقد رأيت حلماً. انهض وتطلع إلى الاخدود في الجبل. لقد انقطع النوم الذي أرسلته لي الآلهة. آه يا صديقي أي حلم رأيت. رعب وارتباك: لقد أمسكت ثوراً وحشيا في البرية. خار فطار من خواره الغبار حتى اسودت السماء. لقد أمسك ذراعي وعض لساني. وسقطت على ركبتي فجاء شخص أنعشني بماء من ضرفه».

فأجاب أنكيدو: «إن الاله الذي نسافر إليه ليس ثوراً بريـاً رغم أن شكله غريب. إن الثور الوحشي الذي رأيته هو «شمش الحامي» وفي ساعة الخطر سيمد يد العون. والذي أعطى الماء من ضرفه هو الهك الشخصي لوجالبندا الذي يهتم باسمك الطيب. وباتحادنا معه سنحقق مأثرة لا تموت شهرتها على مر الزمن».

قال جلجامش: «حلمت أيضاً أننا كنا واقفين في أخدود عميق في الجبل، فكنا نبدو بجانبه كأصغر ذبابات المستنقع. وفجأة سقط الجبل ولطمني وأمسك رجلي من تحتي. ثم جاء نور لاهب لا يحتمل وفيه ظهر «مَن» نعمته وجماله يفوقان جمال هذا العالم. سحبني وانتشلني من تحت الجبل، سقاني ماء وأنعش قلبي ووضع قدمي على الأرض».

فقال أنكيدو ربيب السهول: «لننزل عن الجبل ونبحث الأمر سوية. ثم قال لجلجامش الاله الشاب «إن حلمك جيد، بل هو ممتاز، فالجبل الذي رأيته هو همبابا، وبالتأكيد سنمسكه ونقتله ثم نلقي بجسده كالجبل الذي سقط على السهل».

وفي اليوم التالي قطعا عشرين فرسخاً ثم أفطرا وبعد ثلاثين فرسخاً أخرى توقفا ليقضيا الليل. حفرا بئراً قبل المغيب وصعد جلجامش إلى الجبل، ورمى قبضة من الطحين على الأرض وقال: «أيها الجبل، يا مسكن الآلهة أرسل حلماً مطمئناً لأنكيدو».

صنع الجبل حلماً لأنكيدو وكان نذير سوء:
«رذاذ بارد سقط عليه
فخر على ركبتيه كشعير الجبل تحت وطأة العاصفة.
زأرت السماء فجاوبتها الأرض بالزئير
خفت ضوء النهار وحل الظلام
وومض البرق، واستعرت النيران
هبطت السحب وأمطرت الموت
ثم اختفى النور وانطفأت النار
وتحول كل شيء إلى رماد يتساقط حولنا
هلم نهبط من الجبل ونفكر فيما نفعله».

عندما هبطا من الجبل أمسك جلجامش البلطة وأسقط أشجار الأرز. سمع هواو الضوضاء من بعيد فاشتد به الغضب وصرخ «من الذي انتهك غاباتي وقطع أرزي؟» لكن شمش المجيد ناداهما من السماء «تقدما ولا تخافا» وضع جلجامش درعه على صدره، لبس درعه المسماة «صوت الأبطال» والتي تزن ثلاثين مثقالاً وكأنها لباس خفيف، فغطاه تماماً. ونادى رفيقه «ضع يدك في يدي فما عسى يحدث لنا من سوء؟ كل المخلوقات المولودة من اللحم ستجلس في النهاية في قارب «الغرب» وعندما يغرق، عندما يغرق قارب «مجيلوم» يختفون. وأما نحن فسنتقدم ونثبت نظرنا على هذا التنين إذا كان الرعب قد حل في قلبك فألقه عنك، خذ بلطتك في يدك واهجم «فمن يترك القتال قبل أن ينتهي لن يعيش في سلام» ثم صاح جلجامش للتنين أن يخرج للمعركة.

«خرج هواوا من بيته الأرزي القوي
أومأ برأسه وهزه منذراً جلجامش
وثبت نظره عليه، نظرة الموت
تنفس، وأمام زفيره أحنت الأرزات رؤوسها
هجم مزمجراً كالعاصفة
زاعقاً وكأن الرياح قد أفلتت.
استل الصديقان سيوفهما
استدار هواوا فلمح جلجامش وجهه الشيطاني
وجه مشوه، أسنان عارية صفراء
وعينان حمراوان كالدم.
عندئذ خاف جلجامش فاستغاث بشمش
تدفقت الدموع من عينيه، فنادى:
«يا شمش المجيد» لقد سلكت الطريق التي أمرت،
ولكن أين المفر الآن،
إن لم ترسل لي عوناً من لدنك؟».
«سمع شمش صلاته واستدعى الرياح العظمى،
ريح الشمال، الريح الدوارة والعاصفة
ريح الصقيع، والاعصار، والريح اللافحة
جاءت كالتنانين مثل نار محرقة
كالأفعى التي تجعل القلب يتجمد
كالطوفان المدمر وكألسنة الصاعقة.
هبت الرياح الثمان على هواوا،
لطمت عينيه وشلت حركته،

لم يعد يستطيع الكر والفر،
مَن هذان اللذان يشبهان البشر؟
ولكنهما يقاتلان مع الآلهة؟
تدفقت شجاعة البطلين من عون شمش،
أمسك جلجامش البلطة في يده واستل سيفه من نطاقه
أغمد سيفه في رقبة هواوا
وكال له انكيدو الضربة الثانية
سقط هواوا بالضربة الثالثة
وكان يرقد في سكون الموتى.
ثم جز رأسه فتدحرج حتى سفح الجبل».
«جاءت الفوضى بعد ذلك،
لأن الذي سقط هو حارس الغابة
لمسافة فرسخين اهتزت شجرات الأرز من سقوطه
وهو الذي كان حرمون ولبنون يرتعدان لكلماته
والآن تحركت الجبال
تحركت سلاسل التلال
لأن حارس الأرز قد قتل».

قطع جلجامش أشجار الغابة حاملاً سيفه الذي يزن ثمانية مثاقيل. وكشف مساكن الانوناكي المقدسة. وبينما كان جلجامش يقطع الأشجار كان انكيدو ينزع جذورها حتى ضفاف الفرات. وضعا هواوا أمام الآلهة وأمام انليل وأمسك به الانوناكي القضاة السبعة.

لما رأى انليل رأس هواوا اشتد به الغضب «لماذا صنعتما هذا؟ فمنذ الآن لتلفح النار وجهيكما ولتأكل الخبز الذي تأكلان، ولتشرب حيث تشربان».

لقد أنقذت الأرض من الشر، وآلهة سومر التي خذلت هواوا، ستبني معابدها من خشب الأرز، فيا جلجامش، أيها الملك الفاتح ذو النار المخيفة، أيها الثور البري الذي يغزو الجبل ويعبر البحر، المجد لك، وبين الشجعان المجد الأعظم هو مجد انكي.

(هذه القصة كتبت على ثلاث ألواح)

موت أنكيدو (جلجامش وثور السماء):

بعد قتل هواوا: الألواح: 6-7-8

اللوح 6:

«جلجامش، غسل شعره الوسخ ومسح أسلحته،
ورمى خصائل شعره على الكتفين،
خلع ملابسه الملوثة ولبس ثياباً نظيفة،

ادثر برداء الملك وشد حول نفسه النطاق،
ولما وضع جلجامش على رأسه تاجه،
رفعت عشتار العظيمة عينيها فرأت جماله:
«هلم إلي يا جلجامش وكن عشيقي،
امنحني بذرة من جسدك.
دعني أصبح زوجتك وتكون زوجاً لي.
سأسرج لك مركبة من اللازورد والذهب،
عجلاتها من الذهب ونفيرها من النحاس،
سأسخر شياطين العاصفة بغال جر لك
وفي عبيق الأرز سوف تدخل بيتنا.
عندما تدخل بيتنا
سوف تقبل العتبة والعرش قدميك،
سينحني أمامك الملوك والحكام والأمراء
سيقدمون نتاج التلال والسهول جزية لك
ستلد نعاجك توائم وعنزاتك ثلاثاً
حمير الحمل عندك سوف تسبق البغال
جياد عربتك ستشتهر بسرعتها،
وثيرانك تحت النير لن يكون لها نظير».
«أجاب جلجامش، خاطب عشتار العظيمة:
«اذا اتخذتك زوجة فماذا أهديك مقابل ذلك؟
أي ألوان العطور، أي ثياب تلبسين؟
هل أقدم خبزاً ومؤن؟
يمكن أن اقدم طعاماً يليق بآلهة،
يمكن أن أقدم شراباً يليق بملكة السماء،
يمكن أن أصب الشعير ليملأ أهراءك،
وإما أن تصبحي زوجة لي فلن يكون.
فماذا يكون مصيري إن صرت لي زوجة؟
بل ماذا كنت بالنسبة لعشاقك يا عشتار».
«إنك الموقد الذي ينطفىء وقت البرد،
الباب الذي لا يقي صاحبه نفح الرياح،
إنك القلعة التي تسحق حاميتها،

القار الذي يتسخ به حاملوه،
إنك الضرف المثقوب الذي يبلل ظهر حامله،
والحجر الذي يسقط عن الأسوار،
والحذاء الضيق الذي يقرص رجل لابسه».
«فأي عشاقك أحببت إلى الأبد؟
أي راع لك أرضاك طوال الزمن؟
أصغي إلي لأقص لك حكاية عشاقك:
ألم تقتلي تموز الجميل عشيق شبابك؟
ألم ترسليه إلى بيت الأموات بعد الحصاد؟
فتأتي بعده كل عام ثلوج الشتاء
تملأ الأنهر والوديان وتغمر أرضنا بالصقيع؟
ثم أعلنت النواح عليه سنة بعد سنة.
عندما أحببت عصفور الراعي المرقط،
ألم تضربيه فكسرت جناحه
وهو الآن في الأحراج يولول «يا جناحي، يا جناحي».
ثم أحببت الأسد، الكامل القوة،
ونصبت له سبع شراك وسبعة.
لقد أحببت الجواد الشهير في المعارك
وحكمت عليه بالسوط والمهماز والكرباج
أن يركض سبعة فراسخ بالاجبار
وفوق ذلك يشرب الماء العكر،
وحكمت على أمه «سيليلي» بالبكاء».
«عندما أحببت راعي القطعان،
الذي صنع لك الحلوى يوماً بعد يوم،
وذبح الجداء كل يوم من أجلك
ضربته ومسخته ذئباً
والآن، الصبيان الرعاة مرافقوه يطاردونه
وحتى كلابه أخذت تعض جنبيه.
ثم أحببت ايشوللانو بستاني أبيك،
وأحضر لك سلال التمور باستمرار
وكل يوم زين مائدتك بعطائه

ثم رفعت نظرك عليه وأنت ذهبت إليه:
«حبيبي ايشوللانو، دعنا نتذوق رجولتك
هلم الي، ضع يدك فأنا لك».
أجاب ايشوللانو:
«ماذا تريدين مني؟
ألم تخبز أمي، أو لم آكل أنا؟
حتى أتذوق فيك النتانة والعفن؟
فمتى كان كوخ القصب يكفي لاتقاء البرد؟»
ولما سمعت جوابه لك ضربته؟
حولتيه خلداً أعمى يعيش في أعماق الأرض
لا يمكنه الخروج ولا يمكنه النزول
وكل ما يشتهيه بعيد عن مناله.
فإن إصبحت وأياك حبيبين، ألن اشرب نفس الكأس
التي سقيت منها كل من أحببتهم ذات يوم؟»
«صعقت عشتار عند سماع ذلك،
انتابها الغضب المر وصعدت إلى السماء،
انهمرت دموعها أمام أبيها آنو
وإلى آنو وأمها انتوم صعدت وقالت:
«يا أبي، أن جلجامش قد كوم الاهانات علي
لقد تكلم عن سلوكي المشين وأعمالي الملوثة».
«فكان جواب آنو لعشتار العظيمة:
«لقد جلبت هذا التوبيخ لنفسك.
ألم تتشاجري مع جلجامش الملك؟
لهذا تكلم عن أعمالك النتنة،
عن تصرفاتك الكريهة وعن دنسك».
«فأجابته عشتار من جديد:
«أبي، أعطني ثور السماء لأضرب به جلجامش،
املأ جلجامش بالغطرسة حتى افنائه
واذا رفضت أن تصنع لي ثور السماء
فسوف أكسر باب الجحيم وأحطم مزلاجه
سأقيم الموتى ليأكلوا الطعام مثل الأحياء،

حتى تزيد ارجال الموتى على أعداد الأحياء».
«فأجاب آنو عشتار العظيمة:
«إذا حققت لك ما ترغبين
ستحل سبع سنوات من القحط في أوروك
فتصبح السنابل قشوراً لا قمح فيها
فهل ادخرت غلالاً كافية للناس؟
وما يكفي من الأعشاب للماشية؟»
«أجابت عشتار أباها آنو:
«لقد اختزنت الحبوب للناس
وبالأعشاب زودت الماشية
فإذا جاءت سبع سنين تغل القشور
يكون ما يكفي من الغلال والأعشاب».
«ولما سمع آنو ما قالته عشتار
أعطاها ثور السماء لترسنه
وتقوده هابطة إلى اوروك.
ولما وصلا إلى بوابالها
تحول الثور وذهب إلى النهر.
بأول شخرة من أنفاسه، تشققت الأرض
ومئة شاب سقطوا ولاقوا حتفهم.
بالشخرة الثانية انفتحت شقوق
وسقط مئتان فيها وماتوا.
وفي شخرته الثالثة هاجم انكيدو
تجنب انكيدو الهجوم وقفز
وثب على الثور وأمسكه بقرنيه
ازبد ثور السماء في وجهه
وبلطمة من ذيله قد قذفه».
«صاح انكيدو لصديقه جلجامش:
«سنفخر بترك اسمين خالدين خلفنا،
اقتفى جلجامش الثور وأمسك بذيله
أغمد سيفك بين الرقبة والقرون
أغمد السيف بين الرقبة والقرون فذبحه.

ولما قتلا الثور أخرجا قلبه
ووضعاه تقدمة أمام شمش
تراجعا أمام شمش وقدما له الطاعة
ثم جلس الأخوان يستريحان».
«نهضت عشتار وصعدت سور أوروك الكبير
وثبت على البرج وأطلقت لعنتها:
«الويل لجلجامش لأنه سخر مني
اذ قتل ثور السماء».
وما أن سمع انكيدو لعنة عشتار
حتى انتزع الفخذ الأيمن من ثور السماء
ألقاه في وجهها، وصرخ متحدياً:
«لو استطعت أن أضع يدي عليك
لفعلت بك الشيء ذاته،
ولقذفت بأحشائه على جبينك».
«جمعت عشتار نذيراتها،
بنات المتعة وعاهرات المعبد،
وجلست تنوح على فخذ الثور».
«أما جلجامش فقد دعا صانعي السلاح
أعجب الصناع بضخامة القرنين
كانا قطعتين بسماكة أصبعين من اللازورد
وسعتهما ستة مكاييل من الزيت
أعطاها لآلهه الحارس لوجالبندا
ثم علق القرنين على الجدار في قصره».
«بمياه الفرات غسلا ايديهما
تعانقا وسارا في شوارع اوروك
تجمع حولهما أهالي المدينة اعجاباً
صاح جلجامش للمغنيات على القيثار:
(أو اللاعبات على القيثار، 1 صموئيل 18 : 7)
«من أمجد الأبطال، من أعظمهم؟»
«جلجامش هو الأمجد بين الأبطال
جلجامش هو الأعظم بين الرجال».

«أقام جلجامش احتفالاً في قصره
إلى أن رقد الابطال في فراش الليل.
انكيدو نام أيضاً وغاص في حلم
وفي الصباح قص حلمه لصديقه».

اللوح 7 :

«طلع النهار، نهض انكيدو ، صاح بصاحبه:
«اي اخي ، واي حلم رأيت الليلة الفائتة
آنو ، انليل ، ايا وشمش السماوي كانوا يأتمرون،
قال آنو لانليل:
لأنهما قتلا ثور السماء
وقتلا هواوا حارس جبل الارز
ينبغي أن يموت من قطع ارزات الجبل.
فقال انليل: ينبغي أن يموت انكيدو
اما جلجامش فلن يموت.
اجاب شمش السماوي الصنديد انليل:
ألم يذبحا بأمري ثور السماء وهواوا،
أفينبغي أن يموت انكيدو وهو بريء؟
غضب انليل على شمش السماوي وقال:
اتجرؤ أن تقول ذلك؟ وأنت كواحد منهما
كنت تهبط كل يوم إليهما؟».
«اضطجع انكيدو مريضاً أمام جلجامش
وبينما كانت دموعه تنهمر كالسيل قال:
«اي أخي رغم حبي لك سيصفونني،
سياخذونني منك ولا أعود أراك.
أيجب علي بروح الموتى
أن أجلس على عتبة الأموات؟
ولن تقع عيناي على أخي الحبيب بعد ذلك؟»
أخذ انكيدو المريض يهذي من الحمى
لعن الباب وكأنه يكلم بشرياً:
«يا خشب الباب البليد الذي لا يشعر

بحثت عنك عشرين فرسخاً حتى رأيت الأرز الشاهق
لا مثيل لخشبك في بلادنا
اثنين وسبعين ذراعاً طولك وأربعاً عشرون في العرض
محورك وكعبك وجوانبك كاملة
صانع ماهر من نيبور قد صنعك
ولكن آه لو علمت ما ستكون النتيجة
لو علمت ما سيحل بي منك
اذن لرفعت البلطة وقطعتك ارباً
ولأقمت بوابة قصب بدلاً منك.
آه لو جاء بك أحد ملوك المستقبل ههنا
أو أن الهاً صنعك
وليمحو اسمي ويضع اسمه بدلاً منه
فتقع اللعنة عليه بدل انكيدو».
«ومع خيوط الفجر رفع انكيدو رأسه،
بكى أمام اله الشمس
وتحت نوره المتألق انهمرت دموعه
«أي شمش أتضرع إليك بخصوص ذلك الصياد
دع صيده زهيداً وما يصيده قليلاً
اجعله ضعيفاً وقسمته الأقل من أي شيء.
ودع صيده يفلت من شباكه».
ثم اتجه انكيدو ليلعن العاهرة:
«تعالي ايتها العاهرة لأقدر مصيرك،
مصيراً لن ينتهي إلى الأبد،
سألعنك أيتها المرأة لعنة كبرى
ولعنات قسمي ستنزل بك سريعاً.
لن يكون لك سقف يستر تجارتك.
ولن تسكني مع باقي البنات في الحانة
بل تقومين بعملك في مكان ينتنه اقياء السكارى،
تراب الفخارى سيكون أجرك،
وسرقاتك ستطرح في الزريبة
سكناك ستكون على الطرقات

المزبلة ستكون فراشك في الليل
وفي النهار ستقيمين في ظلال الجدران
العوسج والشوك سيمزقان قدميك
والعطاش والسكارى سيلطمون خدك».
«ولما سمع شمش ما تفوه به
ناداه من أعالي السماء:
«انكيدو، لماذا أنت تلعن العاهرة
وهي التي علمتك أكل الطعام اللائق بالآلهة؟
وأعطتك لتشرب خمراً يليق بالملوك،
وألبستك حللاً تليق بالنبلاء،
وأعطتك جلجامش العظيم رفيقاً لك.
ألم يجعلك جلجامش تستريح في فراش ملكي؟
ألم يجعلك تتكيء على وسادة المجد؟
ألم يضعك على الكرسي المريح إلى يساره،
حتى يقبل امراء الأرض قدميك؟
وسيجعل كل أهل اوروك يبكون. وينوحون عليك،
وسيملأ قلوب السعداء بالحسرة عليك،
وعندما تموت سيترك شعره يطول من أجلك
ويلبس جلد الأسد ويجوب البراري».
«عندما سمع انكيدو كلمات شمش البطل
هدأ قلبه الغاضب واستراح.
استعاد لعنته بعد أن أطلقها وقال:
أيتها المرأة، أعدك بمصير آخر.
ان الفم الذي لعنك سيباركك،
سيحبك الملوك والحكام والأمراء،
من بعيد سيتراكض الرجال إليك
وحتى الشيخ سيهز لحيته من أجلك.
سيفك الشاب نطاقه ويفتح كنزه
لتأخذي ما تشتهين من الذهب واللازورد
سيكون رداء لك وخاتماً ليدك
الكاهن سيقودك إلى حضرة الآلهة

ستترك الزوجة من أجلك ولو كانت أم سبعة».
«نام انكيدو المريض وحيداً بمرارة الروح
وفي ذلك الليل كشف مكنونات قلبه لصديقه:
أنا من قطع الأرز وقتل هواوا
والآن ترى ما قد حل بي
اسمع يا صديقي فهذا ما حلمت به الليلة،
زأرت السماء فجاوبتها الأرض بالزئير
بينهما وقفت وحدي أمام كائن مخيف،
الرجل ـــ الطير ذو الوجه القاتم، الي ساق قصده،
وجهه وجه مصاص الدماء وقدمه قدم اسد
يده مخلب نسر وبها انقض علي،
انشب مخالبه في رأسي، شد علي فاختنقت،
مسخني فصارت ذراعاي كالأجنحة يكسوها الريش
نظر إلي، قادني إلى بيت الظلمة «بيت اركاللا»
الدار التي ما خرج منها أحد بعد أن دخل
طريقها اتجاه واحد لا عودة منه،
البيت الذي حرم ساكنوه النور
هناك التراب قسمتهم والطين طعامهم.
رداؤهم الريش وكأنهم الطير
ولا يرون النور بل يسكنون الظلمة.
وفي بيت التراب الذي دخلت،
تطلعت فرأيت حكاماً قد أزيلت تيجانهم
رأيت الأمراء الذين ولدوا ليحكموا
وقد حكموا العالم منذ القديم.
اولئك الذين وقفوا يوماً مكان الآلهة
وقفوا الآن كالخدم يقدمون «اللحم» في بيت التراب.
يحملون اللحم والمياه الباردة في ضروفهم» .
«في بيت التراب الذي دخلته،
يقيم الكاهن الأكبر وخادم المعبد
كاهن الأناشيد وكاهن النشوة
هناك أيضاً يقيم خدم الآلهة

رأيت ايتانا ملك كيش وسموقان اله القطعان
وهناك أيضاً تعيش اريشكيغال ملكة العالم السفلي
و«بليت شرى» كاتبة الالهة تجثو أمامها
وهي المسجلة التي تحفظ كتاب الأموات،
كانت تحمل لوحاً وتقرأ منه للالهة
رفعت رأسها فرأتني وقالت:
«من جاء بهذا المرء إلى هنا؟»
فأفقت كرجل قد جف دمه
كمن يهيم وحيداً في القفار
كمن ألقي القبض عليه وقلبه يطرق من الرعب».
«خلع جلجامش ثيابه
سمع كلماته فجرت دموعه، بسرعة
جلجامش أصغى فانهمرت دموعه.
ثم قال لصديقه انكيدو:
من في اوروك ذات الأسوار المنيعة يملك هذه الحكمة؟
أشياء غريبة قد قلتها
فلم يتكلم قلبك بغرابة؟
الحلم عجيب والخوف عظيم،
ويجب أن نحفظه مهما كانت درجة الخوف.
الحلم يُري أن الشقاء يأتي في النهاية
وحتى الرجل السليم نهاية حياته الحزن.
والآن سأصلي للآلهة من أجل حلم صديقي».
«انقضى اليوم الذي حلم به انكيدو
وهو طريح الفراش، يوم أول ويوم ثان
آلامه في ازدياد وجلجامش إلى جانبه
يوم ثالث ويوم رابع
وهنت قواه وضعف بصره من البكاء
يوم خامس وسادس وسابع
ثامن وتاسع ويوم عاشر
وانكيدو طريح الفراش وتزداد آلامه
يوم حادي عشر وثاني عشر

وانكيدو مضطجع في فراش العذاب.
خاطب جلجامش قائلاً:
لقد لعنتني الآلهة العظيمة وسوف أموت بالعار،
سوف لا أموت كرجل يسقط في المعركة
لقد خفت السقوط ولكن طوبى لمن يسقط في المعركة
وأما الآن فسأموت مخزياً».

اللوح 8 :

وفي اليوم الثالث عشر ومع خيوط الفجر فارق انكيدو الحياة وهو بين ذراعي صديقه الذي لا يفارقه. فصاح جلجامش بالشيوخ:

«اسمعوني يا عظماء اوروك وانصتوا،
اني من أجل انكيدو، صديقي انتحب،
بأنين مر كالمرأة الثكلى
أنوح من أجل أخي».
«إي انكيدو، ان الغزالة وحمار الوحش
اللذين كانا لك أماً وأبا
وكل الحيوانات ذات الذيل التي أكلت معك
تبكي من أجلك».
«كل الكائنات البرية في السهول والمراعي
والدروب التي سلكتها في غابة الأرز
تبكيك ولا تصمت في الليل أو في النهار
ألا فليبكيك شيوخ اوروك ذات الاسوار المنيعة
وليرتفع اصبع الرحمة خلفنا حداداً عليك».
«اي انكيدو، اسمعني يا أخي الأصغر،
هناك صدى يدوي في البلد كله
مثل أم تنوح من أجلك.
ابك أيتها الدروب التي سرنا بها معاً،
والوحوش التي صدناها، الدب والضبع،
النمر والببر، الفهد والأسد،
الايل والوعل، الثور والظبي.
ليبكيك نهر «عولة» في عيلام

الذي كنا نتجول على ضفافه.
ليرثيك نهر الفرات الطاهر
حيث انتشلنا الماء يوماً لنملأ قربنا
الجبل الذي تسلقناه حيث قتلنا الحارس
ينتحب من أجلك».
«المحاربون في اوروك ذات الاسوار القوية
حيث قتلنا ثور السماء
يبكون من أجلك
كل الناس في اريدو
يبكون من أجلك،
والذين مسحوا ظهرك بالزيت،
يبكون من أجلك.
والذين صبوا لك الجعة لتشرب،
يرثون من أجلك».
«العاهرة التي مسحتك بالزيت الطيب،
تنشد الرثاء من أجلك.
وحريم القصر اللواتي أحضرن لك زوجة،
ينحن الآن من أجلك.
الشباب أخوانك
يسيرون الآن وقد طالت شعورهم
كما لو كانوا نساء، حداداً عليك».
«إي أخي انكيدو
لقد كنت البلطة إلى جانبي
وكنت القوة تسري في ذراعي
والسيف المدلى من نطاقي
وكنت كالدرع أمامي
والثوب الرائع وابهى الحلي
لقد هب شيطان الشر وسرقك مني!
انكيدو، يا صديقي الأصغر
ما هذا النوم الذي يحتويك الآن؟
لقد ضعت في الظلام ولم تعد تسمعني».

«لمس قلبه ولكنه لا ينبض
ولم يرفع عينيه ثانية
فوضع جلجامش عليه نقاباً كنقاب العروس،
ثم بدأ يثور فوقه كالاسد
كاللبوة التي اختطف أشبالها،
يروح ذهاباً وإياباً أمام السرير
نتف شعره ونثره على الأرض،
مزق ورمى ثيابه الرائعة
ألقى بها كما لو كانت دنساً».
«مع خيوط الفجر صرخ جلجامش:
«لقد جعلتك ترقد على فراش ملكي
واتكأت على الوسادة إلى يساري
ولقد قبل أمراء الأرض قدميك
سأجعل أهل اوروك يبكونك ويرتلون مراثي الموت
سعداء الناس سينحنون من الأسى
وعندما تدفن سأطيل شعري من أجلك
وسأجوب البراري لابساً جلد أسد»
وفي اليوم التالي ناح جلجامش
بكى سبعة أيام وسبع ليال من أجل انكيدو
حتى بدأت الديدان تدب فيه
عندئذ فقط اضطر لأن يواريه التراب
اذ أمسك به الانوناكي القضاة».
«ثم أصدر جلجامش اعلاناً في طول البلاد
جمع صناع النحاس والذهب والحجارة وأمرهم:
«اصنعوا تمثالاً لصديقي».»

صنعوا التمثال واستخدموا قدراً كبيراً ن اللازورد في صياغة الصدر ومن الذهب في صياغة الجسد. ثم نصبوا منضدة من الخشب وضوعا عليها كأساً من العقيق مملوءة بالعسل، وكأساً من اللازورد مملوءة بالزبد. كشف جلجامش عن هذه الأشياء وقدما لشمش ثم هام على وجهه باكياً.

اللوح 9 :

البحث عن الخلود:

بكى جلجامش ورثا صديقه، وتأكد ملك اوروك أن مصيره لن يكون أفضل من مصير انكيدو. فكيف يمكن أن يتجنب المحتوم؟ إنه القدر المخيف يطارد بني البشر. كان يسمع أن اوتنابشتيم ملك شورروباك وهو الذي دعاه السومريون «زيوسودرا» قد نجا من الطوفان ومنحته الآلهة الحياة الأبدية ودخل في مجمعها. لقد اصطفته الآلهة ليعيش في «أرض دلمون» في حديقة الشمس، حيث لا مرض ولا موت ولا عجز ولا شيخوخة. وما أن اهتدى جلجامش إلى هذه الفكرة حتى فقد راحته. وبدلاً من أن يعود إلى أمه الحزينة أخذ يعبر البراري ويجوب القفار، وتقرصت قدماه واهترأت ثيابه فاستبدلها بجلود الحيوانات. وأخيراً وصل إلى طرف الأرض إلى جبل «ماشو» موطن شمس الغروب، ترتفع قمتاه إلى السماء وتضرب جذوره في أعماق الأرض فتصل إلى العالم السفلي. وقد ترجم البعض اسم «ماشو» بأنه «ماسيس» هو اسم جبل «ارارات» عند الأرمن، فيكون جلجامش قد اتجه شمالاً، بينما هو قد اتجه إلى الغرب نحو البحر. وكلمة «ماشو» البابلية تعني «التوأم»، فيكون قد سار نحو الغرب إلى سلسلتي جبال لبنان الغربية والشرقية. هناك وجد الرجال العقارب، ولما رأى رئيسهم أن ثلثي جلجامش كان الهاً سمح له بالمرور في قلب الجبل في الظلام حتى وصل إلى آخر النفق على البحر، ووجد هناك بستاناً جميلا انتصبت فيه «شجرة الحياة» وفيه بيت ساقية الخمر «سيدوري صبيتو»، أخبرها بعزمه على زيارة اوتنابشتيم فسخرت منه قائلة «جلجامش، إلى أين المسير؟ الحياة التي تبحث عنها لن تجدها «فلم ييأس بل ذهب في البحر مع النوتي «اور ـ شانابي» حتى وصلا. فأخبره أوتنابشتيم أنه ليس هناك خلود للبشر، كما روى له قصة الطوفان الذي نجا منه. وأخيراً دله على «عشبة الحياة» في البحر، فاستحضرها وعاد. ولكنه في طريق عودته نزل في بركة ليستحم فمرت حية وسرقت عشبة الحياة. وبذلك بقي الانسان مائتا فانيا، وعاد جلجامش منكسر القلب فارغ اليدين إلى اوروك، بينما نسل الأفاعي أخذ يجدد شبابه ويعمر. وأخيراً وصل المصير المحتوم إلى جلجامش بعد أن حفر قصته على الصخر.

«جلجامش يبكي بمرارة من أجل انكيدو
يهيم في البراري كما يفعل الصياد
ويجوب السهول والمرارة تملأ قلبه:
كيف أقدر أن استريح؟
كيف أقدر أن اجد السلام؟
اليأس قد دخل قلبي،
والحسرة تملأ احشائي،
ماذا حل بأخي الآن؟
ألن يكون مصيري كذلك حين أموت؟
اني لأخشى الموت فأهيم في البراري
وموت صديقي يجثم ثقيلاً على قلبي

ولن أقوم بعد الموت، بل سأفنى ابد الدهر.
فلأذهبن إلى اوتنابشتيم القصي،
لأنه قد دخل مجمع الآلهة
حيث جعلوه يعيش في أرض دلمون (خطأ جغرافي بفرق النصين السومري والبابلي)
هناك في حديقة الشمس
وله وحده من البشر قد منحوا الحياة الأبدية».
«في الليل عندما وصل إلى ممرات الجبال
أخذ جلجامش يصلي:
في هذه الممرات، منذ زمن، قد رأيت الأسود
خفت، فرفعت عيني إلى القمر
صليت، فارتفعت صلواتي إلى الآلهة
والآن أيها الاله «سين» يا إله القمر احفظني
وبعد أن صلى اضطجع لينام،
ونام إلى أن أيقظه حلم.
حوله رأى أسوداً تبتهج بالحياة،
أخذ بلطته، أمسكها بيده،
سحب سيفه، استله من حزامه،
هجم عليهم كالسهم انطلق من الوتر،
ضربهم، دمرهم وبدد شملهم».
«أخيراً وصل جلجامش إلى «ماشو»،
الجبال العظيمة التي سمع عنها الكثير،
الجبال التي تحرس شمس الشروق والغروب،
قمتاها ترتفعان مثل جدار السماء،
وجذورها تغوص عميقاً حتى العالم السفلي.
على بوابتها تقف «العقارب» للحراسة
نصف العقرب انسان ونصفه الآخر تنين
عظمتها تثير الرعب،
ونظرتها تبعث الموت في البشر،
هالتها المتألقة تمسح الجبال التي تحرس شمس الشروق».
«لما رأى جلجامش الرجال العقارب،
غطى عينيه لفترة من الزمن،

عادت إليه شجاعته فاقترب،
ولما رأوه لا يخاف،
نادى الرجل العقرب إلى صاحبه:
«إن الرجل القادم إلينا هو من لحم الآلهة»
فأجاب صاحبه العقرب الثاني:
«ثلثاه إله وثلثه إنسان»
ثم نادى جلجامش وليد الآلهة:
«لماذا سرت كل هذ الرحلة الطويلة؟
من أجل ماذا عبرت كل هذ المسافات؟
كما عبرت المياه الخطيرة.
فما عسى أن يكون سبب قدومك؟»
أجاب جلجامش:
«بسبب انكيدو الذي أحببت كثيراً،
ومعاً تحملنا كل أشكال المصاعب،
من أجل ما حل به قد أتيت،
بسبب «قدر كل البشر» الذي أخذه.
لقد بكيته الليل والنهار،
ولم أسمح أن يوارى جسده التراب،
ظننت أن عويلي يرد صديقي إلي.
منذ فراقه لا تساوي حياتي شيئاً
لذا تنقلت أبحث عن أبي اوتنابشتيم،
اذ يقول الناس أنه دخل مجمع الآلهة،
وأنه قد وجد الحياة الأبدية،
وبي الرغبة أن اسأله عن الأحياء والأموات»
«تكلم الرجل العقرب، فأجاب جلجامش:
لم يفعل ابن امرأة قط ما تسأل.
ولم يدخل أحد الفانين ابداً هذا الجبل.
فطوله اثنا عشر فرسخاً من الظلام،
ليس فيه نور، بل الظلمة تعصر القلب،
من شروق الشمس حتى مغربها لا ترى النور».
«قال جلجامش:

رغم أني بالحسرة وبالألم سأسير،
وبالأنين والبكاء، علي أن أذهب،
فأفتح بوابة الجبل...»
«فقال الرجل العقرب
سر يا جلجامش،
اسمح لك أن تمر في جبل ماشو
وأن تعبر سلاسله العالية،
ولتحملك قدماك سالماً إلى موطنك،
فهذه بوابة الجبل مفتوحة أمامك»
«لما سمع جلجامش قول الرجل العقرب،
اتبع طريق الشمس في الجبل.
ولما قطع فرسخاً اشتد الظلام حوله،
لم يكن هناك نور،
فما رأى شيئاً أمامه أو وراءه.
بعد فرسخين كان الظلام دامساً
لم يكن هاك نور
لم يستطع أن يرى شيئاً أمامه أو وراءه.
بعد ثلاثة فراسخ كان الظلام دامساً
لم يكن هاك نور
لم يستطع أن يرى شيئاً أمامه أو وراءه.
بعد أربعة فراسخ الظلام حالك ولا نور.
لم يستطع أن يرى شيئاً أمامه أو وراءه.
وبنهاية خمسة فراسخ، لا بصيص نور
ولا يقدر أن يرى شيئاً أمامه أو وراءه.
وبعد ست فراسخ، ظلام دامس ولا نور
ولا يقدر أن يرى شيئاً أمامه أو وراءه.
ولما سار سبعة فراسخ كان الظلام دامساً
ولم يكن هناك نور
فلا يقدر أن يرى شيئاً أمامه أو وراءه.
ولما سار ثمانية فراسخ،
صرخ جلجامش صراخاً عظيماً

لأن الظلام كان دامساً
ولم يقدر أن يرى شيئاً أمامه أو وراءه.
بعد تسعة فراسح أحس بريح الشمال على وجه
لكن الظلام حالك ولا بصيص نور
ولم يستطع أن يرى شيئاً أمامه أو وراءه
بعد عشرة فراسخ باتت النهاية قريبة
بعد أحد عشر فرسخاً بدا نور الفجر
وبعد اثني عشر فرسخاً تدفقت أشعة الشمس»
«هناك كان بستان الآلهة،
وحوله انتصبت الشجيرات تحمل الجواهر،
دخل البستان لتوه منذ رآه
تتدلى منه العناقيد وثمار من عقيق
جميلة كانت للناظرين
وأوراق اللازورد تغطيها الثمار
حلوة المنظر
بدل الشوك والعوسج كانت الحجارة النادرة،
عقيق ولآلىء استخرجت من البحر».
«بينما كان يتمشى جلجامش في البستان
رآه شمش على حافة البحر
رآه يلبس جلد الحيوان ويأكل لحمه
اغتم لذلك وقال له:
جلجامش إلى أين المسير؟
الحياة التي تبحث عنها لن تجدها،
لم يسلك أحد الفانين هذا الطريق
ولن يفعل ما دامت الريح تهب على البحر».
«فقال جلجامش لشمش العظيم:
الآن، وقد كديت وهمت في البراري
هل أنام؟
وهل أترك التراب يغمر رأسي إلى الأبد؟
دع عيني ترى الشمس حتى تزيغ من النظر،
وإن أنا لم أكن أفضل من رجل ميت

دعني أتمتع بنور الشمس والضياء»
«بجانب البحر كانت تسكن صانعة الخمر،
«سيدوري صبيتو» تجلس في البستان قرب البحر،
معها طاسات وأدنان الذهب عطية الآلهة،
كانت تغطي وجهها بخمارها
وحيث جلست رأت جلجامش يقترب
يلبس الجلد وفي جسمه لحم الآلهة
لكن الياس يملأ قلبه
وقد أضنى وجهه طول المسير.
نظرت، تصورت المسافة، قالت في قلبها
«لا بد أنه مجرم
فأين يذهب الآن؟»
أغلقت البوابة في وجهه ووضعت المزلاج
اندفع جلجامش، وضع رجله في البوابة وصاح:
أيتها الصبية، يا صانعة الخمر
لماذا تقفلين بابك بالمزلاج؟
ماذا رأيت لتغلقي بوابتك؟
سأكسر بابك وأحطم بوابتك،
فأنا جلجامش الذي قتل ثور السماء،
قتلت حارس غابة الأرز،
أسقطت هواوا الذي سكن الغابة
وقتلت الأسود في ممرات الجبال».
«أجابته سيدوري:
إذا كنت جلجامش الذي قتل ثور السماء
من صرع حارس الأرز هواوا
من قتل الأسود في ممرات الجبال
فلم غار خداك ولم نحل وجهك؟
لماذا يملأ اليأس قلبك؟
ويبدو وجهك وقد أنهكه طول المسير؟
لماذا أحرق الحر والبرد وجهك؟
لماذ جئت هاهنا هائماً تبحث عن الريح؟

«أجابها جلجامش:
لماذا لا يغور خداي وينحل وجهي؟
اليأس يملأ قلبي،
ووجهي أنهكه طول المسير،
وأحرقه الحر والبرد،
فلماذا لا أهيم في المروج أبحث عن الريح؟
لقد أدرك الفناء صديقي وأخي الأصغر انكيدو،
أخي الذي صاد حمار الوحش في البراري
والفهد في السهول
الذي قتل ثور السماء وصرع هواوا
صديقي العزيز الذي تحمل المخاطر بجانبي.
بكيته سبعة أيام وليالي حتى تمكن منه الدود
بسبب أخي بت أخشى الموت
بسببه همت في البراري ولم أعد أستريح.
والآن أيتها الصبية يا صانعة الخمر
بعد أن رأيت وجهك الصبوح
لا تدعيني أطالع وجه الموت وأنا أخشاه».
«أجابته سيدوري صبيتو:
جلجامش إلى أين المسير؟
الحياة التي تبحث عنها لن تجدها.
عندما خلقت الآلهة البشرية — مزمور 115 : 16 و 17
خصت البشرية بالموت
واحتفظت بالحياة بين أيديها.
أنت جلجامش، اشبع معدتك بالطيبات — الجامعـــــــــة 5 : 18
واخرج وارقص في الليل وفي النهار — جامعة 8 : 15
أقم كل يوم حفلاً مبهجاً.
لتكن ثيابك مغسولة نظيفة — جامعة 9 : 8
أغسل رأسك ، وبالماء استحم
عد إلى موطنك أيها الملك
وتقبل المحتوم بطيب خاطر

تذكر هبات الآلهة التي أمطرها عليك
وكن شكوراً من أجل كل ذلك.
استفد من الانفاس التي أعطيتها
وفكر أن تتمتع نهارك وليلك.
عش في قصرك المنيف
وخض حروبك الكبرى
وكل واشرب بفرح.
اتخذ زوجة ونم بسلام على كتفها جامعة 9 : 9
انها تجد المسرة في أحضانك
وانظر إلى الصغير على يدك
هكذا ستقضي كل أيامك
وتتقبل طير الموت
حين يحوم فوق رأسك
فهذا كله أيضاً من نصيب الانسان».
«أجاب جلجامش، خاطب سيدوري:
كيف أقدر أن أسكن، كيف استريح؟
بينما انكيدو الحبيب بات تراباً،
وأنا أيضاً سأموت وأدفن في الأرض.
أيتها الصبية، أين الطريق إلى اوتنابشتيم بن اوباراتوتو؟
أي الاتجاهات، أرجوك، أي اتجاه؟
سأعبر المحيط أن أمكنني ذلك
وإن لم أستطع فسأبقى هائماً في البراري».

أجابت صانعة الخمر: «ليس هناك معبر للمحيط، ومنذ القدم لم يستطع أحد أن يعبر البحر. الشمس وحدها في مجدها تعبر المحيط. فمن غير الشمس قد عبره؟ المكان والممر صعبان ومياه الموت عميقة تفصلهما. فكيف يا جلجامش ستعبر المحيط؟ وماذا ستصنع عندما تصل مياه الموت؟ ولكن في الغابة ستجد أور شانابي نوتي اوتنابشتيم. إنه يجهل الدفاتر المقدسة، وهو الآن يصنع مقدمة السفينة. تفرس فيه فربما أمكن أن تعبر معه. وإن لم يكن ذلك بالمستطاع فعليك أن تعود».

عندما سمع جلجامش ذلك تملكه الغضب. أمسك بلطته بيده ونزع خنجره من منطقته واندفع كالسهم. ذهب وجلس في الغابة. رأى اور شانابي لمعان الخنجر وسمع ضربة البلطة، فضرب رأسه لأن جلجامش قد قطع حَبْلَ السفينة في ثورة غضبه. فقال اور شانابي: «اخبرني ما اسمك؟ فأنا اور شانابي نوتي اوتنابشتيم القصي». فأجاب: «اسمي جلجامش وأنا من اوروك، من بيت آنو». فقال اور شانابي: «لماذا غار خداك ونحل

وجهك لماذا ملأ اليأس قلبك وبدا منهكاً من طول المسير؟ ولماذا أحرق الحر والبرد وجهك؟ ولماذا تأتي هائماً فوق المروج تبحث عن الريح؟». فقال جلجامش: «لماذا لا يغور خداي وينحل وجهي؟ اليأس يملأ قلبي ووجهي كوجه من انهكه طول المسير وقد أحرقه الحر والبرد. ولم لا أهيم في المروج؟ فصديقي وأخي الأصغر الذي قتل ثور السماء وصرع هواوا في غابة الأرز، صديقي انكيدو الذي تحمل المصاعب بجانبي وأحببته قد خطفه الموت. بكيته سبعة أيام وسبع ليال حتى تمكن منه الدود. بسبب أخي بت أخشى الموت وبسبب أخي أهيم في البراري. وقدره سيقع علي، فكيف يمكن أن أسكن وكيف أقدر أن أستريح؟ هو تراب وأنا أيضاً سأموت وأدفن في التراب إلى الأبد. وبما أني أخشى الموت أخبرني يا أور شانابي عن الطريق إلى اوتنابشتيم. إن كان ممكناً فسأعبر مياه الموت وإن لم يكن ممكناً فسأجوب البراري فوق ذلك».

فقال اور شانابي (سورسنابو عند البابليين): «جلجامش، إن يديك تمنعاك من عبور المحيط. فعندما قطعت حبل السفينة خربت أمامها». وبعد أن تداولا في الأمر قال جلجامش: «لماذا أنت غاضب مني؟ فأنت يا اور شانابي تعبر البحر نهاراً وليلاً وفي كل الفصول». «جلجامش، إن الأشياء التي دمرتها مهمتها أن تحملني فوق الماء وتمنع مياه الموت من ملامستي. لهذا بالذات حفظتها وأنت خربتها. ولكن الآن اذهب إلى الغابة واقطع ببلطتك مئة وعشرين عموداً بطول ستين ذراعاً كل عمود، ضع عليها القار وأحضرها».

ولما سمع جلجامش هذا ذهب إلى الغابة وقطع العواميد المئة والعشرين بطول ستين ذراعاً لكل منها ودهنها بالقار وأحضرها إلى اور شانابي. ثم صعد الاثنان معاً إلى المركب وسارا فوق أمواج المحيط.

سارا ثلاثة أيام وكأنها رحلة شهر ونصف، وأخيراً أوصل اور شانابي قاربه إلى «مياه الموت» ثم قال لجلجامش «اضغط بعمود في الماء ولا تدع الماء يمس يدك. جلجامش، خذ عموداً ثانياً، ثالثاً ثم رابعاً، والآن خذ عموداً خامساً وسادساً وسابعاً. جلجامش خذ ثامناً وتاسعاً وعاشراً. جلجامش خذ حادي عشر وثاني عشر». وبعد مئة وعشرين تجديفة استعمل جلجامش كل العواميد. ثم خلع ثيابه ورفع يديه كالصواري وثيابه كالشراع. هكذا أوصل اور شانابي جلجامش إلى اوتنابشتيم الذي يسمونه «القصي»، الذي يعيش في دلمون، مكان عبور الشمس شرق الجبل. وله وحده من بني الانسان قد وهبت الآلهة الحياة الأبدية.

والآن يجلس اوتنابشتيم مسترخياً ينظر إلى البعيد ويقول في نفسه :«لماذا يسير القارب دون حبال أو صواري؟ لماذا دمرت الحجارة المقدسة؟ ولماذا لا يقود النوتي القارب بنفسه؟ إن الرجل الآتي لا يخصني. وحيث أتطلع أرى رجلاً قد غطى جسمه جلد الوحوش. فمن الذي يسير على الشاطىء خلف اور شانابي؟ لأن الرجل لا يخصني». أجاب «اسمي جلجامش وأنا من أوروك من بيت آنو». فقال اوتنابشتيم: «إن كنت جلجامش فلماذا غار خداك ونحل وجهك؟ لماذا يملأ اليأس قلبك ووجهك كوجه من قام برحلة مضنية؟ لماذا أحرق وجهك الحر والبرد؟ ولماذا تأتي هائماً في البراري تبحث عن الريح؟»

فأجاب جلجامش: «لماذا لا يغور خداي وينحل وجهي؟ اليأس يملأ قلبي ووجهي كوجه من أضناه السفر، لقد أحرقه الحر والبرد. لماذا لا أهيم في البراري؟ إن صديقي وأخي الأصغر الذي قتل ثور السماء وصرع هواوا في غابة الأرز، صديقي الحبيب الذي تحمل المخاطر إلى جانبي، أنكيدو أخي الذي أحببته قد اختطفه الموت. بكيته سبعة أيام وسبع ليال حتى تمكن منه الدود. بسبب أخي بت أخشى الموت، وبسبب أخي أهيم في البراري. إن مصيره لثقيل على نفسي. فكيف أسكن وكيف أقدر أن أستريح؟ لقد صار ترابا وأنا أيضاً سأموت وأوارى التراب إلى الأبد».

ثم استطرد جلجامش قائلاً:

«لأرى أوتنابشتيم القصي قد ترحلت،
من أجل هذا همت في أنحاء العالم،
اخترقت سلاسل الجبال الوعرة،
وعبرت كل البحار.
لقد أضنيت نفسي من الترحال،
وأصبحت مفاصلي تؤلمني.
فقدت طعم النوم ولم أشبعه،
وانكدت نفسي من اليقظة وطولها.
بليت ثيابي قبل أن أصل إلى سيدوري،
قتلت الدب والضبع، الأسد والببر،
وقتلت النمر والايل والوعل،
وكل أنواع الوحوش وحيوان المراعي،
أكلت لحومها ولبست جلودها،
هكذا وصلت إلى بوابة تلك الصبية.
أوصدت صانعة الخمر بوابتها في وجهي،
سيدوري أخبرتني كيف أصل إليك.
هكذا جئت إلى النوتي اور شانابي
وبرفقته عبرت مياه الموت،
أي أبي أوتنابشتيم،
أنت يا من دخل مجمع الآلهة،
أريد أن أسألك عن الأحياء والأموات.
كيف أجد الحياة التي أبحث عنها؟».

«قال أوتنابشتيم:
ليس هناك خلود، جامعة 9 : 5

لايصُدّ الموت المكروه،
أنبني بيوتاً لتبقى إلى الأبد؟
هل نختم عقوداً تسري على مر الزمن؟
هل يتقاسم الأخوة ميراثاً فيحفظوه إلى الأبد؟
هل تدوم البغضاء أبد الدهر في الأرض؟ جامعة 9 : 6
هل يستمر النهر في الارتفاع والفيضان؟
ذبابة التنين تخرج من يرقاتها
لترى وجه الشمس في مجد ضيائها.
منذ القديم لكن يكن هناك خلود، جامعة 1 : 4،11–16: 2
والنيام الموتى كم يشبهون بعضهم، (النيام والموتى كم يتشابهون)
ألا يكوّنان معاً صورة الموت؟
السيد والخادم حين يدركهما القضاء،
الانوناكي، الآلهة الكبار يجتمعون
و«ماميتوم» صانعة الأقدار معهم
سوياً يقررون مصير الناس
يوزعون الحياة والموت تثنية 30 : 19
والموت لا يكشفون موعده».

اللوح 11 :
قصة الطوفان:

«قال جلجامش لأوتنابشتميم القصي:
بينما أتطلع إليك
لا تبدو غريباً، بل أنت مثلي.
لست غريباً أبداً، بل نحن متشابهان
ظننت أني سأجدك بطلاً جاهزاً للمعركة،
بينما تقيم هنا مسترخياً على ظهرك.
كيف قدر لك أن تنضم إلى جماعة الآلهة؟
وأن تحوز الحياة الأبدية؟»
«فأجاب أوتنابشتيم قائلاً لجلجامش:
سأكشف لك قضية غامضة،
سأخبرك عن أحد أسرار الآلهة.

أتعرف مدينة شورورباك على ضفاف الفرات
كانت المدينة قد هرمت، كما هرم الآلهة بداخلها.
كان فيها آنو، رب الجلد ووالدهم،
المحارب انليل، مستشارهم،
الاله نينورتا مساعدهم،
وإنوجي الذي يحرس القنوات،
نينيجيكو ـــ ايا كان أيضاً معهم
وكان يردد كلماتهم لبيت القصب.
تكاثر الناس وصار العالم مكتظاً،
علا ضجيج العالم كخوار الثور البري
وأثار الصراخ الاله العظيم.
سمع انليل الضجة فقال للآلهة في المجمع
«صراخ البشر لا يحتمل، ولا أستطيع أن أنام
هكذا اتفق الآلهة على ابادة البشرية
انليل فعل ذلك، لكن ايا جاء محذراً
إنه لا يحنث بقسمه، فجاء يحذرني في الحلم.
همس كلماتها إلى بيتي المصنوع من القصب:
«يا بيت القصب، يا بيت القصب، أيها الجدار،
اصغ إلي يا بيت القصب، تأمل أيها الجدار،
يا رجل شورورباك، يا ابن اوباراتوتو،
اهدم بيتك وابني قارباً، تكوين 6 : 14
اهجر ممتلكاتك واطلب الحياة
احتقر متاع الدنيا وانجُ بنفسك
اهدم بيتك أقول لك وابنِ قارباً
إليك مقاييس السفينة كيف تبنيها
اجعل عرضها كطولها وسقفها كقبة الابسو تكوين 6 : 15
ثم احمل إلى السفينة بذرة كل حي» تكوين 6 : 19و20
«عندما فهمت قلت لسيدي ايا:
انظر، إنه ليشرفني أن أنفذ أوامرك،
ولكن بماذا أجيب المدينة والناس والشيوخ؟
فتح ايا فاه وخاطبني، أنا خادمه:

ستقول لهم ما يلي:
لقد علمت أن انليل غاضب علي
فلا أستطيع أن أسكن مدينتكم
ولا أن تطأ قدماي أرض انليل
إذن إلى الأعماق سأنزل
هناك سأسكن مع سيدي ايا.
لكنه سيمطر عليك الوفرة
أفضل الطيور وأندر الأسماك والحصاد الوفير
وفي المساء، راكب العاصفة
سيترل عليك القمح كالمطر».
«مع بزوغ أول فجر جمعت أهل بيتي
احضر الصغار القار، والكبار باقي اللوازم.
في اليوم الخامس بنيت هيكلها
وضعت القاعدة والأضلاع ثم ثبت الألواح
فداناً كانت مساحة أرضها
مئة وعشرين ذراعاً كان طول كل جانب تكوين 6 : 15
بنيت فيها ست طبقات سفلية تكوين 6 : 16
صار مجموع أسطحتها سبعة
تسعة أقسام قسمتها تفصل بينها الحواجز
أدخلت أسافين حيث يلزم
رتبت المجاذيف وحملت المؤن».
«صببت على الموقد ست «سارات» مكاييل من القار،
(سار = 3600ل) تكوين 6 : 14
ثلاث «سارات» من الاسفلت أيضاً صببت (المكيال = نحو 8 ، 3 ل)
ثلاث «سارات» من الزيت الذي نقله الحمالون،
زيادة على «سار» الزيت لسد الشقوق
و«ساران» من الزيت اختزنهما قائد السفينة.
ذبحت للشغيلة ثيراناً تكوين 6 : 21
وكل يوم ذبحت من الأغنام
قدمت للصناع خمراً أبيض وأحمر وزيتاً
ليشربوها كما لو كانت مياه النهر

وليحتفلوا كما لو في «عيد رأس السنة»
مسحت يدي ورأسي بالدهن
وفي اليوم السابع اكتمل بناء السفينة».
«انزالها إلى الماء كان في غاية الصعوبة
حرك الصناع الدعامات التي من فوق والتي من تحت
حتى غاص ثلثاها في الماء».
«كل ما ملكت يداي حملت
كل ما لدي من فضة وذهب،
حملت جميع بذور الحياة
أصعدت لداخل الفلك كل عائلتي وأقاربي تكوين 7 : 7و8
مواشي المزارع، حيوان البر وكل الصناع» توين 7 : 13-16
«عين لي شمش السماوي توقيتاً:
في المساء عندما يرسل المطر «راكب العاصفة»
ادخل الفلك وأغلق بابه.
اكتمل الزمن وحل المساء
راكب العاصفة أرسل الأمطار
استطلعت الطقس وكان مرعباً
فدخلت السفينة وأغلقت الباب.
لـ «بزور ــ أموري» سلمت قيادة السفينة وما عليها».
«مع خيوط الفجر،
صعدت من الأفق سحب سوداء. تكوين 7 : 11
أرعد هدد وطاف راكب العاصفة
بينما «شلاط» و«أخنيس» يتقدمان
نذيراً العاصفة يتحركان فوق السهول والتلال.
نهض آلهة الجحيم.
«نرجال» جذب سدود المياه الواطئة
اله الحرب «نينورتا» قذف حواجز المياه
«الانوناكي» قضاة الجحيم السبعة رفعوا مشاعلهم،
فأضاؤوا الأرض بلهيبها المؤجج.
الذعر من «هدد» بلغ حتى السماء
إذ أحال اله العاصفة ضوء النهار ظلاماً،

وهشم الأرض الرحبة كالكأس.
ليوم كامل هبت عاصفة الجنوب
أخذت تتسارع فتغمر الجبال
وتنقض على الناس كالمعركة.
لم يعد الأخ يرى أخاه
ولا الناس ترى من السماء
حتى الآلهة ارتعبت من الطوفان
هربت وصعدت إلى أعلى سماء، سماء آنو
أقعت الآلهة كالكلاب جنب الجدران»
«عشتار صرخت كامرأة آلمها المخاض،
بصوتها العذب ناحت ملكة السماء:
وا أسفاه، فقد استحال الزمن الأول إلى طين   تكوين 7 : 23
لأنني تكلمت بالشر في مجمع الآلهة.
كيف أمرت شراً في المجمع المقدس؟
كيف أعلى حرباً تدمر رعيتي؟
وأنا التي تسعى لتزيد توالدهم.
أما خلق البشر إلا ليملأوا البحر كالأسماك؟
«انليل» أنت الحكيم بين الآلهة، أنت الشجاع،
كيف بدون فكر تسبب الطوفان؟
الخاطىء أنهكه بخطيئته،
ومرتكب الجريمة أثقله بجريمته.
آلهة الانوناكي شاركوها البكاء.
جلس الآلهة باتضاع وانحنوا يبكون».
«ست أيام وست ليالي تنفخ الرياح،
الطوفان وعاصفة الجنوب يغمران الأرض،
الأعاصير والعواصف ثارت كالحشود المتحاربة،
ومع فجر اليوم السابع هدأت عاصفة الجنوب
هدأ البحر، سكن الاعصار وتوقف الطوفان.   تكوين 8 : 1-2
تطلعت إلى وجه العالم فكان سكون
البشرية كلها استحالت طيناً.
ووجه البحر كان منبسطاً كالسطوح».

«فتحت كوة، فسقط النور على وجهي تكوين 8 : 6
بقيت جالساً إذ وهنت قواي
انحنيت أبكي، بالدمع تبللت وجنتاي.
عبثاً بحثت عن الأرض في وسط الغمر،
على مبعدة أربعة عشر فرسخاً ظهر جبل،
على جبل «نصير» استقرت السفينة، تكوين 8 : 4
ستة أيام ثبتت عليه ولم تتزحزح.
ومع اليوم السابع أخرجت حمامة وأفلتها، تكوين 8 : 8–9
طارت ولم تجد مكاناً تحط عليه فعادت.
ثم أخرجت سنونواً وأفلتها،
طارت، لم تجد مكاناً تحط عليه فعادت،
ثم أخرجت غراباً وأفلته، تكوين 8 : 7
ذهب الغراب، رأى انحسار المياه
أخذ يأكل، أخذ يمشي في الأوحال فلم يعد».
«عندئذ أطلقت كل شيء للرياح الأربع،
قدمت ذبيحة
وسكبت قرابين على قمة الجبل تكوين 8 :20
نصبت سبع قدور مقدسة وسبعة
أحرقت تحتها القصب والآس وخشب الأرز
تنشقت الآلهة الرائحة الذكية تكوين 8 : 21
الآلهة كالذباب تجمعت فوق الضحية».
«أخيراً وصلت الالهة العظيمة عشتار،
رفعت عقد الجواهر هدية آنو:
يا معشر الآلهة الحاضرين ههنا،
أقسم باللازورد حول عنقي، لن أنسى،
سأتذكر هذه الأيام ولن أنساها،
ليجتمع كل الآلهة حول الذبيحة
ولكن لا تدعو انليل يقترب منها
لأنه بدون فكر سبب الطوفان
وسلم شعبي للفناء».
«ولما وصل انليل

رأى السفينة فثارت ثائرته أخذ ينفث غَضَبَهُ على الآلهة أهل السماء،
«هل أفلت واحد من الفانين؟
ليس لأي بشري أن ينجو من الفناء»
تكلم نينورتا، خاطب المحارب انليل:
من غير أيا يمكنه أن يضع الخطط؟
فايا وحده يعرف كل شيء
فتح أيا فاه، قال للمحارب انليل:
«يا أحكم الآلهة، أيها البطل
كيف بدون فكر تسبب الطوفان؟
الخاطىء أثقله بخطيئته،
والمجرم أثقله بجريمته،
كن ليناً عندما يشد،
ولا تقسُ عليه لئلا تفنيه.
لو قام أسد وغزا البشر، حزقيال 14 : 13–21
أما كان أفضل من الطوفان؟
لو قام ذئب وهاجم الناس
أما كان أفضل من الطوفان؟
لو قامت مجاعة واجتاحت العالم،
أما كانت أفضل من الطوفان؟
لو قام وباء ليضرب البشر،
أما كان أفضل من الطوفان؟
لم أكن أنا من كشف سر الآلهة
بل عرفه الرجل الحكيم في أحلامه.
والآن قرروا ماذا سنفعل به».
«عندئذ صعد انليل إلى السفينة
أمسكني بيدي، أخذني إلى سطحها
أخذ زوجتي وجعلها تجثو إلى جانبي
وقف بيننا، لمس رأسينا وباركنا
«حتى الآن كان أوتنابشتيم انساناً فانياً
والآن صار مع زوجته مثلنا معشر الآلهة.
وبعيداً عند مصب الأنهر ستكون سكناه.

وهكذا أخذوني وأسكنوني بعيداً
عند مصب الأنهر».

العودة:

«وأما أنت يا جلجامش فمن سيجمع الآلهة من أجلك
كي تجد الحياة التي تبحث عنها؟
وإن أردت تعال لأمتحنك.
فقط تقاوم النوم لست أيام وست ليالي».

كان أوتنابشتيم يروي قصته باسهاب بينما جلجامش يجلس على عجزه منهوك القوى يستمع إلى القصة القديمة التي طالما سمعها مراراً على ركبتي أمه. «سأفعل هذا» قال جلجامش وهو يغالب النوم «لن تفرح بذلك» قال الجد، أراهن أنك ستشتاق للنوم. وقبل أن يقوي جلجامش على الجواب احتواه ضباب النوم كالصوف الناعم المندوف من الأغنام. كان ينام عند قدمي العرش وأوتنابشتيم يتمناه لو ينام ممدداً على الأرض حتى يغوص في نوم الموت.

«قال أوتنابشتيم لزوجته:
أنظري هذا البطل الذي يبحث عن الحياة،
النوم يحتويه كما تفعل الريح الدوارة.
فقالت الزوجة لأوتنابشتيم القصي:
المس الرجل كي يستيقظ،
كي يعود سالماً من حيث أتى
ليعود إلى وطنه من البوابة التي خرج منها.
فأجاب أوتنابشتيم زوجته:
كل البشر مخادعون، تكوين 8 : 21
وسوف يحاول أن يخدعك.
اصنعي خبزاً وضعي الأرغفة قرب رأسه
كل يوم تضعين رغيفاً
وتضعي علامة على الجدار بعدد أيام النوم.
خبزت الأرغفة، وضعتها قرب رأسه
وضعت إلى الجدار علامات بعدد الأيام التي نامها.
جف الرغيف الأول وتلف الثاني
ترطب الثالث وابيضت قشرة الرابع
تعفن الخامس وانحفظ السادس
ومع السابع لمس الرجل فأفاق.

قال جلجامش لأوتنابشتيم القصي:
«لم أكد أنام حتى أيقظتني لمستك»
فأجاب اوتنابشتيم:
خذ الأرغفة وعدها
لتعلم عدد أيام نومك.
عدها جلجامش وقال:
ماذا أفعل يا أوتنابشتيم؟
وإلى أين سأسير
لقد سرقني النوم وتمكن من أطرافي
الموت يقطن حجرتي.
وأينما وطأت قدماي أجد الموت».
«ثم التفت أوتنابشتيم إلى النوتي اورشانابي:
الويل لك يا اورشانابي
لقد أصبحت من الآن وإلى الأبد مقيتاً في هذا المرسى
ليس هذا مكانك وليس لك أن تعبر هذه البحر
اذهب منفياً من هذا الشاطىء
ولكن خذ هذا الرجل الذي سرت أمامه
وأتلفت الجلود جمال أطرافه
وغطت القذارة كل جسده
خذه إلى المغسل يا أورشانابي
ليغسل وسخه بالماء ويصبح نظيفاً كالثلج
دعه يخلع جلوده وارمها في البحر
حتى يبين جمال جسده.
ليضع شريطاً جديداً حول رأسه
وأعطه رداء يستر به عريه
حتى يعود إلى مدينته ويتمم رحلته».
«قاده أورشانابي إلى المغسل
غسل وسخه بالماء وأصبح نظيفاً كالثلج
خلع جلوده وألقاها عنه فحملها البحر
حتى بان جماله الجسماني.
وضع شريطاً جديداً حول رأسه

ولبس ثياباً جديدة غطى بها عريه

تكون حلته حتى يصل مدينته

وحتى يتمم رحلته».

أطلق جلجامش وأورشانابي القارب في الماء وركباه ليبحرا بعيداً. لكن الملكة زوجة أوتنابشتيم قد شعرت وتحسست معه، إن قلبها قلب امرأة فأشفقت على ملك اوروك، وسيم في رجولته، وقوته تبين من خلال ملابسه، فقالت لأوتنابشتيم القصي:

«لقد جاءنا جلجامش متعباً منهوك القوى،

فماذا نعطيه كي يحمله إلى بلده؟»

«وبينما جلجامش يرفع عموداً

ليدفع القارب به نحو الشاطىء

صاح أوتنابشتيم له:

جلجامش لقد جئتنا انساناً متعباً منهوك القوى

فماذا أعطيك كي تحمل معك إلى بلدك؟

سأكشف لك عن أحد الخبايا

وسأخبرك عن أحد أسرار الآلهة:

هناك عشبة تنمو تحت الماء

لها أشواك واخزة، شبيهة بالوردة

إن اقتطافها سوف يدمي يديك

فإن نجحت في ذلك فقد أمسكت يداك

ما يعيد إلى الانسان شبابه المفقود».

لم يخف جلجامش وقد رأى قرب النهاية فركض إلى الشاطىء وربط حجرين كبيرين بساقيه وألقى بنفسه في الماء وغاص أعمق فأعمق. في كهف مظلم رأى «عشبة الشباب الدائم» تكللها الأشواك. أمسك بالعشبة جيداً فأدمت يديه. ثم قطع الحجارة الثقيلة من قدميه فحمله البحر وألقاه على الشاطىء. فصاح لأورشانابي:

«تعال إلي وانظر إلى هذه العشبة العجيبة،

بفضلها قد يستعيد الانسان سالف قوته،

سآخذها إلى اوروك ذات الأسوار المنيعة،

هناك سأعطيها للشيوخ ليأكلوا

سيكون اسمها «عاد الشيوخ شباباً»

وأخيراً سآكل منها فأستعيد شبابي الضائع.

عاد جلجامش من البوابة التي أتى منها

جلجامش وأورشانابي سارا معاً.

بعد عشرين فرسخاً أفطرا
وبعد ثلاثين فرسخاً توقفا لقضاء الليل.
رأى جلجامش نبع ماء بارد
نزل في الماء كي يستحم،
في عمق البركة كانت ترقد حية،
تنشقت الأفعى رائحة العشبة الطيبة
خرجت من الماء واختطفتها
وسرعان ما انسلخ جلدها وعادت إلى الماء.
عندئذ جلس جلجامش وبكى
أخذت دموعه تنهمر على خديه
أمسك بيدي أورشانابي النوتي وصاح:
أمن أجل هذا عملت
أمن أجل هذا كدحت بيدي؟
أمن أجل هذا عصرت دماء قلبي.
أمن أجل هذا كد انكيدو وأنا؟
أمن أجل هذا صرعت الوحش هواوا؟
أمن أجل هذا نازلت ثور السماء؟
أمن أجل هذا رقبت أنكيدو يترل إلى أرض اللاعودة
ما كسبت شيئاً لنفسي
ولقد جلبت نعمة الحياة الأبدية،
لا لشعبي الحبيب
بل لينعم بها نسل الأفاعي».
«بعد عشرين فرسخاً أفطرا
بعد ثلاثين أخر توقفا لقضاء الليل
في ثلاثة أيام سارا مسافة شهر ونصف
انتهت الرحلة، وصلا إلى اوروك المنيعة الأسوار
قال جلجامش للنوتي أورشانابي:
اصعد وسر على أسوار اوروك
تطلع إلى مصاطب الأساس وتفحص البناء.
انظر إن لم يكن مبنياً من الطوب المحروق.
وإن لم يكن الحكماء السبعة قد أرسوا أسسه.

إن الثلث هو المدينة والثلث حدائق
والثلث حقول يضاف إليها معبد عشتار
الأجزاء جميعها (3 سار تشمل كل اوروك).
«هذا أيضاً من عمل جلجامش،
الملك الذي عرف أقطار العالم.
كان حكيماً، رأى الخبايا، وعرف الأسرار،
وأخبرنا قصة عن أيام ما قبل الطوفان.
ذهب في رحلة طويلة.
تعب فيها وأنهكه العمل.
ولما عاد حفر القصة كلها على الصخر.
لأن العمل أخلد من الانسان.»

موت جلجامش:

«إن قضاء انليل الجبل وأبي الآلهة
الذي فرضه على جلجامش قد تحقق».
في باطن الأرض ستنقلب له الظلمة نوراً،
لن يخلف بشري للأجيال ما يضارع ما خلفه.
الأبطال والحكماء كالقمر الجديد لهم صعودهم وخفوقهم
سيقول الناس «من حكم بقوة وسلطان مثله؟»
وكما في الشهر المظلم كذلك لن يكون بدونه نور.
أي جلجامش هذا كان تفسير حلمك
لقد أعطيت الملك وهذا كان قدرك.
لا تدع قلبك يحزن من أجل ذلك،
دعك من الغم ومن الكآبة.
لقد أعطيت سلطاناً لتحل وتربط
لأن تكون الظلام أو تكون النور للبشر.
لقد وهبت سلطاناً على الشعب لا مثيل له
والنصر في المعارك التي لا يعود منها هارب
وفي الغزوات التي لا يعود منها أحد.
ولكن لا تسيء استعمال سلطتك،
اصنع العدالة مع خدمك في القصر
أقم العدالة أمام وجه الشمس».

«لقد رقد الملك ولن يقوم ثانية،
سيد كللاب لن يقوم ثانية،
لقد قهر الشر ولكنه لن يأتي ثانية،
ورغم قوة ساعده لن يقوم ثانية».
«كان حكيماً وسيم الوجه، لكنه لن يأتي ثانية،
لقد ذهب إلى الجبل ولن يأتي ثانية
على سرير القدر ينام، ولن يقوم ثانية
ومن الأريكة المتعددة الألوان لن يأتي ثانية».
«لم يسكت أهل المدينة، كبارهم وصغارهم،
بل علا نواحهم
كل ذي لحم ودم يجهش بالبكاء.
لقد نطق القدر
هوذا يتمدد على فراشه كسمكة أمسك بها الشص
ومثل غزالة قد أمسك بها الفخ.
إن نمتار الذي لا يرحم لشديد الوطأة عليه
نمتار الذي ليس له يد ولا قدم
الذي لا يشرب ماء ولا يأكل لحماً».
«لقد قدموا قرابينهم من أجل جلجامش بن ننسون
زوجته العزيزة وابنته ومحظيته وموسيقيوه ومضحكه،
خدامه وحجابه وكل من عاش في القصر
قدموا قرابينهم من أجل جلجامش بن ننسون.
فجلجامش هو قلب أوروك.
لقد قدموا القرابين لاريشكيغال ملكة الموت
ولكل آلهة الموتى.
إلى نمتار هو الذي هو القدر قد قدموا القرابين
خبزاً لنيتي حارس البوابة
خبزاً لنينجيزيدا اله الأفعى، رب شجرة الحياة.
لدوموزي الراعي الشاب، إلى انكي ونينكي
إلى اندوكوجا ونيندوكوجا، انمول ونينمول
إلى كل الآلهة الأوائل آباء انليل.
أقاموا عيداً لشولباي اله الأعياد

قدموا القرابين إلى سوموقان اله القطعان.
إلى الأم نينهورساج وآلهة الخلق في قصر الخلق.
إلى أجناد السماء، للكهنة والكاهنات قدموا قرابين الموتى».
«جلجامش بن نينسون يرقد في قبره
في مكان التقدمات قدم الخبز
وفي مكان القرابين سكب الخمر.
في تلك الأيام رحل السيد جلجامش
ابن نينسون، الملك الذي لا نظير له بين البشر
الذي لم ينس انليل سيده.
أي جلجامش سيد كللاب، جل حمدك».

بيرم وتسبين

هذه قصة حب بابلية رواها الشاعر الروماني أوفيديوس (43ق.م ـ 18م). واقتبسها الأغريق ورووها بين أساطيرهم عن بابل. والقصة تدور حول الحب الممنوع الذي لا يزال ممنوعاً في أوساط واسعة من الشرق. وهي من ميثولوجيا الأصول ـ عن كيفية وجود التوت الشامي أو الرومي الأحمر القاني بعد أن كان أبيض كالثلج. وقد تبدل لونه بشكل غريب. إنها مأساة، ولقد كان موت عاشقين شابين السبب في ذلك التبديل.

في بابل العظيمة، مدينة الملكة سمير اميس (شمورامات) عاش شاب اسمه «بيرم» وهو من أجمل فتيان الشرق وصبية اسمها «تسبين» من ألطف بناته. سكنا في بيتين متلاصقين يفصل ما بينهما جدار مشترك. ترعرعا جنباً إلى جنب ومع نموهما كان ينمو في قلبيهما حب عاصف أقوى من أي عائق. كانا يتوقان إلى الزواج لكن تقاليد الأهل لا تسمح. وكلما حاولا اخماد حبهما تأججت ناره. فالحب دائماً يجد سبيله ولم يعد بالإمكان فصلهما إلى الأبد.

في الجدار المشترك اكتشف العاشقان شقاً لم يلحظه أحد من قبل وكأن العشاق لا يفوقهم شيء. تبادلا همسات الحب عبر الحائط المشقوق. تسبين من جانب وبيرم من الجهة الأخرى حتى أصبح ذلك الفاصل المشؤوم وسيلتهما الوحيدة للاتصال. إنه يسمح للكلمات أن تخترقه ولا يسمح للقبلة أن تمر فيه. وفي الليل قبل أن يأوي إلى فراشه كان يطبع قبلة على ذلك الجدار البارد ويمر بخياله عبر الجدار. وفي كل صباح عندما يطل الفجر ليمحو النجوم في قبة السماء، وتذيب أشعة الشمس الصقيع العالق بالأعشاب، كانا يسرعان الخطى إلى الشق بعد ليل ملؤه السهاد ليتبادلا همساتهما من جديد ويندبان سوء طالعهما وقسوة القدر إلى أن أتى يوم قرر العصفور الحبيس أن يفر من قفصه.

لقد اتفقا ذات ليلة على التسلل والهرب خارج المدينة إلى البرية حيث يجدان الحرية من المجتمع وتقاليده وتواعدا على اللقاء عند قبر «نينوس» مؤسس نينوى الأسطوري. وكانت تظلل القبر توتة وارفة الظلال تبرز من بين أوراقها الخضر ثمار بيضاء كالثلج ويتدفق من تحتها «فوار» ماء عذب لقد تلهفا لتنفيذ الخطة وانتظرا ذلك النهار لينقضي وكأنه سنة كاملة.

تسبين تنتحر بعد انتحار بيرم

انحدر «شمش» نحو الغرب ليدخل في أحشاء أمه الأرض، ويختفي حيث تلتصق الأرض بالسماء ثم أرخى الليل سدوله. لكن البدر «سين» قد صعد في الجبل ليرسل نوراً لطيفاً يخفف حلوكة الليل. وكان ذلك مواتياً لتسبين كي تتلمس طريق الهرب إلى قبر نينوس وشجرة التوت حيث يكون اللقاء.

لم تجد بيرم في انتظارها، لقد تأخرت، قلقت، شدد الحب من عزيمتها فتشجعت وانتظرت وحدها في سكون الليل. وفجأة لمحت من بعيد لبوة تخرج من الغابة تهرول نحو النبع لتروي ظمأها بعد أن افترست وملأ الدم شدقيها. هربت تسبين قبل أن تراها اللبوة، ركضت لكن النسيم أسقط منديلها ولم تأبه لالتقاطه مرت اللبوة بالمنديل فمزقته بفمها المدمى ثم شربت وقفلت عائدة إلى عرينها في الغاب.

حضر بيرم ولم يجد سوى المنديل الملطخ بالدم وآثار خطى اللبوة في الغبار فتطلع حوله وإذا هي تدخل الغابة. كان المشهد واضحاً وفظيعاً وخلاصته كانت واضحة بالنسبة له. فهو المسؤول عن موت حبيبته وهو الذي تأخر وتركها وحدها تنتظر في هذا المكان الموحش وليس بقربها سوى بقايا جثة في قبر. إنها غضة الشباب لكنها لا تقوى على الدفاع عن نفسها، وصار شعوره بالذنب قاتلا.

صاح «أنا من قتلك» لملم المنديل ثم قبله، وهرول نحو شجرة التوت وخاطبها قائلاً «إنك ستشربين دمي» واستل سيفه وغرزه بين أضلاعه ففر دمه بعيداً ولطخ الثمار البيض فاصطبغت بالأحمر القاني ثم هوى يتخبط بدمائه.

كان حب تسبين أشد من الخوف فعادت واتجهت نحو الشجرة فوق القبر. كانت الشجرة في مكانها لكن شيئاً قد تغير لم تعد ترى الثمار البيضاء وقد كانت هناك قبل وقت قصير. سمعت أنينا فارتعدت رجعت إلى الوراء، خافت، حدقت تحت ضوء القمر، إنه بيرم في بركة من دمائه.

ركضت إليه وطوقته بذراعيها. فقد كان جلده بارداً مبللاً بالعرق. قبلت شفتيه الباردتين ورجته أن ينظر مرة واحدة إليها. قالت «أنا تسبين كلمني أتوسل إليك». وعند سماع اسمها فتح عينيه الثقيلتين ورمقها بنظرة الوداع الأخير ولم تكن نظرة طويلة، لأن الموت قد أطفأ نور عينيه. كان سيفه ساقطاً بجانبه، ومنديلها الممزق ما يزال عالقاً بقبضته ففهمت بدقة دون كلام.

«أنت قتلت نفسك بسبب حبك لي وما كان شيء ليفصل بيننا سوى الموت، وأما الآن فحتى الموت لن يفرق بيننا». وأغمدت السيف في أحشائها وهو ما يزال مبللاً بدم حبيبها المتجمد.

رأت الآلهة المأساة وأشفقت على نهايتها المفجعة، كذلك ندم الأهل حين لا ينفع الندم وبقيت ثمار التوت تذكاراً أبدياً لحبهما العاصف تعود كل عام. وفي زجاجة واحدة وضع رمادهما وهكذا1 لم يفرقهما شيء حتى ولا الموت.

قصة سرجون

كان سرجون الأكادي ملك أكـاد (نحـو 2350-2300 ق.م) ومؤسـس الامبراطوريـة الأكادية (2350-2230 ق.م) وأول قائـد عمـلاق مـن السـاميين. وحّـد كـل الهـلال الخصيب فاعتبر ظاهرة تاريخية فذة اختلط فيها التاريخ بالأسطورة.

كان سرجون ابناً غير شرعي، قيل أن اسم والـده الحقيقـي «لا ـ ايـو» وأن أعمامـه عاشوا في الجبال. كانت علاقات أمه عديدة إذ أنها كانت من عـرائس الآلهـة في المعبـد، مـن تلك الكاهنات اللواتي قطعن العهـد أن لا ينجبن الأولاد رغـم «البغـاء المقـدس» لكنـها أنجبت طفلاً في مدينة «ازوبيرانو» ولدته سراً ووضـعته في صـندوق مـن القصـف المطلـي بالقير (كما حدث للنبي موسى بعد ألف سنة) وألقت بـه في نهـر الفـرات. لكـن البسـتاني «أكي» انتشله من النهر وعني بتربيته وكـان البسـتاني يعمـل عنـد «اور ـ زبابـا» ملـك كيش. منحته عشتار عطفها فصار ساقي الملك وأخـيرا عمـل بشـكل مـا علـى اسـقاطه واعتلاء عرشه. فحكم ذوي الرؤوس السود (أهل سومر وأكـاد) وسمـى نفسـه «شـرو ـ كين» أي الملك الشرعي التي حُرِّفَـتْ إلى «سـرجون». ومنـذ أن أسـس أول امبراطوريـة سامية طغت الصبغة السامية علـى الهـلال الخصـيب ولا تـزال حـتى الآن (سـرجيوس ـ سرج).

وقد وصفت ولادته قصيدة تعود للعصر الآشـوري الحـديث في القـرن 7 ق.م تـذكرنا بولادة موسى.

«أنا شيروكين، ملك أكاد القوي
أمي كانت متقلبة وأبي لم أعرفه
أحب أعمامي التلال وسكنوها
«أزوبيرانو» مسقط رأسي تقع على الفرات
حبلت بي أمي المتقلبة وبالسر ولدتني
في سلة من القصب وضعتني وبالقير غلفتني، خروج 2 : 3
ألقت بي في النهر ولم تغمرني مياهه
بل حملني النهر، وإلى اكي البستاني أخذني
عني أكي بتربيتي وكابن له اتخذني
ثم جعلني أكي البستاني بستانياً لديه
وأنا بستاني منحتني عشتار الحب والنعمة
وبفضل نعمتها مارست الملك تلك السنين»
«حكمت ذوي الرؤوس السود وملكت عليهم

بلطات البرونز قهرت الجبال العظيمة
تسلقت السلاسل العليا
وعبرت السلاسل الواطئة
جبت بلدان البحر ثلاث مرات
قبضت على دلمون بيدي
وإلى «دير» العظيمة صعدت..
وأي ملك يأتي من بعدي
فليحكم ذوي الرؤوس السود ويملك عليهم
ليقهر الجبال العظيمة بالبلطات
ليتسلق سلاسل الجبال العالية
وليعبر سلاسل الجبال الواطئة
وليدر في بلدان البحر ثلاث مرات.
وليضع دلمون في قبضة يده
وليصعد إلى مدينة «دير» العظيمة
من «أكاد» مدينتي...»

الدودة وألم الأسنان

لقد اعتقد البابليون بأن مختلف الأمراض التي عانوا منها كان مردها إلى الأرواح الشريرة أو إلى أفعال السحرة. ومع الأدوية التي كانوا يطيقونها كانوا يتلون التعاويذ والأناشيد.

ومن بين الأغاني الشهيرة، أغنية تعزو ألم الأسنان إلى دودة سمح لها الآلهة أن تسكن بين الأسنان واللثة. وتعود هذه الأغنية إلى العصر البابلي الحديث أي العصر الكلداني. إلا أن محتواها قديم، وقد اقتبس من نصوص أقدم. وتنتهي هذه القصة بنصيحة لطبيب الأسنان كيف ينتزع تلك الدودة.

وبين وثائق ماري لوح يعود للعصر البابلي القديم كتب باللغة الحورية عنوانه «أنشودة ألم الأسنان». كانت الأنشودة تتلى على المريض ثلاث مرات مع اعطاء الدواء الموصوف.

«بعد أن خلق آنو السماء،
خلقت السماء الأرض،
ثم خلقت الأرض الأنهار،
وخلقت الأنهار القنوات،
ثم خلقت القنوات المستنقع،
وخلق المستنقع الدودة.
ذهبت الدودة تبكي أمام شمش
وانهمرت دموعها أمام ايا
«ماذا تعطيني ليكون قوتاً لي؟
ماذا تعطيني شراباً لأمتص؟»
«سأعطيك التين الناضج
وسأعطي ثمار المشمش.»
«بل ارفعني وبين الأسنان
«وبين اللثة اجعل مسكني.
فدم الأسنان سوف امتص
وجذور اللثة سأقرضها!».
ثبت الابرة وأمسك قدمها
لأن قلت هذا أيتها الدودة
ليضربك «ايا» بقوة ذراعه!».

ملحمة كرت

هذه ملحمة أوغاريتية تحمل اسم «كـرت» (Keret) أي البطـل السـيد. وجـدت مكتوبة على ثلاث لوحات ويقدر عدد أبياتها بألف بيـت، منـها (300) بيـت علـى اللـوح الأول في ستة أعمدة. ونصف الأسطر مقروء فقط، لأن لوحتين فقط هما بوضـع جيـد أمـا الثالثة فتالفة. وهذا التلف يوجد صعوبة كبيرة في الترجمـة وثغـرات في السـنص، وبـالأخص في نهاية القصة.

يرى البعض أن قصة «كرتٍ» هي مجرد شعر ملحمي قصد بـه تمجيـد الأجـداد. بينمـا يرى آخرون أن هناك أساساً تاريخياً للملحمـة. ومـع مـا نـال نصوصـها مـن التشـويه والضياع فقد بقيت روعتها وتضاعفت قيمتها بسبب قدم زمـن تدوينـها، إذ تعـود حوادثهـا إلى القرن (18 ق.م) ويعود تدوينها إلى أواسط القـرن (14 ق.م) أيـام الملـك «نقمـد»، أي أنها قبل الألياذة بـ 8 قرون وقبل التوارة بـ (6–12) قرناً. ورغـم إمكـانِ وجـود أسـاس تاريخي للمحلمة فإن الميثولوجيا تغلب عليها فلا يمكن إلا أن تحسـب جـزءاً مـن ميثولوجيـا الأبطال الكنعانية.

كرت «ملك هوبور» هو ابن «ايل» و«عشيرة»، إلا إنـه لم يكـن إلهـاً، أو كـانَ جـزءٍ منه فقط إلهاً كما كان جلجامش. فقد الملك قصره وزوجتـه وأولاده وحكـم زمنـاً طـويلاً دون ابن يرث عرشه، فاعتزل الناس ودخل غرفة في أسـفل القصـر ليقضـي الليـالي وهـو يبكي بمرارة وينتحب حتى يغلبه النوم. وفي نومه أخذ يحلم فظهر له أبـوه «ايـل» أبـو البشـر (أب آدم) واقترب منه بحنان الأبِ وسأله «لماذا يبكي الملك؟ هـل يرغـب في مملكـة «ايـل الثور» والده؟. فيجيب كرت طالباً منه ابناً يـرث عرشـه. تحـنن ايـل اللطيـف (لطفـان) واستجاب لطلبه ووعده بأن يهبه أبناء كـثيرين. وبـنفس الوقـت أرشـده بالتفصـيل مـاذا ينبغي أن يفعل ليحقق رغبته:

«لكرت الملك (كما في بدء المزامير ــ لداود، لآساف إلخ.)
النعمان غلام إيل (نعمان تعني: الجميل الناعم)
باتت الأسرة رفاتا
بيت الملك قد تأدب
من أخوة سبعة اواه
اواه ثمانية أبناء أم،
يدخل كرت خدره ويبكي
يعيد الكلام ويدمع (في الكنعانية «يبتني» الكلام ويدمع)
ودموعه «تنكتّ» («تنكت ادمعته» أي تهطل وتسيل)
كالمثاقيل على الأرض

وتبلل غطاء سريره.
على دموعه ينام
على الدمع والهموم
يسكنه الهم
وتأخذه الأحلام.
يرد ايل بظهوره — (ايل يرد بظهرته
ويقترب أبو البشر — اب آدم ويقرب
ويسأل كرت — يساءل كرت
ما به كرت كي يبكي؟ — مأت كرت ك يبكي
لماذا يدمع النعمان غلام ايل؟ — يدمع نعمن غلم ايل
هل يطلب ملك أبيه الثور؟ — ملك ثر أبه يأرش
أم يطلب منزلة؟ — أم دركت
مثل أبي البشر. — كأب آدم)
فأجاب كرت:
امنحني أن «أقتني» أبناء — انظر تكوين 4 : 1
ويجيب أبوه ايل الثور
أغسل يديك والذراعين
وأصابعك حتى الكتف
وادخل ظل الخيمة.
خذ الحمل بيدك
واذبح الحمل بيمناك
حملاً سميناً من الحظيرة
كل خبزك من المنزل — كلة لحمك د نزل، لحم = خبز
خذ طيراً وفي العصر
قدم الذبيحة.
صب الخمر في كأس من الفضة
والعسل في كأس من الذهب
واعتل ظهر القلعة — على لطر مجدل، مجدل = قلعة
واركب شكائم الجدار
ارفع يديك نحو السماء
واذبح للثور أبيك ايل

سيحضر السيد لذبيحتك
سيحضر ابن داجون لطعامك
وينزل كرت عن السطح
بصيغة النبوة
ويأدب للأكل القرية
ويعطي حنطة لبيت هوبور.
احتلو «النقب»
الأرض الجافة كأنها محروقة
ويخرج الجيش، جيش النقب
صحف منها النقب والنجف
ويخرج المحتلون معاً
جيشك الأول بالاشراف
ثلاثمئة ربوة عدده
سادة بغير عدد
وتابعون بغير حساب
الآف من الخصص يسيرون متمايلين
وبربوات مثل نقط المطر
اثنين أثر اثنين يسيرون.
وثلاثة أثر ثلاثة كلهم.
الرجل المنعزل يحد بيته والأرملة ستستكرى
النبلاء يضمون أسرهم
والأعمى يرصد النجوم
ويخرج «تارخ» الهلال
تارخ = الهلال ومنها تاريخ
لامعاً لـــ «سين» زوجته
سين = البدر
ولـــ «نكر» حبيبته
نكر = نصف القمر البدر
مثل الجراد
قضاة 5:6، 12:7، اريا 46:23
تنزلون الحقول
كالجنادب
على حافة الصحارى
وتسيرون يوماً واثنين
ثالث ورابع يوم
خامس وسادس يوم
فتقابلون عباد الشمس (الشمس في اوغاريت «شفش» أو «شاباش»)
وتمضي إلى ادوم الكبرى

ادوم الروية
تكر على المدن وتهدم
وتكنس الحاطبات من الحقول
وجامعات التبن من البيادر
وناشلات الماء من الينابيع   فق أو فيق = نبع = افقا
حيث يتلمس الماء
امكث يوماً وثانياً
وثالث ورابع وخامس يوم
وفي اليوم السادس
نبالك لا تصعدها على مدينته   قـــرت = مدينـــة، قـــرت حاداشـــت = قرطاجة
ولا من يدك تقذف حجارة
وفي اليوم السابع مع الغروب
والملك قابيل لم ينم
من رعب نهيق حميره
وعرير جواميسه
وجعير أبقار الحرث
ونباح كلبه
سيرسل رسلاً إليك.
إلى المعكسر يا كرت.
رسالة قابيل الملك:
خذ فضة وكهربا
وذهباً بعقامها
وعبيداً أبديين   تثنية 17:15
وثلاثة خيول ومركبة   (بـــدأ اســـتعمال الخيـــول في ســـوريا القـــرن 18 ق.م)
من اسطبل ابن أمة.
خذ يا كرت هدايا السلام
وأسرع يا ملك بعيداً عن بيتي
ابتعد يا كرت عن حظيرتي
لا تحاصر ادوم الكبرى

ادوم الروية
ادوم عطية ايل
وهدية من أبي البشر.
أعد إليه الرسل
ليقولوا ما حاجتي إلى الفضة
أعطني ما ليس في بيتي
أعطني الفتاة حورية
أجمل نسل بكرك
ذات جمال عناة
جمالها جمال عشتروت
محاجرها صافية كاللازورد
وحدقتها براقة كالكهرب
في لمعان عينيها دفء
سأرتاح بالنظر إلى عينيها
هذه بحلمي ايل أعطى
في رؤياي أبو البشر
أذن بنسل لكرت
غلام لعبد ايل.»

الحملة:

عندما أفاق كرت عرف أن كل ذلك كان حلماً. فابتهل إلى ايل والده، وبعل حاميه ثم صعد إلى قمة برج عالٍ ورفع يديه إلى السماء وقدم الذبائح، خروفاً وجدياً، وأجود أنواع الخبز. وطيراً، وخمراً في كأس من فضة وعسلاً في كأس من الذهب. وما إن نزل عن البرج حتى تابع تنفيذ وصايا ايل في الحلم. فجهز زاداً لستة أشهر وجمع جيشاً كبيراً من ثلاثمئة ربوة من الرجال غير البدو الذين لا يحصى لهم عدد وعلى رأس هذه القوة تقدم كرت نحو جارة هوبور (بيت خابر) مملكة ادوم وملكها قابيل.

في الطريق نذر لعشتار الصوريين ولات الصيدونيين في المعبد بأن يقدم لهما الذهب والفضة أن هو ظفر بحورية.

كان قابيل رجل سلام فلم يفهم قصد جاره أو أنه قد خدع. وأرسل الرسالة تلو الأخرى ليفك الحصار عن ادوم «ادوم العظيمة، ادوم الروية، منحة ايل وهبة أبي البشر« قدم له الفضة والذهب، الخيول والمركبات والعبيد، لكن كرت رفض بازدراء هذه الهدايا قائلاً: «لدي الكثير من الذهب والفضة وينقصني فقط ماليس في بيتي وأنت الذي يقدر، أن يعطيني إياه، أنها حفيدتك حورية ابنة بكرك، حورية اللطيفة مثل عناة والجميلة مثل عشتروت».

قبل قابيل (جزء من القصة مفقود) ووافق على الزواج، فحضر بعل وأمر كرت أن يذهب قرب ايل ويطلب منه البركة:

«ونظر كرت فإذا ذلك حلم
فيغتسل ويتحنى — يرتعص ويأدم — يغتسل ويصطبغ بالأحمر
يغسل يديه وذراعيه
وأصابعه حتى الكم.
يدخل ظل الخيمة
ويمسك حمل الذبيحة بيده
وينفذ كل ما مر من أوامر ايل.
جهز زادا لستة أشهر.
وتوجهت الجماهير معاً
نحو النقب
حملته قوية
ثلاثمئة ربوة
يسيرون آلافاً بالآف
مثل انحدار المطر.
كالجراد أقاموا في الحقول
وكالجنادب على تخوم البر.
يوماً وثاني وبعده
ومع الشمس في الثالث وصلوا «قادش» على مهل
معبد «عشيرة» الصوريين
و«لات» الصيدونيين (اللات من معبودات العرب أيضاً)
وثمة تذكر كرت النبيل
وحق «عشيرة» الصوريين
و«لات» الصيدونيين
سآخذ حورية إلى بيتي
سأستولي على الفتاة
سأعطي ضعفي قيمتها فضة
وثلاث أضعاف ذهباً.
سار يوماً وثانياً
ثالث ورابع يوم آخر

أخيراً مع الشمس في الرابع
وصل أدوم العظمى
أدوم الروية
وفعلاً هاجم الأمكنة الآهلة
وهدم المدن
وحقاً كنس الحاطبات من الحقول
وجامعات التبن من البيادر
وناشلات الماء من الآبار
والمالئات من الينابيع.
وبقي يوماً وثانياً
وثالث ورابع يوم
وخامس وسادس يوم
ولكن مع الشمس في السابع
وقابيل لم ينم
لرعدة جواميسه العارة
ونهيق حميره
وجعير أبقار الحرث
ونباح الكلب الجائع
فأرسل قابيل رسله (15 خطاً مشوهاً)
حولوا وجوهكم نحو كرت
وقولوا لكرت النبيل
رسالة الملك قابيل:
خذ فضة وكهربا
ذهباً بقدر قيمتها (ما تساويه الأميرة أي نقدها أو مهرها)
عبداً أبدياً وثلاثة خيول
ومركبة من أسطبل ابن جارية
خذ يا كرت هدايا السلام
لا تؤذي ادوم الكبرى
ادوم الروية.
إن ادوم عطية ايل
بل هدية من أبي البشر

اذهب يا ملك من بيتي
ابتعد يا كرت عن بلاطي (خمسة أسطر ناقصة)
رفع الرسل أصواهم بعرض قابيل إلى كرت فأجاب كرت العظيم النبيل:
ما فائدتي من الفضة والكهرب؟
والذهب بقيمة الأميرة
والعبد الأبدي والثلاثة خيول
والمركبة الجاثمة في اسطبل عبد وديع؟
لا. إنما أعطني ما ليس في بيتي
أعطني الصبية حورية
أجمل بكر لنسلك
أن نعومتها كنعومة عناة
وجمالها كجمال عشتروت
رموشها سود كحجر الكحل
محاجرها بصفاء اللازورد
وفي النظر إلى صفاء عينيها
راحة لي وسكينة
وهذه ايل بحلمي لي أعطى
وفي رؤياي أبو البشر
أذن بنسل لكرت
وغلام لعبد ايل.

توجه الرسل إلى قابيل ورفعوا أصواهم برسالة كرت فاذعن وقبل وناحت زوجته وكانت مناحة في كل ادوم (ومعظم الأسطر تالفة).

قران كرت :

حضرت جماعة الآلهة وتدخل عليان بعل لدى ايل وطلب إليه أن يبارك زواج كرت فباركه ثلاث مرات.

حينئذ جاءت جماعة الآلهة (مزمور 1:82 لآساف)
ونطق بعل العليين:
«الآن احضر أيها الرحمن (الرحمن وردت بهذه التهجئة في القرآن)
لتبارك كرت النبيل»
ويأخذ ايل كأساً بيده
وقمقماً بيمناه

ويبارك مرتين
هكذا ايل بارك كرت:
«الزوجة التي تأخذ يا كرت
الزوجة التي تأخذ إلى بيتك
الفتاة التي تدخل بلاطك
ستنجب لك سبعة بنين
وثمان مرات بنات لك
ستلد الغلام «يا صب»
يرضع حليب عشيره
ويمص ثدي البتول عناة
مرضعة الآلهة. (تشويه 10 أسطر)
ليتعظم اسم كرت
بينما نحيي الأرض خصباً
بين جماعة الملوك
سأمنح صغيرتهن حقوق البكورة»
أتى الآلهة لمضاربهم وأتى الآلهة وباركوا
أبناء ايل لمساكنهم (وتفقد اللوحة التي عليها أسماء البنات والأبناء)

وبعد أن بارك ايل ابنه الملك للمرة الأخيرة انسحب مع مرافقيه من الآلهة إلى خيمتهم (كان يهوه أيضاً يسكن في خيمة صموئيل 6:7) ولد لكرت وحورية بنون وبنات سماهم الشاعر أبناء كرت وبنات حورية وكانت أمهم قد نذرهم جميعاً إلى جدهم عشيره. (حسب التقليد العبري لا يقص المنذورون شعورهم ولا لحاهم ولا يشربون الخمر وأشهرهم شمشون وصموئيل).

وتذكرت عشتاروت «نذره» لاويين 21:22 عدد 15:3-8
وتذكرت اللات وعده
وترفع صوتها وتصيح:
«هل نكث كرت
أم انثنى الملك عن نذره (تثنية 21:23 22)
هل أنكث بوعدي؟ (نهاية اللوحة المفقودة)

مرض كرت:

كان كرت في الأصل منيعاً لا يموت ولا يقهر وأخيراً مرض رغم كونه من جوهر الآلهة، فيخاطبه ابنه البكر قائلاً «والآن سوف تموت كما مات من قبلك كل البشر» رغم النهاية الأكيدة تحاول عائلة الملك أن تجنبه الموت الذي يحوم حول قصره. فأعلن

بكره «ياصب» باسم الجميع أنهم سيحرسون البيت ويراقبون الشوارع والطرقات وسيزيدون من الرعاية بأمانة الكلاب. فإذا كان على كرت أن يموت يوماً وهو ابن الالهة فلأنه لم يقدر أن يتم الرسالة التي أوكلتها إليه الآلهة وهي أن تعم العدالة في الأرض أو على الأقل في مملكته.

لقد بدأ كرت سيرته خاضعاً للآلهة ولكنه مع مر السنين انحرف عن غير قصد عن الصراط المستقيم الذي ألزم به. لقد أخطأ ضد العدالة وهذه أكبر خطيئة يقترفها أي حاكم. إنها خطيئة مميتة وعلى كرت أن يموت رغم كونه ابن الالهة، لأنه خالف الأمانة التي وضعها الله بين يديه ولن يموت بيوم الخطيئة بل سيعيش زمناً في آلامه تحت تهديد الموت..

«الله قائم في مجمع اللهِ
في وسط الآلهة يقضي
حتى متى تقضون جوراً
وترفعون وجه الأشرار
أقضوا للذليل ولليتيم
أنصفوا المسكين البائس
نجوا المسكين والفقير
من يد الأشرار أنقذوا
لايعلمون ولا يفهمون
في الظلمة يتمشون
تتزعزع كل
أسس الأرض
أنا قلت لكم انكم آلهة
وبنوا العلي كلكم
لكن مثل الناس تموتون
وكأحد الرؤساء تسقطون
قم يا الله دن الأرض
لأنك أنت تملك كل الأمم»

مزمور 84

أمر كرتِ زوجته حورية أن تحضر مأدبةِ كبيرة وتذبح أسمن كبش وأسمن عجل، وأن تفتح دنا كبيراً من الخمر وتدعو «سبعين ثوراً» (أميرا) «وثمانين غزالاً» (شريفا).

دخل الأمراء والأشراف من كل المدينة وتقدموا إلى غرفة الطعام، ولم يكن كرت حاضراً. قطعت حورية اللحوم ودعت المعازيم. فبدا عليهم الاضطراب فقالت:

«قدموا الذبيحة تكريماً لكرت أبيكم
هل تبكون على كرت كعرير الثيران؟
تبكون كما تبكي الأموات
لما تغرب شاباش «سيأتي كرت
عندما تظلم الشمس بعلنا سيملك».

لقد بينت حورية لعظماء المملكة أن سيدهم مريض وأن هذه الذبيحة مقدمة لشفائه، وأن اجتماعهم وبكاءهم من عوامل الشفاء. وتفقد ستون سطراً يتبين أنها تناولت ذكر سني المرض التي انقضت وبلوغ ياصيب وايلهو وشتمانات سن الرشد.

وانتحب عليه ابنه ايلهو قائلاً:

«مثل كلب غر ببيتك
مثل جرو لا أب له
هل تموت أنت؟ حتى أنت

يا أبي كما يموت الناس؟
مزمور:82:6و7
أم هي المرأة تمنع بابك؟
يا أبا بهائي
جبال بعل الصواعق تبكيك
كورة قادش، الدائرة المقدسة في عويل.
الأصقاع السحيقة تتساءل
كيف يقولون أن كرت هو ابن ايل
كرت سليل اللطيف القدوس؟
أم يموت الآلهة؟
لا... إن سليل اللطيف سيحيى.
ويجيب كرت النبيل:
لا تبكي يا بني
لا تدمع علي
لاتترف ينبوع عينيك
ومخ رأسك دموعاً
صح على أختك ثامنة   رقم ثمانية رقم الكمال والصحة
ابنتي حنانها قوي
لتبكي وتدمع علي،
أيها البطل النبيل قل لأختك
إن الحبل بها كان لنا رحمة
لتروي الحقول بدموعها
وتسكب نواحها على التلال
انتظر اظلام الربة «شاباش»
وإيقاد الربوات من مصابيح النجوم
وقل لأختك:
إن عظيمنا كرت يقدم ذبيحة
الملك يقيم وليمة
أمسك أنفك بإحدى يديك
وحلقومك بيمناك
اذهب وقف في الأعالي
وقدم لسيدك طلباتك
سيستيب الجميع لتوسلاتك   (الباقي مشوه)

غربت «شاباش» وعم الظلام واتقدت مصابيح النجوم وذهب ايلهو إلى أخته «شتمانات» فوجد خدمها يستقون وهي تتقدم برمحها. وقف على ربوة وحدق فرأته أخته و«انقطع» ظهرها إلى الأرض وبكت وهي تسأل أخاها «هل الملك مريض أم هل كرت سيدك في محنة؟» فأنكر ايلهو قائلاً «اعلمي أن الملك ليس مريضاً وأن كرت سيدك يقدم ذبيحة، الملك يقيم وليمة ويدعونا». (16 سطرا مشوها)

شكت ثامنة في قول أخيها:
تقترب من أخيها وتسأل
لماذا تحرقني يا أخي؟
من كم شهر مرض؟
منذ متى امتحن كرت؟ اسم أحد أصدقاء أيوب ايلهو 2:32.
ويجيب البطل ايلهو
منذ ثلاثة أشهر كرت مريض
منذ أربعة كرت في محنة
كرت حقاً سيذهب والقبر سيحتويه
كما يحتوي القبر الرمة.
تبكي وتصر أسنانها
وتفتح فاها وتندب:
«بحياتك يا أبانا نشمخ
وبخلودك نتغنى.
هل نمر ببيتك مثل كلب
وندخل بابك مثل جرو يتيم؟
هل تموت يا أبي مثل الفانين؟
أم هل نضارتك هتت بالبكاء
أم هل الآلهة يموتون؟
بل نسل اللطيف سيحيى
تبكيك يا أبي أودية بعل صافون
مقاطعات قادش تنوح
الأراضي الواسعة والنواحي
تتساءل: هل كرت ابن ايل
وسليل اللطيف القدوس؟»

الرقية:

ثارت مشاعر ايل لآلام كرت فجمع حوله الآلهة السبعين أبناءه يريدهم أن يشفقوا على كرت وأن يهتموا بقدره وأن يتدخلوا لصالحه لأنه ما زال ابنه مهما كان مذنبا. هرب الآلهة أو عجزوا أمام الموت ولم يستجب أحد. وأعاد ايل السؤال سبع مرات دون جواب. فكان على ايل أن يصفح عنه وهو أعطف من في الكون. فجلس الآلهة وعمل إيل بنفسه على إخراج المرض. فيصنع بنفسة صورة يمكن لمرض كرت أن يتحول إليها واسم هذه الصورة «شعتقات» أي طاردة المرض فيستعيد الصحة وقتياً. ولم يكن الأمر حاسماً فما زال الملك ضعيفاً في نقاهته وما زال بحاجة لعناية ابنته ثامنة. فبعد أن كانت تنوح وتبكي صارت تروح وتجيء، تسارع الخطى على غير هدى. تحسنت حالة الملك وعادت إليه شهيته وطلب من زوجته حورية أن تذبح خروفاً أكل منه يومين. لقد شفي بفضل ابنته شتمانات. ولكن وحيا نزل على ابنه ياصب ليثور على والده ويتسلم عرشه.

وبعد أربعين بيتاً نالها التشويه مؤداها أن ايلهو سكب زيتاً لبعل لاستمطار السماء، بينما الحراثون ينظرون بقلق إلى الخبازين إذ أن الخبز نفذ وكذلك الخمر والزيت بسبب مرض الملك. ويدخل ايلهو وشتمانات قصر أبيهما ثم ينادي «لطفن ايل» على الآلهة.

اسمعوا وعوا أمر ايل
اي اللطيف يعلن:
من من الآلة يداوي كرت
ويطرد المحنة
لا يجيب من الآلهة أحد
ويكرر ثالثاً ورابعاً قوله
ويكرر خامساً وسادساً
ولا يجيب من الآلة أحد.
فيعلن «لطفن ايل»
«اجلسوا يا أبنائي على مصاطبكم
أنا أرمي رقية
وأداوي مرضه
وأطرد محنته».
ملأ يده تراباً
وبيمناه قرص قبضة من التراب
فصنع منه صورة انسان
ورقى الصورة ودعاها شعتقات   30 سطراً مشوهاً هذا مؤداها:
وطارت شعتقات لمعالجة كرت
حقاً الموت سيطرد

وشعتقات حقاً ستنتصر
ودخلت بيت كرت
بكت ودخلت وتوغلت
ومرضت وهي تدخل
طارت فوق مئات الأمكنة
فوق مقاطعات
لتطرد المرض من رأسه
ورجعت وغسلته من العرق
فتحت بلعومه للأكل
وحنجرته للطعام
لأن الموت حقاً طرد
ويفتقد كرت النبيل الأكل وفتح فاه
ويصيح ــ اسمعي يا حورية
اذبحي حملاً
وها إنه بعد يوم واثنين
يجلس كرت كعادته
يجلس على كرسي الملك

ثورة ياصب الفاشلة:

لقد شفي كرت جسدياً ولم يشف نفسياً. لم يزل تحت ضربة الخطيئة المرتكبة وسيقترف خطايا أخرى. ومرة بعد الطعام أحس كرت بالحاجة إلى الراحة. وبوحي داخلي ركض ابنه ياصب نحوه لا ليبكي والده أو لينتحب بل ليذكره بواجباته وبأنه قد أصبح عاجزاً عن تحقيق العدالة وأسيراً دائماً لفراش المرض. فيجب أن يتنازل عن عرشه له. فيقف كرت ويلعن ولده ويهدده بانتقام الآلهة. ولا يعرف ما حدث بعد ذلك وهل استجابت الآلهة لدعائه لأن بقية النص مفقودة. وتبقى قصة كرت الملك قصة الملك الذي يعاقب بالموت لأنه انحرف عن طريق العدالة ولم يتم الدور الذي أوكلته إليه الآلهة نحو شعبه.

وياصب أيضاً يجلس في القصر
وداخليته توصيه
اذهب لأبيك يا ياصب
اذهب لأبيك وكرر قولك
لكرت النبيل: «استمع
وأعر أذنك كأن الغزاة قادمون

ستحمل وفي الحفرة تثوي
ثقلت يداك بالأخطاء
فلن تحكم في دعوى الأرملة
ولن تقر دعوى اليتيم
ما دُمْتَ أخاً لفراش المرض
ورفيقاً لفراش المحنة
انزل عن ملكك لأملك
ولأجلس على درجات عرشك»
ويذهب ياصب الشاب
إلى أبيه يدخل ويرفع صوته
يا كرت النبيل
استمع وأعر أذنك
إلى الحفرة ستحمل
لقد ثقلت يداك بالأخطاء
فلن تحكم في دعوى الأرملة
ولن تقر دعوى اليتيم
أنت لا تستطيع أن تخضع
الذين «يسلمون» اليتيم،
ووراء ظهرك الأرملة
طالما أنت أخ لفراش المرض
ورفيق لفراش المحنة
انزل عن الملك لأملك
ولأثبن إلى درجات عرشك
فقد تركت الصولجان يسقط من يدك»
ويجيب كرت النبيل
ليكسر هورون يا ولد — هرون أخو موسى أيضاً
ليكسر هورون رأسك
وعشتروت السماء جمجتك
لتثقل كالجبل أيامك
ومن الأوج تهبط قوتك وتنوح
«سفر ايل مل لقي نقمد»

ملحمة اقهت بن دانيل

أسطورة من أوغاريت غير كاملة. وما حفظ منها نقل عن ثلاث لوحات، اثنتان بحالة جيدة وثالثة أصاب معظمها التلف. لقد سماها «فيرولّلو» «أسطورة دانيل» لكن مراجعة النصوص تبين أن اقهت بن دانيال هو محور القصة، إذ تدور حول ولادته وموته وقيامته دون أن تكتمل في 450 سطراً.

وكلمة دانيال تعني «الله يقضي» وهو نفس الاسم الوارد في التوراة ووصف بأنه كان حكيماً كما جاء في سفر حزقيال 3:28 «ها أنت أحكم من دانيل (دانيال) سر ما لا يخفى عليك». وهو في القصة يمثل ملكاً جباراً وعادلاً، ينصف الأرملة ويرعى اليتيم كما وصف بأنه من الرفائيين أو «رفئيم». وقد أطلق العبرانيون هذا الاسم على جبابرة موآب وعمون بينما سموا جبابرة كنعان في فلسطين «عناقيين».

وحسب سفر التثنية 11:3 «إن عوج ملك باشان وحده بقي من بقية الرفائيين. هوذا سريره سرير من حديد. أليس هو في ربة عمون، طوله تسع أذرع وعرضه أربع أذرع بذراع رجل.».

واسم أقهت وقهات يشتقان من جذر واحد. وكلمة «قهت» تعني في العربية الجنوبية «قاد» كما أن اسم الابن الثاني للكاهن لاوي هو «قهات» (أخبار الأيام الأول 16:6).

واسم فجهات يعني فوح الزهور أو «فوحة» وبالعبرية «فوعه» (خروج 15:1).

واسم «عناة» يعني «الزمان» وهي أخت بعل وابنة ايل، آلهة محاربة غيورة وشرسة.

وأسلوب الأسطورة زجلي غنائي فيه تراجيع ولوازم غنائية.

دانيل الرفائي يملك على شعب من المزارعين. فإذا نبت الزرع ونضجت السنابل فذلك بفضل الملك وحاشيته وخاصة ابنته فجهات «التي تعرف سير النجوم». وكل يوم في الوقت المحدد وقبل أن يفعل شيئاً كان دانيل يجلس أمام بوابة المدينة أو على البيادر قرب أكوام القمح لينظر في شكوى الأرملة ويحمي اليتيم، لأن دانيل كان يؤمن بأن من مارس العدل وجد الخير والمواسم الوفيرة. إن عدل الملوك يستجلب بركات الآلهة عليهم وعلى حقولهم. هكذا وقف دانيل الهرمي إلى جانب المظلوم والمستضعف كما أرادت الآلهة. ودانيل العادل زاهد يلبس الخيش، حزين ينام على الهم والغم (مثل كِرت). لم يكن لدانيل ابن وسليل يرثه ويحفظ «شرشه» فيقدم الذبائح لعل الآلهة تمنحه وريثاً. يشتد شقاؤه ولا ينام ستة ليال طوال حتى يغلبه النعاس في اليوم السابع فينام على فراش الخيش ويحلم ويتحنن بعل ويتدخل:

عشر أسطر مفقودة في البداية، ثم:

وفوراً دانيل الرفائي

وتواً غزير الهرمي

يقدم قرباناً للآلهة كي يأكلوا
يقدم قرباناً للمقدسين كي يشربوا
يعتلي فراش خيش ليضطجع
ويلبس الخيش ليقضي الليل.
وها يوم أول وثان ودانيل يقدم قرباناً للآلهة
قرباناً للآلهة كي يأكلوا
وقرباناً للمقدسين كي يشربوا
يوم ثالث ورابع
وقرباناً للآلهة يقدم دانيل
لأكل الآلهة يقدم قرباناً
ولشرب المقدسين يقدم قرباناً
يوم خامس وسادس وسابع
ودانيل يقدم للآلهة قرباناً
قرباناً كي يأكل الآلهة
وقرباناً كي يشرب المقدسون
وعلى فراش من الخيش
يصعد دانيل ويضطجع
وفي رداء من الخيش يقضي ليله.
ولكن في اليوم السابع
يقترب بعل بحنانه:
«إلى دانيل الرفائي التعيس
غزير الهرمني الذي ينوح
الذي لا ولد له كما لأخوانه
ولا وارث له كما لأقرانه.
حقاً سيكون له ابن كما لاخوانه
وريث له كما لأقرانه.
فهو يقدم قرباناً للآلهة كي يأكلوا
وقرباناً للمقدسين كي يشربوا.
لتباركه يا أبي ايل الثور
لتغبطه يا خالق الخلائق
فيكون له ابن في بيته

وسليل في وسط قصره هيكل: أي جال: البيت الكبير أي القصر
يقيم نصباً لأرواح أجداده
حماة قومه في المكان المقدس
يحمي قومه في الأرض
ويسترجع روحه من التراب
ومن الغبار يحفظ خطاه
يحفظ «أثره»
ويخمد أنفاس المفترين عليه
ويهزم من يهاجم موطنه
يمسكه بيده عندما يسكر، لم يكن السكر عيباً وقد سكر نوح
ويحمله عندما يمتلىء من الخمر.
يولم «إسبوعه» في معبد بعل (الوليمة التي تقام بعد أسبوع تذكاراً للميت)
وحصن في معبد ايل
يجصص سطحه يوم يدلف،
ويغسل ثيابه يوم تتسخ.
وفي الحال يمسك ايل بعبده
ويبارك دانيل الرفائي
ويغبط غزير الهرمني
ينعش دانيل بنفس الحياة
وبالروح غزير الهرمني.
بنفس الحياة شدد عزمه.
فيصعد إلى سريره
وينحني ويقبل زوجته
وحنت لضمه حنت
استرخت وحملت
حنت إلى ولد من الرفائي
يكون ابناً له في بيته
ووريثاً في وسط قصره شرش: نسل أو سليل
يقيم نصباً لآبائه

حماة قومه في الهيكل
ويسترجع روحه من التراب
ومن الغبار يحمي خطاه
يخمد أنفاسه أعدائه
ويهزم من يهاجم موطنه

ثم تفقد عشرون خطاً فيها يدخل رسول يبشر دانيل قائلاً:

سيولد لك ابن كما لاخوانك
ووارث كما لأقرانك
يقيم نصباً لآبائك في المكان المقدس
يسترجع روحك من التراب
ومن الغبار يحمي خطاك
يخمد أنفاس أعدائك
ويهزم من يهاجم موطنك.
أشرق وجه دانيل بالفرح
وتنور فوق حاجبيه
فتح فاه وضحك
ووضع قدمه على المقعد
ورفع صوته وصاح:
«الآن سأجلس وارتاح
وستطمئن نفسي في صدري
لأن ابناً وُلِدَ لي كما لاخواني
ونسلاً في قصري كما لأقراني
يقيم نصباً لآبائه في الهيكل
ويحمي قومه في الأرض ..إلخ (إعادة)

توجه دانيل إلى قصره ليحتفل بوليده وتوجه المهنئون وجاءت الكثيرات (المغنيات) ليملأن الجو طرباً، وذبح ثوراً أطعمهن. ستة أيام أولم لهن وفي اليوم السابع انتهت الأفراح وعادت المغنيات بعد أن رأين جمال فراش الحمل وفراش الولادة الملكي.

وجلس دانيل يَعُدُّ الأشهر والسنين إلى أن يبلغ الصبي أشده.

(13 سطراً مشوهاً)

وفي السابع وقف وجلس في مدخل الباب قرب تلال القمح المجموعة على البيادر ليقضي في دعوى الأرملة وشكوى اليتيم. وإذ رفع عينيه رأى من بعيد إله الصناعة ومهندس الآلهة كوثر يسرع نحوه:

(تثنية 18:10)

وإذ رفع عينيه رأى
من بعد ألف حقل عشرة آلاف فدان
رأى سير «كوثر» — الماهر
رأى اندفاع «خسيس» — الحاذق
«آه إنه يحمل قوساً
قوس بثمان سهام
وأربعة أضعاف من النبال
فيصيح عالياً لزوجته
اسمعي أيتها السيدة «دانيتيه»
احضري حملاً من القطيع
يرغبه «كوثر وخسيس» — الماهر الحاذق
يشتهيه «هاين» رب الحرف — (هاين مثل «قاين»)
قدمي طعاماً، قدمي شراباً للاله
أخدميه وكرميه
كل شيء لرب «هيكات ـــ ايل» — مملكة رب الحرف
أطاعت السيدة «دانيتيه»
أحضرت حملاً من القطيع
يلقي رغبة «كوثر خسيس»
وشهية «هاين» رب الحرف.
بعدئذ جاء كوثر وخسيس
وسلم القوس لدانيل
ووضع النبال على ركبتيه
وأطعمت السيدة دانيتيه وسقت
خدمت الاله وكرمته
وذهب كوثر إلى خيمته — عدد 5:24
وهاين المعلم إلى خبائه
وفوراً دانيل الرفائي
وتوا غزير الهرمني
وضع القوس على ركبتي اقهت
وصاح به: «الثمرة الأولى لصيدك

الثمرة الأولى لصيدك يا بني   الذبيحة تقدم من باكورة الأشياء
قدمها في معبد ايل».   ثم فقد 12 سطراً

ويفهم من 15 سطراً مشوهاً تلي 19 سطراً مفقوداً أن اقهت بن دانيل قد أبرز براعة في استعمال قوسه وقدم الذبيحة في المعبد. قطعها بسكين لامعة وشرب نبيذاً بكأس من ذهب وعصير الشجر بكأس من فضة ولما رأت عناة ذلك:

إذ تلفتت عناة
رأت وراءها شبه البرق
وكما تصطخب أمواج المحيط
ثار في قلبها الشوق للقوس
وداخلها الحسد بقرون ملتفّة
كما يلتف الثعبان على التراب
فقذفت الكؤوس بعنف إلى الأرض
ورفعت صوتها وصاحت:
اسمعني يا اقهت الشاب.
أطلب فضة فأعطيك
وذهباً فانيلك
ولكن أعطني قوسك
دع «بيمات ــ لئقيم» تأخذ نبالك   أخت الآلهة من ألقاب عناة
لكن اقهت الشاب أجاب:
«عظيم شجر السندر في لبنان   لبتون ولبن من البياض
عظيمة هي عروق بقر الوحش
عظيمة قرون وعول الجبل
والعروق بعراقيب الثيران
عظيمة هي الأقصاب من مقاصب ايل
أعطي هذه لكوثر وخسيس
وسيصنع قوساً لك،
ونبالاً «لأخت الآلهة».   «يمات ــ ليئقيم»
فردت عناة البتول   واثينا المحاربة بتول
على اقهت البطل:
«اسألني الحياة يا اقهت
اطلب الحياة فأعطيك الخلود

واجعلك مع بعل تحصي السنين
ومع أبناء ايل تحصي الشهور
عندما يعود بعل إلى الحياة
يحتفل الناس ويشربون
يغنون ويطربون له
كذلك سيكون لاقهت أن يعيش».
ويجيب اقهت البطل:
«لا تكذبي علي أيتها البتول.
أليس وعدك لا يصدق؟
كيف يبلغ الفاني خلوداً؟
ماذا ينتظر الانسان في النهاية؟
ماذا سيكون نصيبه؟
حوارة ستنثر فوق رأسي،
وكلس محرق على جمجمتي،
وسأموت كما يموت كل الناس
وأنا أيضاً حقاً سأموت
وفوق ذلك سأعيد
القوس سلاح المحارب
وهيهات أن تصطاد النساء؟»
ضحكت عناة عالياً
وهي في قلبها تحيك مؤامرة
«ثُب إلى رشدك أيها البطل
أصغي إلي من أجل صالحك
إذا لقيتك في مجال المفاخرة
وواجهتك في مجال الإدعاء
جعلتك هوي تحت قدمي
يا أحب وأقوى رجل» (عاطفتان متناقضتان في عناة الحب والحقد)
دعست الأرض ودكت
أدارت وهها نحو ايل
إلى مصدر الأنهر
قرب النبع «افقا»

بين مياه المحيطين

ودخلت «حقول ايل»　　　وهي الجنة — (Campi Elysae)

دخلت أمام عرش الملك «أبي السنين»　　　«أب شـــــــــــنم»

(Chronos)

عند قدمي ايل انحنت وارتمت

سجدت وقدمت كل احترام

وشكت الشاب اقهت

لَعَنَتْ ابن دانيل الرفائي　　　ثم يتلف النص

ضحك ايل من انفعالها وابتسم

أجابت عناة البتول:

«يا ايل لا تضحك ولا تفرح.

بقوة ذراعي الطويلة

حقاً سأحطم هامتك

(تطاول وقح مـــن عنـــاة لكـــن ايـــل

واسع الحلم لا يثار ولايغضب)

سأجعل شيبتك تسيل بالدماء

وشيبة ذقنك بالنجيع

فنادي اقهت ودعه ينقذك

ابن دانيل دعه يخلصك

من يد عناة البتول».

يهدىء لطفن ثورة عناة ويجيب:

«أعرف يا ابنتي إنك طيبة

وأن ليس فيك ما يذم

اذهبي اذن يا ابنتي العنيدة

فكري الأفكار الرتيبة

صفي ما هو في كبدك

والعواطف التي في صدرك

ستأخذين أي شيء تريدين

إن من يحرمك حقك

حقاً سيسحق».

وتفرح عناة البتول

وتدير وجهها شطر اقهت البطل

قاطعة ألف حقل وربوات الفدادين
وتضحك عناة البتول
وترفع صوتها وتصيح:
«استمع إلي يا اقهت البطل
أنت أخ لي وأنا أختك».

ثم ثلاثون سطراً مشوهاً يفهم منها أن اقهت كان يقيم في قرية ابيليم مدينة الأمير تارخ (زبل يرخ) المحصنة. ثم:

تنطلق عناة البتول
إلى يطفن المقاتل السكير
وترفع صوتها وتصيح:
اقهت يقيم في مدينة ابيليم — قرت ابيليم = مدينة المروج
ابيليم مدينة زبل يرخ — زبل يرخ = الأمير تارخ
يطفن، إن اقهت يسكن قرب ابيليم
نعم ابيليم مدينة الأمير تارخ
إذن يمكن حقاً أن يتجدد القمر».
«ويجيب يطفن المحارب السكير:
اسمعي يا عناة البتول
أتريدين قتله من أجل قوسه؟
وذبحه من أجل نباله؟
عندما يضع البطل الطعام؟
وأنا سأضع البلل في الحقول،
وتعيد عناة البتول:
انتبه يا يطفن وأنا أخبرك
سأحملك كالنسر في جيبي
وكالدوي في حومة الوغى
وإذ يجلس اقهت إلى الخبز
وابن دانيل إلى الطعام
عليه ستحوم النسور
أسراب النسور ستنظر إلى أسفل
وأنا بين النسور سأحوم
وفوق اقهت سأضعك

اضربه مرتين على جمجمته
وثلاثاً على أذنه
فليسل دمه كعصارة النبات
وكالعصير حتى ركبتيه.
لتخرج كالريح أنفاسه
وروحه كما يطير البخار.
وعزيمته تخرج من أنفه كالدخان
بكت عناة أمام تأهب يطفن
وقالت: الويل لك يا أقهت».

كانت الأهواء تتنازع عناة، قلبها حائر بين الحب والإعجاب والحقد وحب التسلط. فأخذت يطفن ووضعته في خرجها كالنسر ولما جلس أقهت إلى الطعام حامت النسور فوقه وحامت عناة بينها. ونفذت إرادة عناة وضرب على الرأس والأذنين فمات. فندمت عناة وولولت ووعدت أن تعيده للحياة وهو سيعطيها القوس والنبال ثم اختفت النسور وزال الدوى. إلا أنه يبدو من القصة أن القوس السحري قد انكسر أثناء المعركة وسقط في الماء، وبذلك يكون قد سفك دم بريء دون جدوى، وأصابت عناة الخيبة بعد أن فقدت أقهت والقوس معاً.

«لقد صرعته من أجل قوسه
صرعته من أجل نباله
ولكني حقاً سأقيمه
وسيملك أقهت
ربيب عناة سيملك
وفروع الصيف
ستحمل السنابل في غلافاتها».

ويموت أقهت الحبس المطر كما حدث عند موت بعل، ودب القحط في الأرض. وبينما كان دانيل الرفائي، غزير الهرنمي، يقضي قرب الباب تحت شجرة على البيادر قرب أكوام القمح في دعوى الأرملة وشكوى اليتيم:

«رفع عينيه
رأى فجهات آتية
من آلاف الحقول
وربوات الأميال
ولما رفعت فجهات نظرها
رأت نسوراً على البيدر

والأرض جافة
والبراعم في الحقول قد ذبلت
النسور تحوم فوق بيت أبيها
وأسراها تنظر إلى الأسفل
فبكت فجهات من قلبها
وأدمعت من كبدها».
«مزق دانيل كساءه
كما فعل يعقوب عندما سمع بموت يوسف
وشق الهرنمي قميصه
تضرع بحرارة للسحب
لتمر سحب الفصل في الربيع
وتبلل بالطل العناقيد.
وبعد سنوات سبع طوال
طوال ثمان «راكب الغيوم»
يهوه أيضاً راكب الغيوم
يحبس المطر عن الأرض
لا ندى ولا أمطار
ولا آبار تفيض من الأعماق
ولا تسمع عذوبة صوت بعل
ودانيل الذي مزق كساءه
الهرنمي الذي شق قميصه
ينادي فجهات عالياً:
اسمعي يا فجهات
يا حاملة الماء على كتفيك
يا راشة الطل على الشعير
يا عارفة بسير الكواكب
اصمدي الفحل
واسرجي البعير
ضعي عدة الفضة
وغطاء السرج الذهبي.
وفجهات التي تحمل الماء
وترش الندى على الشعير

وتعرف سير الكواكب
سمعت، وتواً أسرجت الحمار
وفوراً ضمدت الفحل
وحالاً رفعت أباها
تضعه على ظهر الحمار
على ظهر الجحش المريح
«يدينئيل» تقدم
ودار في أرضه المحروقة
ليستكشف النبت الأخضر
في أرض أحرقها الجفاف.
ويقبل النبت ويقول:
لتنمو عيدان النبات في أرضها
ولتكبر في حقول الزرع
وليت يد أقهت الشاب
تجني الحبوب وتضعها في الأهراء.
ويلتفت «يدنئيل» إلى حقول القمح
ويجد سنبلة في القمح
ولما رأى السنبلة في أرض البعل
أمسك السنبلة وقبلها:
لتنمو سنابل القمح في أرض البعل
وتجنيها يد أقهت الشاب
وتضع المحاصيل في الأهراء.
تلفَتتْ فجهات ولم تر أحداً
وفجأة ظهر خادمان
يتفجر من صدريهما العرق
شعورهما مسترسلة
وهما يلطمان رأسيهما
وآذانهما مثنى وثلاثاً
ودموعهما تسقط ثقيلة
كالمثاقيل على الأرض.
ورفعا الصوت وقالا:

اسمع يا دانيل الرفائي
أقهت الشاب قد مات.
عناة البتول جعلت
أنفاسه تخرج كالريح
وروحه تخرج كالبخار»
«اصطكت ساقا دانيل
وغمر وجهه العرق
وانفجرت خواصره
وتراخت عضلات ظهره
ورفع صوته وصاح:
ليكن ملعوناً قاتل ابني
وسأفني من أفنى حياته.
ورفع عينيه ورأى
نسوراً آتية من مغرب الشمس
فصاح وصرخ عالياً:
ليكسر بعل أجنحة النسور
ليكسر بعل عظام الصدر
ولتقع عند قدمي
سأشق أحشاءها وأرى
وإن وجدت دهناً وعظماً
سأبكي وأقبره
وأضعه في تراب الأشباح.
وإذ خرجت الكلمة من فيه
والقول من شفتيه
كسر بعل أجنحة النسور
كسر بعل عظام صدرها
وسقطت عند قدميه
شق أحشاءها وتفرس فيها
لم يجد دهناً ولا عظماً
فرفع صوته وصاح:
ليشفي بعل أجنحة النسور

وليصلح بعل عظام الصدر
فطارت النسور وهربت».
«فرفع دانيل عينيه
فرأى «هرجب» أبا النسور
فرفع صوته وصاح:
ليكسر بعل أجنحة «هرجب»
... إلخ

فسقط هرجب وبحث دانيل في أحشائه فلم يجد آثار ولده فقال له طر وأهرب

«ثم رفع عينيه ونظر
وإذا «سَمَل» أم النسور فرفع صوته وصاح:
ليكسر بعل أجنحة «سمل»
وليكسر بعل عظام صدرها
ولتسقط عند قدمي
سأفتح أحشاءها وأرى
وإن وجدت دهناً وعظماً
سأبكي وأقبره
وأضعه في تراب الآلهة.
وما إن خرجت الكلمة من فيه
والقول من شفتيه
حتى كسر بعل أجنحة سمل
وكسر بعل عظام صدرها
وسقطت عند قدميه
ففتح أحشاءها ورأى
هناك وجد دهناً وعظماً
عرف أنها أقهت فبكى
بكى على أقهت، وقبره في حجرة الظلام.
ورفع صوته وصاح:
ليكسر بعل أجنحة النسور
وليكسر بعل عظام صدرها
وإن هي طارت فوق ضريح ابني

واختفطته من نومه؟ والنـــوم هنـــا كنايـــة عـــن
الموت
لعن الملك ڤيرومايم:
الويل لك يا ڤيرومايم
التي عليها تقع جريمة قتل أقهت
لتكن دائماً طريدة
لاجئة إلى بيت ايل
الآن وغداً وإلى الأبد
من الآن وعلى مر الأجيال.
لترتجف يداك عند ملاقاة
الرجل الحقير.
ثم حرك الملك عصاه
واتجه إلى مروروات ـــ تغللال ـــ بنير
ورفع صوته وصاح:
الويل لك يا مروروات بنير
التي تقع عليها جريمة قتل أقهت.
لن تضرب «شروشك» في الأرض
ليربط رأسك من يصفعك
لتكوني دائماً طريدة
لاجئة إلى بيت الله
الآن وغداً وإلى الأبد
من الآن وعلى مر الأجيال.»
«ثم اتجه الملك إلى مدينة ابيليم
ابيليم مدينة الأمير تارخ
رفع صوته وصاح:
الويل لك يا قرت ابيليم قرت = مدينة
التي تقع عليها جريمة قتل أقهت
ليعميك بعل سيد الآفات
لتكوني دائماً طريدة
لاجئة إلى بيت ايل
من الآن وإلى الأبد

من الآن على مر الأجيال.»
«ذهب دانيل إلى بيته
وإلى قصره دخلت الباكيات
وإلى بلاطه دخلت النائحات
ورجال يجزون لحومهم
ويندبون أقهت البطل
يبكون ابن دانيل الرفائي
من أيام إلى شهور
ومن شهور إلى سنين».
«حتى كان سبع سنين
وهم يبكون ابن دانيل الرفائي
وبعد سبع سنين
تكلم دانيل البطل
رفع صوته وصاح:
اذهبن أيتها النائحات من قصري
ويا أيتها النائحات من بلاطي.
وقدمٍ ذبيحة للآلهة
قرباناً باسم العشيرة للسماء
تقدمة الهرمني إلى النجوم
ولما انتهى الرقص   طقس جنائزي
قالت فجهات التي تحمل الماء:
إن أبي قد قدم ذبيحة للآلهة
قدم قربان القبيلة للسماء
تقدمه الهرنمي إلى النجوم
فلتباركني الكواكب
لأذهب مباركة
ولتطوبني لأذهب مطوبة
سأقتل قاتل أخي
وأسحق ساحق شقيقي».
أجاب دانيل الرفائي:
لتقوي عزيمتك بنفس الحياة

يا حاملة الماء على كتفك
يا راشة الطل على الشعير
يا عارفة بسير الكواكب.
تقوت عزيمتها وتشددت
ستقتل قاتل أخيها
وتسحق ساحق شقيقها
فجهات بالماء اغتسلت
وبالأرجوان اصطبغت

الأحمر المأخوذ من ماء «يم»
(استخرج الكنعانيون الأرجوان (كنع
من صدف الموريكس)

وخرجت من الشاطىء
ولبست لباس المقاتل
تضع الخنجر في غمده
وتضع السيف في قرابه
وفوق كل هذا لبست لباس امرأة.
وعند شروق شاباش مشعل الآلهة
فجهات (سارت)
وعند غروب شاباش مشعل الآلة
وصلت فجهات إلى الخيام.
وقيل ليطفن
«إن التي أجرتنا قد أتت إلى الحقول
قد أتت إلى الخيام»
فأجاب يطفن المحاب السكير
«لتقدم لي خمراً فأشرب
الكأس بيدي
والطاس بيمناي»
فقدمت له فجهات ليشرب
وضعت كأساً بيده
وطاساً بيمناه
ثم تكلم يطفن السكير المحارب

«ايلا ايل شم»
الهنا ايل السموات
ايل مالك الحقول
سيشرب الخمر حقاً يصبون الخمر على الأرض تكريماً لله

اليد التي قتلت اقهت البطل
يمكنها أن تسحق الألوف».

لقد تباهى يطفن السكير بقتل اقهت فباح بجريمته، وتزيد له فجهات الشراب:

«يتشنج كبدها
كما يتشنج كبد الشبل
ويتلوى قلبها مثل الثعبان
وقد ملأه الحقد
ومرتين تسقيه خمراً ممزوجاً».

وتتابع القصة على لوح تالف، ويفترض أن تروي كيف انتقمت فجهات وقتلت قاتل أخيها وهو مرتم في أحضان باخوس. كما يعود اقهت إلى الحياة بشكل ماء كما يحدث لتموز وأدونيس. ثم يعود الممثل إلى الدهليز.

(سفر ايلملك شبني، لمداتن فرلن، رب كهنم رب
تقدم، نقمد ملك أجرت، ادن يرحب بعل
ترمن)..
(كتبه ايملك الشبني، تلميذ اتن فرلن كبير الكهنة
وكبير الرعاة، (في عهد) نقمد ملك أوغاريت، سيد
«يرحب، سيد» ترمن)..

نصب لبعل الصاعقة
(عن مجلة سيريا 1937)

عليان بعل

ملحمة بعل

وهي مجموعة قصص زراعية أوغاريتية وجدت منقوشة على سبعة ألواح أصابها التلف الكبير لدرجة أصبح معها من الصعب الترجمة وربط مختلف المشاهد والحوادث لتصبح قصة واحدة متصلة متكاملة كما هي قصة الخلق البابلية مثلاً إلا أنه يبدو أن اتفاقاً قد تم بين الاختصاصيين وهو أن مجوعة بعل تتألف من ثلاثة مواضيع:

1 ــ المعركة ضد يم.

2 ــ بناء قصر بعل.

3 ــ الصراع بين بعل موت.

وأبطال هذه الأشعار هم عليان بعل، اله الخصب الأوغاريتي نظير تموز وأدون، والذي سموه أيضاً بعل صافون أي بعل الشمال أي جبل الأقرع شمال اللاذقية، وهو ابن بعل وقد امتص كل صفاته حتى خلط بينه وبين أبيه واكتفي باسم بعل.

ولبعل ثلاث بنات «فدري بت آر» (فدرية بنت السحب) و«طلي بت رب» (طليه بنت الأمطار) «ارصي بت يعبور» و(ارصيه بنت الكون الواسع)، أي الرطوبة والندى الأرض.

وبعل سيد الجو والأمطار الذي يخصب التربة ويسميه شعراء أوغاريت «راكب الغيوم» مثل يهوه العبراني. وكاله للعواصف والصواعق سمي أيضاً «هدد» عند الارلميين وأدد في ما بين النهرين.

ولم يكن بعل على وفاق تام مع ايل وكأنه يحابي اخوته، فتتدخل عناة النصيرة الدائمة لبعل وأخته، وكانت تؤيده في كل موقف وهي «عناة البتول» التي تنصره ضد «يم» اله البحر وضد «موت» اله القحط. وليس هناك بين المنحوتات الأوغاريتية ما يدل كيف تصور الكنعانيون موت أو عناة ولم يوجد تماثيل تمثلهما.

وأعداء بعل هم «يم» و«نهر» أي إله البحر وإله النهر، وهما متحالفان ضده يريدان اخضاعه، وهو يتمرد ويحتمي بـ «ايل»، وقد سمي يم «ايل يم» أي إله البحر أو «زبل يم» أي أمير البحر. و«موت» هو اله القحط والحر والموت، وكان الأوغاريتيون وغيرهم من الكنعانيين يخشون أن ينتصر نهائياً على بعل، وبعل وموت هما منذ لقائهما الأول ضدان. وعشتار كانت خصماً لبعل ونصيرة ليم. كما أن مهندس الآلهة «كوثر» يظهر بين أبطال قصص بعل فيبني بيتاً ليم ثم بيتاً لبعل ويسلحه ضد يم. كما تظهر «شاباش» (شفش) مشعل الآلهة في القصة، وكذلك «عشيرة» عندما تحاول أن تضع ابنها «اشتر» مكان بعل. وخلف المسرح يبقى أبو الآلهة والبشر «ايل الثور» وكأنه الحكم النهائي. وكان من أسباب النزاع أن أبناء ايل يجب أن يسكنوا بيوتاً بدل الخيام ليقوموا بوظائفهم الآلهية، فيتزاحمون من أجل بناء بيوت العبادة.

بعل ويم:

تقدر هذه القصيدة بـ(400) سطراً تلف معظمها. ويظهر أن سبب الخلاف بين الآلهين هو التنازع على ملكية الذهب كما يفعل البشر. والذهب في الكنعانية «خروس» وقد استعار الاغريق هذه الكلمة فصارت «خريسوس» في لغتهم. تحتل عناة جبل «صافون» لأن في جنباته يكمن المعدن الثمين فيصبح في حوزة بعل. تدور المناوشات مع

يم وكان يم أقوى من بعل فيهرب الأخير إلى السماء إلى جوار ايل فيرسل يم رسلاً إلى ايل يطلب تسليم بعل، فيرجوه ايل أن يزرع السلام في الأرض بدل الحرب ويأمر مهندس الآلهة أن يبني له بيتا ويعطيه اسما جديدا هو «يو» أو «ياو». وفي النهاية يصنع «كوثر» لبعل سلاحين هما «صياد» و«طارد» فيخضع يم لكنه لا يقتله لأنه أصبح أسيره.

علمت عناة أن في جوانب «صافون» جبل الشمال يختبىء الذهب فعزمت على الاستيلاء عليه. وهذا الاستيلاء يوجب عليها أن تنازل طامعين آخرين هما الالهان المتحالفان «يم» و«نهر» وقد وضعا حراسا في الطريق وهما الكائنان المتوحشان «تنين» و«لوتان» (لوياتان). وقد ذكر المزمور (14:74) أنه كان لـ «لوياتان» عدة رؤوس بينما أسطورة أوغاريت تقول أنه كان له سبعة رؤوس.

طعنت عناة لوتان بحربة وأجبرته على الصمت. وبانكسار تنين ولوتان أصبح الطريق سهلاً إلى جبل الشمال (صافون ـ الأقرع) ورافقها أخوها بعل. أسرعت عناة للاستيلاء على الكنوز ومنذ ذلك الحين أصبح صافون مسكناً لبعل.

مزمور 74: 12 «الله ملكي منذ القدم   فاعل الخلاص في وسط الأرض
13 أنت شققت البحر بقوتك   كسرت رؤوس التنانين على المياه
14 أنت رضضت رؤوس لوياتان   جعلته طعاماً للشعب لأهل البرية
أنت فجرت عينا وسيلا   أنت يبست أنهاراً دائمة الجريان»

أخذ يم يضمر العداء لبعل بعد استيلائه على الذهب، وأخذ كل واحد يهدد الآخر ويطلب عون الآلهة التي تنصره. يم يطلب عون عشتار وبعل يطلب عون عناة. وأخيراً وكأن بعل شعر بالضعف أمام يم، فاتجه نحو السماء ليجد ملاذا قرب أبيه ايل.

غضب يم وأرسل إلى أبيه ايل رسلاً طالباً تسليم بعل. وعندما وصلوا الجبل المقدس وجدوا الآلهة قعودا على الأرض يأكلون. أخفض الآلهة رؤوسهم خوفاً من رسل يم، ووعد ايل بتسليم بعل مع رسالة إلى يم وأهل الأرض. لكن بعل وبخ الآلهة من أجل جبانتهم وهجم على الرسل. لكن عناة وعشتروت أوقفتاه تجنبا لازدياد الشر. وعاد الرسل واستعدوا للنزول إلى الأرض ليبلغوا الرسالة إلى يم:

«سجدوا وصاحوا:
رسالة أبيه ايل الثور
حكمة اللطيف   لطفن على وزن نعمن ورحمن
تعلن على الأرض:
الحرب تخالف مشيئتي
ازرع لقاحاً في الحقول
اسكب السلام في كبد الأرض
ارم السلاح.
رسالة هي حديث الغابة
وهمهمة الصخور

وتأوهات السماء
وأنين بين السماء والأرض
وبين المحيطات والنجوم
لتعلن على الناس
وتفهمها جماهير الأرض
ايل يعلن أن اسم ابنه يم هو «ياو» (الاسم يحدد الشخصية وأسماء
«شم بني يو «اسم ابني ياو». الله عند الساميين «99»).

ويأمر ايل ببناء قصر ليم وأرسل خلف مهندس الالهة كوثر فحضر وتلقى الأمر لكن الاله «اشتر» شعر بالغبن وعدم المساواة.

«هوذا كوثر يسرع في طريقه
إلى ايل عند مصب الأنهر
حيث تلتقي المياه بالمحيطين
يعبر «حقول ايل» ويدخل
بلاط الملك «أبي السنين»
ينحني عند قدمي ايل ويهبط
يسجد أمامه ويعلن طاعته.
«أي كوثر وخسيس،
أسرع وابن بيتاً ليم
وأقم قصراً للقاضي نهر.
فقالت مشعل الالهة «شاباش» شفش أو شاباش أي اللامع
رفعت صوتها وصاحت:
استمع إلي أرجوك،
أبوك ايل الثور
يفضل «زبل يم»
إن يسمعك أبوك ايل الثور؟
فسيهدم أعمدة مسكنك،
وسيكسر صولجان سلطتك.
فقال «اشتر»..:
يا أبي ايل الثور،
ليس لي بيت مثل الالهة
ولا بلاط مثل المقدسين.» البقية غامضة

إن معركة بعل ويم لم تنته بعد، وكان مهندس الالهة كوثر يؤيد بعل فصنع له سلاحين سحريين هما «يغروش» و«ايامور» (الصياد والطارد). ليخضع بهما يم ونهر.

صاحت عناة:

«إلى الأرض سيهوي الأقوياء
وإلى الغبار سيهوي العظماء.
وما أن خرجت الكلمة من فيها
والقول خرج من شفتيها
وما أن تلفظت بصوتها العذب
تحت عرش «زبل يم»
قال كوثر وخسيس:
لك أقول أيها الأمير بعل — بعل = ادون = سيد = رب
لك أعلن يا «راكب الغيوم»
الآن عدوك يا بعل
الآن عدوك ستضربه
الآن ستحطم خصمك
ستأخذ ملكوتك الأبدي
وسلطانك الدائم.»
«أحضر كوثر قضيبين
وأعطاهما اسمين:
أنت اسمك «يغروش» الصياد
يا يغروش اصطدم،
اقتنص يم عن عرشه
ونهر عن سرير سلطته.
عليك أن تنقض من يد بعل
كالنسر من بين أصابعه.
اضرب ظهر الأمير يم
وبين ذراعي القاضي نهر.
انقض القضيب من يد بعل
كالنسر من بين أصابعه
ضرب ظهر الأمير يم
وبين ذراعي القاضي نهر

لكن يم ثابت لا ينحني
مفاصله لا تنثني
وهيكله لا ينكسر.»
«احضر كوثر قضيبين
وأعطاهما اسمين:
أنت اسمك «ايامور» الطارد
يا ايامور اطرد يم،
اطرد يم عن عرشه
ونهر عن سرير سلطته
عليك أن تنقض من يد بعل
كالنسر من بين أصابعه
اضرب هامة الأمير يم
وبين عيني القاضي نهر
سينهار يم
ويهوي إلى الأرض.
انقض القضيب من يد بعل
كالنسر من بين أصابعه
ضرب هامة الأمير يم
وبين عيني القاضي نهر.
انهار يم،
وسقط إلى الأرض
انحنت مفاصله
وانكسر هيكله.»
«أراد بعل أن يمزق، أن يهشم يم
أن يبيد القاضي نهر
خجلا يا بعل القدير   لكن عشتاروت انتهرته
خجلا يا راكب الغيوم،
أن أسيرنا هو القاضي نهر.
وما أن تركت الكلمة فاها
حتى خجل بعل القدير.»   البقية مشوهة

ويبدو أن يم صرخ مرتين«إنني أموت وبعل سيملك» إلا أنه لم يمت بل أخذ مكانه الطبيعي ومجاله الصحيح، إنه البحر.

قصر بعل:

انتصر بعل على يم وأصبح يملك الفضة والذهب، لكن شيئاً كان ينقصه. إنه بحاجة إلى بيت يلجأ إليه من تقلبات الحياة، وكأن الاله قد حكم بأن تكون الحياة تقلبات ومآسي. لقد تشوّقت عناة لأن ترى بيتاً لأخيها. ثارت الطبيعة ضد الاجحاف بحق راويها بعل. حفيف الأوراق في الغابة، تذمر الأمواج تتكسر على الرمال، همسات النجوم في الليل تتبادلها مع المحيطات. إنه احتجاج الكون على ظلم الاله الأول ضد منافسه الفتي.

أمام كل هذه الاحتجاجات قررت عناة أن تتوسط لدى ايل ليرفع الحرم عن بعل ويكون له قصر أسوة باخوته. قطعت المسافات البعيدة التي تفصل عالم البشر عن عالم الالهة حتى وصلت إلى مصب الأنهار، حيث يسكن أبو البشر. استقبلها بصوت مرتفع وألقى عليها موعظة كبرى هي «موعظة الغرف السبعة المقدسة» ثم دعاها للجلوس فعرضت طلبها، عمدت «عديلة الأمم» إلى المراوغة تارة والتملق تارة أخرى وهي تطلب بيتاً لبعل:

«ضربت عناة بقدميها
فزلزلت الأرض،
وأدارت وجهها إلى ينابيع الأنهر (أفق نهرم)
ومن خليج المحيطين دخلت حقول ايل
(Campe Elysae)
ووصلت إلى قصر الملك
أبي السنين اب شنم (Chronos)
ورفع أبوها ايل الثور صوته
من داخل الغرف السبع
من النوافذ الثمان
ورحب بها.
قالت: لا تشمخ
لأنني بقوة يمناي
سأصبغ شيبتك بحمرة الدماء
الآن ليس لبعل بيت كما لايل
فكيف اذن يمكنه أن يحكم ويقضي؟»

كذلك ثار بعل وصرخ مطالباً ببيت يكون له كما كان لدى غيره من الالهة:

«وا أسفاه.
صرخ لأبيه ايل الثور

إلى «ايل الملك» الذي ولده
وإلى «عشيرة» وأولادها
إلى «ايلات» ومجموعة أقرانها:
انظروا، أن بعلا لا يملك بيتاً كالالهة
ولا بلاطاً كما لأبناء عشيرة.
مسكن ايل هو ملجأه
ومسكن عشيرة لبناته الكاملات.
مسكن «فدري بت آر»
ملجأ «كلي بت رب»
ومسكن «ارصي بت يعبدر».
ويأتي بعل القدير
يتقدم راكب الغيوم
يقف ويصرخ متحدياً
ينتصب واقفاً ويبصق
في وسط مجمع الآلهة:
لقد وضع الرجس على مائدتي
والقذارة في كأس شرابي
لأن بعل يكره وليمتين
وثلاثة راكب الغيوم: هذا التعبير العددي يتكرر في العهد القديم
وليمة العار
وليمة الدناءة
ووليمة الفسق والفجور.
وهنا العار الفاضح
وهنا الفسق والفجور.
بعد ذلك يذهب بعل القدير
كذلك تذهب عناة البتول
يقدمان الخضوع لـ «عشيرة البحر»
والطاعة لـ «والدة الالهة».
قالت السيدة عشيرة البحر:
لماذا تقدمان الخضوع لـ «عشيرة البحر»
والطاعة لوالدة الالهة؟

هل قدمتما الخضوع لــ «ايل الثور»؟
أو الطاعة لخالق الخلائق؟ لــ «بني بنوت» = خالق الخلائق
أجابت عناة البتول:
لك الخضوع أيتها السيدة عشيرة البحر
لك الطاعة يا والدة الالهة..»

وباقي النص مشوه، ولكن يستخلص منه أن عشيرة استقبلت عناة وبعل وأولمت لهما وسمعت مطلبهما وأيدقما، وسرعان ما تدخلت إلى جانبهما لدى ايل زوجها، فذهبت إليه راكبة على جحش مجلل بكوبان فخم تطالب ايل بأن يأمر ببيت لبعل:

«صاحت عشيرة عالياً لخادمها
انظر يا «قادش وامرود»
يا صياد السيدة عشيرة البحر.
أسرج جحشا
أسرج حمارا
ضع عليه زينة الفضة
وضع عليه غطاء من الذهب
ضع زينة أتانك.
أطاع قادش وامرور
سرج جحشا
سرج حمارا
وربط زينة الفضة
وغطاء الذهب
وضع زينة اتانه
احتضنها قادش امرور
وضع عشيرة على ظهر الجحش
على ظهر الحمار الجميل
تقدم قادش ليقود
امرور كالكوكب أمامها
تبعتها عناة البتول
بينما عاد بعل إلى قمة صافون. صافون = الشمال
وها عشيرة في طريقها
نحو ايل عند ينابيع الأنهار

ومن خليج المحيطين
دخلت حقول ايل
دخلت قصر الملك أبي السنين
انحنت عند قدميه وهوت
سجدت وقدمت الاحترام.
وما أن رآها ايل
حتى فتح فاه بالضحك
وضع قدميه على الكرسي
أخذ يلعب بأصابعه
رفع صوته وصاح:
لماذا أتت السيدة عشيرة البحر؟
لماذا جاءت والدة الالهة
هل أنهكك الوع؟
أم هل أحرقك العطش؟
كلي، أرجوك، واشربي.
كلي من خبز المائدة
واشربي من خمر الابريق
من طاس الذهب دم العنقود.
هل يحركك حب ايل الملك؟
هل تثيرك عواطف الثور؟»
«أجابت السيدة عشيرة البحر:
أوامرك يا ايل هي حكيمة
حكمتك أزلية
حياة حظ هي ارادتك
قراراتك هي الحكمة بذاتها
حقيقة أنك تمتلك الحياة الأبدية
الحكمة خاصتك
قراراتك هي شريعتنا
لتكن أوامرك
«الملك بعل القدير
سلطان لاثان لأحد

كلنا نقدم هدية له
كلنا نساهم في اعطائه»
وا أسفاه.
يصرخ لأبيه ايل الثور
إلى ايل الملك والده
يصرخ لعشيرة وأولادها
ايلات وجميع أقرانها
انظروا، لا بيت لبعل كباقي الالهة
ولا بلاط لأبناء عشيرة
ملاذه مسكن أبيه ايل
ومسكن السيدة عشيرة البحر
هو مسكن لبناته الكاملات.
مسكن فدرية ابنة السحب
ملاذ طليه ابنة الأمطار
مسكن ارصيه ابنة الكون الواسع.»
«فأجاب ايل اللطيف:
هل أنا عبد أو خادم لعشيرة؟
هل أنا عبد لأعمل..
أم عشيرة أمة لتصنع القرميد؟
ليُبنَ بيت لبعل كما لباقي الآلهة
وبلاط كما لأبناء عشيرة.»
«فقالت السيدة عشيرة البحر:
حقاً إنك لعظيم يا ايل وحكيم
ولحيتك الشيباء تعلمك
الآن سيحفظ بعل فصول أمطاره
فصول الشتاء والثلوج

سيرسـل رعـوده في السـحب
(البرق والرعـد والصـواعق
من صفات هدد ويهوه)

وبريق صواعقه إلى الأرض
وبيت الأرز فليحرقه

وبيت الطوب فليُزحه
وليقال لبعل القدير
أجمع الأعشاب في بيتك
والحشائش في قصرك
ستحضر لك الجبال فضة
والتلال كنز ذهب
سيجلبون لك العظمة الآلهية
فابن بيتاً من الفضة والذهب
بيتاً من أنقى لازورد
فأرسل ايل رسولين بطلب البناء «كوثر وخسيس» والصائغ «هاين»
«اعبرا الجبال، اعبرا الأعماق
اعبرا أعلى قمم السموات
انهضا، وجهتكما «حكفت» (حاكافتا هي مصر(Egypt))
اذهبا إلى كوثر
لأن كريت عرشه
وحاكافتا أرض ميراثه.» (ومصر أرض ميراثه)
«فرحت عناة البتول
ضربت بقدميها فزلزلت الأرض
وها هي في طريقها
إلى بعل على قمة صافون
عبرت آلاف الحقول وربوات الأميال
صاحت عناة البتول ضاحكة:
«تقبل يا بعل بشارة أحضرتها
سيبنون لك بيتاً كأخوتك
وبلاطاً مثل أقرانك
اجمع الأعشاب في بيتك
والحشائش في وسط قصرك
ستقدم لك الجبال فضة وفيرة
والتلال كنزاً من الذهب
سيقدمون لك العظمة الالهية.
فابن بيتاً من الفضة والذهب

بيتاً من أنقى لازورد.»
فرح بعل القدير
جمع الأعشاب في بيته
والحشائش في وسط قصره
قدمت له الجبال فضة وفيرة
والتلال كنزاً من الذهب
قدموا له عظمة الالهة.
ثم حضر كوثر وخسيس
وضع ثوراً أمامه
عجل مسمن تحت تصرفه
وضع له عرش فجلس
جلس عن يمين بعل القدير
فأكل الالهة وشربوا
فأجاب بعل القدير
قال راكب الغيوم:
أسرع في البناء يا كوثر
أسرع في اقامة القصر
ستبني البيت سريعاً
في وسط صافون الراسخ.
هاين صعد إلى الكور
والملاقط في يد خسيس
ليذيب الفضة
ويصهر الذهب
يذيب الذهب
ليسبك ربوات القطع
ويصب التبر
ويصنع الأواني
بمقدار مرتين من الربوات
من الفضة المرصعة بالذهب
منضدة ملأى بالطيور (منقوشة عليها صورة الطيور)
طاسات من الذهب

تزينها صور الدواجن الأمورية
والحيوانات اليمنية الوحشية
وربوة من الوعول
بعل سيعطي أمطاره بغزارة
وبغزارة رطوبته وثلوجه
وسيرسل صوته في السحب
وبروقه ورعوده على الأرض
فليكملوا هيكله بخشب الأرز
وبيته باللبن
فليقولوا لعليان بعل
لتدخل القوافل قصرك
لأن الصخور ستعطيك الكثير من الفضة
والجبال أثمن الذهب
وأشرف الأحجار الكريمة.
أسرعوا في بناء بيته
أسرعوا في تشييد هيكله
انطلقوا إلى لبنان وأشجاره
وإلى انفس أرزه المكرم.»

(خشب الأرز دخل في بناء المعابد في معبد نينغرسوا وهيكل اورشليم كما قطع جلجامش الارز لبناء المعابد في سومر)

لقد بنى كوثر بيتاً لبعل كما بنى من قبل بيتاً لـــ يمّ، وبينمـــا كـــان قـــاطعو الأخشـــاب يقطعون أجمل أشجار الأرز من حرمون ولبنون ليصنعوا الجســـور والأبـــواب، كانـــت إحـــدى خادمات عشيرة تعجن الطين لشوي القرميد وبنـــاء الجـــدران. وصـــنع الصـــائغ الأواني مـــن الذهب والفضة. ولما حضر كل شيء بني القصر بسرعة.

هنالك على جبل صافون شمال راميتا وأوغاريت كان يشمخ قصـــر عليـــان بعـــل وهنـــاك مسح سيدا على العالم وأقام الرفائيين يخدمونه. بفضل عناة صار لبعـــل مـــترل فخـــم، ومـــارس سلطة لم يعرفها من قبل، فاعتز بعل وقال:

«بيتي بنيت من فضة،
وهيكلي من ذهب.
بعل الذي يرسل الصواعق
حقاً أصبح له بيت
وعلى صوت بعل القدوس
زلزلت الأرض
وذعرت الصخور.

وفي الشرق والغرب
تأرجحت شوامخ الأرض
لجأ أعداؤه إلى الغابات
أعداء هدد إلى شقوق الصخور (هدد هو بعل الصواعق)
وصاح بعل:
يا أعداء هدد لماذا ذعرتم؟
لماذا هذا الخوف أمام هجومنا؟
عينا بعل أمام يديه
بينما الأرز يميد بيمناه
وعندما يعود بعل إلى قصره
هل يستطيع أحد،
ملك أو غير ملك،
عليّ أن يفرض سلطانه؟
أنا وحدي الذي
يملك على الآلهة.
ليشبع الآلهة. يملك على ايلم
ولتشبع جماهير الأرض.» (اشارة إلى فصل الأمطار)

في البدء لم يحدث سوى المناوشات بين بعل وموت، ولكن منذ لقائهما الأول تحفز كل منهما للآخر كالبقر المتوحش، يركضان كالخيل ويعضان كالأفاعي. إذا قوى بعل قَوِيَ موت أيضاً فلا يمكن حسم النزاع بينهما، وتتكرر هذه المعارك كل عام:

«وثب موت على بعل في صرة صافون
رفع صوته وصاح
آه بعل.
أنت حرضت أخوتي لجرحي
وأبناء أمي لهلاكي.
يتطاعنان كالجمرات
موت جمع قوته، بعل جمع قوته.
يتناطحان كالجاموس
موت قوي، بعل قوي.
يتناهشان كالأفاعي
موت قدير، بعل قدير.

يترافسان كالجياد
موت يسقط، بعل يسقط.»
«صاحت شاباش:
اسمع يا موت بن ايل
لم تتصارع مع العلي بعل (عاليين بعل أو عليان بعل
كيف يسمعك أبوك الثور؟
ليسحبن سند كرسيك.
ليقلبن عرش ملكك.
ليكسرن صولجان حكمك!»

خاف ابن الاله موت. ارتعب حبيب ايل، فتظاهر بالخضوع بينما أخذ يعبر عن كراهيته بإثارة السكان كلهم وحتى خدم عناة ضد بعل. وما أن ترى عناة ذلك حتى تمتلىء غضباً وتضرب «أبناء المدينة» ثم «سكان السواحل» وأخيراً كل «أهل الشرق». وبعد هذه المجزرة الرهيبة تنظر عناة بعين الرضى إلى هذه الأكوام من الرؤوس والأيادي المبتورة التي تطايرت مثل أسراب الجراد. وقست خاصة على المتمردين في معبدها فرمتهم بالاثاث حتى بلغ الدم الركب «وامتلأ كبدها ضحكاً وامتلأ قلبها فرحاً» ثم غسلت يديها وألقت بالجثث في البحر. هكذا فعلت ملكة المعارك المتوحشة بأعداء بعل:

«عناة تصطبغ بالأرجوان
وتتضمخ بالطيوب وتقاتل.
أقفلت باب القصر
نزلت من الجبل
اجتمعت إلى خدمها
حاربت المدن
سحقت سكان السواحل
غلبت رجال الشرق
تحتها الرؤوس مثل الكور
الأكف حولها كالجراد
أكف المحاربين مثل تلال القمح
في احتدام القتال
الرؤوس حول خصرها
والدم حتى ركبتيها
النجيع جمد على ردائها.
ثم تعود إلى القصر

وفي فرح تضرب
ذات اليمين وذات اليسار
تحطم الأثاث على رؤوس الأخصام
تذبح الحراس والمقاتلين
فتجري الدماء في أنحاء القصر
تغتسل بدم الأعداء
تنثر لحومهم في أنحاء القصر
وتعود فتغتسل بالندى
وتدهن جسمها بالزيوت.»

لكن بعل يحب السلام فيرسل رسولين إلى عناة مع هدايا المرجان عربوناً لمحبته ومحبة بناته ويوصيها بالتوقف عن الحرب:

«عناة على صدرها تضع المرجان
اشارة لتقوى المنتصر بعل
ولمودة «فدريا» ابنة الرطوبة
واشارة لحب «طليا» ابنة الندى
ولتقوى «ارصيا» ابنة الكون الواسع.
كما الغلمان ادخلا
وتحت أرجلها قدما الاحترام
وقولا للبتول عناة
أعيدا لـ «عديلة الأمم»
رسالة بعل سيد العليين:
«الحرب على الأرض
مخالفة لمشيئتي
بلقاح المحبة لقحي التراب
اسكبي السلام في كبد الأرض (سك شلم لكبد ارص)
والعسل في قلب الحقول.
أبعدي عنك عصاك وسلاحك.
تعالي إلي ولتسرع خطاك نحوي.
لأن لدي قصة أرويها
وكلمة أعيدها عليك
إنها رسالة الشجرة و«لقش» الحجر(رجم عص ولحشت آبن)

همس السموات مع الأرض (تانت شمم عم ارص)
والمحيطات مع الكواكب (همت عمن كبكم)
سوف أخلق البرق لتعرف السماء (ابن برق دل تدع شمم)
وسأخلق الصاعقة لتعرف البشر (رجم لتدع نشم)
وجماهير الأرض كي تتبين (ول تبن هملت ارص)
أنا وأنت سوف نخرجه (أتم وانك ابقيته تبك)
في صخور ايل في صافون (غرى ايل صفن)
في المكان المقدس من صخر ميراثي»(بقدش بغر نحلتي)

تجيب عناة بأنها ستقوم في وجه الحروب وتتوجه بكليتها نحو السلام ثم تقوم وتمضي إلى بعل.

موت بعل:

بعل رقيق القلب يحب السلام ويكره الحرب. يأمر بالابتعاد عن السلاح وبتعميم المحبة على الأرض. يقيم في قصره على جبل صافون ومن شباك قصره يرسل البرق والرعد والأمطار. لكن نجاح الاله الشاب كان عابرا و«موت» يتربص به الدوائر. اشتعلت النار وأحرقت القصر وتحول رماداً بومضة عين. فمن أشعل النار؟ إنها دورة الحياة.

«صاح بعل بغلمانه:
يا جفن واجر ابني غلمات
تَوأمَيْ «عمامي» ابني ظلمات.
ففرشا الجناحين باعتزاز،
فرشاهما كأسراب الغيوم،
اذهبا الآن إلى الجبلين
إلى جبل «ترغونيزا»
وإلى جبل «تروماجي»
حيث تنتهي حدود الأرض
ارفعا الصخور على أيديكما
والغابة على راحاتكما
وانزلا إلى أعماق الأرض
اذهبا الآن في سبيلكما
إلى مدينته التي في الهاوية
في الحضيض، العرش الذي يجلس عليه
والقذارة أرض ميراثه

احذرا أيها الرسولين الالهيين
ولا تقربا موت ابن الالهة
لئلا يجعلكما كالحمل في فمه،
ويسحقكما كالجدي في بلعومه،
حتى شاباش مشعل الالهة
التي تمد جناحيها على السماء
في يد «موت» ابن ايل المحبب.
اعبرا آلاف الحقول وربوات الأميال
أمام قدمي موت تنحنيان وتهويان
تسجدان وتقدمان الاكرام
تعلنان لابن ايل المحبب
رسالة القدير بعل.»
.... ثم 25 سطراً مفقودة
«ومن قبر موت ابن الالهة
من هاوية ابن ايل المحبب
يرجع الرسولان ولا يتأخران
إلى بعل على قمة صافون
ثم يعلن جفن وآجر
رسالة موت ابن الالهة
كلمة ابن ايل المحبب.»
.... ثم أكثر من 30 سطراً مفقودة
«لموت شدقان للأرض (لمت لتعة لارص)
وشفتان للسماء (شفة لشمم)
ولسان للكواكب (ولشن لكبكبم)
يدخل بعل جوفه
وفي فيه يدخل كالزيتون
كنتاج الأرض وثمار الشجر.
أخذ الخوف بعل القدير
ملأ الرعب راكب الغيوم
اذهبا وقولا لموت ابن الالهة
أعيدا لابن ايل المحبب

رسالة بعل القدير
كلمة البطل القوي
ترأف يا موت ابن الاله
سأكون عبدك إلى الأبد.
ذهب الالهان وأسرعا
اتجها إلى موت ابن الاله
إلى مدينته حمرية
نزلا إلى العرش حيث يجلس
إلى القذارة أرض ميراثه
رفعا الصوت وصاحا
رسالة الابن القوي بعل
كلمة البطل القدير
ترأف يا موت ابن الاله
وبعل يقبل دعوتك.»
«فرح موت ابن الاله
رفع صوته وصاح:
لقد اخضعت بعل.»
.... نحو 25 سطراً مفقودة
«ولكن تحضر غيومك ورياحك
رعودك وأمطارك
غلمانك السبعة
وخنازيرك الثمانية معك
وفدرى بت آر
وطلي بت رب
قم في سبيلك
اتجه إلى جبل كنكنيا
ارفع الجبل على يديك
ارفعه على راحتك
وأنزل إلى أعماق الأرض
وكن أحد الذين يدخلون في الأرض.»

وفي نصوص غير واضحة قبل النزول إلى الأعماق حيث من يدخل لا يعود إلى الحياة، يتابع موت انتقامه.

ففي أحد الأيام بينما كان بعل وحيداً يتجول في السهول الواسعة ويجوب الأدغال التقى بسرب من الكائنات المتوحشة، لها قرون الثيران وسنام الجاموس ووجه البشر، إنه «كوجه بعل». خُدع الاله وظن أنها وجوه صديقة، لعلهم ولدوا من حب الهي لإحدى خادمات «عشيرة» وأن ايل قد طردهم إلى الصحراء بعد أن حَبُلَتْ عشيرة (كما فعل ابراهيم بهاجر واسماعيل بعد أن حبلت سارة) لقد سد «الملتهمون» عليه السبيل ودارت المعركة بينهم وبين بعل، وبدت الغلبة له في البداية فطرح أعداءه أرضاً وداسهم بقدمه وأدماهم بأكعابه. إلا أنهم سرعان ما جمعوا قواهم فسقط بعل «كالثور».

وعندما هوى بعل إلى الأرض قال بضع كلمات وكأنها صلاة توجه بها إلى «ملك العدل» أبي الالهة. وإذا مات بعل فإنها مشيئة ايل لأن «موت» ليس إلا أداة في يده.

وبعد نحو 30 سطراً مفقودة يمر جفن وآجر ويجدان بعل صريعاً على الأرض فيذهبان إلى ايل ليخبراه:

«يدخلان حقول ايل
ويصلان قصر أبي السنين
يرفعان صوقما ويصرخان:
طفنا الأرض سهولها وجبالها
وجدنا بعل قد سقط
مات بعل القدير
هلك سيد الأرض.
ولتوه ايل اللطيف
نزل عن عرشه
جلس على كرسيه
ثم نزل عن كرسيه
وجلس على الأرض
رش تراب الحزن على رأسه
تراب الغم على هامته
لبس الخيش رداء وسترة
جرح نفسه بحجر
جرح خديه وذقنه
فتح الأثلام في زنده
«حرث» صدره كالحدائق
«فلح» ظهره كالسهول

رفع صوته بالبكاء:
لقد مات بعل.
ماذا سيحل للناس؟
مات ابن داغون.
ماذا سيصير للجماهير؟
وراء بعل سأنزل في الأرض.
بلغ النعي مسامع عناة
راحت تفتش عنه في كل مكان
في كل جبل حتى قلب الأرض
وكل تلة حتى تبلغ أحشاءها.
بلغت أرض «دبر» الرائعة
وسهول «شلممات» الجميلة
حتى وجدت بعل
وقد سقط صريعاً على الأرض
خدشت وجهها
أدمت ذراعيها
جرحت صدرها
لبست الخيش سترة ورداءاً
رفعت صوتها، نادت:
مات البعل، فمن لأهل ابن داغون؟
من للجماهير التي كانت تسير وراءه؟
وبعد أن ارتوت بالبكاء
بعد أن شربت دمعها خمراً
صرخت عالياً
لمشعل الالهة «شاباش»:
هيا نترل إلى باطن الأرض
فنرفع بعل القدير
وعلى كاهلي ترفعينه.
سمعت شاباش مشعل الالة
فانتشلت بعل القدير
وعلى كاهل عناة وضعته

وإلى صافون الراسخ رفعته
ناحت عليه وقبرته
وضعته في جوف الأرض.
وقدمت على الضريح ذبيحة كبرى
سبعين جاموساً وسبعين بقرة
سبعين خروفاً وسبعين وعلاً
سبعين تيساً وسبعين حماراً
تقدمة من أجل بعل
ذبيحة «عديلة الأمم».
وهاهي قد توجهت
إلى ايل عند منابع الأنهر
حيث تلتقي مياه المحيطين
عبرت حقول ايل ودخلت
بلاط الملك أبي السنين
وعلى قدميه انحنت وهوت
سجدت أمامه وكرمته
رفعت صوتها صاحت:
لتفرح الآن عشيرة وأبناؤها
ايلات وزمرة أقرانها
لأن بعل القدير قد مات
هلك الأمير سيد الأرض.
فصاح ايل عالياً لعشيرة:
اسمعي أيتها السيدة عشيرة البحر
أعطني أحد أبناءك لأجعله ملكاً.
أجابت السيدة عشيرة البحر:
لنجعل «يديع يلحان» ملكاً.
أجاب ايل اللطيف:
إنه ضعيف ولا يقارن ببعل
ولا يجاري ابن داغون برمي الجريد.
أجابت السيدة عشيرة:
إذن ليكن «أشتر» الطاغية،

فاجعل اشتر الطاغية ملكاً.
ولتوه اشتر الطاغي
صعد إلى جبل صافون الراسخ
لكن قدميه لم تبلغا الوطأة
ولا رأسه بلغ قمة العرش
فأعلن أشتر الطاغية
سوف لا أملك في صافون الراسخ
ونزل أشتر الطاغية
نزل عن عرش بعل القدير
جلس على عرش بعل القدير
وملك على أرض ايل جميعها.»
.... فقدان أكثر من 30 سطراً
«انقضى يوم ومرت أيام
وعناة الصبية تحن إليه
كما قلب الأم (البقرة) لعجلها
كما قلب الشاة لحملها
هكذا قلب عناة نحو بعل.
تمسك موت وتشد رداءه
وتخنقه بطرف ثوبه
ترفع صوتها تصيح:
يا موت رد لي أخي.
ويجيب موت ابن ايل:
ماذا تريدين أيتها البتول؟
حقاً لقد همت وتجولت
كل جبل حتى قلب الأرض
وكل تلة حتى أحشائها
لقد فقد الناس نسمة الحياة
فقدها جماهير الأرض
وصلت أرض «دبر» البهيجة
وسهول شلممات الجميلة
لقد مضغت بعل القدير

جعلته كالحمل في فمي
وسحقته كالجدي في حلقي
حتى نيرة الالهة شاباش
التي تفرش جناحيها على السماء
تقع تحت يد موت ابن ايل.
«مر يوم وبعده مرت أيام
مرت الأيام وثم الشهور
ويزيد في عناة الحنين
وقلبها كقلب البقرة لعجلها (كــ لب آرخ لعجله)
وكقلب الشاة لحملها (ثآت لأمره)
هكذا قلب عناة نحو بعل (كم لب عنت لبعل)
وتمسك بموت بن ايل
وبالسيف شطرته
وبمنجل قطعته
وبمذارة ذرته
وبالنار أحرقته
وبجاروش جرشته
وفي الحقول بذرته (إشارة إلى موسم الحصاد)
فتأكل بقاياه العصافير
تستهلك أجزاءه
وتفر من بقية إلى بقية.»
«نيرة الالهة شاباش
تحرق بلا مطر من السماء
بسبب موت، حبيب الالهة
فيصيح ايل عالياً لعناة البتول
اسمعي أيتها البتول
قولي لمشعل الالهة شاباش
تشققت الأخاديد في الحقول
شق الجفاف حقول ايل
هل يعالجها بعل بمحاريث؟
أي بعل العليين؟

أين بعل سيد الأرض
تذهب عناة البتول
نحو نيرة الالهة شاباش
ترفع صوتها وتصيح:
رسالة الثور أبيك ايل
كلمة اللطيف والدك
تشققت الأخاديد في الحقول
شق الجفاف حقول ايل
هل يعالجها بعل بمحاريث؟
أين بعل القدير؟
أين الأمير سيد الأرض؟
تجيب نيرة الالهة شاباش:
اسكبي نبيذ الشرور من خابيتك
اضفري لي أوراق الغار
وأنا أبحث عن بعل.»

مات موت كما مات بعل لكنه لم يدفن بل نثر في الحقول ولم يعد بعل بعد.

«وفي حلم من اللطيف ايل (بحلم لطفن ايل)
في رؤيا من خالق الخلائق (دفد نظرت بني بنوت)
أمطرت السموات سمنا (شمم شمن تمطرن)
والأدوية سالت عسلا. (نحلم تلك نبقم)
إذن أنا علمت
أن بعل ما زال حياً،
ما زال الأمير سيد الأرض.
فرح ايل اللطيف
وضع رجليه على الكرسي
فتح فاه وأخذ يضحك
ونادى من أعماق قلبه
الآن سأجلس واستريح
وترتاح روحي في صدري
لأن بعل حي
لأن سيد الأرض سيعيش.»

الكل يعلم أن بعل حي ولكن أحداً لم يره، وقـــد ذهبـــت شـــاباش تبحـــث عنـــه، وقـــد كشفت مخبأه وعادت به إلى الأرض.

«يشب بعل إلى كرسي ملكه
ابن داغون على عرش سلطته
ويصبح للثور صوت الغزال
ويسمع للعقاب تغريد
وتذهب عناة بعيداً
تذهب وحيدة
بنعمة ووسامة
فإذا بالسماء تمطر سمنا
والأودية تسيل عسلا
ففرحت الخلائق أن بعل حي
أدركت أن سيد الأرض قد عاد
إلى وجه الأرض.»

ــ كتبه ايلملك الشبني. نقل عتاني بــرلبني رئــيس الكهنــة. تقدمــة ــ نقمــد ملــك اوغاريت سيد يرحب رب ترميني ــ

أدون النعمان

ادون هو اله الخصب وتجدد الطبيعة الكنعاني وخاصة في جبيل. وهو نظير تموز البابلي وبعل الأوغاريتي. وفي زمن متأخر أصبح نظير أوزيريس المصري. وكلمة «ادون» تعني «رب» وقد اقتبسها الأغريق فصارت «ادونيس»، وبهذا الاسم عرف اله الخصب وصار أشهر الالهة السورية. وفي القرن الخامس قبل الميلاد دخلت عبادته بلاد اليونان، ودخلت أساطيره بأكثر من شكل وحفظت بين الأساطير اليونانية إلى جانب الأسطورة السورية. وقد أطلق عليه الكنعانيون لقب «النعمان» أي الناعم الجميل.

وأشهر أسطورة عنه هي قصته مع عشتار سيدة جبيل والتي تدور حوادثها بين جبيل ومغارة افقا حيث ينبع نهر ادونيس المعروف حالياً باسم نهر ابراهيم. وقد كانت هذه الأسطورة حافزاً فنيا لبعض الفنانين الأوروبيين الذين صوروها لوحات فنية من روائع الفن. وقد زار لوكيان السميساطي معبد أدونيس في جبيل نحو عام (١٤٨م) ووصف الطقوس الدينية المتبعة فيه في كتابه عن «الالهة السورية». وقد سميت هذه الاحتفالات «الأدونيات» أو «الادونيسيات» حيث كانت تقام بعد الحصاد وكانوا يستعملون فيها زيت شجر المر، لأنه حسب أسطورة ولادته فإنه قد ولد من إحدى أشجار المر.

ولادة أدونيس: (حسب قصة أبو للودورروس وبانياسيس):

كان أدون شاباً جميلاً، وهو ابن الملك السوري «متياس» من ابنته «سميرنا» (مرة) ـ فقد ألهمت «أفروديت» (عشتار) الابنة حباً منحرفاً غير طبيعي نحو والدها، فخدعته وحبلت منه (مثل لوط وبناته). ولما عرف الملك الحقيقة، أراد ذبح ابنته الشاذة، لكن الالهة تحننت عليها فحولتها إلى شجرة تحمل نفس الاسم «مرة» أو شجرة المر.

انقضت عشرة أشهر انفجرت بعدها الشجرة بما حبلت به فخرج أدونيس إلى الحياة.

صورة ـ مرة تمسخ إلى شجرة ويولد منها أدونيس

فتنت افرودويت بجمال الطفل ووضعته في صندوق سلمته إلى بيرسيفون (Persephone) الهة العالم السفلي أو الجحيم (اريشكيغال السومرية) لتعنى به. ولكنها أحبته بدورها ورفضت أن تعيده لأفروديت. رفعت القضية إلى كبير الالهة «زفس» ليحكم بها،فكان قراره أن يبقي أدونيس ثلث السنة مع بيرسيفون وثلثها مع أفرودويت الثلث الآخر حسب اختياره.

أدونيس وعشتار: (حسب قصة أوفيديوس)

كان أدونيس تجسيداً لجمال الشباب للخصب وربيع الحياة. كان يحب الصيد فيخرج يسير إلى مكان عال من أجمل بقاع الأرض ترافقه كلابه، فيصل إلى مغارة «افقا» حيث تتدفق المياه (افقا = النبع) وفي رحلات الصيد هذه كان يلتقي مع عشتار الهة الحب والجمال التي اخترقت سهامها قلوب البشر والالهة على السواء. ولكم بادلته الهوى وتبعته في الأحراش وهي تلبس ثياب الصيد.

خرج أدونيس مرة بمفرده ليصطاد ولم ترافقه عشتار. فحاصرت كلابه خنزيراً برياً، أخذ أدونيس رمحه ورماه به فجرحه ولكنه لم يصب منه مقتلاً. هاج الخنزير المثخن بالجراح، جعر من ألمه وهجم على أدونيس فمزقه بأنيابه، سقط الشاب الجميل على الأرض وهو ينزف دما أنينه يتصاعد نحو السماء حتى بلغ مسامع عشتار.

صورة
أدونيس وعشتار يلتقيان عند مغارة أفق

صورة ـــ مصرع أدونيس

نزلت الالهة إليه ملهوفة ورأت دمه ينزف بغزارة وقد برد جلده وتبلل بالعرق وثقلت عيناه وغشي بصره وأخذت روحه تخرج مع أنفاسه المتسارعة.

ضمته عشتار وقبلته إلا أنه لم يشعر بقبلتها إذ كان قلبه يخفق خفقاته الأخيرة. لقد كانت جراحه عميقة إلا أن جراح قلبها باتت أعمق منها، فكلمته وهي تدري أنه لا يسمعها، فأخذت تندب وتنوح:

«ادون مات وحبه آخذ بخيالي
وتلاشت الرغبات كأحلام الليالي
وفراقه يضني كل مسحة من جمالي
وعلي أن أعيش بسر ألوهتي
فلولاها تبعتك للقبر يا منيتي
أتقبلني وداعاً وتطل في قبلتي
لأمتص روحك من لماك بشفتي
وأرتشف حباً لا يزول بزوالي

آهات الجبال ترد والبلوط يجيب
جميعها تبكي وترثي أدونيس الحبيب
أصداء الوهاد رددت الجوابا
ويل لنا أيمسي ادون ترابا
كل عاشق يبكيك ان هنا أم في الأعالي.»

نزفت دماء أدونيس وتخضبت مياه نهره بها، ورحل إلى العالم السفلي. حاولت عشتار أن ترجعه إلا أن جمال الشباب قد فتن ملكة الجحيم بيرسيفون فرفضت تسليمه وألحت على الاحتفاظ به. رفعت القضية لكبير الالهة «زفس» فقضى بأن يبقى أدونيس طيلة الخريف والشتاء بصحبة «ملكة الأموات»، ويعود كل ربيع وصيف إلى صحبة «ملكة الحب والجمال». ومع بدء كل خريف كانت مياه نهر أدونيس تتخضب بدمائه. ومع اطلالة كل ربيع ومع عودته إلى الأرض كانت تتفتح زهرة حمراء قرمزية حيثما سقطت قطرة من دم أدونيس، إنها شقائق النعمان تبشر بعودة النعمان، يجلب معه الخصب والتجديد.

أدونيس في جبيل:

منذ فجر التاريخ كانت العلاقات التجارية وثيقة بين جبيل الكنعانية ومصر (حاكافتا = حكفت) وكان خشب الأرز المادة التجارية الرئيسية فقد كانت غابات الجبل تعطي الأرز والصنوبر والشوح وغيرها. ومن أول ضربة معول عام (1921 م) ظهرت آثار معبد كان قد ازدهر أيام بناء الأهرام الكبرى في مصر أي في القرن (28 ق.م). وقد وجدت في هذا المعبد كؤوس من المرمر الأبيض حفرت عليها أسماء بعض الفراعنة، كان من بينها بعض التقدمات منهم إلى اله جبيل. كما وجدت قطع من العاج تمثل «اوزيريس» اله وادي النيل. وهناك دلائل تشير إلى الصلة بين عبادة أدونيس وعبادة اوزيريس. وربما كان هذا المعبد مشتركاً يؤمه المصريون إذا ما قدموا متاجرين إلى مدينة «جيبال» (جبيل).

كانت جبيل مدينة أدونيس المقدسة، إلا أن عبادته لم تنحصر فيها، ففي جبل عال يرتفع (1100) متراً عن سطح البحر تقع مغارة (افقا) التي ينبع منها نهر أدونيس (نهر ابراهيم) وهو المكان الذي مزق فيه الخنزير البري جسد أدونيس الشاب حسب الأسطورة. ويقول رينان (Ernest Renan) «إنها من أجمل بقاع الأرض، ويخرج منها شلال خلف شلال بأعماق مخيفة، كما أن عذوبة المياه ونقاء الهواء وجمال النبات يجعلها مكاناً ممتعاً. والطبيعة الغريبة الفاتنة التي تنبسط على هذا الارتفاع تشكل عالماً خيالياً يعطي الانسان كل مجال لكي يضيع في أحلامه».

في القديم كان معبد عشتار، حبيبة وحامية ادون، يشمخ عالياً قرب افقا. إلا أن حملة (صليبية) بقيادة القديس يوحنا فم الذهب (John Chryssostom) دمرت المعبد ولم تبق منه حجراً على حجر. والسبب هو أن هذه المنطقة الكنعانية كانت لا تزال

مرتبطة بعباداها الوثنية القديمة حتى القرن الرابع الميلادي وذلك أكثر من أية منطقة أخرى في كل سوريا.

كانت تقام على مسيلة نهر أدونيس بين جبيل وفقا الاحتفالات والأعياد التي سميت في العصور الأغريقية والرومانية «الادونيات» لم يشترك في هذه الأعياد السكان المحليون فقط بل كان الكثير من الحجاج يأتون من كل صوب يشاركون في مخاوفهم وآمالهم وأفراحهم.

الأدونيا:

أُعطيَ «ادون» طبيعة الهية مزدوجة، الاله الحي والاله الدفين. لذا فقد كان يحتفل كل سنةً بعيدين لأدون يفصلهما عدة أشهر، عيد موته وعيد قيامته. إلا أنه في عصور الانحطاط اختصر هذان العيدان في عيد واحد كان يدوم عدة أيام.

ولما عبر الامبراطور «جوليان المرتد» (الجاحد) آسيا الصغرى ليقوم بحملة ضد «الفرثيين» دخل انطاكية عام (362م) يوم كانت المدينة تحتفل باجلال وبمناحات بذكرى موت أدونيس. كان ذلك في شهر تموز حسب التقويم الشرقي (اليولياني).

أما في جبيل فكان الاحتفال يقام في أول الربيع لأنه في هذا الوقت كانت ثلوج الجبال تذوب فتسيل مياه الأنهار مخضبة بالتربة الحمراء كما لو أنها تمثل دماء أدونيس، كما تظهر في أول الربيع أيضاً شقائق النعمان «محمرة بدمائه».

أما في أثينا فقد كانت الأدونيات تقام في الصيف أيام الحر اللافح وكانت، كما في انطاكية، جنائزية تماماً، وذلك لأن أدونيس في العالم الهللنستي لم يعط أي معنى للقيامة، كما كان نفس الشيء يحدث في فلسطين، كما ذكر سفر حزقيال (14:8) كان نساء أورشليم يجتمعن في بعض أيام السنة ليبكين على أدونيس ـــ تموز، لا ليبتهجن بقيامته.

وبعد ذلك بثمانيةِ قرون في فلسطين وبشهادة القديس «ايرونيموس» كان نساء بيت لحم يجتمعن دورياً ليذرفن الدموع حداداً على الطبيعة جمعاء عند اعلان اختفاء أدونيس.

في جبيل كانت الأدونيات تدوم ثمانية أيام. كرست الأيام السبعة الأولى لرثاء وجنازة الاله. وفي هذا الأسبوع العظيم كانت تزرع بذور التمر والقمح والخس وشقائق النعمان في قدور مملوءة بالتراب وتسمى هذه الزراريع «بساتين أدونيس».

كانت هذه البذور تنبت في ثمانية أيامٍ معبرة عن قصر الحياة، عن قصر حياة أدونيس بالذات، فما ينمو بسرعة يفنى بسرعة أيضاً.

وبخصوص هذا الطقس أي زراعة بساتين أدونيس، تروى قصة عن قديستين مسيحيتين في اشبيلية اسماهما جوستا وروفينا في أواخر القرن (3م) كانتا تبيعان قوارير الفخار وكان الناس يحتفلون يومها بـ «سالامبو» الالهة نظيرة عشتار تبكي أدونيس. حاول الناس شراء القوارير ليزرعوا فيها «بساتين أدونيس» فرفضت المسيحيتان تسليم القوارير من أجل الاحتفال بطقس وثني. وفي غمرة الحماس قذفتا بتمثال سالامبو إلى الأرض، فأجبرتا على المشي في مسيرة الاحتفال وبعد الانتهاء عذبتا حتى الموت.

وقد تبنت كل بلدات المتوسط احتفالات الادونيا إلا أن مواعيد الاحتفال كانت تختلف من بلد إلى آخر. وفي جبيل كان اليوم الثامن يكرس للاحتفال بالقيامة، حيث كانت خادمات الاله يذهبن إلى الميناء يبحثن عن أي شيء تقذفه الأمواج في تلك الأيام من كل سنة. لقد كن في الحقيقة يبحثن عن رأس من نبات البردى يكون نساء الاسكندرية قد رمينه في البحر قبل ثمانية أيام كي يقذفه البحر إلى جبيل لتجده شقيقاتهن الكنعانيات تكريما من أوزيريس إلى أدونيس، كان هذا الرأس يمثل اوزيريس. ويعود هذا التقليد إلى عهد بناء الأهرام أي إلى القرن (28 ق.م)، حيث كانت تأتي رسالة من مصر لتبلغ الحجيج في جبيل أن ادون قد عاد إلى عالم الأحياء. ولم يكن المؤمنون يرون ذلك بأعينهم إنما كانوا يشعرون به، فكان الرجال والنساء يرددون «ادون قام». وكانت أعياد أدونيس تتحول إلى ميدان للفسق والفجور و«البغاء المقدس». وفي الاسكندرية كانت الادونيا تدوم ثلاثة أيام فقط وكان اليوم الثالث هو يوم القيامة والعودة.

كان أقدم معبد لأدونيس يقوم في جبيل، ومنها خرجت عبادته إلى العالم القديم، وبه ترتبط فكرة الموت والحياة ــ إنها دورة الحياة.

إن أدونيس هو اله التجديد والخصب وجمال الطبيعة، يظهر في الربيع فتتفتق البراعم وتغطي الخضرة الأرض. وبعد الحصاد تضمحل قوى أدونيس ثم يختفي فتيبس الأعشاب وتتساقط الأوراق ويتلهف الناس لعودة الأعجوبة من جديد. وكان أدونيس يعود ثم يعود منذ الأزل ورغم ذلك كانوا ينتظرونه بقلق وخوف. كيف سيكون النبت والنمو لهذا العام؟ إنه تعبير عن خوف الانسان الدائم من غده. فالانسان يبحث دائما عن الطمأنينة وسلام الضمير. حتى آدم كما يقول التلمود قد دب الرعب في قلبه عندما رأى الشمس تغيب، وجف حلقه إذ خاف من مغيب أبدي لا شروق بعده، وأن يكون اليوم الجميل الذي عاشه يوماً بلا غد.

هذا القلق من الغد المجهول وجد مذ وجد الانسان حتى يومنا هذا. وقد أقلق «كنعان» أيضاً فجاءت أسطورة أدونيس تعبيراً حياً عن هذا القلق. خوفاً من القحط والجوع يشغل عقل الانسان، إنه حب البقاء. فصارت هذه الأسطورة أكثر شعبية وانتشاراً من أية أسطورة أخرى.

ومن يدري هل قصد الكنعانيون بقصة ادون الأمل بتجدد الحياة، أي القيامة بعد الموت؟ بعض الباحثين يرون ذلك من باب الاجتهاد، بينما الواقع أن الكنعانيين لم يتركوا صيغة واحدة تحكي عن قيامة الموتى: ففي مصر القديمة كان هناك وعد من أوزيريس لحياة أخرى بعد الموت للناس الصالحين، أما في كنعان فلم يوضح الشعراء معتقداً كهذا.

اوروبا

اقتبست قصة اوروبا (Europa) من قصيدة للشاعر «موسخوس» (القرن 2م) الذي قيل أنه من الاسكندرية، كما ورد أنه من سيراكوز. إن هذه القصيدة هي أوضح مصدر للقصة. وقد أدرجت بين الأساطير الاغريقية إلا أن بطلتها أميرة كنعانية هي أوروبا بنت «أشنار» (أجينور) ملك صور. وتدور حوادثها بين آسيا واوروبا. وهذه الأسطورة وثيقة الصلة بقصة قدموس أخي اوروبا الذي اعتبره مغتربونا أول مغترب سوري، كما اعتبره الاغريق أول من أدخل الحرف إلى بلادهم.

وبتسلسل الانساب الأسطوري كان والد اوروبا وقدموس ملكاً على فينيقيا (كنعان)، واسم فينيقيا هو التسمية التي أطلقها الاغريق بشكل خاص على الكنعانيين الذين سكنوا الجزء الشمالي من الساحل السوري والذين تاجروا وتفاعلوا معهم حضاريا منذ القدم. وقد سماهم هوميروس «فونويكي»، وكل هذه التسميات قد اشتقت من الصباغ الأرجواني الذي صنعه الكنعانيون وتاجروا به. وقد ظهر اسم فينيقي أو فوني نحو (1200 ق.م).

ولا ندري على وجه التحديد هل كان اشنار ملكاً على صور أم على صيدون أم على المدينتين معاً. وقد جعلته الأسطورة ابن اله البحر «بوزيدون» (يم) من زوجته «ليبيا». والبحر بالنسبة للاغريق يعني البحر المتوسط والبحر الأسود، أما ليبيا فهو الاسم الذي أطلقوه على شمال افريقيا الذي أطلق فيما بعد على كل القارة الافريقية، وهو الآن اسم الجمهورية الليبية فقط في الشمال الافريقي.

ومن خلال قصة غرام الهي يبين الشاعر كيف انتقل اسم الأميرة الكنعانية اوروبا فصار اسماً جغرافياً أشهر من أن يعرف، إنه قارة اوروبا.

الفصل ربيع والليل مقمر والأرض بساط أخضر توشيه الزهور يفوح عبيرها في أجواء كنعان الرطبة. وأثناء ذلك ترقد اوروبا ابنة اجينور، ملك فينيقيا، في سريرها، إلا أن كابوساً أزعجها وأقلق نومها. لم تكن تحلم باله أحبها بل بقارتين تتنازعان ملكيتها. لقد رأت القارتين بشكل امرأتين، آسيا تقول «إني أملكها لأني ولدها» والأخرى، ولا نعرف اسمها بعد، تقول أنها ستملكها لأن الاله زفس سيهبها لها.

أفاقت الصبية باكراً مع الفجر، وكثيراً ما حققت الالهة أحلام الفجر. إنها لا تستطيع أن تغفو بعد ذلك. نادت صديقاتها اللواتي من عمرها ومن نبيلات المحتد، وخرجت الصبايا في نزهة بين المروج، ليس بعيداً عن شاطىء البحر، قرب مصب أحد الأنهار. كل صبية منهن تحمل سلة لتجمع فيها الزهور. وكانت سلة اوروبا مصنوعة من قصب الذهب تزخرفها النقوش والصور، مصورة لمشاهد من حياة الآلهة، منها صورة الآلهة «ايو» وقد مسختها غيرة «هيرا» إلى بقرة، وحيث يرى زفس وهو يقترب منها مادا يده المقدسة ليعيدها امرأة كأجمل ما تكون النساء. كم كانت جميلة سلة اوروبا الذهبية، لم يكن أجمل منها إلا تلك الأزهار التي ملأتها وفاح عبيرها، منها النرجس والخزامي والبنفسج وزهور البرية الحمراء. كان الصبايا ينتقلن كالنحل من زهرة إلى زهرة، يملأن السلال، كل صبية منهن آية بين البنات إلا أن أجملهن كانت اوروبا، وكأنها عشتار في فتنتها.

في الأعالي كان زفس يستلقي متكاسلاً يرقب ما يجري على الأرض. وما أن رأى الصبايا على المرجة ولمح فتنة اوروبا حتى لعبت أفروديت وايروس (كيوبيد) لعبتهما وأطلقا سهماً في قلب زفس فألهاه بحب اوروبا، كأن هيرا كانت في غفلة عما يفعل زوجها، إنها الالهة الغيورة التي كان من ضحاياها الكثيرات ممن أحبهن زفس.

وبسرعة تقمص زفس شكل ثور قبل أن يظهر نفسه لاوروبا، لقد كان الثور الالهي أجمل من أي ثور (ايل ثور وآنو ثور)، كستنائي اللون تحيط بقرونه دوائر فضية كالهلال في مطلع الشهر. وقد بدا وديعاً لطيفاً فلم تخشاه الصبايا، بل انهن قد تجمعن حوله يداعبنه ويشممن العطر السماوي، أزكى من عطر الزهور.

اقتربت اوروبا منه وما أن لمسته حتى أعطى خواراً موسيقياً أجمل من عزف قيثارة وانحنى أمامها فاعتلت ظهره العريض. نادت رفيقاتها، إلا أن الثور نهض فجأة وقفز منها نحو البحر ثم أخذ يركض فوق الماء والموج ينخفض أمامه وقد أصبح البحر سهلاً. وخرجت من الأعماق جماعة من آلهة البحر تركب الدلافين وتصوت بالأبواق، يقودهم بوزيدون بنفسه وهو إله البحر وشقيق زفس.

خافت اوروبا من المخلوقات البحرية العجيبة ومن عمق المياه تحتها، فتشبثت بأحد قرنيه بيد وأمسكت رداءها باليد الأخرى وقد نفخته الريح فأصبح وكأنه شراع. فكرت اوروبا، ما عساه يكون هذا الثور ورجته ألا يتركها تسقط في المياه. فهم زفس أفكارها وتكلم الثور فطمأنها قائلاً: «إن فكرك صحيح فأنا زفس أعظم الالهة وقد دفعني حبي لأصنع ما ترين». لقد اختطفها وذهب بها إلى جزيرة كريت، إنها جزيرته والأرض التي خبأته فيها أمه عندما هربته من أبيه كرونوس، أي الزمن (=ايل أبوالسنين)، وتقول الأسطورة أن كرونوس كان يلتهم أبناءه، إلا أن زفس كان قد أنقذ بحيلة.

وصلا إلى كريت وقفز الثور إلى اليابسة، والتقى الحراس والأعيان في حفل الزفاف.

انجبت اوروبا من زفس عدة أولاد أشهرهم «مينوس» و «رادامنتوس» اللذين اشتهرا بالعدل فأوكل إليهما الاله محاكمة الأموات. إلا أن اسمها بقي أشهر الأسماء على الاطلاق، إنه «اوروبا».

قدموس يقتل الافعوان

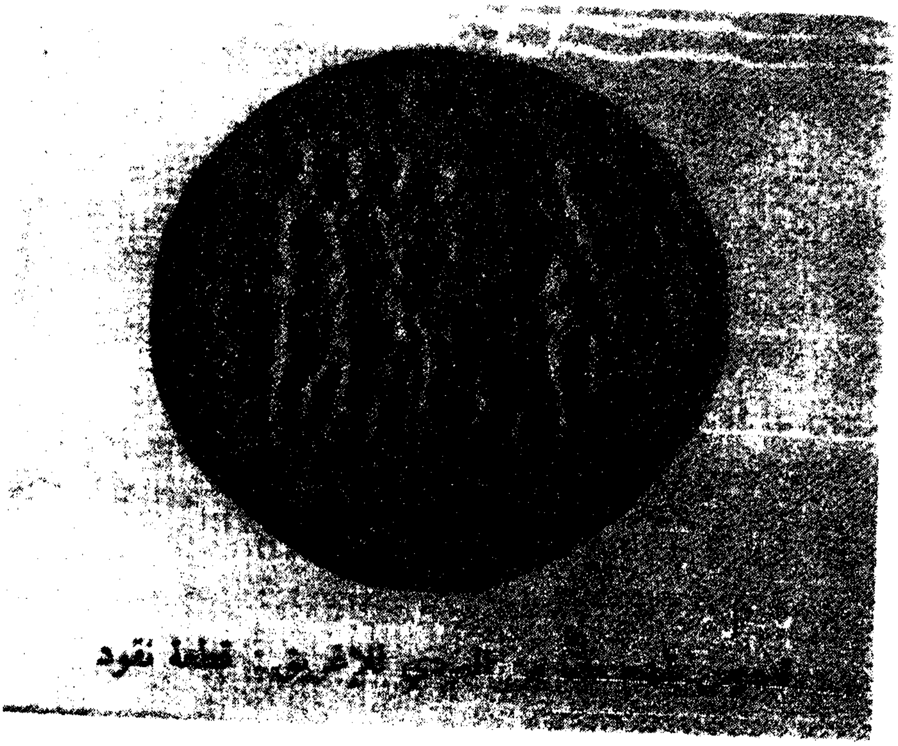

[illegible] للإفريقي: قطعة نقود

مأساة قدموس

طيبا (Thebes) مدينة اغريقية قديمة في أواسط بلاد اليونان تعود للعصر البرونزي في الألف الثالث قبل الميلاد. ويرجح أنها بنيت نحو (2100 ق.م) في منطقة «بيوثيا» أي بلاد البقرة وهي أقدم مدن اليونان وأقدم من أثنيا.

تقول القصص الاغريقية أن مؤسسها هو قدموس، الأمير الصوري ابن اشنار (اجنور) وشقيق اوروبا. وأن قلعتها القديمة سميت «قدميا» أو «كدميا» (Cadmia) نسبة إليه ثم خربت نحو (230 ق.م). وقد اختلفت المدارس القديمة في حقيقة شخصية قدموس. يقول «بوزانياس» إنه أمير من صور ذهب إلى الغرب بحثاً عن أخته اوروبا بعد أن اختطفها زفس. بينما ينكر الذين ينكرون التأثير الكنعاني وجود شخص تاريخي باسم قدموس حتى وجود قلعة قديمة في طيبا باسم «كدميا» ومن المعلوم أنه يوجد في سوريا في جبال برغال (جبال العلويين) بلدة تحمل اسم «قدموس»، وفيها مصح للسل.

إلا أن التنقيبات الأثرية التي بدأت عام (1963) بينت أن مدينة طيبا قد دمرت في أواخر القرن (13 ق.م) كما ألقت تلك التنقيبات الضوء على القصة القائلة بأن قدموس قد أتى من فينيقيا إلى تلك المنطقة قبل الاسبارطين بعدة أجيال. وقد وجد في طيبا مجموعة من الأختام البابلية في الطبقة المحروقة منذ هدم المدينة، وتعود الأختام إلى القرن (14 ق.م) ويرجح أنها تعود لعائلة قدموس الملكية.

كما نسب إلى قدموس أيضاً إدخال عبادة «اثينا» إلى بلاد اليونان بعد أن أقام لها مذبحاً في طيبا. حتى أن الكاهن البيروتي «سنكن ــ يتن» (كما ذكر فيلو الجبيلي) كتب أن الالهة «اثينا» هي ابنة «ايل» (مثل عناة البتول المحاربة كانت اثينا بتولاً أيضاً) وأن الميثولوجيا الاغريقية هي وحي فينيقي.

لقد نسب المؤرخون القدماء أمثال هيرودوتس وبليني وديودوروس إلى قدموس ادخال الأبجدية الكنعانية إلى بلاد الاغريق. والمعروف الآن أن هذه الأبجدية هي أم الأبجديات في العالم، وقد اقتبسها الاغريق في أواخر القرن (9ق.م)، ولكن حسبما ذكر هؤلاء المؤرخون فقد أدخل قدموس ستة عشر حرفاً، والأبجدية الكاملة تتألف من اثنين وعشرين حرفاً، وأول ما اقتبسها الاغريق كتبوها كالكنعانيين من اليمين إلى اليسار. وقد كتب على قبر زينون الرواقي ما يلي:

«إن كانت فينيقيا هي موطنك
فإن هذا لا يحط من قدرك
ألم يأت قدموس من هناك
فأعطى الاغريق الكتب وفن الكتابة؟»

عندما اختطف «الثور» اوروبا جمع اشنار أولاده «فينيقس» و«قدموس» و«كيليكس» وأمرهم بالبحث عنها في كل مكان وألا يعودوا من دونها. هام الشباب

الثلاثة على وجوههم يبحثون هنا وهناك دون جدوى، إلى أن دب اليأس في قلوبهم. وأخيراً استقر فينيقس في الشمال على الساحل فعرفت البلاد باسم فينيقيا نسبة له، واستقر كيليكس في بلاد أبعد إلى الشمال فعرفت باسم كيليكيا نسبة له، وأما قدموس فلم ييأس بل فكر وذهب إلى معبد دلفي واستشار الاله «أبوللو».

أجابه أبوللو «لا تجهد نفسك بالبحث عنها وبأمر والدك أن لا تعود بدونها، بل أسس لنفسك مدينة جديدة، عندما تخرج من هنا ستجد «عجلة» فتتبعها إلى حيث تتوقف العجلة لتستريح، هناك تبني المدينة». هكذا أسس قدموس قلعة قدميا ومدينة طيبا، وقد سميت المنطقة المحيطة بها «بيوثيا» أي بلاد البقرة.

أراد قدموس أن يقدم العجلة ذبيحة للالهة، لكنها لم تكن في الحقيقة إلا جنية ظهرت بهذا الشكل لتهديه إلى مكان بناء المدينة. أرسل رفاقه ليحضروا الماء من نبع قريب، غير أن تنيناً مخيفاً كان يحرس النبع، قتلهم جميعاً فبقي قدموس وحيداً، ووحده لا يقدر أن يبني المدينة. فنازل قدموس التنين وصرعه. وبتعليمات من أثينا فلح الأرض بأنياب التنين فخرج من الأخاديد رجال متوحشون مسلحون اسمهم «اسبارطي»، عندئذ رمى قدموس بينهم حجراً فتحولوا عنه واقتتلوا فيما بينهم وأفنوا بعضهم البعض ولم يبق منهم سوى خمسة. وهؤلاء انضموا إليه وساعدوه في بناء قدميا قلعة طيبا، وقد تحدر منهم نبلاء المدينة. وأصبحت طيبا مدينة عظيمة مزدهرة، وقد حكمها قدموس بحكمة كما أدخل الحرف إليها.

من أجل سفك الدماء كان على قدموس أن يكفر عن خطاياه مدة ثماني سنوات. بعد ذلك زوّجته الالهة من هرمونيا (Harmonia) ابنة آريس (Ares) وأفروديت. وقد كرمته الالهة بحضور الزفاف ومباركته. ومن هدايا العرس كان رداء من شغل اثينا وعقد من شغل هيفاستوس صانع الالهة (نظير هاين الكنعاني)، إلا أن هذا العقد كان مصدر شؤم لكل من ملكه وقد قاد إلى الهلاك والمآسي للأجيال المقبلة رغم مصدره الالهي.

ولدت هرمونيا ابناً اسمه بوليدوروس وأربع بنات هن اينو وافتونوى وأغافي وسيميلي. لكن رياح الآلهة لا تهب في صالح الانسان لمدة طويلة. فقد نزلت المصائب ببنات قدموس أولاً.

لقد اختفت سيميلي أمام مجد زفس، وهي أم ديونيسوس. اينو كانت زوجة والد فريكسوس الشريرة وفريكسوس هو الصبي الذي أنقذه «الكبش ذو الجزة الذهبية». أصيب زوج اينو بالجنون فقتل ابنهما مليكرتس، وبينما كانت تحتضن جثة ابنها بين ذراعيها رمت نفسها في البحر، لكن الآلهة أنقذتها وصارت من آلهات البحر وهي التي أنقذت أوديسيوس من الغرق عندما انشطر مركبه بعد حرب طروادة. وقد صار ابنها من آلهة البحر أيضاً.

وكانت نهاية الابنتين الأخيرتين تعيسة أيضاً. وأصبحت اغافي أتعس الأمهات قادها ديونيسوس (السكر) إلى الجنون فتصورت ابنها بنيتوس أسداً فقتلته بيدها.

أما افتونوى فقد فقدت ابنها في شبابه ولم يكن يستحق الموت كما أنه لم يرتكب خطيئة. وكان في رحلة صيد، عطش فدخل مغارة فيها جدول ماء وبركة ماء عذب، رأى الماء بلورياً صافياً فأراد أن يستحم وفي تلك اللحظة، وهو لا يدري أنه المكان الذي

تستحم فيه ارطاميس، اقتلعت الآلهة ثيابها فبدت عارية فاتنة أمامه، لم تفكر ارطاميس بسلامة نواياه أم هل أراد حقاً اهانتها، فرشت على وجهه بعض الماء المسحور فتحول وعلاً، وصار قلبه قلب غزال. فبعد أن كان شاباً قوياً لا يعرف الخوف صار جباناً بقلب الغزال، فهرب. رأته كلابه الأمينة ولم تعرفه فجرى وجرت وراءه، ولم يستطع خوفه أن يزيد من سرعته فلحقت به كلابه وقتلته.

هكذا تراكمت أحزان قدموس وهرمونيا على أولادهما وأحفادهما فزهقت شيخوختهما وفارقهما الحظ. هربا إلى «الليريا» البعيدة وكأنهما يهربان من الكوارث إلا أن الكوارث تبعتهما. وهناك مسختهما الآلهة فصار كل منهما أفعى. فكانت نهاية حياة قدموس مأساة المآسي، لا لذنب اقترفه ولكن الأبرياء كثيراً ما يعانون المآسي كالمذنبين، فيحتار الانسان ويتساءل، إلا أنه لا يجد سوى هذا الجواب اليائس:

«إن عقل الانسان المحدود لا يدرك مقاصد الآلهة».

صورة ــ قدموس وهرمونيا يتحولان إلى ثعبانين

الميثولوجيا العبرانية

في دراسة الأدب العبري يجد المرء سهولة أكبر مما يجد في دراسة الآداب القديمة الأخرى. فاللغة السومرية ما تزال صعبة على المترجمين وكذلك اللغة الآكادية. ولوحات أوغاريت قد لحقها الكثير من التلف وبالتالي نقص في النصوص مما يجعل الأساطير الأوغاريتية كثيرة الثغرات يصعب ملؤها في بعض الأحيان. بينما يشمل الأدب العبري ألف سنة من التدوين المحفوظ وبأحرف أبجدية، مما يسهل كثيراً عملية الترجمة وفهم النصوص. ويحوي العهد القديم كثيراً من النصوص الميثولوجية إلى جانب النصوص الدينية والتاريخية. وهذه النصوص الميثولوجية إما منقولة عن ميثولوجيا بابل وكنعان بالنص الحرفي أو منقولة جزئياً أو محوّرة بشكل يتفق والمفاهيم اليهودية.

لذا عندما ندرس الميثولوجيا العبرانية علينا أن نبحث عن المصدر والنص الأصلي الذي اقتبس منه النص العبري، وأن نتبين التعديلات التي أدخلها الكتبة اليهود على النصوص الأصلية، أو هل النص العبري أصيل وغير منقول عن المصادر الكنعانية أو البابلية أو غيرهما.

حسب التقاليد العبرية القديمة المذكورة في العهد القديم هناك ثلاث هجرات عبرانية إلى أرض كنعان (فلسطين):

1 ــ هجرة ابراهيم أو ابرام العبراني من اور في العراق في القرن (18ق.م) إلى حران ثم إلى أرض كنعان، والإقامة قرب حبرون (الخليل). والمهم في شخصية ابراهم ليس الجزء التاريخي بل الميثولوجي، فإنه ربما كان شيخ قبيلة من الرحل مثل كثيرين غيره، وذلك من الناحية التاريخية، قد تنقل من اور إلى حران إلى حبرون. لكن الأساطير التي حيكت حول شخصه، إن كان تاريخياً، هي التي جعلته من أشهر الأشخاص في التاريخ. فكلمة ابرام (اب ــ رام) تعني الأب السامي أو الجليل، والعبراني صفة قبائل العبيرو الذين كانوا يعبرون الفرات من العراق إلى سوريا. وقد جعل ابرام أول موحد حسب الأديان السامية الثلاثة وهذا غير صحيح تاريخياً، فإن ابراهيم كان هينوثياً (التخصص في عبادة اله واحد دون انكار وجود آلهة أخرى) وقد عبد ايل شداي بوجه خاص. كما أنه كلم الله وأخذ منه الوعود المواثيق. والابراز الأسطوري لابراهيم فيما بعد في المسيحية والاسلام جعل منه قديساً في الأديان السامية الثلاثة، فأصبح «خليل الله» و«أبا الآباء» «المسلم الأول» وحتى الموتى يوضعون في «أحضان ابراهيم». وبسبب نفوذ بعض اليهود في المسيحية الأولى والاسلام الأول طغى اسم ابراهيم على اسم ملكي صادق ملك أورشليم الكنعاني وكاهن ايل عليون والذي كان حسب العهد القديم (تكوين 14 ومزمور 110) والعهد الجديد (عبرانيين 5-6-7) أعظم من ابراهيم ديناً ودنيا، فقد بارك ابراهيم لأنه أعظم منه ودفع له ابراهيم العشر لأنه أصغر منه. وقد كانت مرتبة ملكي صادق أعلى المراتب الكهنوتية. أما من جهة العنصر فالعهد القديم يجعل من ابراهيم العبراني آرامياً.

2 ــ «هجرة يعقوب حفيد ابراهيم من اسحق، وحسب الأسطورة فقد تصارع يعقوب مع الله طوال الليل فأطلق عليه اسم اسرائيل (يحكم الله) (تكوين 32) وقد ذهب يعقوب إلى خاله «لابان» في فدان آرام وتزوج ابنتيه وجاريتيهما، وأنجب اثني عشر صبياً وبنتا. عاد من آرام حران إلى أرض كنعان وأصبح أباً للأسباط الاثني عشر. والمهم لحد الآن أننا نرى التأكيد على الأصل الآرامي لبني اسرائيل «آراميا تائهاً كان أبي، فانحدر إلى مصر وتغرب هناك في نفر قليل فصار هناك أمة كبيرة وعظيمة وكثيرة» (تثنية 5:26). وقد استقر قرب شكيم في أرض كنعان.

3 ــ والموجة العبرانية الثالثة التي دخلت أرض كنعان كانت في أواخر القرن (13ق.م) عندما خرج العبرانيون الموجودون في مصر بقيادة موسى وهرون ويشوع بعد أن انقضى على وجودهم بين المصريين نحو (400) سنة، ثم بقوا في صحراء سيناء أربعين عاماً، ثبت خلالها موسى عبادة يهوه، وأعطى شرائع لشعبه بينها الوصايا العشر (Decalogue) ثم مات. ودخل العبرانيون أرض كنعان بقيادة يشوع بن نون واحتلوا بعض المدن الكنعانية بعد التعاون مع الزانية راحاب، وقد ارتكبوا الفظائع الكبرى من هدم وحرق وقتل ونهب، وألقوا تبعة هذه الفظائع على الههم القبلي يهوه.

وهناك دلائل تاريخيه على أن الذين نزحوا من مصر إلى أرض كنعان لا يمثلون كل التحدر العبري، بل أن هناك عبرانيون لم يتوجهوا إلى مصر في الأصل إلا أنهم عادوا فتوحدوا مع العبرانيين العائدين على أساس عبادة يهوه[1]. ويقول فيرولليو «إن نصوص أوغاريت تذكر أن تارخ أبا ابرام قاد العبرانيين إلى أرض كنعان، ولكنها تشعر بأن قبائل دان وأشير وزبولون كانت في تلك الأرض في القرن 15 ق.م أي قبل خروج الاسرائيليين من مصر».

إن اختلاط العبرانيين بالكنعانيين في فلسطين نحو من ثلاثة قرون كان كافياً لأن يقتبس العبرانيون الرحل من الكنعانيين المستقرين في مدن زراعية اللغة والدين والثقافة والتقاليد.

إلا أن الأدب الكنعاني قد بقي مجهولاً وكذلك الديانية الكنعانية إلى أن اكتشفت مكتبة أوغاريت. ولم تعرف الديانة الكنعانية قبل ذلك إلا كما وصفها العبرانيون وشوّهوها. أما الآن فقد وجدنا من الوثائق ما يؤهلنا لمعرفة الديانة والأدب الكنعانيين ومدى تأثيرهما على الاغريق والعبرانيين وعلى دياناتهم وآدابهم.

العهد القديم:

هو مجموعة من نحو أربعين سفراً تحوي أساطير وتواريخ وشرائع وحكم وتراتيل دينية وملاحم، أكثرها كتب في عهود متأخرة عن الأشخاص الذين نسبت إليهم تلك الأسفار. وقد جمعت من عدة مصادر وفي بعض الأحيان تعدد الواضعون حتى للسفر

---

[1] هناك ست رسائل من رسائل تل العمارنة تذكر العبرانيين في أرض كنعان قبل خروج بني اسرائيل من مصر نحو عام 1235 ق.م..

الواحد كما في سفر المزامير. إن التوارة العبرية التي أقر نصها النهائي مجمع الحاخامين عام (100م) كانت نتيجة تطور طويل وتدعى «تاناك».

1 ــ الأسفار الخمسة:

هي سفر التكوين، خروج، لاويين، عدد، تثنية. هذه الأسفار تتضمن إلى جانب أسطورة التكوين وميتوس الأصول العبراني شرائع موسى، لذا سميت «التوارة» أي الشريعة ونسبت إلى موسى. وتبدأ هذه الأسفار بقصة التكوين وتنتهي بموت موسى قبل دخول أرض كنعان. وقد بدىء بوضع نصوص التوارة بعد القرن (9ق.م) أي بعد موسى بعدة قرون وربما كانت في الأصل قصص وشرائع شفوية تناقلها الناس خلال تلك الحقبة الطويلة قبل تدوينها. بقيت هذه الأسفار الخمسة تنسب إلى موسى حتى القرن (19م) وهي تحوي قصتين للتكوين، وقصة للطوفان مستقاة من مصدرين، وقصة طرد هاجر واسماعيل، ودعوة موسى وأعجوبة المن والسلوى والوصايا العشر.. إلخ ولدى دراسة كل قصة يتضح وجود أكثر من مصدر واحد لها، فتروى بأكثر من شكل مع اختلاف في التفاصيل، وقد رأى الباحثون أربع مصادر أساسية لنصوص التوراة:

آ ــ المصدر اليهوي (J) وقد ألف في القرن (9ق.م) في مملكة يهوذا، وقد سمي كذلك لأنه يستعمل اسم العلم يهوه (نحو 850 ق.م).

ب ــ المصدر الايلوهيمي (E) وقد ألف في القرن (8ق.م) في مملكة اسرائيل، وسمي كذلك لأنه يستعمل اسم العلم الوهيم (نحو 770 ق.م).

وقد دمج هذان المصدران في مجموعة واحدة (JE) نحو (650 ق.م) أي بعد سقوط مملكة اسرائيل عام (721 ق.م).

ج ــ مصدر التثنية (D) وقد ألف وأعلن العثور عليه في زمن الملك «يوشياهو» ملك يهوذا عام (620 ق.م) وكان أساساً لاصلاحه الديني، وقد أضيف إلى المصادر السابقة بعد السبي.

د ــ المصدر الكهنوتي (P) وهو يرجع إلى زمن عزرا في القرن (5ق.م).

وقد دمجت جميع المصادر حوالي نهاية القرن الخامس قبل الميلاد. فكانت النتيجة أخيراً الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى.

وقد جمعت المصادر اليهوية خلال ملك داود وسليمان (القرن 9ق.م). وتبدأ القصة بخلق الانسان في عدن وفيها قصة سقوط الانسان والطوفان وبرج بابل، وقصص الآباء ابراهيم واسحق ويعقوب والاسباط، ووعود يهوه لابرايهم ونسله.

والمصادر الايلوهيمية جمعت في مملكة اسرائيل وفيها مواثيق ابراهيم مع يهوه ثم قصص يعقوب ويوسف باسهاب.

أما المصادر الكهنوتية فقد جمعها رجال الدين اليهودي بعد العودة من السبي، لذا فإن التأثير البابلي واضح فيها.

وقد جاء في قرار اللجنة الحبرية التوراتية في 1906/6/27 مايلي: «يمكن القول بأن موسى استعمل وثائق مخطوطة وتقاليد شفوية سابقة ونقل عنها ما يوافق الغاية التي

استهدفها بالهام الروح القدس، وأنه نقل تارة النصوص بحروفها وتارة بمعناها وأخرى بتلخيص أو باسهاب.»

«وإن الكتب الخمسة المذكورة قد تعدلت مع مرور الزمان بحيث أضيفت مثلاً نصوص كتبها كاتب ملهم بعد وفاة موسى، وزيدت تفسيرات، وتحولت تعابير قديمة إلى تعابير مستحدثة. وإن هناك أخطاء اقترفها الناسخون»

2 ـ كتب الأنبياء والتواريخ:

أسفار يشوع والقضاة وصموئيل والملوك وأشعيا وأرميا وحزقيال والأنبياء الاثني عشر ثبتت نحو القرن 2 ق.م.

3 ـ كتب وأسفار المزامير والأمثال وأيوب ونشيد الانشاد وراعوث والمراثي والجامعة وأستير وعزرا ونحميا وأخبار الأيام:

اتخذت شكلها النهائي في القرن 1 م. وفي هذا الصدد يقول نوجيرول:

«تثبت نصوص أوغاريت أن حكم سليمان كانت معروفة في سوريا قبل عهد سليمان بثلاثمئة سنة».

وأما سفر دانيال فقد كتب بين 167 و 164 ق.م في عهد الملك انطيوخوس 4 ابيفانيس ملك سوريا الذي حاول فرض الحضارة الهللنستية على اليهود مما أدى إلى ثورة المكابين عام 168 ق.م من أجل الاستقلال الذاتي بينما القصص فيه تذكر بابل ونبوخذ نصر.

ترجمة العهد القديم:

لقد كتب بعض أسفار العهد القديم باللغة العبرية (شفة كنعان ـ أو الكنعانية القديمة) وبعضها باللغة الآرامية كالأسفار المتأخرة لما بعد انتصار اللغة الارامية وتعميمها في الهلال الخصيب بعد القرن 6 ق.م. وبعضها الآخر حوى بعض الاصحاحات بالعبرية وأخرى بالآرامية.

وأقدم ترجمة «للعهد القديم» إلى اللغة اليونانية هي الترجمة السبعينية (Septaguint) وقد ترجمت في القرنين 3 و 2 ق.م للجالية اليهودية في مصر. وكانت قد هلنست وعمت بين أعضائها اللغة اليونانية بدل العبرية والآرامية. وتسمية سبعينية تعود إلى أن سبعين أو اثنين وسبعين مترجماً (ستة من كل سبط) اجتمعوا منفصلين وترجموا كل العهد القديم ووحدوه بترجمة واحدة. ما قيل أن بطليموس 2 فيلادلفوس (285 – 246 ق.م) كان محبا للعلم والأدب فاستقدم مترجمين من أورشليم، أرسلهم إليه رئيس الكهنة ايلعازر. ومن لغة الترجمة السبعينية يتبين أن الأسفار الخمسة الأولى قد ترجمت في القرن 3 ق.م، والأنبياء (نبييم) في القرن (2ق.م.).

وبما أن اللغة اليونانية كانت سائدة في بدء العصر المسيحي فقد استخدمت الكنيسة الأولى النص اليوناني وليس العبري، وعلمت أن نبؤاتها قد تحققت في المسيح، فادعى اليهود أن النص اليوناني المترجم قد حرف رغم كونه مترجماً قبل الميلاد، وأبطلوا استعمال الترجمة السبعينية بعد هدم أورشليم سنة (70 م.) وتقيدوا بالنص العبري الذي وضع بشكله النهائي عام (100 م.) أي بعد موسى بثلاثة عشر قرناً، وعمدوا إلى إيجاد

ترجمة جديدة لليونانية تتوافق مع أهوائهم. لكن الكنيسة بقيت على استخدام الترجمة السبعينية على أنها هي العهد القديم ومنها ترجم إلى اللاتينية والقبطية والحبشية والارمنية والجيورجية والسلافية وجزء من الترجمة العربية.

ومحتويات الترجمة السبعينية موجودة في ثلاث ترجمات قديمة هي:

ـــ النسخة الفاتيكانية ـــ القرن 4 م (Cdex Vaticanus)

ـــ النسخة الاسكندرانية ـــ القرن 5 م (Codex Alexandrinus)

ـــ النسخة السينائية ـــ القرن 4 م (Codex Sinaiticus)

وقد نسخت سيدة مصرية تدعى القديسة تقلا الكوديكس الاسكندراني للعهدين القديم والجديد قد بقيت هذه النسخة أكثر من (1300) سنة في بطريركية الاسكندرية ثم سلمت إلى الإنكليز عام (1626) ووضعت في المتحف البريطاني. أما النسخة السينائية فقد كانت محفوظة في متحف بطرسبرج (لينينغراد) ثم باعتها روسيا السوفيتية بمبلغ (300) ألف جنيه استرليني للمتحف البريطاني بعد (1917).

السنهدرين وإعادة النظر بالشريعة:

كان للعبرانيين شرائعهم القديمة المنصوص عليها في التوراة. لكن بعد دخولهم أرض كنعان واقتباسهم حضارة الكنعانيين ومع تبدل ظروف حياتهم وانتقالهم من البداوة إلى الحضارة دخلت في حياتهم عادات وأعراف وتقاليد لم يأت ذكرها في التوراة. وفي عهد الهيكل الثاني (516 ق.م ـــ 70 م.) ظهرت عدة طوائف بين اليهود. ولما نجحت حركة المكابين عام (167 ق.م.) بإنشاء دولة وأقامت الاستقلال الذاتي عن سوريا رأى الحكم الجديد لزاما عليه أن يعيد النظر في الشرائع القديمة وتدوين شرائع جديدة تتفق مع ظروف الحياة الجديدة.

كان السبي البابلي (586 – 516 ق.م.) قد أوجد قيادة كهنوتية لليهود قادتهم مدة قرنين ثم ظهرت فئة مثقفة من العلمانيين أخذت تلعب دورها في الحياة الدينية والمدنية.

وفي القرن (2 ق.م.) تألف مجلس أعلى هو السنهدرين للنظر في الشرائع. وانعقد اجتماعه الأول عام (141 ق.م.) وكانت له صلاحية إعادة تفسير شرائع التوراة وتدوين الشرائع الشفوية وسن شرائع جديدة. وكلمة «سنهدرين» مشتقة من الكلمة اليونانية «سنيدريون» أي مجلس. وكان السنهدرين الأعلى تشريعي وقضائي ويتألف من 71 عضواً وله رئيسان ويدعى الرئيس «ناسي» (Nasi). ومن بين الأعضاء كان هناك كهنة وعلمانيون وكتبة. وقد قام الخلاف بين العلمانيين والكهنة حول تفسير الشرائع.

كان حزب الكهنة يدعى «الصدوقيين» نسبة إلى صادوق رئيس الكهنة في عهد داود وسليمان، ولم يكن كل الكهنة من نسل صادق إلا أنهم تآلفوا في حزب واحد نحو (200 ق.م.) وكان معقلهم الرئيسي هو الهيكل. وقد اختلفوا مع العلمانيين والمثقفين في السنهدرين، وكانت السياسة قد اختلطت بالدين. وفي أيام الملك المكابي «يوحنا هيركانوس» ـ(125 – 106ق.م.) طرد هؤلاء العلمانيون من السنهدرين ونعتوا بأنهم انفصاليون أو انشقاقيون أو «بروشيم» أي فريسيين. وكان الخلاف دائما بين الصدوقيم

والبروشيم. وبينما تقيد الصدوقيون بحرف التوراة وتأثروا بالهللنستية فان الفريسيين عدلوا تفسيراقم وأرادوا إدخال الشرائع الجديدة والتعصب المذهبي في آن واحد وهم الفئة التي شدد المسيح في مهاجمتها.

وأثناء رئاسة شماي وهليل (70 ق.م. ــ 10 م.) للسنهدرين تنافر أعضاؤه وحكماؤه وانشقوا ما بين أتباع لشماي وأتباع لهليل. كان أتباع شماي محافظين بينما أتباع هليل كانوا يريدون إدخال تجديدات في الشريعة. وكان لهذا الانشقاق أثره البعيد في حياة اليهود من كافة الجوانب. ومن نتاج أتباع هليل كان التلمود. وكما مر كان الفريسيون دعاة تجديد.

وفي أيام جملائيل حفيد هليل أصبح هذا رئيساً أو حدا للسنهدرين بدل أن يكون هناك رئيسان وهو الذي تعلم على يديه بولس الرسول. وقد أعطي لقب «ربون» كما سمي المشروعون الذين أعادوا تفسير الشريعة «سوفريم» أي كتبة، وبعد خراب الهيكل عام (70 م.) سموا «تنائيم» أي معلمين.

الطوائف اليهودية:

مما تقدم نرى أنه كان هناك حزبان رئيسيان بين اليهود هما الصدوقيون (200ق.م. ــ 70م.) والفريسيون، وأول قائد بارز بين الفريسيين كان هليل (70 ق.م. ــ 10 م.) والفريسيون هم الفئة من اليهود التي بقيت حتى يومنا هذا، وهم أصحاب التلمود، وعليهم تقوم المجامع اليهودية.

وإلى جانب هذين الحزبين كانت طائفة «الاسينيين» أو «عسيم» (200 ق.م. ــ 100 م.) وهم أشبه بالرهبنة. وقد كانت آخر فئاقم تسكن مغاور قمران قرب البحر الميت وكان عددهم في أيام فيلو نحوا من (4000) شخص كلهم من الرجال.

كان الاسينيون متدينين أتقياء لا يتدخلون في الحياة العامة والسياسية. لم يتزوجوا وقاوموا الملكية الشخصية. وقد مارسوا الحياة النباتية والصلاة والمعمودية في مياه الأردن، وكانوا أثناء الصلاة يديرون وجوههم نحو الشمس وليس نحو الهيكل، ومنهم يوحنا المعمدان. وقد وجدت كتاباقم في خرائب قمران وكهوفها ابتداء من عام (1947) وقد عرفت باسم «لفائف البحر الميت»، وقد كتبت على الجلد وورق البردى كما كتب بعضها على النحاس. وقد اندثرت هذه الفرقة اليهودية على ما يرجح بأن تبع قسم منها النصرانية، وعرف أتباع هذا القسم باسم الابيونيين «ابيونيم» أي الفقراء، وقد تمسكوا بالعهد القديم وبانجيل متى الذي أعيد النظر فيه باسم انجيل الأبيونيين وإنجيل النصارى في «الابوكريفا». أما القسم الآخر الذي لم يتبع النصرانية وقد حافظ على المعمودية وهي فئة «الصابئة» أو «ناصوروي د يحيى».

وهناك طائفة أخرى وهي طائفة الغيورين «قنائيم» وهم حزب سياسي أرهابي مقاوم للاحتلال الروماني. ارتكب الاغتيالات السياسية ضد الرومان الذين يدخلون حرم الهيكل «فيدنسونه» وضد اليهود الذين يتعاونون مع الرومان. وقد لعب أتباع هذا الحزب دوراً كبيراً عام (66 م.) في الدفاع عن أورشليم ضد الحصار الروماني وفي حصار مسده، كان منهم «سمعان الغيور» أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر.

لقد اندثرت جميع هذه الطوائف مع الزمن، فدخل معظمها النصرانية إلا قسم من الفريسيين. والذين دخلوا المسيحية عرفوا باسم «نصارى» نسبة إلى يسوع الناصري، وقد حافظوا على التوراة وإنجيل متى، واعتبروا بولس الرسول مرتدا. أما يهود اليوم فهم امتداد لحزب الفريسيين، يؤمنون بالتوراة وبالتلمود البابلي. فما هو التلمود؟

التلمود: (التعليم):

هو الكتاب المقدس الثاني بعد التوراة لدى اليهود وقد اعتبر كذلك منذ جمعه حتى نهاية القرن (18 م.) وظهور الحركة الاصلاحية بين اليهود. ويتألف التلمود من قسمين هامين:

1 ــ المشنا (الاعادة أو التثنية): وهي أول لائحة قانونية وضعها اليهود لأنفسهم بعد التوراة، وقد وضعها الحكماء في فلسطين منذ ما قبل تدمير الهيكل الثاني عام (70 م.) وحتى ما بعد خرابه بقرن ونصف، وتم جمع كل النصوص ونسقها «يهوذا هاناسي» بين(190 ــ 200 م.) وهي خلاصة القانون الشفوي الذي تناقله الحاخامات منذ ظهور الحركة الفريسية.

2 ــ جمارا (التكملة أو التتمة): وهي التعليق على المشنا وتفسيرها، وهي من عمل الحكماء المتأخرين (امورائيم). وهناك نسختان مختلفتان من الجمارا:

آ ــ جمارا أورشليم (أو فلسطين) وهي سجل المناقشات التي أجراها حاخامات فلسطين وخاصة علماء مدرسة طبريا لشرح أصول المشنا. ويرجع تاريخ جمعها إلى عام (400 م.).

ب ــ جمارا بابل وهي سجل مماثل للمناقشات حول تعاليم المشنا دونها علماء بابل اليهود وانتهوا منها نحو عام (500 م.).

والمشنا مع جمارا أورشليم هو التلمود الفلسطيني «تلمود يروشلمي». والمشنا مع جمارا بابل هو التلمود البابلي «تلمود بابلي».

وقد أضيفت في زمن متأخر أحكام جديدة إلى التلمود هي الـ «بارايتوت» والـ «توسفتا» ويحتوي التلمود علىشرائع ودين وتاريخ وأخلاق وتصورات ميتافيزيقية وخرافات وشتائم وطب وفلك وتقاليد. وهو هام لفهم المسيحية لأن واضعيه عاصروا المسيح وهاجموه وهاجموا الدين المسيحي والرسل. كما أثر التلمود في إفساد أجيال اليهود وأثر في الأديان اللاحقة.

كتب التلمودان باللغة الآرامية، تلمود يروشلمي باللهجة الغربية وتلمود بابل باللهجة الشرقية.

وقد طبع التلمود لأول مرة في البندقية (1522 و 1523) وظهرت الطبعة الثانية في كراكوف (بولونيا) بين (1602 ــ 1603) وتبعها طبعات أخرى. وأكثر الطبعات أمانة هي طبعة البندقية (1523) التي اضطرت الكنيسة لتطهيرها، لأن الطبعات الجديدة تخلو من كثير من العبارات والفصول بسبب الإهمال المتعمد والتزييف المتعمد لكثرة ما كانت تحويه من أحقاد وشتائم للمسيحية، مما أدى يومها إلى مهاجمة اليهود وإحراق التلمود عدة

مرات في القرون الوسطى. وبسبب كثرة إتلاف نسخ التلمود لم يبق في العالم أجمع أكثر من خمس نسخ أصلية أحداها في مصر إلا أنها لم تنشر.

انتشر التلمود ودراسته في العهود الاسلامية. وقد أمر الخليفة الحكم الثاني (961 ـ 976) في قرطبة الحاخام يوسف بن موسى بنقل التلمود إلى العربية فترجمه. وقد تمتع اليهود بتسامح كبير في بغداد والأندلس وكثيراً ما أسندت إليهم مناصب هامة حتى أنهم وجهوا الحكم في بعض الأحيان وقد اضطهد بعض الخلفاء المسيحيين بإيحاء من اليهود، كما حكموا مصر من وراء ظهر الخلفاء الفاطميين، مثلما لعبوا من قبل دورهم في الاضطهادات الرومانية ضد المسيحيين. وكان لموسى بن ميمون اليهودي وطبيب صلاح الدين اليد الطولى في فتح باب فلسطين لليهود مرة أخرى. وبتعبير آخر أن السياسة والنفوذ اليهودي قد جعلا من بعض الخلفاء (مسلمين تلموديين) لا قرآنيين في معاملة رعاياهم المسيحيين مما تسبب في عدة اضطهادات طفت على التقارب الأصلي بين الدينين المسيحي والمحمدي وتركت ذكريات سيئة فيما بعد. كانت هذه الذكريات نتيجة النفوذ الفريسي في الخلافة بما فيه الخلافة الاسلامية في الأندلس.

الترجوم:

هو التراجم القديمة لأسفار العهد القديم إلى الآرامية بعد أن أصبحت هي اللغة السائدة عند عدد كبير من اليهود بدل الكنعانية القديمة أي العبرية. وقد تمت الترجمة الارامية كي تصبح هذه الأسفار مفهومة لدى عامة الشعب الذي اصبح لا يفهم العبرية في العهد القديم ما قبل القرن الثاني قبل الميلاد، في الوقت الذي تمت فيه ترجمة هذه الأسفار إلى اللغة اليونانية في مصر باسم الترجمة السبعينية حيث كانت اليونانية عامة بين يهود مصر نحو (200 ق.م.). وهكذا كتبت المشنا بالآرامية. وكان على «المترجمان» أو المترجم أن يقرب المعنى قدر المستطاع إن لم يكن حرفياً كما كان في الترجمات الأولى. كان الحكماء الذين هم حجة في الناموس هم المرجع. وأخيراً تمت الترجمات واعترف بصحتها رسمياً قبل القرن الخامس للميلاد.

وهناك عدة «ترجوميم» (ترجمات) للأسفار الخمسة. منها «ترجوم انكيلوس» (القرن 5 م). باللجهة الآرامية المستعملة في يهوذا، والترجمة صحيحة ودقيقة عن النص العبري مع تفاسير للنصوص. «وترجوم يروشلمي» وهو نص غير كامل للأسفار الخمسة. وترجوم يونثان بن عزئيل وترجوم الأنبياء وترجوم الكتابات المقدسة.

المدراش: (البحث)

هو التعليم الشفهي للتوراة أي البحث والتعمق والتفسير لشرائع التوراة بكثير من التصرف. وبوجه عام أن هذا التعمق والبحث على نوعين، «مدراش هالاخا» وهو المتعلق بالنصوص التشريعية و «مدراش هاجادا» وهو دفاع وليس تشريعا. وقد تناقلهما العلماء اليهود شفهياً من جيل إلى جيل إلى أن جرى تدوينهما حوالي القرن (6 م). هذا التوسع مع كثير من التصرف في النصوص التوراتية أصبح بعد التدوين جزءاً من التراث اليهودي.

إلى جانب الحقائق والخيال في المدراش يوجد أجزاء نصف تاريخية ناتجة عن التوسع في واقع تاريخي والإضافة بحرية أثناء التفسير، ولأن لكل كلمة «سبعين شكلا» أي أنها

تفسر بأشكال مختلفة من جيل إلى جيل. والتصرف غالباً ما يكون عن طريق الاستدلال وليس مجرد اعتباط، فيكون النص التوراتي نواة للبحث يبنى حوله الكثير من الاجتهادات.

ومن أهم «المدراشيم»، مدراش كليلتا ومدراش هاجا دول وسفرا وسفري ومدراش ربا ومدراش تنحوما ومدراش بسيكتا ومدراش شوهرتوب ومدراش يلكوت.

يهود اليوم:

إن اليهود اليوم هم امتداد لحزب الفريسيين الذين يؤمنون بالتوراة وبالتلمود البابلي ويقسمون إلى ثلاث فئات رئيسية:

1 ـ الاشكنازيم: هم يهود الاتحاد السوفييتي وأوروبا والولايات المتحدة ويؤلفون نحو (12) مليون أي (85%) من يهود العالم، أصلهم من يهود الخزر الذين هودوا نحو (740 م.). سموا اشكنازيم نسبة للبلاد الجرمانية (اشكناز) وقد كونوا لأنفسهم لغة خاصة في القرن (9 م.) تسمى «بيديش» وهي شقيقة اللغة الألمانية. هذه الأكثرية المطلقة من يهود العالم والتي تعتمد عليها الحركة الصهيونية ليست سامية ولا عبرية لغويا ولا علاقة لها بفلسطين تاريخياً.

2 ـ السفارديم: يهود اسبانيا والبلقان وعددهم نحو (500) ألف، سموا سفارديم نسبة إلى إسبانيا (سفاراد) ولغتهم «لادينو» شقيقة اللغة الإسبانية.

3 ـ الشرقيون: هم سوريون وعرب وعراقيون ومصريون ومغاربة وجزائريون وإيرانيون وأفغان. ومنهم من يتصل باليهود الإسرائيليين القدماء وقد هجر معظمهم إلى إسرائيل. عددهم نحو مليون ونصف المليون يهودي أو أكثر.

4 ـ أقليات ضئيلة موزعة في باقي أقطار العالم منهم الفلاشا في أثيوبيا.

إن اليهود المعاصرين وغالبيتهم أوروبية وأميركية يستغلون الدعاية الدينية لأهداف سياسية وعنصرية، وهم متعلمون، ودعايتهم لا تعني أنهم متدينون، إلا أن التراث التوراتي التلمودي يلعب دوراً كبيراً في ترتيبتهم وخلفيتهم وسياستهم، هذا التأثير هام جداً لأن مقارنة التوراة والتلمود من جهة مع النصوص المشابهة في ميثولوجيا بابل وكنعان تبين بوضوح التقوقع والتشويه الذي ألحقه اليهود بالمفاهيم والمعتقدات والأخلاق فيها. وبصورة عامة يمكن القول أن الفكر الميتي في آرام الذي تعرف عليه اليهود وتبنوه قد أبعده هؤلاء اليهود أنفسهم عن مغزاه الديني والحضاري العميق، وجعلوا منه معتقدات قبلية ضيقة، وهذا واضح في صفات يهوه إذا ما قورنت بصفات الآلهة الأخرى. فقد كال يهوه لليهود الوعود وأوعز لهم بارتكاب المجازر والمآثم باسمه. وتدل علاقة اليهود الشرطية بيهوه عن مدى تدني مستواهم الديني والأخلاقي، ويتبين الكثير من ذلك من مقارنة بعض الأساطير والنصوص الواردة في التوراة والتلمود.

قايين وهابيل

«أغرت الحية حواء فأطعمت زوجها آدم من الشجرة التي في وسط الجنة وأكلت منها فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر. وقال الرب الاله هوذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفاً الخير والشر والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل ويحيا إلى الأبد. أخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل في الأرض التي أخذ منها.

فطرد الإنسان وأقام شرقي جنة عدن الكروبيم ولهيب سيف متقلب لحراسة طريق شجرة الحياة». ......(تكوين اصحاح3)

«وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين، وقالت اقتنيت رجلاً من عند الرب. ثم عادت فولدت أخاه هابيل. وكان هابيل راعياً للغنم وكان قايين عاملاً في الأرض. وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من اثمار الأرض قرباناً للرب، وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها. فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر، فاغتاظ قايين جداً وسقط وجهه.

فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك. إن أحسنت أفلا رفع. وإن لم تحسن فعند الباب خطية رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها. ولكم قايين هابيل أخاه. وحدث إذ كانا في الحقل أن قام قايين على هابيل أخيه وقتله. فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك؟ فقال لا أعلم، أحارس أنا لأخي؟ فقال ماذا فعلت؟ صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض. فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك. متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها. تائهاً وهارباً تكون في الأرض.

فقال قايين للرب «ذنبي أعظم من أن يحتمل. إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائهاً وهارباً في الأرض فيكون كل من وجدني يقتلني «فقال له الرب» لذلك كل من قتل قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه «وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده. فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن. وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك. وكان يبني مدينة فدعا اسم المدينة كاسم ابنه حنوك». ......(تكوين الاصحاح 4)

الألفاظ الهامة في قصة قايين وهابيل وشرحها:

1 ــ حواء ــ تعني «الحياة» وحسب سفر التكوين خلقها الله من ضلع آدم. فلماذا اختار القصّاص العبراني الضلع من دون سائر أعضاء الجسم لتخلق منه المرأة ويكون اسمها حواء أو «التي تحيي»؟

من قصيدة «دلمون» السومرية، ودلمون هي الجنة السومرية، مرض ضلع «انكي» وصارت تؤلمه قالت نينخرساج «يا أخي ما يؤلمك؟ أجاب أن ضلعي تؤلمني» فقالت لقد أولدت من أجلك الآلهة «نين ــ تي» وهكذا شفي ضلع انكي. وكلمة «تي» السومرية

تعني «الضلع» ونين ــ ني سيدة الضلع. ولكن نفس الكلمة «تي» تعني أيضاً «أحيا» أو يحي، لذلك فـ «سيدة الضلع» هي أيضا السيدة التي تحيي أو «حواء».

2 ــ آدم ــ تعني التراب «ادما» أو الأديم وحسب كل المعتقدات القديمة خلق البشر من التراب. وفي التوراة استعمل اسم آدم كاسم علم لأول إنسان بينما في ملحمة كيرت الكنعانية تعني الكلمة ذاتها الجنس البشري وليس رجلاً معيناً.

ايل يرد بظهرته	يرد ايل بظهوره
أب ادم ويقرب	ويقترب أبو البشر
يسأل كرت	ويسأل كرت
أت كرت ك يبكي	ما به كرت كي يبكي
يدمع نعمن غلم ايل	يدمع الجميل غلام ايل
ملك الرابة بقرش	هل يطلب ملك أبيه الثور
أم دركت	أم منزلة
كاب آدم	مثل أبي البشر

3 ــ جنة عدن ــ حديقة التمتع ــ كلمة جنة آرامية الأصل «جنتو» وتعني جنينة أو حديقة، وعدن آرامية أيضاً من فعل «عادن» أي تمتع، ومن معنى الكلمة نرى أنها اصطلاح رمزي ولا يعني موقعاً جغرافياً بالذات. بينما السومريون جعلوا «دلمون» أي البحرين جنة أرضية وصف فيها كمال البدء، حيث لا مرض ولا ألم ولا شيخوخة. والكنعانيون اصطلحوا على أن حقول ايل هي الجنة وليس لها مكان واضح فترجمها الأغريق (Campi elysae) ويطلق هذا الاسم على حي وعلى شارع في العاصمة الفرنسية حيث يقع أيضاً قصر الاليزيه ــ قصر الرئاسة Champs Elysees.

5 ــ وقال الرب هوذا الإنسان قد صار كواحد منا (تك 3 : 22) وصيغة الجمع «كواحد منا» تبين أن العبرانيين لم يبدأوا بالتوحيد لأن هذه الجملة تبين تعدد الآلهة أي صار كواحد من الآلهة.

6 ــ شجرة الحياة ــ حسب سفر التكوين 3 : 22 من يأكل منها يحيى إلى الأبد. بينما في ملحمة جلجامس وصف لحديقة الآلهة وفي وسطها تنتصب «شجرة الآلهة المقدسة» أنها «شجرة الحياة» تغطيها الفواكه تفوح منها العطور الخ. أغصانها من اللازورد المغشى بالذهب. وفي نهاية البستان بيت الحورية سيدوري صبيتو، إلا أن شجرة الحياة هذه لم تكن وسيلة للحصول على الحياة الأبدية والخلود بل أن جلجامش رآها ووصفها وتعداها باحثاً عن عشبة أخرى وجدها في قاع البحر تجدد الشباب وتسبب الخلود لكن الحية سرقتها وبقي الإنسان مائتا وهي «حية». وهنا أيضاً فكرة العداء بين الإنسان والحية كما في سفر التكوين.

7 ــ قايين ــ تعني صانع أو «صائغ» اي الذي يعمل بالمعادن. وقد ورد اسم «هاين» إسما للصائغ الذي عمل في بيت عليان بعل.

هاين صعد إلى الكور	والملاقط في يد خسيس

ليذيب الفضة ويصهر الذهب
ويصب التبر ويصنع الأواني من الفضة المرصعة بالذهب
وقد سماه القرآن قابيل.

8 ــ اقتنيت رجلاً ــ أي صار لي ابن رجل. والآن تستعمل كلمة الاقتناء للأشياء والحيوانات التي تملكها. لكن الاصطلاح بهذا الشكل ورد في ملحمة كرت، «بنم أقني» أي اقتني ابناء.

9 ــ فيكون من وجدني يقتلني ــ يفترض حسب سفر التكوين أنه كان في البدء أربعة أشخاص هم آدم وحواء وقايين وهابيل وقام قايين وقتل هابيل. فمن هم أولئك الناس الذين يخاف قايين أن يقتلوه، ثم يضع له الله علامة لكي لا يقتله من يجده، ومن قتله فسبعة أضعاف ينتقم منه ــ (وهذا يذكرنا بالرقم المقدس سبعة) إذن كان هناك أناس آخرون ولم يقتصر الجنس البشري على آدم وحواء وقايين بعد مقتل هابيل.

10 ــ وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك ــ هنا أيضاً من أين جاءت تلك المرأة التي أصبحت زوجة لقايين ولم يذكر سفر التكوين بنات لآدم.

جوهر القصة:

إنها ترمز إلى الصراع بين الراعي والفلاح في فجر التاريخ، ودخول الرعاة الرحل إلى حقول الفلاحين ثم الاقتتال فيما بينهم. وهنا هابيل يمثل الراعي وقايين يمثل الفلاح «فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر» إلى قربان هابيل الراعي ولكن إلى قربان قايين الفلاح فلم ينظر وبذلك فضل الراعي. وقد رأينا في الأساطير السومرية مشاكل الراعي والفلاح في قصة تموز الراعي مع الفلاح انكيمدو وتفضيل الاله «اوتو» الراعي تموز ليكون زوجا لأخته عشتار وليس الفلاح. كذلك حوار «لهار» اله الماشية و«اشنان» اله الغلة. وايميش وانتين، لكن السوية الخلقية السومرية كانت أسمى من الموسوية.

في الحالات الأربع يقع الخلاف بين الراعي والفلاح ولكن نجد الله يسبب إثارة الحسد والخلاف في القصة العبرانية ــ فنظر الرب إلى هابيل وقربانه ولكن إلى قايين وقربانه فلم ينظر. فاغتاظ قايين وسقط وجه ــ بينما في القصص السومرية يكون الاله وسيط صلح وانهاء للخصومة ولا تنتهي القصة بأن يقتل الأخ أخاه كما فعل القصاص العبراني. فأنكيمدو

صورة: آدم وحواء ينوحان على هابيل

الفلاح يدعو تموز الراعي ليرعى في حقوله وتموز يدعوه ليكون بين الأصدقاء في حفل عرسه. وخلاف لهار واشنان كان سببه السكر، أما ايميش وانتين..

«فكانت كلمة انليل الممجدة

ذات المغزى العميق

وقبل القضاء الذي لا يبدل

فمن ذا الذي يغيره

فركع ايميش ازاء انتين

وسكبا معا القربان المقدس

بأخوة وصداقة

وتعاهدا أن يعملا معا

بحكمة وطيب

فسبحانك أيها الأب انليل.»

قصة الطوفان

«وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، إن ابناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات فاتخذوا لانفسهم نساء من كل ما اختاروا. فقال الرب لايدين روحي في الإنسان إلى الأبد لزيغانه. هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة.

كان في الأرض طغاة في تلك الأيام وبعد ذلك أيضاً دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولادا. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم. ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وإن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الانسان في الأرض وتأسف في قلبه. فقال الرب أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء لأني حزنت أني عملتهم. وأما نوح فوجد نعمة في عيني الرب.

هذه مواليد نوح — كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله. وسار نوح مع الله وولد نوح ثلاثة بنين، ساما وحاما ويافث. وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلما. ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت. أذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض.

«فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم فها أنا مهلكهم مع الأرض. اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر. تجعل الفلك مساكن وتطليه من داخل ومن خارج بالقار وهكذا تصنعه ثلاث مئة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعا ارتفاعه. وتصنع كواً للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله. فها أنا آتٍ بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت ولكن أقيم عهدي معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين. من كل تدخل إلى الفلك الاستبقائها معك تكون ذكراً وأنثى. من الطيور كأجناسها ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها اثنتين من كل تدخل إليك لاستبقائها وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك. ويكون لك ولها طعاماً. فعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكذا فعل».

......(تكوين اصحاح6)

«وقال الرب لنوح ادخل أنت وجميع بيتك إلى الفلك لأني إياك رأيت باراً لدي في هذا الجيل. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وأنثى. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكرا وأنثى. ومن طيور السماء أيضا سبعة سبعة ذكرا وأنثى. لاستبقاء نسل على وجه الأرض لأني بعد سبعة أيام أمطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته. ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب.

ولما كان نوح ابن ست مئة سنة صار طوفان الماء على الأرض. فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. ومن البهائم الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض. دخل اثنتان اثنتان إلى نوح إلى الفلك ذكراً وأنثى كما أمر الله نوحاً.

وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض من سنة ست مئة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء وكان المطر على الأرض أربعين يوماً وأربعين ليلة.» .....(تكوين اصحاح 7:1-12)

«وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض وتعاظمت المياه وتكاثرت جداً على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه كثيراً جداً على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. خمس عشرة ذراعاً في الارتفاع تعاظمت المياه. فتغطت الجبال فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض. وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط. وتعاظمت المياه على الأرض مئة وخمسين يوماً.» .....(تكوين 7:17-24)

ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك. وأجاز الله ريحاً على الأرض فهدأت المياه، وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء، ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً. وبعد مئة وخمسين يوماً نقصت المياه واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال ارارات.

وكانت المياه تنقص نقصاً متوالياً إلى الشهر العاشر. وفي العاشر من أول الشهرظهرت رؤوس الجبال. وحَدَثَ من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها وأرسل الغراب. فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض. فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك لأن مياها كانت على وجه كل الأرض. فمد يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك. فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك. فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها. فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. فلبث أيضاً أيام أخر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً.

وكان في السنة الواحدة والست مئة في الشهر الأول في أول الشهر أن المياه نشفت عن الأرض. فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف.

وكلم الله نوحاً قائلاً اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك. وكل الحيوانات التي معك. ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض «فخرج الجميع».

«وبنى نوح مذبحاً للرب وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح. فتنسم الرب رائحة الرضى وقال الرب في قلبه لا أعود

العن الأرض أيضاً من أجل الانسان لأن تصور قلب الانسان شرير منذ حداثته. ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت. مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا تزال». ......(تكوين الاصحاح 8)

شرح القصة:

1 ـ الجبابرة: أو «نفيليم» هو الاسم الذي أطلقته التوارة على أشخاص أسطوريين قالت أنهم ولدوا من تزاوج بني الله مع بنات الناس. وقد سمى العبرانيون جبابرة موءاب وعمون الرفائيين «رفائيم»، منهم عوج ملك باشان الذي قالت عنه التوارة «آخرُ من تبقى من الرفائيين» وفي قصة دانيل تنعته الأسطورة بـ «الرفائي»، كما سميَ جبابرة الكنعانيين في فلسطين أيضاً عناقيين «عناقيم».

وفكرة توالد بني الله مع بنات الناس في التوارة ليست جديدة بل أن سنكن يتن الكاهن البيروتي ذكر حسب الديانة الكعنانية أن الالهة ولدوا جبابرة من بنات الناس وأعطوا أسماءهم للمناطق التي سكنها هؤلاء الجبابرة ومنها قاسيون ولبنون وحرمون.

2 ـ نوح: العاشر بين الآباء وبطل الطوفان التوراتي، يعادل «زيوسودرا» السومري «أوتنابشتيم» البابلي. وآباء وملوك ماقبل الطوفان العشرة حسب النصوص التوراتية والسومرية البابلية قد عاشوا عدداً خيالياً من السنين رغم كون السنة القديمة ستة أشهر. وقد عاش نوح (950) سنة ومات. (تكوين 29:9).

ومن قصة الطوفان في التوراة نرى أن شكلها النهائي قد جاءنا من مصدرين، يهوهي وكهنوتي، والاثنان يعتمدان إلى حد بعيد على الأصل البابلي وخاصة النص الكهنوتي.

في النص السومري يقرر انليل تدمير البشرية عن طريق الطوفان بينما يذكر النص البابلي الالهة والنص اليهوهي يذكر يهوه والكهنوتي الايلوهيم كمسبب للطوفان.

زيوسودرا رجل صالح بينما في النص اليهوهي نوح يجد نعمة لدى يهوه والنص الكهنوتي يصف نوحاً بأنه كان صالحاً.

انكي يحذر زيوسودرا وايا يحذر اوتنابشتيم وايلوهيم يحذر نوح.

فلك زيوسودرا ضخم أما فلك اوتنابشتيم فمكعب بقياس (120×120×120) وفلك نوح بالنص الكهنوتي (300×50×30) ذراعاً.

أوتنابشتيم يدخل كل أنواع الحيوان وفي النص اليهوهي يدخل نوح سبعة سبعة من الحيوان الطاهر واثنين اثنين من غير الطاهر وفي النص الكهنوتي يدخل اثنين ذكر وأنثى من كل نوع من الحيوان.

في النص البابلي طوفان من المطر والعاصفة وفي النص اليهوهي من المطر وفي النص الكهنوتي ينابيع الغمر وطاقات السماء.

الطوفان السومري يدوم سبعة أيام والبابلي ستة أيام واليهوهي أربعين يوماً ويتراجع في ثلاث مراحل كل واحدة منها سبعة أيام وفي النص الكهنوتي يدوم الطوفان (150) يوماً ويتراجع في (150) يوماً.

يقف الفلك البابلي على جبل نصير والكهنوتي على جبل ارارات.

يرسل أوتنابشتيم حمامة وسنونو وغراباً لم يعد ويرسل نـــوح بـــالنص اليهـــوهي غرابـــاً لم يعد ثم حمامة ثلاث مرات.

بعد الطوفان يقدم زيوسودرا ذبيحة لاله الشـــمس في الفلـــك بينمـــا أوتنابشـــتيم يقـــدم ذبيحة على جبل نصير ونوح اليهوهي على المذبح فتتجمـــع الاهـــة كالـــذباب علـــى ذبيحـــة أوتنابشتيم ويهوه تنسم رائحة الرضى من ذبيحة نوح.

منح زيوسودرا الحياة الأبدية كـــذلك أوتنابشـــتيم وزوجتـــه مـــع الالوهيـــة وفي الـــنص اليهوهي يقرر يهوه أن لا يلعن الأرض مرة أخرى من أجـــل الانســـان وفي الـــنص الكهنـــوتي يصنع الله عهداً مع نوح أن لا يرسل طوفاناً آخر يدمر الأرض.

وعقد عشتار من اللازورد تذكير كي لا يعاد الطوفـــان بينمـــا الله يعطـــي قـــوس القـــزح علامة في النص الكهنوتي للتذكير.

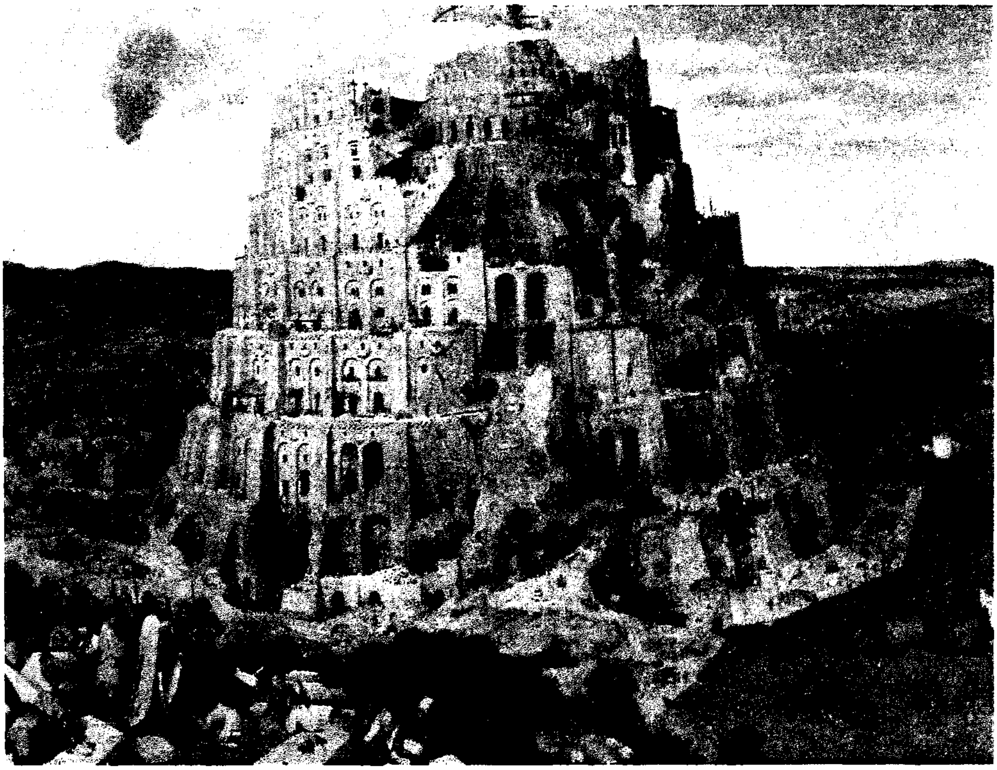

صورة ــ الهدام برج بابل (معبد أسس السماء والأرض)

برج بابل

«وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساما وحاما ويافث. وحام هو أبو كنعان. هؤلاء هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض. وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال «ملعون كنعان عبد العبيد يكون لأخوته» وقال، مبارك الرب اله سام وليكن كنعان عبداً لهم. ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبداً لهم. وعاش نوح بعد الطوفان ثلاث مئة وخمسين سنة فكانت كل أيام نوح تسع مئة وخمسين سنة ومات».

........(تكوين 9:18-29)

وهذه مواليد بني نوح سام وحام ويافث وولد لهم بنون بعد الطوفان (تعداد ولاداتهم) هؤلاء بني نوح حسب مواليدهم بأممهم ومن هؤلاء تفرقت الأمم في الأرض بعد الطوفان. ....(تكوين 1:10و32)

«وكانت الأرض كلها لساناً واحداً ولغة واحدة. وحدث في ارتحالهم شرقاً أنهم وجدوا بقعة في أرض شنعار وسكنوا هناك. وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لبناً ونشويه شيا. فكان لهم اللبن مكان الحجر وكان لهم الحمر مكان الطين. وقالوا هلم نبني لأنفسنا مدينة وبرجاً رأسه بالسماء. ونضع لأنفسنا اسماً لئلا نتبدد على وجه الأرض. فنزل الرب لينظر المدينة والبرج الذين كان بنو آدم يبنونها. وقال الرب «هوذا شعب واحد ولسان واحد يجمعهم. وهذا ابتداؤهم بالعمل. ولأن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه، هلم نترل ونبلبل لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض. فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض فكفوا عن بنيان المدينة. لذلك دعي اسمها بابل لأن الرب هنا بلبل لسان كل الأرض. ومن هناك بددهم الرب على وجه كل الأرض. ......(تكوين 11:1-9)

شرح القصة:

هذه الاصحاحات الثلاثة (9و10و11) من سفر التكوين هي أسطورة من ميتوس الأصول فهي تعدد أبناء نوح ومواليدهم الذين كانوا لساناً واحداً وشعبا واحدا، فحاولوا بناء برج في سهل شنعار يصل رأسه إلى السماء. فنزل الرب وبليل ألسنتهم كي لا يفهم بعضهم البعض الآخر. وتفرقوا وخرجت منهم الأمم المحيطة باسرائيل. كما يتابع تسلسل ذرية سام حتى يصل إلى ابرام الجد المزعوم للعبرانيين، سام ــ ارفكشاد ــ شالح ــ عابر ــ فالج ــ رعو ــ سروج ــ ناحور ــ تارح ــ ابرام ــ اسحق ــ يعقوب «اسرائيل». ويعلل سبب تعدد اللغات وتفريق الأمم أنه كي يضعف الله البشر.

إلا أن هذه القصة مليئة بالمغالطات التاريخية، ومنها ما هو مقصود تضليلاً للناس وتعبيراً عن حقد اليهود على البابليين والكنعانيين بعد أن اصطدموا بهم، وقد كتبت التوراة بعد ذلك.

«يا بنت بابل المخربة،
طوبى لمن يجازيك جزاءك
الذي جازيتنا.
طوبى لمن يمسك أطفالك
ويسحقهم على الصخر». ......(مزمور 137: 8و9)

1 ــ في قصة نوح وسكره حام الذي رأى عورة أبيه يلعن نوح بعد اليقظة كنعان ابن حام «ملعون كنعان عبد العبيد يكون لاخوته» وهذه مغالطة مقصودة لأن كنعان ليس ابن حام، والأكيد تاريخياً أن الكنعانيين هم من الساميين. كما أن حام هو الذي رأى عورة أبيه لكن الملعون هو الابن المزعوم لحام أي كنعان. فلم هذه المغالطة؟ إن القصة هي تركيبة من مصادر يهوهية وكهنوتية، وعلى الحالين فقد ركبت النصوص بعد وجود العبرانيين في أرض كنعان واحتلالهم جزءاً من الأرض، وارتكاب الفظائع ضد السكان الأصليين كما ورد في سفر يشوع. فكان أن وضعوا تبريراً لاهوتياً دينياً لتلك الفظائع لأن «الله لعن كنعان وجعله عبد العبيد لأخوته».

2 ــ واسم بابل لا يشتق من البلبلة أو بلبلة الألسن كما في الرواية بل إنها «باب ــ ايلي» أي «باب الله» وهذه التسمية أقدم من برج بابل تاريخياً وأقدم من التوارة أيضاً. لأن بابل كانت عاصمة حمورابي في القرن (18ق.م) وحسب الأسطورة البابلية فقد بنيت مسكناً لمردوخ.

«تعالوا نبني له مسكنا
تعالوا نبني له هيكلا
فرح مردوخ، أشرق وجهه
ليكن اسمها «بابل»
قال مردوخ لتكن مسكنا للثالوث
مردوخ وانليل وايا»

3 ــ وأما فكرة السلام مع الوحدة والألفة بين الشعوب واللسان الواردة فقد وردت في نص سومري عن كمال البدء، والألسن تعني اللغات.

«في غابر الزمان كانت بلاد «شوبور» و«همازي»
وبلاد سومر الكثيرة الألسن
البلد العظيم ذو النواميس المقدسة الخاصة بالامارة
وبلاد «اورى» البلاد التي احتوت كل ما هو لائق
وبلاد «مادتو» (سوريا) كانت آمنة مطمئنة.

وجميع الكون والناس في وحدة وألفة
حيث كان الجميع يمجدون الله (انليل) بلسان واحد»

4 ـ قصة برج بابل تاريخياً: كان سكان ما بين النهرين يبنون معابدهم الكبرى على شكل أبراج متعددة الطوابق عرفت ـ «الزيقورات» بين (2200–500ق.م) وبرج بابل هو زيقورة من سبع طبقات اسمها «اي ـ تمن ـ آن ـ كي» أي «معبد أسس السماء والأرض» وجدت مع مدينة بابل، القرن (18 ق.م) وقد خربها سنحاريب ملك آشور (705–681 ق.م) ثم أعاد بناءها نبوبو لاصر الكلداني (625–605 ق.م) وأتمها نبوخذ نصر (605–562 ق.م) الذي دمر أورشليم وسبى اليهود عام 586 ق.م).

ثم دمر الزرادشتيون المتعصبون الزيقورة بعد الاحتلال الفارسي عام (539 ق.م) وبعد ذلك عام (516 ق.م) سمح لليهود بالعودة إلى فلسطين بينهم الكهنة الذين اشتركوا في وضع النصوص النهائية للتوارة ومنها قصة برج بابل.

ولما دخل الاسكندر المقدوني بابل وجد البرج خربة، فحاول ترميمه، ولا تزال آثاره قائمة حتى يومنا هذا.

يرجح أن البرج الأول بني في أيام حمورابي في القرن (18 ق.م) ولما أعاد نبوبولاصر البناء خلده بهذه الكلمات «عندما أمرني مردوخ أن أبني برج بابل، الذي قد أضعفه الزمن وتساقط من التهديم أمرني أن أؤسس قاعدته راسخة على صدر العالم السفلي بينما ذراه تشمخ مرتفعة نحو السماء»، ثم كتب ابنه نبوخذ نصر «كي أرفع قمة اي ـ تمن ـ آن ـ كي حتى تناطح السماء، مددت يدي».

كان طول كل جانب من القاعدة (88) متراً وعلوه الكامل (88) متراً يشتمل على سبع طبقات متناقصة في الارتفاع. الطبقة الأولى (32) متراً والثانية (17) متراً ثم الطابق الثالث والرابع والخامس والسادس وكل منها (6) أمتار ثم معبد مردوخ فوقها جميعا وعلوه (15) متراً. (32+17+6+6+6+6+15=88). وكان يضم أهم آلهة البانثيون البابلي. وقد زينت الجدران صفائح الذهب والقرميد المدهون باللون الأزرق السماوي الذي يلمع من بعيد تحت وهج الشمس.

وكل مدينة بابلية لها زيقورتها، وأعظم تلك الزيقورات كان برج بابل الذي كلف بناؤه (58) مليون قرميدة وأطل على مساحات شاسعة من الأرض. ويقدر هيرودوتس وزن تمثال مردوخ في الطابق السفلي ـ (26) طناً من الذهب، وقد رآه نحو (458 ق.م) أي بعد (150) عاما من اتمام البناء ومقام مردوخ في الطابق العلوي لم يكن يضم تمثالاً له بل كان فيه اريكة فخمة وطاولة وأجمل امرأة، لقد تصوروا أن ذلك البرج الأزرق في الأعلى كان مسكناً حقيقياً لمردوخ، ولا يدخله أحد من البشر الفانين سوى تلك المرأة تبقى هناك لتلبي رغباته. وكان لكهنته أكبر النفوذ فهم الذين كانوا يتوجون ملوك بابل. وكانت مسيرات الأعياد تطوف حول البرج كما كان يؤمه الحجاج من كل مكان وهكذا لم ير القصاص العبراني في عظمة هذا البرج إلا غطرسة الانسان واعتداده بنفسه حتى ظن أنه ببنائه الشامخ يمكن أن يطال السماء.

سدوم وعمورة

«فصعد ابرام من مصر هو وامرأته وكل ما كان لـه ولـوط معـه إلى الجنـوب. وكـان ابرام غنياً جداً في المواشي والفضة والذهب. ولوط أيضاً السائر مـع ابـرام كـان لـه غـنم وبقر وخيام. ولم تحملهما الأرض أن يسكنا معاً إذ كانت أملاكهما كثيرة فلم يقدرا أن يسكنا معاً. فحدثت مخاصمة بين رعاة مواشي ابرام ورعاة مواشي لـوط وكـان الكنعانيون والفرزيون حينئذ ساكنين في الأرض. فقال ابرام للوط لا تكن مخاصمة بيني وبينك وبين رعاتي ورعاتك لأننا نحن اخوان. أليس كل الأرض أمامك؟ اعتزل عني، إن ذهبت شمالاً فأنا يميناً وإن يميناً فأنا شمالاً. فرفع لـوط عينيه ورأى كـل دائرة الأردن أن جميعها سقي قبلما ضرب الرب سدوم وعمورة كجنة الرب، كأرض مصر، حينما تجيء إلى صوغر. فاختار لوط لنفسه كل دائرة الأردن وارتحل لوط شرقاً واعتزل الواحد عن الآخر. ابرام سكن في أرض كنعان، ولوط سكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم. وكـان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً». ....(تكوين 13:1-13)

«وخرج ملك سدوم وملك عمورة وملك ادمة وملك صبوييم وملك بالع التي هي صوغر ونظموا حرباً معهم في عمق السديم. مع كدر لعومر ملك عيلام، وتدعال ملك جوييم، وأمر ايل ملك شنعار، واريوك ملك الآسار. أربعة ملوك مـن خمسة. وعمق السديم كان فيه آبار كثيرة. فهرب ملكا سدوم وعمورة وسقطا هناك. والباقون هربوا إلى الجبل. فأخذوا جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم ومضوا. وأخذوا لوطاً ابن أخي ابرام وأملاكه ومضوا إذ كان ساكناً في سدوم. فأتى من نجا وأخبر «ابرام العبراني» وكان ساكناً عند بلوطات ممرا mamre الأموري أخي اشكول وأخي عاز. وكانوا أصحاب عهد مع ابرام، فلما سمع ابرام أن ابن أخيه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاث مئة وثمانية عشر وتبعهم إلى دان. وانقسم عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى حوبة التي عن شمال دمشق. واسترجع كل الأملاك واسترجع لوطاً أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب.

فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه من كسر كدرلعومر والملوك الذين معه إلى عمق شوى الذي هو عمق الملك. و«ملكي صادق» ملك شاليم أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي (ايل عليون) وباركه وقال مبارك ابرام من الله العلي مالك السموات والأرض. ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك. فأعطاه عشراً من كل شيء. ....(تكوين 14:8-20)

«وظهر له (لابرام) الرب عند بلوطات ممرا وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار: وقال الرب إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيئتهم قد عظمت جداً. أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخهم الآتي إلي وإلا فاعلم.

فتقدم ابراهيم وقال أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة، أفتهلك المكان وتصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا

الأمر، إن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم. حاشا لك، أديان كل الأرض ولا يصنع عدلاً فقال الرب إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم..إلخ» ....(تكوين 1:18 و26-20)

وجاء ملاكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم. فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض. وقال يا سيدي ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما، ثم تبكران وتذهبان في طريقكما. فقالا لا بل في الساحة نبيت. فألح عليهما جداً فمالا إليه ودخلا بيته. فصنع لهما ضيافة وخبز فطير فأكلا.

.........(تكوين 1:19-3)

وقال الرجلان للوط من لك أيضاً ههنا؟ أصهارك وبنيك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان. لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكه. فخرج لوط وكلم أصهاره الأخذين بناته وقال قوموا اخرجوا من هذا المكان. لأن الرب مهلك المدينة. فكان كمازح في أعين أصهاره. ولما طلع الفجر كان الملاكان يعجلان لوط قائلين قم خذ امرأتك وابنتيك الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة. ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة. وكان لما أخرجاهم إلى خارج أن قال اهرب بحياتك. لا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة ثم اهرب إلى الجبل لئلا تهلك. فقال لهما لوط لا ياسيد. هوذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت لي باستبقاء نفسي. وأنا لا أقدر أن اهرب إلى الجبل. لعل الشر يدركني فأموت. هوذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها وهي صغيرة. أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة فتحيا نفسي. فقال له إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها. أسرع اهرب إلى هناك لأني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء إلى هناك. لذلك دعي اسم المدينة «صوغر».

وإذ أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر. فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا وناراً من عند الرب من السماء. وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض. ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح. وبكر ابراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون.

وصعد لوط من صوغر وسكن الجبل وابنتاه معه، لأنه خاف أن يسكن في صوغر. فسكن في المغارة هو وابنتاه. وقالت البكر للصغيرة أبونا شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض. هلم نسقي أبانا خمراً ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة أني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً فادخلي واضطجعي معه. فنحيي من أبينا نسلاً. فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً وقامت الصغيرة واضطجعت معه. ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها. فحبلت ابنتا لوط من أبيهما فولدت البكر ابناً ودعت اسمه موءاب وهو أبو الموءابيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابناً ودعت اسمه بن عمي وهو أبو بني عمون إلى اليوم ....(تكوين 12:19-28 و 38-30)

1 ـ البحر الميت:

هو بحيرة مالحة طولها الأعظمي 75كم وعرضها 17كم ومساحتها 1020كم2. يصل عمقها في الشمال حتى 300 متراً وفي الجنوب حتى 3أمتار فقط. ومستواها 400 متراً تحت سطح البحر، هذا يجعل البحر الميت أخفض سطح مائي على الأرض يصب في البحر الميت نهر الأردن بمعدل (6550000) طناً من المياه سنوياً يضاف إليها (500000) طناً من ينابيع شتى.

يحده من الشمال غور الأردن ومن الشرق هضاب موءاب التي ترتفع حتى 900 متراً، ومن الغرب جبال اليهودية ومن الجنوب وادي عربة.

وفي البحر شبه جزيرة تدعى اللسان، طولها 10كم وتكاد تشطر البحر. وفي الجنوب أوحال لا يمكن عبورها ثم أراضي قاحلة ثم جبل سدوم (اسدوم) الذي يرتفع 250متراً فوق سطح البحر الميت وعلى 40كم إلى الشمال تقع «مسدة» الشهيرة. تبلغ نسبة الأملاح 25% أي خمسة أضعاف ما في مياه المحيط. فيها المغنيزيوم والصوديوم والكالسيوم والبوتاسيوم وسلفات الكلس وبروميد المغنزيوم فلا تعيش فيه الأحياء وله قوة مُعَمّومة كبيرة. كما تصب فيه ينابيع كبريتية وينضح الزفت من الأرض في الماء فتعوم قطع منه على سطح الماء. ومن أسماء البحر الميت، بحر الملح، بحر العربة، بحر سدوم، بحر صوغر وبحيرة لوط.

2 ـ مدن السهل الخمسة:

لم يبق أي أثر لمدن السهل الخمسة أو مدن دائرة الأردن وهي سدوم وعمورة وصبوييم وأدمة وصوغر. ويرجح معظم علماء الآثار أنها تقع في الجزء الجنوبي وقد غمرتها المياه. كما أن يوسيفوس المؤرخ يؤكد أن موقع مدينة صوغر هو في الطرف الجنوبي من البحر الميت.

ومن كثرة المواد الملتهبة كالاسفلت (البترول) والكبريت في طبقات الأرض والينابيع الكبريتية ومن وصف اللهيب والحرائق التي دمرت سدوم وعمورة يستدل على وقوع زلازل واشتعال المواد الملتهبة، وربما تسربت الغازات والمواد البترولية من الأرض فكانت الكارثة التي أودت بتلك المدن ودمرتها إلى الأبد. إن استعمال عبارة «قلب المدن» تدل على وقوع الزلازل.

3 ـ ملكي صادق:

ملك أورشليم الكنعاني وكاهن «ايل عليون» مالك السموات والأرض. بارك ابراهيم وقدم له ابرام العشر بعد كسره الملوك بقيادة كدر لعومر. كما رفع ابرام بعد ذلك يديه إلى ايل عليون مالك السموات والأرض. واعترف ابرام يتقدم ملكي صادق الكنعاني عليه دينا ودنيا، واعترافه بإله ايل عليون قصة فريدة من نوعها لأن الأدب العبري يتجنب الاعتراف بمقدسات الآخرين وبكهنتهم، فإننا نجد ما يشابه هذه القصة في التوراة، فاحترام أيوب الأدومي في سفر أيوب ليس من هذا المستوى. ثم نجد المزمور 110 يجعل ملكي صادق رمزاً لأعلى رتبة في الكهنوت فيقول «أقسم الرب ولن يندم، أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق». وأخيراً يشيد كاتب الرسالة إلى العبرانيين في الاصحاح 5و6و7 بملكي صادق كرمز لأعلى رتبة في الكهنوت ويصف الكهنوت

اللاوي بعدم الكمال وبمنزلة أدنى من كهنوت ملكي صادق، حتى أنه يجعل المسيح ذاته كاهناً إلى الأبد على رتبة ملكي صادق.

وأما تقدمة «الخبز والخمر» التي قدمها ملكي صادق فإنها نوع من «الافخارستيا»، هذه الافخارستيا التي هي في المسيحية أحد أسرار الكنيسة، ترمز إلى جسد ودم يسوع المسيح المصلوب، وتذكاراً للعشاء الأخير وللصلب.

4 ـ لوط:

هو ابن هاران بن تارح. خرج مع جده تارح وعمه ابرام من اور الكلدانيين إلى حران ثم إلى أرض كنعان. افترقا عند بيت ايل بسبب خصومة بين الرعاة فتوجه إلى الجنوب في غور الأردن الخصب وانتهى إلى سدوم ثم خرج منها ونجا من الحريق الكبير الذي دمرها، وذهب إلى صوغر ثم إلى أحد المغاور حيث سكر وضاجع ابنتيه فولدتا موءاب وبن عمي (عمون). وسكر لوط يذكرنا بسكر نوح بعد الطوفان. أما المضاجعة المحرمة فتذكرنا بقصة أدونيس وكيف حبلت به أمه «مرة» من أبيها «ميتاس» ملك سوريا. ولعل كتبة التوراة أرادوا اهانة الموءابيين والعمونيين جيرانهم فجعلوهم أبناء علاقة محرمة دنسة بين أب وابنتيه. وباعتبار لوط ابن أخ ابرام فيكون قد عاش في القرن (18ق.م).

5 ـ مؤاب:

اسم جبال وهضاب والمؤاب شرق البحر الميت والمؤابيون هم الشعب القديم الذي استوطن تلك الهضاب.

لم يبق لنا أدب مؤابي، إلا أن التنقيبات تدل على استيطان كثيف لهضاب مؤاب في العصر البرونزي في القرن (23–20) ق.م أي قبل لوط وذريته، وكانت توجد حضارة زراعية. ثم تحدث فجوة في تاريخ المنطقة تمتد ستة قرون تظهر بعدها حضارة المؤابيين في القرن (14ق.م) ونسب المؤابيين والعمونيين الأسطوري إلى لوط يدل على أن كتبة العهد القديم قد اعتقدوا بوجود قرابة تربطهم بهذين الشعبين، وقد فسرت تلك القرابة بأنها عن طريق لوط ابن أخ ابراهيم. (ميثولوجيا الأصول)

6 ـ العمونيون:

هم شعب سامي قديم استوطن شرقي الأردن شمال موءاب، وكانت مدينتهم الرئيسية «ربة ـ عمون» أي عمان. وقد تأسست مملكة العمونيين في القرن (13ق.م) وكانوا قبل ذلك من البدو الرحل. وقد دامت حضارتهم حتى القرن (6ق.م) وكانت تشبه حضارة موءاب وحضارة ادوم.

7 ـ العدالة:

أما فكرة العدالة بأن لا يهلك الصالحون بجرم الأشرار، ولا تهلك مدينة سدوم ولو كان فيها خمسون صالحاً أو حتى عشرة فإنها تخالف فكرة الوصية الثانية، «افتقد ذنوب الآباء في الأبناء في الجيل الثالث والرابع من مبغضي»، وتتفق مع رأي ايا وعشتار في قصيدة الطوفان «كيف بدون فكر تسبب الطوفان؟ الخاطىء أثقله بخطيئته والمجرم أثقله بجريمته».

ويبدو هنا وكأن ابراهيم يعطي النصائح لله ويعلمه كيف تكون العدالة.

عهود يهوه ومجازره

1 ــ «بعد هذه الأمور صار كلام الرب إلى ابرام في الرؤيا قائلاً: لا تخف يا ابرام أنا ترس لك وأجرك كثيراً جداً. فقال ابرام: أيها السيد الرب، ماذا تعطيني وأنا ماض عقيماً ومالك بيتي هو أليعازر الدمشقي. وقال ابرام أيضاً إنك لم تعطني نسلاً وهوذا ابن بيتي وارث لي. فإذا كلام الرب إليه قائلاً: لا يرثك هذا بل الذي يخرج من أحشائك هو يرثك. ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعدّ النجوم إن استطعت أن تعدها، وقال له: هكذا يكون نسلك. فآمن بالرب فحسب له براً. وقال إن الرب هو الذي أخرجك من اور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها». ....(تكوين 15:1-7)

2 ــ «فقال لابرام اعلم يقيناً أن نسلك سيكون غريباً في أرض ليست لهم ويستعبدون فيذلونهم أربع مئة سنة. ثم الأمة التي يستعبدون لها أنا أدينها. وبعد ذلك يخرجون بأملاك جزيلة». ....(تكوين 15:13-14)

3 ــ «وفي ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقاً قائلاً: لنسلك أعطي هذه الأرض» من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات». القينيين القنزيين والقدمونيين والحثيين والفرزيين والرفائيين والأموريين والكنعانيين والجرجاشيين واليبوسيين». ....(تكوين15:18-19)

4 ــ «فخرج يعقوب من بير السبع وذهب نحو حاران. وصادف مكاناً وبات هناك لأن الشمس كانت قد غابت. وأخذ من حجارة المكان ووضعه تحت رأسه فاضطجع في ذلك المكان. ورأى حلماً وإذا سلم منصوبة على الأرض ورأسها في السماء، وهوذا ملائكة الله صاعدة نازلة عليها. وهوذا الرب واقف عليها فقال: أنا الرب إله ابراهيم أبيك وإله اسحق. الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك، ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض». ....(تكوين 28:10-14)

5 ــ «وبكر يعقوب في الصباح وأخذ الحجر الذي وضعه تحت رأسه وأقامه عموداً وصب زيتاً على رأسه ودعا اسم ذلك المكان «بيت ايل»، ولكن اسم المدينة كان اولا لوز. ونذر يعقوب نذراً قائلاً: إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني خبزاً لآكل وثياباً لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبي يكون الرب لي إلهاً. وهذا الحجر الذي أقمته عموداً يكون بيت الله وكل ما تعطيني فإني أعشّره لك». ....(تكوين 28:18-22)

6 ــ فبقي يعقوب وحده وصارعه انسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال: أطلقني لأنه قد طلع الفجر. فقال: لا أطلقك إن لم تباركني. فقال له ما اسمك؟ فقال يعقوب، فقال لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل اسرائيل لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت. سأل يعقوب وقال أخبرني باسمك. فقال لا تسأل عن اسمي وباركه هناك. فدعا يعقوب اسم

المكان «فنيئيل« قائلاً لأني نظرت الله وجهاً لوجه ونجيت نفسي. وأشرقت له الشمس إذ عبر فنوئيل وهو يخمع على فخذه. لذلك لا يأكل بنو اسرائيل عرق النسا الذي على حق الفخذ إلى هذا اليوم، لأنه ضرب حق فخذ يعقوب على عرق النسا»
.......(تكوين 32:24-32)

7 ــ وحدث في تلك الأيام لما كبر موسى أنه خرج إلى اخوته لينظر في أثقالهم فرأى رجلاً مصرياً يضرب رجلاً عبرانياً من اخوته. فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أن ليس أحد، فقتل المصري وطمره في الرمل. ثم خرج في اليوم الثاني وإذا رجلان عبرانيان يتخاصمان. فقال للمذنب لماذا تضرب صاحبك، فقال: من جعلك رئيساً وقاضياً علينا؟ أمفتكر أنت بقتلي كما قتلت المصري؟ فخاف موسى وقال حقاً قد عرف الأمر. فسمع فرعون هذا الأمر فطلب أن يقتل موسى. فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض مديان وجلس عند البير. ....(خروج 2:11-15)

8 ــ «وقال الرب لموسى عندما تذهب لترجع إلى مصر انظر جميع العجائب التي جعلتها في يديك واصنعها قدام فرعون. ولكني أشدد قلبه حتى لا يطلق الشعب. فتقول لفرعون هكذا يقول الرب إسرائيل ابني البكر فقلت لك أطلق ابني ليعبدني فأبيت أن تطلقه. ها أنا أقتل ابنك البكر». ....(خروج 4 : 21 ــ 23)

9 ــ فحدث في نصف الليل أن الرب ضرب كل بكر في أرض مصر من بكر فرعون الجالس على كرسيه إلى بكر الأسير الذي في السجن وكل بكر بهيمه. فقام فرعون ليلاً هو وكل عبيده وجميع المصريين وكان صراخ عظيم في مصر لأنه لم يكن بيت ليس فيه ميت..... موسى وهرون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل جميعاً. اذهبوا اعبدوا الرب كما تكلمتم. خذوا غنمكم وبقركم كما تكلمتم واذهبوا وباركوني أيضاً. وألح المصريون على الشعب ليطلقوهم عاجلاً من الأرض لأنهم قالوا جميعنا أموات ــ فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر ومعاجنهم في ثيابهم على أكتافهم. وفعل بنو إسرائيل بحسب قول موسى طلبوا من المصريين أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثيابا. وأعطى الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى أعاروهم. فسلبوا المصريين». ...(خروج 23 : 23 ــ 24)

10 ــ «فان ملاكي يسير أمامك ويجيء بك إلى الأموريين والحثيين والفرزيين والكنعانيين والحويين واليبوسيين فأبيدهم. لا تسجد لالهتم ولا تعبدها ولا تعمل كأعمالهم، بل تبيدهم وتكسر أنصابهم». ....(خروج 23 : 23 ــ 24)

11 ــ «لا اطردهم من أمامك في سنة واحدة لئلا تصير الأرض خربة فتكثر عليك وحوش البرية. قليلاً قليلاً أطردهم من أمامك إلى أن تثمر وتملك الأرض». ....(خروج 23 : 29 ــ 30)

12 ــ «فقال الرب لموسى اذهب انزل، لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر. زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به. صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا: هذه الهتك يا اسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر. وقال الرب لموسى رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة. فالآن اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم فأصيّرك شعباً عظيماً.

فتضرع موسى أمام الرب الهه وقال: لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذي أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة. لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث ليقتلهم في الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض. ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر لشعبك. اذكر ابراهيم واسحق واسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم أكثر نسلكم كنجوم السماء وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت عنها فيمتلكونها إلى الأبد. فندم الرب على الشر الذي قال أنه يفعله بشعبه». .....(خروج 32 : 7 — 14)

13 — «وقال الرب لموسى اذهب واصعد من هنا أنت والشعب الذي أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لابراهيم واسحق ويعقوب قائلاً لنسلك أعطيها. وأنا أرسل أمامك ملاكا وأطرد الكنعانيين والأموريين والحثيين والفرزيين والحويين واليبوسيين. إلى أرض تفيض لبنا وعسلا. فإني لا أصعد في وسطك لأنك شعب صلب الرقبة لئلا أفنيك في الطريق». ....(خروج 33 : 1 — 3)

14 — «وأخذا موسى الخيمة ونصبها له في خارج المحلة بعيداً عن المحلة ودعاها خيمة الاجتماع فكان كل من يطلب الرب يخرج إلى خيمة الاجتماع التي خارج المحلة».

..........(خروج 33 : 7)

15 — «ولما كان بنو اسرائيل في البرية وجدوا رجلاً يحتطب حطباً يوم السبت. فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطباً إلى موسى وهرون وكل الجماعة. فوضعوه في المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به. فقال الرب لموسى: قتلا يقتل الرجل، يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة. فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى». ....(عدد 15 : 32 — 36)

16 — «واخذ قورح بن يعهار بن قهات بن لاوى، وداثان وابيرام أبناء الياب واون بن فالت بنو رأوبين يقاومون موسى مع أناس من بني إسرائيل مئتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوى اسم». ....(عدد 16 : 1 — 2)

17 — «فقال موسى بهذا تعلمون أن الرب قد أرسلني لأعمل كل هذه الأعمال وأنها ليست من نفسي. إن مات هؤلاء كموت كل إنسان وإصابتهم مصيبة كل إنسان فليس الرب قد أرسلني ولكن أن ابتدع الرب بدعة وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب. فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التي تحتهم. فتحت الأرض فاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال. فنزلوا هم وكل من كان لهم إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة. وكل اسرائيل الذين حولهم هربوا من خوفهم لأنهم قالوا لعل الأرض تبتلعنا. وخرجت نار من عند الرب أكلت المئتين والخمسين رجلا الذي قربوا البخور». ....(عدد 16 : 28 —35)

18 — «وقتل الرب بالوباء أيضاً (14700) عدا الذين ماتوا بسبب قورح». ....(عدد 16 : 49)

19 — «واذا رجل من بني إسرائيل جاء وقدم إلى أخوته المديانية أمام عيني موسى وأعين كل جماعة بني إسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع. فلما رأى ذلك

فينحاس بن اليعازر بن هرون الكاهن، قام من وسط الجماعة وأخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الاسرائيلي إلى القبة وطعن كليهما الرجل الاسرائيلي والمرأة في بطنها فامتنع الوباء عن بني إسرائيل. وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفا»....(عدد 25 : 6 ـ 9)

«ثم كلم الرب موسى قائلاً: ضايقوا المديانيين واضربوهم لأنهم ضايقوكم بمكايدهم التي كادوكم بها في أمر فغور وأمر كربي أختهم بنت رئيس لمديان التي قتلت يوم الوباء بسبب فغور». ....(عدد 25 : 16 ـ 18)

20 ـ «حين تقرب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح. فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك، فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب الهك. هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هذه الأمم هنا. وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريما، الحثيين والاموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب الهك». ....(تثنية 20 : 10 ـ 17)

21 ـ «وكانت اريحا مغلقة مقفلة بسبب بني اسرائيل. لا أحد يخرج ولا أحد يدخل. فقال الرب ليشوع: انظر قد دفعت اريحا وملكها جبابرة البأس». ....(يشوع 6 : 1 ـ 2)

22 ـ «وكان في اليوم السابع أنهم بكروا عند طلوع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع مرات في ذلك اليوم فقط داروا دائرة المدينة سبع مرات. وكان في المرة السابعة عندما ضرب الكهنة بالأبواق أن يشوع قال للشعب «اهتفوا لأن الرب قد أعطاكم المدينة. فتكون المدينة وكل ما فيها محرما للرب. راحاب الزانية فقط تحيا هي وكل من معها في البيت لأنها قد خبأت الرسولين الذين أرسلناهما. وأما أنتم فاحترزوا من الحرام لئلا تحرموا وتأخذوا من الحرام وتعلوا محلة اسرائيل محرمة وتكدروها. وكل الفضة وآنية النحاس والحديد تكون قدسا للرب تدخل في خزانة الرب. فهتف الشعب وضربوا بالأبواق وكان حين سمع الشعب صوت البوق أن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور من مكانه وصعد الشعب إلى المدينة. كل رجل مع وجهه وأخذوا المدينة وحرموا كل ما في المدينة من رجل وامرأة، من طفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير بحد السيف.

وأحرقوا المدينة بالنار كل ما بها، إنما الفضة والذهب وآنية النحاس والحديد جعلوها في خزانة بيت الرب. واستحيا يشوع راحاب الزانية وبيت أبيها وكل مالها. وسكنت في وسط إسرائيل إلى هذا اليوم، لأنها خبأت المرسلين اللذين أرسلهما يشوع لكي يتجسسا اريحا.

وحلف يشوع في ذلك الوقت قائلاً: ملعون قدام الرب الرجل الذي يقوم ويبني هذه المدينة اريحا». ....(يشوع 6 : 15 ـ 26)

23 ـ «فقال الرب ليشوع لا تخف ولا ترتعب، خذ معك جميع رجال الحرب وقم اصعد إلى عاي، انظر قد دفعت بيدك ملك عاي وشعبه ومدينته وأرضه. فتفعل بعاي كما فعلت باريحا وملكها. غير أن غنيمتها وبهائمها تنهبونها لنفوسكم. اجعل كمينا للمدينة

من ورائها.. الخ. ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون النار بالمدينة. فقام الكمين بسرعة من مكانه وركضوا عندما مد يده ودخلوا المدينة وأخذوها وأسرعوا وأحرقوا المدينة بالنار.

وأما ملك عاي فأمسكوه حيا وتقدموا به إلى يشوع. وكان لما انتهى اسرائيل من قتل جميع سكان عاي في الحقل في البرية حيث لحقوهم وسقطوا بحد السيف حتى فنوا، أن جميع اسرائيل رجع إلى عاي وضربوها بحد السيف. فكان جميع الذين سقطوا في ذلك اليوم من رجال ونساء اثني عشر ألفا جميع أهل عاي. ويشوع لم يرد يده التي قدها بالمزراق حتى حرم جميع سكان عاي. لكن البهائم وغنيمة تلك المدينة نهبها اسرائيل لأنفسهم حسب قول الرب الذي أمر به يشوع».

..........(يشوع 8 : 1 — 27)

24 — «وفي تلك الليلة كان كلام الرب إلى ناثان قائلاً: اذهب وقل لعبدي داود هكذا قال الرب . أأنت تبني لي بيتا لسكناي. لأني لم أسكن في بيت منذ أصعدت بني اسرائيل من مصر إلى هذا اليوم. كنت أسير في خيمة وفي مسكن».

..........(2 صموئيل 7 : 4 — 6)

25 — «وبعد ذلك ضرب داود الفلسطينيين وذلّهم وأخذ داود زمام القصبة من يد الفلسطينيين وضرب الموءابيين وقاسهم بالحبل. أضجعهم على الأرض فقاس بحبلين للقتل وبحبل كامل للاستحياء. وصار الموءابيون عبيداً لداود يقدمون الهدايا.

وضرب داود هدد عزر ملك صوبة حين ذهب ليرد سلطته عند نهر الفرات. فأخذ داود منه ألفاً وسبع مئة فارس وعشرين ألف رجل. وعرقب داود جميع خيل المركبات وأبقى منها مئة مركبة. فجاء آرام دمشق لنجدة هدد عزر ملك صوبة. فضرب داود من آرام اثنين وعشرين ألف رجل. وجعل داود محافظين في آرام دمشق صار الاراميون عبيدا يقدمون هدايا. وكان الرب يخلص داود حيثما توجه» . ...(2 صموئيل 8 : 1 — 6)

26 — «في ضيقي دعوت ربي وإلى إلهي صرخت، فسمع من هيكله صوتي وصراخي داخل أذنيه. فارتجت الأرض وارتعشت. أسس السموات ارتعدت وارتجت لأنه غضب. صعد دخان من أنفه ونار من فمه أكلت. جمر اشتعلت منه. طأطأ السموات ونزل ضباب تحت رجليه. ركب على كروب وطار ورؤى على أجنحة الريح... الخ».

..........(2 صموئيل 22 : 7 — 11).

«أرعد الرب من السموات والعلي أعطى صوته، أرسل سهاماً فشتتهم وبرقاً فأزعجهم». ....(2 صموئيل 22 : 14 و 15)

27 — «ولما كملت هذه الأمور تقدم إلي الرؤساء قائلين: لم ينفصل شعب اسرائيل والكهنة واللاويون من شعوب الأرض حسب رجاساتهم من الكنعانيين والحثيين والفرزيين واليبوسيين والعمونيين والموءابيين والمصريين والاموريين. لأنهم اتخذوا من بناتهم لأنفسهم ولبنيهم واختلط الزرع المقدس بشعوب الأراضي وكانت يد الرؤساء والولاة في هذه الخيانة اولا». ....(عزرا 9 : 1 — 2)

من النصوص المذكورة نرى أن عبادة الله عند ابراهيم واسحق وموسى كانت مشروطة بالمنفعة. كما ترتبط النصوص بفكرة الاستيلاء على الأرض التي هي للآخرين. وطردهم وقتلهم وسرقة متاعهم وبهائمهم وتوريث تلك الأرض والسرقات «للشعب المختار». كما ينتقم الله من العبرانيين ويهددهم أيضا ويعاقبهم إن هم قاوموا أنبياءه.

وكما في الميثولوجيا البابلية والكنعانية كذلك في العبرانية تكون الأحلام وسيلة نبوءة وتعرف على المستقبل. كما يوصف الله بالراكب على الغيوم والراعد مثل بعل، لكنه بنفس الوقت يخاطب موسى كما كان يخاطب ابراهيم وجهاً لوجه وندا لند، ويتلقى التعليمات من موسى، فيثنيه عن غضبه ويندم ويساعده في القتل والسرقة ومعاقبة مقاوميه من العبرانيين أنفسهم. لكن الوصف يدل على أن موسى كان يتعاطى السحر مع المصريين والعبرانيين على السواء. وعندما ظهر الرب لناثان في الحلم طلب إليه التوسط لدى دواد ليبني له بيتا لأنه لحد ذلك الوقت كان يسكن خيمة كما حدث لعليان بعل. ولأن الإله العبراني كان إلهاً قبلياً لم يرق له أن يرى تزاوج العبرانيين مع «رجاسات» الشعوب فحرم ذلك من قبل النبيين العنصريين عزرا ونحميا.

إن هذه الأفكار في العهد القديم لايمكن بأي حال أن تكون تاريخاً مقدساً وإن تكون عهداً قديماً يتممه العهد الجديد بسمو تعاليمه. إن هذه الأفكار قد شوهت بالفعل الناحية الأخلاقية في أساطير أرام.

مزامير من كنعان

المزامير أو «الزبور» هي مجموعة من الأناشيد الشعرية والتسابيح الدينية تؤلف «سفر المزامير» في العهد القديم، وعددها (151) مزموراً، تسمى بالعبرانية «تيهيلليم» أي أناشيد التسبيح لأنها كانت تستعمل في الهيكل الثاني لدى اليهود بعد العودة من السبي.

وفي الكتاب العبري تؤلف المزامير القسم الثالث مع سفر أيوب والأمثال ودانيال وعزرا ونحميا وأخبار الأيام الأول والثاني، والمسمى «كتوبيم» أو الكتابات المقدسة..

كان اليهود الأتقياء يحفظون كل المزامير غيباً، كما استعملها المسيحيون الأوائل. وسفر المزامير هو كتاب التسبيح الوحيد الذي تستعمله كل الطوائف اليهودية والمسيحية. والأرثوذكس والكاثوليك يستعملون الترجمة «السبعينية» و«الفولغات» ويختلف الترقيم فيها عن الترقيم العبري والبروتستنتي. وقد وجد النص العبري لمزمور 151 في لفائف قمران. والمزامير أشعار، لها وزن وقافية وايقاع موسيقي، إذ كانت تنشد مصحوبة بالآلات. وقد ذكر العهد القديم 17 آلة موسيقية.

أصول المزامير العبرية:

حسب روايات الأخبار قيل أن داود الملك قد «زوج الكلام بالأوتار» ولعدة قرون نسب اليهود والمسيحيون كل المزامير لداود. حتى نهاية القرن (19)م. اذ وجد الباحثون والناقدون أن تاريخ المزامير يعود للعصر الفارسي (538 ــ 333)ق.م، أو حتى العصر المكابي (165 ــ 100)ق.م لمعظم المزامير. كما توجد مقطوعات تعود لعصر الخروج. لذا تعتبر «انشودة مريم» وهي مريم بنت عمرام أخت موسى وهارون نحو (1250)ق.م أول نشيد وطني للشكر (خروج 15:20و21) كذلك قدم كثير من الأناشيد لتابوت يهوه الذي ربط بفكرة الجهاد المقدس (الذي كان اعتداء على الأخرين). والمزامير تعكس المفاهيم اللاهوتية في العهد القديم ليس عند الإسرائيليين فقط، لأن الكثير منها مقتبس عن المفاهيم الكنعانية والبابلية.

الأساس الشرقي القديم:

من حيث النظم الشعري والآلات الموسيقية فقد نقل ناظمو المزامير مباشرة عن الشعر المصري والكنعاني، ومن نصوص لمزامير كثيرة، أكادية وأوغاريتية ومصرية أصبحت معروفة الآن مثل مزمور 29 الذي يمثل نقلاً مباشراً لنشيد أوغاريتي تكريماً لإله العواصف بعل ــ هدد وينسب إلى داود. كذلك المزمور 104 الذي يتأثر جداً بنشيد اختاتون تمجيداً لإله الشمس عند المصريين. كما نجد الأفكار الميثولوجية تتردد أيضاً في سفر أيوب وأشعيا.. الخ

تصنيف المزامير:

للمزامير عدة مؤلفين ومعظمها يبدأ باسم المؤلف.

1 ـ مزامير 3-41 تنسب لداود ماعدا 10و31.

2 ـ مزامير 51-72 تنسب لداود ماعدا 71 المنسوب لسليمان.

3 ـ مزامير 50 و 73-83 لاساف.

4 ـ مزامير 42-49، 84-85، 87-88 لبني قورح.

5 ـ مزمور 88 لهيمان الأزراحي و89 لإتيان الأزراحي.

6 ـ مزامير 93-99 تسمى مزامير «يهوه الملك» ولم يذكر اسم مؤلفها.

7 ـ مزامير «هلليلويا» 105-107 و111-118 ماعدا 115 -135-136 و146-150

8 ـ مزامير متفرقة 120 ـ 134 يقول التلمود إنها كانت تنشد في عيد المظال.

وهناك 13 مزموراً تنسب لداود والتدقيق يبين إنها كتبت بعده بزمن كبير وهي المزامير 3-7-18-34-51-52-54-56-57-59-60-63-142.

1 ـ المزمور 18: 13-14 لداود: «أرعد الرب (يهوه) من السموات والعلي (عليون) أعطى صوته برداً وجمر نار. أرسل سهامه فشتتهم وبروقاً كثيرة فأزعجهم». (أرعد هدد أو بعل)

2 ـ المزمور 22: 12 لداود: «أحاطت بي ثيران كثيرة. أقوياء باشان أكتنفتني» (ثيران كرت ـ أمراء)

3 ـ المزمور 27: 5 و 13 لداود: «لأنه يختبئ في مظلته في يوم الشر. يسترني بستر خيمته على صخرة يرفعني». «لولا أني آمنت بأن أرى جود الرب في أرض الأحياء»

4 ـ المزمور 29 لداود: «قدموا للرب يا أبناء الله، قدموا للرب مجداً وعزاً، قدموا للرب مجد اسمه. اسجدوا للرب في زينة مقدسة».

«صوت الرب على المياه، إله المجد أرعد، الرب فوق المياه الكثيرة. صوت الرب بالقوة، صوت الرب بالجلال. صوت الرب مكسر الأرز ويكسر الرب أرز لبنان ويمرحها مثل عجل. لبنان وسريون مثل فرير البقر الوحشي، صوت الرب يقدح لهب نار. صوت الرب يزلزل البرية. يزلزل برية قادش. الرب يولد الإيل ويكشف الوعود، وفي هيكله الكل قائل مجد. الرب بالطوفان جلس ويجلس الرب ملكاً إلى الأبد. الرب يعطي عزاً لشعبه، الرب يبارك شعبه بالسلام».

5 ـ المزمور 68: 4 و5 لداود: «غنوا لله رنموا لإسمه. أعدوا طريقاً للراكب في القفار. باسمه «ياه» واهتفوا أمامه. أبو اليتامى وقاضي الأرامل الله في مسكن قدسه».

6 ـ المزمور 74: 10 ـ 17 لآساف: «حتى متى يالله يعير المقاوم ويهين العدو اسمك إلى الغاية. لماذا ترد يدك ويمينك. أخرجها من وسط حضنك. أفني. والله ملكي منذ القدم فاعل الخلاص في وسط الأرض.

أنت شققت البحر (يم) بقوتك. كسرت رؤوس التنانين (تنين) على المياه. أنت رضضت رؤوس لوياتان (لوتان) جعلته طعاماً للشعب لأهل البرية. أنت فجرت عيناً

وسيلاً، أنت يبست أنهاراً (نهر) دائمة الجريان. لك النهار ولك أيضاً الليل. أنت هيأت النور والشمس. أنت نصبت كل تخوم الأرض، الصيف والشتاء أنت خلقتهما».

7 ــ المزمور 82 لاساف: «الله قائم في مجمع الله، في وسط الألهة يقضي. حتى متى تقضون جوراً وترفعون وجوه الأشرار؟ اقضوا للذليل ولليتيم، انصفوا المسكين البائس. نجو المسكين والفقير، من يد الأشرار انقذوا. لايعلمون ولايفهمون. في الظلمة يتمشون. تتزعزع كل أسس الأرض. أنا قلت أنكم آلهة وبنو العلي (عليون) كلكم. لكن مثل الناس تموتون وكأحد الرؤساء تسقطون. قم يا الله، دن الأرض. لأنك أنت تمتلك كل الأمم».

8 ــ المزمور 104: «باركي يانفسي الرب. يارب إلهي قد عظمت جداً، مجداً وجلالاً لبست. اللابس النور كثوب، الباسط السموات كشقة. المسقف علاليه بالمياه، الجاعل السحاب مركبته، الماشي على أجنحة الريح، الصانع ملائكته رياحاً، وخدمه ناراً ملتهبة. المؤسس الأرض على قواعدها فلاتتزعزع إلى الدهر والأبد. كسوتها الغمر كثوب فوق الجبال تقف المياه. من انتهارك تهرب، من صوت رعدك تفر. تصعد إلى الجبال، تنزل إلى البقاع إلى الموضع الذي أسسته لها. وضعت لها تخماً لاتتعداه. ولاترجع لتغطي الأرض. المفجر عيونا في الأودية بين الجبال تري تسقي كل حيوان البر تكسر القراء ظمأها. فوقها طيور السماء تسكن. من بين الأغصان تسمع صوتها. الساقي الجبال من علاليه، من ثمر أعمالك تشبع الأرض. المنبت عشباً للبهائم وخضرة لخدمة الإنسان، لإخراج خبز من الأرض، وخمر تفرح قلب الإنسان، لإلماع وجهه أكثر من الزيت وخبز يسند قلب الإنسان. تشبع أشجار الرب أرز لبنان الذي نصبه. حيث تعشعش هناك العصافير، أما اللقلق فالسرو بيته. الجبال العالية للوعول، الصخور ملجأ للوبار.

صنع القمر للمواقيت، الشمس تعرف مغربها. تجعل ظلمة فيصير ليل فيه يدب كل حيوان الوعر. الأشبال تزمجر لتخطف ولتلتمس من الله طعامها. تشرق الشمس فتجتمع وفي مآويها تربض. الإنسان يخرج إلى عمله وإلى شغله إلى المساء، ما أعظم أعمالك يارب كلها بحكمة صنعت. ملآنة الأرض من غناك، هذا البحر الكبير الواسع الأطراف. هناك دبابات بلا عدد، صغار حيوان مع كبار. هناك تجري السفن. لوياثان هذا خلقته ليلعب فيه. كلها إياك تترجى لترزقها قوتها في حينه. تعطيها فتلتقط. تفتح يدك فتشبع خيراً. تحجب وجهك فترتاع، تنزع روحها فتموت وإلى ترابها تعود، ترسل روحك فتخلق وتجدد وجه الأرض. يكون مجد الرب إلى الدهر، يفرح الرب بأعماله. الناظر إلى الأرض فترتعد، يمس الجبال فتدخن. أغني للرب في حياتي، أرنم لإلهي مادمت موجوداً. فيلذ له نشيدي وأنا أفرح بالرب. لتبد الخطأة من الأرض والأشرار لايكونوا بعد. باركي يانفسي الرب هلليلويا».

9 ــ المزمور 110 لدواد: «قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. يرسل الرب قضيب عزك من صهيون، وتسلط في وسط أعدائك، شعبك منتدب في يوم قوتك في زينة مقدسة. من رحم الفجر لك طل حداثتك. أقسم الرب ولن يندم، أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكي صادق. الرب عن يمينك يحطم في

يوم رجزه ملوكاً. يدين بين الأمم. ملأ جثثا أرضاً واسعة سحق رؤوسها .من النهر يشرب في الطريق لذلك يرفع الرأس».

10 ــ أشعيا: «في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياتان الحية الهاربة لوياتان الحية المتحوية، ويقتل التنين الذي في البحر». (1:27)

«استيقظي، استيقظي، البسي قوة ذراع الرب، استيقظي كما في أيام القدم، كما في الأدوار القديمة. ألست أنت القاطعة رهب الطاعنة التنين. ألست أنت الشاقة البحر مياه الغمر العظيم، الجاعلة أعماق البحر طريقاً لعبور المعذبين». (9:51و10).

أيوب

أيوب أي الصبور، هو بطل سفر أيوب الأدومي. ضرب المثل بصبره واحتماله، وقد جاء ذكره في القرآن. وسفر أيوب من أسفار الحكمة في العهد القديم يدور حول مسألة العدل الإلهي وحيرة الإنسان عندما يرى أناساً صالحين يتألمون، وأناساً أشراراً يتنعمون. إنها قصة الشر في العالم، حيث لايجد الإنسان سبيلاً إلا الخضوع لله، لأن سبله ومقاصده غير مفهومة بالنسبة للعقل البشري المحدود. هذا مانجده في سفر أيوب كما نجده في القصيدة السومرية «الإنسان وإلهه» والقصيدة البابلية «سأمجد رب الحكمة»

«من يعلم إرادة الآلهة في السماء؟
من يفهم خطط الآلهة في العالم السفلي؟
متى تعلم الناس طرق الآلهة؟
كيف يستطيعون الإحاطة بتغير إرادتها؟
هذه الأشياء تذهلني ومغزاها فوق إداركي.».

وهذا السفر يعد من روائع الأدب الشرقي والعالمي، كتب شعراً ماعدا المقدمة والخاتمة فقد كتبا نثرا وذلك نحو عام (400ق.م) ويرجع أن السفر يعود إلى قصة قديمة عن أيوب الرجل الأدومي التقي. لقد كان اسم أيوب شائعاً في العصر البرونزي الأوسط، وقد ورد في نصوص تعود لما بين القرنين (19-14ق.م). ومن لغة القصة يتبين أنها تعود لما بين القرنين (8و6)ق.م وقد اقتبسها الشاعر وجعلها أساساً وهيكلاً لقصيدته العظيمة. وقد استعمل الشيطان كوسيلة لامتحان تقوى أيوب. هل هي مبنية على الأنانية أم على حب الله والخير؟. ولما فقد أيوب ماله وأولاده وصحته رفض التجديف على الله. ثم يبدأ الحوار بين أيوب ونفسه فيلعن يوم ولادته. ثم يتدخل ثلاثة من أصدقائه الأدوميين في الحوار، وأخيراً يتدخل الله مباشرة. وآخر الأمر يعود كل شيء لأيوب ضعف ماكان عليه، كما حدث لبطل القصيدة السومرية. ويختلف الباحثون في تعيين تاريخ تدوين السفر فيجعلونه مابين القرنين السادس والرابع قبل الميلاد.

إن التساؤل حول فكرة العدل الإلهي التي أثارت المفكرين البابليين مازال قائماً حتى يومنا هذا. لقد تطرق مفكرو مابين النهرين لمشكلة العدل الإلهي وكيف ينعم الأشرار ويصاب الصالحون والقصيدة السومرية عن الإنسان والهه التي يمكن تسمية بطلها «أيوب السومري» تعود للألف الثاني قبل الميلاد. وقد أصيب ذلك الرجل الصالح بالآلام والمرض والإضطهاد الإجتماعي، ولما اتضع أمام الهه واعترف بالخطيئة التي لايعيها لأنه «لم يولد لأم قط طفل بلا خطيئة» لقي الخلاص من شقائه.

وبعد غزو الكاشيين لبابل في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد، أعيد نفس التساؤل حول العدل الإلهي وظهرت قصيدة «سأمجد رب الحكمة» من (480) بيتا، وهي

مونولوج لأحد النبلاء، يشكو فيه فقدانه للسلطة والثروة وأصابته بالمرض ويتساءل، هل هناك حساب لتقواه السابق؟

كان هذا التساؤل قائماً في اسرائيل أيضاً كما في بابل لأنه لم يكن هناك إيمان بخلود النفس بعد الموت، وقد نظر إلى الحياة الدنيا على أنها كل شيء، فكيف يفسر شقاء الأبرياء؟ فكان سفر أيوب وفيه أعمق فلسفة معبرة عن هذا التساؤل.

أيوب الرجل الكامل المتقي الله، فقد كل مواشيه ثم أبناءه العشرة ثم عمت القروح جسده ورفض التجديف «فقالت له امرأته، أنت متمسك بعد بكمالك، بارك الله ومت. فقال لها تتكلمين كلاماً كإحدى الجاهلات. أنقبل الخير من عند الله والشر لا نقبل. في كل هذا لم يخطئ أيوب بشفتيه. فلما سمع أصحاب أيوب الثلاثة بكل الشر الذي أتى عليه جاؤوا كل واحد من مكانه. اليعازر التيماني وبلدد الشوحي وصوفر النعماني وتواعدوا أن يأتوا ليرثوا له ويعزوه. ورفعوا أعينهم من بعيد ولم يعرفوه فرفعوا أصواتهم وبكوا ومزق كل واحد جبته وذروا تراباً فوق رؤوسهم نحو السماء (كما فعل ايل عندما سمع بموت بعل) وقعدوا معه على الأرض سبعة أيام وسبع ليالي ولم يكلمه أحد بكلمة لأنهم رأوا أن كآبته كانت عظيمة جداً».

..........(أيوب 2:9-13)

«بعد هذا فتح أيوب فاه وسب يومه وأخذ أيوب يتكلم فقال: ليته هلك اليوم الذي ولدت فيه والليل الذي قيل «قد حبل برجل». هوذا ذلك الليل ليكن عاقراً لا يسمع فيه هتاف. ليلعنه لاعنو اليوم المستعدون لايقاظ التنين. لتظلم نجوم عشائه، لينتظر النور ولايكن ولاير هدب الليل». ....(أيوب: 1:3، 2، 3، 7، 8، 9)

فأجاب أليعازر التيماني وقال «إن امتحن أحد كلمة معك فهل تستاء؟ أليست تقواك هي معتمدك، ورجاؤك كمال طرقك؟ اذكر من هلك وهو بريء وأين أبيد المستقيمون. كما قد ترى أن الحارثين اثما والزارعين شقاوة يحصدونها. بنسمة الله يبيدون وبريح أنفه يفنون. أألإنسان أبر من الله أم الرجل أطهر من خالقه؟

....(أيوب 1:14، 2، 6، 7، 8، 9، 17)

ادع الآن فهل لك من مجيب؟ وإلى أي القديسين ستلتفت؟ لأن الغيظ يقتل الغبي والغيرة تميت الأحمق إن البلية لاتخرج من التراب والشقاوة لاتنبت من الأرض. هوذا طوبى لرجل يؤدبه الله فلاترفض تأديب القدير. لأنه هو يجرح ويعصب، يسحق ويداه تشفيان. في ست شدائد ينجيك وفي سبع لايمسك سوء. ....(أيوب 1:15، 2، 6، 17، 18، 19)

فأجاب أيوب وقال، ليت كربي وُزن ومصيبتي رُفعت في الموازين جميعها لأنها الآن أثقل من رمل البحر. من أجل ذلك لغا كلامي. علموني فأنا اسكت وفهموني في أي شيء ضللت. مأشد الكلام المستقيم وأما التوبيخ منكم فعلى ماذا يبرهن؟ هل تحسبون أن توبخوا كلمات وكلام البائس للريح، بل تلقون على اليتيم وتحفرون حفرة لصاحبكم؟

.........(أيوب 1:6، 2، 3، 24، 25، 26، 27)

أذكر أن حياتي إنما هي ريح وعيني لاتعود ترى خيراً. لاتراني عين ناظري. عيناك عليّ ولست أنا. السحاب يضمحل ويزول. هكذا الذي ينزل إلى الهاوية لايصعد (نزول عشتار إلى العالم السفلي) لايرجع بعد إلى بيته، ولايعرف مكانه بعد. أبحر (يم) أنا أم تنين حتى جعلت علي حارسا؟ إن قلت فراشي يعزيني ومضجعي ينزع كربتي، تريعني بالأحلام وترهبني برؤى. ماهو الإنسان حتى تعتبره وحتى تضع عليه قلبك؟ وتتعهده كل صباح وكل لحظة تمتحنه. حتى متى لاتلتفت عني ولاترخيني ريثما أبلع ريقي؟

....(أيوب 7:7، 8، 9، 10، 12، 13، 14، 17، 18، 19)

فأجاب بلدد الشوحي وقال، إلى متى تقول هذا وتكون أقوال فيك ريحا شديدة؟ هل الله يعوج العظام أو القدير يعكس الحق؟ اسأل القرون الأولى وتأكد مباحث آبائهم لأننا نحن من أمس ولانعلم لأن أيامنا على الأرض ظل. فهلا يعلمونك. يقولون لك ومن قلوبهم يخرجون أقوالا قائلين، هل ينمي البردى في غير الغمقة أو تنبت الحلفاء بلاماء؟ هكذا سبل كل الناسين الله ورجاء الفاجر يخيب. هوذا الله لايرفض الكامل ولايأخذ بيد فاعلي الشر.

........أيوب 8:1، 2، 3، 8، 9، 10، 11، 13، 20)

فأجاب أيوب، هو حكيم القلب شديد القوة من تصلب عليه فسلم. المزحزح الجبال ولاتعلم، الذي يقلبها في غضبه، المزعزع الأرض في مقرها، فتتزلزل أعمدتها. الآمر الشمس فلا تشرق ويختم على النجوم، الباسط السموات وحده والماشي على أعالي البحر. صانع النعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب. فاعل عظائم لا تفحص وعجائب لا تعد. الله لايرد غضبه ينحني تحته أعوان رهب (تيامات). كم بالأقل أنا أجاوبه وأختار كلامي معه. لأني تبررت لا أجاوب بل أسترحم دياني. ....(أيوب 4:9 – 10و13–15)

«قد كرهت نفسي حياتي. أسيب شكواي، أتكلم في مرارة نفسي قائلاً لله، لا تستذنبني، أفهمني لماذا تخاصمني؟ أحسن عندك أن تظلم أو ترذل عمل يديك وتشرف على مشورة الأشرار؟ ألك عيناً بشر أم كنظر الإنسان تنظر؟ أأيامك كأيام الإنسان أم سنوك كأيام الرجل حتى تبحث عن اثمي وتفتش على خطيئتي؟ في علمك إني لست مذنباً ولامنقذمن يدك. يداك كونتاني وصنعتاني كلي جميعا، افتبتلعني؟ أذكر أنك جبلتني كالطين. أفتعيدني إلى التراب؟ إن أخطأت فلاحظني ولاتبرئني من اثمي إن أذنبت فويل لي، وإن تبرأت لا أرفع رأسي إني شبعان هوانا وناظر مذلتي. ....(أيوب 10:1–9،14و15)

فأجاب صوفرالنعماني وقال: أكثرة الكلام لايجاوب أم رجل مهذار يتبرر؟ أصلفك يفحم الناس أم تلح وليس من يخزيك؟ إذ تقول تعليمي ذكي وأنا بار في عينيك. ولكن ياليت الله يتكلم ويفتح شفتيه معك، ويعلن لك خفيات الحكمة إنها مضاعفة الفهم فتعلم أن الله يغرمك بأقل من اثمك. أإلى الله تتصل أم إلى نهاية القدير تنتهي؟ هو أعلى من السموات فماذا عساك أن تفعل؟ أعمق من الهاوية فماذا تدري؟ أطول من الأرض وطوله وأعرض من البحر. إن بطش أو أغلق أو جمع فمن يرده؟ لأنه هو يعلم أناس السوء، ويبصر الإثم فهل لاينتبه؟ أما الرجل ففارغ عديم الفهم وكجحش الفرايولد الإنسان. ....(أيوب 11:1–12)

فأجاب أيوب وقال: صحيح أنكم أنتم شعب ومعكم تموت الحكمة غير أن لي فهماً مثلكم لست أنا دونكم، عند الشيب حكمة وطول الأيام فهم. عنده الحكمة والقدرة، له المشورة والفطنة. هوذا يهدم فلا يبني، يغلق على الإنسان فلايفتح، يمنع المياه فتيبس يطلقها فتقلب الأرض. ....(أيوب 12:1–3و12–15)

هذا كله رأته عيني سمعته اذني وفطنت به. ماتعرفونه عرفته. أنا أيضاً لست دونكم ولكني أريد أن أكلم القدير وأن أحاكم إلى الله. أما أنتم فملفقو كذب، أطباء بطالون كلكم. ....(أيوب 13:1–4)

الإنسان مولود المرأة قليل الأيام شبعان تعبا. يخرج كالزهر ثم ينحسم ويبرح كالظل ولايقف. فعلى مثل هذا حدقت عينيك وإياي أحضرت إلى المحاكمة معك. من يخرج الطاهر من النجس؟ لا أحد إن كانت أيامه محدودة وعدد أشهره عندك، وقد عينت أجله فلا يتجاوزه فأقصر عنه ليستريح إلى أن يسر كالأخير بانتهاء يومه» ....(أيوب 14:1–6)

فأجاب أليعازر التيماني وقال: ألعل الحكيم يجيب عن معرفة باطلة ويملأ بطنه من ريح شرقية. هل تنصت في مجلس الله أو قصرت الحكمة على نفسك؟ لماذا يأخذك قلبك ولماذا تختلج عيناك متى ترد على الله وتخرج من فيك أقوالاً؟ من هو الإنسان حتى يزكو أو مولود المرأة حتى يتبرر؟ هوذا قديسوه لايأتمنهم والسموات غير طاهرة بعينيه. فبالحرى مكروه وفاسد الإنسان الشارب الأثم كالماء». ....(أيوب 15:1، 2، 8، 12، 16)

«فأجاب أيوب وقال: قد سمعت كثيراً مثل هذا معزون متعبون كلكم» (أيوب 16:1)

«ولكن ارجعوا كلكم وتعالوا فلا أجد فيكم حكيماً. أيامي قد عبرت، مقاصدي ارث قلبي قد انتزعت. يجعلون الليل نهاراً، نوراً قريباً للظلمة، إذا رجعت الهاوية بيتاً لي وفي الظلام مهدت فراشي، وقلت للقبر أنت أبي وللدود انت أمي وأختي، فأين إذن آمالي، آمالي من يعاينها، تهبط إلى مغاليق الهاوية إذا نرتاح معاً في التراب». ....(أيوب 17:10–16)

«لماذا يحيا الأشرار ويشيخون؟ نعم، ويتجبرون قوة. نسلهم قائم أمامهم معهم وذريتهم في أعينهم. بيوتهم آمنة من الخوف وليس عليهم عصا الله، ثورهم يلقح ولايخطئ، بقرتهم تنتج ولاتسقط، يسرحون مثل الغنم، رضعهم وأطفالهم ترقص. يحملون الدف والعود، ويطربون بصوت المزمار. يقضون أيامهم بالخير. في لحظة يهبطون إلى الهاوية. فيقولون لله أبعد عنا وبمعرفة طرقك لا نسر. من هو القدير حتى نعبده وماذا ننتفع إن التمسناه». ....(أيوب 21:7–15)

«لماذا إذاً لم تختبيء الأزمنة من القدير ولايرى عارفوه يومه. ينقلون التخوم، يغتصبون قطيعاً ويرعونه، يستاقون حمار اليتامى. ويرتهنون ثور الأرملة. يصدون الفقراء عن الطريق. مساكين الأرض يختبئون جميعاً. هاهم كالحمار في القفر يخرجون إلى عملهم يبكرون للطعام. البادية لهم خبز لأولادهم. في الحقل يحصدون علفهم ويعللون كرم الشرير. يبيتون عراة بلا لباس وليس لهم كسوة في البرد. يبتلون من مطر الجبال ولعدم الملجأ يعتنقون الصخر. مع النور يقوم القاتل يقتل المسكين والفقير، وفي الليل يكون كاللص. وعين الزاني تلاحظ العشاء. يقول لاتراقبني عين فيجعل ستراً على وجهه»..(أيوب 24:1–8و14و15)

«فأجاب بلدد الشوحي وقال: السلطان والهيبة عنده. هو صانع السلام في أعاليه. هل من عدد لجنوده وعلى من لايشرق نوره؟ فكيف يتبرر الإنسان عند الله وكيف يزكو مولود المرأة؟ هوذا نفس القمر لايضيء والكواكب غير نقية في عينيه. فكم بالحري الإنسان الرمة وابن آدم الدود.» ....(أيوب 25).

«فأجاب ايوب وقال: كيف أعنت من لاقوة له. وخلعت ذراعاً لاعز لها؟ الأخيلة ترتعد من تحت المياه وسكانها. الهاوية عريانة قدامه والهلاك ليس له غطاء. أعمدة السموات ترتعد وترتاع من زجره. بقوته يهدئ البحر (يم) وبفهمه يسحق رهب (تيامات). بنفخته السماء مصفرة ويداه ابداتا الحية الهاربة (لوتان). وأما رعد جبروته فمن يفهم؟» ......(أيوب 26:1-2-5-6-11-12-13-14)

«حي هو الله الذي نزع حقي والقدير الذي أمر نفسي. إنه مادامت نسمتي فيّ ونفخة الله في أنفي. لن تتكلم شفتاي اثماً ولايلفظ لساني بغش، حاشا لي أن أبرركم. حتى أسلم الروح لاأعزل كمالي عني. أما الحكمة فمن أين توجد، وأين هو مكان الفهم؟ لايعرف الإنسان قيمتها ولاتوجد في أرض الأحياء. الغمر يقول ليست هي في، والبحر يقول ليست هي عندي. لايُعطى ذهب خالص بدلها ولاتوزن فضة ثمناً لها. لا يعادلها الذهب ولا الزجاج بانية ذهب إبريز. لا يذكر المرجان والبلور وتحصيل الحكمة خير من اللآلي. فمن أين تأتي الحكمة وأين هو مكان الفهم. الهلاك والموت يقولان بآذاننا سمعنا خبرها. الله يفهم طريقها وهو عالم بمكانها. لما جعل للمطر فريضة ومذهبا للصواعق حينئذ رآها وأخبر بها هيأها وأيضاً بحث عنها. وقال للإنسان هوذا مخافة الرب هي الحكمة والحيدان عن الشر هو الفهم»

....(أيوب 27:2،-5و28:12-15و17،18،22،23،26،27،28)

«أليس هو ينظر طرقي ويحصي جميع خطواتي. ليزني في ميزان الحق فيعرف الله كمالي. إن كنت رفضت حق عبدي وأمتي في دعواهما علي فماذا كنت أصنع حين يقوم الله بمحاكمتي وإذا افتقد فبماذا أجيبه؟ أو ليس صانعي في البطن صانعه وقد صورنا واحداً في الرحم. إن كنت منعت المساكين عن مرادهم أو أوهنت عيني الأرملة، أو أكلت لقمتي وحدي فما أكل منها اليتيم. بل منذ صباي كبر عندي كأب ومن بطن أمي هديتها. إن كنت هززت يدي على اليتيم لما رأيت عوني في الباب، فلتسقط عضدي من كتفي ولتنكسر ذراعي من قصبتها. أن كنت قد جلعت الذهب عمدتي أو قلت للابريز أنت متكلي، أن كنت قد فرحت ببلية مبغضي أو شمت حين أصابه سوء. إن كنت قد كتمت كالناس ذنبي لاخفاء أثمي في حضني. إن كانت أرضي قد صرخت علي وتباكت اثلامها ميعاً. إن كنت أكلت غلتها بلا فضة أو أطفأت انفس أصحباها، فعوض الحنطة لينبت شوك بدل الشعير زوءان.»

.(أيوب 31 : 4 ، 6 ، 13 ، 18 ، 21 ، 22 ، 24 ، 29 ، 33 ، 38 ، 40)

فأجاب الرب أيوب من العاصفة وقال: من هذا الذي يظلم القضاء بكلام بلا معرفة... هل يخاصم القدير موبخهُ أو المحاج الله يجاوبه؟ الآن شد حقويك كرجل لعلك تناقض حكمي. تستذنبني كي تبرر أنت، هل لك ذراع كما لله وبصوت مثل صوته ترعد؟ تزيت الآن بالجلال والعز والبس المجد والبهاء. فرق فضبك وانظر إلى كل متعظم

وأخفضه. انظر إلى كل متعظم وذلـــله، ودس الاشـــرار في مكـــانهم. اطـــرحهم في التـــراب معا واحبس وجوههم في الظلام. فأنا أيضاً أحمدك لأن يمينك تخلصك».

.....(أيوب 38 : 1 ، 2 ، 40 ، 2 ، 7 — 14)

أتصطاد لوياتان بشص أم تضغط لسانه بحبل؟ أتضـــع اسـلة في خطمـــه أم تثقـــب فكـــه بخزامه؟ أيكثر التضرعات إليك أم يتكلم معك باللين؟ هل يقطع معك عهـــدا فتتخـــذه عهـــدا مؤبدا؟ أتلعب معه كالعصفور أو تربطه من أجـــل فتيانـــك؟ هـــل تحضـــر جماعـــة الصـــيادين لأجله أو يقسمونه بين الكنعانيين؟ ليس من شجاع يوقظـــه، فمـــن يقـــف اذن بـــوجهي؟ مـــن تقدمني فأوفيه. ما تحت كل السموات هو لي.

من يفتح مصراعي فمه؟ دائرة أسنان مرعبـــة. عطاســـه يبعـــث نـــورا وعينـــاه كهـــدب الصبح. من فمه تخرج مصابيح. شرار نار يتطاير منه. من منخريـــه يخـــرج دخـــان كأنـــه مـــن قدر منفوخ أو من مرجل. نفسه يشعل جمرا، ولهب يخرج مـــن فيـــه. قلبـــه صـــلب كـــالحجر وقاس كالرحى. عند نهوضه تفزع الأقوياء، من المخاوف يتيهـــون. يحســـب الحديـــد كـــالتبن، النحاس كالعود النخر. لا يستفزه نبل القوس وحجارة المقلاع ترجـــع عنـــه كـــالقش. لـــيس له في الأرض نظير، صنع لعدم الخوف. يشرف على كل متعال، هـــو ملـــك علـــى كـــل بـــني الكبرياء». (مثل وصـــف هـــواوا) ....(أيـــوب 41:1ـــــ6، 10 ، 11 ، 14 ، 18 — 21 ، 24 ، 25 ، 27 ، 28 ، 33 ، 24)

فأجاب ايوب الرب فقال: قد علمت أنك تستطيع كل شـــيء، لا يعســـر عليـــك أمـــر. فمن ذا الذي يخفي القضاء بلا معرفة؟ ولكني قـــد نطقـــت بمـــا لم أفهـــم، بعجائـــب فـــوقي لم أعرفها. أسمع الآن وأنا أتكلم، أسألك فتعلمني. بسمع الأذن قـــد سمعـــت عنـــك والآن رأتـــك عيني. لذلك أرفض وأندم في التراب والرماد.

وكان بعدما تكلم الرب مع ايوب بهذا الكلام أن الرب قـــال. لاليعـــازر التيمـــاني: قـــد اتمى غضبي عليك وعلى كل صاحبيك لكنم لم تقولـــوا في الصـــواب كعبـــدي ايـــوب. والان فخذوا لأنفسكم سبعة ثيران وسبعة كباش واذهبـــوا إلى عبـــدي ايـــوب. واصـــعدوا محرقـــة لأجل أنفسكم وعبدي أيوب يصلي من أجلكم لأني أرفع وجهه.

فذهب أليعازر التيماني وبلدد الشوحي وصـــوفر النعمـــاني وفعلـــوا كمـــا قـــال الـــرب، ورفع الرب وجه أيوب. ورد الرب سبي أيوب لما صلي لأجـــل اصـــحابه، وزاد الـــرب علـــى كل ما كان لأيوب ضعفا. وعاش أيوب بعد هذا مئة وأربعين ســـنة ورأى بنيـــه وبـــني بنيـــه إلى أربعة أجيال ثم مات أيوب شيخا وشبعان الأيام». ....(الاصحاح 42)

هذه القطعة الفلسفية الشعرية من روائع الأدب العـــالمي. والشـــعر العـــبري كالكنعـــاني والبابلي لا يعتمد على الوزن والقافية بل علـــى المتوازيـــات والمتناقضـــات الفكريـــة كالشـــعر المنثور، في أبيات من سطرين أو أربعة أو ستة أو ثمانيـــة أســـطر. وقـــد علـــق عليـــه فيكتـــور هوغو بقوله: «ربما كان سفر أيوب أعظم روائع الفكر الانساني».

وقال توماس كارلايل: «بغض النظر عن كل النظريات التي تـــدور حـــول هـــذا الشـــعر أقول أنه من أعظم ما كتب. أنه أول وأقدم كشف عن القضية الـــتي لا تنتـــهي، وهـــي قـــدر الإنسان وطرق الله معه على الأرض. وأظن أنه لم يكتب شيء قط يضارعه أدبيا».

كما قال فيليب شاف: «ان سفر أيوب يرتفـــع كهـــرم في تـــاريخ الادب دون أن يكـــون هناك ما يسبقه أو يضارعه».

من التلمود

«من يجادل حاخامه أو معلمه فقد أخطأ وكأنه جادل العزة الآلهية». (تلمود)
«إن الله تعالى يستشير الحاخامات على الأرض عندما توجد مسألة معضلة لا يمكن حلها في السماء».

رابي مناحيم

«إن تعاليم الحاخامات لا يمن نقضها ولا تغييرها ولو بأمر الله. وقد وقع الخلاف يوماً بين الباري تعالى وبين علماء اليهود في مسألة، فبعد أن طال الجدال تقرر احالة فصل الخلاف إلى أحد الحاخامات الرابيين، واضطر الله أن يعترف بغلطه بعد حكم الحاخام المذكور».

تلمود صفحة 74

«إن النهار اثنتا عشرة ساعة: في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة، وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاث الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاث الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك».

تلمود

والحوت كبير جداً يمكن أن يدخل في حلقه سمكة طولها 300 فرسخاً بدون أن تضايقه. وبالنسبة لحجمه الكبير رأى الله أن يحرمه من زوجته، لإنه إن لم يفعل ذلك لامتلأت الدنيا وحوشاً أهلكت من فيها. ولذلك حبس الله الذكر بقوته الالهية وقتل الانثى وملحها وأعدها لطعام المؤمنين في الفردوس».

«ولم يلعب الله مع الحوت بعد هدم الهيكل، كما أن من ذلك الوقت لم يمل إلى الرقص مع حواء بعدما زينها بملابسها، وعقص لها شعرها. وقد اعترف الله بخطئه في تصريحه بتخريب الهيكل فصار يبكي ويمضي ثلاثة أجزاء الليل يزار كالأسد قائلاً: تبا لي لأني صرحت بخراب بيتي وإحراق الهيكل ونهب أولادي. وشغل الله مساحة أربع سنوات فقط بعد أن كان ملء السموات والأرض في جميع الزمان.

ولما يسمع الباري تعالى تمجيد الناس له يطرق رأسه ويقول: ما أسعد الملك الذي يمدح ويبجل مع استحقاقه لذلك. ولكن لا يستحق شيئاً من المدح الذي يترك أولاده في الشقاء».

«يتندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة، حتى أنه يلطم ويبكي كل يوم فتسقط من عينيه دمعتان في البحر، فيسمع دويهما من بدء العالم إلى أقصاه، وتضطرب المياه، وترتجف الأرض في أغلب الأحيان فتحصل الزلازل».

«إن الله إذا حلف يميناً غير قانونية احتاج إلى من يحله من يمينه، وقد سمع أحد العقلاء الاسرائيليين الله تعالى يقول: من يحلني من يميني التي أقسمت بها؟ ولما علم باقي

الحاخامات أنه لم يحله منها اعتبروه حمارا، لأنه لم يحل الله من يمينه، ولـذلك نصبوا ملكا بين السماء والأرض اسمه (مي) لتحليل الله من ايمانه ونذوره عند اللزوم».

«اما سبع آلاي الذي يشبهون زئير الله بزئيره فهو سبع غابة (آلاى) الذي أراد أن ينظره امبراطور رومية. ولما أحضر إليه وأصبح على بعد أربعمئة فرسخ، زأر مرة زئيرا حصل منه ضجة سقطت منها النساء الحبالى، وهدمت منها أسوار روما، ولما وصل على بعد ثلاثمئة فرسخ زأر مرة أرى فوقعت أضراس أهل روما ووقع الامبراطور على الأرض من فوق العرش مغشيا عليه، وطلب بعد أفاقته أن يرد حالاً ذلك السبع إلى محله»

الشياطين:

خلق الله الشياطين يوم الجمعة عندما خيم الغسق، ولم يخلق لهم أجساداً ولا ملابس. لأن يوم السبت كان قريباً وما كان لديه الوقت الكافي ليعمل كل ذلك.

والشياطين على جملة أنواع: فبعضهم مخلوق من مركب مائي وناري، وبعضهم مخلوق من الهواء. وبعضهم من الطين. أما أرواحهم فمخلوقة من مادة موجودة تحت القمر لا تصلح إلا لصنعها.

وبعض الشياطين من نسل آدم لأنه بعدما لعنه الله أبى أن يجامع زوجته حواء حتى لا تلد نسلاً تعيساً. فحضر له اثنتان من نساء الشياطين فجامعهما فولدتا شياطين.

وكان آدم يأتي شيطانة مهمة اسمها «ليليت» مدة 130 سنة فولد منها شياطين. وكانت حواء أيضا لا تلد في هذه المدة إلا الشياطين بسبب نكاحها من ذكور الشياطين.

وأمهات الشياطين المشهورات أربع استخدمهن سليمان الحكيم بما له عليهن من السلطة وكان يجامعهن. وإحدى تينك النسوة امرأة الشيطان «شماعيل» تذهب مع بناتها في مقدمة مئة وثمانين ألف شيطان بصفة رئيسة عليهم ليضروا الناس في ليلتي الخميس والسبت.

وليليت عصت آدم زوجها فعاقبها الله بموت أولادها، فهي تنظر كل يوم مئة من أولادها يموتون أمامها. ومن ذلك الحين تعهدت أن لا تقتل أحداً من الأطفال الذين لها عليهم السلطة، إذا تليت عليهم ثلاثة من أسماء الملائكة. هذا وهي دائماً تعوي كالكلاب ويصحبها مئة وثمانون ملكاً من الأشرار. ويوجد شيطانة أخرى من الأربع المذكورات دأبها الرقص بدون أن تستريح وهي تصحب معها مئة وتسعاً وسبعين روحا شريرة.

بعض الشياطين يسكنون الهواء وهم الذين يسببون الأحلام للانسان. وبعضهم يسكن في قاع البحر وهم الذين يتسببون في خراب الأرض إذا تركوا وشأنهم. وبعضهم يسكن في أجسام اليهود المتعودين على ارتكاب الخطايا. ويحب الشيطان الرقص بين قرني ثور خارج من المياه. وهو مغرم أيضا بالرقص بين النسوة اللاتي يرجعن من دفن ميت. ويسكن جبال الشرق المظلمة اثنتان من الشيطانات اسمهما «آزا» و«آزائيل» وهما اللتان عملتا السحر لبلعام وأيوب ويترو، وكان الملك سليمان يحكم على الطيور والشياطين بواسطتهما كما كانتا السبب في حضور بلقيس إليه.

خلق آدم وحواء:

أخذ الله تراباً من جميع بقاع الأرض وكونه كتلة خلقها جسماً ذا وجهين، ثم شطره نصفين فصار أحدهما آدم والثاني حواء. وكان آدم طويلا جداً فكانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، وإذا نام كان رأسه في المشرق ورجلاه في المغرب. وصنع الله لآدم طاقة ينظر منها إلى الدنيا من أولها إلى آخرها. ولما عصى آدم نقص طوله حتى صار كباقي الناس.

عوج الرفائي:

تخلص الملك عوج من الغرق في زمن الطوفان لأنه مشى بجانب فلك نوح حيث كان الماء بارداً. أما في الجهات الأخرى فكان الماء يصل إلى درجة الغليان.

وكان الملك عوج يتغذى كل يوم بألفي ثور، ومثلها من الطيور ويشرب ألف صاع تقريباً من الماء.

ومن أخباره أنه لما اقترب من عاصمته جيش، وعلم أنه جيش بني اسرائيل الجرار الذي يشغل مسافة ثلاثة فراسخ من الأرض، اقتلع جبلاً مساحته ثلاثة فراسخ، وحمله على رأسه وذهب لمقابلة الجيش، فسلط الله على الجبل نملاً كانت تقرضه بأسنانها حتى حفرته حفراً موصلاً لرأس الملك، فسقط الجبل حول عنقه على هيئة طوق، فانتهز موسى الفرصة وأحضر معه بلطة طولها عشرة أذرع وقفز في الهواء بعلو عشرة أذرع، وضرب الملك عوج على عرقوبه فقضى عليه.

ومما يحكى عن الملك عوج أنه خلع له ضرس، فأخذه ابراهيم واستعمله سريراً لينام عليه. ومرة وجد ربي يوحانان عظمة ساق ميت، فمشى بجوارها ثلاث ساعات ولم ينته لآخرها، وكانت هذه ساق الملك عوج.

المسيح اليهودي والسيطرة على العالم:

إن المسح بالزيت بالنسبة للتقاليد اليهودية يعبر عن التكريس لخدمة الرب، إن كان الممسوح شخصاً أو مكاناً أو آنية. ووفقاً للعادات اليهودية كان يتم مسح الكهنة (خروج 41:28) والأنبياء (1 أيام 22:16) والملوك (2 صموئيل 10:19 و1:3و19 15:-16) وقد مسح صموئيل شاول ثم داود ملوكاً على اسرائيل.

ولأن اليهود قد تقوقعوا بسبب دينهم القبلي ثم اضطهدوا ولم يقدروا على تأسيس مملكة عظمى تكون أقوى من الممالك المجاورة، وتشتتوا عدة مرات، تولد لديهم حقد وكراهية لبقية الشعوب وولدت لهم آمال مسيانية بنهاية العالم لخدمة مصالح اليهود في عالم آخر ينتصرون فيه وينتقمون من أعدائهم. وأخذ أنبياؤهم يبشرون بيوم يظهر فيه «مسيح ملك» بعد أن ينتصر يهوه على أعدائه السياسيين ويجدد الميثاق والعهد مع اليهود. يعيد هذا الملك تأسيس المملكة في فلسطين، وبناء الهيكل ويكون العصر الذهبي بالنسبة لليهود.

ويجمع الأحبار التلموديون على أن هذا المسيح هو بشري، وليس بينهم من يشير إلى طبيعة له فوق طبيعة البشر. وهو يكون من نسل داود أو يوسف.وهكذا نرى أن المسيح اليهودي يختلف تماماً عن المسيح المسيحي، المسيح الروحاني الذي يهتم بجميع البشر.

وبما أن مجيء المسيح اليهودي هو «ميشيا» تجديد العالم، فلابد أن يسبق مجيئه عودة الفوضى وعماء البدء. وكأن آلام اليهود عبر تاريخهم هي آلام المخاض التي تسبق مجيء المسيح المنتظر. والحروب التي تسبق هذا المجيء هي حروب جوج وماجوج الذي يحاسب اسرائيل ثم ينتصر يهوه عليه.

«في الجيل الذي يسبق مجيء ابن داود، يشتم الصغار الكبار، ويضطر الشيوخ أن يقفوا لمن هم أقل منهم سنا، وتثور الابنة على أمها، وتتحول الأماكن التي كانت مخصصة للدراسة والتأمل إلى أماكن بغاء والرجال الذين يخافون الله يصبحون منبوذين...».

«وهناك سبع سنوات تأتي بالأمطار وبالمجاعة، ونسيان الشريعة، والرخاء الذي لا يفيد البشر، ثم تأتي فترة رخاء فعلي، ويتم تذكر الشريعة، وتسمع أصوات. وفي السنة السابعة تقع حروب وبنهاية السنوات السبع يأتي «ابن داود».

«ولما يأتي المسيح تطرح الأرض فطيراً وملابس من الصوف، وقمحاً حبه بقدر كلية الثور الكبيرة.

وفي ذلك الزمن ترجع السلطة لليهود وكل الأمم تخدم ذلك المسيح وتخضع له. وفي ذلك الوقت يكون لكل يهودي ألفان وثمانمئة عبد يخدمونه وثلاثمئة أكوان تحت سلطته».

«ولكن لا يأتي المسيح إلا بعد انقضاء حكم الأشرار (غير اليهود)، لذا يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع استملاك باقي الأمم في الأرض حتى تبقى السلطة لليهود وحدهم. لأنه يلزم أن تكون لهم السلطة أينما حلوا. فإن لم يتيسر لهم ذلك يعتبرون منفيين أو أسرى. ويستمر ضرب الذل والمسكنة على بني إسرائيل حتى ينتهي حكم الأجانب. وقبل أن يحكم اليهود نهائياً على باقي الأمم يلزم أن تقوم حرب على قدم وساق فتهلك ثلثا العالم، ويبقى اليهود سبع سنوات متوالية يحرقون الأسلحة التي اكتسبوها بعد النصر.

وحينئذ تنبت أسنان أعداء بني اسرائيل بمقدار اثنين وعشرين ذراعاً خارج أفواههم».

«وبعد حياة الحرب يأتي المسيح الحقيقي ويحصل النصر المنتظر ويقبل المسيح وقتئذ هدايا كل الشعوب ويرفض هدايا المسيحيين».

وتكون الأمة اليهودية اذ ذاك في غاية الثروة لأنها تكون قد حصلت على جميع أموال العالم. وهذه الكنوز ستملأ سرايات واسعة لا يمكن حمل مفاتيحها وأقفالها على أقل من ثلاثمئة حمار.

وترى الناس كلهم حينئذ يدخلون في دين اليهود أفواجا ويقبلون كلهم ما عدا المسيحيين، فإنهم يهلكون لأنهم من نسل الشيطان. ويتحقق منتظر الأمة اليهودية بمجيء اسرائيل، وتكون تلك الأمة هي المتسلطة على باقي الأمم عند مجيئه».

والعالم الجديد ليس كالعالم الحالي:

«ففي العالم الحالي يستوجب الوصول للخمر قطف العنب وعصره، أما في العالم المقبل فكل واحد يدخل إلى بيته بواسطة عربة أو مركب بحري حبة عنب واحدة ويضعها في إحدى الزوايا ويسحب منها الخمر الذي يريد...

ولا توجد حبة عنب واحدة لا تعطي ثلاثين مكيالاً من الخمر...

في هذا العالم يلزم ستة شهور لنضج الحبوب، وستة لكي تعطي الأشجار ثمارها. وفي العالم الآخر تنضج الحبة خلال خمسةعشر يوما، وإثمار الأشجار خلال شهر واحد... وأحسن من ذلك تنتج اسرائيل في العالم الاخر خبزاً من أدق الطحين وألبسة من أنقى الصوف... النساء يلدن يوميا والأشجار تعطي ثمارها يوما بيوم.

وفي العالم الاخر يجدد القدوس الأوحد عشرة أشياء:

1 ـــ ينير العالم بنوره الأزلي.

2 ـــ يفجر في أورشليم الماء الجاري. وكل مريض فيها يجد الشفاء.

3 ـــ ينضج كل شهر ثمار الأشجار وكل من يأكل منها يشفى.

4 ـــ كل المدن التي خربت يعاد بناءها ولا يبقى مكان فارغ في العالم، سدوم وعمورة يعاد بناؤهما في العالم الآخر.

5 ـــ تبنى أورشليم بأحجار الياقوت ويأتي الوثنيون لمشاهدة مجد اسرائيل.

6 ـــ يعم السلام العالم، الدب والبقرة يرعيان معا.

7 ـــ يجمع الرب الحيوانات والطيور والزحافات، ويجعل بينها وبين اسرائيل ميثاقا.

8 ـــ البكاء والأنين يختفيان من العالم.

9 ـــ الموت يترك العالم، ويبيد الموت إلى الأبد.

10 ـــ لن يكون بعد ذلك أي شكوى أو احتجاج أو حزن إذ قيل «ومنفيو الرب يرجعون ويأتون إلى صهيون بترنم وفرح ابدي على رؤوسهم».

وكذلك في العالم الآخر تعود شعوب الأرض التي كانت تتكلم سبعين لغة وتجتمع كلها لتمجد الرب ولتخدمه. وفوق الجميع وفوق كل شيء تبارك اسرائيل بمجيء المسيح اليهودي. وتتبوأ إسرائيل مركزها العالمي الذي أعدها له الرب.

«وكما شجرة الكرمة ترتفع أقل من غيرها وهي مع ذلك أفضل من كل الأشجار، كذلك اسرائيل، وجدت لتظهر متواضعة وضعيفة في هذا العالم، ولكنها في العالم الاخر ترث الكون بأجمعه، وكما ثمرة الكرمة تداس بالأرجل ولكنها بعد ذلك تحتل مركز الصدارة على موائد الملوك، كذلك اسرائيل وجدت لتكون مكروهة في هذا العالم. أما في العالم الآخر فيضعها الرب في القمة».

محاكمة أعداء اسرائيل في العالم الآخر:

«وفي العالم الآخر يأخذ «القدموس الأوحد» بيده «التورا» وينادي بقوله: ليتقدم الذي خدم هذه التورا ويأخذ مكافأة. وتتزاحم الأمم للمجيء إليه بدون ترتيب، ويأمر بأن تتقدم كل أمة بواسطة حكمائها. فيأتي دور الامبراطورية الرومانية، فيسألها القدوس الأوحد «إلى أي المشاغل اتجهت؟» فتجيب الامبراطورية الرومانية بأنها أقامت أسواقا عديدة، وأسست حمامات كثيرة، وكدست الذهب والفضة، وكل ذلك لتمكن اسرائيل من التفرغ

للتورا. فيجيب الرب الرومان: «كل ما صنعتموه كان من أجلكم أنتم. الأسواق التي كانت ملتقى البغايا. والحمامات لتسليتكم. أما الذهب والفضة فهما لي وحدي» وتبتعد بائسة الامبراطورية الرومانية. ويأتي بعد ذلك دور الفرس ليقولوا بأنهم بنوا جسوراً كثيرة واستولوا على مدن عديدة واشتركوا في حروب عديدة وكل ذلك بسبب اسرائيل لكي يتمكن من التفرغ للتورا. فيجيبهم الرب بأن الجسور كانت لجمع الضرائب لقاء المرور فوقها. والمدن المحتلة كانت لإجبار الأهالي على العمل من أجلهم. أما الحروب «فأنا الذي أقوم بها» ويختفي هذا الشعب لتوه بائساً. ولما كان الفرس قد ساعدوا على إعادة بناء المعبد (في عهد كوروش) فقد يشفع لهم هذا العمل».

«وتقدمت بعد ذلك بقية الأمم وقالت للرب: يا سيد الكون، هل أعطينا التورا ورفضناها؟ ورفضت حججهم طبعاً، على اعتبار أن الرب عرض التورا على مختلف الأمم قبل عرضها على اليهود، ورفضها الجميع إلا اسرائيل. وقدمت الأمم حججاً أخرى لم تقبل. وتنتهي المحاكمة بفشل جميع الأمم وبتمجيد اسرائيل».

سليمان وملكة سبأ

سليمان هو ملك المملكة العبرانية الثالث (963–923 ق.م) وهو ابن الملك داود بن بتشبع امرأة اوريا الحثي وخلفه. أعلن أخوه أدونيا ملكاً لكن النبي ناثان وبتشبع تآمرا عليه وصار سليمان ابنها ملكاً، ثم قتل سليمان أخاه ليستقر له الملك. تحالف مع حيرام ملك صور الكنعاني فأرسل له هذا المهندسون والبناؤون وخشب الأرز إلى أورشليم حيث بنى الهيكل الشهير القصر في 13سنة. استغل أعمال السخرة وفرق بين رعاياه في الشمال ورعاياه في الجنوب مما قاد في النهاية إلى انقسام المملكة. لم يهيء خلفاً كفوءاً يخلفه. وكان قد عاش في المجون والخمر والنساء وكان له 700 زوجة و300 من السراري.

وربما نطق سليمان ببعض الحكم فلقب بالحكيم ونسبت إليه كتب الحكمة رغم أن أسفار الحكمة قد تبت في عهود متأخرة، ولم يسمع هو بها. فسفر الأمثال كتب في القرن (5ق.م) وسفر الجامعة كتب في أواخر القرن (3ق.م) وسفر الحكمة في القرن (2ق.م) ومزامير سليمان في القرن الأول قبل الميلاد وقصائد سليمان في القرن (2ق.م)، أي أنها جميعا قد كتبت بعد سليمان بزمن كبير.

وقد رويت الحكمة عن سليمان في التوراة والتلمود والقرآن والأسطورة الشعبية كأسطورة بساط الريح والخاتم السحري والتكلم مع النملة والهدهد واستقدام بلقيس ملكة سبأ بعد أن سمعت بحكمته وأن ختمه كان نجمة سداسية وأنه كان في خاتمه أربع جواهر مهداة له من أربع ملائكة تمكنه من التحكم بالطبيعة وأنه استخدم الجن والعفاريت وأنه بنى تدمر. ولكثرة ما وصف بالحكمة فقد قام كتبة أسفار الحكمة بإسنادها إلى سليمان لتقوية اسنادها كما فعل مؤلفو الأحاديث النبوية في الاسلام.

إن أول من دخل الحضارة في الجزيرة العربية كان مملكة سبأ وكانت عاصمتها «سروه» من (750 –610 ق.م) ثم مأرب من (610–115 ق.م)، وقد تطورت من دولة دينية في عصورها الأولى تحت حكم المكاربة إلى دولة زمنية، وأول مكرب سمى نفسه ملاً هو «كريبا ايل» نحو (700 ق.م)، أي أن الملكية بدأت فيها بعد سليمان بقرنين ونيف.

وسفر التكوين من ميثولوجيا الأصول يناقض نفسه عندما يجعل سبأ في (7:10) من نسل حام وفي (28:10) من نسل سام. إلا أن الرواة العرب أنصاف المؤرخين زعموا أن «يعرب بن قحطان» تغلب على قوم عاد نحو (800 ق.م) في اليمن وأنه كان أعظم ملوك العرب العاربة، وملك بعده ابنه «يشجب» ولم يكن قوياً كأبيه ثم ملك ابنه «عبد شمس» وسمي «سبأ» لأنه كان أول من سن عادة السبي، وبنى مدينة سبأ وسد مأرب. وقد بني هذا السد تاريخياً في أواسط القرن (7ق.م) وانهار عام (542 ق.م) مما أدى إلى خراب الأراضي الزراعية.

ومن أخبار بلقيس ملكة سبأ قال رواة العرب أنها بنت اليشرح وأنها خضعت لسليمان وسلمت له ملك اليمن. وقد رويت قصة بلقيس هذه مع الملك سليمان في التوراة في سفر الملوك الأول 10:1–10 وأخبار الأيام الثاني 9:1–9 والترجوم الثاني عن استير ثم أدخلت

في القرآن في سورة النمل 20-44، غير أن طير المراسلة في الترجوم هو «ديك الصحراء» بينما القرآن يسميه «الهدهد». وقد كتب سفر الملوك نحو عام 550 ق.م بنصه النهائي.

«وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت لتمتحنه بمسائل. فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً وحجارة كريمة، وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها. فأخبرها سليمان بكل كلامها. ولم يكن أمراً مخفياً عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه، وطعام مائدته ومجلس عبيده وموقف خدامه وملابسهم وسقاته ومحرقاته التي كان يصعدها في بيت الرب لم يبق فيها روح بعد. فقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك. ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي. فهوذا النصف لم أخبر به. زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته. طوبى لرجالك وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السامعين حكمتك. ليكن مباركاً الرب الهك الذي سر بك وجعلك على كرسي اسرائيل. لأن الرب أحب اسرائيل إلى الأبد، جعلك ملكاً لتجري حكماً وبراً. وأعطت الملك مئة وعشرين وزنة ذهب وأطياباً كثيراً جداً وحجارة كريمة. لم يأت بعد مثل ذلك الطيب في الكثرة الذي أعطته ملكة سبأ للملك سليمان».

(ملوك 101:1-10)

قصة سليمان وملكة سبأ كما وردت في الترجوم:

مرة أخرى لما انشرح قلب سليمان بخمرة، أمر باحضار حيوانات الصحراء وطيور الهواء وزحافات الأرض والجن والأرواح والعفاريت لترقص أمامه، ليظهر بذلك عظمته لجميع الملوك الذين كانوا خاضعين خاشعين أمامه. فاستدعى كتبة الملك بأسمائهم فاجتمعوا وأتوا إليه ما عدا المسجونين والأسرى والرجل الذي فوضت له حراستهم، وكان «ديك الصحراء» في تلك الساعة يمرح بين الطيور ولم يوجد. فأمر الملك من جهته بأن يحضروه بالقوة وهم بإهلاكه. فرجع ديك الصرحاء ووقف أمام حضرة الملك سليمان وقال له: اسمع يا مولاي ملك الأرض، وأمل أذنك واسمع أقوالي. ألم تمض ثلاثة أشهر من حين ما تفكرت في قلبي وصممت تصميما أكيداً بأن لا آكل ولا أشرب ماء قبل أن أرى كل العالم وأطير فيه. وقلت ما هي الجهة أو ما هي المملكة غير المطيعة لسيدي الملك. فشاهدت ورأيت مدينة محصنة اسمها «قيطور» في أرض شرقية. وترابها ثقيل من الذهب والفضة كزبالة في الأسواق. وقد غرست فيها الأشجار من البدء وهم شاربون الماء من جنة عدن. ويوجد جماهير يحملون أكاليل على رؤوسهم، فيها نباتات من جنة عدن لأنها قريبة منها. ويعرفون الرمي بالقوس، ولكن لا يمكن أن يقتلوا بها. وتحكمهم جميعهم امرأة اسمها «ملكة سبأ» فإذا تعلقت ارادة مولاي الملك فليمنطق حقوى هذا الشخص وارتفع واصعد إلى حصن قيطور إلى مدينة سبأ، وأنا أقيد ملوكهم بالسلاسل وأشرافهم بأغلال الحديد وأحضرهم إلى سيدي الملك. فوقع هذا الكلام عند الملك موقعاً حسناً. فدعي كتبة الملك وكتبوا كتاباً، وربطوا الكتاب بجناحي ديك الصحراء. فقام وارتفع إلى السماء وربط تاجه وتقوى وطار بين الطيور. فطاروا خلفه وتوجهوا إلى قلعة قيطور إلى مدينة سبأ.

واتفق في الفجر أن ملكة سبأ كانت خارجة إلى البحر للعبادة، فحجبت الطيور الشمس. فوضعت يدها على ثيابها ومزقتها ودهشت واضطربت. ولما كانت مضطربة دنا منها ديك الصحراء فرأت كتاباً مربوطاً في جناحه. ففتحته وقرأته وهاك ما كتب فيه:

«مني أنا الملك سليمان سلام لأمرائك لأنك تعرفين أن القدوس المبارك قد جعلني ملكاً على وحوش الصحراء وعلى طيور الهواء وعلى الجن وعلى الأرواح وعلى العفاريت وكل ملوك الشرق والغرب والجنوب والشمال يأتون للسؤال عن سلامتي. فإذا أردت وأتيت للسؤال عن صحتي فحسناً تفعلين وأنا أجعلك أعظم من جميع الملوك الذين يخرون سجداً أمامي. وإذا لم تطيعي ولم تأتي للسؤال عن صحتي، أرسل عليك ملوكاً وجنوداً وفرساناً. وإذا قلت ما هم الملوك والجنود والفرسان الذين عند الملك سليمان، إن حيوانات الصحارء هن ملوك وجنود وفرسان. وإذا قلت ما هي الفرسان؟ قلت إن طيور الهواء هي فرسان. وجيوش الأرواح والجن والعفاريت هم الجنود الذين يخنقونكم في فرشكم في داخل بيوتكم. حيوانات الصحراء يقتلونكم في الخلاء، طيور السماء تأكل لحمكم منكم».

فلما سمعت ملكة سبأ أقوال الكتاب ألقت ثانية يدها على ثيابها ومزقتها وأرسلت واستدعت الرؤساء والأمراء وقالت لهم: ألم تعرفوا ما أرسله إلي الملك سليمان؟» فأجابوا قائلين: «لا نعرف الملك سليمان ولا نعتد بمملكته، ولا نحسب حساباً.» فلم تصغ إلى أقوالهم بل أرسلت واستدعت كل مراكب البحر وشحنتها هدايا وجواهر وحجارة ثمينة وأرسلت إليه ستة آلاف ولد وابنة. وكلهم ولدوا في سنة واحدة وشهر واحد ويوم واحد وساعة واحدة، وكانوا كلهم لابسين ثياباً أرجوانية.

ثم أنها كتبت كتاباً وأرسلته إلى الملك سليمان على أيديهم «وهذا نصه»:

«من قلعة فيطور إلى أرض اسرائيل سفر سبع سنين. إنه بواسطة صلواتك وبواسطة استغاثات التي التمسها منك سآتي إليك بعد ثلاث سنين».

فوقع بعد ثلاث سنين أن أتت ملكة سبأ إلى الملك سليمان. ولما سمع الملك سليمان أن ملكة سبأ أتت أرسل إليها «بنايا بن يهويا داع» الذي كان كالفجر الذي يبزغ في الصباح وكان يشبه كوكب الجلال التي تتلألأ وهي ثابتة بين الكواكب، ويشبه السوسن المغروس على مجاري المياه. ولما رأت ملكة سبأ بنايا بن يهويا داع نزلت من العربة. فأجاب بنايا بن يهويا داع قائلاً: «لماذا نزلت من عربتك؟ فأجابته وقالت له «ألست أنت الملك سليمان؟ فأجابها وقال لها: «لست أنا الملك سليمان بل أحد خدامه الواقفين أمامه» ففي الحال التفتت إلى خلفها ونطقت بمثل للأمراء: «إذا لم يظهر أمامكم الأسد فقد رأيتم ذريته. فإذا لم تروا الملك سليمان فقد شاهدتم جمال شخص واقف أمامه.»

فأتى بنايا بن يهويا داع أمام الملك. ولما بلغ الملك أنها أتت أمامه قام وذهب وجلس في بيت بلوري. ولما رأت ملكة سبأ أن الملك جالس في بيت بلوري توهمت في قلبها قائلة أن لها شعراً على الساقين. فأجاب الملك قائلاً لها: «إن جمالك هو جمال النساء، وشعرك هو شعر الرجل، فالشعر هو حيلة الرجل ولكنه يعيب المرأة».

فأجابت ملكة سبأ قائلة: «يا مولاي الملك سأنطق لك بثلاث أمثال. فإذا فسرتها لي فأعرف أنك حكيم وإلا كنت كسائر الناس ففسر الملك سليمان لها الثلاثة أمثال. فقالت: «يتبارك الرب الهك الذي سر ب وأجلسك على عرش المملكة لتجري قضاء وعدلاً.» وأعطت للملك ذهباً وفضة وأعطاها الملك كل ما اشتهت».

سليمان وملكة سبأ

نعرف من الناحية التاريخية أن الدولة العبرية ثم مملكتي إسرائيل ويهودا فيما بعد لم تكن سوى مدن — دول في نظام المدينة الدولة المتفكك قبل توحيد سوريا التاريخية، غير أن داود وسليمان وما نسج من هالة دينية واسطورية حولهما جعل من إسرائيل شيئا معروفا في التاريخ وعلى النطاق العالمي أكثر بكثير من الدول المدن الأخرى المنتشرة في سوريا.

ومع أن داود أكثر تاريخية وأكثر عظمة من سليمان كملك مؤسس ومتدين إلا أن سليمان، الشخصية المتلألئة التي نسب إليها الكثير من المجد والحكمة التي لا تتفق مع تاريخه وتدينه وتجعله شخصية نصف أسطورية بسبب غلبة الأسطورة على الواقع في تتريخه.

لقد أزاح أخاه أدونيا عن الملك وقتله وحكم أرضاً تمتد من دان إلى بئر السبع وبنى هيكلاً وقصرا ومشاريع واستخدم السخرة وصرف ثروة طائلة في سبيل ملاذه وإشباع شهواته حتى أنه جمع ألفا من الزوجات والسراري. ثم نسب إليه أن حكمته فاقت حكمة جميع بني الشرق وكل حكمة مصر وأنه نطق بثلاثة آلاف مثل وأنشد ألف نشيد وخمسة وأنه تكلم عن الكبيرة والصغيرة من النبات والحيوان فجمعت حكمه وأقواله في ستة كتب متأخرة ما بين العهد القديم والابوكريفا.

غير أن سليمان شجع التجارة مستعيناً بالكنعانيين وقوافلهم كما أنشأ اسطول البحر الأحمر للاتجار مع بلاد العرب وإفريقيا. ولعل هذا ما أوحى بقصة ملكة سبأ التي سماها المؤرخون العرب بلقيس وجعلت ملكة على اليمن بسبب صلة اليمن بالحبشة، الأكيدة تاريخياً بينما القصة الأصلية هي أسطورة حبشية! لأن الأساطير الحبشية تعود بالعلاقة بين اليمن والحبشة إلى عهد سليمان — ذلك أن «ماكيدا» كانت ملكة تحكم الحبشة واليمن معاً — ويتخذ الأحباش من حكم هذه الملكة مبدأ لتاريخهم كما يعتبرون زيارتها لسليمان وإنجابها ولدا منه هو «ابن الحكيم» منيليك أساساً لملكهم.

مملكة أكسوم

مدينة أكسوم هي العاصمة القديمة لأثيوبيا ومركزها الروحي والحضاري حتى اليوم، وهي تقع في ولاية تغري الشمالية، وارتفاعها عن سطح البحر 2135 م. وتوجد تدوينات عنها ترقى إلى القرن الأول م وعن تجارتها مع المحيط الهندي. وفي عام 525 زارها الراهب قزما فتعجب من آثارها ومن كنائسها. كما ذكرت في الكتابات القديمة ـ الحبشية والعربية الجنوبية واعتبرت مدينة مقدسة. ومن أكبر الأعمال الأدبية الحبشية «كبرا ناغاست» (مجد الملوك) التي تحكي قصة نقل «منيليك» لتابوت العهد من أورشليم إلى أكسوم ـ صهيون الجديدة ـ وهو ابن ملكة سبأ. والملك سليمان. ـ كما يقولون أن «تابوت العهد» محفوظ في قدس الأقداس في كنيسة العذراء «مريم صهيون» في أكسوم منذ القرن 6 م كما يوجد في كل كنيسة حبشية نسخة عن هذا التابوت.

نشأتها:

كان العرب الجنوبيون (اليمن) يبنون المستوطنات التجارية على جانبي البحر الأحمر فاستوطنوا شمال أثيوبيا ـ وكان منهم قبيلة الحبشات اليمنية التي أعطت للبلاد أحد أسمائها (الحبشة) وقبيلة الجعز التي فرضت لغتها في أكسوم. وبعد أن سيطر هؤلاء اليمنيون على الهضبة الشمالية أسسوا مملكة أكسوم (Aksum). ومن غير الواضح متى بدأ هذا الاستيطان من اليمن غير أن أقدم كتابة عربية جنوبية وجدت (في يحا) تعود إلى القرن 5 ق.م. ويعتقد أن اتحاد القبائل اليمنية كون مملكة اكسوم وكانوا يدفعون الجزية لملوك اليمن فعرفوا باسم «نجاش» وفق المعنى الأصلي للكلمة (دافع الجزية) ومع تبدل الزمن أصبحت كلمة «نجاشي» تعني ملك أو أمير. ولما تمكن ملوك أكسوم من السيطرة على كل الملوك والامراء المحليين وتوحيد الحبشة سمي ملك أكسوم «نجوسا ناجاشت» أي «ملك الملوك» ونجاشي النجاشيين ثم أصبح اسمه «نجاشي» أي ملك.

وبعد فتح الاسكندر لمصر تكونت مستوطنات ـ مصرية ـ يونانية في ادوليس (زولا) التي وصفت في القرن الأول أنها ميناء مفتوح يقيم فيه يونان ورومان بغرض التجارة. ولما اشتدت المنافسة التجارية بين الرومان والفرس كان ملوك أكسوم يرسلون الحملات إلى جنوب العربية في القرن 3 و 6 لطرد الفرس. وفي عهد جستنيان (527 – 565) طلب الامبراطور من ملك أكسوم أن يشتري التجار الأحباش من الهند أكبر كمية ممكنة من الحرير الصيني الواصل إلى أسواقها ثم يبيعونه بدورهم إلى تجار الامراطورية الرومانية ويمنعونه عن الفرس وحلفائهم. غير أن العملية فشلت بسبب اجراءات الفرس المضادة.

وبواسطة الجماعات التجارية الاغريقية ـ الرومانية في حوض البحر الأحمر دخلت المسيحية إلى الحبشة وربطتها ثقافياً بعالم البحر المتوسط. وحسب التاريخ الكنسي الذي كتبه «روفينوس» في النصف الثاني من القرن 4 م. أنه وصل الحبشة شخص سوري اسمه فرومنتيوس في النصف الأول من القرن الرابع الميلادي ونشر المسيحية في الطبقة

الحاكمة. ثم أخذوا يتقبلون الآداب اليونانية في الحبشة خاصة في التعليم الديني وأصبحت اليونانية اللغة الثانية في الكتابات الرسمية.

ثم بدأ الخطاط مملكة أكسوم في النصف الثاني من القرن 6 وبداية القرن 7. ومن الحرب التي شنها الامبراطور جستيان (518-527) ضد الفرس غزا «كالب» ملك أكسوم بلاد اليمن وأقام امير عربياً هناك تابعاً له لحماية الجماعة المسيحية في نجران من اضطهاد ملك اليمن. وبعد زمن قصير سقط الأمير الصنيعة وأعلن القائد الحبشي «ابرهة» نفسه مستقلاً في أكسوم بعد أن كان قائد حملة اليمن. ثم قام ابرهه بحملة فاشلة على مكة عام 570 (عام الفيل) ثم طرد الفرس الأحباش من اليمن عام 572 بمساعدة الملك الحميري سيف بن ذي يزن (ت 574).

وبعد ظهور الإسلام عزلت الحبشة عن بلدان البحر المتوسط وبدأت عصورها المظلمة وأصبح التوسع الاكسومي يتجه جنوباً فكثرت العناصر الإفريقية في المملكة وسيطرت سلالة زغوي (Zagwe) ونقلت العاصمة من اكسوم إلى «روحا» واعتبرت الكنيسة الاثيوبية ثلاثة من ملوك هذه السلالة والملكة مسقل كبرا من القديسين. وفي عام 1270 سقطت هذه السلالة وانتقلت السلطة إلى السلالة السليمانية التي تنسب الاساطير تحدرها من منيليك الأول ابن سليمان وملكة سبأ.

كنيسة الحبشة:

أصبحت الحبشة بلداً مسيحياً منذ القرن 4 على يد فرومنتيوس عام 431 ويعتبر أول اسقف عليها. وفي القرن الخامس بدأت الرهبنة بتسعة رهبان سوريين وتحولت إلى المونوفيزية. وسادت اللغة الامهرية منذ القرن العاشر ويعترفون بعدة كتب أبوكريفية هي «راعي هرماس» و«صعود اشعيا» و«سفر أنوخ». كما يمارسون الختان في الكنيسة الاثيوبية ويحافظون على السبت وعلى نسخة من تابوت العهد في كل كنيسة — كما كان يسمى نجاشي الحبشة «اسد يهوذا» وهذا مثل صريح لما تلعبه الأساطير من دور في تكوين العقائد الدينية عبر التاريخ.

سليمان وماكيدا

الأصل الحبشي لقصة سليمان وملكة سبأ

الشرق الأدنى القديم

د.نجيب ميخائيل ابراهيم - دا رالمعارف 1966

كانت ماكيدا ملكة تحكم الحبشة واليمن وكانتا تكونان مملكة عظيمة تسامع عنها الناس في جميع أنحاء العالم. ويتخذ الأحباش من حكم هذه الملكة مبدأً لتاريخهم كما يعتبرون زيارتها لسليمان وإنجابها منه ولدا هو ابن الحكيم «منيليك» اساساً لملكهم. كانت ماكيدا فائقة الجمال والحكمة ذهبت إلى سليمان لتتزود بكلمته. وكانت واسعة الشراءِ كان هناك تاجر كبير يدعى «تمارين» أو «تمر الدين» يملك خمسمائة وعشرين جملاً وثلاثمائة وسبعين سفينة.

وعندما سمع سليمان به أرسل إليه من يدعوه ليحمل له بعضاً من تجارة الجزيرة العربية من الذهب الأحمر والخشب الأحمر. الذي يعز على السوس. فلبى التاجر الرسالة وذهب إلى هناك واشترى منه الملك كل ما عرضه عليه من ثمين العروض وأجزل له العطاء.

وعاش تمر الدين فترة في بلاط سليمان وشهد مجده وثراءه وأعجب بطريقة حكمة لشعبه وبحب شعبه له حتى إذا عاد إلى ملكته «ماكيدا» روى لها بعض ما شهده وأعجب به من حكمة سليمان الذي كانت كلماته كالماء للعطشان، والخبز للجائع والدواء للمريض، والكساء للعاري. كما قص عليها أمر هيكله وكيف كان يستخدم في بنائه سبعمائة نجار وثمانمائة بناء..

واستمعت الملكة في سأم في أول الأمر ثم باهتمام بعد ذلك حتى عولت على الشخوص إلى سليمان ولم يكن يثنيها ما تعرفه عن طول الرحلة ومشاقها فأمرت تمر الدين فأعد سبعمائة وسبعة وتسعين جملاً وعدداً لا يحصى من الجمال والحمير والبغال. وبدأت رحلتها الخطيرة محوطة بكل أسباب العظمة والفخامة.

ولما وصلت إلى هناك استقبلها الملك وأحاطها بجميع أسباب الترحيب وخصص لها جناحا بقصره ووفر لها أسباب الراحة وعين لها فرقة من خمس وعشرين مغنية وخمس وعشرين راقصة لإدخال السرور إلى نفسها. وكان يداوم على زيارتها في جناحها لما يحسه من متعة الجلوس إليها والاستماع إلى حديثها أو قد اكتشفت أنه كان يعرف لغات الحيوان والطير كما يملك قوى يسيطر بها على الأرواح والشياطين التي كانت تأتمر بأمره. وشرح لها سليمان قوة إله إسرائيل (وكانت من قبل تعبد الشمس كما يعبدها شعبها) فسرعان ما تنكرت لديانتها واعترفت بقوة الإله الأحد خالق السماء والأرض.

وأمضت ستة أشهر في الضيافة أرسلت في نهايتها إليه من ينبئه برغبتها في العودة إلى مملكتها فامتلأ حزناً وراودته فكرة الزواج منها فدعاها إلى قصره ولبت الدعوة وأفرد لها جناحاً به غرفة مزينة بأبهج وأجمل وأغلى ما عرفه العالم من جواهر وطنافس وستائر وكان الطعام يحمل إليها في جناحها محتوياً أطايب الطعام والشراب مما جعلها تقبل عليه بنهم كبير. وزاد في إقبالها عليه ما كانت تحويه المائدة من نبيذ فاخر وأفاوية تفتح الشهية وتزيد العطش وكثيراً ما كان سليمان يشاركها الطعام.

وذات ليلة لاحظ سليمان — بعد أن فرغا من الطعام — ثقل جفونها من فرط ما أكلت وشربت فاشار عليها أن تستريح حيث هي حتى الصباح. وصادف الاقتراح هوى في نفسها وخضعت له. بعد أن أخذت عليه عهداً وجعلته يقسم بإله اسرائيل ألا يغتصبها بالقوة فإن ذلك يجعلها تعود أدراجها مسربلة بالحزن والخزي والعار. فأجابها سليمان أنه يقسم لها أن لا يغتصبها بالقوة إذا أقسمت له هي بدورها أنها لا تأخذ بالقوة أيضاً شيئاً مما في قصره.

فضحكت الملكة منه قائلة «ما بال الرجل الحكيم يتكلم كغير الحكماء؟» ألصة هي لتسرق منه ما لا يود إعطاءه إياها؟ وهل يتصور أنها أتت من بلادها يسوقها إليه حب الثروة أو المال فبلادها غنية مليئة بكل ما يسر الأعين وتشتهيه النفس. إنها أتت إليه وما تجشمت كل هذه المتاعب والمصاعب إلا لتسمع من حكمته..

فأجابها أنه لا يأخذ منها قسمها إلا مقابل قسمه. فما دامت تصر هي على أن يقسم لها فلتقسم هي أيضاً كي لا يكون أحدهما مغبوناً في الصفقة وهو مستعد لأن يعفيها من قسمها إذا أعفته من قسمه فتبادلا القسم وهما يضحكان.

وحينئذ جهز الخدم لسليمان سريراً في ناحية من الحجره وآخر لـ «ماكيدا» في الناحية الأخرى، وأمر سليمان باللسان العبري برفع الماء من كل القصر إلا بجوار سريره وأن يغلقوا الأبواب. وذهب كل منهما إلى سريره واستغرقت الملكة في النوم بينما تظاهر الملك به وظل مستيقظاً. وإذا ما انتصف الليل استيقظت الملكة وشفتاها تكادان تلتهبان من الجفاف والعطش وحلقها يكاد يتحجر ورغم كل المحاولات التي فعلتها من ابتلاع ريقها وتحريك لسانها وامتصاص شفتيها فإنها لم تنجح في ترطيب حلقها بعض الشيء. فلم يكن أمامها إلا أن تبرح سريرها بحثاً عن الماء بعد أن أمضت بعض الوقت في مراقبة الملك مخافة أن يكون يقظاناً. فاسترقت الخطى بكل سكون إلى حيث الماء وما كادت تمد يدها إليه حتى استيقظ الملك وأمسك بيدها وقال: لماذا أبحت لنفسك أن تتحللي من قسمك الآن لتغصبي بعض ما أملك؟ ولشدة خوفها سألته: وهل شرب الماء تحلل من هذا القسم؟ فأجابها: أتعلمين في الدنيا شيئاً أثمن من الماء؟ فلم تجد الملكة بداً وقد أحلت نفسها من القسم أن تحله من قسمه..

وأخيراً استأذنت «ماكيدا» في العودة إلى شعبها فأذن لها بعد طول تردد وأعطاها هدايا كثيرة وستة آلاف جمل لقطع الصحراء وسفينة لعبور البحر وأخرى لتسافر بها في الهواء وكان سليمان قد صنعها بارشاد من الله بعد أن أعطاها الخاتم الذي كان في أصبعه كي لا تنساه. وأوصاها أن ترسل إليه ابنه يوماً ومعه هذا الخاتم ليكون علامة له..

وسارت القافلة حتى مكان يدعى «بالأذزادي ساريا» حيث أتتها آلام المخاض وولدت طفلاً ذكراً.. واستقبلها أهل الحبشة عند وصولها بمظاهر الترحيب والاجلال.. وكان هذا الابن راساً فيما بعد للأسرة الحاكمة في الحبشة ــ حتى الآن (؟) ينتسب إلى سليمان ابن داود ويلقب بـ «الأسد الخارج من سبط يهوذا».

وتشير الأساطير بعد ذلك إلى أن ابن «ماكيدا» سأل حين بلغ الثانية عشرة عن أبيه فقيل له أنه من بلاد بعيدة، ولكن بعد عشر سنوات ــ بعد أن اشتد عوده واتقن الحرب والفروسية ــ خرج في صحبة «تمر الدين» في قافلة إلى أورشليم ومعه الخاتم ليثبت لسليمان صحة نسبه منه. وسار «ابن الحكيم» (وهذا اسمه) حتى حدود فلسطين وعرفه الناس من ملامحه أنه ابن سيدهم. وعرف الملك نبأ ذلك فأرسل إليه من يستحثه في السير. وحين وصل عرفه الملك وقبله وألبسه تاجاً على مفرقه وخاتماً في أصبعه وأجلسه معه على العرش قائلاً لقومه. هذا اسرائيلي من سبط داود». وقد سأل «ابن الحكيم» أباه حين أعطاه الخاتم الذي كانت قد سلمته إياه أمه ــ ساله مقابله جزءا من غطاء تابوت العهد لتقدسه أمه وتعبده وشعبها وحاول سليمان أن يستبقي ابن الحكيم ولكنه أصر على العودة إلى أمه، ومعه قطعة من تابوت العهد ورضخ سليمان لالحاح ابنه وأمر بأن يرافقه جمع من الشبان من أبناء الاعيان ليخدموه هناك وقد تزود بشريعة موسى وقانونها وبالكثير من الهدايا. ولكن أصحابه ومرافقيه من أبناء الأعيان شق عليهم فراق ذويهم ونصحهم «عازرين صادوق» الكاهن أن يحملوا معهم تابوت العهد وبين لهم الطريقة التي يستطيعون بسها سرقة تابوت العهد.. واستأذن «ابن الحكيم» أباه في أن يقدم ذبيحة إلى الاله قبل أن يترك أورشليم ورحب أبوه بذلك الأمر.

وفي أثناء تقديم الذبيحة حمل «عازر» وأصحابه صندوق كانوا قد صنعوه على صورة تابوت العهد واستبدلوه ثم غطوه بالأغطية الغالية وانسحبوا إلى بيوتهم بعد أن أغلقوا الأبواب وحملوا المفاتيح إلى الكاهن.

وارتحل الجمع ثم تذكر سليمان وعده بإعطاء قطعة من التابوت لابنه ليحملها إلى أمه فأمر «صادوق» أن يذهب إلى الهيكل ويأتي بغطاء التابوت القديم ويضع بدله غطاء جديداً ــ ففعل ذلك صادوق دون أن يكشف الخدعة السابقة وأعطى سليمان ولده الغطاء القديم.. ففرح به وهكذا كان له التابوت والغطاء معاً دون أن يدري ــ ذلك إنه لم يعلم بأمر سرقة التابوت إلا حين وصل مع صحابه إلى مصر فعجب حين شهد تماثيل المصريين تنحني للتابوت وتسجد له حين يحمل ماراً بها. وعند عبورهم البحر حملتهم الملائكة على أجنحتها وكانت الاسماك تخرج من الماء وتجتمع حولهم طيور السماء لتحييهم وتغني معهم أغاني الفرح والسرور حتى وصلوا سالمين إلى حدود الحبشة وكانوا يقطعون في اليوم الواحد ما يقطعه غيرهم في ثلاثة عشر يوماً.

كان سليمان قد روى ل «صادوق» حلماً شهده عقب اتصاله ب «ماكيدا» من أنه شهد شمساً ساطعة في السماء سارت حتى وصلت إلى اثيوبيا واستقرت هناك مما سبب له اضطراباً كبيراً.. وارتعد «صادوق» وأسرع ليكشف الأغطية عن التابوت وعندئذ أدرك أمر استبداله بغيره.. وأمر سليمان بمطاردة ابنه ورفاقه.. ولما وصل المطاردون إلى مصر

علموا أن من يبحثون عنهم رحلوا منذ تسعة أيام فأيقنوا أنهم قد فشلوا وأن التابوت قد خرج من أيديهم إلى الأبد..

وحين وصل «ابن الحكيم» استقبلته أمه في أكسوم» وشهدت التابوت يسطع كالشمس فخرت ساجدة ودارت ترقص فرحة وأمرت بنحرِ الذبائح ثم نصبت ابنها قائداً وجعلت أعيان البلاد يقسمون ألا يجعلوا عليهم مستقبلاً ملكة مطلقاً وإلا يقبلوا عليهم ملكاً إلا من نسل سليمان بن داود كما نصبت «عازر» كاهناً أعظم. وظلت تحكم مع ذلك حتى موتها حين انتقل العرش نهائياً إلى ابنها وجدد المتعاهدون مواثيقهم على الولاء له. وقد اختار لنفسه اسم «منيليك» ونظم دولته على غرار مملكة أبيه في أورشليم ونظم قوانينها وفقاً للقوانين الموسوية.

(هذه هي أسطورة سليمان وملكة سبأ أو ملكة الحبشة ماكيدا كما نقلها د.نجيب مخائيل ابراهيم في كتابة «الشرق الأدنى القديم»).

الميثولوجيا الغنوصية

الغنوصية (GNOSTICISM) هي مذهب فلسفي ديني يَدَّعي أصحابه المعرفة الكاملة لطبيعة الله وصفاته. والكلمة تشتق من كلمة «غنوص» (GNOSIS) اليونانية التي تعني المعرفة أو العلم. وقد عربت باسم «العرفان» أو «الغنوصية». وبالتحديد فإن الغنوص هو المعرفة العليا والتنور الروحي الذي يصل إليه المختارون.

والتقليد المسيحي كما جاء على لسان الآباء المهاجمين للهرطقات يجعل «سيمون المجوسي» مؤسساً للحركة الغنوصية. إلا أن دراسة مختلف الكتابات القديمة التي تحوي مفاهيم غنوصية تبين أن الغنوصية كنهج ليست بدعة أو هرطقة في المسيحية وحسب بل دين قائم بذاته له طوائفه المتعددة وكتاباته الكثيرة عرف في الكتابات القديمة المسماة وثنية وفي اليهودية ــ كالكتابات «الهرمسية» المنسوبة للاله توت الفرعوني كاتب الالهة والذي سماه الاغريق هرمس المثلث العظمة، أو «هرمس العظيم ثلاثا (HERMES TRISMAGISTOS) والعرافة الكلدانية وكتابات الاسينيين في لفائف البحر الميت وتلتقي كما تختلف مع الفلسفة اليونانية والدين المسيحي ومذاهب من يسمّون غلاة الشيعة.

ولا تزال الغنوصية جزءاً من أديان معمول بها في سورية الآن. ومن الناحية التاريخية المهم هو الغنوصية المسيحية التي حاولت أن تقلب مفاهيم الكنيسة وتحتوي الدين المسيحي وعرفت في القرن 2م وما بعد وامتدت إلى المانوية ثم إلى مذاهب قائمة منها المائدية والدرزية والفالدية في سويسرا والكثاري في فرنسا. ففي لفائف البحر الميت الأجساد قابلة للفساد وهي مجرد سجون للأرواح. ومتى انطلقت الروح وتحررت من سجنها (بالموت) تفرح وترتفع إلى العالم السماوي والله اله معرفة. والمعرفة علم سري لا يجوز افشاؤه من قبل المختارين. وهناك نزاع بين النور والظلمة، الحق والضلال، في قلب كل انسان، والصالحون سيدركون معرفة الله العلي.

لكن فيثاغورس والفيثاغوريون قد سبقوهم في هذا المضمار فقالوا بأن الجسد سجن للروح تتحرر منه بالموت. وتخضع النفس لتقمصات عديدة حتى التحرر الكلي من الجسد. وأما إذا عاش الانسان حياة طاهرة تحررت الروح من الجسد وإلا فتعود لتدخل جسداً آخر عن طريق النسخ والمسخ والرسخ، ومتى تحررت نهائيا تعود لتتحد بالنفس الكبرى «المايا» ومستقبل الروح في عالم الكواكب. كما فلسفوا الأرقام ونظموا جمعيات المعرفة السرية. ونجد أخوان الصفا ينعتون فيثاغورس بأنه «المعلم الأكبر» و«خزانة المعرفة» بينما هم نعتوا بأنهم فيثاغوريو الاسلام.

كذلك المتصوفون اليهود الذين ظهروا في القرنين 1و2 باسم «المركبة (MERKABAH) أي «عرش الله» بين معلمي المشنا أوجدوا نظرية الصعود إلى السموات ومعرفة الله وفهم علوي للالهيات والسماويات وتختلف عن الغنوصية اليهودية «الهرطقية» بأنها بقيت موحدة في حين أن «الهرطوقية» هي ثنائية. كذلك نجد نظرية الصعود إلى السماء في سفر «صعود أشعيا» أو «اسراء اشعيا» العائد إلى القرن 3م في رحلة إلى السموات السبع حيث أعطي

مسبقاً المعرفة عن حياة المسيح ثم ظهر سفر «يزرع» أو «كتاب الخلق» في القرن 3م الذي يعطي 32 سبيلاً سرياً إلى الحكمة. وبنسب إلى أبي الآباء إبراهيم. وقد وضعت عليه تعليقات كثيرة ولا ندري إن كان هذا الكتاب الغنوصي من «صحف ابراهيم».

وأول غنوصي تاريخي هو سيمون الساحر المذكور في سفر أعمال الرسل (8:9-24) الذي أدهش سكان السامرة بسحره ثم آمن بـ المسيح واعتمد على يد فيليبس ثم عرض دراهم على بطرس الرسول ويوحنا ليشتري سلطان اعطاء الروح القدس فأنبه بطرس وبقي على المسيحية حيناً ثم رحل إلى روما ومعه مومس من صور هي هيلانة التي قدسوها على أنها «صورة الحكمة» (SOFIA) ومن غير الواضح إذا كان سيمون قد بقي موحداً أم ميز بين الهين، الاله الخالق (DEMIURGE) والاله الصالح. غير أن كلمة «السيمونية» نسبة له أصبحت تعني المتاجرة بالمقدسات ولا تزال مستعملة إلى يومنا. ولما انتشرت الغنوصية في العالم الهللنستي دخلت مرحلة الثنائية بتأثير فلسفة أفلاطون خاصة «تيماوس» فأخذوا نظرية الاله الأدنى الخالق لهذا العالم المادي وهذه النظرية نجدها في كتابات الغنوصيين مثل أبو كريفون يوحنا (القرن2) و«بستس صوفيا» (ايمان وحكمة) (القرن 3م). ومن أعلام الغنوصية المسيحية فالنتيشوس وباسيليديس وقسطنطين وبوغوميل ودقيون وسيردو وفالد وغيرهم. والكسائي (ELKSAI) من النصارى الغنوصيين الذي علم إن الانسان الأول آدم كانت ديانته حقيقية لأن الروح الالهي سكن فيه. لكن الجنس البشري قد أضاع هذه الديانة شيئاً فشيئاً تحت تأثير مبدأ الشر ـــ المادة، أي الزوجة علة الشهوة والضعف والخطيئة والضلال.

ولأجل تحرير الانسان من الشر، ولحفظ الدين الحقيقي فيه أرسل الله (كأب للجنس البشري) إلى العالم روحه الالهي الذي ظهر بشكل هابيل (قابيل) واخنوخ (ادريس) وابراهيم واسحق ويعقوب وموسى. وقد سلم موسى تعليمه لسبعين رجل فهيم لكي يسلموه هم إلى الأجيال الآتية لحفظه بالتقليد (TRADITION).

وبعد موت موسى بزمن طويل دون في الكتب ولكن تشوه معظمه، حتى لا يجد فيه الحقيقة إلا القليلون وهم من الاسينيين فقط. أما الشعب اليهودي فلم يفهم الديانة الحقيقية وقد غرق بالمحسوس فحول الدين إلى طقوس احتفالية.

ولكي يطهر الله ناموس موسى من الاختلاط بالمحسوس ويعيد الدين الحقيقي أرسل أيضاً روحه الالهي الذي ظهر حقيقة في المسيح وتمم عمله. وقد دامت هذه العقيدة حتى القرن 5م.

هؤلاء الاعلام الغنوصيين جميعاً أسسوا طوائف غنوصية. وأما في الشرق فقد اتبعت الغنوصية طريقاً مختلفاً وطورت معتقداً عن ثنائية الكون بكامله تحت تأثير المانوية الايرانية والزهد السوري ثم التصوف الاسلامي ورغم اختلاف المذاهب الغنوصية في الجزئيات فإن هناك خطوطا عامة مشتركة يلتقي فيها الجميع.

ونجد للغنوصيين المسيحين وحدهم نحو 49 مقالة صنفت ما بين أبو كريفا وأناجيل وأعمال ورسائل ورؤى في العقيدة وفلسفات كونية وأعمال هرمسية إلخ... منها «انجيل الحق» ورسالة إلى ريجينوس «ورسالة في الطبائع الثلاثة» و«صلوات الرسول بطرس» وأبو كريفون يوحنا. و«انجيل توما» وانجيل فيلبس ويستس صوفيا و«حكمة يسوع» و«حوار

المخلص» و«رؤيا بولس» ورؤيا آدم وشيت وأعمال بطرس و«رسائل هرمسية» و«تعاليم سلوانس. ورسالة بطرس إلى فيلبس «وتفسير المعرفة» إلخ.

والعقائد الواردة في هذه الكتب المذكورة وغيرها انبثق عنها نحو /25/ طائفة غنوصية.

ودراسة هذه الكتب تدخلنا مباشرة إلى معرفة عقائد حركة واسعة الانتشار كانت في القرنين الثاني والثالث م قد هددت باحتواء الكنيسة المسيحية وتفسير المسيحية إلى شيء يختلف تماماً عما نعرفه فيها الآن من خلال الإيمان الانجيلي البسيط وخطر الغنوصية لم يتوقف حتى بعد عام 500 م على المسيحية وأن يكن الفكر الغنوصي موجود حتى الآن بدون كنيسة أو تنظيم خاص تحت اسم المسيحية ـ لكنه دخل الاسلام وأوجد المذاهب المتصوفية وهي أيضاً /25/ طائفة إلى جانب الطوائف الغنوصة الموجودة حالياً وكلها تتأثر بالغنوصة المسيحية لكنها تحمل اسماً آخر. و تكشف لنا دراسة الكتب الغنوصة مصارد بعض المفاهيم والعقائد التي لا نجدها في الكنيسة القانونية المعلنة.

1 ـ ثنائية الكون (DUALISM): أخذ الغنوصيون الثنائية الفارسية بين النور والظلمة وغيروها إلى ثنائية بين الروح والمادة. فالروح في الانسان هي من جوهر الله ولخطأ ما رميت في عالم مادي غريب عن طبيعتها. وعن طريق الوحي من فوق يعي الانسان أصله وجوهره ومصيره الأخير ـ والوحي في دعوة المسيح.

2 ـ الوحي الغنوصي يختلف عن التنبؤ الفلسفي لأنه لا يأتي من قوى العقل وكذلك عن الوحي المسيحي لأنه بعيد عن أصوله التاريخية والكتابية، بل هو ادراك النفس لذاتها.

3 ـ بما أن العالم مخلوق من مادة شريرة وتتسلط عليه الابالیس لايمكن أن يكون من صنع اله صالح. إن ما يدرك بالحواس هو من صنع الاله الأدنى «يهوه» المنحط = يلدابثون (YALDABAW,OTH) والمسمى أيضاً ديميورغوس (DEMI-URGUS).

4 ـ ولذلك فإن هذا العالم غريب عن الله (الاله الأعلى اله الملىء) (PLEROMA) الذي هو العمق والسكون والذي هو أعظم من أن يطلق عليه اسم أو صفة. إنه المطلق ومصدر الأرواح الصالحة التي تؤلف معه «العالم النوراني».

هذه النظرة إلى المادة على أنها منحطة وشريرة وأنها سجن للروح وتفرح الروح بالتخلص منها، جعلت بعض الغنوصيين يتطرفون أكثر فأكثر حتى الانزلاق في عقيدة الدوكية (DOKETISM) أي المشبهة (DOKETAI) وبذلك أنكروا المسيح التاريخي وأنه ولد وأكل وعلم وتألم ومات وقام لأن ما ظهر هو معجزة سراب لا حقيقةوبذلك طبعاً أنكروا عملية الصلب على أنه شبه للناس أنهم صلبوه وما صلبوه حقاً. وهذا الانكار لناسوت المسيح جعل الآباء وخاصة ايريناوس يؤكدون على حقيقة التجسد وعلى أهمية أعمال المسيح وصلبه وقيامته وصعوده (دخلت هذه العقيدة في القرآن)، كذلك أنكر الغنوصيون حقيقة الخلق مسرحاً لمجد الله، مكاناً لتحقيقي خططه واطاعة وصاياه. ولهذا رفضوا العهد القديم مما جعل الآباء يؤكدون على أن الله هو خالق ومخلص، وطوروا النظرية الالهية في تفسير أحداث التاريخ أي أن الحوادث التاريخية هي تتميم وتحقيق للارادة الالهية (القضاء والقدر).

كما أنكر الغنوصيون وحدة الجنس البشري وصنفوه إلى روحاني ونفسي ومادي، مما جعل الآباء يدافعون عن حرية الارادة والمسؤولية الشخصية لكل انسان عن عمله. (فإذا لم

يكن هناك حرية للارادة في الاختيار لا يكون هناك مسؤولية للانسان» «الأداة» «عن أعماله وبالتالي ليس هناك بالنسبة إليه لا فضيلة ولا رذيلة ولا ثواب ولا عقاب لأن المسؤولية ليست مسؤولية الأداة المسلوبة الارادة بل مسؤولية الفاعل العاقل الحر).

وبذلك نجد أن تطوير العقيدة المسيحية كان رداً على الغنوصية كمحرك ومحرض فكري. لكن بعض المسيحيين وخاصة اكليروس الاسكندري وأوريجانوس قد حاولوا جمع القيم الغنوصية مع المفاهيم المسيحية الدينية. «فالمسيح هو الذي أظهر الغنوص الحقيقي» وسقوط الروح وصورة الله في الانسان وعودة الكل إلى الأصل الروحاني.

وبخصوص الخلاص بالعرفان يقول فالنتينوس «ولكن ليست المعمودية وحدها التي تحرر بل المعرفة أيضاً ـ معرفة ماذا كنا، لماذا أوجدنا؟ أين كنا؟ وفي أية نقطة أدخلنا في مسيرة الأشياء إلى أين نحن ذاهبون؟ من ماذا نحن نخلص؟ ماذا يولد وماذا يولد ثانية؟

بواسطة الغنوص يحقق الانسان تلك القوة التي يغلب بها حتى الملائكة الذين صنعوا العالم ويحوزها».

«هذا هو كتاب العرفان لله الذي لا يرى، المحتوى في الأسرار المخفية التي تظهر الطريق للجيل المختار».

كما أن لدى الغنوصيين عقيدة الانبثاقات من الاله الأعلى وهذه الانبثاقات مجتمعة تسمى الملء والتمام ـ تبتدىء بالله وتنتهي بالحكمة. العقل (نوس NOUS) انبثق من الله وهو الوحيد (الابن الوحيد) الذي يمكنه أن يدرك الآب تماماً. بينما الحكمة (صوفيا SOFIA) هي في شوق دائم لمعرفة الله وتسقط خارج الملء.

وعقائد الغنوصية طبعت تصرفاتهم، فهي ضد اليهودية والعهد القديم. وقد أعادوا تفسير كل شيء رمزياً. كما نظروا إلى القصص التي رويت عن المسيح على أنها مجرد رموز لحقائق عليا. أي أنهم يبحثون عن معان أخرى خفية للكلام البسيط الواضح. وبما أن المسيحي العادي لا يدرك المعاني الرمزية الخفية (أي باطن الظاهر) فهو نصف مسيحي وأما المسيحي الحقيقي فهو الغنوصي. كذلك قادهم ازدراؤهم للمادة على أنها شر إلى الزهد القاسي. وبنفس الوقت الذي كان الغنوصيون فيه يستعملون الكلمات والمصطلحات المسيحية مثل الخلاص والخاتمة والصلب والمسح والراحة إلخ.. كانوا يعنون أشياء بعيدة تماماً عما تقصده بها المسيحية الاورثوذكسية أي يستعملون تعابير مسيحية ليقصدوا بها أشياء أخرى غير ذلك. وقد حدث هذا في الاسلام فيما بعد. فغنوصيو الاسلام يحملون نفس النهج الفكري في الظاهر والباطن. ومن غير المعروف بالضبط متى تمكنت الكنيسة من وقف نشاط الحركة الغنوصية. ففي روما حرم الغنوصيان فالنتينوس وسيردو كما حرم مرقيون نحو 150م. بينما الغنوصيون المصريون بقوا ضمن الكنيسة. وفي أوروبا حلت الحركات الغنوصية في القرن الرابع بمساعدة الدولة، ولكن لها بقايا.

وفي الشرق السوري بقيت كل البدع الغنوصية وأثرت في البولسيين والبوغوميليين والكثاري في القرون الوسطى ولحقت الاسلام.

وانتشرت المانوية (المانيخية MANICHAEISM) في كل الامبراطورية الرومانية حتى تركستان والصين شرقاً. وفيما عداها من غير الواضح مدى انتشار وانحسار المد الغنوصي. على أن الفكر الغنوصي بقي، أو عاد فوجد وبقيت بعض طوائف فقط. وقد انقسموا منذ

البداية إلى اسكندريين (مصريين) وسوريين. وأعظم رجال الغنوصية المصرية هم الاسكندريون الثلاثة فالنتينوس وباسيليدس وكربوكراتوس (CARPOCRATUS, VALENTINUS, BASLIDES) والغنوصيون الاسكندريون بعكس السوريين اعترفوا بأن للديانة اليهودية أهمية صالحة لتحرير الخير من الشر أو الروح من قيود المادة. وكي يمنح الكائن الأعلى الغلبة للروح على المادة أو كما علم الغنوصيون السوريون. لأجل هدم مملكة الديميورغوس (الاله الخالق للمادة الشريرة) يرسل إلى العالم «ايونه الأعلى» الذي يسميه كرينتوس (CERINTHUS) «المسيح السامي الأعلى» أو باسيليدس «العقل» أو فالنتينوس «يسوع المخلص» أو مرفيون «الله الصالح نفسه على الأرض». وبحسب رأي الغنوصيين المصريين اتحد الايون الأعلى في المعمودية بالانسان يسوع وفارقه ابان الآلام. وبحسب السوريين اتخذ منظر انسان فقط ولم يكن في الواقع كذلك (أي بالتشبيه فقط) ودل على واسطة التحرر من المادة ولم يكن لموته أية أهمية، لأنه بحسب الغنوصيين الاسكندريين تألم الانسان يسوع فق وبحسب السوريين خيل إليهم الايون الالهي متألما (شبه لهم أي مبدأ الدوكية).

وقد أعطى المسيح تعليمين للبشر، علم المختارين تعليماً روحياً يحفظه الغنوصيون كأناس روحانيين بنوع خاص كما أعطى أيضاً تعليماً حسياً لكل البشر وهذا التعليم محصور في أسفار الكتاب المقدس وتتمسك به كل الكنيسة المسيحية.

وأخيراً تتغلب الروح على المادة بواسطة النسك وقد أشار إليه السوريون قبل المصريين من أجل افناء المادة والتحرر منها فمنعوا أكل اللحم وشرب الخمر والزواج لأن كل هذا هو خدمة للشيطان.

الطوائف الغنوصية:

نحو /25/ طائفة منها:

1 ــ الفالنتينيون: نسبة إلى فالنتينوس (نحو 100-160م) أسس فالنتينوس أعظم المدارس الغنوصية في القرن 2م وكان السبب في تكوين العقيدة المسيحية ويقال أنه تلقى العلوم السرية من تيوداس أحد تلامذة بطرس الرسول. ورغم مؤلفاته الكثيرة لم يبق إلا بعض المواضيع فقط حتى وجد «انجيل الحق» في نجع حمادي في مصر، الذي يستشهد فيه كثيراً بالعهد الجديد ويبدو أن الفالنتينية هي غنوصية فلسفية أقرب ما يكون إلى المسيحيةي الاورثوذكسية بين كل الطوائف الغنوصية. تعلق الفالنتينيوم خاصة بانجيل يوحنا. كتب «انجيل الحق» ما بين 140 و145 م. ويقدم حقائق (حسب المفهوم الغنوصي) عن مصير الانسان وحاجته إلى الخلاص وكيف يحصل على ذلك الخلاص، «خلاص الذين لم يعرفوا الآب»، والخيئة الأصلي هي جهل الآب وقد أصلح هذا الجهل بظهور المسيح الذي أعطى البشر معرفة الآب. ولا يهتم بالمسيح التاريخي لكنه يركز على المسيحية بعكس معظم الوثائق الغنوصية. كذلك ليس له جذور في العهد القديم ولا يتكلم عن المنتهي والأخلاق والخطيئة بل عن الجهل والخطأ والخلاص بالعرفان. وعلى الطريقة الباطنية يأخذ أصداء من الاناجيل ثم يعطيها معاني جديدة، يقرأ شيئاً ويفهم شيئاً آخر (باطن وظاهر).

2 ــ الباسيليديون: نسبة باسيليديس (القرن 2م) وهو سوري رحل إلى الاسكندرية وقالوا أنه تلقى العلوم السرية من غلوكياس ترجمان بطرس الرسول. كما قالوا أن مثياس

الرسول قد أعطاه «الأقوال السرية» التي سمعها من يسوع المسيح (APOCRYPHOI LOGOI). كتب انجيلاً وتعليقاً عليه في 24 مجلداً سماه «التفسير» وتتأثر عقيدته بالغنوصية والافلاطونية والعهد الجديد ويقول البعض أنه تأثر بالبوذية.

3 ــ الكاربوكراتيون: نسبة إلى كربوراتيس الغنوصي الاسكندري (القرن2) ورأيه أن يسوع كان ابن يوسف من صلبه وأنه تمكن بواسطة التقمص وبما اختبره في «دوره الأول» وبما أوتي من مقدرة من فوق أن يسيطر على حكام هذا العالم وأن يعود إلى الله الآب.

4ــ المرقيونيون: نسبة إلى مرقيون (القرن2) ــ قاد أول هرطقة لانفصال كنسي وأهم مقومات عقيدته الاعتقاد بالهين الاله الالق والحاكم، والاله الصالح الذي ظهر في المسيح. اتصل بسيردو في روما عام 137 لكنه حسب نفسه تلميذاً لبولس، الرسول الحقيقي حسب رأيه. نقض العهد القديم لأنه يعود إلى الاله الأدنى وكتب لاتباعه انجيلا يشبه انجيل لوقا مضافاً إليه رسائل بولس. ثم ألف تاب «الأضداد» ليشرح الفروق والتناقضات الكثيرة بين العهدين القديم والجديد. ولما مات المسيح من أجل خلاص الانسان كان يفتديه من ذلك الاله الأدنى وأن الخلاص هو بالايمان بالمسيح وإياه مصلوباً.

لم يبتدع مرقيون عقيدة جديدة للخلاص كما فعل غيره من الغنوصيين ولم ينكر أسرار الكنيسة والاناجيل الأخرى، وفوق ذلك لم يصنف الناس كما يفعل الذين أعماهم التعصب من أدعياء الدين في مختلف الأديان. لم يوزعهم ما بين كافر ومؤمن. بين خالص ومدان أو أناس للجنة وآخرون للنار. وقد برزت تعاليمه في حركة البولسيين والبوغوميلين والمانويين. توفي عام 155م، ولم يكن مجرد قائد «هرطقة» بل كان ؤسساً لكنائس ترتكز تيولوجيتها على عدم التوفيق بين اله العهد القديم بصفات يهوه واله العهد الجديد اله المحبة والفداء لكنه يقطع المسيحية من جذورها التاريخية في العهد القديم. لقد آمن بأن تعاليم بولس تؤيده وأنه هو فقط من فهم هذه التعاليم، لكنه ناقض نفسه عندما أنكر وجود جسد بشري للمسيح كما فعل الغنوصيون المشبهون رغم لامه عن الصلب والآلام في عملية الفداء ومارست كنائسه المعمودية والافخارستا والتنسك ورفض الزواج وعلمت أن الجسد لا يستحق الخلاص بينما الكنيسة تعلم عن قيامة الموتى. وقد جعل تحديد الكتب المقبولة لدى مرقيون الكنيسة تحدد كتبها المعترف بها وهي أسفار العهد الجديد الحالية. ويمكن اعتبار المسيحيين الذين يرفضون العهد القديم مرقيونيين في وجهة نظرهم هذه.

5 ــ البرديصيون: نسبة إلى برديصان (154-222م) من الرها وأحد أصدقاء ملكها ابجر 9. كتب رسائل وأناشيد دينية وأدخل الموسيقى في الكنيسة فاعتبر واضعاً لأسس الترانيم الدينية السورية والأدب السورياني. ينسب إليه كتاب «حوار القدر» وهو أقدم كتاب بالسريانية بعد التوارة وكان لبرديصان تأثير كبير على ماني والمانوية اتبع نظرية أن العالم من صنع الكلمة (لوغوس (LOGOS) ولم يتمل بعد هذا الصنع وما تزال فيه بقايا «الظلمة» وعلى قوى «النور» أن تقهر الظلمة باطاعة الله الحرة.

كان برديصان موحداً مؤمناً، اعتبره معاصروه اورثوذكسياً وآخرون غنوصياً فالنتينياً.

6 ــ الحنشيون: (= النحشيون بالعبرية) قدسوا الحية كما صور بعضهم الاله الخالق «يلدابئوت» بصورة أفعى. من مؤلفاتهم «انجيل توما».

7 ـــ عبدة الأنثى: باربيلو(BARBELO) سموا ذلك لأنهم عبدوا الأنثى التي أصبحت أم الاله الخالق يلدا بنوت وهي نظيرة صوفيا في الفالنتينية وربما هي «عشتار اربيل» ويستدل من أبو كريفون يوحنا أنهم فئة سورية. وسيأتي بحثه في النصوص.

8 ـــ الشيثيون: (SHITHITES) نسبة إلى شيث الابن الثالث لادم. كانوا أكبر الطوائف الغنوصية عددياً وعقائدهم قريبة داً من الباربيلو مع بعض الفروق الهامة خاصة تأكيدهم على أن شيث هو المخلص الفادي كاشف الأسرار الغنوصية، ومن بذرته يخرج النسل الالهي كما في العهد القديم وقد وافقت المانوية على ذلك. ولسبب ما نجد أن شخصية آدم قد سحرت كتاب الأسفار المنحولة بما فيهم الغنوصيين حتى أن آدم وشيث قد أصبحا شخصيتين رئيسيتين في الفكر الغنوصي وينسب للطائفة سبعة مؤلفات من أهمها «رؤيا آدم» و«الخطاب الثاني لشيث العظيم» كذلك عظم المانويون والمنداويون آدم حتى أن المانداويين يعتقدون أن آدم هو أول من تسلم أسفاراً سرية وأن كتابهم المدعو »جترا» هو أحد تلك الأسفار.

ورؤيا آدم مؤلفة من /22/ صفحة جيدة الحفظ هي كما يقول السفر وحي لآدم أفشاه لابنه شيث قبل وفاته بمئة سنة وكان عمر شيث سبعمئة سنة ويبرز شيث آتياً بالخلاص.

9 ـــ الكرنتيون: (CERINTHUS) طائفة نصرانية أسسها كرينتوس نحو 100م وهو يهودي مصري انتقل إلى قيصرية فلسطين. من تعاليمه حفظ السبت والختان وأن يسوع هو ابن مريم ويوسف حل عليه المسيح (أي الروح القدس) أثناء معموديته في الأردن كقوة سماوية، فكشف الآب المجهول ثم تركه الروح القدس على الصليب فصلب يسوع الانسان وليس المسيح (وهذا غير تفسير المشبه) ذلك علم أن الملائكة خلقت العالم واحد هؤلاء الملائكة هو اله اليهود (يهوه) الذي أعطاهم شريعة غير كاملة. ولم يعترف إلا بانجيل متى كغيره من النصارى، من أسفار العهد الجديد.

10 ـــ المنداويون: أنصار يحي ـــ طائفة غنوصية تسكن جنوب العراق وعربستان يعرفها العرب باسم الصابئة وهم امتداد للصابئة المذكورة في القرآن. يمارسون المعمودية ولغتهم آرامية. وبينما يسميهم العرب الايرانيون صابئة يدعون أنفسهم «منديايا» أي العارفون أي الغنوصيون. وفي الافخارستيا يستعملون الماء والخبز بدل الخمر والخبز كالنصارى. والسد هو قبر الروح والموت تحرير للروح من هذا القبر. يعترفون بيوحنا المعمدان ولا يعترفون بيسوع مسيحا.

11 ـــ المانويون: نسبة إلى ماني (215-276م) الذي لد في بابل لعائلة فرثية. كان يتكلم الآرامية الشرقية (لغة العراق). وفي عام 227 حلت السلالة الفارسية الساسانية مكان السلالة الفرثية الارشاقية في السلطة في ايران. وظهرت عند حكماء الفرس نزعة العودة إلى ديانة زرادشت الوطنية بكل نقائها. ولكن حدث انشقاق، فالأكثرية غيرت شيئاً من الثنائية الكاملة في الزرادشتية الأصلية فأخضعت مبدأي الخير والشر أي أهورا مزدا واهريمان إلى كائن أعلى واحد فتحولوا إلى نصف ثنائيين (SEMI DUALISTS).

بينما الجناح الآخر تمسك بالثنائية الصارمة وألفوا حزباً دينياً خاصاً هم هو المجوسي. من هؤلاء المجوس برز ماني محاولاً أن ينشيء ديناً جديداص أكثر مما هو هرطقة ضمن دين

قديم وذلك بأن يوجد قراناً بين المسيحية والزرادشتية، دون اللجوء إلى مبادىء الفلسفة اليونانية أو إلى التعليم الديني اليهودي كغيره من الغنوصيين.

في البداية اعتنق ماني المسيحية وأصبح كاهناً في الأهواز (بيت هوزابي أو عربستان) وقال أن الرؤيا أتته مرتين عندما كان صبيا ثم لما أصبح شاباً، وأن ملاكاً اسمه «التوأم» قال له في المرة الثانية أن يبشر بدين جديد وبالفعل فإن المانوية لم تكن في الواقع هرطقة مسيحية بقدر ما كانت ديناً جديداً من بقاياه دين اليزيدية في سوريا والعراق (نحو 50ألفاً) وأرمينا والقوقاس. برز ماني في عهد شابور الأول (241–272) ونال عطفه. لكن وشايات بعض الحكماء اضطرته أن يهرب إلى الهند حيث صار له اتباع وكتب «أرمنكي ماني» الذي أصبح الجيلاً لأتباعه. ثم عاد. وفي عهد بهرام (273–276م) هاجمه الزرادشتيون فسجن في جنديشابور وعذب وأعدم بعد 26يوماً عام 276م. كان في عقيدة ماني أن الدين الحقيقي قد دل عليه أنبياء عديدون منهم آدم وانوخ وبوذا وزرادشت ويسوع المسيح. إلا أن تلك الأديان كانت اقليمية علمت بلغة واحدة ولشعب واحد، زد على ذلك أن كل دين قد شوه وحرف مع الزمن من قبل معتنقيه الذين قد فقدوا فهم الحقيقة الأصلية (وجهة نظر مقبولة لدى كثيرين) ورأى ماني أنه هو «خاتم النبيين» والآتي الأخير وقد أحضر معه رسالة عالمية. وقد كتب تعاليمه بنفسه ليحافظ عليها من التحريف والتشويه كما شجع ترجمة كتاباته إلى اللغات الأخرى وجهز ارساليات من كنيسته فحملت تعاليمه من الأطلسي إلى الباسفيكي عبر العالم القديم، واستأصلها المسيحيون من أوروبا في القرن 6 وبقيت في شرق المتوسط حتى القرن9 وفقدت مقوماتها بظهور طوائف مانوية جديدة منها البوغميليون البلغار والكثارى الفرنسيين.

12 ـ البولسيون: (PAULICIANS) طائفة مسيحية ثنائية تأثرت مباشرة بالمرقيونية والمانوية، وبدأت في أرمينا وفي القرن 8.

13 ـ البوغوميليون: (BOGOMILS) بدأها الكاهن بوغوميل في بلغاريا لاصلاح الكنيسة البلغارية الاورثوذكسية بتأثير الثنائية المانوية والبولسية الداخلة من الشرق الأدنى وأرمينيا وآسيا الصغرى.

14 ـ الكاثاريون: (CATHARIS) الاطهار، طائفة هرطقية ازدهرت في أوروبا الغربية في القرنين 12 و13 وكان لهم عقيدهم الثنائية وتنظيمهم الكنسي. وقد صنفوا في فئتين «كاملين» (عقال ومشايخ) (جهال أو عوام) وهم من المشبهة. فيسوع كان ملاكاً جاء ليدل على طريق الخلاص ليعطيه للناس وآلامه البشرية وموته كان سراباً وتشبهاً. وفي النهاية كل الأرواح تخلص ولكن ببطء لأنهم آمنوا بالتناسخ (نسخ ومسخ). بشروا بالبتولية والزهد في هذا العالم وحبذوا الانتحار ولم يعبأوا بالاضطهاد.

15 ـ الفالديون: نشأوا في جنوب فرنسا (القرن 12) ثم انضموا إلى البروتستانت.

أبو كريفون يوحنا

إنه كتاب ميثولوجي منحول يرجح أنه تب ما بين 150 و 160م وباليونانية ثم ترجم إلى القبطية نحو (340م) ووجد منه ثلاث نسخ في تلة حمادي ونسخة رابعة في مجلد واحد مع

«انجيل مريم» (مريامنة) و«حكمة يسوع المسيح» و«أعمال بطرس» اكتشف عام (1896) ولم ينشر في حينه وفي ختام الكتاب ينسبه المؤلف إلى يوحنا أخي يعقوب بن زبدى.

ويتوافق الأبو كريفون مع كلام «ايريناوس» ووصفه لعبدة الأنثى من الغنوصين (BARBELO GNOSTICS) ما يقلد الاتب في انشائه رؤيا يوحنا اللاهوتي في العهد الجديد. والنسخ الأربع ليست متطابقة تماماً مع بعضها البعض، فمنها نسختان مطولتان بزيادات هامة هي:

1 ــ الخلط بين النور والظلمة.

2 ــ اعطاء أسماء مختلف الملائكة الذين خلقا مختلف أعضاء الجسد وأسماء الشياطين المسؤولين عن مختلف الأمراض والآلام.

3 ــ الحوار بين المسيح ويوحنا عن الخلاص ومصير الأرواح.

4 ــ نزول المخلص إلى الهاوية لينقذ الانسان الأول.

ويركز الأبو كريفون على الإجابة على التساؤلات عن طبيعة الانسان وعن خلاص نفسه من سجن السد. لماذا يكون الانسان كما هو؟ كيف يتمكن الانسان من الكمال؟ مع تعاليم عن الخلاص عن طريق العرفان (المعرفة العليا أو الحقيقة) وعن الزمان الآتي (الأوان) ومتى يتوصل الانسان إلى معرفة ذاته وكشف السر.

ويمكن تلخيص محتوى الأبو كريفون في سبعة أجزاء رئيسية كما يلي:

1 ــ ظهور المسيح ليوحنا: بينما كان يوحنا في طريقة إلى الهيكل التقى بالقديس أريمانيوس الذي دنا منه وسأله «أين ذهب المخلص؟» لقد أضل يسوع التلاميذ وحولهم عن تقاليد الآباء، فداخلت يوحنا شكوك خيرة. قصد إلى جبل للتأمل وليجد أجوبة على التساؤلات التي طرحت. هناك ظهر له يسوع وقال له: «أنا هو الآب والأم والابن» (وهذه صيغة غنوصية متعارف عليها حيث الروح القدس هو الأم والروح مؤنث في اللغات السامية وكذلك في انجيل متى العبراني) وأن يسوع هو الكائن إلى الأبد الذي سيكشف ليوحنا «ماكان وما يكون وما سيون» وأن على يوحنا أن يخبر باقي التلاميذ عن هذه الرؤيا.

2 ــ وصف الواحد الأعلى: ويمضي الأبو كريفون يكدس اسماً فوق اسم وصفة فوق صفة، ونفي فوق نفي ليصف التنظيم الغنوصي للكائنات الروحانية في تكوينه الفائق «إنه لا يرى ولا يدرك ولا يوصف البتة. إنه فوق كل الايونات. ويرتاح بهدوء وسكون. وفائق هو حتى أنه لا يمكن أن ندعوه «الله» (إن وصف الله بهذا الأسلوب السلبي يوجد في انجيل الحق أيضا).

3 ــ خلق الملء: وبينما الواحد الأعلى يتفرس في شبهه في النور المحيط به خلق من «فرة» (ENNOIA) كائنة انثى اسمها «ب أربيلو» (في اربيل وهي عشتار اربيل). لقد خلقت بصورة أبيها في كائن هو «ذكر وأنثى» معا. ولدى رغبتها أوجدت أربع أوانات (ايونات AEONS) هي ــ «العلم السابق» «عدم الفناء» «الحياة الأبدية» و«الحق» «وهم كذلك» «ذكور ــ اناث» فأصبحوا بالإضافة إلى باربيلو خمسة ايونات. وولدت باربيلو مرة أخرى فأوجدت المسيح «الابن الوحيد». وبدوره أوجد المسيح أربع أيونات نورانية هي هرمزيل،

أوريئيل، دافينيت، وهليليت ــ وكل واحد رافق ثلاث ايونات فيكون مجموعهم اثني عشر ايوناً آخرهم «الحكمة» (صوفيا) وظهر الآن «الانسان الكامل» (بيجيرا آدمان) ووضع فوق أول أيون نوراني ووضع شيث على الايوان النوراني الثاني. كما وضعت «بذرة شيث» على الايون الثالث وأرواح القديسين على الايون الرابع وهكذا يتم الملء الغنوصي. (وإذا اعتبرنا باربيلو قرينة الواحد الأعلى وافترضنا أن المسيح والعقل والكلمة والارادة انبثقوا عنها ــ نصل إلى الملء الغنوصي الذي عدده الكامل ثلاثون).

4 ــ سقوط الحكمة وخلق يلدابئوت: (YALDABA OTH): أرادت الحكمة وهي آخر الايوانات أن تنجب من دون الاتحاد مع قرينها، فأوجدت شهوتها وحشاً (هـولاً أو هولة) هو أفعى (أو تنين) بوجه أسد. وكي لا يعرف أحد جهلها وضعته في غيمة مضيئة واسمه «يلدابئوت» (وليد الفوضى) كذلك سمي سمائيل سكلاس (وهي في الأدب اليهودي من ألقاب الشيطان) ويلدابئوت هذا في النظام الفكري الغنوصي هو «يهوه» اله العهد القديم خالق العالم المادي والانسان كما نعرفه (الانسان الشرير).

ثم أخذ بعضاً من قوة أمه (الجوهر الالهي) وخلق ايونات آخرين (بالاتحاد مع جهله) في لهب نار. صنع اثني عشر من القوى (أرخونات) أثوت ــ هرماس ــ كليلية ــ يابيل ــ ادونايو ــ قايين ــ هابيل أو أبيريسين ــ يوبيل ــ ارموبئيل ــ ملكو ــ ادونين ــ وبيلياس (ربما لهم علاقة بالأبراج في الزودياك). السبع الأول يحكمون السموات (السبع) والخمسة الآخرين يحكمون الهاوية.

وتابع يلدابئوت الخلق بواسطة الأرخونات الاثني عشر فصنع كل واحد سبع قوى وكل قوة ستة ملائكة وتابع حتى صار عدد الملائكة /365/ ملاكاً. كان للاخونات رؤوس مختلف الحيوانات أسماء سماوية وغير سماوية صفات غامضة ــ أعطاها يلدابئوت هذه الأسماء تقوية لها. (الأسماء الغير سماوية). ولما رأى يلدابئوت خليقته صرخ بكبرياء «أنا إله غيور وليس اله آخر سواي» (خرج 5:20) (هذه الغيرة تعني وجود اله آخر).

اضطربت الحكمة بسبب ابنها الوحشي وعدم تقواه وأخذت تروح وتجيء فسأله يوحنا ما يكون معنى ذلك؟ فأجاب المخلص ليس هذا للفهم. ندمت الحكمة على خطيئتها فباركتها القوى العليا ووضعت في التاسوع (تسعة آلهة) لتصطلح من سقوطها ويأتي إليها قرينها ليصلح النقص فيها.

5 ــ خلق الانسان: ورداً على تجديف يلدبابئوت جاء صوت من سماء الايونات «الانسان موجود وكذلك ابن السماء» عندئذ أظهر الواحد الأعلى، الواحد الكامل ما يشبهه (الانسان الأول) وتحركت أسس الهاوية وارتعش أيون يلدابئوت وصرخ إلى أرخوناته «هلموا ولنخلق انساناً على صورة الله وعلى شبهنا أيضاً فتصبح صورت لنا بمثابة نور». وكل من قوى السماء صنع جزءاً (عظم، جلد، عضل، إلخ...) من الانسان حسبما رأى في الماء. قال يلدابئوت «لنسميه آدم» ثم صنع الملائكة الثلاثمئة خمسة وستون (365) أجزاء الجسم وآلامه.

كان آدم الترابي هذا عديم الحياة هامداً، وبخدعة أعطي الحياة. طلبت الحكمة صوفيا من الاحد الأعلى أن يسمح لها باستعادة «القوة» التي أعطتها ليلدبابئوت، فأنزل الواحد الأعلى خمسة أنوار بهيئة ملائكة يلدابئوت. ونصحوا يلدابئوت أن ينفخ في آدم جزءاً من

روحه ففعل. وبهذه الحيلة حرم يلدابئوت من القوى وأعطى آدم الحياة. وفوق ذلك أصبح آدم كائناً مشعاً يفوق خالقيه، فأخذتهم الغيرة وقذفوه إلى العالم السفلي، عالم المادة.

6 ـ سقوط آدم: وكان الواحد الأعلى «الأب الأم» رأفة على قوة صوفيا (الحكمة) التي أصبحت الآن في آدم. فأنزل «فكر من نور» (زوي = الحياة) لينقذ آدم. بينما أخذ الارخونات (القوى) ناراً وتراباً وماء وهواء وخلقوا جسماً مادياً لآدم (الذي كان حتى الآن كائناً تصورياً) وهذا الجسم المادي أصبح قبراً للانسان الجديد. هذا الجسم يسمى «رباط النسيان».

هذا الانسان فان وهو «الانقسام الأولي». ثم تقدم الارخونات (الأراخنة) ليضعوا آدم في الفردوس ويشجعونه على الأكل من «شجرة الحياة» وكل أجزائها وخصائصها مؤذية وضارة. وفي «شجرة المعرفة» يختبىء الفكر النوراني (EPINOIA).

وهنا سأل يوحنا إذا كانت الحية قد علمت آدم أن يأكل. فأجاب المخلص أن الحية علمت آدم أن يشارك في شهوة التوالد (هكذا تخلق أرواح أكثر لتقع تحت سيطرة الحية) غير أن «الفكر النوراني» حافظ على آدم من اتباع نصيحة الحية.

أراد يلدابئوت أن يستخلص قوته من آدم فسلط النسيان عليه. ولما فتح يلدابئوت خاصرة آدم تملص منه الفكر النوراني (الحياة) فأمسك منه جزءاً فقط، صنع منه المرأة. ولما أفاق آدم قال: «هاهي الآن عظم من عظمي ولحم من لحمي» لذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويصبحان جسداً واحداً (تك 32:2و24). ثم أكل آدم وحواء من شجرة المعرفة الكاملة» (GNOSIS) فظهر المخلص لهما بهيئة نسر حط على شجرة المعرفة.

ولما عرف يلدابئوت أنهما ابتعدا عنه شتم (جدف). ولما رأى جمال حواء وهي تعد نفسها لآدم دنسها فولدت قابيل وهابيل. ثم غرس يلدابئوت بذرة الشهوة في آدم حتى يتمكن أول أبوين من انجاب الخلائق التي سيقدم لها يلدابئوت من روحه الزائف. هكذا ولد شيث (SHETH).

7 ـ مصائر البشر ويسأل يوحنا المخلص عن الخلاص «هل ستخلص كل النفوس ضمن النور الطاهر؟» ليبحث المخلص (موضع) الروحين في الانسان روح الحياة والروح الزائفة ـ فمن لهم روح الحياة لهم الثواب (الخلاص) ومن سيطرت عليهم الروح الزائفة سيخلصون في النهاية ولكن بعد عملية التناسخ (التقمص) وفقط الذين يرتدون عن المعرفة (GNOSIS) لا يخلصون بل يذهبون إلى مكان معد لملائكة الفقر مكان اللاتوبة لأنهم قد ارتكبوا خطيئة لا تغتفر وهي التجديف على الروح. «ولكن من جدف على الروح القدس فليس له مغفرة إلى الأبد بل هو مستوجب دينونة أبدية» (مرقس: 29:3).

أخيراً يندم يلدابئوت أنه خلق «فحزن الرب أنه عمل الانسان في الأرض وتأسف في قلبه» (تكوين 6:6) ويجلب الطوفان على العالم. لكن «النور العظيم» (الواحد الأعلى) علم نوح أن يدخل «غمامة نور» (وليس الفلك). بعد ذلك دخل الملائكة على بنات الناس وينجحون معهن فقط عندما يتنكرون بهيئة أزواجهن ويقدمون لهن الهدايا.

ويوقظ الواحد الأعلى (الأم ــ الأب (METRO PATOR) آدم من الظلمة بأن ينزل عليه ثلاث مرات ليحقق غرضه. ويأمر المخلص يوحنا أن يخبر هذه الأسرار لباقي التلاميذ وأن لا يبيعها مقابل طعام أو شراب أو لباس أو ما شابه ذلك. ويختفي يسوع وينفذ (يخبر) يوحنا مهمته.

الأسطورة المانوية

نظمت تعاليم ماني الأساسية في ميثولويا محكمة الترتيب من عناصر متلفة في ثلاثات وخمسات واثني عشرات. وتُعَلّمْ هذه الميثولوجيا أن الخير والشر موجودان منذ الأزل. وهما مبدءآن منفصلان متضادان غير أنهما قد اختلطا في هذا العالم بفعل مبدأ الشر، وأن الخلاص يتم بانطلاق الخير والعودة به إلى الانفصال الأصلي عن مبدأ الشر الذي هو المادة.

كان مركز الكنيسة المانوية بابل لكن المبشرين بهذه العقيدة ذهبوا في كل الاتجاهات، مصر وسوريا والامبراطورية الساسانية. ولما توفي ماني عام 276 اختلف على القيادة سيسينيوس وجبريانوس وانتصر الأول وقاد المؤمنين حتى استشهاده عام 291 خلفه أنايوس الذي حصل على السماح للحركة بالنشاط من هرمز 2(302–310) قد عرف القليل عن تاريخها في فارس إلا أن اتباعها قد تحملوا اضطهادات دموية كثيرة على يد الزرداشتيين فتركزت قوتها ما وراء نهر الاوكسوس (=اموداريا ـ جيحون) ونو عام 600م أعلنت الجماعة فيما وراء الاوكسوس استقلالها عن بابل حافظت على استقلالها الذاتي حتى القرن 8، إذ انتهى الانشقاق بقيادة مهر الموحدة في بابل (710–740) وقبول قيادته على آسيا الوسطى.

وفي القرن 3 وما بعده انتشرت المانوية بزخم في الغرب وفي البلاد الرومانية وانتشرت من مصر إلى أفريقيا ومن سوريا إلى الأناضول ودخلت روما ذاتها في القرن 4 وامتدت إلى غاليا (فرنسا) واسبانيا حيث بلغت ذروة انتشارها في القرن 5م. لكن اضطهاد المسيحيين لها استأصلها من أوروبا خلال القرن 6 م غير أنها بقيت في الشرق حتى القرن 9م حتى ظهرت طوائف مانوية جديدة.

وفي القرن 7 احتل العرب فارس والعراق ومنح المانويون فترة سلام دون اضطهاد حتى أن بعض أفراد الجماعة عادوا إلى ديارهم من عبر الاوكسوس. ثم بدأ العهد العباسي الاضطهاد الوحشي مرة أخرى وخاصة في عهد المهدي والهادي وهارون الرشيد. حتى أن المهدي صلب عددا من المانويين في حلب عام 780 كما لاحقهم في بغداد. ورغم ذلك بقيت الجماعة في بغداد حتى القرن 10م. وبقيت إحدى الفرق حتى 880م في خلاف ما بين أتابع مهر وأتباع مكلاس حول طريقة الحياة الاجتماعية. ولم يوجد انشقاق عقائدي في تاريخ المانوية كما حدث في باقي الجماعات الدينية. ولكن تحت وطأة الاضطهاد الاسلامي انتقل مركز القيادة من بابل إلى سمرقند ووصل آخر المبشرين إلى البلاط الصيني عام 694م وفي عام 732 صدر مرسوم امبراطوري يسمح للمؤمنين الغرباء في الصين أن يمارسوا شعائرهم داخل الصين. وقد اتهمت المانوية في الغرب بأنها تدخل في ثوب المسيحية وفي الشرق بثوب البوذية.

ولما فتح الأتراك الأوفيريون تركستان الشرقية في القرن 8 اعتنق أحد قادتهم المانوية عام 763 أصبحت دين الدولة حتى اسقاطها من قبل القيرغيز عام 840م وبقيت في شرق تركستان حتى القرن 13 ومنعت في الصين عام 843 ورغم الاضطهاد هناك بقيت حتى القرن 14م.

الجماعة المانوية:

تتطلب المانوية الفضيلة المطلقة من المؤمن فعليه أن يعتزل العالم تجنباً لأي شيء يمكن أن يؤذي «النور» المسبحون فيه. لذا انقسم المؤمنون إلى جماعة «المختارين» وهم الذين يكنهم أن يتبعوا القوانين الصارمة وجماعة «المستمعين» الذين يعيلون المختارين بالعمل والزكاة.

وأمل المختارين هو أن ينالوا الفردوس عند الموت وأما المستمعون فيأملن أن ينالوا الخلاص فقط بعد فترة من التقمص والتناسخ.

على رأس الطائفة يقوم ماني ويتبعه خمس درجات 12 معلماً 72 اسقفاً 360 شيخاً ثم المختارون ثم المستمعون. والمختارون مختومون بثلاثة أختام: ختم الفم وختم اليدين وختم الصدر. ويفرض عليهم مراعاة الطهارة والفقر والامتناع عن اللحم والخمر. ويمكنهم أن يملكوا حاجة يوم واحد من الطعام وسنة واحدة من اللباس.

يأكل المختارون وقعة واحدة نباتية بعد الغسق وبما أن عليهم أن لا يؤذوا النور وعناصره الزراعة والحصاد والعجن والخبز يحضر لهم المستمعون هذه الوجبة. وأقام المانويون أديرة لهم ولكن بما أن المانوية دين تبشيري كامل على المختارين أن يترحلوا كثيراً مشياً على الأقدام من أجل التبشير وعلى المختار أن يكون وديعاً مرحاً وأن يختلط اجتماعياً مع المستمعين. وأهم الواجبات الدينية للمستمعين هو أن يعتنوا بالمختارين وأن يمارسوا الفضائل الدينية وما عدا ذلك فهم يعيشون في هذا العالم فيتزوجون بامرأة واحدة ويلدون ويشربون الخمر ويأكلون اللحم ولكن لا يذبحون بأنفسهم فهذا عمل غيرهم كي لا ينتزعوا هم الحياة من أي كائن.

ولم يكن للمانويين طقوس وأسرار كنسية مقدسة، لأن المعرفة والفضيلة وحدهما يكسبان الخلاص. وأهم ما في العبادة هو الصلاة وترتيل الأناشيد والصوم والاعتراف. يصلي المختارون سبع مرات يومياً والمستمعون أربع مرات، ظهراً وعصراً مساء وبعد المغيب بثلاث ساعات. وتتلى الصلاة سجوداً باتجاه الشمس أو القمر، يبتهلون فيها للاله الواحد في أربعة أقانيم وهي: الله ـــ النور ـــ القدرة والحكمة (GOD, LIGHT, POWER, WISDOM).

والتراتيل كثيرة منها الطويل ومنها القصير الشكلي والمعبر عن مشاعر عميقة. ويفرض الصوم على المستمعين كل يوحد أحد وعلى المختارين كل يوم اثنين إضافة إلى خمسة صيامات كل عام، وكل صيام من يومين تحسب مواعيدها من الدورات الشمسية والقمرية والأبراج الفلكية. ويتبع الصيام الرابع صيام من 26 يوماً تمثل أيام العذاب التي قضاها ماني في سجنه. خلال ذلك يأكل المستمعون كالمختارين مرة واحدة في اليوم بعد المساء ثم صيام يومين تذكاراً لموت ماني يتبع ذلك عيد الـ: «بيما» أهم حدث في السنة المانوية وهو ذكرى صعود ماني إلى السماء ويقع دائماً في فصل الربيع وكل يوم اثنين يكون اعتراف المختارين كل واحد للآخر واعتراف المستمعين للمختارين والاعتراف السنوي للجميع في عيد «البيما» ومن اعتراف المختارين المتبقية نرى أنه يمكن للمختار المانوي أن يرتكب خطيئة فيفقد الخلاص (BEMA).

الأسفار المانوية:

ألف ماني سبعة كتب بلغته الأم أي الارامية الشرقية وهي: الانجيل الحي أو «الانجيل العظيم» و«كنز الحياة» مقاله، الأسرار، سفر العمالقة، المزامير والصلوات. وكانوا يؤمنون أن جزءاً من هذه الكتب على الأقل موصى به من الروح الذي سماه ماني «التوأم» يضاف إلى ذلك كتاب «شابوهراجان» وقد لخص فيه ماني تعاليمه باللغة الفارسية للملك

شابور 1. والـ«ارداهالج» وهو تصور ماني للكون مع تعليقات والـ «كيفالايا» وهو محاضرات للنبي ماني ثم جمعها وتحوي بعض المواد الابوكريفية (KEPHALAIA).

ومع انقراض المانوية في القرون الوسطى اختفت هذه الكتب ثم اكتشف جزء منها في القرن العشرين في مصر وطرخان في تركستان الصينية، في أطلال الأديرة باللغات الايرانية والتركية والصينية مع أناشيد وصلوات واعترافات ودفوع وقصص أخلاقية وتاريخ كنسي وجداول تقويم. كما وجدت كتابات على البردي في مصر قرب الفيوم بالقبطية تحوي على الكيفالايا والرسائل وكتاب مزامير ومجموعة دفوعات. كما اكتشف نص مانوي باللاتينية في كهف في الجزائر يرقى إلى عام 400م يتعلق بالمختارين والمستمعين. وكل هذا يحمل عقيدة واحدة.

الأسطورة:

منذ الأزل وجدت مملكتان، مملكة الروح ــ الخير والنور ــ تمتد بغير حدود شمالاً وشرقاً وغرباً وفي الأسفل كانت مملكة المادة ــ الشر والظلام ــ تمتد جنوباً بغير حدود.

تتألف المملكة الأولى من خمسة عناصر طاهرة هي: النار والهواء والنور والماء والتراب. أما الثانية فتتألف من خمسة عناصر دنسة هي: الزوبعة والطين والضباب والدخان والحر الذي لا نور فيه. في مملكة النور يسود الاله الصالح «أبو العظمة» الذي يعبر عن وجوده بالقوى الخمسة للفهم وهي العقل (NOUS) والانشغال (ENNOIA) والسلامة (PHRONESIS) والتفكير (ENTHYMESIS) والمنطق (LOGISMOS). ويقطنها عدد لا يحصى من الايونات الخالدين. وأول اثني عشر من أرواح الايوان الطاهرة التي انبثقت منه (ولدت له) تحيط بالآب ثلاثة في كل ربع من السماء، والهة أنثى هي «الروح العظيمة» التي كانت ولا تزال قرينته.

وفي مملكة الظلمة يسود الشيطان الشرير تحيط به أرواح الظلمة وهي في عداء فيما بينها ومع سيدها أيضاً، وتنقسم مملكة الظلمة إلى خمسة مناطق قائمة صنعت كل منها من أحد عناصر الظلمة الخمسة وهي: الدخان واللهب والعاصفة والمياه المالحة والظلام. ومنها تنامت خمس «أشجار» ومن الأشجار الخمسة خرج خمسة أنواع من الشياطين ما هو بساقين أو أربع سيقان أو مجنح أو سابح أو زحاف. كل نوع يحكمه ملك يتوزع بين الجنسين. ذكور واناث، يعيشون في شهوة وكفاح متواصلين.

ورب جهنم ابليس، يحمل في شخصه كل الملوك الخمسة وهم الروح الشرير والأسد والنسر والسمكة والتنين، وفي مملكة الجحيم توجد أيضاً المعادن الخمسة والأذواق الخمسة.

اختلاط المبدأين:

وصدف مرة أن جاء ابليس إلى منطقة الحدود بين المملكتين فرأى بهاء مملكة النور الساحر الأخاذ فثار فيه الحسد واشتهاها فهجم عليها ــ فصد «أبو النور» هذا الهجوم بآلهة انبثقت من ذاته ليحمي السلام الأبدي للخالدين. أولها الهة الخليقة الأولى أو «أيون أم الحياة» و«أيون الانسان الأول» المدعو عنه المانخيين أيضاً «المسيح يسوع الكلمة ابن الله» ومع الانسان الأول العناصر الخفيفة الطاهرة وهي خمسة: الأثير ــ الهواء ــ النور ــ الماء

ـ والنار وهي مادة العالم الخفيف كذلك هي أبناء الانسان الأول يرمي بها الأرواح الشريرة وتدخل في العراك معها.

ويضعف الانسان الأول حتى يستطيع الشياطين أن يستولوا على الجزء المضيء من كيانه. فيصدر أبو النور ايونا آخر لمساعدته هو «الروح الصانع للحياة» وهذا ينقذ من الخطر ذلك الجزء من الانسان الأول الذي لم تمتلكه الظلمة بعد. ويسكنه الشمس وجزء الايون هذا هو «يسوع الخالد أو ابن الله الذي بلا شهوات».

وأما الجزء المفقود من النور فيضيع في الظلمة وتختنق المادة النور بالالتفاف حوله فيتألم ويفقد ادراكه لطبيعته وهو يسوع المتألم ابن البشر المتألم. وعلى هذه الصورة بواسطة يسوع المتأمل في الوسط بين المملكتين يحصل اختلاط المادة المنيرة مع مادة الظلمة ويسوع المتألم يصبح هكذا «روح العالم» وبمساعدة «الروح الصانع الحياة» يشكل العالم المنظور الذي يختلط فيه الروحي بالمادي.

ويترك الانسان الأول فاقد الوعي، على أرض المعركة بعد أن قطع جذور الأشجار الجهنمية الخمسة كي لا ينمو الشر مرة أخرى. وعندما يستعيد وعيه يصرخ طالباً عون الآب فيخلق الدفعة الثانية من الآلهة لتشد أزره «صديق الأنوار» و«البناء العظيم» و«الروح الحي» وأبناؤه الخمسة: «الجلال، وملك الشرف، والنور الساطع وملك المجد وأطلس ويصبح الروح الحي للانسان الأول فيأتي جوابه من الأعماق «والنداء» والجواب هما «جوهر الحياة» القوة المحركة للشوق اللاواعي لعناصر النور المفقودة كي تعود إلى موطنها الأصلي ثم تعد أم الحياة والروح الحي والانسان الأول إلى النور. وانقاذه هو رمز الخلاص «النور المفقود» والخلاص الشخصي.

خلق العالم:

ثم ينتصر «الروح الحي» على الشياطين ويصنع من أجساد المذبوحين منهم «ثماني أراضي» ومن جلودهم «عشر سموات» ويقيد آخرين وهم أحياء إلى الجلد. من ذلك النور الملتهم يصنع الشمس والقمر والنجوم. ومن أجل انقاذ النور المحصور ضمن المادة يخلق ثلاثة دواليب، النار والماء والريح، يديرها ملك المجد فيرفع السموات العشر ويحمل أطلس الأراضي الثلاثة العليا.

عملية الفداء:

ثم يستدعي أبو العظمة الاله الأكبر خليقته الثالثة أي الرسول الثالث وبعدئذ يستدعي «غادة النور» ويظهر الالهان عاريان أمام الشياطين وعند رؤيتهم يقذف ذكور الشياطين فيهم ومع بذوره يسقط النور الذي في أجسادهم إلى الأرض وما يسقط من بذورهم في البحر يصبح تنيناً هائلاً يقهره «النور الساطع» وما يسقط على اليابسة يصبح أنواع الأشجار والنباتات الخمسة، والشيطانات الاناث يحبلن من اجتماعات لهن في الجحيم ثم يجهضن وتسقط أجنتهن على الأرض ليصبحوا الأجناس الخمسة للمخلوقات الحية.

والبناء العظيم يصنع الفردوس الجديد مسكناً للآلهة وللنور المفدي ويحكمه الانسان الأول. وأما الرسول الثالث فيخلق «الانسان الكامل» الذي هو أيضاً اله ومعبر للأرواح المفدية التي تصعد إلى القمر ثم إلى الشمس ثم إلى الفردوس الجديد. ويطلق الرسول الثالث الحركة في الشمس والقمر ومع تبدُّلْ الفصول يبدأ الفداء المادي للنور.

خلق الانسان:

وبما أن النور يسعى للتحرر من المادة بمساعدة «يسوع العديم الشهوة» الموجود في الشمس يسعى الشيطان لافشال عملية الفداء والخلاص. فتحرض المادة الشيطانية أشقلون ونمرائيل على التهام أبناء الاجهاضات الأخرى فيجمعان كل أجزاء النور الموجودة في مملكة الظلمة ويحصرانها في مكان واحد. ولما ازداد النور في جسديهما تجامعا وانجبا آدم وحواء على صور الانسان الأول الآله كما كان يراها الأبوان الشيطانان من الجلد. والنور المنتقل من جسم الشيطانين إلى الانسان بشكل الروح أو النفس العاقلة ويسجن مع الروح في الجسد وليد الشياطين الروح المظلم المصنوع من الشهوة والجشع والكراهية. الشهوة تجعل البشرية تتوالد وبذلك نصنع السجون على الدوام للنور الموجود في هذا العالم.

ولكي لا تعرف النفس مصدرها الروحي يمنع الشيطان الانسان من تذوق ثمار «شجرة الحياة» فتنادي «غادة النور» على «يسوع الجلال» الغير متألم لينبه آدم إلى معرفة أصل الروح لكي يحافظ آدم على الطهارة والعفة، فظهر على الأرض بصورة الحية كي يعلمه أن يأكل من شجرة الحياة وعندئذ يعرف الانسان مصدره. لكن الشيطان طغى على حواء واغواها فولدت منه قابين وهابيل وأخيراً ولدت شيث من آدم. هكذا يدوم التصاق الانسان بالنور وهذا الجزء من النور لايمكن أن يتخلص من المادة لأن الخلاص يتوقف على المجهود الواعي لكل فرد. لأن المادة في مملكة الظلمة قد سيطرت تماماً على الطبيعة الروحية. وبواسطة الأديان الكاذبة ــ اليهودية والوثنية ــ تابعت مملكة الظلمة سيطرتها.

الخلاص الفردي:

ويوعز يسوع الجلال (غير المتألم) إلى «العقل العظيم» (NOUS) أن يرسل الأنبياء إلى الجنس البشري ليحملوا «المعرفة» (GNOSIS) إلى نسل آدم. فمع المعرفة تأتي إرادة الخلاص وبالفضائل الخمسة ــ المحبة (AGAPE) والإيمان والكمال والصبر والحكمة التي تحيط «المعرفة» بها الروح، يقوى الانسان على التصدي للشر. وتحاول المادة أبداً أن تسيطر على الروح عن طريق النسيان بينما الدين يعمل على إبقائها واعية صامدة. (ومثل بولس يسمي ماني «الروح اليقظة» الإنسان الجديد، والروح الغافلة «الانسان القديم» وبما أن الروح من النور فهي ليست مسؤولة عن خطايا الروح الشرير والجسد إلا بقدر عدم وعيها وفشلها بسبب النسيان أو الضعف. ويتبع ذلك العقاب بتأجيل العودة إلى الفردوس. لأن المغفرة تكون فقط بالتوبة وتجديد الوعي والصمود. بينما تلك الأرواح التي ترفض تعاليم العقل ترتكب الخطيئة المميتة فتفعل ومع الزمن يمكن أن تتمثلها المادة فيحكم عليها إلى الأبد.

لكن «يسوع غير المتألم» من أجل تحرير نصفه المتألم يرل من الشمس إلى الأرض ويقبل فقط شكل إنسان المسيح (المشبهة) ويختلط بالناس يكشف لهم عن مصدرهم الروحي ويعلمهم كيف يتحررون من المادة. وتلاميذ المسيح كبشر سيطرت فيهم المادة على الروح فشوهوا تعاليمه. وسبق أن عرف المسيح هذا فوعد أن يرسل إلى العالم بعده الفراقليط (الروح المعزي، منحمنا، مناحيم (PARAELETE, PARAELETUS, PARAKLETOS لكي يطهر تعليمه من كل خلط بالمحسوس فيتابع ويتم عمله. فظهر الفراقليط حقيقة في شخص ماني وكشف مملكة الله. وحيث أن نفس العالم قد عرفت الآن منشأها فبمساعدة الروح الحيي الساكن في الهواء تتحرر من قيود المادة لأنها بلغت معرفة الذات. والوسيلة للتحرر من المادة

هي النسك الصارم، والابتعاد عن الزواج ومنع الخمر واللحم ومنع قطع النبات وقتل الحيوان لأن في هذه وتلك توجد روح العالم وأن في كل حالة عدم الادراك وآخر فعل الحياة العالم هو إعادة الثنائية البدائية عندما يحترق العالم المنظور وترجع نفس العالم إلى مصدرها.

مصير الروح عند الموت:

تمر الروح أمام «الحاكم العادل» الذي يستدعيه العقل وبعد المحاكمة تذهب في أحد طرق ثلاثة:

1 ــ إما إلى الحياة في الفردوس الجديد.

2 ــ أو الاختلاط والعودة إلى العالم لتختلط بالمادة في تقمص جديد.

3 ــ أو إلى الموت في الجحيم.

عندما تغادر روح الانسان الصالح جسده تلتقي بإله مخلص ومعه ثلاثة ملائكة يحملون إليها شارات النصر ثم تصعد إلى الفردوس الجديد عبر «عمود المجد» إلى القمر ثم إلى الشمس.

نهاية العالم:

يسبق نهاية العالم «الحرب العظمى» يتبعها مجيء يسوع ثانية. فيقيم كرسي حكمه ويفرز الخطأة عن الصالحين ثم ينسحب إلى الفردوس الجديد. بعد ذلك يترك الآلهة الذين يحملون الكون مهماتهم فيتحركون من أمكنتهم وترتطم الأرض بالسماء وتشتعل في نار عظيمة تدم 1468 عاماً تخرج فيها كل ذرات النور من المادة وتصعد إلى الفردوس لتكون الإنسان الأخير. ثم تسجن المادة ويختم باب سجنها بحجر ضخم وأخيراً يتصل الفردوس مع كل ساكنيه بعالم النور.

ماني ويسوع:

يقول ماني لا يوجد يسوع واحد بل ثلاثة:

1 ــ الإله الفادي ــ يسوع الجلال.

2 ــ يسوع المتألم ــ الذات الحية وهو النور متألماً أو مصلوباً في المادة.

3 ــ يسوع المسيح ــ النبي «وابن الله» الذي ظهر بشكل انسان وتراءى أن تألم ومات على الأرض.

ويسوع النبي هو الذي سبق ماني مباشرة. ويسوع الإله بالتفسير الدوكي (المشبه) المانوي هو المخلص. لأن على كل آلهة الفداء المنبثقة من الآب أن تخلص نفسها أيضاً بأن تكون النور، المتألم على الأرض. ولاحتقار ماني الشديد للمادة يرفض عقيدة تجسد المسيح ويعتبر ماني نفسه الفراقليط أو الروح المعزي. والروح القُدُسْ هو العقل الموحي لكل الأنبياء. وفي البلاد البوذية تمثل ماني على أنه «المايتريا» أي البوذا التالي لغوتاما بوذا ويأتي بعده.

التكشف الإلهي

الإنسان كائن معقد أطلقت عليه مختلف النعوت لتعبر فقط عن جوانب محدودة من أوصافه، دون أن تحوي وتشتمل على كل صفاته. فقد وصف بأنه منتصب، وأنه ناطق وسياسي وعاقل وديني... إلخ. كما قيل إنه مركب من جسد ونفس وعقل، لايختلف جسده في جوهره عن باقي الحيوانات، والروح تعطيه ما يميز الحي عن الجامد ككل الأحياء، وأما العقل فهو ميزته الكبرى المتممة لإنسانيته. وهذا العقل يختلف نموا وتفتحا من إنسان لآخر حتى يبلغ في مراحله العليا درجة الفلسفة والنبوة.

وقد قيل «أن العقل قبس من نور الله يرسله الإنسان في مجاهل الوجود وشعابه فيتتبع الموجودات ويحاول أن يدرك ماهياتها وشكلها. مرتقياً من علة إلى علة، مقلبا كتاب الكون صفحة بعد صفحة حتى يصل إلى الغاية القصوى التي هي «العلة الأولى» التي كان كل شيء بها ومن أجلها، كاشفاً، محللاً، مقسماً، مرتباً، مفسرا كيفية انسجام الأشياء في ذاته وفي ما حوله مما هو خارج عن ذاته».

ومذ وجد هذا الانسان العاقل وسط الكون الواسع بدأ يطرح الأسئلة «لماذا ولماذا؟» هذه «الماذا الكبرى» هي التي قادته في طريق العلم والفلسفة والدين. ورغم متطلبات الحياة المادية ظل التساؤل والفضول العلمي حافزا لزيادة المعرفة ومتابعة البحث العقلي المجرد.

والعلم هو معرفة الكائن بالكائن والوصول إلى المبادىء الأولى والغايات الأخيرة، ينسق المعارف ويبوبها. وقد قسمت العلوم إلى علوم طبيعية واجتماعية وإنسانية.

وأما الفلسفة فهي نظرة شاملة إلى العلوم. ومن يلم بالروابط بين مختلف العلوم، وإن درست مستقلة عن بعضها بعضاً، هو المؤهل لأن يصبح فيلسوفاً، وتشمل الفلسفة علم النفس والمنطق والأخلاق ما وراء الطبيعة.

وأما الدين فهو علاقة الانسان بمقدساته لافرق إن كانت في الطبيعة أم في ما وراء الطبيعة. وكل دين له مقوماته الثلاثة، فهو أسلوب في العقيدة وهذا يتداخل مع الفلسفة، وأسلوب في العبادة وهذا ما يداخله مع الطقوس والفن الديني وطرق التعبير العبادي، وأسلوب في الحياة وهذا ما يداخله مع علم الأخلاق النفس والسلوكية الاجتماعية والمناقبية. أي يشمل الدين فلسفة وطقسا وسلوكا. وبكل بساطة نجد أنه لا يمكن الفصل التام بين العلم والفلسفة والدين والفلسفة، فأنت ترى الاثنين والثلاثة يتفاعلون في حياة كل إنسان لدرجات متفاوتة حسب سويته العقلية.

في الأصل كانت تشمل الفلسفة كل العلوم وجميع الموضوعات التي استاع الإنسان ولوجها. وما أن اتسعت المعرفة واصطدام العقل بالخطأ حتى تعددت العلوم وحددت موضوعاتها وانفصلت الواحد تلو الآخر عن «جسم الفلسفة»، فكانت الرياضيات والفلك وعلم الطبيعة وعلم الأحياء العلوم الاجتماعية والإنسانية ولكن مهما بلغت العلوم الوضعية من التقدم فإنها لا تشفي غليل العقل البشري المتعطش دوما إلى المعرفة، وهي لا تمنه من فهم العالم وإدراك المطلق، ولا تعين هدف النشاط ولا غاية السلوك. لذا بقيت الفلسفة لأنها تتعدى الظاهرة الطبيعية إلى القيمة. إن غاية الفلسفة تفسير الكون ومعرفة الخير وتحديد

السلوك الإنساني وهذا يخرج عن نطاق العلوم. إنما تطرح المسائل حق وإن لم تحلها. وهذا لا تختلف الفلسفة كثيراً عن الدين. إلا أن الدين يعترف بالوحي ويرتكز على الإيمان وأما الفلسفة فلا دليل لها سوى العقل، ولا تقبل حقيقة لا يقتنع بها العقل وبهذا تلتقي مع العلم.

العلم وليد العقل لكنه لا يرضيه تماماً. فالقوانين العلمية غير تفسيرية وإن عبرت عن علاقات ثابتة. إنما تبلغ الظاهرات، بينما العقل يتغلغل إلى كنه الأشياء وجوهرها. إلى مصير الإنسان وتأمين هذا المصير. والعلم لا يحل مشكلة السلوك. بل يعلم ما هو كائن، لا ما ينبغي أن يكون. فيترك مشكلة الأخلاق بدون حل. بل أصبح العلم قوة كبرى في يد الإنسان يمكن أن تستعمل أخلاقياً أو لا أخلاقياً. هذا ما جعل الفلسفة تتعدى العلم الوصفي لتقيم علماً لما وراء الطبيعة وعلماً للأخلاق وبذلك تداخلت مع الدين.

عندما ينطلق الفكر يرى الكثير مما هو أبعد من ذاته ـــ لا يمكن تحديد بدء الزمن ولا تحديد نهايته ـــ لا يمكنه تحديد الفضاء ولا عوالمه ولا غاية الوجود أو علته.

يقدر الفلكيون أن المجرة تضم ثلاثين ألف مليون شمساً وأن نظامنا الشمسي ليس إلا واحداً منها وقطر المجرة مئتا ألف سنة ضوئية. كما يوجد مئة ألف مجرة يبعد بعضها ملايين السنين الضوئية عن البعض الآخر. فهل المادة خرجت من العدم أم المادة تخرج من المادة، والحي من الحي، والخلية من الخلية. وإذا كان لأبسط الآلات مهندسون مصممون وتراكم جهد العديد من العقول يدخل في كل اختراع فهل كان هذا الكون الواسع اللامحدود وأنظمته المعقدة التي تضبط الزمان والمكان هي مجرد صدفة خارقة أم هناك مهندس مصمم أكبر هو علة العلل.

هل تعقد المركبات العضوية والتفاعلات الفيزيائية والكيميائية وتكاملها في الأحياء مصادفة عجيبة أم لها عقل مصمم أوجدها؟

يقدر سكان أيام المسيح بمئة وخمسة وعشرين مليوناً من البشر وكانت سوريا سبعة ملايين آنذاك. ورغم الموت الطبيعي والحروب والمجاعات والأوبئة صار عدد سكان العالم اليوم ما ينيف على ثلاثة آلاف وخمسمئة مليون إنسان. وهذا العدد الضخم لا يساوي أكثر من ثلاثة بالمئة فقط (3%) من الناس الذين عاشوا على كوكبنا مذ وجد البشر. فيتساءل الأحياء، ماذا بعد الموت؟ أهناك نفس لا تفنى ولا تنحل بفناء الجسد أم مظاهر الحياة هي مجرد ظاهرات كيميائية وفيزيائية معقدة لا ندرك معظمها؟ وهل إذا كشف لنا العلم كل يوم شيئاً جديداً سنصل في النهاية إلى تفسير مادي بحت لكل شيء؟

ما هو العقل؟ أهو مجرد وظيفة دماغية؟ كيف نفكر؟ كيف نتذكر؟ كيف نربط المعلومات؟ كيف نبدع ننفعل عاطفياً؟ كيف نتأمل فيما وراء إحساساتنا وحواسنا؟ ما الفرق التشريحي بين دماغ العاقل والمختل؟ هل العقل جزء من عقل كوني فاعل؟ أم نعترف بالعجز عن فهم الوائف الفكرية ونقر المعجزة؟

هذه التساؤلات حول وجود إله وخلق، نفس وعقل، خلود وفناء، خير وشر، مادة وقيم حركت مخيلة الإنسان يوم ارتفع عن سوية الكائنات الحية الأخرى وتسامى بعقله، فتفاعل العلم مع الفلسفة، والفلسفة مع الدين، المحسوس باللامحسوس، الطبيعة مع ما وراء الطبيعة، فوجد المؤمن والملحد ومن يقول لا أدري فيعترف بقصوره الفكري وفي نفسه حيرة. لكن بقي هناك سلوكية معينة وأخلاق وقيم متفق عليها عند الجميع رغم الاختلاف

حول مصدرها ونجد من يشبه الله بالمعلم العالم يمر بين يديه مختلف مراتب التلاميذ. يمثلون مختلف الأزمنة التاريخية والأمكنة الجغرافية ومراتب التطور الاجتماعي والطاقات الفكرية والفهم والاستيعاب. ولايمكن طرح نفس المسألة وبنفس الشكل والأسلوب على الفرد الغرّ والمتقدم وعلى السويات العلمية الدنيا والوسطى والعليا ونحصل على نفس التفهم والجواب. هذا المعلم يكلم كلاً حسب قدرته ودرجة فهمه وبهذا يكشف نفسه ويكشف علمه على مراحل تتناسب ومراحل تقدم العقل البشري.

هذا التكشف الإلهي يختلف من جيل إلى جيل ومن مجتمع إلى مجتمع حسب درجة تطوره. يهتم بل شعب فيرسل منه من يفهمه ويفهمه مادام هناك جهل للحقيقة ومكان للرذيلة. بهذا تكون القيقة الأزلية واحدة لا تتغير ولا تتبدل، لا يحدها زمان أو مكان، لكن الإنسان المحدود هو الذي يتغير ويرى من خلال ذاته ويفهم ما تيسر له من الحق حسب ذهنيته. وإذا ما نظر إلى أبعد من ذاته أصبح فيلسوفاً نبياً. والفلسفة لا تنتهي كما النبوة لا تنتهي.

إن الحقيقة الكبرى يمكن أن يراها العقل ولا تدركها الحواس. ولو أدركتها لأصبحت مادة يمكن دراستها وإعطاؤها صفات ثابتة. ولأصبح من أحاط بها أعظم منها. إن العقل البشري ليقف مشدوهاً أمام عظمة الكون ودقة تصميمه، بل هو أعجز من أن يدرك ذاته. وتبقى «اللماذا الكبرى» مصدراً لكل تقدم في ميادين:العلم والفلسفة والدين

ويتابع التكشف الإلهي طريقه إلى أن تكتمل معرفة الإنسان.

مسطورات من الميثولوجيا العربية

لقد ذكرنا سابقاً أنه عند البعثة النبوية نحو عـام 610 م كـان نحـو 83% مـن سـكان الجزيرة العربية من البدو الرحل يعيشون في نظام قبلي ومشـاعة بدائيـة. بينمـا كـان نحـو 17% فقط من أهل المدن والواحات ــ وأهم المدن مكـة المكرمـة ويثـرب المدينـة وأهـم الواحات خيبر وسكانها من المزارعين اليهود.

كانت مكة تشكل مدينة دولة ــ وقد سـيطر فيهـا التجـار والملاك والصناع ماليـاً واجتماعياً ــ وأصبح لهم مجلس هو بمثابة حكومة لمكة هو «الملأ» ويمثـل عشـرة بطـون مـن قريش ولهم قوة مسلحة تابعة لهم هم «الأحابيش» وقد بـدأت بعصـر الـرق وكـان الرقيـق والتجارة أداتي احتكاك حضاري مع الخارج.

وكان من سكان مكة إلى جانب قريش المسيطرة بقايا مـن جـرهم وخزاعـة والعمـاليق وصناع وتجار أجانب ولهم علاقات تجارية خارجية مع مدن ودول وكـان فيهـا عـدة أديـان ومذاهب إلى جانب العقائد السابقة التي تمثل عقائد ما قبل الاسـلام بمـا فيهـا مـن قصـص ميثولوجية وإن تكن غير متطورة ومنسقة أدبيـاً كالميثولوجيـا السـورية واليونانيـة والمصـرية مع جهل كبير بالتسلسل الزمني للأحـداث ولوجـود الأشـخاص ولمسـرحهم الجغـرافي! في هذه البيئة ــ الخليط من القبائل والعناصـر والأديـان والمـذاهب في مكـة ظهـر الاسـلام المحمدي بما فيه من تخير وتوفيق وصـلة وثيقـة تاريخيـاً وعقائـدياً مـع الاسـلام الموسـوي والاسلام النصراني!

ولدى التحقيق لا نجد ميثولوجيا خاصـة لشـعب مـن الشـعوب دون أن تكـون قـد أخذت الكثير من غيرها! لأنه عنـدما نتوغـل في عمـق التـاريخ نجـد الأصـول المشـتركة لمختلف الشعوب والكثير من النقاط المشتركة في اللغـات وفي العقائـد والعـادات والتقاليـد الاجتماعية ــ لأن في كل احتكاك حضاري يوجد أخذ وعطاء ــ وهـذا مـا يفـرض علينـا مفهوم وجود حضارة إنسانية وتراث إنساني مشترك بعيـداً عـن الانانيـات وضـيق الأفـق الفكري والتعصب الديني والقومي والعنصري إلى ما هناك من جهالات لا علمية!!

هكذا تفاعل الكنعانيون مع الاغريق والأغريق مع الرومان والبـابليون مـع كـل هـؤلاء ومع مصر والجزيرة العربية ــ فقد احتك العرب بكل هؤلاء قبـل وبعـد الاسـلام ولم يكـن هناك جاهلية بالمعنى المتداول!؟

والعقائد والقصص الدينية التي تهمـل مـع الـزمن تـدخل بعـد ذلـك في تصـنيفات الميثولوجيا بينما هي ذاتها لما كان معمولاً بها كعقائد حيـة ــ صـنفت كـدين ــ ومـا بقـي منها شذب وأعيد صبه لغوياً وفكرياً ودخل الأديان اللاحقة وكأنـه أصـيل في هـذه الأديـان فأصبح جزءاً من عقائدها وطقوسـها! وعلـى أرض الواقـع ورغـم الدراسـات والأبحـاث المعمقة كثيراً ما يصعب العثـور علـى أصـول الكلمـات وتداخلـها في اللغـات بسـبب تصحيفها وقدمها وتبدل مدلولاتها كما يصعب العثـور علـى أصـول العقائـد وتداخلـها في الأديان مع تعديلها في نصها وروحها وتشـريعاتها ــ لكـن جهـل الجـذور لا يعـني عـدم

وجودها والكثير معروف منها لدى الباحثين ــ لأن لا شيء يفنى ولا شيء يولد من العدم والتراث الفكري تسلسل متواصل عبر التاريخ الانساني. وديانات العرب غير مستقلة عن عقائد أقاربهم وجيرانهم وكثير من قصصها يهودي أو نصراني كتابي أو ابوكريفي أو شفوي متناقل حرفي او معدل إلى جانب القصص العربية الخالصة وقد دخلت الكتب والعقائد الدينية!

وهذا التداخل في العقائد والنصوص بين الأديان وكتاباتها الفقهية وقصصها «الكنسية» لا يضير في شيء ولا يغير في قيمتها الفكرية والتاريخية أثناء مسيرة الإنسان الحضارية حيث يسير المذهب العقلي في الفلسفة إلى جانب الدين كما يسير التقدم العلمي مع التقدم الديني في خطين متوازيين ومتداخلين في أشكال متعددة دون أن يكونا بالضرورة متناقضين بل كثيراً ما التقيا معاً في عقل المفكر الواحد.. وبالتحديد لا يتنافى التقدم العلمي مع التقدم الديني ــ لأن العلم لا يتنافى مع الدين بل مع الخرافة! بقي علينا أن نميز بين الخرافة والدين بين «علماء الخرافة» وعلماء الدين كذلك أن لا ننحاز إلى خرافاتنا ضد خرافات الآخرين!!

فالدين عبادات ومعاملات. وإذا كانت العبادات بما فيها من طقوس وعقائد تعتمد على تصورات العقل واستدلالاته دون الخضوع لبراهين العلوم الطبيعية فإن المعاملات ترتكز إلى واقع وممارسة اجتماعية! فتطرح أفكاراً في العدالة والمساواة والصدق والأمانة والرأفة والسلام الخ.. في محاولة الحكماء والأنبياء لتحسين التعامل بين الأفراد والشعوب والأمم ومنع ما يضر بالفرد والمجتمع!

ومن أساطير العرب ما يدور حول قصة الخلق والكواكب ومكة والكعبة والعرب البائدة وابراهيم واسماعيل والجن وسليمان وغيرها وسنورد نماذج منها ــ وكثير منها هو تطوير وتوسيع أدبي للقصص التوراتي والكنسي وفق خيال بعض المحدثين والمؤرخين القدماء وفق عقائد تلك الأيام. غير أنها قد دخلت في العقائد الشعبية التي ما تزال تتوارثها الأجيال حتى يومنا هذا وكأنها من صلب الدين! ذلك.. لأن العقل العلمي هو الذي يميز بين الخرافة والدين، والفلسفة والدين وبين دور العلم ودور الدين في تطور الإنسان وحضارته. والوعي الفكري هو الذي يميز بين تجار الخرافة والطائفية وأصحاب الفتن وبين المتدينين الحقيقيين الذي يتمسكون بأهداب الفضيلة.

ومن المؤسف أن البسطاء من الناس الذين لا علم لهم تأخذ بالبابهم الخرافة أكثر من الدين وكلما جمح الخيال وابتعد أصبحت الأسطورة معجزة أكبر ودليل أعظم على صحة العقيدة ــ ولا يدركون الاسقاطات الفلسفية والاجتماعية في الأديان ويدخلون متاهات ما وراء الطبيعة ــ وهذا ما يبتعد بهم عن الفضائل الدينية فتجعلهم الجهالة والبساطة ضحية لمثيري الطائفية والفتن والفرقة الوطنية فيبقى واجب المثقفين الواعين والمتدينين الحقيقيين أن يمنعوا المأساة ــ لأن الأفضل هو أن لا نختلف على الغيبيات بل أن نلتقي على أرض الواقع..

قصة الخلق

عن الطبري

كان الله لاشيء غيره كان في عماء ماتحته هـواء ومافوقـه هـواء وأول مـاخلق الله عـز وجل «القلم» فقال له اكتب! قال: «يارب وما اكتب؟» قـال: «اكتـب القـدر». فجـرى القلم في تلك الساعة بما هو كائن من ذلك وإلى الأبد وقيـام السـاعة. وإنمـا يعمـل النـاس اليوم فيما قد فرغ منه. ثم إن ذلك الكتاب سبح ومجد الله ألف عـام قبـل أن يخلـق الله شـيئا من الخلق. لذا كان بين خلقه القلم وخلقه سائر خلقه ألـف عـام، وذلـك يـوم مـن أيـام الآخرة التي قدر اليوم الواحد منها ألف عام من أيام الدنيا.

فلما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق فيما ذكر أياماً ستة فهـي كـل يـوم منـهن باسم غير الذي سمي به الآخر. وقيل كان اسم أحـد الأيـام السـتة «أبجـد» واسـم الآخـر منهن «هوز» واسم الثالـث منـهن «حطـي» واسـم الرابـع «كلمـن» واسـم الخـامس «سعفص» واسم السادس منهن «قرشت». قالوا بـل خلـق الله واحـداً فسـماه «الأحـد» وخلق ثانياً فسماه «الإثنين» وخلق ثالثـاً فسـماه «الثلاثـاء» ورابعـاً فسـماه «الأربعـاء» وخامساً فسماه «الخميس».

ثم خلق «الماء» قبل العرش ثم خلق «عرشه» فدفعه على المـاء واسـتوى عليـه وكتـب الذكر قبل كل شيء وفي اللوح كل شيء يكـون. فلمـا أراد أن يخلـق السـموات والأرض قبض من صفاة الماء قبضة ثم فتح القبضة. فارتفعت سحاباً رقيقـاً هـو غمـام مثـل الـدخان. فارتفع الدخان فوق الماء فسما عليه فسماه «سماء» ثم يـبس المـاء فجعلـه أرضـاً واحـدة ثم خلق «النون». والحوت هو النون الذي ذكـره الله عـز وجـل في القـرآن. وبسـط الأرض على ظهر النون وقرأ «ن والقلم وما يسطرون» والحوت في الماء والمـاء علـى ظهـر صـفاة، والصفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصـخرة في الـريح! وهـي الصـخرة الـتي ذكـر لقمـان ــ ليسـت في السـماء ولا في الأرض ــ فتحـرك الحـوت فزلزلـت الأرض ومادت ــ فارسى عليها الجبال فقرت ــ فالجبال تفخـر علـى الأرض فـذلك قولـه تعـالى «فجعل لها رواسي أن تميد بكم». ثم شق الأرض فجعلها «سبع أرضـين» ممهـدة جزائـر بـين كل أرضين بحر، والبحر محيط بذلك كله والهيكل مـن وراء البحـر. خلـق الله الأرض يـوم الأحد ولم يدحها ولم يقدر فيها أقواتها ولم يخـرج فيهـا ماءهـا ومرعاهـا حـتى اسـتوى إلى السماء فقدر أقواتها وأخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها. وقيـل خلـق الجبـال يـوم الأحد والشجر يوم الإثنين والمكروه يوم الثلاثاء والنور يوم الأربعـاء ويـوم الخمـيس خلـق السموات!. ففتقت السماء بعد أن كانت رتقـا فجعلـها «سـبع سمـوات» يـوم الخمـيس والجمعة وإنما سمي يوم الجمعة لأنه جمع فيـه خلـق السـموات والأرض. وأوصـى في كـل سماء أمرها. خلق في كل سماء خلقها من الملائكة والخلق التي فيها مـن البحـار وجبـال الـبرد ومالم يعْلم. وزين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظاً تحفـظ مـن الشـياطين فلمـا فرغ من خلق ما اوجد استوى على العرش في اليـوم السـابع وجعـل ذلـك اليـوم عيـدا للمسلمين. خلق مواضع الأنهار والشجر يـوم الأربعـاء وخلـق الطـير والـوحش والهـواء والسباع يوم الخميس ــ كما خلق السماء يـوم الخمـيس. وخلـق يـوم الجمعـة النجـوم

والشمس والقمر والملائكة إلى ثلاث ساعات بقيت منه! فخلق في أول ساعة من هذه الساعات الثلاث «الآجال» ـ من يحيى ومن يموت. وفي الثانية «الآفة» على كل شيء مما ينتفع به الناس وفي الثالثة خلق «آدم» على على عجل وأسكنه الجنة. وأمر ابليس بالسجود واخرجه منها في آخر ساعة. فكان خلق آدم ما بين العصر والليل وبخلق الإنسان فرغ من خلق كل شيء يوم الجمعة. وقد قيل أن الله خلق البيت العتيق على الماء على أربعة أركان قبل أن يخلق الدنيا بالفي عام ثم دجيت (بسطت) الأرض من تحته.

فإذا كان الله تعالى خلق الخلق من لدن ابتداء خلق الأرض والسموات إلى حين فراغه من خلق جميعهم في ستة أيام. وكان كل يوم من الأيام الستة التي خلقهم فيهن مقدار ألف سنة من أيام الدنيا. وكان بين ابتدائه في خلق ذلك وخلق القلم الذي أمره بكتابة ماهو كائن إلى قيام الساعة ألف عام. وذلك يوم من أيام الآخرة كان معلوما أن قدر مدة مابين أول ابتداء ربنا عز وجل في خلق ماخلق من خلقه إلى الفراغ من آخرهم سبعة آلاف عام يزيد إن شاء الله شيئاً أو ينقص شيئاً.

ومدة مابين أول خلقة الله تعالى إلى قيام الساعة وفناء جميع العالم أربعة عشر ألف عام من أعوام الدنيا وذلك أربعة عشر يوماً من أيام الآخرة سبعة ألاف حتى خلق آدم أبو البشر ـ صلوات الله عليه ـ وسبعة أيام أخر وهي سبعة آلاف عام أعوام الدنيا مابين فراغه من خلق آدم إلى فناء آخرهم. وهو قيام الساعة وعود الأمر إلى ماكان عليه قبل أن يكون شيء غير القديم الباري الذي له الخلق والأمر الذي كان قبل كل شيء ولا شيء كان قبله. والكائن بعد كل شيء فلا شيء يبقى غير وجهه الكريم. وصار ترتيب الخلق كما يلي ـ السموات والأرض والبحار في الهيكل والهيكل لفي الكرسي وإن قدميه عز وجل لعلى الكرسي وهو يحمل الكرسي وعاد الكرسي كالنعل في قدميه.

الليل والنهار:

إن الله عز ذكره كان ولاليل ولانهار ولاشيء غيره. نوره يضيء به كل شيء خلقه، نور السموات من نور وجهه وإن مقدار كل يوم من أيامكم هذه عنده اثنتا عشرة ساعة. وكانت السماء قبل أن تخلق الشمس وكانت قبل أن يخرج الله من السماء ضحاها مظلمة لامضيئة. فالنهار هو الهاجم على الله بضوئه ونوره.

خلق الله النور يوم الأربعاء ثم فصل الله بين جزئيه فجعل أحدهما آية الليل وآخر آية النهار ـ فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصره ـ فتساءل أبو ذر: أين تغرب الشمس؟ فأجيب ـ إنها تغرب في السماء ثم ترتفع من سماء إلى سماء حتى ترتفع إلى السماء السابعة العليا حتى تكون تحت العرش فتخر ساجدة فتسجد معها الملائكة الموكولون بها. ثم تقول يارب من أين تأمرني أن أطلع: أمن مغربي أم من مطلعي؟ وتكون حيث تحبس تحت العرش. فيأتيها جبرائيل عليه السلام بحلة ضوء من نور العرش فتلبس تلك الحلة كما يلبس أحد ثيابه ثم ينطلق بها في جو السماء حتى تطلع من مطلعها ثم لاتكسى ضوء وتؤمر أن تطلع من مغربها ـ فذلك قوله عز وجل «إذا الشمس كودت».

والقمر كذلك في مطلعه ومجراه في أفق السماء ومغربه وارتفاعه إلى السماء السابعة العليا ومحبسة تحت العرش. وسجوده واستئذانه. ولكن جبرائيل عليه السلام يأتيه بالحلة

من نور الكرسي فذلك قوله تعالى عز وجل: «جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً». وأما ابن عباس فيعدل من قصة أبي ذر ويقول ـ «إن الله خلق شمسين من نور عرشه ولو ترك الشمسين كما خلقهما في بدء الأمر لم يكن يعرف الليل من النهار ولا النهار من الليل، وكان لايدري الأجير إلى متى يعمل ومتى يأخذ أجره، ولايدري الصائم متى يصوم، ولاتدري المرأة كيف تعتد ولايدري المسلمون متى وقت الحج، ولا يدري الديان متى تحل ديونهم ولايدري الناس متى ينصرفون لمعاشهم ومتى يسكنون لراحة أجسامهم. وكان الرب عز وجل أنظر لعباده وأرحم بهم، فأرسل جبرائيل عليه السلام فأمرَّ جناحه على وجه القمر، وهو يومئذ شمس، ثلاث مرات فطمس عنه الضوء وبقي فيه النور والسواد الذي ترونه في القمر شبه الخطوط فيه فهو أثر المحو. ثم خلق الله الشمس على عجلةٍ من ضوء نور العرش لها ثلاثمئة وستون عروة، و وكل بالشمس وعجلها 360 ملاكاً من الملائكة من أهل السماء الدنيا قد تعلق كل منهم بعروة من تلك العرى. ووكل بالقمر وعجله 360 ملاكاً من الملائكة من أهل السماء قد تعلق بكل عروة من تلك العرى وملك منهم. وخلق الله لهما مشارق ومغارب في قطري الأرض وكنفي السماء ـ ثمانين ومئة عين في المغرب طينة سوداء ـ فذلك قوله عز وجل وجدها تقرب في عين حمئة إنما هي حمئة سوداء من طين، وثمانين ومئة عين ف المشرق مثل ذلك طينة سوداء تفور غلياً كغلي القدر إذا ما اشتد غليها. فكل يوم وليل لها مطلع جديد ومغرب جديد مابين أولها مطلعاً وأخرها مغرباً باطول مايكون النهار في الصيف إلى آخرها مطلعاً وأولها مغرباً أقصرها يكون النهار في الشتاء. ثم ترك مابين المشارق والمغارب ثم جمعها فقال رب المشارق والمغارب فذكر عدة تلك العيون كلها حتى يبلغوا بها إلى المغرب فإذا بلغوا بها الغرب أدخلوها تلك العين فتسقط من افق السماء في العين.

وخلق الله بحراً دون السماء مقدار ثلاثة فراسخ وهو موج مكفوف قائم في الهواء بأمر الله لايقطر منه قطرة والبحار كلها ساكنة. وذلك البحر جار في سرعة السهم ثم انطلاقة في الهواء مستوياً كأنه حبل ممدود مابين المشرق والمغرب. فتجري الشمس والقمر والخنس(1) في لجة غمر ذلك البحر ولو بدت الشمس من ذلك البحر لأحرقت كل شيء في الأرض حتى الصخور والحجارة ـ ولو بدا القمر من ذلك لافتتن أهل الأرض حتى يعبدوه من دون الله!

والخنس هي خمسة كواكب ـ البرجيس وزحل وعطارد وبهرام والزهرة فهذه الكواكب الخمس الطالعات الجاريات مثل الشمس والقمر العاديات معهما. فأما سائر الكواكب فمعلقات من السماء كتعليق القناديل في المساجد وهي تحوم مع السماء دورانا بالتسبيح والتقديس والصلاة لله. ودوران الكواكب الخمس في سرعة دوران الرحى. فإذا طلعت فإنها تطلع من بعض تلك العيون على عجلتها ومعها 360 ملاكاً ناشرين أجنحتهم يجرونها في الفلك بالتسبيح والتقديس والصلاة لله على قدر ساعات الليل والنهار ليلاً كان أو نهاراً. فإذا أحب الله أن يبتلي الشمس والقمر فيرى العباد آية من الآيات فيستعتبهم رجوعاً عن معصية و اقبلاً على طاعته خرت الشمس من العجلة فتقع

---

(1) الخنس: خمسة كواكب سيارة هي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد. فذلك قوله تعالى "كل في فلك يسبحون" والفلك دوران العجلة في لجة غمر ذلك البحر

في غمر ذلك البحر وهو الفلك. فإذا أراد الله أن يعظم الآية ويشدد تخويف العباد وقعت الشمس كلها فلايبقى منها على العجلة شيء ـ فذلك حين يظلم النهار وتبدو النجوم وهو المنتهى من كسوفها. فإذا أراد أن يجعل آية دون آية وقع منها النصف أو الثلث أو الثلثان في الماء ويبقى سائر ذلك على العجلة. فهو كسوف دون كسوف وبلاء للشمس أو للقمر وتخويف للعباد واستعتاب من الرب. فأي ذلك كان صارت الملائكة والموكولون لعجلتها فرقتين ـ فرقة منها يقبلون على الشمس فيجرونها نحو العجلة والفرقة الأخرى يقبلون على العجلة فيجرونها نحو الشمس. وهم في ذلك يجرونها في الفلك بالتسبيح والتقديس والصلاة لله على قدر ساعات النهار أو ساعات الليل ليلا كان أو نهاراً في الصيف كان ذلك أو في الشتاء أو مابين ذلك في الربيع والخريف لكي لايزيد في طولهما شيء. ولكن قد ألهمهم الله علم ذلك وجعل لهم تلك القوة والذي ترون من خروج الشمس أو القمر بعد الكسوف قليلاً قليلاً من غمر ذلك البحر الذي يعلوهما. فإذا أخرجوها كلها اجتمعت الملائكة كلهم فاحتملوها حتى يضعوها على العجلة فيحمدون الله على ماقواهم لذلك ويتعلقون بعرى العجلة ويجرونها في الفلك بالتسبيح والتقديس والصلاة لله حتى يبلغوا بها المغرب. فإذا بلغوا بها المغرب أدخلوها تلك العين فتسقط من أفق السماء في العين.

فإذا غربت الشمس رفع بها من سماء إلى سماء في سرعة طيران الملائكة حتى يبلغ بها إلى السماء السابعة حتى تكون تحت العرش فتخر ساجدة ويسجد معها الملائكة الموكلون بها. فتحدر بها من سماء إلى سماء فإذا أوصلت إلى هذه السماء فذلك حين ينفجر الصبح. فإذا انحدرت من بعض تلك العيون فذاك حين يضيء الصبح. فإذا وصلت إلى هذا الوجه في السماء فذاك حين يضيء النهار قال ـ وجعل الله عند المشرق حجاباً من الظلمة على البحر السابع مقدار عدة ليالي منذ خلق الله الدنيا إلى يوم تصرم. فإذا كان عند الغروب أقبل ملك قد وكل بالليل فيقبض قبضة من ظلمة ذلك الحجاب ثم يستقبل المغرب فلايزال يرسل من الظلمة من خلل أصابعه قليلا قليلاً وهو يراعي الشفق. فإذا غاب الشفق أرسل الظلمة كلها ثم ينشر جناحيه فيبلغان قطري الأرض وكنفي السماء ويجاوزان ماشاء الله عز وجل خارجاً في الهواء ـ فيسوق ظلمة الليل بجناحيه بالتسبيح والتقديس والصلاة لله حتى يبلغ المغرب. فإذا بلغ المغرب انفجر الصبح من المشرق فطم جناحيه ثم يطم الظلمة بعضها إلى بعض بكفيه ثم يقبض عليها بكف واحدة. ولاتزال الشمس والقمر كذلك من مطالعهما إلى مغاربها حتى يأتي الوقت الذي ضرب الله لتوبة العباد. فتكثر المعاصي في الأرض ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد ويفشو المنكر فلاينهى عنه أحد. فإذا كان ذلك حبست الشمس وبعد ليلة يحبس القمر تحت العرش ولايؤذن لهما بالطلوع ولايرى الصبح ويبقى الليل والنجوم قد استدارت ويجتمع المتهجدون من أهل كل بلدة إلى مسجد من مساجدها ويجارون إلى الله عز وجل بالبكاء والصراخ حتى إذا ماتم لهما ثلاث ليالي للشمس وللقمر ليلتين أتاهما جبرائيل فيقول: «إن الرب عز وجل يأمركما أن ترجعا إلى مغاربكما فتطلعا منها لأنه لاضوء لكما عندنا ولانور» ـ فيبكيان عند ذلك بكاء يسمعه أهل سبع سموات من دونهما وأهل سرداقات العرش وحملة العرش من فوقهما فيبكون لبكائهما مع مايخالطهم من خوف الموت وخوف يوم القيامة. فبينما الناس ينتظرون طلوعهما من المشرق إذاهما طلعا خلف اقفيتهم من المغرب

أسودين مكورين كالفرابين ولاضوء للشمس ولانور للقمر مثلهما في كسوفهما قبل ذلك. فيتصالح أهل الدنيا وتذهل الأمهات عن أولادها والأحبة عن ثمرة قلوبها فتشغل كل نفس بما أتاها. فأما الصالحون والأبرار فإنه ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب لهم ذلك عبادة ـ وأما الفاسقون والفجار فإنه لاينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب ذلك عليهم خسارة.

لكن الله عز وجل خلق بابا للتوبة خلف المغرب مصراعين من ذهب مكللاً بالدر والجوهر. مابين المصراع إلى المصراع الآخر مسيرة أربعين عاماً للراكب المسرع، فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله خلقه إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغاربهما. ولم يتب عبد من عباد الله توباً نصوحاً من لدن آدم إلى صبيحة تلك الليلة إلا ولجت تلك التوبة في ذلك الباب. عندئذ يرد جبرائيل المصراعين فيلأم بينهما ويصيرهما كأنه لم يكن فيما بينهما صدع قط. فإذا أغلق باب التوبة لم يقبل بعد ذلك توبة ولم ينفع بعد ذلك حسنة إلا من كان قبل ذلك محسناً.

ابليس ـ الملاك الساقط:

قال ابن عباس ـ إن ابليس كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة وكان خازناً على الجنان وكان له سلطان سماء الدنيا وكان له سلطان الأرض ـ إذ كان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا «الجن» لأنهم خزان الجنة. وكان ابليس مع ملكه خازنا يسوس مابين السماء والأرض فعصى فمسخه الله شيطاناً رجيما!

خلق ملائكة الجن من نار السموم ومن مارج من نار وهو لسان النار الذي يكون في طرفها إذا لهبت وكان اسم ابليس «الحارث» في حين خلق الإنسان من طين. فأول من سكن الأرض الجن فافسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضاً فبعث الله إليهم ابليس في جند من الملائكة. فقاتلهم ابليس ومن معه حتى الحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال. فلما فعل ابليس ذلك اغتر في نفسه وقال: قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد. فاطلع الله على ذلك في قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه. فبعد أن كان الحارث أو عزازئيل أشد الملائكة اجتهادا وأكثرهم علماً وقع في صدره كبر ـ ولما استكبر ادعى في نفسه بالروبوبية وفكر بدعوة من كان تحت يده إلى عبادته. ولما اطلع الله على ذلك منه قال للملائكة «إني جاعل في الأرض خليفة» فأجاب الملائكة «اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك؟» فقال الرب لهم «إني أعلم مالاتعلمون» (من انطواء ابليس على التكبر) وأراد أن يخلق آدم عليه السلام.

خلق آدم:

خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة ـ في آخر ساعة.

بعث الله جبرائيل عليه السلام إلى الأرض ليأتيه بطين منها، فقالت الأرض «إن أعوذ بالله منك أن تنقص مني شيئاً وتشيني». فرجع ولم يأخذ وقال: يارب إنها عاذت بك فاعذتها. فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها فرجع فقال كما قال جبرائيل. فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره. فأخذ من وجه الأرض وخلط فلم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو

آدم مختلفين. فصعد به قبل التراب حتى عاد طيناً لاذباً ثم ترك حتى تغير وانتن أي صارت حمئا مسنونا ثم تركت حتى صارت صلصالاً — وقيل أن الله تعالى لما خمر طينة آدم تركها أربعين ليلة وقيل أربعين عاماً جسداً ملقى وسمي «آدم» لأنه خلق بيد الله من أديم الأرض. ومكث آدم أربعين ليلة جسداً ملقى فكان ابليس يأتيه فيضربه برجله فيصلصل ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره، ويدخل في دبره ويخرج من فيه ثم يقول لست شيئا للصلصلة ولشيء ماخلقت. ولئن سُلّطتُ عليك لاهلكنك، ولئن سُلّطتُ علي لاعصيك. وقد أصبح آدم بعد أربعين يوماً قبل أن ينفخ فيه الروح صلصالاً كالفخار ولم تمسه نار. ثم أراد الله أن ينفخ فيه الروح فقال للملائكة: «إذا نفخت فيه من روحي فاسجدوا له» فلما نفخ فيه الروح فدخل في رأسه، عطس: فقالت الملائكة «قل الحمد لله» فقال الله عز وجل رحمك ربك. فلما دخل الروح في عينيه نظر إلى ثمار الجنة، فلما دخل في جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة.

فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين أبى واستكبر فكان من الكافرين وقال «لا أسجد له وأنا خير منه وأكبر سناً وأقوى خلقا خلقتني من نار وخلقته من طين» فلما أبى إبليس أن يسجد أبلسه الله تعالى أيئسه من الخير كله وجعله شيطاناً رجيماً وأوقع عليه اللعنة وأخرجه من الجنة عقوبة لمعصيته. وقال الله لآدم: «أنت أولئك الملأ من الملائكة فقل لهم «السلام عليكم» فأتاهم فقال «السلام عليكم» قالوا: «وعليك السلام ورحمة الله» ثم رجع إلى ربه عز وجل فقال له: «هذه تحيتك وتحية ذريتك بينهم» ثم علم آدم الأسماء كلها — هذا جبل وهذا بحر وهذا كذا وهذا كذا لكل شيء. ثم عرضهم على الملائكة فقال «انبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين» ثم قال يا آدم انبئهم بأسمائهم فأنبأ كل صنف من الخلق باسمه وألجأه إلى جنسه. وعلم الملائكة إن الله عز وجل فضل عليهم آدم في العلم والكرم (وهو من جعل الله في الأرض خليفة). ولما أخرج الله إبليس عليه اللعنة إلى يوم الدين من الجنة أسكن آدم فيها وهبط إبليس إلى الأرض.

حواء والخطيئة:

كان آدم يمشي في الجنة وحشا ليس له زوج يسكن إليها. ثم ألقى الله السنة على آدم ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانها لحماً — وآدم عليه السلام نائم لم يهب من نومته حتى خلق الله تعالى من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها امرأة يسكن إليها. فلما كشف عن السنة وهبّ من نومته رآها إلى جنبه فقال «أثا» بالنبطية أي امرأة — لحمي ودمي وزوجتي فسكن إليها.

فلما أسكن الله عز وجل آدم عليه السلام وزوجته جنته أطلق لهما أن يأكلا كلما شاءا أكله من كل مافيها من ثمارها غير ثمر شجرة واحدة ابتلاءً منه لهما قائلاً لا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين»..

فوسوس لهما الشطيان: — أراد ابليس أن يدخل على آدم وحواء إلى الجنة فمنعته الخزنة فعرض نفسه على دواب الأرض أيها يحمله حتى يدخل به الجنة حتى يكلم آدم وزوجته. فكل الدواب أبى ذلك عليه حتى كلم الحية. فقال لها. امنعك من بني آدم فأنت في ذمتي إن أنت أدخلتني الجنة. فأدخلته في فمها وجعلته بين نابين من أنيابها ثم دخلت به فمرت على الخزنة وهم لايعلمون. وكانت الحية دابة لها أربع قوائم تتمشى عليها كأنها

البعير وهي كأحسن الدواب قبل أن تمسخ لتمشي على بطنها. فكلم آدم من فمها ولم يبال كلامه فخرج إليه فقال :«يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلي؟» فأبى آدم أن يأكل منها. فأخذ من الشجرة التي نهى الله عنها وجاء إلى حواء فقال إبليس: «انظري إلى هذه الشجرة ماأطيب ريحها وأطيب طعمها وأحسن لونها!» فأخذت حواء فأكلت منها ثم قالت لآدم «كل فإني قد أكلت فلم يضرني» فأكل منها آدم! فبدت لهما سوآتهما. فقطعت حواء الشجرة فدميت الشجرة وسقط عنهما رياشهما الذي كان عليهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ودخل آدم في جوف الشجرة. فناداه ربه :«يا آدم أين أنت؟ فقال أنا هذا يارب قال: «ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقول لكما أن الشيطان لكما عدو مبين، لم أكلتها وقد نهيتك عنها؟» قال: «يارب أطعمتني حواء!» قال حواء «لم أطعمته!» قالت: «أمرتني الحية»! قال للحية «لم أمرتها؟» قالت «أمرني إبليس»! قال: «ملعون مدحور أما أنت ياحواء فكما أدميت الشجرة تدمين في كل هلال. وأما أنت ياحية فاقطع قوائمك فتمشين جرياً على وجهك وسيشدخ رأسك من لقيك بالحجر. اهبطوا! بعضكم لعبض عدو. وقال لآدم «ملعونة الأرض التي خلقت منها لعنة حتى تتحول ثمارها شوكا!» فأخرج آدم من الجنة وجعل حواء سفيهة بعد أن خلقها حليمة وجعلها تحمل كرها وتضع كرها بعد جعلها تحمل يسرا وتضع يسرا! ولولا البلية التي أصابت حواء لكان نساء أهل الدنيا لايحضن ولكن حليمات ولكن يحملن يسرا ويضعن يسرا. هكذا هبط من الجنة إلى الأرض آدم وحواء وعدويهما ابليس والحية كما قال السلف من أهل العلم! وقد أهبطوا يوم الجمعة بعد بضع ساعات من خلق آدم وهي ساعات من أيام الآخرة حيث اليوم يساوي ألف سنة من سني الدنيا بينما قال آخرون أنه مكث في الجنة نصف يوم من أيام الآخرة أي خمسمئة سنة!

مكان الهبوط:

اهبط الله آدم بأرض الهند فعلق شجرها من ريح الجنة وصارت أطيب الأرض ريحاً وأهبط حواء بـ«جُدّة» فجاء في طلبها حتى اجتمعا فازدلفت إليه حواء فلذلك سميت (المزدلفة) وتعارفا بعرفات فلذلك سميت (عرفات) وهبط ابليس بميسان والحية باصبهان.

ولما أهبط آدم عليه السلام بأرض الهند أهبط جبل اسمه (بوذ) وذروته من أقرب ذرى جبال الأرض إلى السماء وكان رأسه في السماء ورجلاه في الأرض فكانت الملائكة تهابه فنقص طول آدم إلى ستين ذرعاً فانشأ يقول «رب كنت جارك في دارك ليس لي رب غيرك ولارقيب دونك آكل فيها رغدا واسكن حيث أحببت فاهبطني إلى هذا الجبل المقدس فكنت أسمع أصوات الملائكة وأراهم كيف يحفون بعرشك وأجد ريح الجنة وطيبها ثم أهبطتني إلى الأرض وحططتني إلى ستين ذراعاً فقد انقطع عني الصوت والنظر وذهب عني ريح الجنة» فأجاب الله عز وجل «لمعصيتك يا آدم فعلت ذلك بك». فلما رأى الله تعالى عري آدم وحواء أمره أن يذبح كبشاً من الضأن من الثمانية الإزواج التي أنزل من الجنة فأخذ كبشا فذبحه ثم أخذ صوفه فغزلته حواء ونسجه هو وحوا. فنسج آدم جبة لنفسه وجعل لحواء درعاً وخماراً فلبسا ذلك.

فأوحى الله تعالى إلى أدم أن لي حرماً بحيال عرشي فأنطلق فابن لي فيه بيتاً ثم حف به كما رأيت ملائكتي يحفون بعرشي فهنالك استجيب لك ولولدك من كان منهم في طاعتي.

فقال آدم أي رب فكيف لي بذلك لست أقوى عليه ولا أهتدي له! فقيض الله له ملكا فانطلق به نحو مكة. حتى قدم مكة فكان كل مكان نزل به صار عمراناً وكل مكان تعداه صار مغاور وقفاراً ــ فبنى البيت من خمسة أجبل ــ من طورسينا وطور زيتون ولبنان والجودى وبنى قواعده من حراء فلما فرغ من بنائه خرج به الملاك إلى عرفات فأراه المناسك كلها التي تفعلها الناس اليوم ثم قدم به مكة فطاف بالبيت اسبوعا ثم رجع إلى أرض الهند فمات على بوذ.

مآثر آدم:

كما أهبط آدم من الجنة وكان على رأسه اكليل من شجر الجنة. هبط إلى الهند ومنه كل طيب الهند. وانزل معه الحجر الأسود وكان أشد بياضاً من الثلج وعصا موسى وكانت من آس الجنة طولها عشرة أذرع على طول موسى ومر ولبان ثم أنزل عليه بعد ذلك القلاة والمطرقة والسندان والمطرقة ثم نظر وإذا قضيب من حديد نابت على الجبل فقال هذا من هذا. فجعل يكسر أشجاراً قد عتقت ويبست بالمطرقة ثم أوقد على ذلك الغصن حتى ذاب فكان أول شيء ضربة «مدية» فكان يعمل بها ثم ضرب «الثنور» وهو الذي ورثه نوح وهو الذي فار بالعذاب بالهند.

وكان آدم حين هبط يمسح رأسه بالسماء فمن ثم صلع وأورث ولده الصلع ونفرت من طوله دواب البر فصارت وحشا من يومئذ. وكان آدم عليه السلام وهو على ذلك الجبل قائم ليسمع أصوات الملائكة ويجد ريح الجنة فحط من طوله ذلك إلى ستين ذراعاً. فكان ذلك طوله إلى أن مات. ولم يجتمع حسن آدم عليه السلام لأحد من ولده إلا ليوسف عليه السلام. وقيل أن الثمار التي راود الله عز وجل آدم عليه السلام حين أهبطه إلى الأرض ثلاثين نوعا عشرة منها في القشور وعشرة لها نوى وعشرة لا قشور لها ولا نوى.

وجاءه جبرائيل عليه السلام بعد أن جاع آدم واستطعم ربه بسبع حبات حنطة فوضعها في يده. وكان وزن الحبة منها مائة ألف درهم وثمانمئة درهم. فقال آدم ماأصنع بهذا؟ قال «انثره في الأرض» ثم أمره فحصده ثم أمره فجمعه وفركه بيده ثم أمره أن يذريه ثم أتاه بحجرين فوضع أحدهما على الآخر فطحنه ثم أمره أن يعجنه ثم أمره أن يخبزه ملّة. وجمع له جبرائيل عليه السلام! الحجر والحديد فقدحه فخرجت منه النار فهو أول من خبز الملّة.

ثم أنزل الله آدم من الجبل الذي أهبطه عليه إلى سفحه وملكه الأرض كلها وجميع ماعليها من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك وفقد كلام أهل السماء وغابت عنه أصوات الملائكة. ولكن آدم وحواء على مافاقهما من نعيم الجنة مائتي سنة ولم يأكلا ولم يشربا أربعين يوماً ثم أكلا وشربا وهما يومئذ على بوذ الجبل ولم يقرب آدم حواء مائة سنة. وكان مع آدم حجر هو ياقوتة بيضاء خرج بها من الجنة كان يمسح بها دموعه لكنها اسودت فيما بعد لأن الحيّض كن يلمسنه في الجاهلية (الحجر الأسود) إن آدم لم ترقأ دموعه منذ خرج من الجنة حتى رجع اليها الفي سنة وماقدر منه ابليس على شيء. ثم مسح الله على ظهر آدم بيمينه واستخراج منه ذرية. فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون. ثم مسح على ظهره بشماله فاستخرج منه ذرية فقال هؤلاء

للنار وبعمل أهل النار يعملون. وقد أخذ ذرية آدم عليه السلام من ظهره بنعمان وراء عرفه وقيل بذمتي — ويومئذ جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة.

قابيل وهابيل:

حدثنا محمد بن اسحق عن بعض أهل العلم من أهل الكتاب الأول أن آدم عليه السلام كان يغشي حواء في الجنة قبل أن تصيب الخطيئة فحملت بـ قين بن آدم وتوأمته. فلم تجد عليهما رحما ولا وصبا ولم تجد عليهما طلقا حين ولدقما ولم تر معهما دماً لطهر الجنة. فلما أكلا من الشجرة وأصابا المعصية وهبطا إلى الأرض واطمأنا بها فغشاها فحملت بهابيل وتوأمته. فوجدت عليهما الوحم والوصب ووجدت حين ولدقما الطلق ورأت معهما الدم.

وقال بعضهم أن آدم غشي حواء بعد مهبطهما إلى الأرض بمائة سنة فولدن له قابيل وتوأمته قليما في بطن واحد ثم هابيل وتوأمته ليوذا في بطن واحد. وكانت حواء فيما يذكرون لاتحمل إلا توأماً ذكراً وانثى فولدت حواء لآدم أربعين ولدا لصلبه من ذكر وانثى في عشرين بطنا. وكان الرجل منهم أي أخواته شاء يتزوج إلا توأمته (جاريته) التي ولدت معه، فإنها لاتحل له. وذلك إنه لم يكن نساء يومئذ إلا أخواقم وأمهم حواء. وكان أولى أبناء آدم وحواء قابيل (أو قين أو قاين أو قايين) وتوأمته ثم هابيل وتوأمته وأخرهم عبد المغيث وتوأمته أمة المغيث.

فلما شب قابيل وهابيل أراد آدم عليه السلام أن يزوج أخت قابيل التي ولدت معه في بطن واحد (قليما) من هابيل — وأخت هابيل لقايين. فقبل هابيل وسلم رضى وابى ذلك قين وكره تكرما عن أخت هابيل ورغب بأخته عن هابيل لأن أخت قين كانت من أحسن الناس فضن بها عن أخيه. فقربا قربانا إلى الله أيهما أحق بالجارية. وكان آدم يومئذ قد غاب عنهما وأتى مكة ينظر إليها. فقال آدم للسماء احفظي ولدي بالأمانة فأبت وقال للأرض فابت وقال للجبال فأيت فقال لقابيل قال نعم تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك. ثم انطلقا ليقربا قربانهما فايهما قبل الله قربانه فهو أحق بها. وكان قين على بذر الأرض وكان هابيل على رعاية الماشية فقربِ قين حزمة سنبل (قمحا) فوجد فيها سنبلة عظيمة ففكرها فأكلها. وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه وبعضهم يقول قرب بقره فأرسل الله جل وعز «نارا بيضاء» فأكت قربان هابيل وتركت قربان قين وبذلك كان يقبل القربان وبذلك كان يقبل القربان. فلما قبل الله قربان هابيل وكان في ذلك القضاء له بأخت قين (قليما) غضب قين وغلب عليه الكبر واستحوذ عليه الشيطان فطلب أخاه ليقتله فراغ الغلام منه في رؤوس الجبال. فأتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنمه في جبل وهو نائم فرفع صخرة فشرخ بها رأسه فمات وتركه في العراء لايعلم كيف يدفن. فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا فقتل أحدهما صاحبه فحفر له ثم جنا عليه. فلما رآه قال «يا ويلتي أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سَوءة أخي؟»

فرجع آدم فوجد أن ابنه قد قتل أخاه (وأما الكبش الذي قدمه هابيل وقبله الله) فلم يزل ذلك الكبش محبوساً عند الله عز وجل حتى أخرجه فداء اسحق فذبحه على هذا الصفا في ثبير عند منزل سمرة الصواف وهو على يمينك حين ترمي الجمار. ويزعم أهل التوراة أن قينا حين قتل أخاه هابيل قال الله له اين أخوك هابيل؟ قال ماأدري ماكنت

عليه رقيبا. فقال الله له «إن صوت دم أخيك لينـاديني مـن الأرض الآن أنـت ملعـون مـن الأرض التي فتحت فاها فتلقت دم أخيك من يديك. فـإذا أنـت عملـت في الأرض فإنهـا لا تعود تعطيك حرثها حتى نكون فزعا تائهاً في الأرض. فقال قـين «عظمـت خطيـئتي مـن أن تغفرها قد أخرجتني اليوم عن وجه الأرض من قدامك وأكـون فزعـا تائهـاً في الأرض وكـل من لقيني قتلني. وجعل الله آية في قين لئلا يقتله كل من وجـده وخـرج قـين مـن قـدام الله عز وجل من شرقي عدن الجنة. وأخذ قابيل بيـد أختـه ثم هـبط بهـا مـن جبـل بـوذ إلى الحضيض فقال آدم لقابيل «اذهب فلا تزال مرعوباً لا تأمن من تراه «فكـان لايمـر بـه أحـد من ولده الأرماه. فاقبل ابن لقابيل أعمى ومعه ابن له. فقـال للأعمـى ابنـه: «هـذا أبـوك قابيل» فرمى الأعمى أباه قابيل فقتله. فقـال ابـن الأعمـي:«قتلـت يا أبتـاه أبـاك. فرفـع الأعمى يده فلطم ابنه فمات ابنه. فقال الأعمـى ويـل لي قتلـت أبي بـرميتي وقتلـت ابـني بلطمتي. وقيل أنه كلما ولدت حواء غلاماً لآدم تسلط عليه ابلـيس لعنـه الله فقتلـه وكـان ينصح حواء أن تسميه عبد الحـادث كـي يعـيش وقـد كـان يسـمى ابلـيس لعنـة الله «الحارث».

وكان آدم مع ما كان الله عز وجل قد أعطاه مـن ملـك الارض والسـلطان فيهـا قـد نبأه وجعله رسولاً إلى ولده وأنزل عليـه إحـدى وعشـرين صـحيفة ـ كتبـها آدم عليـه السلام بخطه علمه إياها جبرائيل عليه السـلام. فـإن عـدد الأنبيـاء مائـة ألـف وأربعـة وعشرون ألفاً أرسل منهم بثلاثمئة وثلاثة عشـر جمـا غفـيرا أولهـم آدم وآدم نـبي مرسـل. وقيل أنه مما أنزل الله تعالى على آدم تحريم الميتة والـدم ولحـم الخنزيـر وحـروف المعجـم في إحدى وعشرين ورقة.

ولادة شيت:

ولما مضى آدم صلى الله عليه وسلم من عمره مائـة وثلاثـون سـنة وذلـك بعـد قتـل قابيل هابيل بخمس سنين ولدت له حواء ابنه شيثا فذكر أهـل التـوراة أن شـيثاً ولـد فـردا بغير توأم وتفسيره «البديل» أي بدل هابيل: كما قيـل أن توأمتـه كانـت «حـزورا» ولـما حضرت آدم الوفاة دعا ابنه شيت فعهد إليه عهده وعلمه سـاعات الليـل والنـهار وأعلمـه عبادة الخلق في كل ساعة منهن. فأخبره أن لك لساعة صنفاً من الخلـق فيهـا عبادتـه وقـال له يابني إن الطوفان سيكون في الأرض يلبث فيها سبع سنين وكتـب وصـيته وكـان شـيت وصي ابيه آدم عليه السلام وصارت الرياسة من بعـد وفـاة آدم لشـيت فـأنزل الله عليـه خمسين صحيفة. وإلى شيت انساب بني آدم كلهم ا ليـوم وذلـك إن نسـل سـائر ولـد آدم غير نسل شيت انقرضوا وبادوا فلم يبق منهم أحد. فانساب النـاس كلـهم اليـوم إلى شـيت عليه السلام.

موت آدم:

بعد أن خلق الله آدم بيده ونفخ فيه من روحه وعلمـه التحيـة بــ(السـلام علـيكم) لتكون تحيته وتحية ذريته من بعده ـ قبض له يديه فقـال خـذ واختـر! قـال آدم «اختـرت يمين ربي» وكلتا يديه يمين ففتحها له فإذا فيها صورة آدم وذريتـه كلـهم. فـإذا كـل رجـل مكتوب عنده أجله وإذا آدم كتب له عمر ألف سنة ـ وإذا قـوم علـيهم النـور فقـال يـا رب من هؤلاء الذين عليهم النور؟ فقال هؤلاء الأنبياء والرسـل الـذين أرسـل إلى عبـادي

ــ فرأى فيهم جلاً يزهر. فقال أي رب أي نبي هذا؟ قال هذا ابنك داود! قال: أي رب كم عمره؟ قال ستون سنة! قال: أي رب زده في عمره! قال: لا إلا أن تزيده أنت من عمرك وكان عمر آدم ألف سنة فوهب له من عمره أربعين عاماً. فكتب الله عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة والأقلام رطبة ثم جف القلم! فلما احتضر آدم اتته الملائكة لتقبض روحه قال: قد بقي من عمري أربعون سنة. قالوا إنك قد وهبتها لإبنك داود. قال مافعلت وما وهبت له شيئاً. فأنزل الله عليه الكتاب وأقام عليه الملائكة شهوداً واستوفى آدم أجله وعمره تسعمئة وستون سنة ومرض قبل موته احد عشر يوماً وأوصى إلى ابنه شيث عليه السلام وكتب وصيته ثم دفع كتاب وصيته إلى شيث وأمره أن يخفيه من قابيل وولده ولم يكن عند قابيل وولده علم ينتفعون به.

ولما توفي آدم غسلته الملائكة بالماء والسدر وبعث الله إليه بكفنه وحنوطه من الجنة ثم لحدواله فدفنوه ثم قالوا هذه سنة ولد آدم من بعده. وقد قبرته الملائكة (وشيت واخوانه) في مشارق الفردوس عند قرية هي أول قرية كانت في الأرض وكسفت عليه الشمس والقمر سبعة أيام ولياليهن. فلما اجتمعت عليه الملائكة وجمع الوصية جعلها في معراج ومعها القرن الذي أخرج أبونا آدم من الفرودوس لكيلا يغفل من ذكر الله عز وجل.

وقيل دفن بمكة في غار أبي قبيس وأن جبريل قال لشيت صل على أبيك وكبر عليه ثلاثين تكبيره ــ فأما خمس فهي الصلاة وأما خمس وعشرون فتفضيلا لآدم صلى الله عليه وسلم. وذكر أن حواء عاشت بعده سنة ثم ماتت رحمها الله فدفنت مع زوجها في الغار وبقيا مدفونين فيه حتى كان الطوفان فاستخرجهما نوح وجعلهما في تابوت ثم حملهما معه في السفينة فلما غاطت الأرض الماء ردهما إلى مكانهما الذي كانا فيه قبل الطوفان كما قيل أنه لما خرج نوح من السفينة دفن آدم عليه السلام ببيت المقدس.

قابيل وشيت:

ذكر أن قابيل لما قتل هابيل وهرب من أبيه آدم إلى اليمن أتاه ابليس فقال له: «إن هابيل إنما قبل قربانه واكلته النار لأنه كان يخدم النار ويعبدها فانصب أنت أيضاً ناراً تكون لك ولعقبك.» فبنى بيت نار فهو أول من نصب النار وعبدها.

ونكح قين أخته أشوت فولدت له خنوخ وعدن. فنكح خنوخ أخته عدن فولدت ثلاثة صبيان عيرد ومحويل وأبو شيل وابنة هي موليت. فنكح أبوشيل موليت فولدت لامك ــ فنكح لامك امرأتين ــ عدا وصلا ــ فولد عدا تولين بن لامك ــ فكان أول من سكن القباب واقتنى المال ــ وتوبيش ــ وكان أول من ضرب بالونج والصنج ــ وتوبقلين ــ فكان أول من عمل بالنحاس والحديد.

وكان أولادهم جبابرة وفراعنة وكان الرجل منهم ثلاثين ذراعاً.

ثم انقرض و لدقين ولم يتركوا عقباً إلا قليلاً وذرية آدم كلها فجهلت أنسابهم وانقطع نسلهم إلا ماكان من أبيه وأخوته فمن لم يترك عقباً. ويقول أهل التوراة أن الذي أتخذ الملاهي من ولد قابين رجل يقال له نوبال اتخذ في زمان مهلائيل بن قيشان آلات اللهو من المزامير والطبول والعيدان والطنابير والمعازف فانهمك ولد قايين في اللهو. وتناهى خبرهم إلى من باجبل من نسل شيث فهم منهم مئة رجل بالنزول إليهم. وبمخالفة

ماأوصاهم به آباؤهم. وبلغ ذلك يارد فوعظهم ونهاهم فأبوا إلا تمادياً ونزلوا إلى ولد قايين فأعجبوا بما رأوا منهم فلما آرادوا الرجوع حيل بينهم وبين ذلك لدعوة سبقت من آبائهم. فإما شيت عليه السلام فكان وحي أبيه آدم عليه السلام في مختلفيه بعد مضيه لسبيله وما أنزل الله عليه من الصحف. وقيل أنه لم يزل مقيماً بمكة يحتج ويعتمر إلى أن مات. وأنه كان جمع ما أنزل الله عز وجل من الصحف إلى صحف أبيه آدم عليه السلام وعمل بما فيها وأنه بنى الكعبة بالحجارة والطين.

ولما مرض شيت أوصى إلى ابنه «أنوش» ومات فدفن مع أبويه في غار أبي قبيس وكان مولده مضي مائتي سنة وخمس وثلاثين سنة من عمر آدم عليه السلام. وكانت وفاته وقد أتت له تسعمئة سنة واثنتا عشرة سنة. وولد شيت انوش بعد أن مضى من عمره ستمئة سنة وخمس سنين فيما يزعم أهل التوراة. أما ابن اسحق فقد قال أن شيت بن آدم نكح أخته «حزورة» ابنة آدم فولدت له يانش بن شيت ونعمة ابنة شيت، وشيت يومئذ ابن مئة سنة وخمس سنين. فعاش بعدما ولد يانش ثمانمئة سنة وسبع سنين وإليه أوصى شيت. ثم ولد لأنوش ابنه «قيثان» من أخته «نعمة» بعد مضي تسعين سنة من عمره ثم نكح قيثان بن أنوش وهو ابن سبعين سنة دينة ابنة براكيل بن محوئيل بن خنوخ بن قين بن آدم فولدت له مهلائيل. وعاش قيثان تسعمئة سنة وعشرة سنين. وولد مهلائيل يارد ونفرا معه وإليه الوصيلة فولد يرد خنوخ وهو «ادريس النبي» صلى الله عليه وسلم ونفرا معه ــ فولد خنوخ متوشلح ونفرا معه وإليه الوصية.

«ولا تبرّجن تبرج الجاهلية الأولى»: كان بين آدم ونوح ثمانمئة سنة. وبين نوح وادريس (خنوخ) ألف سنة. ولم يمت آدم حتى بلغ ولده. وولد ولده أربعين ألفاً ببوذ. وكانوا بطنين من ولد آدم. كان أحدهما يسكن الجبل. وكان رجال الجبل صباحاً وفي النساء دمامه. وكان نساء السهل صباحاً وفي الرجال دمامة. وأتى ابليس رجلاً من أهل السهل في صورة غلام فأجر نفسه منه وكان يخدمه. واتخذ ابليس شيئاً مثل الذي يزمر فيه الرعاة ــ فجاء فيه بصوت لم يسمع الناس مثله. فبلغ ذلك من حولهم فانتابوهم يسمعون إليه واتخذوا عيداً يجتمعون إليه في السنة فتتبرج النساء للرجال ويتزل الرجال لهن. وهجم رجل من أهل الجبل عليهم وهم في عيدهم ذلك فرأى النساء وحاجتهن فأتى أصحابه فأخبرهم بذلك فتحولوا إليهن فنزلوا عليهن فظهرت الفاحشة فيهن ــ فهو قول الله عز وجل ولاتبرجن تبرج الجاهلية الأولى».

ورأى آدم فيهم الزنا وشرب الخمر والفساد فأوحى أن لايناكح بنوشيت بني قابيل. فجعل بنوشيت آدم في مغارة وجعلوا عليه حافظاً لايقرب أحد من بني آدم. وكان الذين يأتونه ويستغفر لهم من بني شيت ــ فقال مئة من بني شيت صباح لو نظرنا إلى مافعل بنو عمنا يعنون بني قابيل. فهبطت المئة إلى نساء صباح من بني قابيل فاحتبس النساء الرجال ثم مكثوا ماشاء الله. ثم قال مئة آخرون لو نظرنا إلى فعل أخوتنا. فهبطوا من الجبل إليهم. فاحتبسهم النساء ثم هبط بنو شيت كلهم فجاءت المعصية وتناكحوا فاختلطوا وكثر بنو قابيل حتى ملكوا الأرض ــ وهم الذين غرقوا أيام نوح.

وولد يارد (يرد) لمهلائيل من خالته سمعن ابنة باركيل بن محوبيل بن خنوخ بن قين بعدما مضى من عمر آدم أربعمئة وستون سنة ــ فكان وصي أبيه وخليفته وكان عمر

أبيه مهلائيل خمس وستون سنة عندما ولدته أمه. ونكح يرد وهو ابن مئة سنة واثنتين وستين سنة بركتا ابنة الدرميل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم فولدت له أخنوخ بن يرد. وأخنوخ إدريس النبي وكان أول من أعطي النبوة من بني آدم وخط بالقلم نبأه الله عز وجل وقد مضى من عمر آدم ستمئة سنة واثنتان وعشرون سنة وأنزل عليه ثلاثون صحيفة وهو أول من خط بعد آدم وجاهد في سبيل الله وقطع الثياب وخاطها واول من سبى من ولد قابيل فاسترق منهم وكان وصي والده يرد.

قال ابن عباس: «في زمان يرد عملت الأصنام ورجع من رجع عن الإسلام» وقال أبو ذر: «أربعة من الرسل سريانيون آدم وشيت ونوح وخنوخ وهو أول من خط بالقلم وأنزل الله على خنوخ ثلاثين صحيفة والصحف الاولى هي ماأنزل على ابن آدم هبة الله (شيت) وادريس (خنوخ) .(وملك بيوراسب في عهد ادريس وقد كان وقع إليه كلام من كلام آدم صلوات الله عليه فاتخذه في ذلك الزمان سحرا، وكان بيوراسب يعمل به وكان إذا أراد شيئاً من جميع مملكته أو أعجبته دابة أو امرأة نفخ بقصبية كانت له من ذهب وكان يجيء إليه كل شيء يريده فمن ثم تنفخ اليهود — وأول من أظهر الصابئة بيوراسب). ونكح أخنوخ (ادريس) عليه السلام ادانة ابنة باويل بن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم وهو ابن خمس وستين سنة فولدت له متوشلح وعاش ثلاثمئة سنة بعدما ولد له متوشلح وولد له بنون وبنات فكان كل ماعاش أخنوخ ثلاثمئة وخمسا وستين سنة ثم رفع واستخلف متوشلح وأعلمه الله عز وجل أن سيعذب ولد قايين ومن خالطهم ومال إليهم. وهو أول من ركب الخيل لأنه اقتفى رسم أبيه في الجهاد. ونكح متوشلح عربا ابنة عزرائيل بن أبوشيل بن خنوخ بن قين بن آدم وهو ابن مئة سنة وسبع وثلاثين سنة فولدن له لمك (لامك) وعاش متوشلح تسعمئة سنة وتسع عشرة سنة ثم مات.

ونكح لمك (قينوس) ابنة براكيل وهو ابن مئة سنة وسبع وثمانين سنة فولدت له نوح النبي صلى الله عليه وسلم. فعاش لمك بعدما ولد له نوح خمسمئة سنة وخمسا وتسعين سنة فكان كلما عاش سبعمئة سنة وثمانين سنة ثم مات. ونكح نوح بن لمك «عمروسة» ابنة براكيل بن محويل بن أخنوخ بن قين بن آدم وهو ابن خمسمئة سنة فولدن له بنيه سام وحام ويافث بني نوح.

ولد نوح بعد وفاة آدم بمئة سنة وست وعشرين سنة وذلك لألف سنة وست وخمسين سنة مضت من يوم اهبط الله عز وجل آدم. وكان نوح يدعو إلى ربه ويعظ قومه فيستخفون به. فأوصى الله عز وجل إليه أنه قد أمهلتهم فانظرهم ليرا جعوا ويتوبوا مدة. فانقضت المدة قبل أن يتوبوا وينيبوا. بعث الله نوحا وهو ابن أربعمئة سنة وثمانين سنة ثم دعاهم في نبوته مئة وعشرين سنة ثم أمره بصنعة السفينة فصنعها وركبها وهو ابن ستمئة سنة. وغرق من غرق ثم مكثت بعد السفينة ثلاثمئة سنة وخمسين سنة.

كان الناس أمة واحدة وكانوا على الهدى جميعاً فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين فكان أول نبي بعث نوحاً عليه السلام.

السفينة والطوفان:

اختلف المختلفون في ديانة القوم الذين أرسل إليهم نوح عليه السلام وكانوا قد اجمعوا على العمل بما يكرهه الله من ركوب الفواحش وشرب الخمور والإشتغال بالملاهي

عن طاعة الله عز وجل — وأصبحوا أهل أوثان (ومن آلهتم ود سواع ويغوث ويعوق ونسر ومكر وامكرا كبارا) فبعث الله إليهم نوحاً يخوفهم بأسه ويحذرهم سطونه وداعيا لهم إلى التوبة والمراجعة إلى الحق والعمل بما أمر الله به ورسله وأنزله من صحف آدم وشيت وخنوخ ونوح ويوم ابتعثه الله نبياً إليهم وهو ابن خمسين سنة. وظل بينهم ألف سنة إلا خمسين يدعوهم إلى الله سراً وجهراً يمضي قرن بعد قرن فلا يستجيبون — بل كان قوم نوح يبطشون به فيخنقونه حتى يغشى عليه. فإذا أفاق قال «اللهم اغفر لقومي فإنهم لايعلمون» حتى اذا تمادوا في المعصية وعظمت في الأرض منهم الخطيئة وتطاول عليه وعليهم الشأن واشتد عليه منهم البلاء وانتظر النجل بعد النجل فلا يأتي قرن إلا كان أخبث من الذي قبله حتى إذا كان الآخر منهم ليقول قد كان هذا مع آبائنا ومع أجدادنا هكذا مجنوناً لايقبلون منه شيئاً حتى شكا ذلك من أمرهم نوح إلى الله عز وجل واستنصره عليهم: فأوحى الله إليه «ان أصنع الفلك بأعيننا وحينا ولاتخاطبني في الذين ظلموا أنهم مغرقون».

وأمره الله تعالى ذكره أن يغرس شجرة فغرسها فعظمت وذهبت كل مذهب. ثم أمره بقطعها بعد غرسها بأربعين سنة فيتخذ منها سفينة كما قال الله له. فقطعها ثم جعل يعمل سفينة فيمرون فيسألونه: فيقول: «اعملها سفينة» فيسخرون منه ويقولون تعمل سفينة في البر فكيف تجري؟ يا نوح قد صرت نجارا بعد النبوة فاعقم الله أرحام النساء فلا يولد لهم.

فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت أم الصبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت حتى بلغته ثلثي الجبل. فلما بلغها خرجت حتى استوت على الجبل. فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيدها حتى ذهب الماء به — فلو رحم الله أحداً منهم لرحم أم الصبي.

وكان طول السفينة ثلاثمئة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً وبابها في عرضها. وقيل أن طلاها بالقار من داخلها ومن خارجها وجعلها ثلاثة أطباق سفلا ووسطا وعلوا وجعل فيها كوا — وكل هذا فعله بأمر الله عز جل. وقد جعل الله التنور آية فيما بينه وبينه . فقال إذا جاء أمرنا وفار التنور فاسلك فيها من كل زوجين اثنين واركب. فلما فار التنور حمل نوح في الفلك وحمل فيها من كل زوجين اثنين مما فيه الروح والشجر ذكرا و انثى. فحمل فيه بنيه الثلاثة سام وحام ويافث ونساءهم وستة أناس ممن كان آمن به فكانوا عشرة نفر نوح وبنوه وأزواجهم ثم أدخل ما أمره الله به من الدواب وتخلف عنه ابنه «يام» وكان كافرا.

ومن حديث لابن عباس قال: قال الحورايون لعيسى بن مريم — لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة فحدثنا عنها! فانطلق بهم حتى انتهى إلى كثيب من تراب، فأخذ كفا من ذلك التراب بكفه فقال «أتدرون ما هذا؟»، قالوا «الله ورسوله أعلم»! قال: «هذا قبر حام بن نوح» قال فضرب الكثيب بعصاه وقال «قم بإذن الله»! فإذا هو قائم ينفض التراب عن راسه وقد شاب. فقال له عيسى عليه السلام «هكذا هلكت»؟ قال «لا ولكني مت وأنا شاب ولكني ظننت أنها الساعة فمن ثم شبت» قال «حدثنا عن سفينة نوح» قال: كان طولها ألف ذراع ومئتي ذراع وعضرها ستمئة ذراع وكانت ثلاث

طبقات فطبقة فيها الدواب والوحش وطبقة فيها الانس. وطبقة فيها الطير. فلما كثرت أرواث الدواب أوصى الله إلى نوح أن أغمز ذنب الفيل، فغمز فوقع منه خريز وخريزة فاقبلا على الروث. فلما وقع الفأر بخزز السفينة يقرضه أوصى الله إلى نوح أن أضرب بين عيني الأسد. فخرج من منخره سنور وسنوره فاقبلا على الفأر. فقال عيسى: كيف علم نوح أن البلاد قد غرقت؟ قال: بعث الغراب يأتيه بالخبر فوجد جيفة فوقع عليها. ودعا عليه بالخوف فلذلك لا يألف البيوت! قال: ثم بعثت الحمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها وطين برجليها. فعلم أن البلاد قد غرقت. قال فطوقها الخضرة التي في عنقها ودعا لها أن تكون في أنس وأمان فمن ثم تألف البيوت. قال فقالت الحواريون يا رسول الله ألا ننطلق به إلى أهلنا فيجلس معنا ويحدثنا. قال كيف يتبعكم من لا رزق له؟ قال: فقال له عد بإذن الله — فعاد ترابا.

وقال ابن عباس: كان أول ما حمل نوح في الفلك من الدواب الذرة وآخر ما حمل الحمار. فلما أدخل الحمار ودخل صدره تعلق إبليس لعنه الله بذنبه فلم تستقل رجلاه. فجعل نوح يقول ويحك أدخل! فينهض فلا يستطيع حتى قال نوح ويحك أدخل وإن كان الشيطان معك! قال كلمة زلت عن لسانه فلما قالها نوح خلى الشيطان سبيله فدخل ودخل الشيطان معه فقال له نوح: ما أدخلك علي يا عدو الله؟ قال: ألم تقل أدخل وإن كان الشيطان معك؟ قال: «اخرج عني يا عدو الله» فقال: مالك بد من أن تحملني فكان فيما يزعمون في ظهر الفلك. فلما اطمأن نوح في الفلك وأدخل فيه كل من آمن به وكان ذلك في الشهر من السنة التي دخل فيها نوح بعد ستمئة سنة من عمره لسبع عشرة ليلة مضت من الشهر فلما دخل وحمل معه من حمل تحرك ينابيع الغوط الأكبر وفتحت أبواب السماء، فدخل نوح ومن معه الفلك وغطاه عليه وعلى من معه بطبقة فكان بين أن أرسل الله الماء وبين أن احتمل الماء الفلك أربعون يوما وأربعون ليلة. ونادى نوح ابنه الذي هلك فيمن هلك فقال يا بني إركب معنا ولا تكن مع الكافرين! وكان شقيا قد اضمر كفرا قال سآوي إلى الجبل يعصمني من الماء — فكان من المفرقين. وكثر الماء وطغي وارتفع فوق الجبال خمسة عشر ذراعا — فباد ما على وجه الأرض من الخلق كل شيء فيه روح أو شجر فلم يبق شيء من الخلائق إلا نوح ومن معه في الفلك وإلا عوج بن اعنق فيما يزعم أهل الكتاب — فكان بين أن أرسل الله الطوفان وبين أن غاض الماء ستة أشهر وعشر ليال.

ويقول ابن عباس أن نوحا حمل معه جسد آدم فجعله حاجزاً بين النساء والرجل والتقى ماء السماء بماء الأرض فكان نصفين نصف من السماء ونصف من الأرض. وارتفع على طول حبل في الأرض خمسة عشر ذراعاً. فسارت بهم السفينة فطافت بهم الأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء حتى أتت الحرم فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعا. ورفع البيت الذي بناه آدم عليه السلام رفع من الغرق وهو البيت المعمود والحجر الأسود على أبي قبيس، فلما دارت بالحرم ذهبت في الأرض تسير بهم حتى انتهت إلى الجودي وهو جبل بالحضيض من أرض الموصل. فاستقرت بعد ستة أشهر لتمام السبع. فحبست السماء ماءها وابتلعت الأرض ماءها فصار ما نزل من السماء هذه البحور التي تروى على الأرض. وكان التنور الذي جعل الله تعالى ذكره آية ما بينه وبين نوح فوراى الماء منه تنورا لحواء من حجارة وصار إلى نوح. وقال بعضهم إن التنور كان

بالهند وفار بها وقيل بل كان ذلك بناحية الكوفة. ويقول ابـن عبـاس كـان في سـفينة نـوح ثمانون رجلاً أحدهم جرهم وإن الله أرسل الطوفان لثلاث عشرة خلت من آب.

ــ أما أصنام قوم نوح فكان منهم ما هو علـى صـورة الحيـوان (قـرآن سـورة نـوح 71-22-23(قال زيدان ــ وكان ود على صـورة رجـل وسـواع علـى صـورة امـرأة ويغوث على صورة أسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر (نشرا).

قيل أن الله عز وجل أرسل الطوفان لـثلاث عشـرة خلـت في آب وأن نوحـاً أقـام في الفلك إلى أن غاض الماء واستوت الفلك على «جبل الجودي» بــ قـردى في اليـوم السـابع عشر من الشهر السادس. فلما خرج نـوح منـها اتخـذ بناحيـة قـردى في أرض الجزيـرة موضعا وإبتنى هناك قرية سماها ثمانين لأنه كان بنى فيها بيتا لكل إنسان ممـن آمـن معـه وهـم ثمانون فهي اليوم تسمى سوق ثمانين. وغرق بنو قابيل كلـهم. ومـا بـين نـوح إلى آدم مـن الآباء كانوا على الاسلام وأوصى الله إلى نوح أنه لا يعيد الطوفان إلى الأرض أبدا!

وقيل أنه كان لنوح قبل الطوفان ابنان هلكا جميعاً. كان أحدهما يقـال لـه كنعـان وهـو الذي غرق في الطوفان والآخر منهما يقال له عابر مـات قبـل الطوفـان. والعـرب تسـمي كنعان «يام» وذلك قول العرب إنما هام عمنا يام وأم هؤلاء واحـدة. ثم كـان لنـوح ولـده سام وفي ولده بياض وادم وحام وفي ولده سـواد وبيـاض قليـل ويافـث وفـيهم الشـقرة والحمرة. فلما هبط نوح وذريته وكل مـن كـان في السـفينة إلى الأرض قسـم الأرض بـين أولاده اثلاثا ــ فجعل لسام وسط الأرض ففيها بيـت المقـدس والنيـل والفـرات ودجلـة وسيحان وجيحان وفيشون وذلك ما بين فيشون إلى شـرقي النيـل ومـا بـين منخـر ريـح الجنوب إلى منخر الشمال.

وجعل لحام قسمه غربي النيل فما وراءه إلى منخر ريح الـدبور وجعـل قسـم يافـث في فيشون فما رواءه إلى منخر ريح الصبا ــ فكان التاريخ من الطوفـان إلى نـار ابـراهيم ومـن نار ابراهيم إلى مبعث يوسف ومن مبعث يوسـف إلى مبعـث موسـى ومـن مبعـث موسـى إلىملك سليمان ومن ملك سليمان إلى مبعث عيسى بن مريم ومن مبعـث عيسـى بـن مـريم إلى أن بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكانت زوجة يافث ابلسيسه بنت مرازيل بن الارمسيل بن محويل بـن خنـوخ بـن قـين بن آدم عليه السلام فولدت سبعة نفر وامرأة ومـن بـني يافـث كانـت يـاجوج ومـاجوج والصقالبة والترك فيما يزعمون.

وكانت إمرأة حام بن نوح «تجلب» بنت مارب ابن الدرمسيل بـن محويـل بـن خنـوخ بن قتين بن آرم فولدت ثلاثة نفر كوش وقوط وكنعان ــ فنكح كـوش قرنبيـل ابنـة بناويـل بن ترس بن يافث فولدت له الحبشة والسند والهند فيما يزعمون ونكح قـوط بـن حـام بـن نوح بخث ابنة بتاويل ابن ترس بن يافث بن نوح فولد له القبط قـبط مصـر فيمـا يزعمـون ــ ونكح كنعان بن حام بن نوح أرسل ابنة بتاويل بن ترس بن يافث بـن نـوح فولـدت لـه الاساود نوبة وفزان والزنج والزغاوة وأجناس السـودان كلـها. ويـزعم أهـل التـوراة أن ذلك لم يكن إى عن دعوة دعاها نوح يملي ابنه حسام وذلك أن نوحـا نـام فانكشـف عـن عورته فرآها حام فلم يقطها ورآها سام ويافث فالقيا عليها ثوبا فواريـا عورتـه. فلمـا هـب من نومه علم من صنع حام وسام ويافث فقال: «ملعون كنعـان بـن حـام عبيـدا يكونـون

لأخوته، وقال يبارك الله ربي في سام ويكون حام عبد أخويه ويفرض الله يافث ويحل في مساكن سام ويكون حام عبداً لهم».

وكانت امرأة سام بن نوح «صليب» ابنة بتاويل ابن محويل بن خنوخ بن قين بن آدم فولدت له نفرا أو فخشد بن سام وأشوذ بن سام ولاوز (لود) بن سام وعويلم (عيلام) بن سام وارم بن سام.

ويقول ابن عبسا لما ضاقت بولد نوحٍ سوق ثمانين تحولوا إلى بابِل فبنوها وهي بين الفرات والصراة وكانت اثني عشر فرسخا في اثني عشر فرسخا. وكان بابها موضع دوران اليوم فوق جسر الكوفة يسرة إذا عبرت فكثروا بها حتى بلغوا مائة ألف وهم على الاسلاق.

ونكح لاوذ بن سام بن نوح «شبكة» ابنة يافث بن نوح فولدت له فارس وجرجان وأجناس فارس وولد للاوذ مع الفرس حلسم وعمليق — وعمليق أو العماليق كلهم أمم تفرقت في البلاد. وكان أهل المشرق وأهل عمان وأهل الحجاز وأهل الشام وأهل مصر منهم ومنهم كانت الجبابرة بالشام الذين يقال لهم الكنعانيوم ومنهم كان الفراعنة بمصر وكان أهل البحرين وأهل عمان منهم أمة يسمون جاسم وكانوا ساكنو المدينة منهم بنوهف وسعد بن هزان وبنو مطر وبنو الأزرق وأهل نجد منهم بديل وراحل وغفار وأهل تيماء منهم وكان ملك الحجاز منهم بتيماء اسمه الارقم. وكان طسم بن لاوذ ساكن اليمامة وما حولها. وكانت طسم والعماليق وأميم وجاسم قوماً عرباً لسانهم الذي جبلوا عليه لسان عربي.

وولد ارم بن سام بن نوح عوض بن ارم وغاثر بن ارم وحموي بن ارم وأن نوحا دعا لسام بأن يكون الأنبياء والرسل من ولده ودعا ليافث بأن يكون الملوك من ولده ودعا على حام بأن يتغير لونه ويكون ولده عبيداً لولد سام ويافث. ثم رق على حام بعد ذلك فدعا له بأن يرزق الرأفة من أخوته.

وولد لارفخشد بن سام ابنه «قينان» ولا ذكر له في التوراة وهو الذي قيل أنه لم يستحق أن يذكر اسمه في الكتب المنزلة لأنه كان ساحراً وسمي نفسه الها. وولد لقينان بن ارفخشد شالخ وولد لشالخ عابر. وولد لعابر ابنان — فالغ ومعناه بالعربية قاسم — وأنما سمي بذلك لأن الأرض قسمت والالسن تبلبلت في أيامه وقحطان فولد لقحطان يعرب ويقطان منزلا في أرض اليمن وكان قحطان أو لمن ملك في اليمن. وولد لفالغ بن عابر ارغوا وولد الارغوا ساروغ وولد لساروغ ناحور وولد لناحور تارخ واسمه بالعربية آزر وولد لتارخ ابراهيم صلوات الله عليه. وكان بين الطوفان ومولد ابراهيم ألف سنة ومائتا سنة وثلاث وستون سنة (1263) وذلك بعد خلق آدم بثلاثة آلاف وثلاثمئة سنة وسبع وثلاثين سنة (3337).

العرب والأنساب

في المراجع التاريخية القديمة تختلط الميثولوجيا بالتاريخ كما يختلط كل من الميثولوجيا والتاريخ بالمفاهيم الدينية. كذلك تمتد حقبات طويلة من تناقل الأخبار الشفوية قبل التدوين لتزيد من تشويش الحقائق التاريخية وهذا ما يزيد في صعوبة فرز ما هو تاريخي عما هو مختلق أو من نسج الخيال!

وقد اهتم العرب بالانساب حتى أن بعض الأنساب التي اصطنعوها في أزمنة متأخرة ادعوا أنها لوائح كاملة. فمثلاً جعلوا عشرين جداً بين النبي وعدنان وسبعة بين عدنان واسماعيل وتسعة عشر ما بين اسماعيل وآدم مع التشابه بالتحدر التوراتي بين اسماعيل وآدم.

ومن المعلوم أن الباحثين المسلمين بدأوا بتدوين القصص التقليدية في القرن 8 م بعد أن أصبحوا امبراطورية شاسعة تمتد من المغرب حتى أواسط آسيا. لذا يشك المرء بدقة كل الانساب ما قبل الاسلام وعلاقاتها وأصولها لأنها تختلط بميثولوجيا الأصول، وفوق ذلك يختلفون بتحدر نفس الاشخاص المهمين في المسطورات الدينية! فنجد ابراهيم مثلاً من نسل آرام بن سام كما نجده من نسل ارفخشد بن سام كما يختلف في نسب جرهم وقس على ذلك!

وكانت المجموعات البشرية تحسب أنها منحدرة من جد مشترك وتنسب فروعها للابناء والاحفاد. والعشيرة تضم الأعضاء بالنسب إلى جانب الدخلاء الذين تربوا في أحضانها أو كانوا عبيداً واعتقوا فأصبحوا من الموالي.

وفي كلامنا عن الميثولوجيا عند سكان شبه الجزيرة العربية لا نقصد العرب المعربة أي الناطقين بالعربية من سكان العالم العربي بل عن ثلاثة فئات حسب تصنيف المؤرخين القدماء لهم ـــ بائدة وعاربة ومستعربة كتصنيف عبيده بن شرية الجرهمي الذي كتب في أواخر أيام معاوية أي قبل عام 60 هـ كتاب «أخبار اليمن» ووهب بن منبه اليهودي اليمني (ت 110 هـ)، ويظهر علم وهب بن منبه بالاسرائيليات عندما يعالج موضوعات الانساب وقصة بلقيس وسليمان وقصة داود وجالوت والحسن بن الحائك الهمداني (ت 340/945هـ) المنتسب إلى قبيلة همدان اليمنية وله كتاب الاكليل في انساب حمير وملوكها ـــ وتصنيف من جاء بعد هؤلاء والقرآن الكريم.

العرب البائدة:

هي القبائل العربية القديمة التي اختفت آثارها عن مسرح التاريخ بعوامل الفناء كالأوبئة والجفاف والأعاصير أو بالانصهار في قبائل أقوى منها ـــ وهي قبائل عاد وثمود وطسم وجويس وجرهم والعماليق ـــ وكان النسابون ينسبون شعوب العرب البائدة إلى غرم بن سام ويسمونهم الأرمان أي الآراميون.

وأماكن العرب البائدة هي عاد بحضرموت وثمود بوادي الحجر وطسم وجديس باليمامة وجدهم بالحجاز والعماليق طي شمال الحجاز مما يلي بلاد مصر.

عاد:

إن الروايات العربية تجعل قبائل عاد أقدم قبائل العرب على الإطلاق وقد هلكت بالريح، وهي القصة المعروفة في القرآن الكريم، وكان نبيهم هود.

وحسب الأنساب العربية فإن عاد جد القبيلة هو عاد بن عوص بن إرام (آرام) بن سام الذي ساد من بابل حيث تجمع حفدة نوح ليستقر إلى جانب يعرب في اليمن في منطقة الأحقاف وكان له عشرة أبناء والأحقاف هي إقليم الرمال الممتد ما بين حضر موت وبحر عدن. وأن شداد بن عاد هو الذي بنى عاصمتهم الاسطورية «أرم ذات العماد» وقالوا أن ارم ذات العماد هي موقع الاسكندرية في مصر كما قيل أنها في دمشق إلى ما هنالك من خيال أسطوري.

ويقول ياقوت (1179 – 1229) كانت منازل عاد الاحقاف ويقول ابن قتيبة (828 – 889) كانت عاد ثلاث عشرة قبيلة يترلون الرمل وبلادهم أخصب بلاد الله وكثرتهم وديارهم بالدو والدهنا، وعالج ويبرين ووباد إلى عمان إلى حضر موت إلى اليمن. وببساطة يمكن للقاري أن يرى عدم المنطق عندما يقول ابن قتيبة الهم يترلون الرمل وبلادهم أخصب بلاد الله!!

كما أن الزمخشري (ت 1144) قال عن بني عاد ــ وكان أقصرهم ستين ذراعاً وأطولهم مئة ذراع وبعضهم أربعمئة ذراع ــ إذا أتى الصخرة العظيمة حملها والقاها على الحي بكامله فاهلكه. وهنا يتضح الوصف الاسطوري المغاير للتاريخ!

«واذكر أخا عاد إذ أنذر بالاحقاف»

«واما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة»

وبسبب عتوهم في الأرض وعدم انصياعهم لنبيهم هود واستمرارهم في عبادة الأصنام واتهامه بالجنون (سورة هود 53-54) أصابهم القحط ثلاث سنين فذهب وفد منهم إلى البلد الحرام «مكة» يطلبون من الله الفرج وعلى رأسهم الاشراف ومنهم لقمان صاحب النسور والتهوا بالضيافات ونسوا ما جاؤوا لأجله ــ رمادا أرمد لا يبقي من عاد بن عوص احدا لاوالدا ولا ولدا إلا القليل الأبعدا أي أبناء سعيد المؤمن الوحيد من أبناء عاد.

وهكذا انتهت عاد الأولى وبقيت عاد الآخرة ولكن في مناطق جديدة من أحواز مكة وهم أبناء سعيد المؤمن الذي آمن بهود. لذلك نجا لقمان بن عاد الذي لاذ بالبيت وتضرع وطلب العمر فأعطي سبعة أنسر فعاش 1764 سنة منها 1400 سنة عمر النسور. وينسب بعض المؤرخين المسلمين إلى هذه الشخصية الاسطورية بناء «سد مارب» واما تاريخياً فإن سد مأرب كان يبني من أواسط القرن 7 ق.م للتحكم بمياه وادي أذنة وتحويل مياهه للري وانفجر نحو عام 452م وضربت الأرض الزراعية واثر تشققه خرجت قبائل الأذن من اليمن.

ومن أخبار العرب عن عاد أيضاً أنه أولى من ملك من العرب وعاش 1200 سنة وتزوج ألف امرأة وولد له 400 ولد ذكر وأن ابنه شداد استولى على جانب من سوريا والعراق والهند.

ثم انتهى بنو عاد إلى البغي والعتو فابادهم ثمود عن وجه الأرض في قصص أيام العرب ولم يكن لهم عقب (نحو 50 هـ/670م) يوم كان عبيد بن شرية يروي أخباره.

والدراسات الحديثة لم توفق حتى الآن في العثور على مايشير إلى عاد التي تتركز حولها هذه المسطورة كما تدخل في الآيات القرآنية! من (سورة هود 50-60) (وفصلت 15-16) و(الحاقه 6-8).

ثمود:

يختلف شعب ثمود عن شعب عاد بأنه تاريخي إذ أنه قد ذكر في كتابات سرجون «الاشوري (722-705 ق.م) باسم ثموداي» عندما أخضع قبيلتي ثمود وأباديد. وكان موطن ثمود الاصلي في عسير! كما قيل أن ديار بني ثمود بالحجر ووادي القرى فيما بين الحجاز والشام وأنهم كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال.

ويذكرهم القرآن الكريم في سورة الاعراف (72) وأن الله أرسل إلى ثمود أخاهم صالحا أو النبي صالح ـ وله مزار تشريفه على جبل في جرد صافيتا علوه ألف متر حيث يوجد برج التليفزيون القناة الثالثة وهو صالح صاحب الناقة.

وثمود حسب شجرة الانساب العربية هو ثمود بن عابر (جاثر) بن آرم (آرام) بن سام. فهو إبن عم عاد، وكانت هجرته من بابل إلى اليمن بعد هجرة عاد. أما استقراره في اليمن فكان في وادي صنعاء مجاورا ليعرب بن قحطان حيث تكلم باللسان العربي وانتشر من الحجر إلى نحو وادي القرى (وهي مدائن صالح الحالية) إلى رملة فلسطين؟؟ والمعروف أن الرملة في فلسطين بناها الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك بن مروان بن الحكم (715-717) وسكنها وهي المدينة الوحيدة التي أسسها العرب في سوريا.

والنزول في وادي صنعاء يعني الإقامة في منطقة غنية كثيرة الماء والخصب أما التوسع نحو وادي القرى وجنوب الشام فيعني الهجرة نحو الشمال والمهاجرون هم الذين آمنوا بصالح بعد هلاك عامة ثمود.

أما الفاصل الزمني بين هود عاد وصالح ثمود فتقدره الرواية بـ 500 سنة وذلك بعد فناء عاد الآخره. وأن صالح قبل ابراهيم ب 200 سنة فإذا كان عصر ابراهيم في القرن 18 ق.م ولنفترض أنه 1700 ق.م تحدد رواية عبيد بن شرية هلاك عاد بنحو 2400 ق.م وهلاك ثمود بنحو1900 ق.م.

وحسب المسطورة كان بنو ثمود كفارا فبعث الله إليهم صالحا بنذرهم فلم يؤمن به إلا قلة وكان رئيس كفارهم رجل يسمى فداء ـ وكان لثمود أعياد تجارية دينية اجتماعية. وفي أحد الأعياد طلبت الجماعة من صالح النبي أن يصنع لهم آية يعتبرون بها بأن يخرج لهم من الصخر «ناقة حمراء شقراء وبراء مهبرجة لها ضجيج وعجيج ورغاء شديد تفور لبناسائغا».

ووفق الأسطورة العربية أخذ صالح القوم إلى عند صخرة فإذا هي تئن كما تئن المرأة عند الطلق. ثم تفرجت عن ناقة كانها قطعة من جبل ووقفت بين يدي صالح وبعينها شعاع ونور وعليها زمام من لؤلؤ من سنامها إلى ذنبها سبعمئة ذراع وعرضها سبعون ذراعا ولها أربعة أضرع لكل ضرع اثنتا عشرة حلمة وما بين الحلمة إلى الأخرى عشرة

أذرع وطول كل قائمة من قوائمها مئة وخمسون ذراعاً ثم وضعت فصيلها على صفتها وكانت ترعى في رؤوس الجبال تاركة مراعي ثمود لمواشيهم – ثم تدخل المدينة بلسان فصيح – من أراد اللبن فليخرج!!.

جُرهُم:

ونترك في بحثنا باقي العرب البائدة كطسم وجديس والعمالقة وننتقل إلى جرهم لصلتها بموضوع الأسطورة العربية ولأن منها البائدة والعاربة، أما العاربة فكانت تقيم في مكة ولها صلة بمسطورة العرب المستعربة.

وآخر العرب البائدة حسب عبيد بن شريه الجرهمي أقدم أخباريينا بالنسبة لهذه الدراسة هم قبائل جُرهُم اليمنية. وعلى عكس قصة فناء عاد وجلاء ثمود بعد خمسمئة سنة التي تدخل في سبر الأنبياء فإن قصة خروج العماليق من اليمن وكذلك خروج جرهم تدخل في نطاق الأمور التاريخية وذلك نتيجة لكثرة العرب باليمن وبدءِ الصراعات فيما بينهم من أجل أسباب الحياة بخروج المغلوب، وقصة جرهم تمثل جزءاً أسياسياً في تاريخ اليمن.

فجرهم بالانساب هو ابن قحطان بن عابر (هود) الذي ينتمي إلى ارفخشاد بن سام – اذ هو شفيق يعرب وابن قحطان رئيس ملوك اليمن – وتكاثر أبناء جرهم في اليمن ويقول ياقوت أنهم سكنوا تهائم اليمن ثم انتقلوا إلى مكة. ووصفهم الكتاب العرب بعظم الأجسام وطول الأعمار وزيادة القوة والبأس مثلهم مثل عاد والعماليق ومنهم بنو هزان أول قبائل جرهم وصفوا بأنهم «أطول الناس أجساماً وأعناقاً» لذلك سموا بالغرانيق لأن الغرنوق (Geranos - Geranion) طويل العنق وهو «مالك الحزين» الأبيض.

ثم كانت الحرب بين جرهم وحمير فهجر الجرهميون إلى الحجاز ومكة تحت قيادة مضاض بن عمر الذي ملكوه على أنفسهم حسب ابن شرية بينما حسب ابن خلدون كان بنو جرهم يقطنون اليمن ويتكلمون «العبرانية»! وبنو قحطان قضوا على عاد وسكنوا مكانهم وكان ملكهم آنذاك يعرب بن قحطان فولى أخوته على الأقاليم وولى جرهم على الحجاز نحو عام 800 ق.م.

ثم قامت دولة جرهمية في مكة توارثها بنو جرهم عن والد وهم عبد ياليل وجرهم وعبد المدان وثفيلة وعمرو الذي يعرف أيضاً باسم عبد المسيح ثم مضاض وعمرو الحارث بن مضاض (حسب ابن منبه). وصلت جرهم إلى مكة وكان أهلها العماليق وسكنوا أعلى مكة وتعايشت القبيلتان إلى أن سيطرت جرهم.

وعندما استقر اسماعيل في مكة (نحو 1700 ق.م) صاهر جرهما إذ تزوج «رعلة» بنت مضاض بن عمرو الجرهمي – فيكون بنوه جميعاً وهم العرب المعدية (العدنانية) من زوجته الجرهمية، ولما خرجت جرهم على دعوة ابراهيم واسماعيل حسب رواية وهب بن منبه (اليهودي اليمني) لم يبق منهم إلا عشرون رجلا كانوا مؤمنين على دعوة إسماعيل. وهكذا هام زعيمهم الحارث بن مضاض الجرهمي إذ خرج هارباً يجول في الأرض هماً وغمّا ووحشة كما نزل بقومه 300 سنة وهكذا انتهت بنو جرهم.

وهناك وصف أسطوري لعظمة مقابر ملوك جرهم في مكة منها بقيلة بن عبد المدان وقبر عبد المسيح بن بقيلة وقبر مضاض بن عبد المسيح على رواية وهب بن منبه في كتابة

التيجان ــ ولا يخفى على القارى معزى هذا الاسم «عبد المسيح» وهو الـد مضاض ومضاض حموا اسماعيل بن ابراهيم خليل الله وكتاب كوسان دي برسفال (Caussin de Pereval* «تاريخ العرب قبل الاسلام» يجعل ملك الاسرة الجرهمية في مكة من عام 74 ق.م إلى عام 206 م ــ ويؤيد هذا «كتاب الاغاني» (لأبي الفرج الأصبهاني ت 356هـ/967م) ــ إذ جاء فيه أن سادس ملوك جرهم كان عبد المسيح بن باقية ابن جرهم وكانت سدانة البيت العتيق لا سقف عليه ــ مما يوحي بسيطرة مسيحية على الكعبة آنذاك؟!

غير أن واضع أسطورة تحدر العرب المستعربة من اسماعيل وزوجته الجرهمية لم يعر انتباها إلى الفارق الزمني بين اسماعيل نحو (1700 ق.م) وأواخر الجراهمة (نحو 200م) فكيف تم هذا الزواج مع وجود نحو 1900 عاما بين الزوج والزوجة؟؟

ومن التاريخي أن خزاعة ــ رهط حارثة بن عمرو من أزد كهلان اليمانية ارتحلت مع أرهاط كهلان الستة شمالاً إثر تصدع سد مأرب ــ أقامت بمكة وتغلبت على جرهم وانتزعت منها سدانة الكعبة وبقيت بيدها السدانة إلى أن انتزعتها قريش بقيادة قصي واجلاء جرهم وخزاعة عن مكة. ويفترض أن قصي بن كلاب قد عاش ما بين 400 إلى 480 ميلادية.

والهجرة من بابل (العراق) إلى اليمن توحي بأن منشأ الساميين هو بلاد بابل بما يتفق مع قصة نوح الطوفان (زيوسودرا السومري أو اوتنابيشتيم البابلي بطل الطوفان) وميثولوجيا الأصول.. وهجرة العرب البائدة من اليمن تمثل دورة ثانية في تاريخ العرب القدماء وتفترض أنهم من الآراميين حسب الأسطورة وبسبب وجود الدورتين الأولى في العراق والثانية في اليمن يقال عاد الأولى. وعاد الثانية، ثمود الأولى وثمود الثانية وجرهم الأولى وجرهم الثانية وسبأ الأولى وسبأ الثانية وحمير الأولى وحمير الثانية تعبيراً عن وجود دولتين لكل من هذه القبائل ــ الأولى في الهلال الخصيب والثانية في اليمن.

أسطورة العرب البائدة (عن الطبري)

بعد أن اقتسم أولاد نوح (ومعناه الراحة أو النياحة) الأرض بعده ظهر من طغا وعتا على الله عز وجل وتمادوا في غيهم فاهلكهم الله ومنهم حيان من إرم بن سام بن نوح أحدهما عاد بن عوص بن ارم وثمود بن جاثر بن ارم وهم كانوا العرب العاربة.

فاما عاد: فكان لها ثلاثة أوثان يعبدونها هي صدا وصمود (صمودا) والهباء (هبا) ــ فأرسل الله عز وجل اليهم هود (ومعناه بهاء) بن عبدالله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح. فدعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة دون غيره وترك ظلم الناس. فكذبوه ولم يؤمن بهود منهم إلا قليل. فوعظهم هود إذ تمادوا في طغيانهم فقال لهم «اتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون وإذا بطشتم بطشتم جبارين فاتقوا الله واطيعون واتقوا الذي أمدكم بما تعلمون أمدكم بانعام وبنين وجنات وعيون إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» (سورة الشعراء 128:26–135).

فكان جوابهم له أن قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين (136:26) ــ فحبس الله عنهم القطر سنين ثلاثا حتى جهدوا فاوفدوا وفدا إلى مكة ليستسقوا لهم،

منهم قيل بن عتر ونعيم بن هزال ومرثد بن عفير وكان مسلما يكتم اسلامه وجهلمة بن الخبيري ولقمان بن عاد ومعهم رهط من الرجال، حتى بلغ عدة وفدهم سبعين رجلا. فلما قدموا مكة نزلوا على ــ معاوية بن بكر ــ قريبهم بظاهر مكة، خارجا من الحرم فانزلهم وأكرمهم.

وكان مسيرهم شهراً ثم أقاموا عنده شهراً سقاهم الخمر وغنمهم جاريتان لمعاوية يقال لهما ــ الجرادتان ــ فلما رأى معاوية بن بكر طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوثون لهم من البلاء الذي أصابهم شق عليه وقال «هلك أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي»! فقال شعراً يذكرهم بمهمتهم فيحركهم وغنته الجرادتان لهم.

فلما سمع القوم ما غنتا به قال بعضهم لبعض ادخلوا هذا الحرم فاستسقوا لقومكم. فقال مرثد بن سعد «إنكم والله لا تسقون بدعائكم ولكن إن أطعتم نبيكم وانبتم إليه سقيتم« فاظهر إسلامه عند ذلك. وعرف جلهمة بن الخيبري خال معاوية حين سمع قوله أنه قد اتبع دين هود وآمن به فحبسوا مرثد بن سعد عنهم وخرج الباقون إلى مكة يستسقون بها الماء. فلحقهم مرثد وادركهم قبل أن يدعو الله بشيء مما خرجوا له ثم دعا ودعا قيل ودعا لقمان كل لوحده أن يعطيه الله سؤاله.

فانشأ الله سحائب ثلاث بيضاء وحمراء وسوداء ثم نادى مناد من السحاب: «يا قيل اختر لنفسك وقومك من هذا السحاب!» فقال «قد اخترت السحابة السوداء فانها أكثر السحاب ماء»! فناداه من السحاب فقال قد:

اخترت رمادا رمددا	لا تبقي من عاد أحدا
لا والداً تترك ولا ولدا	إلا جعلته همدا

إلا بني اللوذية المهدي وهم قبيلة من عاد كانوا سكاناً بمكة مع أخوالهم لم يكونوا مع عاد بأرضهم فهم عاد الآخرة ومن كان من نسلهم بقوا من عاد.

وساق الله السحابة السوداء التي اختار يا قيل بن عتر بما فيها من النقمة إلى عاد حتى خرجت عليهم من داء لهم يقال له «المغيث». ولما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا. وكان أول من أبصر ما فيها وعرف أنها ريح امرأة من عاد يقال لها مهدد. لما تبينت ما فيها صاحت ثم صعقت. فلما أفاقت قالوا: ماذا رأيتي يا مهدد؟ قالت: رأيت ريحا فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها. فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فلم تدع من عاد أحداً إلا هلك. فاعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبه ومن معه منها إلا ماتلين عليه الجلود وتلتذ إلا نفس وأنها لتمر من عاد بالطعن ما بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة.

وخرج وفد عاد من مكة حتى مروا بمعاوية بن بكر وأبيه فنزلوا عليه فبيناهم عنده إذ أقبل رجل على ناقة له في ليلة مقمرة مساء ثالثة من مصاب عاد فأخبرهم الخبر. فقالوا: فأين فارقت هود وأصحابه؟ قال: فارقتهم بساحل البحر. فقال مرثد بن سعد بن عفير حين سمع من قول الراكب الذي أخبر عن عاد بما أخر من الهلاك:

عصت عاد رسولهم فامسوا
عطاشا ما تبلهم السماءُ

وسيروفدهم شهرا ليسقوا
فاردفهم مع العطش العماءُ

بكفرهم يرهم جهارا
على آثار عاد هم العفاءُ

الا نزع الاله حلوم عاد
فان قلوبهم قفر هواءُ

من الخبر المبين أن يعوه
وما تغني النصيحة والشقاءُ

فنفسي وابنتاي وام ولد
لنفس نبينا هود فداءُ

أتانا والقلوب مصمدات
على ظلم وقد ذهب الضياءُ

لنا صنم يقال له صمود
يقابله صداء والهباءُ

فابصره الذين له أنابوا
وادرك من كذبه الشقاءُ

فاني سوف الحق آل هودٍ
وأخوته اذا جن المساءُ

وقيل أن رئيسهم وكبيرهم في ذلك الزمان «الخلجان» ولم يبق غيره بعد أن حملت الريح أصحابه ثم رمتهم فدقت أعناقهم. فمال إلى الجبل فأخذ بجانب منه فهزه فاهتز في يده. فقال هود: «ويحك يا خلجان أسلم تسلم!» فقال له: ومالي عند ربك إن أسلمت؟ قال: الجنة! قال: فما هؤلاء الذين أراهم في هذا السحاب كأنهم البخت؟ قال هود: «تلك ملائكة ربي» قال: فان اسلمت أيعيذني ربك منهم؟ قال: ويلك، هل رأيت ملاكا بعيذ من عنده؟ قال لو فعل ما رضيت! فجاءت الريح فالحقته بأصحابه. فلم ينجو الا هود ومن آمن به وكان عمر هود مئة سنة وخمسين سنة. ولما أهلك الله قوم عاد أرسل عليهم طيورا سودا. فنقلتهم إلى البحر فالقتهم فيه.

ثم ارتحل هود ومن آمن به إلى مكة فلم يزالوا بها حتى ماتوا — وفي رواية أخرى إلى بلاد اليمن حيث نزلوا هناك وأقاموا حولين كاملين وأدركت هوداً الوفاة ودفن في أرض حضر موت — وقد أشارت الآية إلى نجاة هود وصحبه فقالت: «ولما جاء أمرنا نجينا هودا والذين آمنوا معه برحمة منا ونجيناهم من عذاب غليظ» (س هود (11) آية 58).

كما جاء هلاك عاد في سورة الحاقة مكية (69) آية 6-8- «وأما عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى وكأنهم اعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية».

إرم ذات العماد:

يضاف إلى أسطورة هلاك عاد قصة مدينتهم إرم ذات العماد ذات البناء العجيب وكيف دمرت فجاء في القرآن الكريم في سورة الفجر (89) آية 6-8 «ألم ترَ كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد» وقد نقل قصتها محمود سليم الحوت عن ياقوت الحموي في كتاب الميثولوجيا عند العرب. كان لعاد ولدان شداد وشديد ملكا زمنا وقهرا. ولما مات شديد انفرد شداد بالحكم وملك الدنيا ودانت له ملوكها. وقد سمع بذكر الجنة فاراد أن يضاهيها ببنائه «إرم» في بعض صحاري عدن — كيف لا وهو عنده من الرجال من طوله ستين ذراعاً أو مئة ذراعاً أو حتى أربعمئة ذراع إذا أتى الصخرة العظيمة حملها وألقاها على حي بكامله فأهلكه! وقد أسهب ياقوت في وصفها في معجمه قال: «رووا أن شداد بن عاد لما سمع بالجنة قال لكبرائه إني متخذ في

الأرض مدينة على صفتها. ثم وجه لعملائه في الأرض أن يجمعوا ما في البلاد من أموال وأحجار كريمة واختار فضاء فلاة من أرض اليمن. فجعل طول المدينة اثني عشر فرسخا وعرضها كذلك (الفرسخ = نحو ثمانية كيلومترات) وأحاطها بسور عال مشرق وبنى فيها ثلاثمئة ألف قصر. وجعل لها غرفاً فوقها غرف معمدة بأساطين الزبرجد والجزع والياقوت. ثم أجرى تحت المدينة واديا ساق غليها تحت الأرض أربعين فرسخا. ثم أمر فاجرى في شوارعها المنقوعة بالمسك والزعفران سواقي مطلية بالذهب وجعل حصاها أنواع الجواهر وهي تجري بالماء الصافي.

وكان قصره وسط المدينة مشرفاً على القصور الضاربة في السماء وثلاثمئة ذراع وبنى خارج المدينة وسورها الشاهق أكماً محدقة يترلها جنوده. ومكث في بناء المدينة خمسماية عام.. ولم يستجب لدعوة هود.. فلما وافاه الموكلون ببناء المدينة وأخبروه بالفراغ منها عزم على الخروج إليها في جنوده. فخرج في ثلاثماية ألف من حرسه وشاكريته ومواليه. وخلف على ملكه بحضر موت ابنه «مرثد» ولم يقتربوا منها حتى أخذهم صيحة من السماء! ومات بالصيحة جميع من كان في المدينة من الوكلاء والعمال.. وبقيت خلاء لا أنس فيها — وساخت المدينة في الأرض فلم يدخلها بعد ذلك أحد إلا رجل واحد في أيام معاوية يقال له عبد الله بن قلابة فوصف بناءها وعجائبها.

وأما ثمود: فإنهم عتوا على رهم وكفروا به وأفسدوا في الأرض مبعث الله إليهم صالح بن آسف بن كماشج بن ارم بن ثمود بن حاثر بن ارم بن سام بن نوح وكان الله قد مد لهم في الاعمار وكانوا يسكنون الحجر إلى وادي القرى بين الحجاز والشام وينحتون الجبال بيوتا. «وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره وهو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب» (هود (11) 61).

ولم يزل صالح يدعوهم إلى الله على تمردهم وطغيالهم فلا يزيدهم دعاؤه إياهم إلى الله الامباعدة من الإجابة وكان رئيس كفارهم يسمى قدار بن قديرة الذي أهلك الله بفعله قبيلة ثمود. — إذ طلبوا صالح أن يأتي بمعجزة وإن تكون آيته ناقة بيضا تحلب لهم لبنا صافيا ويتبعها فصيلها وتنطق لصالح بالرسالة ولله بالواحدانية. واشترط صالح بدوره أن لا يركبها أحد ولا يرميها بلا حجر ولا هم ولا يمنع شرها ولا مرعاها.

ثم أخرجهم إلى صخرة إذا هي تئن كما تئن المرأة عند الطلق وتستمخض كما تتمخض الحامل!! والناقة تدور في جوانبها كما يدور الولد في بطن أمه! ثم تفرجت عن ناقة «كألها قطعة من جبل ووقفت بن يدي صالح وبعينها شعاع ونور وعليها زمام من اللؤلؤ ومن سنامها إلى ذنبها سبعمائة ذراع وعرضها سبعون ذراعا ولها أربعة أضرع لكل ضرع النتا عشر حلمة وما بين الحلمة إلى الأخرى عشرة أذرع وطول كل قائمة من قوائمها مائة وخمسون ذراعاً ثم وضعت فصيلها على صفتها — وقال صالح عليه السلام «هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم — لها شرب ولكم شرب يوم معلوم» وكانت ترعى في رؤوس الجبال تاركة مراعي ثمود إلى ماشيهم وكان شرها يوما وشرهم يومامعلوما فإذا كان يوم شرها خلو منها وعن الماء وتدخل المدينة بلسان فصيح «من أراد اللبن فليخرج!!» فحلبوها لبنا ملئوا كل إناء ووعاء وسقاء فإذا كان يوم شرهم صرفوها عن الماء ولم تشرب منه شيئا.

فأوصى الله عز وجل إلى صالح أن قومك سيعقرون ناقتك. فقال لهم. قالوا ما كنا لنفعل ــ قال ألا تعقروها أنتم أوشك أن يولد فيكم مولود يعقرها. قالوا ما علاقة ذلك المولود فوالله لا نجده إلا قتلناه. قال فأنه غلام أشقر أزرق أصهب أحمر.

وكان في المدينة شيخان عزيزان منيعان لأحدهما ابن يرغب له عن المناكح وللآخر ابنة لا يجد لها كفؤاً، فجمع بينهما مجلس فقال أحدهما لصاحبه: أما يمنعك أن تزوج ابنك؟ قال: لا أجد له كفؤاً وقال أن ابنتي كفؤ له وإنما أزوجك، فزوجه فولد منهما ذلك المولود.

وكان في المدينة ثمانية رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون، فلما قال لهم صالح إنما يعقرها مولود فيكم اختاروا ثمانية نسوة قوابل من القرية وجعلوا معهن شرطا كانوا يطوفون في القرية فإذا وجدوا المرأة تمخض نظروا ما ولدها فإن كان غلاما قتلنه وإن كان جارية أعرضن عنها. فلما وجدوا ذلك المولود حرض النسوة وقلن هذا الذي يريد رسول الله صالح. فأراد الشرط أن يأخذوه فحال جداه بينه وبينهم وقالوا: إن أراد صالح هذا قتلناه.

وكان شر مولود ــ وكان يشب باليوم شباب غيره في الجمعة ويشب في الجمعة شباب غيره في الشهر، ويشب في الشهر شباب غيره في السنة. فاجتمع إلى الثمانية الذين يفسدون في الأرض فصاروا تسعة، فائتمروا بقتل صالح وقالوا نخرج مسافرين والناس يروننا علانية ثم ترجع في ليلة كذا وكذا من شهر كذا وكذا فنرصده عند مصلاه فنقتله ولا يحسب الناس إلا أنا مسافرون فاقبلوا حتى دخولوا تحت صخرة يرصدونه فانزل الله عز وجل عليهم الصخرة فرضختهم فأصبحوا رضخا. فقال رجال ممن قد أطلع على ذلك منهم «أي عباد الله أما رضي صالح أن أمرهم أن يقتلوا أولادهم حتى قتلهم؟» فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة، لكن كلما أرسلوا إليها من يعقرها تعاظمه ذلك فاضرب عن ذلك حتى مشي إليها الشقي وتطاول وضرب عرقوبيها فوقعت! وقيل وكان في القوم امرأتان ذواتا مواشي كثيرة ــ عرضت الأولى ذات الجمال البارع نفسها على من يعقر الناقة والأخرى عرضت إحدى بناتها الأربع الجميلات على آخر لهذا الغرض.

فأتى رجل نبي منهم صالحا فقال أدرك الناقة فقد عقرت! فأقبل فخرجوا يتلقونه ويعتذرون إليه. يا بني الله إنما عقرها فلان إنه لا ذنب لنا! قال انظروا هل تدركون فصيلها فإن أدركتموه فعسى الله أن يرفع عنكم العذاب. فخرجوا يطلبونه. فلما رأي الفصيل أمه تضطرب أتى جبلا يقال له القاره قصيراً فصعدوا وذهبوا ليأخذوه، فأوصى الله عز وجل إلى الجبل فطار إلى السماء حتى ما تناله الطير. ودخل صالح القرية فلما رآه الفصيل بكى حتى سالت دموعه ثم استقبل صالحا فرغا رغوة ثم رغا أخرى ثم رغا أخرى. فقال صالح: لكل رغوة أجل يوم تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب إلا أنه آية العذاب ــ إن اليوم تصبح وجوهكم مصفرة واليوم الثاني محمرة واليوم الثالث مسودة ــ فلما أصبحوا إذا وجوههم قد طليت بالخلوق صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وانساهم. فلما أمسوا صاحوا بأجمعهم الا قد مضى يوم من الاجل وحضركم العذاب. فلما أصبحوا اليوم الثاني إذا وجوههم محمرة كأنما خضبت بالدماء، فصاحوا وصخبوا وبكوا العذاب. فلما أصبحوا اليوم الثالث فإذا وجوهم مسودة كأنما

طليت بالقار فصاحوا جميعاً إلا قد حضركم العذاب فتكفنوا وتحنطوا وكان حنوطهم الصبر والمفر وكانت أكفانهم الانطاع ثم القوا أنفسهم إلى الأرض. فجعلوا يقلبون أبصارهم إلى السماء مرة وإلى الأرض مرة لا يدرون من حيث يأتيهم العذاب — من فوقهم من السماء أم من تحت أرجلهم من الأرض. فلما أصبحوا اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة وصوت كل شيء له صوت في الأرض فتقطعت قلوبهم من صدورهم فأصبحوا في ديارهم جاثمين وهكذا «وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين» (هود 67) — لقد هلكوا كلهم إلا رجل واحد اسمه أبو رغال — كان في حرم الله فمنعه حرم الله من عذاب الله — حتى قيل «اشأم من أحمر عاد — قدار بن قديرة — التي أهلك الله بفعله قبيلة ثمود» ولهذا تقول العرب «ارغما فوقهم شعب السماء» إذا هلكوا.

فأما أهل التوراة فإنهم يزعمون أن لا ذكر لعاد وثمود ولا هود وصالح في التوراة وأمرهم عند العرب في الشهرة في الجاهلية والاسلام كشهرة إبراهيم وقومه. — على أن ثمود خلاف عاد قد أوجدت لها مكاناً في التاريخ فلم تفن بالكلية وهناك دلائل على بقائها حتى القرن الخامس للميلاد.

أما صالح النبي فنجا وارتحل ومن آمن معه فسار إلى الشام ونزل فلسطين ثم انتقل إلى مكة — «فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القدير العزيز» (هود 66) — ومن أهل العلم من يزعم أن صالحاً عليه السلام توفي بمكة وهو ابن ثمان وخمسين سنة وأنه أقام في قومه عشرين سنة.

عن الطبري ومحمود سليم الحوت
والقرآن الكريم والمنجد

إبراهيم

هو أبرام بن تارح بن ناحور من أور — المدينة السومرية في جنوب بلاد الرافدين التي تسميها التوراة «أور الكلدانيين» حيث ينتهي نسبة إلى أرفكشاد لـ بن سام بن نوح. ووفق ميثولوجيا الأصول في سفر التكوين هو الجد الأسطوري لشعوب عديدة منها الاسرائيليين عن طريق يعقوب بن اسحق والادوميين عن طريق عيسو بن اسحق والعرب العدنانيين عن طريق اسماعيل بن هاجر وست قبائل أخرى عن طريق أبنائه الستة من قطورة أهمها قبيلة مديان — ويفترض أنه عاش في القرن 18 إلى 17 ق.م.

وشخصية ابراهيم هي على الأقل نصف أسطورية ومصدر معرفتنا بها هو العهد القديم وبخاصة سفر التكوين منه. وما جاء فيما بعد عنه هي زيادات حاكتها مخيلات الرواة فوق وحول النواة التوراتية. فبرز في الأديان السامية الثلاثة أبا للمؤمنين تلقى الوحي الالهي في مدينة أورفترح إلى حران ثم إلى كنعان نحو 1800 ق.م وله عدة أسماء صفات هي ابرام وابرام العبراني وابراهيم وابراهيم الخليل وأبو الآباء وأبو المؤمنين.

وقصة ابراهيم الأساسية الأصل وردت في سفر التكوين من العهد القديم (اصحاح 11-25) وكان اسمه أبرام أي الأب السامي أو الجليل و«ابرام العبراني» (تك 13:14) ثم أصبح ابراهيم أي الأب المعظم كما قبل اب لشعوب كثيرة. ولد في أور السومرية وكانت مركز عبادة اله القمر السومري نانا (أو ننار) أو سين حسب تسمية الساميين.

رحل تارح (أي الهلال) ومعه ابرام (الأب السامي) وكنته زوجة ابرام ساراي (ساره اي أميرة) وحفيده لوط (حجاب) بن هاران من مسقط رأسهم أور (مدينة) إلى حران (الطريق) عاصمة فدان آرام فيما بعد ومركز عبادة القمر «سين» في شمال الجزيرة السورية.

ولما كان لأبرام 75 عاماً وبأمر من الرب رحل مع زوجته وابن أخيه لوط مع عبيده ومملتكاته إلى أرض كنعان من حران (مسافة 600 كم) وأول محطاته كانت مدينة شكيم (نابلس) بين جبلي عيبال وجريزيم وهناك بنى مذبحاً ثم انتقل نحو 30 كم إلى الجنوب إلى بيت أيل (بيت الله) وبني مذحباً أيضاً ثم كان قحط وجوع فرحل جنوباً حتى بلغ مصر.

كانت زوجته ساراي أخته من أبيه فوضعها بين حريم فرعون قائلاً أنها أخته وأخيراً عاد إلى أرض كنعان (وقد سميت فلسطين عام 70م) مع ما أغدقه عليه فرعون غنماً وبقراً وحميراً وعبيداً وإماء وحط في «بيت ايل» حيث كان المذبح وخيمته في السابق. وحدثت مخاصمة بين رعيان أبرام ورعيان لوط فافترقا. انتقل لوط إلى دائرة الأردن (هابردن أي المنحدر) عند سدوم وانتقل ابرام إلى حبرون (الخليل أو خليل الرحمن) — ولم يكن اسمها كذلك بل كانت تدعى «ممرا» ويبدو أنه إلى جانب سكانها الاموريين كان قسم من سكانها من الحثيين وسميت بعد ذلك «قرية أربع» نسبة إلى جبار هذا الاسم كان يقيم فيها و— بعد الغزو الاسرائيلي تسلمها كالب فدعيت «حبرون» باسم أحد ابنائه (ومعناها الصحبة أو الاتحاد) — كان أبرام لا يزال شيخاً بدوياً متنقلاً لا يملك أرضاً فأقام خيامه عند بلوطات «ممرا» Memre صديقه الأموري وبنى هناك مذبحاً للرب. والغريب أن يهوه كان يكلم ابراهيم ويريه أراضي كنعان ويعده بأن يعطيها له ولنسله إلى الأبد رغم وجود الكنعانيين أصحاب الأرض فيها على ذمة الذين دونوا العهد القديم في القرن الخامس ق.م. وحدثت «حرب أهلية بين ملك سدوم وحلفائه وملك شنعار وحلفائه أسر لوط فيها فأتى أحد الناجين وأخبر أبرام العبراني الساكن عند بلوطات ممرا الأموري فجرد حملة من 318 شاباً وتبع الملوك إلى دان Dan (تل قاطي) وانقض عليهم ليلاً وكسرهم ثم تبعهم شمالاً إلى قرب دمشق واسترجع الأملاك ولوطا والاسرى.

وعند عودته من «كسرة الملوك» مر بـ «ملكي صادق» ملك شاليم (أورشليم القدس) كاهن «ايل عليون» (الله العلي) — فتلقى ابراهيم بركة ملكيصادق كما دفع ابراهيم له العشر: أي أن ملكيصادق كان أعظم من إبراهيم ديناودنيا!.

كانت ساراي عاقرا ولذا كان وريثه الشرعي اليعازر الدمشقي، ربيبه — غير أن ساراي أدخلت إبراهيم على جاريتها «هاجر» المصرية فحبلت وولدت له اسماعيل (يسمع الله) وكان عمر ابرام 86 سنة — وهذا الاجراء الشرعي بان تدخل الزوجة العاقر زوجها على جاريتها لتلد لها ابنا معروف قديماً وقد ورد في شرائع نوزي (Nuzi).

وانتقل ابرام إلى «جرار» ووضع زوجته بين حريم «أبيمالك» ملك جرار الكنعاني ولما علم ابيمالك أنها زوجة أبرام ابت نفسه وعف عنها وردها إليه وأغدق عليه العطاء مما يدل أن ابيمالك كان أسمى خلقاً من إبراهيم!.

وفي سن التسعين (أي 45 سنة لأن السنة كانت سنتين من 6 أشهر) حملت ساراي وولدت اسحق (يضحك) وأصرت على طرد هاجر وابنها. وأذعن ابراهيم وطردهما إلى

برية «بئر السبع» في شمال سينا (وليس إلى الحجاز) وكبر اسماعيل وكان رامي قوس وزوجته أمه من إمرأة مصرية (بريه فاران).

وفيما يتعلق بطقس الختان جاء في تك 17:22-27 ـ ختن ابراهيم وعمره 99 سنة وختن اسماعيل وله 13 سنة وختن اسحق ابن 8 أيام ـ واصل الختان غير واضح لكنه قديم جداً وكان يمارس في مصر قبل عام 4000 ق.م وأقدم صورة للختان مصرية في صقاره وترقى إلى 2400 ق.م وكانت تجرى العملية للأولاد بين سن 6 و 12 سنة وللبنات عند سن البلوغ ـ ويفترض أنه قربان دموي بتضحية الجزء عن الكل ـ بعد ذلك أصبح طقساً يهودياً يمثل العهد بين الله وابراهيم وهو أول أمر الهي في الأسفار الخمسة (تك 17:10-12) ويتم بعد ثمانية أيام من ولادة الذكور. وقد ختن المسيح في اليوم الثامن حسب الشرع اليهودي وحافظ النصارى على هذا الطقس إلى جانب المعمودية ورفضه المسيحيون واكتفوا بالمعمودية لكن اقتبسه المسيحيون الأحباش والمسلمون المحمديون.

وتروي التوراة أن ابراهيم أراد أن يقدم ابنه اسحق ذبيحة للرب غير أن معجزة حدثت وأنقذ الغلام بأن افتدي بكبش غنم. غير أن التقليد الاسلامي يقول أن ابراهيم كان ينوي تقديم اسماعيل ذبيحة فافتداه الله بكبش من السماء. وأحياء لهذه الذكرى أقاموا «عيد الأضحى» والرواية الثانية أقرب إلى التقليد التاريخي في أرض كنعان لأن الكنعانيين كانوا يقدمون الأبكار من كل شيء بما في ذلك الأولاد. ثم يوضع الولد الذبيح في جرة تحت أرض البيت وكذلك أهل «ربة عمون» (عمان) كانوا يقدمون أولادهم محرقات لمولوخ في جهنم (وادي هنم). وإذا كان إبراهيم قد افتدى ابنه بكبش فإن «ميشع» ملك موآب قد قدم بكره فعلاً ذبيحة محرقة على السور. وكان امتحان الرب لابراهيم أن يصعد ابنه محرقة على تلة «المريا» (موريا) فأصبحت التلة مقدسة لدى الأجيال اللاحقة ـ (فبني عليها هيكل سليمان والمسجد الأقصى وكنيسة مريم ومعبد روماني).

وماتت سارة عن 127 عاماً في حبرون (ممرا) وكان إبراهيم ما زال بدوياً لا يملك أرضاً فاشترى حقلاً فيه مغارة المكفيلة من عِفرون بن صُوحَر الحثي لتكون قبرا لزوجته.

كبر اسحق ورفض إبراهيم أن يزوج ابنه فتاة كنعانية. فأرسل رئيس عبيده وأحضر رفقه بنت بتوئيل أخت لابان (لبن أبيض) من آرام النهرين لتكون زوجة لاسحق فيحافظ على القبلية الآرامية ـ بعد ذلك تزوج إبراهيم من (فطورة) وولدت له ست بنين أحدهم مديان، وعاش ابراهيم 175 عاما ومات بشيبة صالحة ودفنه إسحاق وإسماعيل في مغارة المكفيلة في حقل عفرون الحثي أمام ممرا (حبرون) في قرية أربع (حبرون الخليل) ـ وحسب التقاليد فإن ابراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم ساراي ورفقه وليئه قد دفنوا في مغارة المكفيلة مما جعل المكان مقدسا في نظر أهل الأديان الثلاثة بسبب ترابطها التاريخي والعقائدي[1].

---

[1] المراجع:

قصة إبراهيم خليل الرحمن (الطبري والحوت)

هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن شالخ بن قينان بن ارفخشد بن سام بن نوح ـ وقيل كان مولده بالسوس وقيل ببابل وقيل بناحية كوثى وقبل الوركاء وقيل بحران ونقله أبوه تارخ إلى أرض بابل وقيل كان مولده في عهد نمرود بن كوش وهو الذي أراد إحراقه. وكان الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة نمرود (بن كوش بن حام بن نوح) وسليمان بن داود وذو القرنين وبخت نصر ـ مؤمنان وكافران.

وأرسل الله إبراهيم عليه السلام حجة على قومه ورسولا إلى عباده ولم يكن فيما بين نوح وابراهيم عليهما السلام من نبي قبله إلا هود وصالح.

وطلع على نمرود كوكب ذهب بضوء الشمس والقمر ففزع من ذلك فزعاً شديداً فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة فسألهم عنه ـ فقالوا أنا نجد في علمنا أن غلاماً يولد في قريتك هذه يقال له «إبراهيم» يفارق دينكم ويكسر أوثانكم ويكون على وجهه هلاكك وهلاك ملكك. وكان مسكنه ببابل الكوفة فخرج من قريته إلى قرية أخرى فاخرج الرجال وترك النساء وأمر أن لا يولد مولود ذكر إلا ذبحه. فذبح أولادهم. ثم أن بدت له حاجة في المدينة لم يأمن عليها إلا آزر (تارح) أبا ابراهيم فدعاه فأرسله وقال له «انظر لا تواقع أهلك» فقال له آزر أنا أظن بديني من ذلك. فلما دخل القرية نظر إلى أهله فلم يملك نفسه أن وقع عليها ففر بها إلى قرية بين الكوفة والبصرة يقال لها أور. وبينما كان نمرود يذبح الأطفال لم يعلم بحبل إمرأة آزر. ذاك أنها كانت جارية حدثة فيما يذكر لم يعرف الحبل في بطنها. فلما وجدت أم ابراهيم الطلق خرجت ليلاً إلى مغارة كانت قريباً منها فولدت فيها ابراهيم عليه السلام واصلحت من شأنه ما يصنع بالمولود ثم سدت عليه المغارة ثم رجعت إلى بيتها. ثم كانت تطالعه في المغارة لتنظر ما فعل فتجده حياً يمص أبهامه ـ يزعمون والله أعلم أن الله جعل رزق ابراهيم عليه السلام فيها ما يجيئه من مصه. وكان آزر فيما يزعمون قد سأل أم إبراهيم عن حملها ما فعل فقالت ولدت غلاماً فمات فصدقها فسكت عنها. وكان اليوم فيما يذكرون على ابراهيم في الشباب كالشهر والشهر كالسنة. ولم يمكث ابراهيم عليه السلام في المغارة إلا خمسة عشر شهراً حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر!.

فأخرجته عشاء بعد غروب الشمس فرفع راسه إلى السماء فنظر وتفكر في خلق السموات والأرض وقال: «إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربي مالي إله غيره. ثم نظر في السماء فإذا هو بالكوكب وهو المشتري فقال هذا ربي! ثم اتبعه بنظر فلم يلبث أن غاب فقال: لا أحب الآفلين وكان آخر الشهر فلم ير القمر قبل الكواكب. فلما كان آخر الليل رأى القمر باذغا قد طلع فقال: هذا ربي! ثم تبعه ببصره حتى غاب فلما أفل قال: لئن لم يهدني ربي لاكون من القوم الضالين، فلما أصبح ورأى الشمس بازغة

العهد القديم ـ سفر التكوين، العهد الجديد، القرآن الكريم ، الملل والنحل ـ الشهر ثاني، قاموس الكتاب المقدس.

History in syria - philip Hitti, Encycleopedia Britannica, The in ternranul s....., Havlley Bible Handbook - Henry halley

قال هذا أكبر وأعظم نوراً هذا ربي! فلما غابت قال الله له «أسلم» قال: «أسلمت لرب العالمين».

فأتى قومه فدعاهم فقال «يا قوم إني بريء مما يشركون» إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ثم رجع إبراهيم إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته وعرف ربه وبرى من دين قومه إلا أنه لم يبادهم بذلك. فأخبره أنه ابنه فأخبرته أم ابراهيم عليه السلام أنه ابنه فأخبرت بما كانت صنعت في شأنه فسر بذلك آزر وفرح فرحاً شديداً. وكان آزر يصنع أصنام قومه التي يعبدون ثم يعطيها ابراهيم يبيعها. فيذهب بها ابراهيم عليه السلام فيقول «من يشتري ما يضره ولا ينفعه» فلا يشتريها منه أحد. فإذا بارت عليه ذهب بها إلى نهر فصوب فيه رؤوسها وقال «اشربي» استهزاء بقومه. ويقرب لها طعاماً ثم يقول ألا تأكلون؟ «مالكم لا تنطقون تعييراً في شأنها واستهزاء بها.

ثم دعا أباه فقال «يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً! قال: «أراغب أنت عن آلهتي يا ابراهيم إن لنا عيد الوقد خرجت معنا إليه لاعجبنك ديننا». فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه خرج معهم إبراهيم، فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال «إني سقيم» فلما مضوا نادى في آخرهم «فالله لاكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين» فسمعوها منه ثم رجع ابراهيم إلى بيت الآلهة فإذا هو في بهو عظيم مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى جنب بعض كل صنم يليه أصغر منه حتى بلغوا باب البهو. وإذا هم قد وضعوا طعاماً فوضعوه بين يدي الآلهة قالوا «إذا كان حين ترجع رجعنا وقد باركت الآلهة في طعامنا فأكلنا، فلما نظر إليهم ابراهيم عليه السلام وإلى مابين أيديهم من الطعام قال «ألا تأكلون» فلما لم تجبه قال «مالكم لا تنطقون؟» فراغ عليهم ضرباً باليمين فأخذ حديدة فبقر كل صنم في حافيته ثم علق الفأس في عنق الصنم الأكبر ثم خرج.

فلما جاء القوم إلى طعامهم ونظروا إلى الهتهم قالوا «من فعل هذا بإلهتنا إنه لمن الظالمين؟ قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له ابراهيم» فبلغ ذلك نمرود وأشراف قومه فقالوا «فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون!» فلما أتي به فاجتمع له قومه عند ملكهم نمرود قالوا «أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم؟» قال: «بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون» غضب من أن تعبدوا معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن. فارعووا ورجعوا عنه فقالوا لقد ظلمناه ما نراه إلا كما قال، فقال عند ذلك إبراهيم حين ظهرت الحجة عليهم بقولهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون! قال: أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون؟».

فقال نمرود لابراهيم «أرأيت إلهك هذا الذي تعبد وتدعوا إلى عبادته وتذكر من قدرته التي تعظمه بها إلى غيره ما هو؟ قال ابراهيم «ربي الذي يحيي ويميت!» فقال نمرود: فأنا أحيي وأميت! فقال ابراهيم كيف تحيي وتميت؟ قال: آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكم فاقتل أحدهما فأكون قد أمته وأعفو عن الآخر فاتركه فأكون قد أحييته.

فقال له ابراهيم عند ذلك «فإن الله يأتي الشمس من المشرق فآت بها من المغرب» فبهت عند ذلك نمرود ولم يرجع إليه شيئاً ثم أن نمرود وقومه أجمعوا في ابراهيم فقالوا:

«حرقوه وانصروا الهتكم إن كنت فاعلين» فأمر نمرود فجمعوا لـه الحطب وأكثروا حتى إن كان الطير ليمر بها فيحترق من شدة وهجها وحرها. وأشعلوا في كل ناحية من الحطب الذي جمعوا له حتى إذا اشتعلت النار وأجمعوا لقذفه فيها صاحت السماء والأرض وما فيها من الخلق إلا الثقلين إلى الله عز وجل صيحة واحدة، «إلى ربنا ابراهيم ليس في أرضك أحد يعبدك غيره يحرق بالنار فيك فأذن كنا في نصر قال: إن استفاق بشيء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له في ذلك فإن لم يدع غيري فأنا وليه فخلوا بيني وبينه فأنا أمنعه!» قال ابراهيم وقد رفع رأسه إلى السماء: «اللهم أنت الواحد في السماء وأنا الواحد في الأرض ليس في الأرض أحد يعبدك غيري حسبي الله ونعم الوكيل» فقذفوه في النار فناداها جبرائيل فقال.. «يا ناركوني بردا وسلاماً على ابراهيم» ولو لم يتبع بردها سلاماً لمات ابراهيم من بردها. فلم تبق يومئذ نار في الأرض إلا ظنت أنها تعني. فلما طفئت النار نظروا إلى إبراهيم فإذا هو ورجل آخر معه وإذا رأس إبراهيم في حجره يمسح عن وجهه العرق. لقد بعث الله عز وجل ملك الظل في صورة ابراهيم فقعد فيها إلى جنبه يؤنسه. وقد رآه نمرود جالساً في النار ورأى الملك قاعداً إلى جنبه في مثل صورته فناداه نمرود «يا ابراهيم كبير الهك الذي بلغت قدرته وعزته أن حال بين ما أرى وبينك حتى لم تضرك يا ابراهيم. هل تستطيع أن تخرج منها؟ فقام وخرج منها. فقال له نمرود «يا ابراهيم من الرجل الذي رأيت معك في مثل صورتك قاعداً إلى جنبك؟ قال: ذلك ملك الظل أرسله إلي ربي ليكون معي فيها ويؤنسني وجعلها علي بردا وسلاما. فقال نمرود: إني مقرب إلى إلهك قرباناً لما رأيته من عزته وقدرته. ولما صنع بك حين أبيت إلا عبادته وتوحيده. إني ذابح له أربعة آلاف بقرة! فقال ابراهيم: إذا لا يقبل الله منك ما كنت على شيء من دينك هذا حتى تفارقه إلى ديني؟ فقال يا ابراهيم لا أستطيع ترك ملكي ولكني سوف أذبحها له. فذبحها نمرود ثم كف عن ابراهيم.

زواج ابراهيم:

بعد أن لم تحرق النار من ابراهيم إلا وثاقه استجاب لابراهيم عليه السلام رجال من قومه. فآمن لوط بن أخيه هاران بن تارخ وآمنت ابنة عمه سارة بنت هاران الأكبر عم ابراهيم وكان لها أخت يقال لها ملكاً امرأة ناحور. وقد قيل أن سارة كانت ابنة ملك حران وقد طعنت على قومها في دينهم فتزوجها ابراهيم. ثم أجمع ابراهيم ومن معه لفراق قومهم وخرج ابراهيم مهاجراً إلى ربه وخرج معه لوط مهاجراً وتزوج سارة ابنة عمه فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران، فمكث بها ما شاء الله أن يمكث ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر وبها فرعون من الفراعنة الأولى. وكانت سارة من أحسن الناس فكانت لا تعصي ابراهيم شيئاً وبذلك أكرمها الله عز وجل. فلما وصفت لفرعون ووصف له حسنها وجمالها أرسل إلى إبراهيم فقال: ما هذه المرأة التي معك؟ قال هي أختي: وتخوف ابراهيم إن قال هي إمرأتي أن يقتله عنها، فقال لابراهيم: زينها ثم أرسلها إلي حتى أنظر إليها. فرجع ابراهيم إلى سارة وأمرها فتهيأت ثم أرسلها إليه. فأقبلت حتى دخلت عليه ــ فلما قعدت إليه تناولها بيده فيبست إلى صدره، فلما رأى ذلك فرعون أعظم أمرها وقال: ادعي الله أن يطلق عني فوالله لا أريبك ولأحسنت إليك. فقال: اللهم إن كان صادقاً فأطلق يده! فأطلق الله يده. فردها إلى ابراهيم ووهب لها هاجر جارية كانت له قبطية ــ وهكذا كذب ابراهيم ثلاث كذبات

فقط ــ قوله «إني سقيم» وقوله «بل فعله كبيرهم هذا» وقوله في سارة «هي أختي» كما قال لسارة أخبرته أنك أختي فلا تكذبين عنده فإنك أختي في الله فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك.

وكانت هاجر جارية ذات هينه فوهبتها سارة لابراهيم وقالت «إني أراها امرأة وضيئة فخذها لعل الله يرزقك منها ولداً» وكانت سارة قد منعت الولد فلا تلد لابراهيم حتى أسنت. وكان ابراهيم قد دعا الله أن يهب له من الصالحين، وأخرت الدعوة حتى كبر ابراهيم وعقمت سارة. ثم إن ابراهيم وقع على هاجر فولدت له اسماعيل عليهما السلام. ويزعمون أن سارة حزنت حزناً شديداً وكان إبراهيم قد خرج من مصر إلى الشام وهاب ذلك الملك الذي كان بها وأشفق من شره حتى قدمها فنزل السبع من أرض فلسطين وهي برية الشام ونزل لوط بالمؤتفكة وهي من السبع على مسيرة يوم وليلة واقرب من ذلك فبعثه الله عز وجل نبياً.

وأقام ابراهيم بالسبع فاحتفر به بئراً واتخذ به مسجداً فكان ماء تلك البئر معيناً طاهراً فكانت غنمة تردها. ثم أن أهلها آذوه فيها ببعض الأذى فخرج منها حتى نزل بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وايليا يقال له «قط». فلما خرج من بين أظهرهم نضب الماء فذهب وأتبعه أهل السبع حتى أرسلوه وندموا على ما صنعوا وقالوا أخرجنا من بين أظهرنا رجلاً صالحاً فسألوه أن يرجع إليهم فقال ما أنا براجع إلى بلد أخرجت منه. قالوا فإن الماء الذي كنت تشرب منه ونشرب معك قد نضب. فذهب فأعطاهم سبع أعتز من غنمه فقال: اذهبوا بها معكم فأنكم لو قد اودعتموها البئر قد ظهر الماء حتى يكون معينا طاهراً كما كان فاشربوا منها، فلا تغترفن منها إمرأة حائض! فخرجوا بالاعتز فلما وقفت على البئر ظهر إليها الماء فكانوا يشربون منها وهي على ذلك حتى أتت إمرأة طامث فاغترفت منها فنكص ماءها إلى الذي هو عليه اليوم ثم ثبت.

وكان ابراهيم يضيف من نزل به وكان الله عز وجل قد أوسع عليه وبسط له في الرزق والماء والخدم. فلما أراد الله عز وجل هلاك قوم لوط بعث إليه رسله يأمرونه بالخروج من بين أظهرهم وكانوا قد عملوا من الفاحشة ما لم يسبقهم به أحد من العالمين مع تكذيبهم نبيهم وردهم عليه ما جاءهم به من النصيحة من ربهم. وأمرن الرسل أن ينزلوا على ابراهيم وأن يبشروه وسارة ب اسحاق ومن وراء اسحق يعقوب. فلما نزلوا على إبراهيم وكان الضيف قد حبس عنه خمس عشرة ليلة حتى شق ذلك عليه لا يضيفه أحد ولا يأتيه فلما رآهم سر بهم رأى ضيفا لم يضفه مثلهم حسنا وجمالا. فقال: لا يخدم هؤلاء القوم أحد إلا أنا بيدي. فجاء بعجل سمين قد خنره فقربه إليهم فأمسكوا أيديهم عنه، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة حين لم يأكلوا من طعامه. قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط. وامرأته سارة قائمة فضحكت لما عرفت من أمر الله عز وجل ولما تعلم من قوم لوط. فبشروها باسحاق ومن وراء اسحق يعقوب فقالت وصكت وجهها «يا ويلتي أألد وأنا عجوز عقيم» وكانت سارة يومئذ ابنة تسعين سنة وابراهيم ابن عشرين ومئة سنة. فلما ذهب عن ابراهيم الروع وجاءته البشرى قال: الحمد لله الذي وهب لي على الكبر اسماعيل واسحق أن ربي لسميع الدعاء».

وذبح اسحاق ابن سبع سنين وكان مذبحه من بيت ايليا، على ميلين فلما علمت سارة بما أراد باسحاق مرضت يومين وماتت اليوم الثالث وقيل ماتت سارة وهي ابنة مائة وسبع وعشرين سنة.

وقيل لما حملت هاجر ووضعت إسماعيل أغتمت سارة ودخلتها الغيرة وطلبت من زوجها أن يحول هاجر إلى حيث شاء فأوحي إليه أن أحمل هاجر واسماعيل إلى أرض الحرم. فسار ابراهيم بزوجه وولده إلى الحجاز ونزل قريباً من البيت. والبيت كان ربوة من آثار الطوفان وأمر هاجر أن تتخذ عريشاً وقال: ربنا أني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وأرزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» (س 4 ابراهيم : 37). ثم انصرف إلى الشام ولم يكن بمكة بيت مشيد بعد ولم يرفع هو وابنه قواعد البيت إلا لما زاره للمرة الثالثة (الطبري) وذلك بعد ثلاث وعشرين سنة من مفارقة إسماعيل.

بناء الكعبة:

دعا إبراهيم دعوته (س 37:14) ثم انصرف إلى الشام وترك زوجه (هاجر) وولده (إسماعيل) «فاشتد عليهما الحر. فرأت هاجر في موضع بئر زمزم شجرة وعلقت عليه ثوباً يظلها من حر الشمس. ونفذ ماء الكوز الذي كان معها وعطشا. فلم تدر هاجر ما تصنع. وكانت تعدو نحو الصفا مرة ونحو المروة أخرى في طلب الماء وهي تقول الهنا لا تهلكنا عطشاً ــ وبعد أن سعت سبع مرات بين الصفا والمروه هبط عليها جبريل وبشرها بالنجاة.

فانصرفت إلى اسماعيل وهو يبحث الأرض بغصبعه فنبعت عين زمزم فخرت ساجدة لله تعالى. ثم جمعت الحصاة حوله لئلا ينشر الماء وقالت له «زمزم» فسمي بذلك. فلو أنها ما فعلت ذلك لساح الماء على وجه الأرض شرقاً وغرباً.

فمكثا هنالك حتى أقبلت قافلة من اليمن تريد الشام فرأوا طيوراً عالقة على هاجر وولدها. فتعجبوا من ذلك وقالوا إن الطير لا يأوي إلا على ماء والعمارة، فأقبلوا ووجدوا هاجر وإسماعيل على عين ماء عذب. وقالوا لها من الأنس أنت أم من الجن؟ فقالت أنا هاجر جارية ابراهيم خليل الله وهذا ولدي منه. وهذا المعين أخرج الله لولدي. فقالوا إن حضرنا باهلينا وسكنا هناك مؤنسين لك فهل تمنعينا من الماء؟ فقالت: إنه لله يشربه خلق الله! فرجعوا واحتملوا أهاليهم ومواشيهم ونزل الحرم» (قصص الأنبياء ــ الحوت) ــ (فتكون مكة من بناء هذه القبيلة التي عاد وتزوج اسماعيل منها وهي قبيلة جرهم) بينما زعم آخرون أن مكة بنيت يوم خلق الله السموات والأرض وأن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة ثم دحى الأرض من تحتيها فهي سرة الأرض ووسط الدنيا وأم القرى.

1 ــ وقيل أن الملائكة بنت الكعبة لأول مرة ــ لذا كانت أول بيت في العالم.

2 ــ ثم بنى آدم أساس الكعبة بعد دثور ما ينته الملائكة حتى ساوى الأرض ــ وكان الناس يحجون إلى مكة وإلى موضع البيت قبل ابراهيم حتى بدا له الله مكانة.

3 ــ ثم بناها ابراهيم واسماعيل ثم انهدم بنا ابراهيم.

4 ـــ فبنت العمالقة من بعده.

5 ـــ ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم إلى أن كان زمان قصي.

6 ـــ ثم هدم قصي الكعبة بعد أن جمع نفقتها ثم بناها بنياناً لم ين مثله ممن بناها قبله أحد.

7 ـــ ثم احترقت الكعبة وأكثر أخشابها ودخلها سيل عظيم فجددت قريش بناءها عام605 م.

ابراهيم يبني الكعبة:

بعد ثلاث وعشرين سنة من مفارقه اسماعيل اشتاق إليه والده فسار للمرة الثالثة حتى لقيه وهناك أوصى الله إليه أن ابن البيت المحرم. فلم يدر ابراهيم في أي موضع يبني. ويروى أنه لما أراد ابراهيم البيت عرج به السماء. فنظر إلى مشارق الأرض ومغاربها وقيل له اختر فاختار موضع مكة. فقالت الملائكة: يا خليل الله اخترت موضع مكة وحرم الله في الأرض.

وقيل أرسل الله «السكينة» وهي ريح هفافة له وجه يتكلم وجناحان وفي رواية أخرى هي ريح حجود لها رأسان شبه الحية يتبع أحدهما صاحبه ومعها ملك يدلها على موضع البيت ـــ فأقبل ابراهيم على البراق يتبع السكينة حتى انتهت إلى مكة فتطوت على موقع البيت كتطوي الحية ـــ وأمر ابراهيم أن يبني حيث تستقر السكينة. فبناه وجعل أساسه من سبعة أجبل. وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى ابراهيم من تلك الجبال (اخبار مكة ـــ الحوت) ـــ وكان اسماعيل ينقل الحجارة أيضا وابراهيم الشيخ يبني حتى ارتفع البناء. وبقي حجر فذهب الغلام يبني. فقال ابراهيم لا! ابغي حجراً كما آمرك. فانطلق الغلام يلتمس له حجرا فأتاه به ـــ فوجده قد ركب الحجر الأسود في مكانه. فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر فقال ـــ أتاني به جبرائيل من السماء.

هذا الحجر الأسود الذي اختصمت على وضعه مكانه قبائل قريش لم يكن الحجر المقدس الوحيد في الكعبة فقد وجد بها أصنام وأوثان وأنصاب كثيرة بينها الـ 360 تمثالاً كما أن مقام ابراهيم كان منذ القدم حجر مقدساً قال تعالى «وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وآمنا» واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود (س البقرة 125:2).

يقول الازرقي عن ابن اسحق «ولما فرغ ابراهيم خليل الرحمن من بناء البيت الحرام جاء جبريل فقال: طف به سبعا ـــ فطاف به سبعا هو واسماعيل يستلمان الاركان كلها في كل طوف. فلما أكملا سبعا هو واسماعيل صليا خلف المقام ركعتين. قال فقام معه جبريل فأراه المناسك كلها الصفاة والمروة ومنا والمزدلفة وعرفة.

وبعد حصب ابليس وعرفان ابراهيم مناسكة كلها أمره أن يؤذن في الناس بالحج. فقال ابراهيم «يا رب ما يبلغ صوتي» فقال الله تعالى «اذن وعلي البلاغ!» فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبالِ وأطولها. فجمعت له الأرض سهلها وجبلها وبرها وبحرها وأنسها وجنها حتى اسمعها جميعاً. وكان قد وضع أصبعيه في أذنيه أقبل بوجهه يميناً وشمالاً وشرقاً وغرباً وـــ وبدا بشق اليمن فنادى (ابراهيم) أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم» فسمعه ما بين السماء والأرض سمع من في أصلاب

الرجال وأرحام النساء فأجابوه من تحت التخوم السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب في أقطار الأرض كلها ــ لبيك اللهم لبيك فكانت أول التلبية.

تزوج اسماعيل امرأة من جرهم، قيل أن طلقها لفظاظتها حسب وصية أبيه ابراهيم وتزوج أخرى فاستقامت عنده ــ وهكذا يتكاثر ولد اسماعيل وينتشرون كما انتشر دين أبيه الحنيفية في الحجاز وغيره من أماكن الجزيرة.

وبعد إسماعيل غلبت جرهم على ولاية البيت وطغت هنالك وبغت حتى أرسل الله الرعاف، وهو المطر الغزير واجتمعت على أجلاء من بقي منهم خزاعة وكانت هذه تقيم في تهامة. فخرج سيد جرهم يلتمس التوبة من الكعبة فلم تقبل إلى أن بيدت جرهم وخرج بمن بقي من جرهم إلى أرض جهينة فجاءهم سيل فذهب بهم أجمعين (ابن الاثير).

ويموت اسماعيل ويبقى الحج إلى مكة والطواف بالبيت وتعظيم مكة وتكر الأيام ويعفي الزمن شيئاً فشيئاً على هذا الدين وتأخذ تعود عبادة الأصنام تثبت بشدة بينهم، فما نشر عمرو بن حي أوثانه إلا وهم متهيئون لقبولها آلهة. يقول ابن اسحق «ويزعمون أنه أول ما كانت عبادة الحجارة في بني اسماعيل أنه لا يظعن في مكة ظاعن منهم حين ضاقت عليهم والتمسوا الفسح في البلاد إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيما للحرم. فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم بالكعبة حتى سلخ ذلك بهم إلى أن كانوا يعبدون بما استحسنوا من الحجارة حتى خلفت الخلوف ونسوا ما كانوا عليه واستبدلوا بدين ابراهيم واسماعيل غيره. فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات وفيهم على ذلك بقايا من عهد ابراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت والطواف به والحج والعمره والوقوف على عرفة والمزدلفة وهدي البدن والاهلال بالحج مع ادخالهم فيها ما ليس منه (محمد بن اسحق السيرة).

سدوم وعمورة:

كان أهل سدوم الذين فيهم لوط قوم سوء قد استغنوا عن النساء بالرجال فلما رأى الله ذلك منهم بعث الملائكة ليعذبوهم. فاتوا ابراهيم فلما بشروا سارة بالولد قاموا وقام ابراهيم معهم يمشي فقال أخبروني لم بعثتم ماخطبكم؟ فالوا إنا أرسلنا إلى قوم سدوم لندمرها فإنهم قوم سوء قد استغنوا بالرجال عن النساء. قال ابراهيم أرايتم إن كان فيهم خمسون رجلاً صالحاً؟ قالوا إذاً لا نعذبهم ولم يزل حتى قال «أهل بيت» قالوا فإن كان فيهم بيت صالح! قال لوط وأهل بيته؟ قالوا: إن امرأة لوط هواها معهم. فلما يئس ابراهيم انصرف ومضوا إلى سدوم.

فدخلوا على لوط. فلما رأتهم إمرأته أعجبها حسنهم وجمالهم فأرسلت إلى أهل القرية أنه قد نزل بنا قوم لم نر قدما قط أحسن منهم ولا أجمل! فتسامعوا بذلك فغشوا دار لوط من كل ناحية وتسوروا عليهم الجدارات. فلقيهم لوط فقال: يا قوم لا تفضحون في ضيفي. وأنا أزوجكم بناتي فهن أطهر لكم. فقالوا لو أننا نريد بناتك لقد عرفنا مكانهن ــ فقال: لو أن لي بكم قوة أو آوي إلى ركن شديد فوجد عليه الرسل فقالوا: إن ركنك لشديد وأنهم آتيهم عذاب غير مردود. مسح أحدهم أعينهم بجناحيه فطمس أبصارهم ــ فقالوا سحرا ــ انصرفوا بنا حتى نرجع اليه فادخل ميكائيل وهو

صاحب العذاب جناحه حتى بلغ أسفل الأرضين فقلبها فترلن حجارة من السماء فتتبعن من لم يكن منهم في القرية حيث كانوا فأهلكهم الله ونجى لوطا وأهله إلا امرأته.

لما أصبحوا غدا جبرائيل على قريتهم ففتقها من أركافها ثم أدخل جناحه ثم حملها على خوافي جناحه بما فيها ثم صعد بها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح كلاهم وأصوات ديوكهم. ثم قلبها ودمر بعضها على بعض جاعلاً عليها سافلها ثم أتبعتهم الحجارة وكانوا فيها أربعة آلاف ألف. فمن لم يمت حين سقط إلى الأرض أمطر الله عليه وهو تحت الأرض حجارة من سجيل. فأهلكها الله تعالى وما حولها من المؤتفكات وكن خمس قريات صبعه وصعره وعمره ودوما وسدوم هي القرية العظمى ونجى الله لوطا ومن معه من أهله إلا إمرأته كانت فيمن هلك.

وفاة ابراهيم خليل الله صلى الله عليه وسلم:

فلما أراد الله تبارك وتعالى قبض روح ابراهيم صلى الله عليه وسلم أرسل إليه ملك الموت في صورة شيخ هرم. فبعث إليه بحمار فركبه حتى إذا أتاه أطعمه فجعل الشيخ يأخذ اللقمة يريد أن يدخلها فاه فيدخلها عينه وإذنه ثم يدخلها فاه. فإذا دخلت جوفه خرجت من دبره. وكان ابراهيم قد سأل ربه عز وجل أن لا يفيض روحه حتى يكون هو الذي يساله الموت فقال للشيخ حين رأى من حاله ما رأى ــ ما بالك يا شيخ تصنع هذا؟ قال يا ابراهيم «الكبر». قال ابن كم أنت؟ فزاد على عمر ابراهيم سنتين. فقال ابراهيم إنما بيني وبينك سنتان فإذا بلغت ذلك صرت مثلك! قال نعم. قال ابراهيم اللهم اقبضني إليك قبل ذلك. فقام الشيخ فقبض روحه ــ وكان ملك الموت.

ولما مات ابراهيم عليه السلام كان موته وهو ابن مئتي سنة وقيل ابن مئة وخمس وسبعين سنة ــ دفن عند سارة في مزرعة حبرون. وكان مما انزل الله تعالى على ابراهيم عليه السلام من الصحف فيما قيل عشر صحائف.

وقد أنزل الله مئة كتاب وأربع كتب ــ أنزل الله عز وجل على آدم عليه السلام عشر صحائف وعلى شيت خمسين صحيفة وأنزل على خنوخ ثلاثين صحيفة. وأنزل على ابراهيم عشر صحائف. وأنزل جل وعز التوراة والانجيل والزبور والفرقان وكانت صحف ابراهيم امثالاً كلها.

ومن المعلوم أن الكتابة التصويرية قد بدأت نحو 3500 ق.م ثم كانت الكتابة المسمارية في عصر ابراهيم على ألواح الآجر وبدء بقراءهٓا منذ نحو مئة سنة فقط. غير أن هناك كتبا غنوصية تنسب إلى ابراهيم منها ــ «سفر يرزع» (كتاب الخلق) العائد إلى القرن 3م و«عهد ابراهيم» القرن 1 م و«رؤيا ابراهيم» القرن 1 م. فهل هذه هي صحف ابراهيم؟

قصة أهل الكهف

(النيام السبعة في أفسس)

أفسس مدينة إيونية أسسها الأغريق نحو عام 600 ق.م على ساحل بحر إيجه وأصبحت مركزاً مالياً وتجارياً كبيراً منذ القرن السادس ق.م ولا تزال خرائبها قرب قرية سلجوق الحالية في ولاية ازمير (سميرنا).

عُبدت فيها الآلهة أرطاميس وهناك بنى كروسوس ملك ليديا «معبد أرطاميس» نحو عام 550 ق.م وكان عظيماً بحجمه الذي بلغ 110×55 م وبالأعمال الفنية التي جملته فاعتبر إحدى «عجائب الدنيا السبع» ـــ ثم أحرقه رجل افسسي مغمور اسمه «أريستراتوس» عام 356 ق.م ليصبح شهيراً وأعيد بناؤه وبقي إلى أن دمره الغزاة القوط (Gaths) عام 262 م ولم يبنى بعد ذلك. فاندثر واختفت آثاره إلى أن اكتشفه المنقبون عام 1869. غير أن أرطاميس أفسس لم تعبد كآلهة صيادة بالمفهوم اليوناني بل ممثلة لقوة النبت في الأرض. فكانت تماثيلها بزي إمرأة لها أثداء كثيرة وإلى جانب أرطاميس الأفسسيين كان هناك حجر نيزكي (حجر أسود) يعبد.

خضعت المدينة لكوروش الفارسي ثم أسهمت في الثورة الايونية (500–493 ق.م). وفي عام 478 أثناء انسحاب أحشو بروش الفارسي من بلاد اليونان سلب المزارات لكنه أكرم الالهة ارطاميس. بعد ذلك خضعت لأثينا وساهمت في الثورة ضدها عام 412 ق.م وحالفت اسبارطة حتى نهاية الحروب الايونية.

احتلها الاسكندر الكبير عام 333 ق.م وعندما هزم السوريون بقيادة انطيوخوس 3 أمام الرومان في معركة مغنيزيا عام 190 ق.م الحقها الرومان بمملكة برغاموم. ثم تبعت روما عام 133 ق.م ثم ثارت وقتلت الحامية الرومانية عام 88 ق.م واستعاد الرومان السيادة عليها عام 86 ق.م واصبحت المدينة الأولى في آسيا الصغرى في عهد أوغسطس قيصر (31 ق.م ـــ 14م).

دخلها التبشير المسيحي وأسس بولس الرسول كنيستها عام 54 م وأقام فيها يوحنا الانجيلي ومعه مريم العذراء. وحسب العقيدة المحلية فإن العذراء عاشت ايامها الأخيرة وماتت هناك. وكانت كنيسة أفسس إحدى الكنائس السبعة التي وجهت إليها رؤيا يوحنا اللاهوتي كما وجهت إليها إحدى رسائل بولس.

ثم دمرها القوط مع معبدها عام 262 م ولم تعد بعد ذلك إلى سابق عظمتها وعقد فيها مجمع مسكوني عام 431 في كنيسة العذراء وأدينت فيه النسطورية برئاسة فورلس الاسكندري وأعلنت العذراء «أم الله». وأن المسيح أقنوم واحد.

ثم قيل أن النيام السبعة أفاقوا بعد بضعة سنين من ذلك المجمع وماتوا فأصبحوا شيئاً جديداً للتقديس لدى المسيحيين وانتقل تقديسهم إلى المسلمين فيما بعد ولا تزال من بقايا آثار المدينة كنيسة النيام السبعة وإلى الشرق منها كنيسة العذراء التي التام فيها المجمع.

احتل السلاجقة أفسس البيزنطية عام 1090 وكانت آنذاك بلدة صغيرة ثم هجرت البلدة في القرن 14م وأصبحت خرائب تثير اهتمام منقبي الآثار والسياح.

النيام السبعة في كهف أفسس:

هم أبطال حكاية تبرهن قيامة الموتى لاقت رواجاً هائلاً في القرون الوسطى بين مسيحيي الشرق والغرب وبين المسلمين أيضاً.

وحسب القصة اختبأ سبعة جنود مسيحيين من اضطهاد الامبراطور الرومايي ديقيوس (248-251) عام 250 م في كهف بالقرب من مدينة أفسس. ولم يلبثوا أن غرقوا في نوم عجيب أفاقوا منه في عهد الامبراطور ثيودوسيوس 2 (408-450) اي أنهم ناموا نحو مئتي سنة وقاموا مبرهنين صحة «عقيدة قيامة الموتى» ثم ماتوا قديسين. وتعود القصة إلى القرن 5م ودخلت الميثولوجيا روايات قصتهم في اللغات اليونانية والسريانية واللاتينية والقبطية والأرمنية والحبشية والجورجية. واصبح مقام النيام السبعة قرب أفسس يجتذب السياح المسيحيين والمسلمين على السواء ـ ويعيد اللاتين لذكراهم في 27 تموز بينما يعيد الشرقيون من 2 آب و22 تشرين أول. كما كرمهم القرآن الكريم بالسورة 18 المسماة «سورة الكهف مكية» (آية 9-25) «أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا ائتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً. وفضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً. ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا. نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن تدعوا من دونه الها لقد قلنا شططا ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها.. ولبثوا في كهفهم ثلاث مئة سنين وازداد تسعا».

هذه الحكاية الكنسية تبناها القرآن في سورة الكهف دون إعطاء اسماء تاريخية وتواريخ فجاء الشيخ محمد رضا الحكيمي يتوسع فيها في كتابه «سلوني قبل أن تفقدوني» فرواها كما يلي دون اعتبار للتاريخ: «كان بأرض رومية مدينة يقال لها «أفسوس» ويقال لها «طرطوس» وكان اسمها في الجاهلية أفسوس فلما جاء الاسلام سموها «طرطوس» وكان لهم ملك صالح فمات ملكهم وانتشر أمرهم فسمع به ملك من ملوك فارس يقال له دقيانوس وكان جبارا كافراً فأقبل في عساكر حتى أفسوس فاتخذها دار ملكه وبنى فيها قصراً.

كان قصراً من الرخام طوله فرسخ وعرضه فرسخ. واتخذ فيه أربعة آلاف أسطوانة من الذهب وألف قنديل من الذهب لها سلاسل من اللجين تسرج كل ليلة بالأدهان الطيبة. واتخذ لشرقي المجلس مائة وثمانين قوة ولغربيه كذلك. وكانت الشمس من حين تطلع إلى حين تغيب تدور في المجلس كيفما دارت. واتخذ فيه سريراً من الذهب طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً مرصعاً بالجواهر. ونصب على يمين السرير ثمانين كرسياً م الذهب فاجلس عليها بطارقته واتخذوا أيضاً ثمانين كرسياً من الذهب عن يساره فاجلس عليها هراقلته ثم جلس هو على السرير ووضع التاج على رأسه.

كان تاجه من الذهب السبيك له تسعة أركان على كل ركن لؤلؤة تضيء كما يضيء المصباح في الليلة الظلماء. واتخذ خمسين غلاما من أبناء البطارقة فمنطقهم بمناطق الديباج الأحمر وسرولهم بسراويل القز الأخضر. وتوجهم ودملجهم وخلخلهم وأعطاهم

عمد الذهب وأقامهم على رأسه. واصطنع ستة غلمان من أولاد العلماء وجعلهم وزراءه فما يقطع أمراً دونهم وأقام منهم ثلاثة عن يمينه وثلاثة عن شماله.

وكانت أسماء الذين عن يمينه تمليخا ومكسلمينا ومحلسلمينا وأما الذين كانوا عن يساره فمرطليوس وكسطوس وسادنيوس وكان يستشيرهم في جميع أموره.

وكان إذا جلس كل يوم في صحن داره واجتمع الناس عنده دخل من باب الدار ثلاثة غلمة في يد أحدهم جام من الذهب مملوءمن المسك وفي يد الثاني جام من فضة مملوء من ماء الورد وعلى يد الثالث طائر فيصيح به فيطير الطائر حتى يقع في جام ماء الورد فيتمرغ فيه فينشف ما فيه بريشه وجناحيه. ثم يصيح به الثاني فيطير فيقع في جام المسك فيتمرغ فيه فيطسف ما فيه بريشه وجناحيه فيصيح به الثالث فيطير فيقع على تاج الملك فينفض ريشه وجناحيه على رأس الملك بما فيه من المسك وماء الورد. فمكث الملك في ملكه ثلاثين سنة من غير أن يصيبه صداع ولا وجع ولا حمى ولا لعاب ولا بصاق ولا مخاط. فلما رأى ذلك في نفسه عتا وطغى وتجبر واستعصى وادعى الربوبية من دون الله تعالى ودعى إليه وجوه قومه فكل من أجابه أعطاه وحباه وكساه وخلع عليه ومن لم يجبه ويبايعه قتله. فأجابوه بأجمعهم فأقاموا في ملكه زماناً يعبدونه من دون الله تعالى.

وبينما هو ذات يوم جالس في عيد له على سريره والتاج على رأسه إذ أتى بعض بطارقته فأخبره أن عساكر الفرس قد غشيته يريدون قتله. فاغتم لذلك غماً شديداً حتى سقط التاج عن رأسه وسقط هو عن سريره. فنظر أحد فتيته الثلاثة الذين كانوا عن يمينه إلى ذلك وكان عاقلاً يقال له تمليخا. فتفكر وتذكر في نفسه وقال: «لو كان دقيانوس هذا الهاكما يزعم لما حزن ولما كان ينام ولما كان يبول ويغوط وليست هذه الأفعال من صفات الاله. وكانت الفتية الستة يكونون كل يوم عند واحد منهم وكان ذلك اليوم نوبة تمليخا فاجتمعوا عنده فأكلوا وشربوا ولم يأكل تمليخا ولم يشرب. فقالوا يا تمليخا مالك لا تأكل ولا تشرب؟ فقال إخواني قد وقع في قلبي شيء منعني عن الطعام والشراب والمنام. فقالوا وما هو يا تمليخا؟ فقال: أطلت فكري في هذه السماء. فقلت — من رفعها سقفا محفوظاً بلا علاقة من فوقها ولا دعامة من تحتها؟ وما أجرى فيها شمسها وقمرها؟ ومن زينها بالنجوم؟ ثم أطلت فكري في هذه الأرض من سطحها على ظهر اليم الزاخر ومن حبسها وربطها بالجبال الرواسي لئلا تميد. ثم أطلت تفكيري في نفسي فقلت: من أخرجني جنيناً من بطن أمي، ومن غذائي ورباني؟ إن لهذا صانعاً ومدبراً سوى دقيانوس الملك!!

فانكبت الفتية على رجليه يقبلونهما وقالوا: يا تمليخا: لقد وقع في قلوبنا ما وقع في قلبك فأشر علينا. فقال: يا أخواني ما أجد لي ولكم حيلة إلا الهرب من هذا الجبار إلى ملك السماوات والأرض. فقالوا الرأي ما رأيت! فوثب تمليخا فأبتاع تمراً بثلاثة دراهم وسرها في ردائه وركبوا خيولهم وخرجوا فلما ساروا قدر ثلاثة أميال من المدينة قال لهم تمليخا: يا إخوتاه: قد ذهب عنا ملك الدنيا وزال عنا أمره فانزلوا عن خيولكم وامشوا على أرجلكم لعل الله يجعل من أمركم فرجا ومخرجا.

فنزلوا عن خيولهم ومشوا على أرجلهم سبع فراسخ حتى صارت أرجلهم تقطر دما لأنهم لم يعتادوا المشي على أقدامهم. فاستقبلهم رجل راع فقالوا: أيها الراعي أعندك شربة ماء أو لبن؟ فقال: عندي ما تحبون ولكني أرى وجوهكم وجوه الملوك وما أظنكم

إلا هراباً فأخبروني بقصتكم! فقالوا: هذا هذا إنا دخلنا في دين لا يحل لنا الكذب أفينجينا الصدق؟ قال: نعم فأخبروه بقصتهم. فانكب الراعي على أرجلهم يقبلها ويقول قد وقع في قلبي ما وقع في قلوبكم فقفوا إلي ههنا حتى أرد الأغنام إلى أربابها وأعود إليكم. فوقفوا له حتى ردها وأقبل يسعى فتبعه كلب له.

كان الكلب أبلق بسواد وكان اسمه «قطمير» فلما نظر الفتية إلى الكلب قال بعضهم لبعض إنا نخاف أن يفضحنا هذا الكلب بنبيحه فألحوا عليه طردا بالحجارة فلما نظر إليهم الكلب وقد ألحوا عليه بالحجارة والضرب أقعى على رجليه وتمطى وقال بلسان طلق زلق، يا قوم لم تطردونني وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له دعوني أحرسكم من عدوكم وأتقرب بذلك إلى الله سبحانه وتعالى. فتركوه ومضوا فصعد بهم الراعي جبلا وانحط بهم أعلى كهف.

كان اسم الجبل «ناجلوس» واسم الكهف«الوصيط» وقيل «خيرم» وإذا بفناء الكهف أشجار مثمرة وعين غزيرة. فأكلوا من الثمار وشربوا من الماء وجنهم الليل فآووا إلى الكهف وربض الكلب على باب الكهف ومد يديه عليه. وأمر الله ملك الموت فقبض أرواحهم ووكل الله تعالى بكل رجل منهم ملكين يقلبانه من ذات اليمين إلى ذات الشمال ومن ذات الشمال إلى ذات اليمين وأوصى الله تعالى إلى الشمس فكانت تزاور عن كهفهم ذات اليمين إذا طلعت وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال. فلما رجع الملك دقيانوس من عيده سأل عن الفتية فقيل له: إنهم اتخذوا إلها غيرك وخرجوا هاربين عنك. فركب في ثمانين ألف فارس وجعلوا يقفوا آثارهم حتى صعدالجبل وشارف الكهف فنظر إليهم مضطجعين فظن أنهم نيام. فقال لأصحابه. لو أردت أن أعاقبهم بشيء ما عاقبتهم بأكثر مما عاقبوا به أنفهسم. فآتوني بالبنائين فأتي بهم فردموا عليهم باب الكهف بالجبس والحجارة ثم قال لأصحابه: قولوا لهم يقولوا لإلههم الذي في السماء إن كانوا صادقين يخرجهم من هذا الموضع!

فمكثوا ثلاثمئة وتسع سنين ــ فنفخ الله فيهم الروح وهبوا من رقدتهم كما بزغت الشمس، فقال بعضهم لبعض: لقد غفلنا هذه الليلة عن عبادة الله تعالى قوموا بنا إلى العين. فإذا بالعين قد غارت والأشجار قد جفت فقال بعضهم لبعض، أنا في أمرنا هذا لفي عجب مثل هذه العين قد غارت في ليلة واحدة، ومثل هذه الأشجار قد جفت في ليلة واحدة. فألقى الله عليهم الجوع فقالوا: أيكم يذهب بورقكم هذه إلى المدينة فليأتنا بطعام منها ولينظر أن لا يكون من الطعام الذي يعجن بشحم الخنازير وذلك قوله تعالى: «فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاما» أي حل وأجود وأطيب. فقال لهم تمليخا: يا إخوتي لا يأتيكم أحد بالطعام غيري ولكن أيها الراعي ادفع لي ثيابك وخذ ثيابي. فلبس ثياب الراعي ومر وكان يمر بمواضع لا يعرفها وطريق ينكرها حتى أتى باب المدينة فإذا عليه علم أخضر مكتوب عليه: «لا إله إلا الله عيسى روح الله صلى الله على نبينا وعليه وسلم» فطفق الفتى ينظر إليه ويمسح عينيه ويقول: «أراني نائما فلما طال عليه ذلك دخل المدينة فمر بأقوام يقرأون الانجيل واستقبله أقوام لا يعرفهم حتى انتهى إلى السوق فإذا هو بخباز فقال له: يا خباز ما اسم مدينتك هذه!؟ قال: أفسوس قال وما اسم ملككم؟ قال: «عبد الرحمن» قال تمليخا إن كنت صادقاً فإن أمري عجيب. ادفع لي بهذه الدراهم طعاما! وكانت دراهم ذلك الزمان الأول ثقالاً كباراً فعجب الخباز من تلك الدراهم وكان وزن كل درهم عشرة دراهم وثلثا درهم. فقال له الخباز: يا هذا إنك قد أصبت كنزا فأعطني بعضه وإلا ذهبت

بك إلى الملك». فقال تمليخا ما أصبت كنزا وإنما هذا من ثمن ثمر بعته بثلاثة دراهم منذ ثلاثة أيام وقد خرجت من هذه المدينة وهم يعبدون دقيانوس الملك.

فغضب الخباز وقال: ألا ترضى إن أصبت كنزا أن تعطيني بعضه حتى تذكر رجلاً جباراً كان يدعي الربوبية قد مات منذ ثلاثمئة سنة وتسخر بي؟ ثم أمسكه واجتمع الناس ثم إنهم أتوا به إلى الملك. وكان عاقلاً عادلاً فقال لهم: «ما قصة هذا الفتى» قالوا أصاب كنزاً. فقال الملك لا تخف إن نبينا عيسى أمرنا أن لا نأخذ من الكنوز إلا خمسها فادفع إلي خمس هذا الكنز وامضي سالماً!.

فقال: أيها الملك تثبت في أمري ما أصبت كنزاً وإنما أنا من أهل هذه المدينة. فقال له: أنت من أهلها؟ قال نعم. قال أفتعرف فيها أحداً؟ قال نعم. قال فسم لنا. فسمى له نحوا من ألف رجل فلم يعرفوا منهم رجلاً واحداً. قالوا يا هذا ما نعرف هذه الأسماء وليست هي من أهل زماننا ولكن هل لك في هذه المدينة داراً؟ فقال نعم أيها الملك فابعث معي أحداً. فبعث معه الملك جماعة حتى أتى بهم دارا أرفع دار في المدينة وقال «هذه داري» ثم قرع الباب فخرج لهم شيخ كبير قد استرخى حاجباه من الكبر على عينيه وهو فرع مرعوب مذعور فقال: أيها الناس ما بالكم؟ فقال له رسول الملك: إن هذا الغلام يزعم أن هذه الدار داره: فغضب الشيخ والتفت إلى تمليخا وتبينه وقال له ما اسمك؟ قال: تمليخا بن غلسين: فقال له الشيخ: أعد علي فأعاد عليه. فانكب الشيخ على يديه ورجليه يقبلهما وقال: «هذا جدي ورب الكعبة» وهو أحد الفتية الذين هربوا من دقيانوس الملك الجبار إلى جبار السموات والأرض. ولقد كان عيسى أخبرنا بقصتهم وأنهم مسيحيون. فأنهى ذلك الملك وأتى إليهم وأحضرهم. فلما رأى الملك تمليخا نزل عن فرسه وحمل تمليخا على عاتقه فجعل الناس يقبلون يديه ورجليه ويقولون له: «يا تمليخا ما فعل بأصحابك؟ فأخبرهم أنهم في الكهف وكانت المدينة قد وليها رجلان ملك مسلم وملك نصراني فركبا في أصحابهما وأخذا تمليخا. فلما صاروا قريباً من الكهف قال لهم تمليخا: يا قوم إني أخاف أن أخوتي يحسون بوقع حوافر الخيل والدواب وصلصلة اللجم والسلاح فيظنون أن دقيانوس قد غشيهم فيموتون جميعا قفوا قليلاً حتى أدخل إليهم فأخبرهم. فوقف الناس ودخل عليهم تمليخا فوثب إليه الفتية. واعتنقوه. وقالوا الحمد لله الذي نجاك من دقيانوس! فقال دعوني منكم ومن دقيانوس كم لبثتم؟ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم. قال: بل لبثتم ثلاثمئة وتسع سنين وقد مات دقيانوس وانقرض قرن بعد قرن وآمن أهل المدينة بالله العظيم وقد جاركم. فقالوا يا تمليخا: تريد أن تصيرنا فتنة العالمين؟ قال فماذا تريدون؟ قالوا: ارفع يدك ونرفع أيدينا فرفعوا أيديهم وقال: اللهم بحق ما أديتنا من العجائب في أنفسنا إلا قبضت أرواحنا ولم يطلع علينا أحد! فأمر الله ملك الموت فقبض أرواحهم وطمس الله باب الكهف وأقبل الملكان يطوفان حول الكهف سبعة أيام فلا يجدان له باباً ولا منفذ ولا ملكا ـ فأيقنا حينئذ بلطيف ما صنع الله الكريم وأن أحوالهم كانت عبرة اراهم الله إياها.

فقال المسلم: على ديني ماتوا وأنا ابني على باب الكهف مسجداً.

وقال النصراني: بل ماتوا على ديني فأنا ابني على باب الكهف ديرا

فاقتتل الملكان فغلب المسلم النصراني فبنى على باب الكهف مسجداً فذلك قوله تعالى: «قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً!» (21)

الزهرة

الزهرة كوكب سيار هو الثاني في النظام الشمسي ويقع ما بين عطارد (Mercury) والأرض في مدار دائري تقريباً حول الشمس، وتبعد الزهرة وسطياً عن الشمس 67200.000 ميل أي نحو 108 ملايين كم. وتبتعد عن الأرض حتى 160 مليون ميل وتقترب حتى 26 مليون ميل.

وكوكب الزهرة شديد اللمعان ويأتي بذلك ثالثاً بين الأجرام السماوية بعد الشمس والقمر نراها مساء باسم نجمة المساء وتكون في الغرب وتسميها اليونان «Hesperus» كما نراها صباحاً في الشرق ونسميها نجمة الصبح ويسميها اليونان « Phosphorus » أو « Lucifer ».

عندما قام قدماء المصريين بقياس السنة الشمسية عرفوا أنها 365.25 كما عرفوا أن عطارد والزهرة يدوران حول الشمس. غير أن الكلدانيين هم أول من درس السماء وزاول علم الهيئة، وكانوا مولعين بعلم التنجيم لكشف أسرار الغيب قبل أن يتحول التنجيم إلى علم للفلك (Asrrology Astronomy) وكانت هياكلهم للعبادة كما لمراقبة الأجرام. فكانوا أول من أوجدوا خريطة للأجرام السماوية. وبسبب عقيدتهم الدينية كانوا يعبدون الكواكب ويزعمون أنها هي المدبرة لهذا العالم ومنها تصدر الخيرات والشرور والسعادة والنحس ويستحدثون الخوارق بواسطة تمزيج القوى السماوية بالقوى الأرضية. وقد سار من سبقهم ومن جاء بعدهم على التنجيم وعبادة الكواكب وكانت الزهرة من معبودات جميع الشعوب الهة للحب والجمال والتوالد والحرب. وفي غيابها وفق بعض الملاحم تنعدم غريزة الجنس بين الحيوانات كما بين البشر وإذا حضرت عادت الغرائز والممارسات حتى الفحش باسم ممارسة طقوس الخصب.

عرفها السومريون باسم «إنانا» والبابليون باسم «عشتار» والكنعانيون باسم «عشتروت» واليونان باسم «افروديت» والرومان باسم «فينوس» ومثلت امرأة عارية مكتملة الجمال في أوضاع شتى.

وقد عبد العرب كوكب الزهرة أيضاً وعرفت باسم عتر نجمة السماء أوالسماء أما نجمة الصبح فشاع اسمها «العزى». وكلمة العزى تعني الكلية القدرة وكانت أعظم الأصنام عند قريش ويدعي ابن الكلبي أن قريشاً كانت حينما تطوف بالكعبة تقول.

«واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى فإنهن الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجي».

ويلاحظ الجمع بين الآلهات الثلاث كما يلاحظ الشبه بين هذا الاهلال وبين ما ورد في سورة النجم مكية — «افرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى».

والزهرة اليوم تخضع لعلم الفلك ونعلم أن حجمها يقارب حجم الأرض لأن قطرها يساوي 95% من قطر الأرض وليس لها تابع قمري ولا حقل مغناطيسي ولا حزام

إشعاعي. والضغط الجوي 90 ضعف ضغط جو الأرض ويتكون من 80% ثاني أوكسيدالفحم يضاف إلى CO2 كميات هامة من حمض الكبريت ـ لذلك جو الزهرة سام لا يصلح لحياة الكائنات الأرضية. وتركيب هذا الجو يحافظ على الحرارة مثل البيوت الزجاجية فتصل الحرارة على سطح الزهرة إلى 900 درجة فاهرنهايت أي نحو 485 درجة مئوية وهذه الحرارة لا تسمح بوجود الماء السائل لذا يوجد بعض البخار فقط. وقد أرسلت عدة مراكب فضائية سوفيتية 1975 و 1982 وأرسلت صورا بالأسود والأبيض 1975 ثم صورا ملونة 1982 وأمريكية للتصوير والمسح الزاداري وسبر غلافها الجوي. ويوم الزهرة يساوي 243 يوماً أرضياً وهي المدة التي صورت فيها مركبة الفضاء الامريكية الكوكب منذ 17 آب 1990. وتبين أن سطح الكوكب خشن وليس فيه ماء بل منخفضات لو امتلأت بالماء لكانت بحاراً وهضاب تمثل قارتين واحدة في القسم الجنوبي بحجم أفريقيا سميت «أرض أفروديت» وأخرى في المنطقة الشمالية بحجم أوستراليا سميت «أرض عشتار».. و20% من الأراضي منخفضة و 10% جبال أعلاها جبال ماكسويل وتبلغ ذروتها، 35 ألف قدم أي أعلى من جبل أفرست (عن سطح البحر) بـ 20% وهناك فوهات كثيرة من ارتطام النيازك والمذنبات بسطح الكوكب كما توجد رياح ـ ويعاكس كوكب الزهرة الأرض في اتجاه الدوران فهو يدور بعكس عقارب الساعة أي من الشرق إلى الغرب بينما الأرض تدور وفق عقارب الساعة (من الغرب إلى الشرق).

ورغم المعلومات العلمية تظل القصص الميثولوجية بجاذبيتها وخيالها هامة في عالم العقائد والغيبيات لدى بسطاء الناس في كل العالم الذين لا يزعجون أدمغتهم بالأرقام والمعلومات الجافة. وقد حاك العرب قصة حول وجود الزهرة وعلاقتها بملاكين هما «هاروت وماروت».

وفي الميثولوجيا الأرمنية يذكر هاروت وماروت معا ـ اثنان من جنة الخصب يعاونان الهة الأرض سباندرامت (Spendaramt) وقد دخلا معاً في الميثولوجيا العربية وذكرا في القرآن الكريم. بينما في الميثولوجيا الهندية «الماروت» أعوان الاله الخالق إندرا (Indra) يركبون الغيوم فيهطلون الأمطار وأدخل عبادة ماروت إلى بابل الكاشيون (1595 – 1162 ق.م) باسم ماروتاش بالإضافة إلى سوريا (سورياش) وبورياس(بورياش) عن الديانة الآرية في الهند.

وقد أتت الآية 102من سورة البقرة «واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ـ يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملاكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان الخ. وتتلخص قصة فتنة الزهرة لهذين الملاكين كما يلي في الميثولوجيا عند العرب للاستاذ الحوت.

هاروت وماروت

لما وقع الناس من بعد آدم في الضلال شرعت الملائكة تطعن في أعمالهم فأراد الله أن يبتلي الملائكة أنفسهم. فأمرهم باختيار ملكين من أعظم الملائكة علماً وزهداً وديانة ـ فاختاروا هاروت وماروت واهبطا إلى الأرض بعد أن ركبت بهما شهوات الأنس وأمرا

أن يعبدا الله ولا بشركاية أحدا، ونهيا عن قتل النفس والزنا وشرب الخمر وغير ذلك من المعصيات.

وفي الأرض عرضت لهما امرأة وهي الزهرة وبالنبطية تسمى «بيدخت» (وفي القبطية بادخت) جميلة كالزهرة بين الكواكب، فغلبت عليهما الشهوة فاقبلا عليها وراوداها فأبت إلا أن يكونا على أمرها ودينها وأخرجت لهما صنما يعبدانه ويسجدان له. فامتنعا وصبرا ردحا ثم أتياها وراوداها على نفسها، فأبت ثانية واشترطت عليهما إحدى ثلاث: ـ إما عبادة الصنم أو قتل النفس أو شرب الخمر، فقالا كل ذلك لا ينبغي. ثم احتدمت بهما الشهوة فآثرا أهون المطاليب وهو شرب الخمر فسقتهما حتى إذا أخذت الخمرة منهما وقعا بالزهرة! وهنا يمر بهما إنسان فيخشيان الفضيحة فيقتلانه!

ويشاآن الصعود إلى السماء بعد أن عرفا وقوعهما في الخطيئة فلا يستطيعان ويكشف الغطاء بينهما وبين أهل السماء فتنظر الملائكة إلى ما وقعا فيه من الذنب فيعجبون كل العجب. ويأخذون بالاستغفار لمن في الأرض من البشر!!

ويروى أنها طلبت منهما تعليمها الكلام الذي يصعدان به إلى السماء.. فعلماها وعرجت به إلى السماء... وهناك نسيت ما تنزل به فبقيت مكانها وجعلها الله ذلك الكوكب الجميل!!

وأما هاروت وماروت فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا لأنه ينقطع. فجعلا ببابل يعذبان منكوسين في بئر إلى يوم القيامة.

(الحوت عن الطبري والنيسا بوري).

المصادر

- Encyclopedia Britannica		7019
- Histry of Syria	Philip K. Hitti	
- History of the Arabs	Philip K. Hitti 1970	
- The International Standard Bible Encyclopeder		3019
- Civilsations past and present	Taylot	5419
- Bible Hand book	H.H. Hally	6519
- Ancient Myths	N. Goodrich	6019
-Mythology	E. Hamilton	6419
- Middle Eastern Mythology	S.H. Hooke	7119
- Ancient Iraq	Georges Roux	6419
- Gods, Graves, Scholors	C.W.Ceram	7219
- History begins at Sumer	S.V.Kramer	5919
- The ancient NEAR East	J.P	7119
- Digging up the past	S.L.Woolley	6719
- The worte on clay	E. Chiera	6419
- The Epic of Gilgamesh	N.K.Sandars	7219
- How we Got out Bible		
- The Nag Hammad, Gnostic Texts	Helmhold	6719
- Dela phenicie	J. Chami	6719
- Legendes de Canan de Babylone	Ch. Virolleand	

- منهج البحث التاريخي — الدكتور حسن عثمان
- الحضارات السامية القديمة — سبتيمو موسكاتي ، ترجمة يعقوب بكر
- من ألواح سومر — ص.ن كريمر ـــ ترجمة طه باقر
- أغاريت — الشيخ نسيب وهبة الخازن
- رأس شمرا والعهد القديم — أدمون جاكوب ـــ ترجمة جورج كوسى
- مع الكلمة الصافية — قاسم الشواف
- تاريخ الشرق الأدنى القديم — أنطون مورتكات، ترجمة سليمان أبو عساف

- أدب اللغة الآرامية — الأب ألبير أبونا
- تاريخ الفلسفة العربية — حنا الفاخري وخليل الجر
- الكنز المرصود في قواعد التلمود — يوسف حنا نصر الله
- التلمود — ظفر الإسلام خان
- التوراة — ترجمة سهيل ديب
- القرآن دعوة نصرانية — الأستاذ
- فجر المسيحية — رابطة الكتّاب المسيحين 1956
- مصادر الإسلام — سنكلير تسدل
- صلة القرآن باليهودية والمسيحية — فلهلم رودولف ــ ترجمة ع. ناصيف
- ثمن إسرائيل — الفريد ليلينتال
- الحضارات — لبيب عبد الساتر
- لبنان والبلدان المجاورة — جواد بولس
- النهج القيم في التاريخ القديم — هارفي بورتر
- العهد القديم
- العهد الجديد
- القرآن
- أديان العرب قبل الإسلام — الأب جرجس داود داود
- تاريخ العرب في الإسلام — د. جواد علي
- الفولكلور والأساطير العربية — شوقي عبد الحكيم
- الملل والنحل — الشهرستاني
- مقدمة أضواء على مسلك التوحيد (الدرزية) — كمال جنبلاط
- كنيسة مدينة الله أنطاكية العظمى — الدكتور أسد رستم
- الشرق الأدنى القديم — د. نجيب إبراهيم
- تاريخ الأمم والملوك — محمد الطيري
- الميثولوجيا عند العرب — محمود سليم الحوت
- سلوني قبل أن تفقدوني — الشيخ محمد رضا الحكيمي

الهوامش

هوامش الفصل الأول

أفلاطون (427-345ق.م): ـ فيلسوف اثيني، أعظم تلامذة سقراط، أحد «قبب المعرفة» و«الحكيم الإلهي» الذي ما زال تأثير على الفكر منذ 2400 عاماً. تحدر من النبلاء عن طريق أبيه وأمه وشجعه الرجعيون على خوض غمار السياسة فرفض وفضل التريث. آمن بالديمقراطية ولما حكم ظلماً على سقراط اقتنع «بأن لا مكان للرجل صاحب الضمير في السياسة العملية» وانقلب ضد الديمقراطية الاثينية وقال ـ «الارستقراطية» أي حكم النخبة، وهذا ما يعادل الديموقراطية البرلمانية إن لم تزيف.

وأفلاطون أول كاتب «اشتراكي» وأول من وضح قضية «النضال الطبقي» فيقول «العدالة أدب استنبطع الضعفاء ليعدلوا به قوة الأقوياء «ولذا فلا عدالة إن لم يتبنى الأقوياء قضيتها. وإن «كل مدينة هي في الواقع مدينتان، مدينة الأغنياء ومدينة الفقراء. كل منهما في حرب مع الأخرى «وبذلك يكون أفلاطون أول مدافع عن الديمقراطية السياسية مقترنة بالديمقراطية الاجتماعية. كما يحاول تقديم الحلول لإيجاد القدولة المثلى حيث رجال الصناعة ينتجون ولا يحكمون ورجال الجيش يحمون الدولة ولا يحكمون، ورجال المعرفة والعلم والفلسفة يطعمون ويُكْسَون ويحمون ليحكموا لأن الناس إن لم يهدهم العلم كانوا جمهوراً من الرعاع من غير نظام أمام الشهوات وقد أطلق لها العنان. وأن «الملك الفيلسوف» هو الرجل الوحيد الجدير بقيامة أمة».

والاستبداد في رأي أفلاطون هو اغتصاب السلطة من أناس غير مؤهلين يحكمون دون شعور بالمسؤولية وربما بقصد إجرامي بحق الوطن والشعب. كما ينادل أفلاطون بالاعتدال لأن في كل شيء تناقضاته الداخلية، والتطرف يقود إلى التطرف المعاكس.

لقد أسس أفلاطون نحو 387ق.م «الأكاديمية» لمتابعة البحث الفلسفي والعلمي وكانت أول جامعة في التاريخ. تضمن برنامجها الرياضيات والديالكتيك والعلوم الطبيعية والتحضير للعمل السياسي ودامت حتى 529م.

لقد ترك 39 مؤلفاً كتبها خلال خمسين عاماً وجميعها على شكل حوار. وبعض أشخاص الحوار تاريخيون وغيرهم لا. ولا ندري كم من أقواله اليت رويت على لسان سقراط أو غيره هي في الحقيقة فلسفته الخاصة أم فلسفة ورأي الشخص المذكور. واشتراكيته ذات دافع أخلاقي. في كتاب «فيديو» يبحث أفلاطون في خلود النفس ليبرر الإيمان بالخلود لأن الروح هي الجزء الإلهي وتبقى حية بعد الكوت لأنها إلهية. كما آمن بأن الحوادث الطبيعية دورية. فلم لا يعيش الأموات كما يموت الأحياء وبذلك آمن بالتقمص وأن التعلم هو في الحقيقة استعادة ذاكرة.

وفي كتاب «الجمهورية» يعالج مشاكل ما زالت عالقة في المجتمع الإنساني، فيها شرح مفهوم الدولة المثلى هي أول رسالة في علم السياسة وأول «طوباوية» وأول محاولة لإيجاد منهاج اجتماعي.

وكتاب «الشرائع» أطول ما ألف أفلاطون وأكثر مؤلف عملي ويحوي أنض تعاليمه في الأخلاق التربية والتشريع والدين. فلا يتكلم عن «الملك الفيلسوف» كما في الجمهورية بل إن مجلس الدولة الأعلى الذي يدير كل شيء يكون من المثقفين المدربين في العلوم الطبيعية والعلوم العليا (الإنسانية) التي «ترى الفرد في المجموع والمجموع في الفرد» وأفلاطون ينادي بتعليم مجاني ومساواة الرجل والمرأة. وإيجاد وحدات للموازين والمكاييل، وأن يكون أساس التقويم السنة الشمسية من 365 يوماً. وتصنيف المجتمع حسب الدخل ليسهل العدالة في جباية الضرائب ومخصصات الدفاع. ويميز بين الشرائع المدنية والشرائع الجزائية وبين الإضرار بحق الغير الاعتداء عليه.

كما آمن بأن الأرض لأنها كوكب سيار لكن ليس تابعاً للشمس والليل النهار مسببان عن دوران الأرض حول مركز ما، وأن تحرك الكواكب هو تحرك الأرواح فيها وتناسق حركتها مرده إلى أن هذه الأرواح المحركة تنبثق من الروح الفضلى في قمتها وهي الله.

وفي الفقه يقول أفلاطون أن هناك ثلاث عقائد زائفة قاتلة للصفات الأخلاقية وهي الإلحاد، إنكار الحكومة الأخلاقية في هذا العالم، والاعتقاد بأن القضاء الإلهي يمكن تجنبه بالقرابين.

تأثير الأفلاطونية في الأديان: ــ يوجد آثار من الأفلاطونية في سفر حكمة سليمان من أسفار الابوكريفا. كما تأثر الفيلسوف اليهود فيلو الاسكندري (القرن 1 م) بالأفلاطونية والرواقية وليس هناك تأثير واضح للأفلاطونية في العهد الديد لكن المدافعين عن المسيحية مثل جستين وأثينا غراس استشهدوا بأفلاطون ضد اللاأخلاقية في الميثولوجيا. وفي القرن 3 استخدم اكليمنفوس الاسكندري وأوريجانوس الأفلاطونية في تأسيس فلسفة مسيحية. لكن الأفلاطونية أثرت في المسيحية الغربية عن طريق أوغسطينوس. وقد دخلت الأفلاطونية في ديانات أخرى كالعلوية الدرزية.

أمارجي: ــ تعني «الحرية» باللغة السومرية وقد استعملت كلمة أمارجي الحرية لأول رة في التاريخ البشري في وثيقة أورو كاجينا الاصلاحية في القرن 24 ق.م في دولة مدينة «لجش».

أنسنة ــ Personification: ــ هي إضفاء صفات الأشخاص على غير الأشخاص وتجسيد المفاهيم والأفكار كما لو كانت أشخاصاً لهم صفات البشر. مثلاً أنسنة الشر وكل ما تعنيه الشرور في شخص إبليس، والخصب في شخص بعل والقحط في شخص موت فنتكلم عن أحدهم وكأنه إنسان صفاته كذا وكذا وهذا يعني أنسنة هذه الصفات والمفاهيم.

ال أنيمية ــ Animism: ــ (انيما ــ روح(الاعتقاد بوجود أرواح وحياة ما في الجمادات، كالحجارة والأشجار والينابيع والجبال الخ. وهذه الأرواح يمكنها أن تؤذي وأن تنفع. والأنيمية تشكل أكثر مراحل التدين بدائية، بل هي بدء الدين.

أوروكاجينا: ــ انزي لغش مدينة الإله ننغرسو وأول مصلح اجتماعي في تاريخ الشرق الأدنى والعالم نحو 2375 ق.م.

تسلط الكهنوت في مدينة لغش السومرية على الحكام والأرض والناس، واستغلوا عامة الشعب وفرضوا الظلم الاجتماعي على الفقراء والأرامل واليتامى، وزادوا أجورهم على الزواج ودفن الموتى فثار أوروكاجينا على سلطة الكهنوت ضمن الإطار الثيوقراطي وأجبرهم على التخلي عن ممتلكاتهم الخاصة لصالح الإله الذي يملك كل شيء في الدولة. وحدد أجورهم «تكلم هو وحرر أبناء لغش من الضعف ومن السرقة ومن القتل وجعل الحرية (أمارجي) تسود. لن يعتدي أي قوي على اليتامى والأراحل بعد الآن. عقد أوروكاجينا هذا الميثاق مع نينغرسو.» ثم أصبح أوروكاجينا ملكاً إلى أن خلعه لوجال زاغيزي انزي أوما.

أوهميروس Euhemerus: ــ (نحو 300 ق.م) عرف بسبب كتابه عن «التاريخ المقدس» الذي ادعى أنه استقاه من كتابات قديمة وجدها أثناء ترحاله في بلاد اليونان. وفيه يفسر سبب الأساطير الشعبية بأسلوب بظن أنه اقتبسه عن الفينيقيين. وهو أن الآلهة كانوا في الأصل أبطالاً وملوكاً تاريخيين حيكت حولهم الأسطورة وألهوا.

بانثيون (Pantheon): ــ مجموع آلهة شعب ما خاصة مجمع الآلهة الذي تعترف به الدولة كما تطلق على المعبد إذا كرس لجميع الآلهة، والكلمة اليونانية.

بندار (Pindar): ــ (نحو 518 ــ 438 ق.م) ــ شاعر يوناني كبير ولد قرب طيبا وسكنها وهي مدينة قدموس الكنعاني. روي أنه في حداثته تجمع النحل على شفتيه وبنى قطعة من الشهد بينما كان نائماً. تعلم في مدينته وفي أثينا وكان شاعراً وموسيقياً. وجمعت أشعاره في 17 كتاباً.

تايلور Taylor: ــ (1832 – 1917) ــ بحاثة ورحالة بريطاني زار الولايات المتحدة والمكسيك وكتب عن «الحضارة البدائية». وفيه دارسة عن الميثولوجيا والسحر وأن الدين بدأ بالأنيمية.

خريسيبوس Chrysippus : ــ (نحو 280 – 206 ق.م) فيلسوف رواقي ولد في سولي من كيليكيا. ينسب إله 300 رسالة في المنطق من أصل 700 رسالة ألفها. وقد نسق وبوب التعاليم الرواقية بعقلية علمية ومنطقية.

الرواقيون Stoics : ــ والرواقية Stoicism : ــ الرواقية هي الفلسفة التي أنشأها زينون الفينيقي (320 – 250 ق.م) بعد عام 312 ق.م عندما كان يعلم في رواق (Stor) شمال سوق أثينا. وقد رحل زينون من مسقط رأسه في كيتيم (Citium) في قبرص نحو عام 312 ق.م إلى أثينا حيث درس في الأكاديمية ثم علم في الرواق وكانت تعاليمه عقائديه نبوية ومتناقضة تعطي الأولوية للأخلاق. وتوقع قيام دولة إنسانية شاملة دون فوارق بين الأمم. كما أعلنت الرواقية أن الله موجود في كل مكان، حاكم ومدبر وهو شرعة الكون التي انبثت من ذاته. كما أعلن زينو أن الصور والمزارات والمعابد والذبائح والصلوات والعبادة لا طائل تحتها. فخير ما يعبد به الله هو القلب والشوق إلى معرفته وإطاعته. وكادت الرواقية أن تصبح ديناً.

وليست الرواقية من وضع مفكر واحد بل هي مذهب تكون مع الزمن وكانت للمذهب آراؤه المنطقة والماورائية والطبيعية ولكن الأخلاق هدفه الأسمى. وليس للموضوعات الأخرى من قيمة بقدر ما تتعلق بالأخلاق. وأهم فلاسفة الرواق الديم 304 – 205 ق.م ــ هم زينون الفينيقي المؤسس وخريسيبوس الكيليكي الذي أبرز اصلاطح «الكلمة» (لوغوس) وأن عقل الإنسان هو اللغوس ومفهوم «الإرادة الحرة» وأن لكل شيء في الطبيعة علة أو لوغوس وكل شيء فاعل ومنفعل. كما أبرز كليانتيس (331 – 231 ق.م) فكرة الأبوة الإلهية فخاطب زقس قائلاً «نحن أيضاً أبناؤك». ومن فلاسفة الرواق الأوسط بنماتيوس وبوزيدونيوس السوري، الابامي (135 – 50 ق.م) وكان أكثر جال عصره علماص وأكثر مفكري الرواقية معرفة. وقد طورها حتى أثرت في أفكار شيشرو وسينيكا وغيرهما وقد كال سينيكا «أن الله بالنسبة للعالم كالروح بالنسبة للإنسان» وفي العهد الأوسط دخلت الرواقية إلى روما.

ومن فلاسفة الرواق الأخير كورنوتوس وسينيكا وبرسبيوس ولوقان وابيكتيتوس و«الملك الفيلسوف» ماركوس أوريليوس. فطوروا عقيدة الخضوع للعناية الإلهية حب الإنسانية.

يقول الامبراطور الروماني الفيلسوف ماركوس اوريليوس (121 – 180 م) في «تأملاته» إن الإنسان مركب من ثلاثة «أقانيم» ــ الجسد والنفس العقل، وهدف الحياة ليس السعادة بل «الطمأنينة والسلام الداخلي» وذلك بالوفاق مع الطبيعة وبتنمية أربعة فضائل في نفس الإنسان:

1 ــ الحكمة ــ أو معرفة الخير والشر.

2 ــ العدل ــ أي أن يعطى لكل إنسان ما يستحق.

3 ــ الصبر ــ وهو تحمل الجهد والألم.

4 ــ الاعتدال ــ أو الوسط في كل شيء.

والضمير والعقل هما الألوهية الداخلية في الإنسان ويجب إطاعتهما. ويلاحظ الرواقيون أن الكون دقيق التركيب وأن الظاهرات الطبيعية تسير وفق قوانين عجيبة وأن آلات الحياة تعمل بنظام لحفظ الأشخاص والأنواع، فكيف يمكن كل ذلك لو لم يكن في الكون عقل يسيّره إلى هدف معين. فالعقل إذن هو العامل الفعال (نوس) الذي يؤمن الجمال والانسجام في الطبيعة. وهذا العقل هو الله. وليس خارجاً عن الكون بل متغلغلاً في جميع أجزائه لذا فالله والعالم والطبيعة شيء واحد. فمن خضع لقوانين الطبيعة فقد أطاع الله وسار وفاقا لمقتضيات العقل. والعقل

قبس إلهي حكيم منظم يلتهم العالم في نهاية السنة الكبرى (وهي 18000 سنة) ثم يعمل على تكوين عالم جديد إلى ما لانهاية. (الدارة 3600 سنة).

وكل كائن حي يتألف من عنصرين الجسد والنفس وأما الإنسان فيزيدها ويتميز عنها بالعقل وهو قبس من الطبيعة الإلهية. فأعظم هبة منحها الإنسان هي العقل أي قوة الفكر وصياغة الأحكام والآراء ولهذا يحق للبشر أن يكونوا أبناء الله. والسعادة القصوى تكون في «الطمأنينة» و«السلام الداخلي» و«عدم الاضطراب النفسي» و«الصفاء التام». وللاضطراب النفسي سببان «أن نحرم ما نشتهيه وأن يحدث ما نخشاه»، فتزيل السبب الأول بإزالة الشهوات والثاني باللامبالاة. وإذا كانت السعادة في أن يصنع الإنسان ما يريد فعلينا أن لا نريد ما لا نستطيع فعله. وبذا تصبح «اللامبالاه» Indifference الفضيلة الأولى في نظر الرواقيين. لا مبالاة تجاه الألم والموت وتجاه اللذة والحياة.

لقد كادت الفلسفة الرواقية أن تصبح ديناً إذ تقول بإله واحد. روح إلهي تصدر عنه كل الأشياء وإليه مصير كل الأشياء، وإن في كل إنسان قبس من الله وأن الضمير هو الألوهية الداخلية. وألهمت معتنقيها فضائل الحكمة والإنصاف والصبر والاعتدال. وقد قال ابيكتيتوس «تشجع وتشدد، وانظر إلى الله، وقل افعل بي هنا كما تريد فأنا فيك ولك. لن أحجم عن شيء صالح في عينيك. فقدني إلى حيث تشاء، واسكني الرداء الذي تختاره لي. سواء أكنت غنياً أم فقيراً عاملاً أم عالاً، مقيماً أم طاعناً. فإني سأبقى مادفاعاً عنك أمام الناس ما استطعت إلى ذلك سبيلاً.»

ألست تسمع مسيحياً يقول ذلك؟ فما كان تفاعل الرواقية والمسيحية وقد تعاصرتا، وقد خرجت الاثنتان من سوريا إلى العالم؟

زينو فانيس Xenophanes: ـــ شاعر ومفكر وديني يوناني _570 – 478 ق.م) سخر من عقيدة تناسخ الأرواح وحبذ التمتع باللذات التي يقدمها المتمع بشكل معقول وقال أن الواحد هو الله فهل كان موحداً؟ وهاجم كيفية تصور الناس للآلهة وكأنهم بشكل البشر وأخلاق البشر، إذ يرفض أن تكون الآلهة لا أخلاقية. كل شيء من الأرض وإلى الأرض يعود، كلنا نبثق من التراب والماء.. والآلهة لم توضح كل شيء للبشر ولا يصل الإنسان إلى الحقيقة الأكيدة، بل يقول ما هو رأيه وكأنه الحقيقة بالنسبة إليه. ويبدو زينوفانيس مصلحاً دينياً ورائداً إغريقياً في الاتجاه نحو التوحيد.

فيلو Philo: ـــ (نحو 30 ق.م ـــ 40 م) فيلسوف يهودي من الاسكندرية يمثل اليهودية الهللنستية. وقد ذهل إلى روما نحو عام 40 م لمقابلة الامبراطور كاليغولا ليعفي اليهود من عبادة الامبراطور. ورغم قربه الفكري من الأفلاطونيين والبيثاغوريين والرواقيين فقد كان يهودياً أولاً. وأن الفلاسفة الاغريق لم يأتوا بجديد فكل شيء في التوراة موجود، وأن موسى يعلم نفس الأشياء وبشكل أفضل.

وبرأي فيلو لا يمكن إضفاء صفات على الله فهو غير محدود وأزلي ولا يتبدل من مادة بسية حرة تكفي ذاتها أفضل من الصالح والجميل. وإعطاء أي صفات لله معناه تحديد. فلا نقول ما هو بل ما لا يكون هو . أي نفي الصفات عن الله، وهذا ما رآه أيضاً البيثاغوريون والأفلاطونيون الحديثون لأن نفي الصفات يرفع الله فوق مستوى هذا العالم، بل إن كمال الله المطلق وطهارته وسموه يخرق وينكر بعلاقته المباشرة بغير الكامل وغير الطاهر بالمحدود، لكن تنبثق عنه قوى إلهية هي صلة الوصل بينه وبين هذا العالم. لكن فيلو يناقض نفسه حين يرى في الشياطين والملائكة تعبيراً عن هذه القوى.

واللوغوس (الكلمة) هي أعلى وسيط بين الله والعالم، وهي رئيس الملائكة الذي هو واسطة كل حي وتنزيل، ورئيس الكهنة الذي يقف أمام الله ممثلاً لهذا العالم.

والمادة مبدأ ثان، لا حياة لها ولا شكل لها صنع منها الله العالم عن طريق الكلمة والقوى الإلهية، أي أن الله لم يخلق المادة بل أعطاها الشكل الذي يريد فصار هذا العالم.

والإنسان يتكون من من نفس، وهي الجزء الإلهي، وجسد يخضع للحواس. لذا فالنفس سجينة الجسد وتتوق للخلاص منه لتصعد إلى الله. ولكن حتى أثناء الحياة يمكن للحكماء الحقيقيين والصالحين أن يسموا على الموجود المحسوس يتمتعوا برؤية الله. وليس بعد ذلك إلا التحرر الكامل للروح من الجسد لتعود إلى حالها الأصلي وهذه هي نهاية الذين يسمون في حياتهم فوق العالم المحسوس وأما أرواح الآخرين فتعود وتدخل أجساداً أخرى، أي آمن فيلو بالتقمص.

مشيا أو مسيح: ـــ تعني بالعبرية الممسوح بالزيت المقدس. وقد أطلقت على الأشياء المكرسة للرب وكذلك على الرجال المكرسين والملوك مثل شاول وداود الذين مسحهما صموئيل ثم سليمان. واستعملوا اصطلاح «مسيح الرب»، وفي العرف اليهود المسيح المنتظر هو ملك من نسل داود ينقذ اليهود من الخضوع للأجانب، ويعيد العصر الذهبي الذي هو عصر داود أي أنه مسيح ملك أرضي. وفي العرف المسيحي، المسيح هو يسوع الناصرى الذي صلب من أجل إنقاذ الجنس البشري من الخطيئة وسيعود بمجد عظيم مرة أخرى. وإن لم يكن هناك «مسيح» بشكل واضح في الإسلام غير المسيح المسيحي، إلا أن الشيعة الاثني عشرية تتمسك بهذه العقيدة باسم «المهدي المنتظر» وهو الإمام الثاني عشر الذي يعود ليملأ العالم عدلاً.

وفي البوذية من طائفة «الماهايانا» ينزل «بوذا ميتريا» في المستقبل ليأخذ المؤمنين إلى الفردوس. وأما الزرادشتية فتقول بعودة ابن زرادوشي ليقيم الأموات وينظم العالم.

موللر Muller : ـــ (1823 – 1900) مستشرق انكليزي ألماني. درس اللغة السنسكريتية ثم أخذ يقارن اللغات. وبعد أن درس كتاب «الزند» أخذ يدرس مقارنة الأديان وترجم الـ «ريغفيدا» ومن دراسة الميثولوجيا تحول موللر نحو دراسة مقارنة الأديان. فكتب «مدخل إلى علم الدين» و«كتب الشرق المقدسة» وأقام صدات مع الهنود واليابانيين.

هللنستي Helleniste : ـــ تعني إغريقي متفاعل مع عنصر آخر غير إغريقي أو هلليني (Hellene) أي إغريقي صرف. فالحضارة الهللنستية هي الحضارة الناتجة عن تفاعل الحضارة الهللينية مع حضارة أخرى كالسورية والمصرية الرومانية والعالم الهللنستي هو ذلك الزء من العالم الذي كان يملك حضارة هللنستية.

وتبدأ الحضارة الهللنستية بفتوح الاسكندر عام 333 ق.م وتدخل عليها تعديلات مع ظروف سياسية واجتماعية أخرى.

ويمكن تقسيم العصر الهللنستي في سوريا إلى ثلاثة حقبات تاريخية متميزة ـــ وهي تشمل ألف عام حضاري.

1 ـــ الهللنستية السلوقية (333 – 64 ق.م) تمتد من فتح الاسكندر وإدخال الحضارة الهللنستية على نطاق واسع إلى سوريا وتفاعلها مع حضارة سوريا التي يغلب عليها الطابع السامي، إلى الفتح الروماني. في هذه الحقبة كانت ملكة سوريا (312 – 64 ق.م) بقيادة السلالة السلوقية. وكانت اللغة اليونانية اللغة الرسمية إلى جانب لغة الشعب الآرامية.

2 ـــ الهللنستية الرومانية (64 ق.م ـــ 330 م) وتمتد من الفتح الروماني بقيادة بومبيوس حتى قيام الامبراطورية البيزنطية. في هذه الحقبة فصل شرق مملكة سوريا عن غربا وأصبح تابعاً للامبراطورية الفارسية وسمي «العراق» أي الأرض المخفضة باللغة البهلوية. وأصبح غربها «ولاية سوريا الرومانية». وبما أن الرومان أنفسهم تلاميذ الاغريق حضارياً تابعوا خط الحضارة الهلنستية وأدخلوا اللغة اللاتينية إلى جانب اليونانية والآرامية. بينما بابل (العراق) أخذت تتفاعل مع الحضارة الفارسية. وأخذت السرينة الرومنة تتناقلان في كل الامبراورية بسبب

التقدم الحضاري عند السوريين الذي لم يفوقه الحكام الرومان. وأخيراً انتصرت المسيحية السورية على الوثنية الرومانية ولعب دوراً كبيراً في تغيير معالم الحكم.

3 ـــ الهللنستية البيزنطية (330 – 633 م) هي الهللنستية المسيحية لأن الحضارة البيزنطية هي تفاعل الحضارة الهللنستية مع الدين المسيحي بعد تنصر قسطنطين الكبير وخاصة بعد أن أصبحت المسيحية الأروثوذكسية دين الدولة أيام ثيوديوس. وانتهت بالفتح الإسلامي. ورغم أن العرب والمسلمين انتهلوا من هذه الحضارة إلا أن الإطار العام قد تبدل تماماً فصار ما عرف فيما بعد بالحضارة الإسلامية التي كانت نتاج تفاعل حضارات الشعوب التي فتح العرب بلدالها مع الدين الإسلامي.

وخلال ألف عام م الحضارة الهلنستية كانت لغة المثقفين السوريين اليونانية وبها كتبوا ولذلك طمست هويات الكثيرين منهم واعتبروا إغريق ولم يكونوا كذلك.

هوميروس Homer : ـــ شاعر ملحمي إغريقي (القرن 9 ق.م) وقد تنافست سبع مدن يونانية بادعاء شرف ولادته فيها. وقالت عنه القتاليد واصفة إياه بالشيخ الأعمى الذي يجوب المدن ملقياً أشعاره على الناس ثم نسبت إليه الألياذة والأوديسة والأناشيد الهومرية وغيرها.

هيسيود Hesiod : ـــ شاعر يوناني من القرن 8 ق.م. يقول أن آلهات المواهب ظهرت له وهو يرعى غنمه ووهبن له الشاعرية. وقد ترك ملحمتين هامتين الأولى هي «تحدث الآلهة» «ثيوغرنيا» وهو تاريخ الآلهة الميثولوجي ولاداتا وتسلسلها، حيث كان في البدء الفوضى والأرض والحب. ولدت الأرض السماء الجبال والبحار ثم اتحدت مع السماء فولدت آلهة أرى كثيرين منهم الزمن (كرونوس) الذي ثار على السماء (أورانوس) وحكم حتى قام زفس. وقصص الثورة والتوالد في عائلة الآلهة تشكل عناصر الملحمة الرئيسية. لكن المكتشفات الأثرية دلت على أن ثيوغونية هيسيود قد اقتبست من بابل وكنعان والأناضول قصص تحدر آلهة مشابه.

وملحمته الأخرى (أعمال وأيام) لها صفة شخصية. وجهها إلى أخيه «برسيس» لأنه استعمل الخديعة والرشوة ليرث أكثر منه. وليحوله عن تصرفاته يروي أسطورتين في بداية الملحمة تصران على ضرورة العمل الجاد الشريف في حياة الإنسان. منه قصة باندورا وصندوق الآفات التي خربت حياة البشر. وقصة تحدر الإنسان المعدني مبتدئاً من الذهب ومنتهياً بالحديد. وفي القسم الأخير يصف فصول السنة والعمل الملائم لكل فصل عند الفلاحين وفيها محرمات وخرافات ربما ليست من تأليفه.

هوامش الفصل الثاني

أدب (بسمايا): ـــ مدينة سومرية قديمة في جنوب العراق. اكتشفت فيها سنة 1903 – 1904 أبنية تعود لعهد أور ـــ نامو وما قبل التاريخ. أهميتها التاريخية تعود لما قبل 2000 ق.م. آلهتها الرئيسية نينخرساج. كان حاكمها يعين من قبل ملوك أور.

آرام (سوريا): ـــ تعني الأرض المرتفعة. وقد أطلق هذا الاسم مضافاً إليه اسم أحد مناطق البلاد أسماء للممالك الآرامية في سوريا والعراق مثل آرام دمشق وآرام نهرايم الخ. وبعد توحيد الهلال الخصيب لغوياً نحو 500 ق.م صارت آرام تعني كل الهلال الخصيب. وبعد ظهور مملكة سوريا عام 312 ق.م صار اسم سوريا بديلاً لآرام وسوري بديلاً لآرامي وهكذا وردت الترجمة في اللغات الأجنبية وإن لم تكن دقيقة.

أريحا (يريحو = مدينة القمر): ـــ مدينة كنعانية في غور الأردن 270م تحت سطح البحر 10م شمال البحر الميت. سكنت بشكل متصل منذ نحو 7000ق.م مما يجعلها أقدم بلدة في العالم ازدهرت في العصر البرونزي كمدينة نعانية باسم يريحو. احتلها في القرن 13ق.م الاسرائيليون بقيادة يشوع وكان يسكنها الأموريون

والكنعانيون بعد أن هدم سورها زلزال وأحرقوها ومثلوا بجميع سكانها ما عدا راحاب الزانية ونهبوا آنيتها المعدنية في خزانة «بيت الرب» ولم يعد بناؤها حتى القرن 9ق.م.

أهداها ماركوس أنطونيوس (83-30ق.م) لعشيقته كليوباترة وكانت آنذاك مشهورة بالعطور انحطت أيام العثمانيين وفي 1948 ضمت إلى المملكة الأردنية الهاشمية مع الضفة الغربية لنهر الأردن وفي عام 1967 احتلها اسرائيل.

أريد (تل أبو شهرين): ــ مدينة سومرية قديمة 22 كم جنوب أور. أقدم المدن السورية وثانيها بالقداسة بعد نيبور. فيها زيقوره أمار ــ سين نحو 2050 ق.م. أسست المدينة في الألف 5 ق.م وبقيت مأهولة حتى 600 ق.م. كان إلهها «انكي» هي مسرح أسطورة «أديا وسقوط الإنسان».

اكشاك: ــ مدينة سومرية قديمة في وادي ديالي بالعراق موقعها غير معروف بالضبط. احتلها أيانا توم نحو 2500 ق.م.

أمورابي (حمورابي) أي أبو الأموريين: ــ ملك مشرع ورجل دولة. ملك بابل من السلالة الأمورية الأولى (1792-1750ق.م) تسلم بابل من والده سين موبليط وهي صغيرة وهو في الخامسة والعشرين فجعلها من أعظم ممالك العصور القديمة. قضى السنين الست الأولى في تنظيم الشؤون الداخلية دينياً وتشريعياً وأمنياً ثم أخذ في الاحتلال والتوسع وإنشاء امبراطورية. وفق فيها بين سكان البلاد و«حضن أبناء سومر وأكاد كالأب. كان ملكاً وصاحب عقيدة. ترك للعالم أكمل تشريع قديم مؤلف من مقدمة و282 تشريعاً وخاتمة مستفيداً من الشرائع والأعراف السابقة وقد نقشت على نصب من البازلت الأسود طوله ثمانية أقدام واكتشفت عام 1901 في مدينة سوزا في إيران.

أمورو (سوريا): ــ أي بلاد الأموريين أو الساميين الغربيين بالنسبة لسكان بابل في الشرق. وقد سماها السومريون «مارتو». بينما اعتبر الأموريون أنهم الكنعانيون الشرقيون بالنسبة للكنعانيين الغربيين سكان الساحل السوري.

أوغاريت (رأس شمرا): ــ مدينة مندثرة شمال اللاذقية 10 كم. بدأت قرية مسورة في الألف 7ق.م في العصر الحجري الحديث. وعند بدء العصر البرونزي 3000ق.م لم يكن السكان ساميين. وحتى 1700ق.م. والعصر الذهبي المدون في أوغاريت هو العهد الكنعاني 1450-1195ق.م واسمها سومري يعني «الحقل». اللغة الأوغاريتية كنعانية أو أمورية واستعمل كتبها أربع لغات في تدويناتهم، الأوغاريتية والأكادية والسومرية والحورية. وقد ترجمت بقايا ملاحما. وبعد أن دمرها شعوب البحر (الفلسطينيون) عام 1195ق.م اندثرت نهائياً إلى أن اكتشفت صدفة عام 1929. ومن بقاياها أقدم أغنية مدونة

أما (جوخه): ــ مدينة سومرية قديمة غرب لغش نحو 2375ق.م قام حاكمها (انزي أوما) لوغال زاغيسيري وانتصر على أوروكاجينا المصلح ووحد بلاد سومر مدة 25 عاماً ثم قهره سرجون الأكادي.

أور: ــ (تل المقير) أطلال مدينة سومرية 225كم جنوب بابل. أسست في الألف 4ق.م وأصبحت عاصمة ما بين النهرين أيام سلالة أور الأولى نحو 2700ق.م. حيث كشفت المقابر الملية التي تحوي كنوزاً لا تقدر مع حاشية الملك نصف الإله التي تدفن معه.

وفي أيام السلالة الثالثة التي بدأها أورنامّو عادت عاصمة لما بين النهرين 2200-2100ق.م وفي هذه الحقبة بنيت الزيقورات من ثلاث طبقات وفي القمة مقام نانا (إله القمر) سيد أور وملكها وتدل التنقيبات أن المهندسين الأوربين كانوا يعرفون العامود والقنطرة والعقد والقبة منذ 2600ق.م وكل أسس الهندسة المعمارية. والزيقورات تبرز كل هذه الأشكال الهندسية بشكل متقدم. ثم دمر العيلاميون مقابر ومعابد السلالة الثالثة. ثم أعيد

ترميم المعابد. وصارت مركزاً دينياً وتجارياً فقط. ومنذ أيام سرجون الأكادي كان لها صلات تجارية مع الهند. وفي عهد حمورابي انت بيوتها جيدة ومريحة من طابقين لف كل بيت معبد صغير للصلاة لآلهة العائلة وتحت أرضيته يدفن أفراد العائلة. في هذه الحقبة يفترض أن إبراهيم خرج من أور إلى حران.

وفي العصر البابلي الحديث أعاد نبوخذ نصر 2(605-562ق.م) بناء الدينة وترميم معابدها وفي أيام نبونيد آخر ملوك بابل (556-539ق.م) أعيد بناء اليقورة ولكن هذه المرة من سبع طبقات بدل الثلاثة مع بناء درج حلزوني وأصبح ارتفاعها 49متراً. وكان الفرات يجري قربها ولكن أيام ارتحشستا 2(404-358ق.م) انتهت أور إذ غير الفرات مجراه فجفت وتحولت حقولها إلى صحراء فهجرها أهلها. وفي تدوينات أور ظهر اسم سرجون الأكادي كإنسان تاريخي.

أوروك (ارخ، الورقاء): ــ مدينة سومرية في جنوب العراق 50كم شمال غرب أور. كانت محاطة بسور محيطه 9كم أول سور لمدينة في التاريخ وينسب بناؤه لجلجامش. وضمن السور آثار لمدن متعاقبة منذ 4000ق.م حتى أيام 70ق.م. بدأت حضارتهاف ي عصر «جمدة نصر» (3500-3000ق.م) وكانت قد اخترعت الكتابة المسمارية والتجارة التابعة للمعابد، وصناعة الذهب والفضة والنحاس والأختام وتربية المواشي.

كانت أوروك تضم منطقتين في إحداهما زيقورة آنو، وفي الأخرى معبد أنانا (عشتار). وفي معبد أنانا تابع كل سلالات الملوك عملية الترميم المتواصل مع تطوير في الهندسة. وتابعت المدينة وازدهارها حتى أيام السلوقيين وبني معبد آنو وأناتوم وبقيت حتى 70ق.م.

تل: ــ هو جبل اصطناعي صغير يتكون من خرائب عدة تراكمة الواحدة فوق الأخرى. وقد وجدت هذه التلول منذ 2000ق.م، والكلمة سومرية مازالت في اللغة العربية (وليس التلة أو التل والتلال الطبيعية).

تل الجديدة: ــ موقع في شمال سوريا من أقدم مراكز السكن البشري نحو 5000ق.م (بعد أريحا).

تل حسونة: يقع 35كم جنوب الموصل اكتشفت فيه دائرة الآثار العراقية 1943-1944 أقدم مراحل ماقبل التاريخ لما بين النهرين تدل على وجود مجتمع زراعي ترق إلى العصر الحجري الحديث يليها ست طبقات من البيوت. والبيوت تبرز تحسناً مستمراً في فن البناء وعدد الغرف وفيها خلايا من الطين الغير مشوي (كما يصنع في قرى الفلاحين الآن) لتخزين الحبوب والتنور لشي الخبز، والأجران، والمناجل الصوانية والفؤوس الحجرية، صور من الطين، وجرار كبيرة فيها رفات الأطفال.

تل حلف: ــ موقع بالقرب من منابع الخابور اكتشفت فيه عام 1911 آثار لما قبل التاريخ وهو قرب قرية رأس العين السورية. والآثار تعود للعصر الجري لكن تنظيم القرية الزراعية يدل على بدء العناية البلدية بالشوارع. ووجود أبنية فارغة يرجح أنها عابد تقع في منتصف القرية. وكما وجدت الأختام المسطحة والصور الطينية والتمائم وتقدم واضح في صناعة الفخار وتلوينه. وبعد بضعة قرون انتهت حضارة تل حلف فجأة بإحدى الغزوات.

تل العبيد: ــ موقع 6كم عن أور، عثر فيه على آثار لحقبة ما قبل التاريخ الألف ق.م فيه الفخار المدهون مع ظهور التصوير على الفخار وظهور دولاب الفاخوري. والبيوت المصنوعة من القصب والطين والخشب، والبيوت الفخمة من الطوب المحروق. وبعد عصر تل العبيد ظهرت الحضارة السومرية التاريخية.

جمدة نصر: ــ أطلال بالقرب من كيش عثر فيها 1925-1928 على حضارة تعود لأواخر الألف 4 وبداية الألف 3ق.م.

سرجون 2الآشوري: ــ (722-705ق.م) أحد قادة الجيش الآشوري أيام شلما نصر 5(726-722ق.م). قام بانقلاب وحكم متخذاً لنفسه اسم شروكين (سرجون) أي الملك الشرعي وأسس السلالة الآشورية الأخيرة. قبل أن يتبوأ العرش، وقعت حادثتان هامتان في الشرق الأدنى وهما، التدخل المصري في فلسطين

والتدخل العيلامي في بابل، مما أدى إلى تكرار التمردات فكانت سيرة سرجون منحصرة في قمع كل تمرد داخلي، في السنة الأولى من حكمه.

كان هوشيا ملك إسرائيل قد قام بتحريض من مصر ورفض دفع الجزية للآشوريين أيام شلما نصر 5فحاصر السامرة ثلاث سنين دون أن يخترقها تحصيناها. لكنها عادت فاستسلمت لخلفه سرجون 2 بين 722-721ق.م وسبا 7% من سكانها وهم صفوة مملكة الشمال ونقلهم إلى مادي وقضى على مملكة إسرائيل إلى الأبد. ونقل بعض القبائل الغربية عن اليهود إلى السامرة وعرفوا باسم السامريين واعتنقوا شريعه موسى وأصبحوا أعداء اليهود. وتمرد حنونو ملك غزة بتحريض من المصريين فسلخ جلده. كما تمرد ملك أشدود بمعونة المصريين وانكسر. كذلك تمردت أدوم وموآب وفي بابل قام ملك كلداني من بيت ياكيني هو مردوخ بالادان (Baladan) (721-711ق.م) وحكم بابل 11سنة يدعمه العيلاميون وتحاربا 720ق.م ولم تكن معركة فاصلة.

وفي 717ق.م احتل كركميش بذلك قضى على آخر ممالك الحثيين السوريين وكان المحرض هو مملكة أورارتو Urartu (أرمينا) فزحف عليها عام 713ق.م فانتحر ملكها. ثم زحف على بابل 711 وهرب مردوخ بالادان ودخل سرجون 2بابل عام 709 ولقب نفسه «ملك سومر وآكاد».

بنى عاصمة خاصة عام 717ق.م هي دور شروكين (خورساباد) وبنى فيها زيقورة من سبع طبقات. وانتهى البناء 707 ثم اغتيل 705ق.م. حكمت بعد السلالة السرجونية التي ضمت سنحريب واسرحدون وآشوربانيبال.

سيبار (تل أبو حبة): ـــ مدينة قديمة 32 كم جنوب غرب بغداد على ضفة الفرات اليمنى. كان فيها زيقورة ومعبد شمش وآنونيتوم. أصلح حمورابي أسوارها. نهبها العيلاميون 1174ق.م. وأخضعها تفلاتفلاسر1 نحو 1100ق.م وأعاد 880ق.م الملك البابلي نبو ابال ادينا بناء معبد شمش كما رممه نبوبولاصر الكلداني (662-605ق.م) وقد وجد في سيبار آلاف اللوحات المكتوبة. وبعد هرب نبونيد في معرة أوبيس 539ق.م فتحت أبوابها للجيش الفارسي.

الفحم المشع Radioactive Carbon: ـــ عنصر غير معدني، رمزه (C14) قوته الاتحادية الرئيسة أربعة. له شكلان متبلوران هما الألماس والغرانيت وشكل غير متشكل. وفي الطبيعة نحو مليون صيغة من تراكيب الفحم تشكل معاً الكيمياء العضوية. وزنه الذري 12 وعدده الذري 6 ولكن يوجد نظائر للفحم. (C11-C12-C13-C14-C15) النظيران (C13-C12) ثابتان وأما الباقية فمشعة ونصف حياتها كما يلي (C10) 20 ثانية (C11) 20 دقيقة ونصف، (C14) نحو 5700 عاماً، (C15) 2.4ثانية. لذلك يستخدم الكربون المشع (C14) في تقدير أعمار الموجودات الأثرية القديمة التي يدخل الفحم في تركيبها. وذلك بقياس الكمية الباقية من الفحم المشع بالنسبة لما هو موجود أصلاً في تلك المادة في الموجودات الأثرية. وهذا تقريبي في قياس أعمار الأشياء.

كيش: ـــ إحدى مدن سومر القديمة آخر ملوك سلالتها الأولى أجا الذي حارب جلجامش. أنزلت إليها الملكية بعد الطوفان فكانت مسرحاً لأسطورة ايتانا والنسر. وكان إلهها زبابا. وقد قلب سرجون الأكادي ملك كيش أورزبابا ليصبح ملاً 2350ق.م.

لغش (تللو): ـــ من أهم مدن سومر القديمة تقع بين دجلة والفرات في جنوب العراق. اكتشف فيها نحو 50.000 لوحاً مكتوباً تبين مختلف أوجه النشاط الحضاري السومري في الألف 3ق.م. تأسست قبل التاريخ ودامت حتى القرن 2ق.م. من ملوكها المصلح أوروكاجينا. ثم جاء الحكم الأكادي وبعده ازدهرت في عهد جوديا في عهد سلالة جوتي الذي أحضر خشب الأرز من لبنان ليبني معبد ننغرسو (نحو 215ق.م).

نبوخذ نصر: ـــ تج خلفاً لوالد نبوبلاصر 23أيلول 605ق.م ملكاً على بابل. طرد المصريين واحتل سوريا وأخذ الجزية من ملوكها. وفي 598ق.م رفض يهوياقيم ملك يهوذا دفع الجزية رغم تحذيرات النبي أرميا. فحاصر البابليون أورشليم وسقطت 16آذار 597ق.م وأقاموا ملكاً جديداً هو صدقيا وسبوا 3000 يهودياً إلى بابل.

ثم غزا المصريون شواطىء كنعان فظن صدقيا أنه يمكنه الاعتماد على المصريين وهم قريبون منه ليتمرد على البابليين. كان مركز القيادة العسكرية البابلية في «ربلة» قرب حمص، فأرسلت حملة حاصرت أورشليم 18شهراً وسقطت في حزيران 587ق.م وسبا نحو ربع السكان نقلهم إلى بابل حيث بقوا حتى 516 ق.م أي سبعين عاماً ومن أعمال نبوخذ نصر إتمام بناء برج بابل وهؤلاء هم يهود سبي بابل المشهور.

نيبور: ـــ مدينة السومريين المقدسة مسن انليل نحو 70كم جنوب شرق بابل. تدعى أطلالها (نفر) 160كم جنوب شرق بغداد. لم تكن نيبور قط عاصمة سياسية لكنها كعاصمة دينية فرضت إرادتها على الملوك. وحسب بعض الأساطير فإن انليل قد خلق الإنسان فيها.

بنيت المدينة في الألف 4ق.م. وفي منتصف الألف 3ق.م بلغت حدودها القصوى وكانت محصنة وبنيت فيها زيقورة انليل. وأعاد نارام سين ملك آكاد (2267-2230ق.م) بناء أسارها ومعابدها. لكن أبنية أورنامو مؤسس سلالة أور الثالثة (2130-2112ق.م) طغت على معالم المدينة وبنى معبد انليل «ايكور» بشكله الراهن. وتابع ملوك أور وايسين ولارسا ترميم المعابد وكذلك الكاشيون والآشوريون ثم انحطت المدينة في العصر الكلداني. وأصبحت قرية في العصر الفرثي نحو القرن 3م ثم هجرت في القرن 13م.

نينوى: ـــ أعظم وأقدم مدن آشور على ضفة الفرات الشرقية مقابل مدينة الموصل. بدأ استيطان موقعها في الألف 6ق.م وبدأت عظمتها في الألف الثاني فقط ق.م. ثم في عهد سنحريب أصبحت مدينة فخمة بشوارعها ساحاتها وقصورها. ثم بلغت مساحتها 1800 فداناً بسور منيع ينفذ منه 18 بوابة وقصر سنحريب حوى 80 غرفة. كما حفرت 18 قناة لجر المياه إليها من التلال. ثم بنى أسرحدون مراكز للأسلحة وجاء بعده آشور بانيبال وبنى قصراً جديداً حوى مكتبة عظيمة ضمت 25000 لوحاً. ودامت المدينة حتى عام 612 ق.م وقصة النبي يونان تدور حول شرور نينوى.

نقب فيها لابارو 1840-1851 واكتشف قصر سنحريب ثم قصر آشور بانيبال وتابع رسال التنقيب 1852، وفي 1929-1932 اكتشف كامبيل تومبسون معبد نبو وقصر آشور ناصربال. وأجمل مكتشفات نينوى رأس من البرونز بالحجم الطبيعي يعود للألف الثالث ق.م ويرجح أنه يمثل رأس سرجون الأكادي نحو 2350ق.م.

أعيد بعض البناء فيها أيام مملكة سوريا السلوقية وازدهرت نوعاً ما في القرن 13م أيام أتابكة الموصل وبقي فيها بعض المساكن حتى القرن 16.

هوامش الفصل الثالث

أوبرت (جول Oppert) (1825-1905): ـــ عالم ولغوي فرنسي ولد في هامبورغ. درس الألمانية في جامعة رانس. اشترك في قراءة الكتابة المسمارية وكتابة برسوبوليس له «قواعد اللغة الآشورية» و«دراسات سومرية».

بهيستون باهستان (Behistun): ـــ قرية وصخرة شاهقة في ولاية كرمنشاه في إيران على سفح جبل زاغروس التي ترتفع حتى 1300 متراً بين مدينة كرمنشاه وهمدان، حيث توجد عدة ينابيع على طريق القوافل. هناك نقش داريوس الكبير (ملك الفرس 522 ـــ 486 ق.م) على صخرة ترتفع 160 متراً فوق النبع كتابة

كتابة بثلاث لغات، البابلية والفارسية القديمة والعيلامية، إحياء لذكرى انتصاراته على أعدائه. وأول من وصل إلى تلك الكتابة هنري رولنصون 1835 ونقل نسخا لها بين 1835 و 1844 ونشرها عام 1849 وفك رموز النص الفارسي ال4ديم وجميع تلك اللغات كتبت بالخط المسماري. ثم عاونه إدوارد هنكس الإيرلندي وفيليسيان سولسي الفرنسي في فك كل النصوص وانتهوا نحو 1850. وكانت صخرة بهيستون بمثابة حجر رشيد في مصر في فك رموز الكتابة المسمارية.

رولنصون (سير هنري Rawlinson) (1810 – 1895): ــ ضابط ومستشرق بريطاني. سافر إلى الهند 1827 ثم إلى إيران 1833 مع غيره من الضباط البريطانيين لنظموا الجيش الإيراني هناك زاد ولعه بالكتابة المسمارية ولم تفك رموزها بعد، ونسخ كتابة صخرة بهيستون وفك رموز النص الفارسي 1846 ثم أعطى ما ملك من الآثار البابلية والسبئية للمتحف البريطاني وعاد عام 1851 إلى بغداد وفي 1855 أعطي لقب سير، وعين رئيسا لشركة الهند الشرقية. وعاش في لندن أربعين عاماص.

شيفر (كلود Schaffer): ــ صحفي ومنقب آثار فرنسيز ولد في 6 آذار 1898 في مدينة ستراسبورغ في مقاطعة الألزاس. ترأس البعثة الأثرية الفرنسية التي قامت بحفريات موقع رأس شمرا (أوغاريت) من عام 1929 لغاية عام 1969. قام بحفريات أو تحريات أثرية في جزيرة قبرص (موقع انكومي) وفي تركيا (موقع ملاطية) وفي إيطاليا ومصر. هو عضو في «مجمع المخطوطات والآداب الجميلة» في باريس. له عدة مؤلفات معظمها يتعلق بأوغاريت. وقد منح وسام الاستحقاق السوري.

هيرودوتس (أبو التاريخ) (484 – 425 ق.م): ولد في هليكارنا سوس، رحل وتجول في مصر وسوريا وليبيا وبابل وليديا وفريا وأنحاء الامبراورية الفارسية وتراقيا ومقدونية وشواطيء البحر الأسود. كتب تاريخاً للحرب الاغريقية ــ الفارسية في تسع مجلدات فيه وصف للحرب ذاتها ووصف للامبراطورية الفارسية من حيث جغرافيتها وتاريخها وتنظيمها. وقد أثار أشد الأثر عند هيرودوتس أن يكون الجيش الفارسي متعدد العناصر واللغات ورغم ذلك يخضع لقيادة واحدة. بينما الدويلات الاغريقية ذات اللغة والدين الايديولوجية الواحدة مجزأة سياسياً وعسكريا وقادتها يحبون الجدل ويجعل الحرب صداماً بين حضارتين هللنية وشرقية. وكان أول مؤرخ كتب نثراً لأن قصص هوميروس كانت تحوي تاريخاً كتب شعراً في ملاحمه.

هوامش الفصل الرابع

أوزابيوس القيصري (260 – 340): ــ من آباء الكنيسة البارزين. أسقف قيصرية فلسطين وأول مؤرخ كبير للتاريخ الكنسي. ولد في فلسطين وعلى الأرح في قيصرية ذاتها. ودرس في أنطاكية وكان تلميذاً لــ: بمفيليوس لذا سمي «أوزيبيوس بمفيلي». وفي اضهاد دوقليانوس (امبراطور روما 284 – 305) الذي بدأ 23 شباط 303 وتوزع على فترات متقطعة في الشرق حتى 313. سجن بمفيليوس ومات في السجن عام 310 وأصبح شهيداً كما سن أوزيبيوس.

وفي 314 أصبح أوزيبيوس أسقف قيصرية، وفي 316 خطب في افتتاح كنيسة في صور. اعتنق في البداية المذهب الآريوسي، وفي أواخر 324 في مؤتمر أنطاكية حرم كداعية للآريوسية. ولكن في مجمع نيقيا المسكوني 325، وعندما طلب من الامبراطور قسطنطين أن يفتتح الجلسة. قام أوزيبيوس وأدان آريوس وألقى خطبة امتدح فيها الامبراطور وهو جالس إلى يمينه وتلا «دستور الإيمان» القيصري تعبيراً عن حقيقة آرائه فبرىء من «الهرطقة». ظل كل حياته صديقاً حميماً ومعجباً متحمساً لقسطنطين.

كان أوزيبيوس من أعظم رجال عصره قلماً. وألف عدة كتب في التاريخ منها تاريخ الكنيسة حيث يروي قصة ظهور المسيحية وعلاقتها بالامبراطورية حتى عام 324 في عشر مجلدات. كان مدافعاً عن الكنيسة وفي تاباته

كثير من الاقتباسات من كتب لم يعد لها وود. غير أن كتابته تفتقد إلى التسلسل في روي الحوادث لا تخلو من الفوضى في رواية الوقائع. كما كتب عدة كتب للبرهنة عن التنبؤ في العهد القديم عن المسيح.

برعوشا (بيروسوس Berosus): ـ القرن 4 و 3 ق.م. كاهن كلداني من كنة «بيل» في بابل. كتب باليونانية مؤلفاص من ثلاثة مجلدات عن تاريخ وحضارة بابل. فقد الكتاب الأصلي وكان مرجعاً للمؤرخين القدامى. يقال أنه انتقل إلى جزيرة «كوس» حيث أسس مدرسة للفلك. يبحث المجلد الأول بوصف بابل الغرافي ودخول الحضارة إليها وملحمة الخلق (Epic of Creation). والمجلدان الثاني والثالث تاريخ بابل وآشور مع سلسلة «عشر ملوك ما قبل الطوفان» ثم «قصة الطوفان» ثم عودة الملكية وسلسلة «ملوك ما بعد الطوفان» ثم تاريخ خمس سلالات. ومعظم روايات بيروسس تأكدت باكتشاف الألواح المسارية لنفس الروايات.

البوليثية Polytheism: ـ الإيمان بوجود عدة آلهة وعبادتهم. وهذه الآلهة تمثل كائنات موجودة كالسماء والأرض والكواكب أو ظاهرات وقوى طبيعية مؤنسنة فيكون الإله هو القوة الكامنة وراء ظهور الحادث الطبيعي كآلهة الخصب والعواصف والولادة والشفاء. وتشكل البوليثية النظام الأساسي في الديانة السومرية والمصرية واليونانية والكنعانية. وتختلف أهمية الإله حسب ما يمثله من قدرات، ومنها من يلعب دور الخالق ومنها دور الوسيط أو المتمم.

الهينوثية Henotheism: ـ التخصص في عبادة إله واحد دون إنكار وجود آلهة أخرى. وهذا الإله يحتر عملياً صفات ومهام الآلهة الأخرى فتصبح أقل قيمة منه وهو رئيسها كما حدث في بابل وآشور بالنسبة لعبادة مردوخ وآشور. واقتربت أكثر م التوحيد بالنسبة لملكي صادق كاهن «ايل عليون» ثم إبراهيم عابد «ايل شداي» ثم تبلورت أكثر في الدين الموسوي في عبادة «يهوه» دون إنكار الآلهة الأخرى كما نرى من نصوص التوراة فيكون فوق سوية باقي الآلهة وفي بعض الأحيان يعبد العبرانيون غيره. إلا أن «الوصايا العشر» في الهينوثية الموسوية تمثل منعطفاً هاماً في تاريخ الدين إذ تضع «دستوراً أخلاقياً» واضحاً إلى جانب العبادة الطقسية.

الـ مونوثية Monotheism: ـ هي الإيمان بإله واحد فقط وعبادته، فيقوم هذا الإله الواحد مقام كل الآلهة مجتمعة في البوليثية ويكون خالق كل شيء والمحرك الكامن وراء كل الظاهرات الطبيعية وفوق ذلك يمثل الكمال الأعلى في القدرة والأخلاق والخير. وهذا الاعتقاد جديد نسبياً إذا ما قيس بمجموع التاريخ الديني إذ يبدأ بالنبي عاموس نحو 750 ق.م الذي خرج عن القبلية التوراتية وأبرز فكرة الإله الواحد الشامل والغير مختص بشعب ما وتبعه أنبياء اسرائيليون كبار كأرميا وأشعيا واتجه الدين الموسوي نحو التوحيد وبعد ذلك ظهرت المسيحية ثم الإسلام كأديان موحدة.

ورغم التوحيد المطلق في الأديان الثلاث حسب الظاهر إلا أن هناك ثنائية تلتقي فيها مع الزرادشتية، فالله يمثل قوى الخير بينما الشيطان أو إبليس يمثل قوى الشر. والحرب متواصفة بين القوتين، كما هي الحال بالنسبة لـ «أهورامازدا» و«اهريمان».

لكن هذه الأديان بتداخلها مع الفلسفة اختلفت في تفصيلات علاقة الإنسان بالإله الخالق وبفهم التوحيد مع العلم أن الرواقية فلسفة موحدة دون أن تصبح أحد الأديان.

فالأبوة الإلهية للبشر برزت في تعابير كنعانية دون توحيد في اصطلاح «ايل أب آدم» الله أبو البشر. المسيحية قد كرست الأبوة الإلهية فالإنسان هو ابن الله وليس مجرد عبد له. لذا جاء في بداية الصلاة الربانية «أبانا الذي في السموات ليتقدس اسمك...» كذلك «أبي وأبيكم إلهي وإلهكم». والفلسفة الرواقية أيضاً عبّرت بوضوح عن الصلاح الإلهي والأبوة الإلهية. والإله الآب يريد خير كل البشر وصلاحهم جميعاً ولا يمكن أن يمثل بأي حال «قائداً عسكرياً» يقود جماعة المؤمنين ويمزق شمل الأعداء. (في الإسلام: الناس عيال الله). كذلك قضية التثليث قضية

فلسفية متوارثة لم تبدأ بالأديان السماوية بل هي موودة أيضاً في الميثولويات بما فيها ثلاثي براما وشيفا وفيشنو في الديانة الهندوسية.

لكن «الثالث المقدس» في المسيحية هو العقيدة بأن الله واحد في الجهور لكن في ثلاثة أقانيم «الآب» و«الابن» و«الروح المقدس». والعقيدة الكنسية بهذا الخصوص هي محاولة لتوحيد عدة أشال من وصف الله في عقيدة واحدة مع المحافظة على «التوحيد» فلا المسيح ولا التلاميذ جاؤوا بأي شيء يمس عقيدة التوحيد. وقد وضع الأقانيم الثلاثة من صيغة واحدة في انجيل متى 28 : 19 «فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والابن الروح القدس.»

وقد ورد هذا الثالوث المسيحي في القرآن ولكن في صيغة أخرى غير منسقة لأن المسيح عيسى ابن مريم ورسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه (أي القول بالولادة المعجزة للمسيح من روح الله) كما اء وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه «بروح القدس» لكن مهاجمة القرآن لمن اتخذوا من عيسى وأمه إلهين من دون الله فتتعلق بآية في إنجيل النصارى أي إنجيل متى الآرامي بالحرف العبراني الذي يقول «حملتني أمي الروح القدس بشعرة من رأسي..» أي يجعل الروح القدس أما للمسيح مع عبادة الروح القدس. وعند الساميين كانت هناك أسماء أي صفات لله ظهر منها 99 هي أسماء الله الحسنى. غير أن الرحمن الرحيم كانا إلهين منفصلين والله إله ثالث في الزيرة العربية قبل الإسلام وأصبح الثلاثة في صيغة «الله الرحمن الرحيم» في صيغة توحيدية صرف على أن الله واحد والرحمن من صفاته.

هوامش الفصل الثامن

سنكن يتن Sanchun lathon: ــ كاهن ومؤرخ بيروتي عاش في القرن 11 ق.م. ألّف تاب «الحوليات» عن المدن الفينيقية ولم يبق منه إلا بعض المقاطع. ما ألّف سنكن يتن كتاباً عن المعتقدات الدينية الكنعانية فيه أشعار ميثية. وقد ترجمها فيلو الجبيلي المولود نحو عام 42 م مضيفاً إلى الترجمة أشياء من التراث الاغريقي فخلط الأسماء الكنعانية بالأسماء الاغريقية مبيناً أن الميثولوجيا الاغريقية قد اقتبست إلى حد بعيد عن التراث الكنعاني. من المقارنة بين ايل «أبي السنين» وكرونوس عند الإغريق وعناة وأثينا وأشمون وأبوللو اسمونيوس..الخ. وأن أشمون إله الصحة والشفاء هو ثامن «الكبيريم» وابن «صادق» بن«بعل شمائيم» وأن الكبييرم سبعة وهذا الرقم مقدس لدى الكنعانيين والثامن هو أشمعون والثمانية ترمز إلى الكمال. ودخلت بعض قصص سنكن يتن في العهد القديم مثل دخول أبناء الآلهة على بنات الناس فولد لهم الجبابرة وبقيت أسماء بعضهم مرتبطة بأسماء أماكن سكناهم مثل قاسيون ولبنون وحرمون. كما تكلم عن بدء الخليقة وتحدر الآلهة.

ويظن أن سنكن يتن كان بالنسبة للعالم كاهناً فيلسوفاً وعالماً مثل موخوس السيدوني القرن 14 ق.م.الذي علم أن تركيب كل جسم هو من جزيئات أو ذرات صغيرة وحتى هذه الذرات قابلة للانشطار. وبقيت مدرسته في صيدون حتى القرن 6 ق.م.

هوامش الفصل التاسع

أحيقار الحكيم Ahiqar: ــ مستشار سنحريب ملك آشور (705 ــ 681 ق.م) ثم ابنه أسرحدون (680 ــ 668 ق.م). حباه الله حكمة مدهشة واكتسب ثروة طائلة في البلاط الآشوري. لكنه ظل بلا وريث رغم تعدد زوجاته وقد بلغ عددهن الستين. إذ ذاك تبنى ابن أخته «نادان» وهو بعد رضيع وأخذ يربيه ويبذل له النصح الكثير ليكون وريثاً صالحاً له. ولم يُصغِ نادان لنصح خاله وساء سيرته. فاسترداد أحيقار الميراث منه ومنحه

لأخيه الأصغر نبوذردان. فحقد عليه نادان وأراد الإيقاع به بمكيدة. فزور رسائل باسم خاله موجهة إلى فرعون مصر وغلى ملك الفرس قصد التواطؤ لقلب نظام الحكم الآشوري. ورتب الأمور لتقع الرسائل بيد ملك آشور. فحكم أسرحدون عليه بالموت بتهمة الخيانة العظمى غير أن أحيقار نجا من الموت لأن الجلاد كان صديقاً له فخبأه في حديقة بيته.

وطلب فرعون مصر من ملك آشور حكيماً يجيب على أسئلته وألغازه. فأسف الملك لقتل أحيقار فكانت مناسبة لظهوره واستعادة مركزه وذهب إلى مصر حسب القصة وأجاب عن أسئلة فرعون وعاد محملاً بالهدايا. وألقى القبض على نادان وربطه وأحيقار بسلاسل الحديد وألقاه في مكان مظلم من بيته وجعل طامعه الخبز والماء وكان يجلده جلداً مبرحاً قائلاً له «قيل بالأمثال من لا يسمع من أذنيه أسمعوه من قفاه.» ثم مرض نادان وانفجر ومات.

وقد ذكر اسم أحيقار في سف رطوبيا ويستدل أن أيزوب وتيوفراستوس وديموقريطوس كانوا على اطلاع على حكمه (كما ذكر في القرآن؟) وقد ذكر أحيقار في كتابات عبرية وسريانية وأرمنية وعربية.

و«حكمة أحيقار» هو مجموعتين من الأمثال والحكم الآشورية والبابلية كتب بالآرامية نحو عام 550 ق.م. يتخللها قصته كما أتينا عليها. واللغة الآرامية كانت واسعة الانتشار في بابل وآشور قبل الحكم الكلداني (612 ـ 539 ق.م.) حيث أصبحت لغة سائدة حلت محل أخواتها الساميات لذا فأقدم نص لهذه الأمثال آرامي كتب على البردي وفيه ذكر سنحريب وأسرحدون ونادان ونبوزردان الذي كان ضابطاً في جيش سنحريب. والنص الآرامي هو أصل جميع الترجمات التي ظهرت لقصة أحيقار وحكمه كالنص العربي والنص الأرمني والسلافي واليوناني والمخطوطات القديمة بالنص الآرامي موجود منها في خزانة كمبردج وبرلين والمتحف البريطاني ودير السيدة بالقرب من القوش وفي أرميا. وهي المجموعة الرابطة للأمثال زمنياً بعد الحكم المصرية وحكم ما بين النهرين وأمثال العهد القديم.

هوامش الفصل العاشر

مركيون (مرقيون Marcion): ـ كاتب مسيحي غنوصي القرن 2. عاصر يوستين الشهيد. ولد في سينوب في بنطس ويقال أن والده كان أسقف المدينة وكان مركيون على جانب من الثروة. حياته كيتنفها الغموض لأن جميع كتاباته قد أتلفت ولم يعرف عنه شيء إلا من خصومه أمثال ترتليان وابيفانيوس الذين هاجموه.

انتقل إلى روما نحو 137 م وهناك تعرف إلى سيردو وتأثر به وهو غنوصي. لكن مركيون ذاته لم يكن غنوصيا تماماً رغم إيمانه بالثنائية والدوكية (المشبهة) واعتبر أن بولس هو الرسول الحقيقي وأنه تلميذ بولس. لم يحرم الكتابات المقدسة اليهودية على أنها تختص بإله خالق أدنى من الإله المسيحي الصالح وكانت الكنيسة تستخدمها آنذاك فاستعاض عنها بانجيل يشبه انجيل لوقا مضافاً إليه رسائل بولس. ألف كتاب «الأضداد» مبرزاً المفارقة بين العهد القديم والعهد الجديد فكانت أول «هرطقة» أحدث بها أولى الكنائس المنفصلة، وتقوم على الإيمان بإلهين الإله الخالق وليس الصالح وإن لم يكن شريراص وهو الذي وصفه العهد القديم وإله المحبة الذي ظهر في المسيح وأن الخلاص هو بالإيمان بيسوع المسيح وإياه مصلوباً رغم أنه آمن بأن المسيح تألم ظاهراً فقط. انتشرت بدعته في روما وأنطاكية وباقي سوريا وبقيت آثارها حتى القرن 7 م. توفي نحو 155م. والمركيونية لم تكن مجرد بدعة أسست كنائس تنافس الكنائس الأورثوذكسية بل كانت مدرسة فكرية حركت الفكر والتساؤل في الكنيسة وأبرزت بولس. أن لاهوتها يرتكز على الاعتقاد بأن المسيحية عقيدة جديدة تماً. ولأن مركيون لم يمكنه أن يوفق بين الإله الذي ظهر في المسيح مع الإله الذي وصفه العهد القديم، أراد أن يفصم العلاقة التاريخية بين المسيحية واليهودية بل

علم أن المسيح قد جاء ليظهر الإله الحقيقي الذي لم يكن معروفاً من قبل، إله الطهارة ومحبة الذي فعل لأول مرة في العالم المادي بأن أرسل ابنه ليخلص العالم.

لم يرفض مركيون العهد القديم على أنه غير صحيح بل قال إنه وحي من نوع آخر، لأن إله اليهود أدنى وخالق للعالم المادي بما فيه الإنسان وحكم عن طريق الناموس والطاعة. لا يمثل الشر كما أنه لا يمثل الصلاح. وأن مسيح العهد القديم ليس ابن الله وأما يسوع المخلص فابن الله ينقذ العالم من الخطيئة ومن الإله الأدنى وعالمه المادي.

إن مركيون كان يحاول أن يوجد تفسيرا لبولس والتأكيد على تمييز بولس للروح عن الجسد. وأن ليس للمسيح طبيعة بشرية حقيقة ورغم ذلك يبرز أهمية الصلب ولاخلاص، أنه بولسي غنوصي دوكي في آن واحد. وقد أسس مركيون كنائس فيها معمودية وأفخارسنا وكتاب مقدس واتخذ من الأناجيل وانجيل لوقا وأضاف عشر رسائل من رسائل بولس مع حذف ما لا يتمشى مع عقيدته مع إضافة مقدمات لها. كما أوجد التفسير في كتاب الأضداد الذي تلف وعرف من كتاب ترتليان «ضد مركيون» لقد انتشرت الكنائس المركيونية في الامراطورية ثم اندثرت لكن الميل الواضح عند كثيرين من المسيحيين المعاصرين لأن يهملوا العهد القديم حتى وإن لم يكن بكليته هو شبيه باتجاه مركيون في التقليل من شأن العهد القديم أو إبرازه على حساب العهد الجديد الذي يعطي مفاهيم مختلفة تماماً. كما أن في الوقت الحاضر بدع معاكسة تحاول تهويد المسيحية بالتشديد على أهمية العهد القديم وكأنها عودة إلى النصرانية بدل المسيحية.

هوامش الفصل الحادي عشر

الختان (Circum Cision): ـــ هو قطع قلفة الصبي أي ذلك الجلد الذي يغطي رأس القضيب (Prepuce) ويسمى أيضاً الطهور أو التطهير وأصل ممارسة هذه العادة غير واضح لكنه قديم جداً.

في مصر القديمة كانت تجري العملية للأولاد بين 6 ــ 12 سنة. وعند الأحباش واليهود والمسلمين بعد بضعة أيام من الولادة. وبعض الشعوب تمارس الختان قبل سن البلوغ.

والذين يمارسون الختان كطقس ديني يكون له مغزاه العميق أي الانضمام إلى الجماعة الدينية واعتباره أحد أفراد الجماعة بعد الختان. وأقدم صورة للختان مصرية في صقارة وترقى إلى 2400 ق.م وتمثل رجلاً يقف وراء صبي ويمسكه بذراعيه بينما الكاهن يجري العملية لكن عدة مدونات تبين أن هذه العادة قد مورست في مصر قبل 4000 سنة ق.م، وأول ما كانت تجري على الكهنة ثم امتدت لتشمل المحاربين ثم النبلاء ثم العائلةالمالكة. ويقال أن بيثاغورس قد أجبر نحو عام 530 ق.م على الاختتان قبل أن يسمح له بالدراسة في معبد في مصر. كما لاحظ الجغرافي اليوناني سترابو في القرن 1 م وجود الختان عند الإناث في مصر. وكانت تجرى على النساء عند سن البلوغ لعدة قرون قبل أن يذكر سترابو ذلك.

عند اليهود يمثل الختان العهد بين الله وإبراهيم، هو أول أمر إلهي في الأسفار الخمسة. وهذا هو عهد الذي تحفظونه بيني وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختن منكم كل ذكر، فتختتنون في لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بيني وبينكم. ابن ثمانية أيام يختتن منكم كل ذكر في أجيالكم. (تكوين 17 : 10 ــ 12) وكان إبراهيم ابن 99 سنة (أي ربما 49 ــ 50 سنة) حين ختن في لحم غرلته وكان إسماعيل ابنه ابن 13 سنة وختن معه كل أهل بيته في نفس اليوم. ولما ولد اسحق ختنه إبراهيم في اليوم الثامن. فهل لم يمارس الختان فيما بين النهرين حتى تأخر إبراهيم لهذا السن وبعد وجوده في جنوب سوريا ثم مصر ثوم عودته إلى الجنوب السوري؟ أي أنه اقتبس العادة من مصر وليس هذا التقليد سامياً في الأصل؟

وبعد أن تعلم موسى السحر في سينا كعجائب يرميها لفرعون كما جاء في سفر الخروج الإصحاح الرابع «حدث في الطريق إلى المنزل أن الرب التقاه وطلب أن يقتله. فأخذت صفورة (زوجته) صوانة وقطعت غرلة ابنها وقالت أنك عريس دم لي. فانفك عنه. حينئذ قالت عريس دم من أجل الختان.» (رخوج 4 : 22 ـ 26).

وقد ختن المسيح في اليوم الثامن حسب الشرع اليهودي لأن جليل الأمم قد هود بالقوة أيام الملك المكابي أريستوبولس (103 ـ 105 ق.م) ويفترض أن التلاميذ قد ختنوا كذلك باعتبارهم من الجليليين المتهودين. وحاول قوم من اليهود المتنصرين وخاصة الذين كانوا من أصل فريسي وأرادوا فرض الناموس الموسوي المتعلق بالختان على المسيحيين من الأمم فعارض بطرس الرسول هذا وكان أول تحليل للمسيحيين من طقس الختان في سفر الأعمال الإصحاح 15. وبعد أن أسس بولس رسول الأمم كنيسة غلاطية بنجاح كبير وخرج من هناك دخل بعض اليهود المتنصرين (النصرى) إلى غلاطية وبشروا بالناموس الموسوي والختان وأن المسيحي الأممي لا يكون مسيحياً إن لم يحافظ على ناموس موسى (كان النصارى يمارسون الختان والمعمودية) واقتنع أهل غلاطية وأخذوا يختتنون، فأرسل بولس الرسالة إلى أهل غلاطية يبين أن لا علاقة للمسيحية بالختان، ولا للختان بالخلاص وإن كان الختان جزءاً من التراث الديني اليهودي. «فأثبتوا غذاً في الحرية التي قد حررنا المسيح بها ولا ترتبكوا أيضاً بنير عبودية. ها أنا بولس أقول لكم أنه إن اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئاً لكن أشهد أيضاً لكل إنسان مختتن أنه ملتزم أيضاً أن يعمل بكل الناموس.» (غلاطية 5 : 1 ـ 3). فهل مارسه العرب قبل الإسلام أم اقتبسه الإسلام امتداداً للنصرانية فقط فهذا غير واضح، إذ تابع النصارى قطس الختان رغم انتقالهم من اليهودية إلى المسيحية؟ لأنهم تقيدوا بالعهد القديم وشرائعه إلى جانب الإنجيل. ويقول الغزالي أن محمد اختتن أيضاً في اليوم الثامن ثم سمي محمد. كما يستدل أنه تعمد بماء زمزم أيضاً. وهناك آراء حول أصل الختان، فمن قائل أنه سفك دم الآلهة، أو أنه بديل عن الذبيحة أو أنه تضحية الجزء بدل الكل؟ أو أن الغرلة تمنع الخصب. والحقيقة أن الختان عملية نظافة وتمارس في عصرنا لأسباب صحية منها عدم تجمع الأوساخ والإفرازات الغددية تحت الغرلة كما هي معالجة لتضيق الغرلة. ومن المعروف أن سرطان رأس القضيب نادر الوجود عند المختتنين.

الفهرس

إهداء	1
الميثولوجيا	9
الهلال الخصيب	15
سبر الماضي	27
أساطير بابل وتطورات ا لمعتقدات الدينية في الشرق الأدنى	32
الإنسان وإلهه «لولو نماه دنجيره»	35
سأمجد رب الحكمة «لودلول بيل نمقي»	38
تنظيم العبادة في بابل	40
البانثيون السومري	48
البانثيون الآكادي	75
البانثيون الآشوري البابلي	76
البانثيون الكنعاني	86
البانثيون الآرامي	97
البانثيون العبراني	100
البانتيون العربي	109
ملحمة الخلق	148
«اينو ما ايليش»	148
ادبا وسقوط الانسان	171
إيتانا والنسر	176
تموز وعشتار	178
ملحمة جلجامش	195
بيرم وتسبين	266
قصة سرجون	269
الدودة وألم الأسنان	271
ملحمة كرت	272
ملحمة اقهت بن دانيل	287
ملحمة بعل	306
أدون النعمان	332
اوروبا	338

مأساة قدموس	342
الميثولوجيا العبرانية	345
قايين وهابيل	354
قصة الطوفان	358
برج بابل	362
سدوم وعمورة	365
عهود يهوه ومجازره	369
مزامير من كنعان	375
أيوب	379
من التلمود	386
سليمان وملكة سبأ	392
مملكة أكسوم	396
سليمان وماكيدا الأصل الحبشي لقصة سليمان وملكة سبأ	398
الميثولوجيا الغنوصية	402
التكشف الإلهي	419
مسطورات من الميثولوجيا العربية	422
قصة الخلق	424
العرب والأنساب	441
قصة أهل الكهف (النيام السبعة في أفسس)	462
الزهرة	467
المصادر	470
الهوامش	472

- ولد الدكتور وديع بشور في صافينا عام 1930.
- تخرج من كلية الطب في الجامعة الأمريكية في بيروت عام 1955.
- حصل على اختصاص في أمراض القلب من جامعة فيينا عام 1969.
- انتخب عضواً في أكاديمية العلوم في نيويورك عام 1983.
- عمل في قطاع الصحة في المشفى الوطني باللاذقية.
- حاضر في أمراض القلب وتاريخ الطب في جامعة تشرين باللاذقية.
- بدأ اهتمامه بدراسة التاريخ عام 1958 خلال تأديته لخدمة العلم ويتأثير الأحداث آنذاك.
- بدأ بالكتابة عام 1970.
- له العديد من المؤلفات طبع تسمة منها بالإضافة إلى ما هو تحت الطبع وما هو في طيات الدفاتر.

الميثولوجيا أو علم الأساطير هي أدب ودين وتاريخ دوّنها أدباء وحكماء العصور القديمة، وأصبحت جزءاً من التراث، لأن الفكر لا يفنى بل يدخل في المركبات الفكرية اللاحقة ، ويعبر عنه في التقاليد والعقائد والحكم الشمية المتوارثة دون أن يدري الإنسان المعاصر أنه يردد تقاليد وحقائد الأجداد مع جهله بجذورها التاريخية وأين ومتي بدأت.

وإذا كانت الثقافة جزء من الحضارة فإن الفكر الديني يكون جزء من ثقافة كل الشموب. وهنا أهمية دراسة الأساطير لا كخرافات بل كمقائد وضعها قدماء الحكماء والمفكرين خير المجتمع في قواعد التعامل بين الناس مع مزجها بالغيبيات.

وهذا الكتاب محاولة لتدوين ما أمكن من الأداب السورية القديمة مع محتواها الديني والاجتماعي ودراسا عناسره السبازية القدمي والأخلاقي والحكمي الذي أبدعته شعوب. نجلقة وبناخسان عليها الحسورمي وقبل إنشاء الدولة السورية. وهي أقدم من الشموجبا البرلائيب الشهيرة لكنها تأخرت في النشر. ويجدر بنا أن لا نكرر ترات الأجداد بل نفخر به!

د. وديع بشور

2007 /1 /20